الرافدين على الجلالين

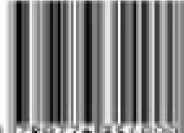
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨



الدار العلمية للنشر والتجليد

العالمية للثقافة الدولية

 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الثاني عشر




بسم الله الرحمن الرحيم

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢).

وَنَزَلَ فِي أَبِي جَهْل وَغَيْره {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا} بِالْكُفْرِ {فَأَحْيَيْنَاهُ} بِالْهُدَى {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاس} يَتَبَصَّر بِهِ الْحَقّ مِنْ غَيْره وَهُوَ الْإِيمَان {كَمَنْ مَثَله} مَثَل زَائِدَة أَيْ كَمَنْ هُوَ {فِي الظُّلُمَات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} وَهُوَ الْكَافِر لَا {كَذَلِكَ} كَمَا زَيَّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَان {زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} مِنْ الْكُفْر وَالْمَعَاصِي[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة؛ قال: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}: عمار بن ياسر، {كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ}: أبو جهل بن هشام.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ١٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٨١ رقم ٧٨٥٤) من طريقين عن ابن عيينة عن بشر بن تيم عن رجل عن عكرمة به. وهذا مرسل ضعيف الإسناد.

وعن زيد بن أسلم في قوله: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} الآية. فدعا رسول الله ﷺ فقال: "اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب". قال: وكانا ميتين في ضلالتهما، فأحيا الله عمر بالإسلام، وأعزه، وأقرّ أبا جهل في ضلالته وموته، قال: ففيهما أنزلت هذه الآية.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٨١ رقم ٧٨٥٣). وسنده واهٍ.

وعن الضحاك؛ قال في قوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا =

كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)}: عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ {كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}؛ قال: أبو جهل.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ١٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٨١ رقم ٧٨٥٢) من طريق أبي سنان عن الضحاك به. وهو منقطع، وفي السند إليه من لم نعرفه.

وأخرجه أبو الشيخ كما في "الدر المنثور" عن أبي سنان.

قال الإمام الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ١٧٨): "وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان؛ فقيل: عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتًا فأحياه الله وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وقيل: عمار بن ياسر. وأما الذي في الظلمات ليس بخارج منها؛ أبو جهل عمر بن هشام لعنه الله، والصحيح أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر".

* قوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)} [الأنعام: ١٢٢]

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا، أي: في الضلالة هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله.

أوَ من كان ميتًا في الضلالة هالكا حائرا، فأحيينا قلبه بالإيمان، وهديناه له، ووفقناه لاتباع رسله، فأصبح يعيش في أنوار الهداية، كمن مثله في الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص له مما هو فيه؟ لا يستويان، وكما خذلتُ هذا الكافر الذي يجادلكم -أيها المؤمنون- فزيَّنْتُ له سوء عمله، فرآه حسنًا، زيَّنْتُ للجاحدين أعمالهم السيئة؛ ليستوجبوا بذلك العذاب.

قوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام: ١٢٢]، أي: " أوَ من كان ميتًا في

=

الضلالة هالكا حائرا".

قال السدي: " يقول: من كان كافرًا فجعلناه مسلمًا".

قال قتادة: " هذا المؤمن معه من الله نور وبيِّنة يعمل بها ويأخذ، وإليها ينتهي، كتابَ الله".

قال الفراء: " أي: كان ضالا فهديناه".

قال الواحدي: أي: " ضالًا كافرًا فهديناه".

قال الزمخشري: أي: " مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به بين المحق والمبطل والمهتدى والضال، بمن كان ميتا فأحياه الله".

قال ابن كثير: " هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتا، أي: في الضلالة، هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله".

قال الطبري: "وهذا الكلام من الله جلّ ثناؤه يدل على نهيه المؤمنين برسوله يومئذ عن طاعة بعض المشركين الذين جادلوهم في أكل الميتة، بما ذكرنا عنهم من جدالهم إياهم به، وأمره إياهم بطاعة مؤمن منهم كان كافرًا، فهداه جلّ ثناؤه لرشده، ووفقه للإيمان. فقال لهم: أطاعة من كان ميتًا، يقول: من كان كافرًا؟ فجعله جل ثناؤه لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة «الميت» الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة، {أحييناه}، يقول: فهديناه للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضارّ نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سَخَط الله وعقابه في معاده".

وفي قوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ} [الأنعام: ١٢٢]، ثلاثة أقوال:

أحدها: كان ميتًا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح [فيه]، حكاه ابن بحر.

والثاني: كان ميتًا بالكفر فأحييناه بالهداية إلى الإيمان، وهذا معنى قول ابن عباس،

=

=

ومجاهد، والسدي.

والثالث: كان ميتًا بالجهل فأحييناه بالعمل، ذكره الماوردي، أنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة:

وَفِي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُوْرِ قُبُوْرُ

وإِنَّ أَمْرًا لَمْ يَحْيَ بِالْعِلْمِ مَيِّتٌ وَلَيْسَ لَهُ حِيْنَ النُّشُوْرِ نُشُوْرُ

قال الشوكاني: "فكثيرا ما تستعار (الحياة) للهداية وللعلم".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [الأنعام: ١٢٢]، أي: " فأحيينا قلبه بالإيمان، وهديناه له، ووفقناه لاتباع رسله، فأصبح يعيش في أنوار الهداية".

قال ابن كثير: " أي: يهتدي به كيف يسلك، وكيف يتصرف به".

قال الطبري: "فجعل إبصاره الحق تعالى ذكره بعد عَمَاه عنه، ومعرفته بوحدانيته وشرائع دينه بعد جهله بذلك، حياة وضياء يستضيء به فيمشي على قصد السبيل، ومنهج الطريق في الناس".

قال البيضاوي: " مثل به من هداه الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل".

قال ابن عباس: " يعني بالنور، القرآنَ، من صدَّق به وعمل به" ،" {يمشي به في الناس}، يقول: فهو الكافر يهديه الله للإسلام. يقول: كان مشركًا فهديناه".

عن أبي سنان الشيباني في قوله: "{وجعلنا له نورا يمشي به في الناس}، قال: يعمل به في الناس: قال: نزلت في عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [الأنعام: ١٢٢]، وجوه:

أحدها: انه القرآن. قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة.

والثاني: أنه الإسلام. قاله السدي، وابن زيد.

=

=

والثالث: انه الهدى يمشي به في الناس. وهذا قول ابن عباس أيضا، ومجاهد.

والرابع: يعني: إيمانه: قاله الفراء.

والخامس: انه العلم الذي يهدي إلى الرشد.

قال ابن كثير: " والنور هو: القرآن، كما رواه العَوْفي وابن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال السُّدِّي: الإسلام. والكل صحيح".

قوله تعالى: {كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢]، أي: " كمن مثله في الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص له مما هو فيه؟".

قال مجاهد: "في الضلالة أبدًا".

قال ابن عباس: " يعني: بالظلمات، الكفرَ والضلالة".

عن قتادة: " {كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها}، وهذا مثل الكافر في الضلالة، متحير فيها متسكع، لا يجد مخرجًا ولا منفذًا".

قال الطبري: "يقول: لا يدري كيف يتوجه، وأي طريق يأخذ، لشدة ظلمة الليل وإضلاله الطريق. فكذلك هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر، لا يبصر رشدًا ولا يعرف حقًّا، يعني: في ظلمات الكفر. يقول: أَفَطَاعة هذا الذي هديناه للحق وبصَّرناه الرشاد، كطاعة من مثله مثل من هو في الظلمات متردّد، لا يعرف المخرج منها، في دعاء هذا إلى تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل، وتحليل هذا ما حرم الله، وتحريمه ما أحلّ؟".

قال ابن كثير: " {الظُّلُمَاتِ}، أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، {لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} أي: لا يهتدي إلى منفذ، ولا مخلص مما هو فيه، وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»، كما قال تعالى: {اللهُ

=

=

وَلِيُّ الَّـذِينَ آمَنُـوا يُخْـرِجُهُمْ مِـنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَـى النُّـورِ وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا أَوْلِيَـاؤُهُمُ الطَّـاغُوتُ يُخْرِجُـونَهُمْ مِـنَ النُّـورِ إِلَـى الظُّلُمَـاتِ أُولَئِـكَ أَصْـحَابُ النَّـارِ هُـمْ فِيهَـا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥٧]. وكما قال تعالى: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْـدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا أَفَلا تَذَكَّرُونَ} [هود: ٢٤]، وقال تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي
الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْـتَ إِلا نَـذِيرٌ} [فـاطر: ١٩ – ٢٣]. والآيـات في هـذا كثيـرة، ووجـه المناسـبة في ضرب المثلين هاهنا بالنور والظلمات، ما تقدم في أول السورة: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: ١]".

وفي قوله تعالى: {كَمَـنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَـاتِ لَـيْسَ بِخَـارِجٍ مِنْهَـا} [الأنعـام: ١٢٢]، وجهان:

أحدهما: يعني: بـ {الظلمات}: الكفر والظلالة. قاله ابن عباس، وهـو معنـى قـول عمر بن عبدالعزيز، ومجاهد، قتادة، والسدي.

والثاني: الجهل، وشبهه بالظلمة لأن صاحبه في حيرة تفضي بـه إلـى الهلكـة كحيـرة الماشي في الظلمة. ذكره الماوردي.

قولـه تعـالى: {كَـذَلِكَ زُيِّـنَ لِلْكَـافِرِينَ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ} [الأنعـام: ١٢٢]، أي: " وكما خذلتُ هذا الكافر الذي يجادلكم -أيها المؤمنـون- فزيَّنْتُ لـه سـوء عملـه، فرآه حسنًا، زيَّنْتُ للجاحدين أعمالهم السيئة؛ ليستوجبوا بذلك العذاب".

قال الزجاج: "المعنى: مثل ذلك الذي قصصنا عليك زين للكافرين عملهم".

قال ابن كثيـر: " أي: حسّنا لهـم مـا هـم فيـه مـن الجهالـة والـضلالة، قـدرا مـن الله

=

=

وحكمة بالغة، لا إله إلا هو ولا رب سواه".

قال ابن الجوزي: "أي: كما بقي هذا في ظلماته لا يتخلص منها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: كما خذلت هذا الكافر الذي يجادلكم = أيها المؤمنون بالله ورسوله، في أكل ما حرّمت عليكم من المطاعم عن الحق، فزينت له سوءَ عمله فرآه حسنًا، ليستحق به ما أعددت له من أليم العقاب، كذلك زيَّنت لغيره ممن كان على مثل ما هو عليه من الكفر بالله وآياته، ما كانوا يعملون من معاصي الله، ليستوجبوا بذلك من فعلهم، ما لهم عند ربهم من النَّكال، وفي هذا أوضح البيان على تكذيب الله الزاعمين أن الله فوَّض الأمور إلى خلقه في أعمالهم، فلا صنع له في أفعالهم، وأنه قد سوَّى بين جميعهم في الأسباب التي بها يصلون إلى الطاعة والمعصية. لأن ذلك لو كان كما قالوا، لكان قد زَيَّن لأنبيائه وأوليائه من الضلالة والكفر، نظيرَ ما زيَّن من ذلك لأعدائه وأهل الكفر به، وزيّن لأهل الكفر به من الإيمان به، نظيرَ الذي زيّن منه لأنبيائه وأوليائه. وفي إخباره جل ثناؤه أنه زين لكل عامل منهم عمله، ما ينبئ عن تزيين الكفر والفسوق والعصيان، وخصّ أعداءه وأهل الكفر، بتزيين الكفر لهم والفسوق والعصيان، وكرّه إليهم الإيمان به والطاعة".

واختلفوا في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها على العموم في كل مؤمن وكافر، قاله الحسن، وغيره من أهل العلم.

قال الزجاج: "ويجوز أن تكون هذه الآية عامة لكل من هداه الله ولكل من أضله الله. فأعلم الله جل وعز أن مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي وجعل مستضيئا يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان، ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات لا يتخلص منها".

=

والثاني: أنها على الخصوص في مُعَيَّن.
وفيمن تعين نزول ذلك فيه ثلاثة أقوال:
أحدها: أن المؤمن عمر بن الخطاب، والكافر أبو جهل، قاله الضحاك، وزيد بن أسلم، وأبو سنان الشيباني.
والثاني: أن المؤمن عمار بن ياسر، والكافر أبو جهل، قاله عكرمة، والكلبي.
والثالث: ان المؤمن هو النبي -ﷺ-، والمشرك هو أبو جهل. وهذا قول مقاتل.
قال الزجاج: "جاء في التفسير أنه يعني به النبي ﷺ وأبو جهل بن هشام فالنبي ﷺ هدي وأعطي نور الإسلام والنبوة والحكمة، وأبو جهل في ظلمات الكفر".
قال ابن كثير: " وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، فقيل: عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتًا فأحياه الله، وجعل له نورًا يمشي به في الناس. وقيل: عمار بن ياسر. وأما الذي في الظلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام، لعنه الله. والصحيح أن الآية عامة، يدخل فيها كل مؤمن وكافر".
قال الزجاج: "ويجوز أن تكون هذه الآية عامة لكل من هداه الله ولكل من أضله الله. فأعلم الله جل وعز أن مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي وجعل مستضيئا يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان، ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات لا يتخلص منها".
قال السعدي: قول تعالى (أَوَمَنْ كَانَ) من قبل هداية الله له (مَيْتًا) في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي، (فَأَحْيَيْنَاهُ) بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرا في أموره، مهتديا لسبيله، عارفا للخير مؤثرا له، مجتهدا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفا بالشر مبغضا له، مجتهدا فيتركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي (لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك،

=

فحضرها لهم والغم والحزن والشقاء. فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

قال الشوكاني: المراد بالميت هنا الكافر، أحياه الله بالإسلام، وقيل معناه: كان ميتًا حين كان نطفة، فأحييناه بنفخ الروح فيه، والأوّل أولى، لأن السياق يشعر بذلك لكونه في تنفير المسلمين عن اتباع المشركين، وكثيرًا ما تستعار الحياة للهداية وللعلم، ومنه قول القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحيي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور

والنور: عبارة عن الهداية والإيمان ، وقيل هو القرآن ، وقيل الحكمة. (فتح القدير).

- **قال ابن كثير**: والنور هو: القرآن، كما رواه العَوْفي وابن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال السُّدِّي: الإسلام. والكل صحيح.

قال الرازي: اختلفوا في هذين المثلين المذكورين هل هما مخصوصان بإنسانين معينين أو عامان في كل مؤمن وكافر.

فيه قولان: الأول: أنه خاص بإنسانين على التعيين.

والقول الثاني: أن هذه الآية عامة في حق جميع المؤمنين والكافرين ، وهذا هو الحق ، لأن المعنى إذا كان حاصلًا في الكل ، كان التخصيص محض التحكم.

قال الرازي: قال أهل المعاني: قد وصف الكفار بأنهم أموات في قوله (أموات غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) وأيضًا في قوله (لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا) وفي قوله (إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى) وفي قوله (وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير..وَمَا يَسْتَوِى الأحياء وَلاَ الأموات) فلما جعل الكفر موتًا والكافر ميتًا ، جعل الهدى حياة والمهتدي حيًا.

=

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣).

{وكذلك} كما جعلنا فساق مكة اكابرهم {جَعَلْنَا فِي كُلّ قَرْيَة أَكَابِر مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا} بِالصَّدِّ عَنْ الْإِيمَان {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ} لِأَنَّ وَبَاله عَلَيْهِمْ {وَمَا يَشْعُرُونَ} بِذَلِكَ[1].

=

قال ابن عاشور: ولقد جاء التّشبيه بديعًا: إذ جعل حال المسلم، بعد أن صار إلى الإسلام، بحال من كان عديم الخير، عديم الإفادة كالميّت، فإنّ الشرك يحول دون التّمييز بين الحقّ والباطل، ويصرف صاحبه عن السّعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف، فإذا هداه الله إلى الإسلام تغيّر حاله فصار يميّز بين الحقّ والباطل، ويعلم الصّالح من الفاسد، فصار كالحي وصار يسعى إلى ما فيه الصّلاح، ويتنكّب عن سبيل الفساد، فصار في نور يمشي به في النّاس.

وقد تبيّن بهذا التّمثيل تفضيل أهل استقامة العقول على أضدادِهم.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة: نزلت في المستهزئين.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ١٩) من طريق سنيد صاحب "التفسير" ثنا حجاج عن ابن جريج عن عكرمة. وسنده ضعيف؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. والثانية: ابن جريج لم يسمع من عكرمة. والثالثة: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف.

* قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا} [الأنعام: ١٢٣].

=

=

أي: وكما جعلنا في قريتك -يا محمد -أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يُبْتَلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة.

قال الزجاج: "أي: ومثل ذلك (جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها)، لأن الأكابر ما هم فيه من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر، والدليل على ذلك قوله: {وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ} [الشورى: ٢٧]، وقوله: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ} [الزخرف: ٣٣]".

قال الطبري: " وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكل قرية عظماءَها مجرميها، يعني: أهل الشرك بالله والمعصية له {ليمكروا فيها}، بغرور من القول أو بباطل من الفعل، بدين الله وأنبيائه".

قال ابن كثير: " يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك - يا محمد - أكابر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يُبْتَلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان: ٣١]، وقال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: ١٦]، قيل: معناه: أمرناهم بالطاعات، فخالفوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمرا قدريا، كما قال هاهنا: {لِيَمْكُرُوا فِيهَا}".

قال ابن الجوزي: " أي: وكما زينا للكافرين عملهم، فكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها، وقيل معناه: وكما جعلنا فساق مكة أكابرها، فكذلك جعلنا فساق كل قرية أكابرها، وإنما جعل الأكابر فساق كل قرية، لأنهم أقرب إلى الكفر بما

=

=

أعطوا من الرياسة والسعة".

قال سفيان: " كل «مكر» في القرآن فهو عمل".

و «الأكابر»: جمع «أكبر»، كما «الأفاضل» جمع «أفضل»، وحكي عن العرب سماعًا: الأكابرة، و الأصاغرة، والأكابر، والأصاغر، بغير «الهاء»، على نية النعت، كما يقال: هو أفضل منك، وكذلك تفعل العرب بما جاء من النعوت على وزن «أفعل»، إذا أخرجوها إلى الأسماء، مثل جمعهم: الأحمر، والأسود: الأحامر والأحامرة، والأساود والأساودة، ومنه قول الأعشى:

إنَّ الأحَامِرَة الثَّلاثَةَ أَهْلَكَتْ مَالِي، وكُنْتُ بِهِنّ قِدْمًا مُولَعًا

الخَمْرُ واللَّحْمُ السِّمِينُ إدَامُهُ والزَّعْفَرَانُ، فَلَنْ أرُوحَ مُبَقَّعَا

وأما «المكر»: فإنه الخديعة والاحتيال للممكور به بالغدر، ليورِّطه الماكر به مكروهًا من الأمر.

وفي قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا} [الأنعام: ١٢٣]، وجوه:

أحدها: معناه: سَلَّطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وهذا قول ابن عباس.

والثاني: أن {أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا} عظماؤها. قاله مجاهد، وقتادة.

قال ابن كثير: " وهذا كقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٣]، والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كما قال تعالى إخبارًا عن قوم نوح: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} [نوح: ٢٢]، وقال تعالى: {وَلَوْ

=

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ

=

تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا [وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣١ - ٣٣]".

قال ابن عاشور: وتعليق الأمر بِخُصوص المترفين مع أنَّ الرُّسل يُخاطِبون جميع الناس؛ لأنَّ عصيانَهم الأمرَ الموجَّه إليهم هو سبب فسقِهم، وفسق بقيَّة قومهم؛ إذْ هم قادة العامَّة، وزعماء الكُفر، فالخِطاب في الأكثر يتوجَّه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتَّبعهم الدَّهماء؛ فعمَّ الفسق أو غلب على القرية، فاستحقَّت الهلاك.

قوله تعالى: {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام: ١٢٣]، أي: " وما يكيدون إلا أنفسهم، وما يُحِسُّون بذلك".

قال الطبري: " أي: ما يحيق مكرهم ذلك، إلا بأنفسهم، لأن الله تعالى ذكره من وراء عقوبتهم على صدّهم عن سبيله، {وهم لا يشعرون}، يقول: لا يدرون ما قد أعدّ الله لهم من أليم عذابه، فهم في غيِّهم وعتوِّهم على الله يتمادَوْن".

قال البيضاوي: " لأن وباله: يحيق بهم، وما يشعرون ذلك".

قال ابن كثير: " أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم، كم قال تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ} [العنكبوت: ١٣]، وقال {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [النحل: ٢٥]".

قال الزجاج: "أي: ذلك المكر يحيق بهم، لأنهم بمكرهم يعذبون".

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤).

{وَإِذَا جَاءَتْهُمْ} أَيْ أَهْل مَكَّة {آيَة} عَلَى صِدْق النَّبِيّ ﷺ {قَالُوا لَنْ نُؤْمِن} بِهِ {حَتَّى نُؤْتَى مِثْل مَا أُوتِيَ رُسُل الله} مِنْ الرِّسَالَة وَالْوَحْي إلَيْنَا لأنا أكثر مالا وأكبر سنا قال تعالى {الله أعلم حيث يجعل رسالاته} بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَاد وَحَيْثُ مَفْعُول بِهِ لِفِعْلٍ دَلَّ عَلَيْهِ أَعْلَم أَيْ يَعْلَم الْمَوْضِع الصَّالِح لِوَضْعِهَا فِيهِ فَيَضَعهَا وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا أَهْلًا لَهَا {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا} بِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ {صَغَار} ذُلّ {عِنْد الله وَعَذَاب شَدِيد بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ} أَيْ بسبب مكرهم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن جريج: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ} وذلك أنهم قالوا لمحمد ﷺ -حيث دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق-: لو كان هذا حقًا لكان فينا من هو أحق -أن يأتي- به من محمد {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)} [الزخرف: ٣١].

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣٥٣) ونسبه لابن المنذر وأبي الشيخ. وهو منقطع.

* قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ} [الأنعام: ١٢٤]، أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة على صدق محمد ﷺ (قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ) أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله، جل وعلا (وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وإذا جاءت هؤلاء المشركين الذين يجادلون =

=

المؤمنين بزخرف القول فيما حرم الله عليهم، ليصدّوا عن سبيل الله حجة من الله على صحة ما جاءهم به محمد من عند الله وحقيقته، قالوا لنبي الله وأصحابه: لن نصدق بما دعانا إليه محمد ﷺ من الإيمان به، وبما جاء به من تحريم ما ذكر أنّ الله حرّمه علينا حتى يعطيهم الله من المعجزات مثل الذي أعطى موسى من فلق البحر، وعيسى من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص".

قال القرطبي: "قوله تعالى (وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ) بيّن شيئًا آخر من جهلهم ، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء ، فنؤتَى مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات؛ ونظيره (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امراء مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً).

والكناية في "جاءتهم" ترجع إلى الأكابر الذين جرى ذكرهم.

قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوّة حقًّا لكنت أوْلَى بها منك؛ لأني أكبر منك سِنًّا ، وأكثر منك مالًا.

وقال أبو جهل: والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدًا ، إلا أن يأتينا وَحْيٌ كما يأتيه؛ فنزلت الآية.

وقيل: لم يطلبوا النبوّة ولكن قالوا لا نصدّقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك.

والأوّل أصح؛ لأن الله تعالى قال (الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) أي بمن هو مأمون عليها وموضع لها".

قال ابن كثير: " أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، قالوا: {لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ}، أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله، جل وعلا {وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا} [الفرقان: ٢١]".

=

قال الزمخشري: "وهذه تسلية لرسول الله ﷺ وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روى أن الوليد بن المغيرة قال: «لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك، لأنى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا».

وروى أن أبا جهل قال: «زاحمنا بنى عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبى يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه، فنزلت». ونحوها قوله تعالى: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً} [المدثر: ٥٢]".

قوله تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤].

أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّك) يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم (مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ) أي: مكة والطائف. وذلك لأنهم -قبحهم الله -كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغيًا وحسدًا ، وعنادًا واستكبارًا ، كما قال تعالى مخبراً عنهم (وَإِذَا رَأَيكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ) ، وقال تعالى (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولا) ، وقال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه. وطهارة بيته ومرباه ومنشئه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه (الأمين) ، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان" حين سأله (هرقل) ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا الحديث بطوله الذي استدل به ملك الروم بطهارة صفاته، عليه السلام، على صدقه ونبوته وصحة

=

ما جاء به.

قال الزمخشري: "الله أعلم كلام مستأنف للإنكار عليهم، وأن لا يصطفى للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه منهم".

قال الطبري: "يعني بذلك جل ثناؤه: أن آيات الأنبياء والرسل لن يُعطاها من البشر إلا رسول مرسل، وليس العادلون بربهم الأوثان والأصنام منهم فيعطوها. يقول جل ثناؤه: فأنا أعلم بمواضع رسالاتي، ومن هو لها أهل، فليس لكم أيها المشركون أن تتخيَّروا ذلك عليّ أنتم، لأن تخيُّر الرسول إلى المرسِل دون المرسَل إليه، والله أعلم إذا أرسل رسالةً بموضع رسالاته".

قال الزجاج: "أي: هو أعلم بمن يختص للرسالة. وقال بعضهم: لا يبلغ في تصديق الرسل إلا أن يكونوا قبل مبعثهم مطاعين في قومهم، لأن الطعن كان يتسع عليهم، ويقال إنما كانوا أكابر ورؤساء فاتبعوا".

قال ابن كثير: " أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلا نزلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّك} الآية [الزخرف: ٣١، ٣٢] يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم {مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ} أي: مكة والطائف. وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغيًا وحسدًا، وعنادًا واستكبارًا، كما قال تعالى مخبرًا عنهم: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا} [الفرقان: ٤١]، وقال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام: ١٠]. هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه. وطهارة بيته

=

=

ومرباه ومنشئه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: "الأمين"، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار "أبو سفيان" حين سأله "هرقل" ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا الحديث بطوله الذي استدل به ملك الروم بطهارة صفاته، عليه السلام، على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به".

عن واثلة بن الأسقع، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم".

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "بُعِثت من خير قُرون بني آدم قَرْنًا فقرنًا، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه".

عن المطلب بن أبي وداعة قال: قال العباس: بلغه ﷺ بعضُ ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: "من أنا؟". قالوا: أنت رسول الله. قال: "أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة. وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتًا، فأنا خيركم بيتًا وخيركم نفسا".

قال ابن كثير: "صدق صلوات الله وسلامه عليه".

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: "إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ".

وعن ابن أبي حسين قال: "أبصر رجل ابن عباس وهو يدخل من باب المسجد

=

=

فلما نظر إليه راعه، فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ. قال: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}".

قرأ ابن كثير وحفص «رسالته»، على التوحيد، وقرأ الآخرون: «رسالاته» بالجمع.

قوله تعالى: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ} [الأنعام: ١٢٤].

هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله (صَغَارٌ) وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلا كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، معلِّمَه ما هو صانع بهؤلاء المتمردين عليه: {سيصيب}، يا محمد، الذين اكتسبوا الإثم بشركهم بالله وعبادتهم غيره، ذلة وهوان".

قال الزجاج: "أي: هم وإن كانوا أكابر في الدنيا {سيصيبهم صغار عند الله}، أي: مذلة".

قال السدي: " «الصغار»: الذلة".

قال ابن كثير: " هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله {صَغَارٌ} وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلا كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين ذليلين حقيرين".

وفي قوله تعالى: {عِنْدَ اللهِ} [الأنعام: ١٢٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها: من عند الله، فحذف «من» إيجازًا. وهذا قول الطبري، وذكره الماوردي.

الثاني: أن أنفتهم من اتباع الحق صَغَار عند الله وذل إن كان عندهم تكبراً وعزًا، قاله

=

=

الفراء.

الثالث: صَغَار في الآخرة، قاله الزجاج.

قال الطبري: "قوله: {صغار عند الله}، فإن معناه: سيصيبهم صغارٌ من عند الله، كقول القائل: سيأتيني رزقي عند الله، بمعنى: من عند الله، يراد بذلك: سيأتيني الذي لي عند الله. وغير جائز لمن قال: {سيصيبهم صغار عند الله}، أن يقول: {جئت عند عبد الله}، بمعنى: جئت من عند عبد الله، لأن معنى: {سيصيبهم صغارٌ عند الله}، سيصيبهم الذي عند الله من الذل، بتكذيبهم رسوله. فليس ذلك بنظير: جئت من عند عبد الله".

قوله تعالى: {وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ} [الأنعام: ١٢٤]، أي: " ولهم عذاب موجع في نار جهنم بسبب كيدهم للإسلام وأهله".

قال الطبري: "يقول: يصيب هؤلاء المكذبين بالله ورسوله، المستحلين ما حرَّم الله عليهم من الميتة، مع الصغار عذابٌ شديد، بما كانوا يكيدون للإسلام وأهله بالجدال بالباطل، والزخرف من القول، غرورًا لأهل دين الله وطاعته".

عن ابن عباس، قوله: "{عذاب}، قال: نكال".

قال ابن كثير: " لما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقا، {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [الطارق: ٩] أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر.

وجاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنْصَب لكل غادر لواء عند اسُتِه يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرة فلان ابن فلان».

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خَفِيًّا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير عَلَمًا منشورًا على صاحبه بما فعل".

=

فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥).

{فَمَنْ يُرِدْ الله أَنْ يَهْدِيه يَشْرَح صَدْره لِلْإِسْلَامِ} بِأَنْ يَقْذِف فِي قَلْبه نُورًا فَيَنْفَسِح لَهُ وَيَقْبَلهُ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيث {وَمَنْ يُرِدْ} الله {أَنْ يُضِلّهُ يَجْعَل صَدْره ضَيِّقًا} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد عَنْ قَبُوله {حَرَجًا} شَدِيد الضِّيق بِكَسْرِ الرَّاء صِفَة وَفَتْحهَا مَصْدَر وَصَفَ فِيهِ مُبَالَغَة {كَأَنَّمَا يَصَّعَّد} وَفِي قِرَاءَة يَصَّاعَد وَفِيهِمَا إدْغَام التَّاء فِي الْأَصْل فِي الصَّاد وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا {فِي السَّمَاء} إذَا كُلِّفَ الْإِيمَان لِشِدَّتِهِ عَلَيْهِ {كَذَلِكَ} الْجَعْل {يَجْعَل الله الرِّجْس} العذاب أو الشيطان أي يسلطه {على الذين لا يؤمنون}[1].

=

قال ابن عاشور: والصّغَار بفتح الصّاد الذلّ، وهو مشتقّ من الصِّغَر، وهو القماءة ونقصان الشيء عن مقدار أمثاله.

وقد جعل الله عقابهم ذلاًّ وعذابًا: ليناسب كِبْرهم وعُتُوّهم وعصيانهم الله تعالى.

والصّغار والعذاب يحصلان لهم في الدّنيا بالهزيمة وزوال السّيادة وعذاب القتل والأسر والخوف.

(١) قوله تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ} [الأنعام: ١٢٥]، أي: " فمن يشأ الله أن يوفقه لقَبول الحق يشرح صدره للتوحيد والإيمان، فييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامة على الخير".

قال الطبري: " فمن يرد الله أن يهديه للإيمان به وبرسوله وما جاء به من عند ربه، فيوفقه له، {يشرح صدره للإسلام}، يقول: فسح صدره لذلك وهوَّنه عليه، وسهَّله له، بلطفه ومعونته، حتى يستنير الإسلام في قلبه، فيضيء له، ويتسع له

=

صدره بالقبول، كالذي جاء الأثر به عن رسول الله ﷺ".

قال ابن كثير: " أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامة على الخير، كقوله تعالى: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: {وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [الحجرات: ٧]".

قال أبو السعود: "أي: يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان، {يشرح صدره للإسلام} فيتسع له وينفتح وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيئة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه".

قال السدي: " أما {يشرح صدره للإسلام}، فيوسع صدره للإسلام".

عن ابن جريج قوله: "{فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}، بـ«لا إله إلا الله»". وفي رواية أخرى: " يجعل لها في صدره متَّسعًا".

عن عبد الله بن مرة، عن أبي جعفر قال: "لما نزلت هذه الآية: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}، قالوا: كيف يشرح الصدر؟ قال: إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح. قالوا: فهل لذلك آية يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الفوت".

عن عبد الله بن مسعود قال: "قيل لرسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}، قال: إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح. قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتنحِّي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت".

وقال ابن عباس: "{فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ} يقول: يوسع

=

قلبه للتوحيد والإيمان به". وروي عن أبي مالك نحو ذلك.

قال ابن كثير: "وكذا قال أبو مالك، وغير واحد. وهو ظاهر".

قال ابن القيم في زاد المعاد: أعظم أسباب شرح الصدر: التوحيدُ وعلى حسب كماله ، وقوته ، وزيادته يكونُ انشراحُ صدر صاحبه.

قال الله تعالى (أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّه).

وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ)

فالهُدى والتوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرح الصدر ، والشِّركُ والضَّلال مِن أعظم أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ وانحراجِه.

ومنها: النورُ الذى يقذِفُه الله فى قلب العبد ، وهو نورُ الإيمان ، فإنه يشرَحُ الصدر ويُوسِّعه ، ويُفْرِحُ القلبَ. فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد ، ضاقَ وحَرِجَ ، وصار فى أضيق سجنٍ وأصعبه.

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ، ومحبتُه بكلِّ القلب ، والإقبالُ عليه ، والتنعُّم بعبادته ، فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك. حتى إنه ليقولُ أحيانًا: إن كنتُ فى الجنة فى مثل هذه الحالة ، فإنى إذًا فى عيش طيب.

ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصدر: الإعراضُ عن الله تعالى ، وتعلُّقُ القلب بغيره ، والغفلةُ عن ذِكره ، ومحبةُ سواه ، فإن مَن أحبَّ شيئًا غيرَ الله عُذِّبَ به ، وسُجِنَ قلبُه فى محبة ذلك الغير ، فما فى الأرض أشقى منه ، ولا أكسف بالًا ، ولا أنكد عيشًا.

ومن أسباب شرح الصدر: دوامُ ذِكره على كُلِّ حال، وفى كُلِّ موطن، فللذِكْر تأثير عجيب فى انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيب فى ضِيقه وحبسه وعذابه.

=

=

ومنها: الإحسانُ إلى الخَلْق ونفعُهم بما يمكنه من المال، والجاهِ، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدرًا، وأطيبُهم نفسًا، وأنعمُهم قلبًا، والبخيلُ الذى ليس فيه إحسان أضيقُ الناسِ.

ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متَّسِعُ القلب، والجبانُ: أضيق الناس صدرًا، وأحصرُهم قلبًا، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذَّة له، ولا نعيم إلا منْ جنس ما للحيوان البهيمى.

ومنها: تركُ فضولِ النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطةِ، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضولَ تستحيلُ آلامًا وغمومًا، وهمومًا فى القلب، تحصُرُه، وتحبِسه، وتضيِّقهُ، ويتعذَّبُ بها، بل غالِبُ عذابِ الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا اللهُ ما أضيقُ صدَر مَن ضرب فى كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم، وما أنكَدَ عيشَه، وما أسوأ حاله، وما أشدَّ حصرَ قلبه.

قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} [الأنعام: ١٢٥]، أي: " ومن يشأ أن يضله يجعل صدره في حال شديدة من الانقباض عن قَبول الهدى".

قال الطبري: يقول: " ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى، يَشغله بكفره وصدِّه عن سبيله، ويجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه، حرجًا".

قال ابن عباس: " يقول: من أراد الله أن يضله يضيق عليه صدره حتى يجعل الإسلام عليه ضيقًا، والإسلام واسع. وذلك حين يقول: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [سورة الحج:٧٨]، يقول: ما جعلعليكم في الإسلام من ضيق".

و «الحرج»: " أشد الضيق، وهو الذي لا ينفذه، من شدة ضيقه، وهو ههنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة، ولا يدخله نور الإيمان، لريْن الشرك عليه. وأصله من: الحرج، والحرج جمع «حَرَجة»، وهي: الشجرة الملتف بها الأشجار، لا يدخل بينها وبينها شيء لشدة التفافها بها".

=

=

قال الخليل: "و «الحَرَجَةُ» من الشَجَر: الملتَفّ قَدْر رَمْية حَجَر، وجَمْعُها حِراج، قال:

ظلَّ وظلَّتْ كالحِراج قُبُلا وظلَّ راعيها بأخرى مبتلى "

عن أبي الصلت الثقفي: "أن عمر بن الخطاب رحمة الله عليه قرأ هذه الآية: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} بنصب «الراء». قال: وقرأ بعض مَنْ عنده من أصحاب رسول الله ﷺ: {ضَيِّقًا حَرِجًا}. قال صفوان: فقال عمر: ابغوني رجلا من كنانة واجعلوه راعيًا، وليكن مُدْلجيًّا.قال: فأتوه به. فقال له عمر: يا فتى، ما الحرجة؟ قال: «الحرجة» فينا، الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعيةٌ ولا وحشيَّة ولا شيء. قال: فقال عمر: كذلك قلبُ المنافق لا يصل إليه شيء من الخير".

قال ابن قتيبة: " «الحرج»: أصله: «الضيق»، ومن «الضيق»: الشك، كقول الله تعالى: {فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ} [الأعراف: ٢]، أي: شك، لأنّ الشّاكّ في الشيء يضيق صدرا به.

ومن «الحرج»: الإثم، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ} [النور: ٦١]، أي: إثم، {وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ} [التوبة: ٩١]، أي: إثم.

وأما «الضيق» بعينه، فقوله: {وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨]، أي: ضيق. {ويَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا} [الأنعام: ١٢٥] و «حرجا». ومنه: «الحرجة»، وهي: الشجر الملتفّ".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {حَرَجًا} [الأنعام: ١٢٥]، على أقوال:

أحدها: معناه شاكّا. قاله مجاهد، والسدي.

=

=

قال أبو عُبيد القاسم بن سلاّم البغدادي: " يعني: شاكا بلغة قريش".

والثاني: معناه: ملتبسًا. قاله قتادة.

والثالث: معناه: أنه من شدة الضيق لا يصل إليه الإيمان. وهذا معنى قول سعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، وابن جريج.

قرأ ابن كثير وحده: «ضيقا» خفيفا، وقرأ الباقون: «ضيقا» بتشديد الياء، وقرأ بعض المكيين «ضَيْقًا»، بفتح الضاد وتسكين الياء، وتخفيفه.

وقد يتجه لتسكينه ذلك وجهان:

أحدهما: أن يكون سكنه وهو ينوي معنى التحريك والتشديد، كما قيل: «هَيْنٌ لَيْنٌ»، بمعنى: هيِّنٌ ليِّنٌ.

والثاني: أن يكون سكنه بنية المصدر، من قولهم: «ضاق هذا الأمر يضيق ضَيْقًا»، ومنه قول الله تعالى: {وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} النحل: ١٢٧]، بمعنى: ضيّق.

ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

قَدْ عَلِمْنَا عِنْدَ كُلِّ مَأْزِقِ ... ضَيْقٍ بِوَجْهِ الأَمْرِ أَوْ مُضَيِّقِ

وقال رؤبة أيضًا:

وأهيج الخلصاء من ذَات الْبَرْق ... وَشَفَّها اللَّوحُ بِمَأْزُولٍ ضَيَقْ

يريد: ضَيْقًا، فحرّك.

وحكي عن الكسائي أنه كان يقول: " «الضيِّقُ»، بالكسر: في المعاش والموضع، وفي الأمر «الضَّيْق»".

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائى: «حرجا» مفتوحة الراء، وقرأ نافع وعاصم فى رواية أبى بكر: «حرجا» مكسورة الراء، وروى حفص عن عاصم: «حرجا» مثل أبى عمرو.

=

=

و «الحرج» بفتح الراء وكسرها، بمعنى واحد، وقيل: بالكسر معناه: «الإثم»، يقال: فلان آثِمٌ حَرِجٌ، وذكر عن العرب سماعًا منها: حَرِجٌ عليك ظُلمي، بمعنى: ضِيقٌ وإثْم.

قال الخليل: " الحَرَجُ: المَأْثم. والحارِجُ: الآثِم، قال:

يا ليتَني قد زُرْتُ غيرَ حارِجِ

ورجُلٌ حَرِج وحَرَج، كما تقول: دَنِف ودَنَف: في معنى: الضَّيِّق الصَدْر، قال الراجز:

لا حَرِجُ الصَدّرِ، ولا عنيفُ

ويقرأ: «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» و «حَرِجًا». وقد حَرِجَ صدرهُ: أيْ: ضاق ولا ينشَرِحُ لخَير، ورجلٌ مُتَحَرِّج: كافٌّ عن الإثم، وتقول: أَحرَجَني إلى كذا: أيْ: ألجَأني فخرِجْتُ إليه، أي: انضَمَمْتُ إليه، قال الشاعر:

تَزدادُ للعَيْن إبهاجًا إذا سَفَرتْ وتَحْرَجُ العَيْن فيها حين تَنْتَقِبُ"

قال الطبري: " والقول عندي في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان، ولغتان مستفيضتان بمعنى واحد، وبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيبٌ، لاتفاق معنييهما".

قوله تعالى: {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ١٢٥]، أي: " كحال مَن يصعد في طبقات الجو العليا، فيصاب بضيق شديد في التنفس".

قال الطبري: " وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصُّعود إلى السماء وعجزه عنه، لأن ذلك ليس في وسعه".

قال ابن عباس: "يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يقدر على أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه".

قال عطاء: " يقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء".

=

=

عن السدي: "{كأنما يصعد في السماء}، من ضيق صدره".

عن الأوزاعي: "{ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء}، كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقا أن يكون مسلما؟".

وعن ابن عباس أيضا: "قوله: {ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا}، ونحو هذا من القرآن، فإن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس، ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له في الذكر الأول. يقول: ليس لك من الأمر شيء".

وفي قوله تعالى: {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ١٢٥]، أربعة وجوه:

أحدها: كأنه كُلِّف الصعود إلى السماء في امتناعه عليه وبعده منه.

والثاني: كأنه لا يجد مسلكًا لضيق المسالك عليه إلا صعودًا في السماء وليس يقدر. وهذا قول الفراء.

والثالث: كأنه قلبه بالنبو عنه والنفور منه صاعدًا إلى السماء.

والرابع: كأن قلبه يصعد إلى السماء بمشقته عليه وصعوبته عنده. وهذا معنى قول ابن جريج.

قرأ ابن كثير وحده: «كأنما يصعد»، خفيفة ساكنة الصاد بغير ألف، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي: «يصعد» مشددة العين بغير ألف، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: «يصعد»، بألف مشددة الصاد، وروى حفص عن عاصم «يصعد»، مشددة بغير ألف مثل حمزة.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٢٥]، أي: " وكما يجعل الله صدور الكافرين شديدة الضيق والانقباض، كذلك يجعل العذاب على الذين لا يؤمنون به".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: كما يجعل الله صدر مَنْ أراد إضلاله ضيقًا

=

=

حرجًا، كأنما يصعد في السماء من ضيقه عن الإيمان فيجزيه بذلك، كذلك يسلّط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبَى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصدّه عن سبيل الحق".

وفي معنى: {الرِّجْسَ} [الأنعام: ١٢٥]، خمسة أقوال:

أحدها: أنه ما لا خير فيه، قاله مجاهد.

والثاني: أنه العذاب، قاله ابن زيد.

والثالث: السخط، قاله ابن بحر.

والرابع: انه الشيطان، قاله ابن عباس.

والخامس: أن «الرجس» و «النجس» واحد، وهو قول بعض نحويي الكوفة، وحكاه عَلِيُّ بن عيسى.

وقال أبو عبيدة: " «الرجز» و «النجس» واحد، وهما: العذاب.

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندي ما قاله ابن عباس، ومَنْ قال إن «الرجس» و «النجس» واحد، للخبر الذي رُوي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول إذا دخل الخَلاء: «اللهُمّ إنّي أعوذ بك من الرجْس النِّجْس الخبيث المُخْبِثِ الشيطان الرَّجيم»، وقد بيَّن هذا الخبر أن «الرِّجْس» هو «النِّجْس»، القذر الذي لا خير فيه، وأنه من صفة الشيطان".

قال الطبري: " وفي هذه الآية أبينُ البيان لمن وُفّق لفهمهما، عن أن السبب الذي به يُوصل إلى الإيمان والطاعة، غير السبب الذي به يُوصل إلى الكفر والمعصية، وأن كلا السببين من عند الله. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن نفسه أنه يشرح صدرَ من أراد هدايته للإسلام، ويجعل صدر من أراد إضلاله ضيِّقًا عن الإسلام حَرَجًا كأنَّما يصعد في السماء. ومعلومٌ أن شرح الصدر للإيمان خِلافُ تضييقه له، وأنه لو كان يوصل بتضييق الصدر عن الإيمان إليه، لم يكن بين تضييقه عنه وبين

=

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦).

{وَهَذَا} الَّذِي أَنْت عَلَيْهِ يَا مُحَمَّد {صِرَاط} طَرِيق {رَبّك مُسْتَقِيمًا} لَا عِوَج فِيهِ وَنَصْبه عَلَى الْحَال الْمُؤَكِّد لِلْجُمْلَةِ وَالْعَامِل فِيهَا مَعْنَى الْإِشَارَة {قَدْ فَصَّلْنَا} بَيَّنَّا {الْآيَات لِقَوْم يَذَّكَّرُونَ} فيه ادغام التاء في الأصل الذَّال أَيْ يَتَّعِظُونَ وَخُصُّوا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ[1].

=

شرحه له فرق، ولكان من ضُيِّق صدره عن الإيمان، قد شُرِح صدره له، ومن شرح صدره له، فقد ضُيِّق عنه، إذ كان مَوْصولا بكل واحد منهما- أعني من التضييق والشرح- إلى ما يُوصَل به إلى الآخر. ولو كان ذلك كذلك، وجب أن يكون الله قد كان شرح صدرَ أبي جهل للإيمان به، وضيَّق صدر رسول الله ﷺ عنه. وهذا القول من أعظم الكفر بالله. وفي فساد ذلك أن يكون كذلك، الدليلُ الواضح على أن السَّبب الذي به آمن المؤمنون بالله ورسله، وأطاعه المطيعون، غير السبب الذي كفر به الكافرون بالله وعصاه العاصون، وأن كِلا السببين من عند الله وبيده، لأنه أخبر جل ثناؤه أنه هوالذي يشرح صدرَ هذا المؤمن به للإيمان إذا أراد هدايته، ويضيِّق صدر هذا الكافر عنه إذا أراد إضلالَه".

(١) قوله تعالى: {وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا} [الأنعام: ١٢٦]، أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن، هو صراط الله المستقيم الموصل إلى رضا ربك وجنته".

قال الزمخشري: أي: " وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان مستقيما عادلا مطردا".

قال البغوي: " أي: هذا الذي بينا، وقيل هذا الذي أنت عليه يا محمد طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه مستقيما لا عوج فيه وهو الإسلام".

=

=

قال ابن عطية: "قوله تعالى (وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا) هذا إشارة إلى القرآن والشرع الذي جاء به محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ".

قال القرطبي: " أي: هذا الذي أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربك لا اعوجاج فيه".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وهذا الذي بيّنا لك، يا محمد، في هذه السورة وغيرها من سور القرآن، هو طريق ربّك، ودينه الذي ارتضاه لنفسه دينًا، وجعله مستقيمًا لا اعوجاج فيه، فاثبُتْ عليه، وحرِّم ما حرمته عليك، وأحلل ما أحللته لك".

قال ابن كثير: " لما ذكر تعالى طريقة الضالين عن سبيله، الصادين عنها، نبه على أشرف ما أرْسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال: {وَهَـٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا} منصوب على الحال، أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن، وهو صراط الله المستقيم، كما تقدم في حديث الحارث، عن علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في نعت القرآن: «هو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم»".

قال أبو هلال العسكري: " «الصِّرَاط»: هو الطَّرِيق السهل".

قال الإمام الطبري: " أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن «الصراط المستقيم»، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفي:

أميرُ المؤمنين عَلَى صِرَاطٍ ... إذا اعوَجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقيمِ

يريد على طريق الحق.

ومنه قول الهُذلي أبي ذُؤَيْب:

صَبَحْنَا أَرْضَهُمْ بالخَيْلِ حَتّى ... تركْنَاها أَدَقَّ مِنَ الصِّرَاطِ "

=

لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧).

{لَهُمْ دَار السَّلَام} أَيْ السَّلَام وَهِيَ الْجَنَّة {عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون}(١).

=

وفي تفسير «الصراط» -ها هنا- قولان:

أحدهما: يعني به: الإسلام، فهو الصراط المستقيم إلى الله تعالى، قاله ابن عباس، والكلبي.

والثاني: يريد أن ما في القرآن من البيان هو الصراط المستقيم.

قال علي بن ابي طالب-كرّم الله وجهه-: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: الصراط المستقيم كتاب الله".

قوله تعالى: {قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [الأنعام: ١٢٦]، أي: " قد بينَّا البراهين لمن يتذكر من أهل العقول الراجحة".

قال قتادة: " نبين الآيات.

قال ابن كثير: " أي: قد وضحناها وبيناها وفسرناها، لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله".

قال الطبري: " فقد بيّنا الآيات والحجج على حقيقة ذلك وصحته، لمن يتذكر ما احتجَّ الله به عليه من الآيات والعبر فيعتبر بها. وخص بها «الذين يتذكرون»، لأنهم هم أهل التمييز والفهم، وأولو الحجى والفضل".

قال أبو السعود: أي: "يتذكرون ما في تضاعيفها فيعلمون أن كل ما يحدث من الحوادث خيرا كان أو شرا فإنما يحدث بقضاء الله تعالى وخلقه وأنه تعالى عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم وتخصيص القوم المذكورين بالذكر لأنهم المنتفعون بتفصيل الآيات".

(١) قوله تعالى: {لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الأنعام: ١٢٧]، أي: " للمتذكرين عند

=

=

ربهم جل وعلا يوم القيامة دار السلامة والأمان من كل مكروه وهي الجنة".
قال أبو السعود: " أي: للمتذكرين دار السلامة من كل المكاره، وهي الجنة".
قال البغوي: " أي: لهم دار السلامة من الآفات، وهي الجنة".
قال ابن كثير: " وهي: الجنة، {عِنْدَ رَبِّهِمْ} أي: يوم القيامة".
قال الطبري: " يعني تعالى ذكره بقوله: {لهم}، للقوم الذين يذكرون آيات الله فيعتبرون بها، ويوقنون بدلالتها على ما دلت عليه من توحيد الله ومن نبوّة نبيه محمد ﷺ وغير ذلك، فيصدِّقون بما وصلوا بها إلى علمه من ذاك.
وأما {دار السلام}، فهي دار الله التي أعدَّها لأوليائه في الآخرة، جزاءً لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذات الله، وهي جنته. و «السلام»، اسم من أسماء الله تعالى".
وفي تسمية «الجنة» بدار السلام، وجهان:
أحدهما: لأنها دار السلامة الدائمة من كل آفة، قاله الزجاج.
قال البغوي: " وسميت دار السلام لأن كل من دخلها سلم من البلايا والرزايا".
والثاني: أن السلام هو الله، قال تعالى: {السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ} [الحشر: ٢٣]، والجنة داره، فلذلك سُمِّيَتْ دار السلام، وهذا معنى قول الحسن، والسدي.
وعن قتادة: "قوله: {لهم دار السلام عند ربهم}، قال: فداره الجنة".
وعن جابر بن زيد- في قوله: "{السلام}، قال: هو الله، وهو اسم من أسماء الله".
قال ابن كثير: " وإنما وصف الله الجنة هاهنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أَفْضَوا إلى دار السلام".
قال ابن الجوزي: وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال:
أحدها: أن السلام ، هو الله ، وهي داره ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي.

=

=

والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع ، قاله الزجاج.

والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم (ادخلوها بسلام) وبعد استقرارهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وقوله (إلا قيلًا سلامًا سلامًا) وعند لقاء الله (سلام قولًا من رب رحيم) وقوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام).

وقال ابن القيم:... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله ، واسمه سبحانه وتعالى السلام ، الذي سلمها وسلم أهلها ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ، والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولًا من رب رحيم).

وفي قوله: {عِندَ رَبِّهِمْ} [الأنعام: ١٢٧]، وجهان:

أحدهما: أن دار السلام عند ربهم في الآخرة لأنها أخص به.

الثاني: معناه أن لهم عن ربهم أن ينزلهم دار السلام.

قال القرطبي: " معنى {عند ربهم}، أي: مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضله".

قال الزمخشري: {عند ربهم}، أي: " في ضمانه، كما تقول: لفلان عندي حق لا ينسى، أو ذخيرة لهم لا يعلمون كنهها، كقوله: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧]".

قوله تعالى: {وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٧]، أي: " وهو سبحانه ناصرهم وحافظهم جزاءً لهم؛ بسبب أعمالهم الصالحة".

قال الزمخشري: أي: "مواليهم ومحبهم أو ناصرهم على أعدائهم بما كانوا

=

=

يعملون بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزاه ما كانوا يعملون".

قال الطبري: " يقول: والله ناصر هؤلاء القوم الذين يذكرون آيات الله، جزاءً بما كانوا يعملون من طاعة الله، ويتبعون رضوانه".

قال ابن كثير: " أي: والسلام - وهو الله - وليهم، أي: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، أي: جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة، بمنّه وكرمه".

قال القرطبي: " {وهو وليهم}، أي: ناصرهم ومعينهم".

وقوله تعالى: {وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٧]، يحتمل وجهين:

أحدهما: وهو ناصرهم في الدنيا على إيمانهم.

الثاني: وهو المتولِّي لثوابهم في الآخرة على أعمالهم.

نقل البغوي عن الحسين بن الفضل، قال: "يتولاهم في الدنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء".

(تنبيه): في قوله: {عِندَ رَبِّهِمْ} دليل على علو الله على خلقه.

فالمؤمن، والكافر يتحاجَّان عند الله يوم القيامة؛ بدليل قولهم تعالى: {ليحاجُّوكم به عند ربكم}؛ ويؤيده قوله تعالى: (ثم إنكم بعد ذلك لميِّتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون} [المؤمنون: ١٥).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٥/ ١٦٥): فصل: فإذا تبين ذلك، فوجوب إثبات العلو لله - تعالى - ونحوه، يتبين من وجوه:

أحدها: أن يقال: إن القرآن والسنن المستفيضة المتواترة وغير المتواترة وكلام السابقين والتابعين، وسائر القرون الثلاثة - مملوء بما فيه إثبات العلو لله - تعالى - على عرشه بأنواع من الدلالات، ووجوه من الصفات، وأصناف من العبارات، تارة يخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش. وقد

=

=

ذكر الاستواء على العرش في سبعة مواضع.

وتارة يخبر بعروج الأشياء وصعودها، وارتفاعها إليه، كقوله تعالى: {بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: ١٥٨]، {إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي} [آل عمران: ٥٥]، {تعرج الملائكة والروح إليه} [المعارج: ٤]، وقوله تعالى: {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [فاطر: ١٠]

وتارة يخبر بنزولها منه أو من عنده، كقوله تعالى: {والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق} [الأنعام: ١١٤]، {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} [النحل: ١٠٢]، {حم تنزيل من الرحمن الرحيم} [فصلت: ١، ٢]، {حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} [الأحقاف: ١، ٢].

وتارة يخبر بأنه العلى الأعلى، كقوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى} [الأعلى: ١] وقوله: {وهو العلي العظيم} [البقرة: ٢٥٥].

وتارة يخبر بأنه في السماء كقوله تعالى: {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير} [الملك: ١٦، ١٧].

فذكر السماء دون الأرض، ولم يعلق بذلك ألوهية أو غيرها، كما ذكر في قوله تعالى: {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم} [الزخرف: ٨٤]، وقال تعالى: {وهو الله في السماوات وفي الأرض} [الأنعام: ٣].

وكذلك قال النبي ﷺ: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟)، وقال للجارية: (أين الله)؟ قالت: في السماء. قال: (أعتقها فإنها مؤمنة).

وتارة يجعل بعض الخلق عنده دون بعض، كقوله تعالى: {وله من في السماوات والأرض} [الأنبياء: ١٩]، ويخبر عمن عنده بالطاعة، كقوله: {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون} [الأعراف: ٢٠٦]، فلو كان

=

=

موجب (العندية) معنى عاما، كدخولهم تحت قدرته ومشيئته وأمثال ذلك ـ لكان كل مخلوق عنده، ولم يكن أحد مستكبرا عن عبادته، بل مسبحا له ساجدا، وقد قال تعالى: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر: ٦٠]، وهو/ سبحانه ـ وصف الملائكة بذلك ردا على الكفار المستكبرين عن عبادته، وأمثال هذا في القرآن لا يحصى إلا بكلفة. ا. هـ

وقال ابن عيسى في شرح قصيدة ابن القيم (١/ ٤٢٠): قال الناظم رحمه الله تعالى فصل:

هذا وعاشرها اختصاص البعض من … أملاكه بالعند للرحمن

وكذا اختصاص كتاب رحمته بعن … د الله فوق العرش ذو تبيان

ولو لم يكن سبحانه فوق الورى … كانوا جميعا عند ذي السلطان

ويكون عند الله إبليس وجب … ريل هما في العند مستويان

وتمام ذاك القول أن محبة ال … رحمن غير إرادة الأكوان

وكلاهما محبوبه ومراده … وكلاهما هو عنده سيان

إن قلتم عندية التكوين فال … ذاتان عند الله مخلوقان

أو قلتم عندية التقريب تق … ريب الحبيب وما هما عدلان

فالحب عندكم المشيئة نفسها … وكلاهما في حكمها مثلان

لكن منازعكم يقول بأنها … عندية حقا بلا روغان

جمعت له حب الإله وقربه … من ذاته وكرامة الإحسان

والحب وصف وهو غير مشيئة … والعند قرب ظاهر التبيان.

هذا هو الدليل العاشر من أدلة علو الرب تعالى فوق خلقه وهو اختصاص بعض

=

=

المخلوقات بالعندية له سبحانه كقوله تعالى ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته الاعراف ٢٠٦

وقوله تعالى وله من في السموات والارض ومن عنده الانبياء ٢٩ الآية وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عنه وسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي وفي لفظ عن ابي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول ان الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي فهو عنده فوق العرش وفي لفظ عن ابي هريرة لما خلق الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو مرفوع فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي وفي لفظ عن ابي هريرة عن النبي ﷺ قال لما خلق الله الخلق كتب بيده على نفسه ان رحمتي تغلب غضبي فلو لم يكن الله جل وعلا فوق عرشه لما كان لتخصيص بعض الملائكة بالعند معنى ولكان إبليس وجبريل في العندية سواء نعوذ بالله من ذلك.

وقال العثيمين في تفسير سورة غافر (ص ٢٩٣): الفائدة السادسة: إثبات العندية لله عز وجل، عند الله، ثم العندية نوعان: عندية وصف، وعندية قرب. فقول الله تبارك وتعالى: {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته} [الأعراف: ٢٠٦]، هذه عندية قرب. وقوله هنا: {كبر مقتا عند الله} [غافر: ٣٥] عندية وصف؛ لأن المقت ليس شيئا منفصلا بائنا عن الله، حتى يكون عندية قرب، بل هذا عندية وصف، كما تقول للشخص: أنت عندي عزيز. تقوله وهو بعيد منك، وليس معنى: أنت عندي عزيز. يعني: قريب، لا هذا عندية وصف؛ أي: أن عزتك عندي قائمة بي. ا. هـ

وقال البراك تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري (٦/ ٢٩١): ما نقله الحافظ في شرح هذا الحديث تخبط الحامل عليه نفي علو الله بذاته

=

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨).

{و} اذكر {يَوْم نَحْشُرهُمْ} بِالنُّونِ وَالْيَاء أَيْ الله الْخَلْق {جَمِيعًا} وَيُقَال لَهُمْ {يَا مَعْشَر الْجِنّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنْ الْإِنْس} بِإِغْوَائِكُمْ {وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ} الَّذِينَ أَطَاعُوهُمْ {مِنْ الْإِنْس رَبّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضنا بِبَعْضٍ} انْتَفَعَ الْإِنْس بِتَزْيِينِ الْجِنّ لَهُمْ الشَّهَوَات وَالْجِنّ بِطَاعَةِ الْإِنْس لَهُمْ {وَبَلَغْنَا أَجَلنَا الَّذِي أَجَّلْت لَنَا} وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة وَهَذَا تَحَسُّر مِنْهُمْ {قَالَ} تَعَالَى لَهُمْ عَلَى لِسَان الْمَلَائِكَة {النَّار مَثْوَاكُمْ} مَأْوَاكُمْ {خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ الله} مِنْ الْأَوْقَات الَّتِي يَخْرُجُونَ فِيهَا لِشُرْبِ الْحَمِيم فَإِنَّهُ خَارِجهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى {ثُمَّ إن مرجعهم لإلى الجحيم} وعن بن عَبَّاس أَنَّهُ فِيمَنْ عَلِمَ الله أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ فَمَا بِمَعْنَى مِنْ {إِنَّ رَبّك حَكِيم} فِي صُنْعه

=

على خلقه واستوائه على عرشه؛ فإن من ذهب إلى ذلك من الأشاعرة وغيرهم ينفون عن الله ﷻ عندية المكان، فليس بعض المخلوقات عنده دون بعض لأنه تعالى بزعمهم في كل مكان فلا اختصاص لشيء بالقرب منه، فلذا يتأولون كل ما ورد مما يدل ظاهره على خلاف ذلك؛ كقوله تعالى: "إن الذين عند ربك"، وكقوله في هذا الحديث: "فهو عنده فوق العرش"، فجرهم الأصل الفاسد إلى مثل هذه التأويلات المستهجنة التي ذكرها الحافظ وتعقب بعضها، وأهل السنة المثبتون للعلو والاستواء يجرون هذا الحديث وأمثاله على ظاهره، وليس عندهم بمشكل، فهذا الكتاب عنده فوق العرش، والله فوق العرش كما أخبر به سبحانه عن نفسه، وأخبر به أعلم الخلق به - ﷺ.

{عَلِيم} بِخَلْقِهِ[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [الأنعام: ١٢٨]، أي: " واذكر -أيها الرسول- يوم يحشر الله تعالى جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخًا للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزُّوهم إلى المعاصي".

قال الطبري: يعني: "ويوم يحشر هؤلاء العادلين بالله الأوثانَ والأصنامَ وغيرَهم من المشركين، مع أوليائهم من الشياطين الذين كانوا يُوحون إليهم زخرف القول غرورًا ليجادلوا به المؤمنين، فيجمعهم جميعًا في موقف القيامة".

قال ابن كثير: "يعني: الجن وأولياءهم {مِنَ الإنْسِ} الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا".

قال الرازي: الضمير في قوله (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: يعود إلى المعلوم ، لا إلى المذكور ، وهو الثقلان ، وجميع المكلفين الذين علم أن الله يبعثهم.

والثاني: أنه عائد إلى الشياطين الذين تقدم ذكرهم في قوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نِبِيّ عَدُوًّا شياطين الإنس والجن يُوحِى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُورًا).

قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ} [الأنعام: ١٢٨].

أي: من إضلالهم، وصدهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي؟ وقمتم محاربين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟ فاليوم حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع، فلا تسأل حينئذ عما يحل بهم =

=

من النكال، والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذارًا ، وأما أولياؤهم من الإنس، فأبدوا عذرًا غير مقبول.

قال الطبري: يعني: "استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم".

قال ابن كثير: " أي: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس: ٦٠ - ٦٢]".

وفي قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ} [الأنعام: ١٢٨]، قولان:

أحدهما: قد استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والفراء، والطبري.

والثاني: قد استكثرتم من الإنس بإغوائكم لهم.

قوله تعالى: {وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} [الأنعام: ١٢٨].

أي: تمتع كل من الجِنّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به، فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته، وتعظيمه، واستعاذته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، وبلوغه بسبب خدمة الجِنّي له بعض شهواته، فإن الإنسي يعبد الجِنّي، فيخدمه الجِنّي، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية، أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك.

قال ابن كثير: " يعني: أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا".

وفي قوله تعالى: {وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} [الأنعام: ١٢٨]، ثلاثة تأويلات:

=

=

أحـدها: معنـاه: الـصحبة في الـدنيا، اسـتمتع بعـضنا بـصحبة بعـض في التعـاون والتعاضد. وهذا معنى قول محمد بن كعب.

والثاني: استمتع بعضنا ببعض فيما زينوه من اتباع الأهواء وارتكاب المعاصي. وهذا معنى قول الحسن.

قـال الحـسن: "ومـا كـان اسـتمتاع بعـضهم بـبعض إلا أن الجـن أمـرت وعملـت الإنس".

والثالث: أن الاستمتاع بهم ما كانوا عليه من التعوذ بهم كقوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ} [الجن: ٦]، قال الحسن، وابن جريج، و الفراء.

ثم فيه وجهان:

أحدهما: أنه استمتاع الإنس بالجن.

والثاني: أنه استمتاع الإنس بعضهم ببعض.

والثالث: أن الإنس استمتعوا بالجن، والجن استمتعوا بالإنس في تعظيمهم إيّاهم، واعتقـادهم أنهـم يقـدرون علـى النفـع. ذكـره الفـراء، والزجـاج، والطـبري، والماوردي.

قال الفراء: "وأما استمتاع الجن بالإنس فما نالوا بهم من تعظيم الإنس إياهم، فكان الجن يقولون: سدنا الجن والإنس".

قال الزجاج: "والذي يدل عليه اللفظ - والله أعلم - هو قبول الإنس من الجن ما كانوا

يغوونهم به لقوله: {استكثرتم من الإنس}، فأما من كان يقول هذا أعني يستعيذ بالجن فقليل".

قال البيضاوي: انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ،

=

=

وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصّلوا مرادهم.

الانس يتحقق لهم بعض ما يطلبون كالسحر ، وما يحصل للكهان من الأخبار الغيبية التي تأتي عن استراق السمع.

وغيرها من الانتفاعات المحرمة كالسرقة وغيرها.

قوله تعالى: {وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا} [الأنعام: ١٢٨].

أي: وقد وصلنا المحل الذي نجازى فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك. وكأن في هذا الكلام منهم نوع تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه.

قال البغوي: "عني: القيامة والبعث".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: قالوا: بلغنا الوقتَ الذي وقَّتَّ لموتنا، وإنما يعني جل ثناؤه بذلك: أنهم قالوا: استمتع بعضنا ببعض أيّام حياتنا إلى حال موتنا".

وفي قوله تعالى: {وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا} [الأنعام: ١٢٨]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الموت، قاله الحسن، والسدي، ومحمد بن كعب.

والثاني: معناه: أمرت الجن، وعملت الإنس. قاله الحسن.

والثالث: الحشر. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ} [الأنعام: ١٢٨]، أي: " قال تعالى ردًا عليهم: النارً موضع مقامكم وهي منزلكم".

قال ابن كثير: " أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم".

قال الطبري: " وهذا خبر من الله تعالى ذكره عمّا هو قائل لهؤلاء الذين يحشرهم يوم القيامة من العادلين به في الدنيا الأوثان، ولقُرَنائهم من الجن، فأخرج الخبر عما هو كائنٌ، مُخْرَج الخبر عما كان، لتقدُّم الكلام قبلَه

=

=

بمعناه والمراد منه، فقال: قال الله لأولياء الجن من الإنس الذين قد تقدَّم خبرُه عنهم: {النار مثواكم}، يعني نار جهنم {مثواكم}، الذي تثوون فيه، أي: تقيمون فيه".

قال الماوردي: " {النَّارُ مَثْوَاكُمْ}، أي: منزل إقامتكم، لأن المثوى الإقامة، ومنه قول الشاعر:

لقد كان في حول ثواءً ثويته تقضي لبانات وتسأم سائم".

قال ابن عاشور: وقد أفادت الآية: أنّ الجنّ المخاطبين قد أُفحموا، فلم يجدوا جوابًا، فتركوا أولياءهم يناضلون عنهم، وذلك مظهر من مظاهر عدم إغناء المتبوعين عن أتباعهم يومئذٍ (إذ تَبرّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا).

ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال:

(قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ) أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم.

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ} [الأنعام: ١٢٨]، أي: " ماكثين في النار في حال خلودٍ دائم إلا الزمان الذي شاء الله أن لا يخلدوا فيها".

قال ابن كثير: " أي: ماكثين مكثًا مخلدًا إلا ما شاء الله".

قال الطبري: " يقول: لابثين فيها، {إلا ما شاء الله}، يعني: إلا ما شاء الله من قَدْر مُدَّة ما بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم إلى جهنم، فتلك المدة التي استثناها الله من خلودهم في النار".

وفي معنى «إلا» في قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ} [الأنعام: ١٢٨]، وجوه:

أحدها: أنها بمعنى «لكن»، قاله سيبويه.

والثاني: أنها بمعنى «سوى»، قاله الفراء.

والثالث: أنها بمعنى «من»، وهذا مروي عن ابن عباس.

=

=

ذكروا عن ابن عباس: "استثنى الله قومًا قد سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبي ﷺ وما جاء به".

قال الخازن: "نقل جمهور المفسرين عن ابن عباس أن هذا الاستثاء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون ويصدقون النبي ﷺ فيخرجون من النار، قالوا: و {ما} تكون بمعنى «من» على هذا التأويل".

والرابع: أنها مستعملة على حقيقتها، وهو قول الجمهور.

وفي هذا الاستثناء ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن مدة الاستثناء هي مدة العرض في القيامة وذلك ما بين بعثهم من قبورهم إلى حين مصيرهم إلى جهنم، فكأنه قال: النار مثواكم خالدين فيها إلا هذه المدة التي ذكرها، فإنهم فيها غير خالدين في النار. وهذا قول الطبري، والزجاج.

والثاني: معناه خالدين فيها إلا ما شاء الله من تجديد جلودهم بعد إحراقها وتصريفهم في أنواع العذاب أو تركهم فيها على حالتهم الأولى، فيكون الاستثناء في صفة العذاب لا في الخلود في النار. ذكره الزجاج.

والثالث: أنه جعل أمرهم في مبلغ عذابهم ومدته إلى مشيئته تعالى، قاله ابن عباس، قال: "إن هذه الآية: آيةٌ لا ينبغي لأحدٍ أن يحكم على الله في خلقه، أن لا ينزلهم جنَّةً ولا نارًا".

قال الزمخشري: " {إلا ما شاء الله} ، أي: يخلدون في عذاب النار الأبد كله، إلا ما شاء الله، إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم. أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه. أهلكني الله إن

=

=

نفست عنك إلا إذا شئت، وقد علم أنه لا
يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد، فيكون قوله: إلا إذا شئت، من أشد الوعيد، مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٢٨]، أي: " إن ربك حكيم في تدبيره وصنعه، عليم بجميع أمور عباده".

قال الطبري: أي: " {حكيم}، في تدبيره في خلقه، وفي تصريفه إياهم في مشيئته من حال إلى حال، وغير ذلك من أفعاله، {عليم}، بعواقب تدبيره إياهم، وما إليه صائرةُ أمرهم من خير وشر".

قال الزمخشري: " {حكيم}، لا يفعل شيئا إلا بموجب الحكمة، {عليم}، بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد".

قال أبو السعود: أي: " {حكيم} في أفاعيله {عليم} بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من الجزاء".

قال البغوي: "قيل: عليم بالذي استثناه وبما في قلوبهم من البر والتقوى".

(منبهة): معاملة الجن فيها خطر عظيم، وباب من أبواب الشر والفساد، طالما أصاب الناس من شره وآفته، وحسبك في ذلك أن الشرك لم يدخل على الناس إلا من طريقهم، فقد قال النبي ﷺ مخبرا عن تعليم الله ﷻ عباده بقوله (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا)، وإن كان في الجن من المؤمنين والمسلمين كما فيهم من الكافرين الفاسقين، غير أن احتجابهم عن الإنسان يحول دون الاطمئنان إلى أي منهم، ويوجب الخوف من استدراجهم، خاصة مع انتشار الجهل واشتهار البدع التي هي بريد الشرك، فغالبا ما توقع هذه

=

المخلوقات الإنسان فيما يحرم، ثم لا تنفعهم أيضا إلا يسيرا.

وقد قال الله ﷻ: (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) (الجن:٦).

فأكثر أهل العلم على أنه لا يجوز الاستعانة بالجن لأنهم غالبا لا يعينون شخصا إلا إذا وصلوا لمأربهم منه، من الخضوع لهم، والوقوع في أنواع من الشرك والضلالات نسأل الله العافية، ومن الأدلة على عدم جواز الإستعانة بهم قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)، فهذا أمر بالإعداد للجهاد، فكل ما يمكن الإعداد به فهو مما تشمله الآية بالأمر، ومعلوم أن الاستعانة بالجن في مثل معارك المسلمين من أعظم الإعداد، فلو لم يكن منهم إلا نقل المعلومات عن العدو لكان ذلك من أعظم أسباب القوة، ومع هذا كله فلم ينقل عن النبي ﷺ في غزوة واحدة، ولا في بعث أو سرية أنه استعان بالجن المسلمين، بل إنه في غزوة الخندق في ليلة باردة رغب عليه الصلاة والسلام في التعرف على أحوال الكفار، فلم يجد إلا أن ينتدب من أصحابه من يأتيه بخبرهم، وقد كرر عليهم الطلب فلم يقم أحد، حتى أمر حذيفة رضي الله عنه بأن يأتيه بالخبر، قال حذيفة: فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم، وذلك لشدة الأمر في تلك الليلة بين الخوف والبرد، فلو كانت الاستعانة بالجن المسلمين جائزة لكانت تلك الليلة من أعظم أوقات الحاجة، إن لم تكن ضرورة، فما كان على النبي ﷺ إلا أن يدعو جنيا ممن أسلم على يديه ليأتيه بالخبر في لحظة، دون أن يشق على أصحابه، فدل على أن الاستعانة بهم أصلا غير واردة بل هي ممنوعة.

والنبي ﷺ قد سحر كما ثبت في الصحيحين، ولم يستعن بالجن المسلمين في معرفة السحر، بل إنه لم يعرف أنه في بئر ذي أروان حتى أخبره جبريل وميكائيل عليهما السلام.

=

وأين هم الجن يوم حنين إذ بلغت القلوب الحناجر؟!.

وأين هم عن سائر غزوات النبي ﷺ وحاجاته؟.

ها هم يطيرون، هلاّ طاروا بالنبي ﷺ يوم هجرته فزاد أمنه من طلب قريش؟! ها هم يأتون بأخبار المرضى: فهلاّ أسعفوا مصابي الصحابة، ولا يقال إن النبي ﷺ ترك الاستعانة بالجن المسلمين مع جواز ذلك، لكونه منافيا، لكمال التوكل كما في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، لأن الاستعانة بهم لو كانت جائزة لكانت من قبيل أمره عليه الصلاة والسلام لبعض أصحابه لقضاء بعض حاجته، أو كأمره حذيفة ﷺ بأن يأتيه بخبر المشركين في الحديث المتقدم، مما لا يعتبر منافيا لكمال التوكل، فلما لم يحدث ذلك دل على أن الاستعانة بهم هي من قبيل الممنوع، وليست من قبيل المأذون فيه.

وكما لم ينقل عن النبي ﷺ أنه أستعان بالجن، فكذلك لم يثبت عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم، وما يروى عن بعضهم في هذا الباب فضعيف لا يثبت.

وأيضا إن استخدام الجن خاص بنبي الله سليمان عليه السلام كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان {رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي} فرددته خاسئا) متفق عليه. فكأن النبي ﷺ لم يشأ أن يتعدى إلى ما كان من خصوصيات نبي الله سليمان عليه السلام فكيف يستجيز المسلم لنفسه أن يقتحم ما وقف عنه النبي ﷺ -!!. لذلك كانت فتاوى أكثر أهل العلم بحرمة التعاطي مع الجن والتعامل معهم مطلقا - سواء في ذلك المؤمن منهم والكافر - وضرورة عدم التساهل في ذلك، سدا لباب الفتنة والريبة، ورعاية لقلوب الناس التي تملؤها الفطرة الإيمانية.

=

=

قال العلامة الألباني في الصحيحة تحت حديث (٢٧٦٠): " ومن هذا القبيل معالجة بعض المتظاهرين بالصلاح للناس بما يسمونه بـ " الطب الروحاني "، سواء كان ذلك على الطريقة القديمة من اتصاله بقرينه من الجن - كما كانوا عليه في الجاهلية - أو بطريقة ما يسمى اليوم باستحضار الأرواح، ونحوه عندي " التنويم المغناطيسي "، فإن ذلك كله من الوسائل التي لا تشرع؛ لأن مرجعها إلى الاستعانة بالجن التي كانت من أسباب ضلال المشركين كما جاء في القرآن الكريم: (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) الجن/ ٦، أي: خوفا وإثما.

وادعاء بعض المبتلين بالاستعانة بهم أنهم إنما يستعينون بالصالحين منهم دعوى كاذبة؛ لأنهم مما لا يمكن - عادة - مخالطتهم ومعاشرتهم، التي تكشف عن صلاحهم أو طلاحهم، ونحن نعلم بالتجربة أن كثيرا ممن تصاحبهم أشد المصاحبة من الإنس، يتبين لك أنهم لا يصلحون، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) التغابن/ ١٤ هذا في الإنس الظاهر، فما بالك بالجن الذين قال الله تعالى فيهم: (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) الأعراف/ ٢٧ " انتهى.

وسئل العلامة الألباني أيضا كما في موسوعة العلامة الألباني (٣/ ١٠٦٧) هل يجوز الاستعانة بالجن أم لا؟

فأجاب: لا، لأني أعتقد أن الاستعانة بالجن أو المؤاخاة مع الجن كما يقولون اليوم هذا سبيل ضلال، وأنه لا يجوز للمسلم أن يستعين بمن يظن أنه من الجن لقوله تبارك وتعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} (الجن: ٦) وبالإضافة إلى ذلك أن المسلم يخالط أخاه المسلم الإنسي سنين طويلة وهو واثق به وإذا به بعد هذه السنين كلها يتبين أنه ليس

=

=

كذلك، وهو مثله يعامله ويفهم منه ويأخذ ويعطي وو.. إلخ، فكيف بإمكان الإنسي أن يعرف هذا الشخص الذي هو من عالَم ما يسمى اليوم بما وراء المادة، كيف بإمكانه أن يعرف أنه مسلم أو كافر أو يعرف أنه صالح أو طالح، ونحن الإنس ما نقدر نتمكن من الوثوق بعضنا في بعض.

ولذلك فنحن نرى سد هذا الباب إطلاقًا إلا فقط مما ثبت في السنة عن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم– أولًا، وعن بعض علماء المسلمين ثانيًا، وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من تلاوة بعض الآيات القرآنية على الممسوس من الجن، هذا يمكن أن يقال بجوازه، وفائدته ملموسة قديمًا وحديثًا، أما التوسع بأكثر من هذا القدر فهذا لا يجوز شرعًا، لأنه من مزالق الأقدام، ولأنه من الممكن أن يُضلَّل هذا الإنسي بهذا الجني بما قد يقدمه إليه من أخبار أو معلومات يتوهم الإنسي أنها معلومات صحيحة وصادقة، هذا ما نعتقده وندين الله به ا. هـ

وسئل العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حكم استخدام الجن من المسلمين في العلاج إذا لزم الأمر؟

فأجاب: "لا ينبغي للمريض استخدام الجن في العلاج ولا يسألهم، بل يسأل الأطباء المعروفين، وأما اللجوء إلى الجن فلا؛ لأنه وسيلة إلى عبادتهم وتصديقهم؛ لأن في الجن من هو كافر، ومن هو مسلم، ومن هو مبتدع، ولا تعرف أحوالهم، فلا ينبغي الاعتماد عليهم، ولا يسألون، ولو تمثلوا لك، بل عليك أن تسأل أهل العلم والطب من الإنس، وقد ذم الله المشركين بقوله تعالى: (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) الجن/ ٦؛ ولأنه وسيلة للاعتقاد فيهم والشرك، وهو وسيلة لطلب النفع منهم والاستعانة بهم، وذلك كله من الشرك " انتهى.

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: "لا يستعان بالجان، لا المسلم منهم ولا

=

=

الذي يقول إنه مسلم؛ لأنه قد يقول مسلم وهو كذاب من أجل أن يتدخل مع الإنس، فيسد هذا الباب من أصله، ولا يجوز الاستعانة بالجن ولو قالوا إنهم مسلمون؛ لأن هذا يفتح الباب.

والاستعانة بالغائب لا تجوز سواء كان جنيا أو غير جني، وسواء كان مسلما أو غير مسلم، إنما يستعان بالحاضر الذي يقدر على الإعانة، كما قال تعالى عن موسى: (... فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه...) القصص/ ١٥، هذا حاضر ويقدر على الإغاثة فلا مانع من هذا في الأمور العادية " انتهى.

" السحر والشعوذة" (ص ٨٦، ٨٧).

وقال سماحة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله في التمهيد لشرح كتاب التوحيد" (٢/ ٣٧٣ - ٣٧٤): الاستعانة بالجن سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين وسيلة من وسائل الشرك، والاستعانة معناها: طلب الإعانة؛ ولهذا فمن المتقرر عند أهل العلم أنه لا يجوز طلب الإعانة من مسلمي الجن؛ لأن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يطلبوا ذلك منهم، وهم أولى أن تخدمهم الجن، وأن تعينهم، وأصل الاستعانة بالجن: من أسباب إغراء الإنسي بالتوسل إلى الجني، وبرفعة مقامه، وبالاستمتاع به، وقد قال - جل وعلا -: (ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) الأنعام / ١٢٨، فحصل الاستمتاع - كما قال المفسرون - من الجني بالإنسي: بأن الإنسي يتقرب إليه، ويخضع له، ويذل، ويكون في حاجته، ويحصل الاستمتاع من الإنسي بالجني بأن يخدمه الجني، وقد يكن مع ذلك الاستمتاع ذبح من الإنسي للجني، وتقرب بأنواع العبادات، أو بالكفر بالله - جل وعلا - والعياذ بالله، بإهانة المصحف، أو بامتهانه أو نحو ذلك؛ ولهذا نقول: إن تلك الاستعانة بجميع أنواعها لا تجوز، فمنها ما هو شرك -

=

=

كالاستعانة بشياطين الجن- يعني: الكفار - ومنها ما هو وسيلة إلى الشرك، كالاستعانة بمسلمي الجن " انتهى.

وقال الشيخ مشهور في فتح المنان في جمع كلام شيخ الاسلام عن الجان (ص ٢١٣-٢١٤): وقد اتخذ بعض الرقاة كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ متكئا على مشروعية الإستعانة بالجن المسلم في العلاج بأنه من الأمور المباحة، ولا أرى في كلام شيخ الإسلام ما يسوغ لهم هذا، فإذا كان من البدهيات المسلم بها أن الجن من عالم الغيب يرانا ولا نراه؛ الغالب عليه الكذب معتد ظلوم غشوم لا يعرف العذر بالجهل مجهولة عدالته، لذا روايته للحديث ضعيفة فما هو المقياس الذي نحكم به على أن هذا الجني مسلم وهذا منافق وهذا صالح وذاك طالح؟. لذا الاستعانة بالجن المسلم (كما يدعي البعض) في العلاج لا تجوز للأسباب التالية:

أولا: قد ثبت أن النبي ﷺ رقى ورقي وأمر أصحابه بالرقية فاجتمع بذلك فعله وأمره وإقراره ﷺ، فلو كانت الاستعانة بالجن المسلم كما يدعي البعض فضيلة ما ادخرها الله عن رسوله ﷺ يوم سحرته يهود ولا عن أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهم خير الخلق وأفضلهم بعد أنبيائه، وفيهم من أصابه الصرع، وفيهم من أصابته العين، وفيهم من تناوشته الأمراض من كل جانب؛ فما نقلت لنا كتب السنة عن راق فيهم استعان بالجن.

ثانيا: الاستعانة بالجني المسلم _ كما يدعي البعض _ تعلق قلب الراقي بهذا الجني وهذا ذريعة لتفشي استخدام الجن - مسلمهم وكافرهم - ومن ثم يصبح وسيلة من وسائل الشرك بالله جل وعلا، وخرق ثوب التوحيد، ومن فهم مقاصد الشريعة تبين له خطورة هذا الأمر فما قاعدة (سد الذرائع) إلا من هذا القبيل.

ثالثا: يجب المفاصلة بين الراقي بالقرآن والساحر _ عليه لعنة الله _ وهذا الأمر فيه مشابهة لفعل السحرة، فالساحر يستعين بالجن، ويساعدونه، ويقضون له بعض

=

=

حوائجه، لذا قد يختلط الأمر على من قل حظه من العلم فيساوي بين الراقي بالقرآن والساحر فيروج بذلك سوق السحرة، وهذا من المفاسد العظيمة على العقيدة.

رابعا: من المعلوم أن الجن أصل خلقته من النار، والنار خاصيتها الإحراق، فيغلب على طبعه الظلم والاعتداء وسرعة التقلب والتحول من حال إلى حال، فقد ينقلب من صديق إلى ألد الأعداء ويذيق صاحبه سوء العذاب لأنه أصبح خبيرا بنقاط ضعفه.

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مره * فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

فمن أراد التخلص من هذا الأمر فليستشعر أن الحق في اتباع النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم أجمعين والتابعين من أئمة الهدى والتقى والدين وليترك التعرج على كل ما خالف طريقتهم كائنا ما كان فهل بعد سبيل الله ورسوله إلا سبيل الشيطان؟.

والله أعلم ا. هـ

أما العلامة العثيمين فقال في شرح السفارينية (ص٤٩٨): مسألة: هل يمكن التعاون بين الجن والإنس؟

والجواب: أن التعاون بينهما إذا أمكن فلا بأس به، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن الاستعانة بالجن جائزة بشرطين: ألا يكون الطريق الموصل إليها محرمًا، وألا يستعين بهم على شيء محرم، فإن كانت الطريقة محرمة؛ كأن يقولوا: لا نعينك حتى تسجد لنا مثلًا. وهذا لا يمكن أن يقع من مؤمني الجن؛ لأن مؤمن الجن لا يمكن أن يأمر بالشرك، لكن قد يكون مؤمنًا أو يكون مسلمًا وعنده فسق، فيقول مثلًا للمرأة: لا أعينك حتى تمكنيني من نفسك، أو يكون عنده فاحشة اللواط ويقول للشاب: لا أعينك حتى تمكنني من نفسك فهذا حرام، أو يستعين بهم على

=

وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩).

{وَكَذَلِكَ} كَمَا مَتَّعْنَا عُصَاة الْإِنْس وَالْجِنّ بَعْضهمْ بِبَعْضٍ {نُولِي} مِنْ الْوِلَايَة {بَعْض الظَّالِمِينَ بَعْضًا} أَيْ عَلَى بَعْض {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} مِنْ المعاصي[1].

=

شيء محرم بأن يقول لهم: احضروا لي مال فلان، فيذهبون ويحضرون إليه مال فلان، فهذا حرام؛ لأنه استعان بهم على المعصية وهي سرقة مال الناس، لكن إذا استعان بهم على شيء مباح وبطريق مباح فيقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه لا باس بذلك

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ وقائع في الفتاوى وكذلك في كتاب النبوات وكذلك في إيضاح الدلالة في عموم الرسالة أنه في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت امرأة في المدينة لها رئي من الجن وأن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تأخر وبحثوا عنه فجاءوا إلى هذه المرأة فأرسلت رئيها فأخبرهم ا. هـ.

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٣٧١): هل يجوز التعاون والاستغاثة بالجن المسلمين فيما يقدرون عليه؟

فأجاب: أما مسألة التعاون فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: {وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}، فيجوز التعاون معهم لكن الذي ينبغي أن تعرفه أن تتأكد أنه ليس بشيطان يستدرجك ثم يأمرك بالمعاصي وبمخالفة دين الله، وقد وجد غير واحد من العلماء الأفاضل الذين يخدمهم الجن.

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا} [الأنعام: ١٢٩].

أي: كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض نسلط بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب

قال البغوي: "قيل: أي: كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم

=

=

ببعض نولي بعض الظالمين بعضا، أي: نسلط بعضهم على بعض، فنأخذ من الظالم بالظالم، كما جاء: «من أعان ظالما سلطه الله عليه»".

قال القرطبي: "وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالما آخر. ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية ، أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم".

وفي قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا} [الأنعام: ١٢٩]، خمسة تأويلات:

أحدها: معناه وكذلك نَكِلُ بعضهم إلى بعض، فلا نعينهم، ومن سُلِبَ معونة الله كان هالكًا.

والثاني: وكذلك نجعل بعضهم لبعض وليًا على الكفر. وهذا معنى قول قتادة، قال: "وإنما يولي الله بين الناس بأعمالهم، فالمؤمن وليُّ المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر وليُّ الكافر أينما كان وحيثما كان. ليس الإيمان بالتَمنِّي ولا بالتحَلِّي".

والثالث: وكذلك نولِّي بعضهم عذاب بعض في النار.

والرابع معناه أن بعضهم يتبع بعضًا في النار من الموالاة وهي المتابعة، قاله قتادة - أيضا-.

والخامس: تسليط بعضهم على بعض بالظلم والتعدي، قاله ابن زيد.

قال مالك بن دينار: "قرأت في الزبور: إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جميعا، وذلك في كتاب الله قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا}".

وعن ابن مسعود مرفوعا: "من أعان ظالما سلطه الله عليه".

قال ابن كثير: " وهذا حديث غريب، وقال بعض الشعراء:

=

يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠).

{يَا مَعْشَر الْجِنّ وَالْإِنْس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُل مِنْكُمْ} أَيْ مِنْ مَجْمُوعكُمْ أَيْ

=

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللهِ فَوْقَهَا وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيُبْلَى بِظَالِمِ

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أَغْوَتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم".

وذكر البغوي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: "هو: أن الله تعالى إذا أراد بقوم خيرا ولى أمرهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شرا ولى أمرهم شرارهم".

قال الطبري: "وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قولُ من قال: معناه: وكذلك نجعل بعض الظالمين لبعضٍ أولياء. لأن الله ذكر قبل هذه الآية ما كان من قول المشركين، فقال جل ثناؤه: {وقال أولياؤهم من الإنس ربّنا استمتع بعضنا ببعض}، وأخبر جل ثناؤه: أنّ بعضهم أولياء بعض، ثم عقب خبره ذلك بخبره عن أن ولاية بعضهم بعضًا بتوليته إياهم، فقال: وكما جعلنا بعض هؤلاء المشركين من الجن والإنس أولياء بعض يستمتع بعضهم ببعض، كذلك نجعل بعضَهم أولياء بعض في كل الأمور".

قوله تعالى: {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩]، أي: " بسبب ما يعملونه من المعاصي".

قال الطبري: أي: " من معاصي الله ويعملونه".

قال الزمخشري: أي: " بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي".

بَعْضكُمْ الصَّادِق بِالْإِنْسِ أَوْ رُسُل الْجِنّ نُذُرهمْ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ كَلَام الرُّسُل فَيُبَلِّغُونَ قَوْمهمْ {يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونكُمْ لِقَاء يَوْمكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أنفسنا} أن قد بلغنا قال تعالى {وغرتهم الحياة الدنيا} فلم يؤمنوا {وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين}(١).

---

(١) قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} [الأنعام: ١٣٠]، أي: " أيها المشركون من الجن والإنس، ألم يأتكم رسل من جملتكم، يخبرونكم بآياتي الواضحة المشتملة على الأمر والنهي وبيان الخير والشر".

وهذا أيضا مما يُقرع الله به سبحانه وتعالى كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم -: هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهامُ تقرير (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) أي: من جملتكم. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد، وابن جُرَيْج، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف.

وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذُر.

وحكى ابن جرير، عن الضحاك بن مُزاحم: أنه زعم أن في الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة.

قال ابن كثير: " وهذا أيضا مما يُقرع الله به سبحانه وتعالى كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم -: هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهامُ تقرير: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} أي: من جملتكم".

واختلفوا في الرسالة إلى الجن على ثلاثة أقوال:

أحدها: ان الله بعث إلى الجن رسلًا منهم، كما بعث إلى الإنس رسلًا منهم، قاله =

=

الضحاك، وهو ظاهر الكلام.

والثاني: أن الله لم يبعث إليهم رسلًا منهم، وإنما جاءتهم رسل الإنس، وهذا قول ابن جريج، والفراء، والزجاج، ولا يكون الجمع في قوله: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} مانعًا من أن يكون الرسل من أحد الفريقين، كقوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢]، وإنما هو خارج من أحدهما.

قال الفراء: "فيقول القائل: إنما الرسل من الإنس خاصة، فكيف قال للجن والإنس {منكم}؟

قيل: هذا كقوله: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ} [الرحمن: ١٩]. ثم قال: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح دون العذب. فكأنك قلت: يخرج من بعضهما، ومن أحدهما".

وقال الزجاج: " قال: (رسل منكم) وإنما المرسل من الإنس دون الجن، فإنما جاز ذلك

لأن الجماعة تعقل وتخاطب، فالرسل: هم بعض من يعقل، وهذا كقوله ﷻ: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج ذلك من الملح، أي: البحر الذي ليس بعذب، فقال منهما لأن ذكرهما قد جمع.

فهذا جائز في اللغة، في كل ما اتفق في أصله كما اتفقت الجن مع الإنس في باب التمييز".

والثالث: أن رسل الجن هم الذين لمَّا سمعوا القرآن: {وَلَّوا إِلَى قَومِهِم مُّنذِرِينَ} [الأحقاف: ٢٩]، قاله ابن عباس، وبه قال مجاهد.

قال ابن عباس: "هم الجن لقُوا قومهم، وهم رسل إلى قومهم.

ونقل ابن كثير: "الرسل من بني آدم، ومن الجن نُذُر".

قال مجاهد: " ليس في الجن رسل، إنما الرسل في الإنس، والنذارة في الجن، وقرأ:

=

=

{فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ}".

قال أهل العلم: "وظاهر النصوص يدلُّ على أنَّ الرسل من الإنس فقط".

قال ابن كثير: " والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد، وابن جُرَيْج، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف.. والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا} إلى أن قال: {رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: ١٦٣ - ١٦٥]، وقال تعالى عن إبراهيم: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [العنكبوت: ٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل عليه السلام ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ} [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب؛ ولهذا قال تعالى إخبارًا عنهم: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢]، وقد جاء في الحديث - الذي رواه الترمذي وغيره - أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة «الرحمن» وفيها قوله تعالى: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الآيتان: ٣١، ٣٢].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ

=

=
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا} أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة"

وقد اختلف العلماء في ثواب مؤمني «الجن»، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ثم يقال لهم: كونوا ترابًا مثل البهائم. وهو قول أبي حنيفة، وأبي الزناد، وحكاه سفيان الثوري عن الليث بن أبي سليم، وهو رواية عن مجاهد، وبه قال الحسن البصري.

واستدل هذا الفريق بقوله تعالى إخبارًا عن النفر من الجن الذين استمعوا القرآن: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأحقاف: ٣١].

ووجه استدلالهم بها: أن المغفرة للذنوب لا تستلزم الإثابة لأنه ستر، والإثابة بالوعد فضل.

وقال ابن القيم: "واحتج هؤلاء بهذه الآية فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الأليم". والآية قد دلت على إجارتهم من النار ولم تذكر دخولهم الجنة، أو الثواب على أعمالهم.

القول الثاني: أنهم يثابون على الطاعة بدخول الجنة، على خلاف في حالهم فيها، وهذا قول ابن عباس، والحسن، والضحاك، وضمرة بن الحبيب، ووهب بن منبه، وإليه ذهب الأئمة: مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأصحابهم، وابن أبي ليلى، ورجحه القرطبي، وهو قول أكثر المفسرين.

القول الثالث: التوقف في المسألة.

قال الألوسي: "قال الكردي: وهو في أكثر الروايات. وفي فتاوى أبي إسحاق الصفار أن الإمام - أبا حنيفة - يقول: لا يكونون في الجنة ولكن في معلوم الله
=

=

تعالى، لأنه لا استحقاق للعبد على الله تعالى، ولم يقل بطريق الوعد في حقهم إلا المغفرة والإجارة من العذاب، أما نعيم الجنة فموقوف على الدليل".

وعلق القشيري على هذا الخلاف فقال: "والصحيح أن هذا - أي دخولهم الجنة - مما لم يقطع فيه بشيء. والعلم عند الله".

وقد اختلف الجمهور من المسلمين القائلين بثواب المؤمنين من الجن في الآخرة في كيفية الثواب، على أقوال:

أحدها: أنهم في الجنة ويصيبون من نعيمها. وهذا قول الأكثرين.

قال ابن كثير: "والحق أن مؤمنيهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل لهذا بقوله -ﷻ-: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}، وفي هذا الاستدلال نظر. وأحسن منه قوله جل وعلا: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ..".

والثاني: أنهم يكونون في ربض الجنة، حكي ذلك عن الخليفة عمر بن عبد العزيز. وذكره الألوسي عن الإمام مالك وطائفة من العلماء.

وقال ابن تيمية: "وروي في حديث رواه الطبراني: أنهم يكونون في ربض الجنة، يراهم الإنس من حيث لا يرونهم".

وذكر ابن القيم أن سهل بن عبد الله قال: "بأنهم يكونون في ربض الجنة، يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم".

والثالث: أنهم على الأعراف بين الجنة والنار، ذكره الألوسي.

ومقتضى هذا القول أنهم يدخلون الجنة فيما بعد، إذ أن هذا هو نهاية أصحاب الأعراف.

والرابع: أنهم يلهمون التسبيح والذكر، فيصيبون من لذته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة. رواه ابن نجيم عن الضحاك.

=

ولكن المشهور عن الضحاك: "أن الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون".
وهو ما نقله الفخر الرازي عنه إذ يقول: "قال الضحاك: يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، والدليل على صحة هذا القول: أن كل دليل دل على أن البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم في حق الجن".
وعقب الفخر الرازي على ذلك بقوله: "والفرق بين البابين بعيد". يقصد: ثواب الإنس وثواب الجن.
وقال القرطبي: "واختلفوا في دخول مؤمني الجن الجنة على حسب الاختلاف في أصلهم، فمن زعم أنهم من الجان لا من ذرية إبليس قال: يدخلون الجنة بإيمانهم، ومن قال: إنهم من ذرية إبليس فلهم فيه قولان:
أحدهما: وهو قول الحسن: يدخلونها.
الثاني: وهو رواية مجاهد: لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار، حكاه الماوردي".
والراجح - والله أعلم - أن الجن يثابون على أعمالهم، ويدخلون الجنة، ويصيبون من نعيمها، وذلك لأن ظواهر الآيات الواردة في جزاء الجن في الآخرة تقتضي ذلك. لأنها جاءت عامة في استحقاق المحسنين لجزاء أعمالهم، ولم يرد دليل يخصصها، فتبقى على عمومها، وهو مذهب أكثر الفقهاء.
قوله تعالى: {وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [الأنعام: ١٣٠]، أي: " ويحذرونكم لقاء عذابي في يوم القيامة؟".
قوله تعالى: {قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا} [الأنعام: ١٣٠]، أي: " فقالوا: بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا وأنذرتنا لقاء يومنا هذا".
قال ابن كثير: " أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة".
قال ابن عطية: "إقرار منهم بالكفر واعتراف أي شهدنا على أنفسنا بالتقصير".

=

قوله تعالى: {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الأنعام: ١٣٠]، أي: " وخدعت هؤلاء المشركين زينةُ الحياة الدنيا".

قال الطبري: يقول" وغَرَّت هؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام، وأولياءَهم من الجن {الحياة الدنيا}، يعني: زينة الحياة الدنيا، وطلبُ الرياسة فيها والمنافسة عليها، أن يسلموا لأمر الله فيطيعوا فيها رسله، فاستكبروا وكانوا قومًا عالين. فاكتفى بذكر " الحياة الدنيا " من ذكر المعاني التي غرَّتهم وخدَعتهم فيها، إذ كان في ذكرها مكتفًى عن ذكر غيرها، لدلالة الكلام على ما تُرك ذكره".

قال ابن كثير: " أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها".

قال ابن عطية: "قوله: {غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، التفاتة فصيحة تضمنت أن كفرهم كان بأذم الوجوه لهم وهو الاغترار الذي لا يواقعه عاقل".

وفي قوله تعالى: {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الأنعام: ١٣٠]، أربعة وجوه:

أحدهما: وغرتهم زينة الحياة الدنيا.

والثاني: وغرتهم الرياسة في الدنيا.

والثالث: وغرتهم حياتهم في الدنيا حين أمهلوا. أفاده الماوردي.

والرابع: أشبعتهم وأطعمتهم بحلوائها، كما يقال: غرّ الطائر فرخه. أفاده ابن عطية.

قوله تعالى: {وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} [الأنعام: ١٣٠]، أي: " وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا جاحدين وحدانية الله تعالى ومكذبين لرسله عليهم السلام".

قال ابن كثير: " أي: يوم القيامة {أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}، أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين".

=

=

قال الطبري: " يعني: هؤلاء العادلين به يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا كافرين به وبرسله، لتتم حجَّة الله عليهم بإقرارهم على أنفسهم بما يوجب عليهم عقوبته وأليمَ عذابه".

قال ابن عطية: "قوله: {شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين}، تظهر بينه وبين ما في القرآن من الآيات التي تقتضي إنكار المشركين الإشراك مناقضة، والجمع بينهما هو إما بأنها طوائف، وإما طائفة واحدة في مواطن شتى، وإما أن يريد بقوله هاهنا: شهدوا على أنفسهم

، شهادة الأيدي والأرجل والجلود بعد إنكارهم بالألسنة، واللفظ هاهنا يبعد من هذا".

(مسألة): هل من الجن رسل.

اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

الأول: أن رسل الجن هم من البشر، ولم يبعث إلى الجن رسول منهم، وهو رأي الجمهور من العلماء.

الثاني: أنه ليس في الجن رسل ولكن منهم نذر عن الرسل، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج وأبو عبيد، وهو اختيار العلامة العثيمين حيث قال في تفسير سورة الذاريات: كذلك يمتاز الإنس عنهم بأن منهم الرسل والأنبياء، وأما الجن فليس منهم رسل، ولكن منهم نُذر، يبلغونهم الرسالات من الإنس، كما في قول الله تعالى: {وإذ صرفنآ إليك نفرًا من الجن يستمعون القرءان فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين}.

الثالث: أنه قد بعث إلى الجن رسل منهم، وهو رأي مقاتل والضحاك وهو اختيار ابن حزم كما في الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ٢٦٤).

وهو اختيار العلامة ابن باز أيضا فقد سئل كما في مسائل الإمام ابن باز للشيخ عبد

=

=

الله بن مانع (ص٣٣): هل من الجن رسل؟

فأجاب: الله أعلم، لا مانع ا. هـ

والذي ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن الجمهور والضحاك ومن معه متفقون على أن محمدًا ﷺ مبعوث إلى الجن والإنس معًا، وإنما الاختلاف بينهم في أنه هل بعث إلى الجن رسل من جنسهم قبل مبعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أم لا؟

فالضحاك ومن معه يقولون: بأنه قد بعث إلى الجن رسل منهم قبل نبينا عليه السلام، والجمهور على خلافه، قال السبكي في فتاواه (٢/ ٦١٩): ومن نقل عن الضحاك مطلقًا أن رسل الجن منهم فهو محمول على هذا التقييد -أي قبل نبينا عليه السلام- ولم ينقل أحد عنه أن ذلك في هذه المسألة، وإن توهم أحد ذلك عليه فقد أخطأ، ويجب عليه النزوع وعدم اعتقاده، وأن لا ينسب إلى رجل عالم ما يخالف الإجماع، فيكون قد جنى عليه جناية يطالبه بها بين يدي الله تعالى.

وقال أيضا في نفس المصدر (٢/ ٦٠٩): ولم يقل الضحاك ولا أحد غيره باستمرار ذلك في هذه الملة، وإنما محل الخلاف في ذلك في الملل المتقدمة خاصة، وأما في هذه الملة فمحمد ﷺ هو المرسل إليهم وإلى غيرهم، والاستدلال بالإجماع في ذلك صحيح.

وإليك تفصيل هذه الأقوال مع ذكر أدلتها:

القول الأول: وهو قول الجمهور بأن رسل الجن هم من البشر وليسوا من الجن.

قال شيخ الإسلام في النبوات: واختلفوا: هل يكون في الجن رسل؟ والأكثرون على أنّه لا رسل فيهم، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالًا نُوحِي إِلَيهِمْ مِنْ أَهْلِ القُرَى} ا. هـ

وقال ابن نجيم في الأشباه والنظائر (٢/ ٣٣٠): الجمهور على أنه لم يكن من

=

=

الجن نبي ا. هـ

وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص: ٦٦): وجمهور الخلف والسلف أنه لم يكن فيهم رسول ولا نبي خلافًا للضحاك ا. هـ

وقال الشبلي في آكام المرجان (ص٣٤): وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا على أنه لم يكن من الجن قط رسول، ولم تكن الرسل إلا من الإنس، ونقل معنى هذا عن ابن عباس، وابن جريج، ومجاهد، والكلبي، وأبي عبيد، والواحدي ا. هـ

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (١/ ٤١٦): ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولًا ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر ليس شيء منها للجن وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون، فليس في الجن صنف من هؤلاء بل حليتهم الصلاح ا. هـ

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب كما في مؤلفات الشيخ القسم الرابع -التفسير- (ص١٧٩)، (وص ٢١١ - ٢١٢)، (وص٢٥٣): وأن الرسل من البشر كلهم رجال، وليس في الجن ولا في النساء رسل، وأنهم من أهل القرى ا. هـ

وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ١٨٨): قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} الآية.

قال بعض العلماء: المراد بالرسل من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلغونه إلى قومهم، ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في قوله: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [٤٦/ ٢٩].

وقال بعض العلماء: {رُسُلٌ مِنْكُمْ} [٦/ ١٣٠]، أي من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس: لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مرادًا بعضه، كقوله: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} [٧١/ ١٦]،

=

وقوله: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} [٩١/ ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [٥٤/ ٢٩]، واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية: من أن قوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [٥٥/ ٢٢]، يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط كبير، لا يجوز القول به. لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى، لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب، بقوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [٣٥/ ١٢]، ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منها جميعًا بقوله: {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}، والحلية المذكورة هي اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحًا، كما ترى.

استدل الجمهور بالكتاب والسنة.

أولًا: الأدلة من الكتاب: ومنها:

١ - قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى) [يوسف: ١٠٩]. قال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٧٤): وهذا رد على القائلين: (وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) [الأنعام: ٨]. أي: أرسلنا رجالًا ليس فيهم امرأة، ولا جني، ولا ملك.. قال الحسن: لم يبعث الله نبيًا من أهل البادية قط، ولا من النساء، ولا من الجن.. قال العلماء: من شرط الرسول أن يكون آدميا مدنيًا، وإنما قالوا آدميًا تحرزًا من قوله: يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا [الجن: ٦]. والله أعلم ا. هـ.

وقال الإمام ابن القيم طريق الهجرتين (١/ ٤١٦) في الآية: فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيًا، ولا امرأة، ولا بدويًا، وأما تسميته تعالى الجن رجالًا في قوله: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) [الجن: ٦]. فلم

=

يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: (مِّنَ الْجِنِّ) فهم رجال من الجن، ولا يستلزم دخولهم في الرجال عند الإطلاق، كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه ا. هـ

٢ – قوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) [النساء: ١٦٣]. وقوله تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) [العنكبوت: ٢٧]. وذلك إخبارًا عن إسماعيل عليه السلام.

فهذه الآيات قد أخبرت أن الله قد جعل النبوة في الرجال من البشر، ولو كان في الجن رسل وأنبياء لأخبر القرآن بذلك، والآيات السالفة إخبار من الله عن إبراهيم عليه السلام أن الله قد جعل النبوة في ذريته من بعده، قال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٤٠): فلم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم إلا من صلبه ا. هـ

٣ – قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ) [الفرقان: ٢٠].

فقد أخبر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن الرسل الذين بعثهم قبله كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، والمقصود بذلك أنهم بشر، وليس في الآية ما يدل على بعث الرسل من خلاف الإنس.

٤ – قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) [آل عمران: ٣٣].

قال الرازي في تفسيره (١٣/ ١٩٥): وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء فقط ا. هـ، فلا يدخل فيه الجن أو غيرهم من البشر.

=

=

٥ - قوله تعالى: (إخبارًا عن النفر من الجن الذين ولوا إلى قومهم منذرين بعد سماعهم القرآن من الرسول ﷺ: إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأحقاف: ٣٠].

والذي نفهمه من هذه الآية أن هذا النفر من الجن كان منهم من آمن بموسى عليه السلام، مما يدل على أنه مرسل إليهم، وقد نقل القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢١٧): عن ابن عباس: أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى، فلذلك قالت: أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى.. قال مقاتل: ولم يبعث الله نبيًا إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ ا. هـ وفي هذا دليل على أنه لم يبعث إلى الجن رسولًا منهم.

ثانيًا: الأدلة من السنة:

أخرج مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود..) الحديث.

فإخباره عليه الصلاة والسلام أن كل نبي من الأنبياء السابقين كان يبعث إلى قومه خاصة فيه دليل على أن الجن لم يبعث إليهم رسول منهم، وذلك أن القوم في اللغة: هم جماعة الرجل من الرجال والنساء، فتخصيص الحديث بعث الرسل السابقين إلى أقوامهم بقوله: (إلى قومه) فيه دليل على أنهم جماعة ذلك النبي من الناس دون الجن، إذ لم يعهد في اللغة إطلاق لفظ القوم على جماعة الرجل من الجن.

وقوله عليه الصلاة والسلام بعد ذلك: (وبعثت إلى كل أحمر وأسود) فيه مزيد بيان لما قلناه، حيث إن رسالة من قبله من الأنبياء كانت لأقوامهم من البشر خاصة، وامتاز نبينا عليه الصلاة والسلام على غيره من الأنبياء بأنه قد بعث إلى الجن والإنس جميعًا، كما نص على ذلك الحديث المتقدم، وفي هذا دلالة على

=

=

أنه لم يكن في الجن رسل منهم.

وأما من ذكر بأن الرسل السابقين قبل نبينا عليه الصلاة والسلام كانوا يبعثون إلى الإنس والجن جميعًا - كما ذكر الكلبي - فإن ذلك معارض بالحديث المتقدم، حيث اختص الرسول ﷺ على غيره من الأنبياء بأنه بعث إلى الجن والإنس جميعًا، ولم يحصل هذا لغير نبينا عليه الصلاة والسلام.

القول الثاني: بأن في الجن نذرًا، وليس منهم رسل، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم من السلف...

قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٨٦): وقال ابن عباس: رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي كما قال: (وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) ثم قال: وقال مجاهد: الرسل من الإنس والنذر من الجن ثم قرأ: (إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) يقول القرطبي: وهو - أي قول مجاهد - معنى قول ابن عباس، وهو الصحيح ا. هـ

وقال شيخ الإسلام في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص٣٦٣): وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس، ولم يبعث من الجن رسول، لكن منهم النذر ا. هـ.

وقال الإمام ابن القيم طريق الهجرتين (١/ ٤١٦): قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر ا. هـ

وقال الإمام الطبري في تفسيره (٢٦/ ٣١): عن ابن عباس وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ [الأحقاف: ٢٩]، قال كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلى قومهم ا. هـ

وقال السبكي في فتاواه (٢/ ٦١٨): والذين خالفوا الضحاك في تمسكه بظاهر قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) [الأنعام: ١٣٠]. إنما يؤلون هذه الآية، فقد قال ابن عباس ومجاهد وابن جريج وأبو عبيد: معناه: أن

=

=

رسل الإنس رسل من الله إليهم، ورسل الجن قوم من الجن ليسوا رسلًا عن الله، ولكن بثهم الله في الأرض، فسمعوا كلام رسل الله، الذين هم من بني آدم، وجاءوا إلى قومهم من الجن فأخبروهم، كما اتفق للذين صرفهم الله إلى النبي ﷺ واستمعوا القرآن وولوا إلى قومهم منذرين، فهم رسل عن الرسل، لا رسل عن الله تعالى، ويسمون نذرًا، ويجوز تسميتهم رسلًا، لتسمية رسل عيسى رسلًا في قوله تعالى: (إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) [يس: ١٤] وجاء قوله: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ على ذلك، فالرسل على الإطلاق من الإنس، وهم رسل الله، والنذر من الجن، وهم رسل الرسل ويجوز تسميتهم رسلًا ا. هـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (ص٤٩٦): ولكن يبقى النظر هل أرسل من الجن رسول؟ فيه خلاف، قيل لا، لقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (يوسف: الآية ١٠٩)، وقيل: بل منهم رسول لقول الله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) (الأنعام: الآية ١٣٠) فهو يخاطب الجن والإنس يقول: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) إنس من الإنس وجن من الجن.

وأما قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) (يوسف: الآية ١٠٩) فإن الذكور من الجن يسمون رجالًا، كما قال الله تعالى: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ) (الجن: الآية ٦)، فالجن فيهم رجال كما في هذه الآية الكريمة، وعلى هذا فلا يتم الاستدلال بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)، ويكون ظاهر قوله: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) أن من الجن رسلًا.

والذين قالوا: إنه ليس من الجن رسل، أجابوا عن قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ

=

=

وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) قالوا: إن الخطاب باعتبار المجموع لا باعتبار الجميع، فهو كقوله تعالى في البحرين: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) (الرحمن: ٢٢)، واللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من المالح على المشهور.

قالوا أيضًا: إن حكمة الله تعالى تأبى ذلك؛ لأن الرسالة تشريف وتكريم وتعظيم، والجن أصلهم من النار وأبوهم إبليس سيد المتكبرين، وقائد الكافرين، فليس من الحكمة أن يكرم هؤلاء بالرسالة، وإنما يتلقون التعاليم مما جاء إلى البشر، كما قال تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القرآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) (الاحقاف: ٢٩) (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) (الاحقاف: ٣٠) (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الاحقاف: ٣١) فقالوا: إن الجن ليس منهم رسل لكن منهم نذر؛ حيث قال تعالى: (وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)، فيتلقى هؤلاء النذر مما جاءت به الرسل وينذرون بها قومهم ا. هـ

(تنبيه): القول الثاني لا يخالف قول الجمهور من كل وجه، وفيه أيضا توجيه لقوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) وعلى هذا الأساس فهو لا يخالف رأي الجمهور مطلقا، بل يؤيده ويدعمه من ناحية أنه يوافق قول الجمهور فيه أنه لم يبعث إلى الجن رسل منهم بل الرسل من الإنس فقط، وأدلة الفريق الثاني هي نفس أدلة الفريق الأول.

القول الثالث: القائلون بأن في الجن رسلًا منهم، وهو قول الضحاك، وذكر القرطبي ذلك عن مقاتل رَحِمَهُ اللهُ فقال في تفسيره (٧/ ٨٦): وقال مقاتل والضحاك: أرسل الله رسلًا من الجن كما أرسل من الإنس ا. هـ.

وذكر الإمام الطبري في تفسيره (٨/ ٣٦): أنه يوجد غير الضحاك من القائلين بهذا

=

=

القول فقال: (وأما الذين قالوا بقول الضحاك فإنهم قالوا: إن الله أخبر أن من الجن رسلًا أرسلوا إليهم، كما أخبر أن من الإنس رسلًا أرسلوا إليهم ا. هـ

فلعل ابن جرير قصد مقاتلًا رَحِمَهُ اللهُ.

ونقل الألوسي هنا: أن الذين ذكروا بأن من الجن أنبياء منهم قد صرحوا بأن رسولًا منهم يسمى يوسف ا. هـ.

وقال ابن حزم في الفصل (٣/ ٢٦٤): ولم يبعث إلى الجن نبي من الإنس البتة قبل محمد ﷺ، لأنه ليس الجن من قوم إنسي، وباليقين ندري أنهم قد أنذروا، فصح أنه جاءهم أنبياء منهم قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ا. هـ

استدل هذا الفريق على ما ذهب إليه بما يلي:

١ - قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ).

قال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٣): وظاهره أن الله بعث في الدنيا إلى الجن رسلًا منهم، كما بعث إلى الإنس رسلًا منهم ا. هـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية: وظاهر القرآن يشهد للضحاك، والأكثرون في خلافه ا. هـ

وقال الألوسي هنا: وظاهر الآية يقتضي إرسال الرسل إلى كل من المعشرين من جنسهم ا. هـ

وقال العلامة الوادعي في تحفة المجيب (ص٣٦٢): ففي هذه الآية الكريمة أنه أرسل إليهم وقد اختلف العلماء هل من الجن رسل، أم الرسل من الأنس؟ وظاهر الآية أن منهم رسلًا، ولا يضرنا ذلك ا. هـ

ووجه استدلال الضحاك بهذه الآية: أن الله خاطب الجن والإنس بأنه قد بعث إليهم رسلًا منهما، بدليل قوله تعالى: (مِّنكُمْ) وهو يقتضي بعث الرسل إلى الجن

=

=

منهم وبعث الرسل إلى الإنس منهم كذلك.

٢ - وذكر الفخر الرازي في تفسيره (١٣/ ١٩٥): أن الضحاك احتج بقوله بإرسال الرسل إلى الجن منهم بقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر: ٢٤]. ثم قال الرازي: ويمكن أن يحتج الضحاك بوجه آخر وهو قوله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) [الأنعام: ٩]. قال المفسرون: السبب في استئناس الإنسان بالإنسان أكمل من استئناسه بالملك، فوجب في حكمة الله تعالى أن يجعل رسول الإنس من الإنس ليكمل هذا الاستئناس، إذا ثبت هذا المعنى فهذا السبب حاصل في الجن، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن.

٣ - ذكر ابن نجيم في الأشباه والنظائر (ص٣٣٠): أن الضحاك وابن حزم احتجا على أنه كان من الجن نبي بقوله عليه الصلاة والسلام: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة... الحديث). قال: وليس الجن من قومه، ولا شك أنهم أنذروا، فصح أنه جاءهم أنبياء منهم.

قال ابن حزم في المحلى (٧/ ٤٩٣): قال الله تعالى: (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) قال -أي الطحاوي-: فانما يخرج اللؤلؤ والمرجان من أحدهما، قال: ومثل قوله تعالى: (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) قال: وانما الرسل من الانس لامن الجن قال أبو محمد ابن حزم: صدق الله وكذب الطحاوي وكذب من أخبره بما ذكر بل اللؤلؤ والمرجان خارجان من البحرين اللذين بينهما البرزخ فلا يبغيان، ولقد جاءت الجن رسل منهم بيقين لانهم بنص القرآن متعبدون موعودون بالجنة والنار، وقد صح ما روينا من طريق مسلم بن الحجاج نا قتيبة نا اسماعيل - هو ابن جعفر - عن العلاء - هو ابن عبد الرحمن - عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول

=

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١).

{ذَلِكَ} أَيْ إِرْسَال الرُّسُل {أَنَّ} اللَّام مُقَدَّرَة وَهِيَ مُخَفَّفَة أَيْ لِأَنَّهُ {لَمْ يَكُنْ رَبّك مُهْلِك الْقُرَى بِظُلْمٍ} مِنْهَا {وَأَهْلهَا غَافِلُونَ} لَمْ يُرْسَل إِلَيْهِمْ رَسُول يُبَيِّن لَهُمْ[1].

=

الله ﷺ قال (فضلت على الانبياء بست) فذكر منها (وأرسلت إلى الخلق كافة)، ومن طريق البخاري نا محمد بن سنان العوفى نا هشيم انا سيار نا يزيد - (هو ابن صهيب) الفقير انا جابر بن عبد الله ان رسول الله ﷺ قال: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى) فذكر فيها (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) ومن طريق الحجاج بن المنهال نا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى وحميد كليهما عن أنس (أن رسول الله ﷺ قال: أعطيت أربعا لم يعطها نبى قبلى أرسلت إلى كل أحمر وأسود) وذكر باقى الخبر، فصح بنقل التواتر أن رسول الله ﷺ بعث وحده إلى الجن والانس وانه لم يبعث نبى قبله قط الا إلى قومه خاصة، وقال تعالى: (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)، وقال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فصح يقينا أنهم مذ خلقوا مأمورون بعبادة الله تعالى، وصح بما ذكرنا من السنن القاطعة انه لم يبعث إليهم نبى من الانس قبل محمد عليه السلام، والجن ليسوا قوم أحد من الانس فصح يقينا انهم بعث إليهم أنبياء منهم.

(١) قوله تعالى: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)} [الأنعام: ١٣١]

أي: إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يعاقب أحد بظلمه ، وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذبنا أحدًا إلا بعد إرسال الرسل إليهم، وإنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإنذارهم سوء العاقبة".
قال تعالى: (ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)

=

كما قال تعالى (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا).

وقال تعالى (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا).

قال الشنقيطي: قوله تعالى (ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) النفي في هذه الآية الكريمة منصب على الجملة الحالية ، والمعنى أنه لا يهلك قومًا في حال غفلتهم ، أي عدم إنذارهم ، بل لا يهلك أحدًا إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، كما بين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولًا) ، وقوله (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل) ، وقوله (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِير) ، وقوله (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) إلى غير ذلك من الآيات.

قال الطبري: " أي: بشرك مَنْ أشرك، وكفر مَنْ كفر من أهلها، كما قال لقمان: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان: ١٣]".

قال الزجاج: أي: " ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل أمر عذاب من كذب بها لأنه لم يكن مهلك القرى بظلم، أي لا يهلكهم حتى يبعث إليهم رسولا".

قال البغوي: " أي: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم، لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم، أي: لم يكن مهلكهم بظلم، أي: بشرك من أشرك".

قال ابن كثير: " أي: إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب".

قوله تعالى: {وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} [الأنعام: ١٣١]، أي: " لأن ربك عادل لم يكن

=

ليهلك قومًا حتى يبعث إليهم رسولًا".

قال البغوي: أي: {غافلون} "لم ينذروا، حتى يبعث إليهم رسلا ينذرونهم".

قال الطبري: " يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسلا تنبههم على حجج الله عليهم، وتنذرهم عذاب الله يوم معادهم إليه، ولم يكن بالذي يأخذهم غَفْلة فيقولوا: «ما جاءنا من بَشِيرٍ ولا نذير»".

وفي تفسير قوله تعالى: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} [الأنعام: ١٣١]، قولان:

أحدهما: وما كان ربك مهلك القرى بظلم منه ولكن بحق استوجبوا به الهلكة، وهو معنى قول مقاتل، وبه قال الزجاج، وهو اختيار الطبري، وابن كثير.

قال البغوي: "وذلك أن الله تعالى أجرى السنة أن لا يأخذ أحدا إلا بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنبا إذا أمر فلم يأتمر ونهي فلم ينته، يكون ذلك بعد إنذار الرسل".

والثاني: وما كان ربك مهلك القرى بظلم أهلها حتى يقدم إنذارهم ويرفع أعذارهم ويخرجوا من حكم الغافلين فيما ينزل بهم، وهو معنى قول مجاهد، والكلبي، وبه قال الفراء.

قال الطبري: " وأولى القولين بالصواب عندي، القولُ الأول: أن يكون معناه: أن لم يكن ليهلكهم بشركهم، دون إرسال الرسل إليهم، والإعذار بينه وبينهم. وذلك أن قوله: {ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم}، عقيب قوله: {ألم يأتكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتي}، فكان في ذلك الدليل الواضحُ على أن نصَّ قوله: {ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم}، إنما هو: إنما فعلنا ذلك من أجل أنَّا لا نهلك القرى بغير تذكيرٍ وتنبيه".

قال ابن عاشور: والإهلاك: إعدام ذات الموجود وإماتةُ الحيّ ، فإهلاك القرى

=

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢).

{ولكل} من العالمين {دَرَجَات} جَزَاء {مِمَّا عَمِلُوا} مِنْ خَيْر وَشَرّ {وَمَا رَبّك بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء[1].

=

إبادة أهلها وتخريبها ، وإحياؤها إعادةُ عُمرانها بالسكّان والبناء ، قال تعالى (أنَّى يحيي هذه (أي القريةَ) الله بعد موتها).

وقال: الباء في (بِظلم) للسّببيّة ، والظلم: الشّرك ، أي مهلكهم بسبب شرك يَقع فيها فيهلكها ويهلك أهلها الّذين أوقعوه ، ولذلك لم يقل: بظلم أهلها ، لأنَّه أريد أن وجود الظلم فيها سببُ هلاكها ، وهلاكُ أهلها بالأحرى لأنَّهم المقصود بالهلاك.

وجملة (وأهلها غافلون) حال من (القرى) ، وصرح هنا بـ (أهلها) تنبيها على أنّ هلاك القُرى من جراء أفعال سكّانها (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا).

(١) قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا} [الأنعام: ١٣٢]، أي: " ولكل عامل في طاعة الله تعالى أو معصيته مراتب من عمله، يبلِّغه الله إياها، ويجازيه عليها".

قال الطبري: أي: " ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته، منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا".

قال البغوي: " يعني: في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا، فمنهم من هو أشد عذابا ومنهم من هو أجزل ثوابا".

قال ابن كثير: " ويحتمل أن يعود قوله: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا}، أي: من كافري الجن والإنس، أي: ولكل درجة في النار بحسبه، كقوله تعالى: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ [وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٨]، وقوله: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} [النحل: ٨٨]".

قال سعيد بن جبير: " {درجات}، يعني: فضائل ورحمة".

قال ابن أبي ليلى: "لهم ثواب، يعني: للجن، فوجدنا تصديق قوله في كتاب الله:

=

=

{ولكل درجات مما عملوا}".

قال القرطبي: " {ولكل درجات مما عملوا}، أي: من الجن والإنس، كما قال في آية أخرى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [الأحقاف: ١٨]، ثم قال: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الأحقاف: ١٩]. وفي هذا ما يدل على أن المطيع من الجن في الجنة، والعاصي منهم في النار، كالإنس سواء. وهو أصح ما قيل في ذلك فاعلمه".

فلكل واحد من المطيعين والعاصين درجات ، أي: منازل ومراتب يستحقونها بأعمالهم ، فمنهم من هو بدرجته في أعلى الجنان ، ومنهم من هو بأعماله في دركات النار ، وقد بين تعالى أن الآخرة يتفاوت أهلها بدرجاتهم كما في قوله (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) ، وبيّن أن أهل النار يتفاوتون في دركاتهم فقال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا).

قال السعدي: (وَلِكُلٍّ) منهم (دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرءوس كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم، قد رضوا بما آتاهم مولاهم، وقنعوا بما حباهم. فنسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى، التي أعدها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل الصفوة من أهل وداده.

قوله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٣٢]، أي: " وما ربك – أيها الرسول– بغافل عما يعمل عباده".

فيجازي كلا بحسب علمه، وبما يعلمه من مقصده، وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمة بهم، وقصدا لمصالحهم. وإلا فهو

=

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣).

{وَرَبّك الْغَنِيّ} عَنْ خَلْقه وَعِبَادَتهمْ {ذُو الرَّحْمَة إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة بِالْإِهْلَاكِ {وَيَسْتَخْلِف مِنْ بَعْدكُمْ مَا يَشَاء} مِنْ الْخَلْق {كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّة قَوْم آخَرِينَ} أَذْهَبهُمْ ولكنه أبقاكم رحمة لكم(١).

=

الغني بذاته، عن جميع مخلوقاته، فلا تنفعه طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العاصين.

قال القرطبي: " أي: ليس بلاه ولا ساه. والغفلة أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربِّك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه".

قرأ ابن عامر وحده: {وما ربك بغافل عما تعملون} بالتاء، وقرأ الباقون: بالياء.

(١) قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ} [الأنعام: ١٣٣]، أي: "وربك -أيها الرسول- الذي أمر الناس بعبادته، هو المستغني عن الخلق وعبادتهم، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية".

قال البغوي: يعني: "عن خلقه".

قال القرطبي: " أي: عن خلقه وعن أعمالهم".

قال البيضاوى: " (وَرَبُّكَ الغنى) عن العباد والعبادة".

قال ابن كثير: " أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: {وربك}، يا محمد، الذي أمر عباده بما أمرهم

=

=

به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية {الغني}، عن عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالهم وعبادتهم إياه، وهم المحتاجون إليه، لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم".

فالله غني عن كل ما سواه ، غني في نفسه لكثرة ما عنده ، غني عن خلقه ، كما قال تعالى (فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) له ملك السموات والأرض ، وخزائن السموات والأرض كلها بيده ، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ، فخزائنه ﷻ ملأ ، لا يغيضها كثرة الإنفاق ، وليس بحاجة إلى خلقه ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وكل شيء فقير إليه.

قال ابن القيم: هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه ، وليس به حاجة إلى أحد.

وقال السعدي: هو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيًا، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقًا قادرًا رازقًا محسنًا فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عامًا.

قال: ومن كمال غناه: أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا شريكًا في الملك ، ولا وليًا من الذل.

وقال الخطابي: الغني: هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لمُلكه، فليست به حاجة إليهم، وهم إليه فقراء محتاجون.

فغنى الله يتضمن شيئين: الأول: الغنى الذاتي ، لكثرة ما يملكه ، إذ كل شيء ملكه

=

=

، والثاني: الغنى عن الغير ، فلا يحتاج إلى أحد وغيره محتاج إليه.

ومن غنى الله أنه منزه عن الولد ، لأن الولد إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره ، والله سبحانه وتعالى غني ، وقد أشار إلى ذلك بقوله (قَالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ).

قوله تعالى: {ذُو الرَّحْمَةِ} [الأنعام: ١٣٣].

أي: وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف، كما قال تعالى (إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ).

قال أبو حيان: لما ذكر تعالى من أطاع ومن عصى والثواب والعقاب ذكر أنه هو الغني من جميع الجهات لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ، ومع كونه غنيًا هو ذو الرحمة أي التفضل التام.

- قال الشوكاني: قوله (وَرَبُّكَ الغنى) أي: عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم ، ولا يضرّه كفرهم ، ومع كونه غنيًا عنهم ، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعًا من رحمته لهم ، وما أحسن هذا الكلام الرباني وأبلغه ، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة في هذا المقام ، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هي غاية التفضل والتطوّل.

ومن أعظم آثار رحمة الله تعالى إرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للناس وإخراجًا لهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ).

- ومن رحمته: سبحانه مغفرته لذنوب عباده بالصفح عنهم ، وتكفير سيئاتهم ، وفتح باب التوب لهم ، كما قال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

=

=

ينبغي على العبد أن يتصف بصفة الرحمة ، فقد مدح بها أشرف رسله فقال (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ، ومن أسمائه ﷺ (نبي الرحمة) ومدح الصحابة بقوله (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ).

قال ابن كثير: " أي: وهو مع ذلك رحيم بهم رؤوف، كما قال تعالى: {إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٤٣]".

قال أبو السعود: " أي: يترحم عليهم بالتكليف تكميلا لهم ويمهلهم على المعاصي، وفيه تنبيهٌ على أنَّ ما سلف ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد".

قال القرطبي: " أي: بأوليائه وأهل طاعته".

قال ابن عباس: "ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته".

وقال الكلبي: "بخلقه ذو التجاوز".

قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} [الأنعام: ١٣٣]، أي: " لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال".

قال البغوي: أي: " يهلككم، وعيد لأهل مكة".

قال القرطبي: أي: "بالإماتة والاستئصال بالعذاب".

قال الطبري: " يقول: إن يشأ ربُّك، يا محمد، الذي خلق خلقه لغير حاجة منه إليهم وإلى طاعتهم إياه {يذهبكم}، يقول: يهلك خلقه هؤلاء الذين خلقهم من ولد آدم".

قال ابن كثير: " أي: إذا خالفتم أمره".

قوله تعالى: {وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ} [الأنعام: ١٣٣]، أي: " وأوجد قومًا غيركم يخلفونكم من بعد فنائكم، ويعملون بطاعته تعالى".

قال الطبري: " يقول: ويأت بخلق غيركم وأمم سواكم، يخلفونكم في الأرض من

=

إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤).

=

بعد فنائكم وهلاككم".

قال البغوي: أي: " يخلق وينشئ خلقا غيركم أمثل وأطوع"

قوله تعالى: {كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [الأنعام: ١٣٣]، أي: " كما خلقكم وابتدأكم من بعد آخرين كانوا قبلكم".

قال البغوي: " أي: آبائهم الماضين قرنا بعد قرن"

قال الطبري: " كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم، وأصل «الإنشاء»، الإحداث. يقال: قد أنشأ فلان يحدِّث القوم، بمعنى ابتدأ وأخذ فيه".

قال ابن كثير: " أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه، يسير لديه، كما أذهب القرون الأوَل وأتى بالذي بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر: ١٥ - ١٧]، وقال تعالى: {وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨]".

قال أبان بن عثمان: "{كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين}، قال: الذرية الأصل، والذرية النسل".

قال أبو حيان: " وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك".

قال الخازن: (إن يشأ يذهبكم) يعني يهلككم ، الخطاب لأهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم (ويستخلف) يعني وينشئ ويخلق (من بعدكم) يعني من بعد إهلاككم (ما يشاء) يعني خلقًا غيركم أمثل وأطوع منكم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين).

قال أبو حيان: وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإهلاك.

{إنمـا تُوعَـدُونَ} مِـنْ الـسَّاعَة وَالْعَـذَاب {لَآتٍ} لَا مَحَالَـة {وَمَـا أَنْـتُمْ بِمُعْجِزِينَ} فَائِتِينَ عَذَابنَا(١).

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ} [الأنعام: ١٣٤].

أي الذي توعدونه من البعث وما يتفرَّع عليه من الأمور الهائلةِ وصيغةُ الاستقبال للدِلالة على الاستمرار التجددي {لأَتٍ} لواقعٌ لا محالة كقوله تعالى إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لواقع وإيثارُه عليه لبيان كمالِ سرعةِ وقوعِه بتصويره بصورة طالبٍ حثيثٍ لا يفوته هاربٌ حسبما يُعرب عنه قوله تعالى {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} أي بفائتين ذلك وإن ركِبتم في الهرب متنَ كلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ كما أن إيثارَ صيغةِ الفاعلِ على المستقبل للإيذان بكمال قربِ الإتيان والمرادُ بيانُ دوامِ انتفاءِ الإعجازِ لا بيانُ انتفاءِ دوامِ الإعجاز فإن الجملة الاسميةَ كما تدل على دوام الثبوتِ تدل بمعونة المقام إذا دخل عليها حرف النفي على دوام الانتفاءِ لا على انتفاء الدوامِ كما حُقّق في موضعه.

قال البغوي: " أي: ما توعدون من مجيء الساعة والحشر كائن"

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للمشركين به: أيها العادلون بالله الأوثانَ والأصنامَ، إن الذي يُوعدكم به ربكم من عقابه على إصراركم على كفركم، واقعٌ بكم".

قال ابن كثير: " أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [الأنعام: ١٣٤]، أي: " لا تخرجون عن قدرتنا وعقابنا وإن ركبتم في الهرب متن كل صعبٍ وذَلول".

عن ابن عباس: قوله: "{وما أنتم بمعجزين}، يقول: بمسابقين".

قال البغوي: " أي: بفائتين، يعني: يدرككم الموت حيث ما كنتم".

=

قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥).

{قُلْ} لَهُمْ {يَا قَوْم اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتكُمْ} حَالَتكُمْ {إِنِّي عَامِل} عَلَى حَالَتِي {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ} مَوْصُولَة مَفْعُول الْعِلْم {تَكُون لَهُ عَاقِبَة الدَّار} أَيْ الْعَاقِبَة الْمَحْمُودَة فِي الدَّار الْآخِرَة أَنَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ {إِنَّهُ لَا يُفْلِح} يَسْعَد {الظالمون} الكافرون(١).

=

قال القرطبي: "أي فائتين، يقال: أعجزني فلان، أي فاتني وغلبني".

قال ابن كثير: " أي: ولا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم ترابًا رفاتًا وعظامًا هو قادر لا يعجزه شيء".

قال الطبري: "يقول: لن تعجزوا ربّكم هربًا منه في الأرض فتفوتوه، لأنكم حيث كنتم في قبضته، وهو عليكم وعلى عقوبتكم بمعصيتكم إيّاه قادر. يقول: فاحذرُوه وأنيبوا إلى طاعته، قبل نزول البلاء بكم".

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: "يا بني آدم، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده {إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين}".

(١) قوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} [الأنعام: ١٣٥]، أي: " أي قل لهم يا محمد يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعملوا ما أنتم عاملون".

وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، أي: استمروا على طريقكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي، كما قال تعالى (وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ. وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ).

- والأمر هنا للتهديد ، كقوله (اعملوا ما شئتم) وفيه إظهار ما هو عليه ﷺ في غاية

=

=

التصلب في الدين ، ونهاية الوثوق بأمره ، وعدم المبالاة بأعدائه أصلًا.

قال الطبري: " يقول: اعملوا على حِيالكم وناحيتكم، [وهو] أمرٌ منه له بوعيدهم وتهدّدهم، لا إطلاقٌ لهم في عمل ما أرادُوا من معاصي الله".

قال ابن كثير: " هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: استمروا على طريقكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى".

وفي قوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} [الأنعام: ١٣٥]، خمسة تأويلات:

أحدها: على طريقتكم.

والثاني: على حالتكم.

والثالث: على ناحيتكم، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والضحاك.

والرابع: على تمكنكم، قاله الزجاج.

والخامس: على منازلكم، قاله قتادة، والكلبي.

وعن قتادة: " {اعملوا على مكانتكم}، أي: منازلكم".

والسادس: على جيلتكم. قاله مقاتل.

وقرء: «عَلَى مَكَانَاتِكُمْ»، على جمع: «المكانة».

قوله تعالى: {إِنِّي عَامِلٌ} [الأنعام: ١٣٥]، أي: " إني عاملٌ ما أمرني به ربي من الثبات على دينه".

قال ابن كثير: أي: "فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه، لنبيه: قل لهم: اعملوا ما أنتم عاملون،، فإني عامل ما أنا عامله مما أمرني به ربي".

قوله تعالى: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ} [الأنعام: ١٣٥]، أي: " أي فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم

=

=

أنتم؟".

قال مقاتل: " يعنى: الجنة، أنحن أم انتم؟".

قال السعدي: أي: " أنا أو أنتم، وهذا من الإنصاف بموضع عظيم، حيث بيَّن الأعمال وعامليها، وجعل الجزاء مقرونا بنظر البصير، ضاربا فيه صفحا عن التصريح الذي يغني عنه التلويح. وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عقبى الدار، وأن كل معرض عما جاءت به الرسل، عاقبته سوء وشر".

قال الطبري: أي: " فسوف تعلمون، أيها الكفرة بالله، عند معاينتكم العذابَ، مَن الذي تكون له عاقبة الدار منا ومنكم، يقول: من الذي تُعْقبه دنياه ما هو خير له منها أو شر منها، بما قدَّم فيها من صالح أعماله أو سَيِّئها".

قال ابن كثير: " أي: أتكون لي أو لكم. وقد أنجز موعده له، صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكن له في البلاد، وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك في حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه، رضي الله عنهم أجمعين، كما قال الله تعالى: {كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢٠]، وقال {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ. يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى إخبارًا عن رسله: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} [إبراهيم: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

=

=

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} الآية [النور: ٥٥]، وقد فعل الله تعالى ذلك بهذه الأمة، وله الحمد والمنة أولا وآخرًا، باطنًا وظاهرًا".

وفي قوله تعالى: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ} [الأنعام: ١٣٥]، وجهان:

أحدهما: تعلمون ثواب الآخرة بالإيمان، وعقابها بالكفر ترغيبًا منه في ثوابه وتحذيراُ من عقابه.

والثاني: تعلمون نصر الله في الدنيا لأوليائه، وخذلانه لأعدائه، قاله ابن بحر.

وقرأ حمزة والكسائي: {يكون له}، بالياء.

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام: ١٣٥]، أي: " إنه لا ينجح ولا يفوز بمطلوبه من كان ظالمًا".

قال الطبري: " يقول: إنه لا ينجح ولا يفوز بحاجته عند الله مَنْ عمل بخلاف ما أمره الله به من العمل في الدنيا وذلك معنى: «ظلم الظالم»، في هذا الموضع".

قال السعدي: " فكل ظالم، وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته فيه الاضمحلال والتلف «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته»".

عن ابن عباس: "قوله: {الظالمون}، يعني: لا أقبل ما كان في الشرك".

قال مقاتل: " يعني: لا يسعد الظالمون في الآخرة، يعني: المشركين".

قال الزمخشري: "في الآية طريقٌ من الإنذار لطيف المسلك، فيه إِنصاف في المقال وأدبٌ حسن، مع تضمن شدة الوعيد، والوثوق بأن المُنْذر محِقٌّ، والمْنذَر مبطل".

حكم الآية الكريمة:

وللمفسرين في نسخ قوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ

=

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦).

{وَجَعَلُوا} أَيْ كُفَّار مَكَّة {لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ} خَلَقَ {مِنْ الْحَرْث} الزَّرْع {وَالْأَنْعَام نَصِيبًا} يَصْرِفُونَهُ إِلَى الضِّيفَان وَالْمَسَاكِين وَلِشُرَكَائِهِمْ نَصِيبًا يَصْرِفُونَهُ إِلَى سَدَنَتهَا {فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ} بِالْفَتْحِ وَالضَّمّ {وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا} فَكَانُوا إِذَا سَقَطَ فِي نَصِيب الله شَيْء مِنْ نَصِيبهَا الْتَقَطُوهُ أَوْ فِي نَصِيبهَا شَيْء مِنْ نَصِيبه تَرَكُوهُ وَقَالُوا إِنَّ الله غَنِيّ عَنْ هَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى {فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِل إِلَى الله} أَيْ لِجِهَتِهِ {وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِل إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ} بِئْسَ {مَا يَحْكُمُونَ} حُكْمهمْ هذا[1].

=

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ١٣٥]،قولان:

أحدهما: أن المراد بها ترك قتال الكفار، فهي منسوخة بآية السيف، ذكره هبة الله.

والثاني: أن المراد بها التهديد فعلى هذا هي محكمة.

واختار ابن الجوزي القول الثاني، وقال: "وهذا هو الأصح".

(١) قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا} [الأنعام: ١٣٦]، أي: " وجعل المشركون لله -جلَّ وعلا- جزءًا مما خلق من الزروع والثمار والأنعام يقدمونه للضيوف والمساكين".

لقد حكت هذه الآيات الكريمة بعض الرذائل التي كانت متفشية في المجتمع الجاهلى ، أما الرذيلة الأولى فملخصها أنهم كانوا يجعلون من زروعهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيبًا للّه ونصيبًا لأوثانهم ، فيشركونها في أموالهم فما كان للّه صرفوه إلى الضيفان والمساكين ، وما كان للأوثان أنفقوه عليها وعلى سدنتها فإذا

=

=

رأوا ما جعلوه للّه أزكى بدلوه بما للأوثان ، وإذا رأوا ما جعلوه للأوثان أزكى تركوه لها.

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيبًا) (ذرأ) بمعنى خلق يقال: ذرأ اللّه الخلق يذرؤهم ذرءا أى: خلقهم وأوجدهم ،

أى: وجعل هؤلاء المشركون مما خلقه اللّه تعالى من الزروع والأنعام نصيبا للّه يعطونه للمساكين وللضيوف وغيرهم ، وجعلوا لأصنامهم نصيبا آخر يقدمونه لسدنتها ، وإنما لم يذكر النصيب الذي جعلوه لأصنامهم اكتفاء بدلالة ما بعده وهو قوله (فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا) أى: فقالوا في القسم الأول: هذا للّه نتقرب به إليه ، وقالوا في الثاني: وهذا لشركائنا نتوسل به إليها.

وقوله تعالى في القسم الأول هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ أى: بتقولهم ووضعهم الذي لا علم لهم به ولا هدى.

ثم فصل - سبحانه - ما كانوا يعملونه بالنسبة للقسمة فقال (فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ ، وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ) أى: فما كان من هذه الزروع والأنعام من القسم الذي يتقرب به إلى شركائهم ، فإنهم يحرمون الضيفان والمساكين منه ولا يصل إلى اللّه منه شيء ، وما كان منها من القسم الذي يتقرب به إلى اللّه عن طريق إكرام الضيف والصدقة ، فإنهم يجورون عليه ويأخذون منه ما يعطونه لسدنة الأصنام وخدامها ، فهم يجعلون قسم الأصنام لسدنتها وأتباعها وحدهم ، بينما القسم الذي جعلوه للّه بزعمهم ينتقصونه ويضعون الكثير منه في غير موضعه ، ويقولون: إن اللّه غنى وإن آلهتنا محتاجة.

وقد عقب القرآن على هذه القسمة الجائرة بقوله (ساءَ ما يَحْكُمُونَ) أى: ساء وقبح حكمهم وقسمتهم حيث آثروا مخلوقًا عاجزًا عن كل شيء ، على خالق قادر على كل شيء ، فهم بجانب عملهم الفاسد من أساسه لم يعدلوا في القسمة.

=

=

قال ابن كثير: " هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعًا وكفرًا وشركًا، وجعلوا لله جزءًا من خلقه، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون؛ ولهذا قال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ} أي: مما خلق وبرأ {مِنَ الْحَرْثِ} أي: من الزروع والثمار {وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} أي: جزءا وقسما".

وفي نصيبهم من الأنعام ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كنصيبهم من الزرع مصروف في النفقة عليها وعلى خدامها.

والثاني: أنه قربان لأوثانهم كانوا يتقربون به إليها.

والثالث: أنه البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.

قوله تعالى: {فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ} [الأنعام: ١٣٦]، أي: " فقالوا: هذا نصيب الله، بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع".

قرأ الكسائي وحده: {بزعمهم}، مضمومة الزاي.

قوله تعالى: {وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا} [الأنعام: ١٣٦]، أي: " وهذا النصيب لآلهتنا وأصنامنا".

قوله تعالى: {فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ} [الأنعام: ١٣٦]، أي: " فما كان مخصصًا لشركائهم فإنه يصل إليها وحدها، ولا يصل إلى الله".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ} [الأنعام: ١٣٦]، أي: " وما كان مخصصا لله تعالى فإنه يصل إلى شركائهم".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِم فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ} [الأنعام: ١٣٦]، على أقوال:

أحدها: أنه كان إذا اختلط بأموالهم شيء مما جعلوه لأوثانهم، ردوه، وإذا اختلط بها ما جعلوه لله لم يردوه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والكلبي، واختاره الطبري.

=

=

قال الكلبي: "وكان لـ «خولان» صنم يقال له «عميانس» بأرض خولان، يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله ﷻ بزعمهم، فما دخل في حق الله من حق عميانس ردوه عليه وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي سموه له تركوه له، وهم بطن من خولان يقال لهم «الأدوم» وهم «الأسوم»، وفيهم نزل فيما بلغنا: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يحكمون}".

والثاني: أنه كان إذا هلك ما لأوثانهم غرموه، وإذا هلك ما لله لم يغرموه، قاله الحسن، والسدي.

والثالث: أنهم كانوا يصرفون بعض ما جعلوه لله في النفقة على أوثانهم ولا يفعلون مثل ذلك فيما جعلوه لأوثانهم، قاله بعض المتأخرين.

والرابع: أن كل شيء جعلوه لله من ذبائحهم لم يأكلوه حتى يذكروا عليه اسم أوثانهم، ولا يذكرون اسم الله فيما جعلوه لأوثانهم، قاله ابن زيد.

والراجح -والله أعلم- هو القول الاول، "لأن الله جل ثناؤه أخبر أنهم جعلوا لله من حرثهم وأنعامهم قسمًا مقدرُا، فقالوا: "هذا لله" وجعلوا مثله لشركائهم، وهم أوثانهم، بإجماع من أهل التأويل عليه، فقالوا: {هذا لشركائنا} وإن نصيب شركائهم لا يصل منه إلى الله، بمعنى: لا يصل إلى نصيب الله، وما كان لله وصَل إلى نصيب شركائهم. فلو كان وصول ذلك بالتسمية وترك التسمية، كان أعيان ما أخبر الله عنه أنه لم يصل، جائزًا أن تكون قد وصلت، وما أخبر عنه أنه قد وصل، لم يصل. وذلك خلاف ما دلّ عليه ظاهر الكلام، لأن الذبيحتين تُذبح إحداهما لله، والأخرى للآلهة، جائز أن تكون لحومهما قد اختلطت، وخلطوها إذ كان المكروه عندهم تسمية الله على ما كان مذبوحًا للآلهة، دون اختلاط الأعيان

=

=

واتصال بعضها ببعض".

قوله تعالى: {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الأنعام: ١٣٦]، أي: "بئس حكم القوم وقسمتهم".

قال القرطبي: "أي: ساء الحكم حكمهم".

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه: وقد أساؤوا في حكمهم، إذ أخذوا من نصيبي لشركائهم، ولم يعطوني من نصيب شركائهم. وإنما عنى بذلك تعالى ذكره الخبرَ عن جهلهم وضلالتهم، وذهابهم عن سبيل الحق، بأنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم وغذاهم، وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى، ما لا يضرهم ولا ينفعهم، حتى فضّلوه في أقسامهم عند أنفسهم بالقَسْم عليه".

قال الرازي: فإن قيل: أليس أن جميع الأشياء لله فكيف نسبوا إلى الكذب في قولهم: هذا لله؟

قلنا: إفرازهم النصيبين نصيبًا لله؛ ونصيبًا للشيطان هو الكذب.

- قال الرازي: قوله تعالى (ساء ما يحكمون) ذكر العلماء في كيفية هذه الإساءة وجوهًا كثيرة:

الأول: أنهم رجحوا جانب الأصنام في الرعاية والحفظ على جانب الله تعالى ، وهو سفه.

الثاني: أنهم جعلوا بعض النصيب لله وجعلوا بعضه لغيره مع أنه تعالى الخالق للجميع ، وهذا أيضًا سفه.

الثالث: أن ذلك الحكم حكم أحدثوه من قبل أنفسهم ، ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع ، فكان أيضًا سفهًا.

الرابع: أنه لو حسن إفراز نصيب الأصنام لحسن إفراز النصيب لكل حجر ومدر.

الخامس: أنه لا تأثير للأصنام في حصول الحرث والأنعام ، ولا قدرة لها أيضًا

=

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧).

{وَكَذَلِكَ} كَمَا زُيِّنَ لَهُمْ مَا ذُكِرَ {زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ قَتْل أَوْلَادهمْ} بِالْوَأْدِ {شُرَكَاؤُهُمْ} مِنْ الْجِنّ بِالرَّفْعِ فَاعِل زُيِّنَ وَفِي قِرَاءَة بِبِنَائِهِ لِلْمَفْعُولِ وَرَفْع قَتْل وَنَصْب الْأَوْلَاد بِهِ وَجَرّ شُرَكَائِهِمْ بِإِضَافَتِهِ وَفِيهِ الْفَصْل بَيْن الْمُضَاف والمضاف إليه بالمفعول ولا يضر وإضافته الْقَتْل إِلَى الشُّرَكَاء لِأَمْرِهِمْ بِهِ {لِيُرْدُوهُمْ} يُهْلِكُوهُمْ {وليلبسوا} يخلطوا {عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون}[1].

=

على الانتفاع بذلك النصيب فكان إفراز النصيب لها عبثًا ، فثبت بهذا الوجوه أنه (سَاء مَا يَحْكُمُونَ) والمقصود من حكاية أمثال هذه المذاهب الفاسدة ، أن يعرف الناس قلة عقول القائلين بهذه المذاهب ، وأن يصير ذلك سببًا لتحقيرهم في أعين العقلاء ، وأن لا يلتفت إلى كلامهم أحد ألبتة.

– وقال القاسمي: لأنهم أولًا عملوا ما لم يشرع لهم ، وضلوا في القسم. لأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا إله غيره ،ولا رب سواه. ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة ، لم يحفظوها ، بل جاروا فيها ، إذ رجحوا جانب الأصنام في الحفظ والرعاية سفهًا.

– روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: "قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ".

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ} [الأنعام: ١٣٧]، أي: " وكما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين أن يجعلوا لله مما

=

=

ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار".

عن ابن عباس قوله: "{وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم}، زينوا لهم، من قَتْل أولادهم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وكما زيَّن شركاء هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام لهم ما زينوا لهم، من تصييرهم لربهم من أموالهم قَسْما بزعمهم، وتركهم ما وَصل من القَسْم الذي جعلوه لله إلى قسم شركائهم في قسمهم، وردِّهم ما وَصَل من القسم الذي جعلوه لشركائهم إلى قسم نصيب الله، إلى قسم شركائهم {كذلك زين لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم}، من الشياطين، فحسنوا لهم وأد البنات".

قال الزمخشري: أي: " ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو ومثل ذلك التزيين البليغ الذي هو علم من الشياطين. والمعنى: أن شركاءهم من الشياطين، أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد، أو بنحرهم للآلهة وكان الرجل في الجاهلية حلف: لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم، كما حلف عبد المطلب".

قال ابن كثير: " يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء المشركين أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار.. وهذا كقوله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ [أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ]} [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} [التكوير: ٨، ٩]. وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تاني

=

=

المال وقد نهاهم الله عن قتل أولادهم لذلك وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان تزيينه لهم ذلك".

أما «شركاؤهم»، -ها هنا-، ففيهم ثلاثة أقوال:

أحدها: الشياطين، قاله الحسن، ومجاهد، والسدي، وابن زيد.

والثاني: أنهم قوم كانوا يخدمون الأوثان فزينوا لهم دفن البنات وهن أحياء، قاله الفراء.

والثالث: أنهم الغواة من الناس. ذكره الماوردي.

وفي الذي زينوه لهم من قتل أولادهم قولان:

أحدهما: أنه كان أحدهم يحلف إن وُلِدَ له كذا وكذا غلام ان ينحر أحدهم كما حلف عبد المطلب في نحر ابنه عبد الله، قاله الكلبي.

والثاني: أنه وَأَدُ البنات أحياءً خِيْفَة الفقر، قاله مجاهد.

قرأ ابن عامر وحده: {وكذلك زين}، برفع الزاى، {لكثير من المشركين قتل} برفع اللام {أولدهم} بنصيب الدال، {شركائهم} بياء، وقرأ الباقون: {وكذلك زين} بنصب الزاى {لكثير من المشركين قتل} بنصب اللام {أولدهم}، خفضا {شركاؤهم} رفعا.

قوله تعالى: {لِيُرْدُوهُمْ} [الأنعام: ١٣٧]، أي: " ليهلكوهم بالإغواء".

قال السدي: "فيهلكوهم".

قال الطبري: " يقول: ليهلكوهم".

قال الماوردي: " أ: ي ليهلكوهم، ومنه قوله تعالى: {وَمَا يُغْنِي عَنهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [الليل: ١١] يعني إذا هلك".

قوله تعالى: {وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ} [الأنعام: ١٣٧]، أي: " وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل فيلتبس، فيضلوا ويهلكوا".

=

=

وهـذا كقولـه تعـالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ).

وقال تعالى (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ).

وقد كانوا أيضًا يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق، وقد نهاهم الله عن قتل أولادهم لذلك وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان تزيينه لهم ذلك.

قال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا. وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا).

وقال تعالى في هذه السورة (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قَالَ قُلْتُ لَهُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قَالَ قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) متفق عليه.

قال السدي: "{وليلبسوا عليهم دينهم}، فيخلطوا عليهم دينهم".

قال الطبري: أي: " فعلوا ذلك بهم، ليخلطوا عليهم دينهم فيلتبس، فيضلوا ويهلكوا، بفعلهم ما حرم الله عليهم".

قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ} [الأنعام: ١٣٧]، أي: " ولو شاء الله ألا يفعلوا ذلك ما فعلوه، ولكنه قدَّر ذلك لعلمه بسوء حالهم ومآلهم".

قال الطبري: أي: " ولو شاء الله أن لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه، بأن كان يهديهم للحق، ويوفقهم للسداد، فكانوا لا يقتلونهم، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادهم، وأطاعوا الشياطين التي أغوتهم".

=

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ

=

قال ابن كثير: " أي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونًا، وله الحكمة التامة في ذلك، فلا يسأل عما يفعل وهم يُسألون".

قال القرطبي: "بين تعالى أن كفرهم بمشيئة الله. وهو رد على القدرية".

قال النسفي: " وفيه دليل على أن الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى".

قوله تعالى: {فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١٣٧]، أي: " فدعْهم وما يختلقونه من الإفك على الله".

قال السدي: "يعني: خل عنهم".

قال البغوي: أي" يختلقون من الكذب، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد".

قال ابن كثير: " أي: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه، فسيحكم الله بينك وبينهم".

قال النسفي: أي: " وما يفترونه من الإفك أو وافتراءهم، لأن ضرر ذلك الافتراء عليهم لا عليك ولا علينا

".

قال الطبري: " يقول الله لنبيه، متوعدًا لهم على عظيم فريتهم على ربهم فيما كانوا يقولون في الأنصباء التي يقسِمونها: "هذا لله وهذا لشركائنا"، وفي قتلهم أولادهم {ذرهم}، يا محمد، {وما يفترون}، وما يتقوّلون عليَّ من الكذب والزور، فإني لهم بالمرصاد، ومن ورائهم العذاب والعقاب".

وفي نسخ {فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١٣٧]، قولان:

أحدهما: أنه اقتضى ترك قتال المشركين، فهو منسوخ بآية السيف.

والثاني: أنه تهديد ووعيد فهو محكم.

سبق مثل هذه الآية وترجيح الإحكام فيها، وقد رجح النحاس الإحكام في أشباه هذه الآية.

ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨).

{وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَام وَحَرْث حِجْر} حَرَام {لَا يَطْعَمهَا إِلَّا مَنْ نَشَاء} مِنْ خَدَمَة الْأَوْثَان وَغَيْرهمْ {بِزَعْمِهِمْ} أَيْ لَا حُجَّة لَهُمْ فِيهِ {وَأَنْعَام حُرِّمَتْ ظُهُورهَا} فَلَا تُرْكَب كَالسَّوَائِبِ وَالْحَوَامِي {وَأَنْعَام لَا يَذْكُرُونَ اسْم الله عَلَيْهَا} عِنْد ذَبْحهَا بَلْ يَذْكُرُونَ اسْم أَصْنَامهمْ وَنَسَبُوا ذَلِكَ إلَى الله {افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يفترون} عليه.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩).

{وَقَالُوا مَا فِي بُطُون هَذِهِ الْأَنْعَام} الْمُحَرَّمَة وَهِيَ السَّوَائِب وَالْبَحَائِر {خَالِصَة} حَلَال {لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّم عَلَى أَزْوَاجنَا} أَيْ النِّسَاء {وَإِنْ تَكُنْ مَيْتَة} بِالرَّفْعِ وَالنَّصْب مَعَ تَأْنِيث الْفِعْل وَتَذْكِيره {فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ} الله {وَصْفَهُمْ} ذَلِكَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيم أَيْ جَزَاءَهُ {إِنَّهُ حَكِيم} فِي صُنْعه {عليم} بخلقه[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ} [الأنعام: ١٣٨]، أي: " قال المشركون هذه أنعام وزروع أفردناها لآلهتنا حرام ممنوعة على غيرهم".

قال البقاعي: "لما ذكر إقدامهم على ما قبحه الشرع ، ولامه على تقبيحه العقلُ من قتل الأولاد ، أتبعه إحجامهم عما حسنه الشرع من ذبح بعض الأنعام لنفعهم ، وضم إليه جملة مما منعوا أنفسهم منه ودانوا به لمجرد أهوائهم فقال (وقالوا) أي المشركون سفهًا وجهلًا (هذه) إشارة إلى قطعة من أموالهم عينوها لآلهتهم (أنعام وحرث حجر) أي حرام محجور عليه فلا يصل أحد إليه، وهو وصف يستوي فيه =

=

الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات (لا يطعمها) أي يأكل منها (إلا من نشاء) أي من السدنة ونحوهم (بزعمهم) أي بتقولهم بمجرد الهوى من غير سند عن الله الذي له ملكوت السماوات والأرض ، وهم كاذبون في هذا الزعم في أصل التحريم وفي نفوذ المنع ، فلو أراد الله أن تؤكل لأكلت ولم يقدروا على منع".

- قال الرازي: وكانوا إذا عينوا شيئًا من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا (لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء) يعنون خدم الأوثان ، والرجال دون النساء.

قال القرطبي: " أي: حرموا أنعاما وحرثا وجعلوها لأصنامهم، وقالوا: {لا يطعمها إلا من نشاء}".

قال ابن عباس: " فالحجر: ما حرموا من الوصيلة، وتحريم ما حرموا".

عن مجاهد: قوله: "{وقالوا هذه أنعام وحرث حجر}، مما جعلوا لله وشركائهم".

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: "{وقالوا هذه أنعام وحرث حجر}، إنما احتجروا ذلك الحرث لآلهتهم".

قال الضحاك: " أما {حجر}، يقول: محرَّم. وذلك أنهم كانوا يصنعون في الجاهلية أشياء لم يأمر الله بها، كانوا يحرّمون من أنعامهم أشياء لا يأكلونها، ويعزلون من حرثهم شيئًا معلومًا لآلهتهم، ويقولون: لا يحل لنا ما سمّينا لآلهتنا".

و «الحِجْر» في كلام العرب، الحرام، يقال: حَجَرت على فلان كذا، أي حرَّمت عليه، ومنه قول الله: {وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٢٢]، ومنه قول المتلمس:

حَنَّتْ إِلَى النَّخْلَةِ القُصْوَى فَقُلْتُ لَهَا: حِجْرٌ حَرَامٌ، أَلا ثَمَّ الدَّهَارِيسُ

وقول العجاج:

=

=

وَجَارَةُ البَيْتِ لَهَا حُجْرِيُّ ومَحْرُمَاتٌ هَتْكُهَا بُجْرِيُّ

يعني: المحرّمَ.

ومنه قول الأعشى:

فَبِتُّ مُرْتَفِقًا، والعَيْنُ سَاهِرَةٌ كَأَنَّ نَوْمِي عَلَيَّ اللَّيْلَ مَحْجُورُ

أي حرام. يقال: حِجْر وحُجْر، بكسر «الحاء» و «ضمها».

وقرأ الحسن وقتادة: «وَحَرْثٌ حُجْرٌ»، بضم «الحاء».

وقرأ ابن عباس: «وَحَرْثٌ حِرْجٌ»، بـ «الراء» قبل «الجيم». قال الطبري: " وهي لغة ثالثة، معناها ومعنى "الحجر" واحد".

قوله تعالى: {لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ} [الأنعام: ١٣٨]، أي: " لا يأكلها إلا مَن يأذنون له من خدمة الأوثان وغيرهم".

قال السدي: "فيقولون: حرام أن يطعم إلا من شئنا".

قال ابن زيد: " قالوا: نحتجرها عن النساء ونجعلها للرجال".

قال الكلبي: "جعلوها للرجال دون النساء".

قال القرطبي: " قالوا {لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ}، وهم خدام الأصنام".

قوله تعالى: {بِزَعْمِهِمْ} [الأنعام: ١٣٨]، أي: " بزعمهم الباطل من غير حجة ولا برهان".

قال ابن عطية: قوله (بزعمهم) أي: بتقولهم الذي هو أقرب إلى الباطل منه إلى الحق، و" زعمهم " هنا هو في قولهم " حجر " وتحريمهم بذلك ما لم يحرم الله تعالى.

- قال ابن الجوزي: قوله تعالى (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر) الحرث: الزرع، والحجر: الحرام.

والمعنى: أنهم حرَّموا أنعامًا وحرثًا جعلوه لأصنامهم، قال ابن قتيبة: وإنما قيل

=

=

للحرام: حجر ، لأنه حُجر على الناس أن يصيبوه.

وفي «الأنعام والحرث» التي قالوا إنه لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم، قولان:

أحدهما: أن الأنعام التي يحكمون فيها بهذا الحكم عندهم هي البَحِيْرَة والحام خاصة، والحرث ما جعلوه لأوثانهم، قاله الحسن، ومجاهد.

والثاني: أن الأنعام هي ذبائح الأوثان، والحرث ما جعلوه لها.

قال الزجاج: أعلم الله تعالى أن هذا التحريم زعم منهم ، لا حجة فيه ولا برهان.

قوله تعالى: {وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا} [الأنعام: ١٣٨]، أي: " وهذه إبل حُرِّمت ظهورها، فلا يحل ركوبها والحملُ عليها بحال من الأحوال".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وحرّم هؤلاء الجهلة من المشركين ظهورَ بعض أنعامهم، فلا يركبون ظهورها، وهم ينتفعون برِسْلِها ونِتَاجها وسائر الأشياء منها غير ظهورها للركوب".

عن ابن زيد: " {أنعام حرمت ظهورها}، قال: لا يركبها أحد".

قال قتادة: " كانت تحرم عليهم في أموالهم من الشيطان، وتغليظ وتشديد، وكان ذلك من الشيطان ولم يكن ذلك من الله ﷻ".

قال ابن عطية: "كانت للعرب سنن ، إذا فعلت الناقة كذا من جودة النسل والمواصلة بين الإناث ونحوه حرم ظهورها فلم تركب وإذا فعل الفحل كذا وكذا حرم فعدد الله ذلك على جهة الرد عليهم إذ شرعوا بذلك برأيهم وكذبهم".

قال القرطبي: "قوله تعالى (وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا) يريد ما يسيبونه لآلهتهم على ما تقدّم من النصيب. وقال مجاهد: المراد البَحِيرة والوصِيلة والحام.

وفي قوله تعالى: {وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا} [الأنعام: ١٣٨]، وجوه:

أحدها: أنها السائبة.

والثاني: البحيرة والسائبة والحام. قاله السدي.

=

والثالث: أنها التي لا يحجون عليها، قاله أبو وائل.

قوله تعالى: {وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا} [الأنعام: ١٣٨]، أي: " وهذه إبل لا يَذكرون اسم الله تعالى عليها في أي شأن من شئونها".

قال الطبري: " وحرموا من أنعامهم أنعامًا أخر، فلا يحجُّون عليها، ولا يذكرون اسم الله عليها إن ركبوها بحالٍ، ولا إن حلبوها، ولا إن حمَلوا عليها".

عن أبي وائل: "{وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها}، قال: لم يكن يحج عليها".

قال السدي: " فكانوا لا يذكرون اسم الله عليها إذا ولدوها، ولا إن نحروها".

قال مجاهد: " كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها، لا إن ركبوها، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن منحوا، ولا إن عملوا شيئًا".

قوله تعالى: {افْتِرَاءً عَلَيْهِ} [الأنعام: ١٣٨]، أي: " فعلوا ذلك كذبًا منهم على الله".

قال الطبري: " يقول: فعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحريمهم ما حرموا، وقالوا ما قالوا من ذلك، كذبًا على الله، وتخرّصًا الباطلَ عليه؛ لأنهم أضافوا ما كانوا يحرّمون من ذلك، على ما وصفه عنهم جل ثناؤه في كتابه، إلى أنّ الله هو الذي حرّمه، فنفى الله ذلك عن نفسه، وأكذبهم، وأخبر نبيه والمؤمنين أنهم كذبة فيما يدّعون".

قال ابن زيد: " وقالوا: إن شئنا جعلنا للبنات فيه نصيبا وإن شئنا لم نجعل، وهذا أمر افتروه على الله {سيجزيهم بما كانوا يفترون}".

قوله تعالى: {سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١٣٨]، أي: " سيجزيهم الله بسبب ما كانوا يفترون من كذبٍ عليه سبحانه".

قال الطبري: " يقول: سيثيبهم ربُّهم بما كانوا يفترونَ على الله الكذبَ ثوابَهم،

=

ويجزيهم بذلك جزاءهم".

قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا} [الأنعام: ١٣٩]، أي: " وقال المشركون: ما في بطون الأنعام من أجنَّة مباح لرجالنا خاصة".

عن سفيان بن حسين: "{قالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة}، قال: خالصة لأزواجنا".

عن السدي: قوله: "{خالصة لذكورنا}، فهي خالصة للرجال دون النساء".

وعن مجاهد: {هذه الأنعام خالصة لذكورن}،ا قال: السائبة والبحيرة".

وفي قوله تعالى: {مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ} [الأنعام: ١٣٩] ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ما في بطونها الأجنة، قاله: مجاهد، والسدي.

والثاني: الألبان، قاله ابن عباس، وقتادة.

والثالث: الجميع: الأجنة والألبان، قاله ابن عباس -أيضا-، ومقاتل.

عن ابن عباس: قوله: "{وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا}، يعني: اللبن، كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربونه ذكرانهم، كانت الشاة إذا ولدت ذكرا ذبحوه، فكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح".

قال الطبري: " وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الكفرة أنهم قالوا في أنعام بأعيانها: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا دون إناثنا، واللبن ما في بطونها، وكذلك أجنتها. ولم يخصُص الله بالخبر عنهم أنهم قالوا: بعضُ ذلك حرام عليهن دون بعض، وإذ كان ذلك كذلك، فالواجب أن يقال إنهم قالوا: ما في بطون تلك الأنعام من لبن وجنين حِلٌّ لذكورهم خالصة دون إناثهم، وإنهم كانوا يؤثرون بذلك رجالهم، إلا أن يكون الذي في بطونها من الأجنة ميتًا، فيشترك حينئذ في أكله الرجال والنساء".

قال الرازي: "وكانوا إذا عينوا شيئًا من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا (لاَّ يَطْعَمُهَا

=

=

إِلاَّ مَن نَّشَاء) يعنون خدم الأوثان ، والرجال دون النساء".

قال القرطبي: " أي: حرموا أنعاما وحرثا وجعلوها لأصنامهم، وقالوا: {لا يطعمها إلا من نشاء}".

وقوله: {خالصة}، "أريد بذلك المبالغة في خلوص ما في بطون الأنعام التي كانوا حرَّموا ما في بطونها على أزواجهم، لذكورهم دون إناثهم، كما فعل ذلك بـ «الراوية» و «النسابة» و «العلامة»، إذا أريد بها المبالغة في وصف من كان ذلك من صفته، كما يقال: فلان خالصة فلان، وخُلصانه".

قوله تعالى: {وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} [الأنعام: ١٣٩]، أي: " ومحرم على نسائنا".

عن مجاهد: قوله: "{ومحرم على أزواجنا}، قال: النساء". وروي عن السدي وقتادة نحو ذلك.

وروي عن ابن زيد: "{ومحرم على أزواجنا}، قال: «الأزواج»، البنات. وقالوا: ليس للبنات منه شيء".

قال الطبري: " و «الأزواج»، إنما هي نساؤهم في كلامهم، وهن لا شك بنات من هن أولاده، وحلائل من هن أزواجه".

قوله تعالى: {وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ} [الأنعام: ١٣٩]، أي: " وإن كان هذا المولود منها ميتةً اشترك فيه الذكور والإناث".

قال الطبري: " قوله: {فهم فيه شركا}، فإنه يعني: أن الرجال وأزواجهم شركاء في أكله، لا يحرمونه على أحد منهم".

قال ابن عباس: " كانت الشاة إذا ولدت ذكرا ذبحوه فكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، {وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء}، فنهاهم الله عن ذلك".

=

=

قال السدي: " ما ولدت من ميت فيأكله الرجال والنساء". وروي عن عكرمة وقتادة نحو ذلك.

عن ابن زيد: قوله: {إن يكن ميتة فهم فيه شركاء} " تأكل النساء مع الرجال، إن كان الذي يخرج من بطونها ميتة، فهم فيه شركاء، وقالوا: إن شئنا جعلنا للبنات فيه نصيبًا، وإن شئنا لم نجعل".

قال الطبري: " وظاهر التلاوة بخلاف ما تأوَّله ابن زيد، لأن ظاهرها يدل على أنهم قالوا: إن يكن ما في بطونها ميتة، فنحن فيه شركاء، بغير شرط مشيئة. وقد زعم ابن زيد أنهم جعلوا ذلك إلى مشيئتهم".

قرأ ابن كثير {وإن يكن ميتة} بالياء و {ميتة} رفعا خفيفة، وقرأ ابن عامر «وإن تكن»، بالتاء {ميتة} رفعا، وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر «وإن تكن» بالتاء {ميتة} نصبا، وروى حفص عن عاصم {وإن يكن} بالياء {ميتة} نصبا، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائى {وإن يكن} بالياء {ميتة} نصبا.

قوله تعالى: {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ} [الأنعام: ١٣٩]، أي: " سيجزيهم جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم".

قال السمعاني: " أي: جزاء كذبهم".

قال الطبري: " أي: سيثيب ويكافئ هؤلاء المفترين عليه الكذب في تحريمهم ما لم يحرّمه الله، وتحليلهم ما لم يحلله الله، وإضافتهم كذبهم في ذلك إلى الله، وقوله: {وصفهم}، يعني بـ «وصفهم»، الكذبَ على الله، وذلك كما قال جلَّ ثناؤه في موضع آخر من كتابه: {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ} [سورة النحل: ٦٢]".

عن مجاهد: قوله: "{سيجزيهم وصفهم}، قال: قولهم الكذب في ذلك". وروي عن أبي العالية، وقتادة نحو ذلك.

قوله تعالى: {إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٣٩]، أي: " إنه تعالى حكيم في تدبير

=

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) .

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {أَوْلَادهمْ} بِالْوَأْدِ {سَفَهًا} جَهْلًا {بِغَيْرِ عِلْم وَحَرَّمُوا مَا رزقهم الله} مما ذكر {افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين}[1].

=

أمور خلقه، عليم بهم.

قال الطبري: أي: "إن الله في مجازاتهم على وصفهم الكذب وقيلهم الباطل عليه {حكيم}، في سائر تدبيره في خلقه، {عليم}، بما يصلحهم، وبغير ذلك من أمورهم".

قال ابن كثير: " إنه {حَكِيمٌ}، أي: في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، {عَلِيمٌ} بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة في قوله: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}؛ قال: نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر وربيعة، كان الرجل يشترط على امرأته أنك تئدين جارية وتستحيين أخرى، فإذا كانت الجارية التي توأد غدا من عند أهله أو راح وقال: أنت علي كأمي إن رجعت إليك ولم تئديها، فترسل إلى نسوتها فيحفرون لها حفرة فيتداولنها بينهن، فإذا بصرن به مقبلًا دسسنها في حفرتها وسوّين عليها التراب.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣٦٦) ونسبه لابن المنذر وأبي الشيخ. وهو مرسل.

وعن أبي العالية؛ قال: كانوا يعطون شيئًا سوى الزكاة، ثم إنهم تباذروا وأسرفوا؛

=

=

فأنزل الله: {وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣/ ١٨٥)، والطبري في "جامع البيان" (٨/ ٤٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٣٩٩ رقم ٧٩٦١) من طريق المعتمر بن سليمان ثنا عاصم الأحول عن أبي العالية. وهو مرسل صحيح الإسناد.

وعن ابن جريج؛ قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وجد نخلًا فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة؛ فأنزل الله: {وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ٤٥) -: ثنا حجاج عنه به.

وسنده ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف سنيد صاحب "التفسير".

وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٣٩٩ رقم ٧٩٦٦) من طريق عبد الرزاق عن ابن جريج: جذّ معاذ بن جبل رضي الله عنه نخلة، فلم يزل يتصدق من ثمره حتى لم يبق منه شيء؛ فنزلت: {وَلَا تُسْرِفُوا}. وهو معضل.

* قوله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ} [الأنعام: ١٤٠]، أي: "والله لقد خسر هؤلاء السفهاء الذين قتلوا أولادهم".

يخبر تعالى: إنَّ الذِينَ أَقْدَمُوا عَلَى قَتْلِ أَوْلاَدِهِمْ، وَوَأْدِ بَنَاتِهِمْ، وَتَحْرِيمِ الطَّيِّبَاتِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، قَدْ خَسِرُوا فِي الدُّنْيا، لأَنَّهُمْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ، وَخَسِرُوا فِي الآخِرَةِ، لأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ فِي أَسْوَأِ المَنَازِلِ بِسَبَبِ كَذِبِهِمْ عَلَى اللهِ، وَافْتِرَائِهِمْ عَلَيْهِ، إِذْ ادَّعُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ. وَكُلُّ ذَلِكَ ضَلاَلٌ مِنْهُمْ وَسَفَهٌ، وَبُعْدٌ عَنِ الهُدَى.

قال أبو رزين: " قد ضلوا قبل ذلك".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قد هلك هؤلاء المفترون على ربهم الكذبَ،

=

=

العادلون به الأوثانَ والأصنام، الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم، وتحريم ما أنعمت به عليهم من أموالهم، فقتلوا طاعة لها أولادهم".

قال ابن كثير: " يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة".

قال السعدي: " أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصْفُهم -بعد العقول الرزينة- السفه المردي، والضلال".

قال الزمخشري: "نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر".

قال مقاتل: "وكانت ربيعة ومضر يدفنون البنات وهن أحياء غير بني كنانة كانوا لا يفعلون ذلك".

قال السمعاني: " أي: هلك وغبن الذين قتلوا أولادهم وذلك من وأد البنات، وكانوا في الجاهلية يدفنون البنات حية، حتى كان الرجل منهم يقتل ولده، ويربي كلبه. وكان البعض يفعل ذلك دون البعض، وقيل: كان ذلك في قبيلتين: ربيعة، ومضر، كانا يدفنان البنات وهن حيات، فأما بنو كنانة وسائرهم ما كانوا يفعلون ذلك".

قال القرطبي: " أخبر بخسرانهم لو أدهم البنات وتحريمهم البحيرة وغيرها بعقولهم، فقتلوا أولادهم سفها خوف الإملاق، وحجروا على أنفسهم في أموالهم ولم يخشوا الإملاق، فأبان ذلك عن تناقض رأيهم. قلت: إنه كان من العرب من يقتل ولده خشية الإملاق، كما ذكر الله ﷻ في غير هذا الموضع. وكان منهم من يقتله سفها بغير حجة منهم في قتلهم، وهم ربيعة ومضر، وكانوايقتلون بناتهم لأجل الحمية. ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات بالبنات.

وروي أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتما بين يدي رسول الله

=

=

صلى عليه وسلم: «مالك تكون محزونا»؟ فقال: يا رسول الله، إن أذنبت ذنبا في الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت! فقال له: «أخبرني عن ذنبك». فقال: يا رسول الله، إن كنت، من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فتشفعت إلي امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب القبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلي، وأخذت علي المواثيق بألا أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر، فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول: يا أبت! أيش تريد أن تفعل بي! فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أمي، فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر إليها فأرحمها، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبت، قتلتني. فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت. فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: «لو أمرت أن أعاقب أحدا بما فعل في الجاهلية لعاقبتك»".

قال الرازي: "إنه تعالى ذكر فيما تقدم قتلهم أولادهم وتحريمهم ما رزقهم الله.

ثم إنه تعالى جمع هذين الأمرين في هذه الآية وبين ما لزمهم على هذا الحكم ، وهو الخسران والسفاهة ، وعدم العلم ، وتحريم ما رزقهم الله ، والافتراء على الله ، والضلال وعدم الاهتداء ، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم.

أما الأول: وهو الخسران ، وذلك لأن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد ، فإذا سعى في إبطاله ، فقد خسر خسرانًا عظيمًا لا سيما ويستحق على ذلك الإبطال الذم العظيم في الدنيا ، والعقاب العظيم في الآخرة. أما الذم في الدنيا فلأن الناس

=

=

يقولون قتل ولده خوفًا من أن يأكل طعامه وليس في الدنيا ذم أشد منه.

وأما العقاب في الآخرة ، فلأن قرابة الولادة أعظم موجبات المحبة فمع حصولها إذا أقدم على إلحاق أعظم المضار به كان ذلك أعظم أنواع الذنوب ، فكان موجبًا لأعظم أنواع العقاب.

والنوع الثاني: السفاهة وهي عبارة عن الخفة المذمومة ، وذلك لأن قتل الولد إنما يكون للخوف من الفقر ، والفقر وإن كان ضررًا إلا أن القتل أعظم منه ضررًا ، وأيضًا فهذا القتل ناجز وذلك الفقر موهوم فالتزام أعظم المضار على سبيل القطع حذرًا من ضرر قليل موهوم ، لا شك أنه سفاهة.

والنوع الثالث: قوله (بِغَيْرِ عِلْمٍ) فالمقصود أن هذه السفاهة إنما تولدت من عدم العلم ولا شك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح.

والنوع الرابع: تحريم ما أحل الله لهم ، وهو أيضًا من أعظم أنواع الحماقة ، لأنه يمنع نفسه تلك المنافع والطيبات ، ويستوجب بسبب ذلك المنع أعظم أنواع العذاب والعقاب.

والنوع الخامس: الافتراء على الله ، ومعلوم أن الجراءة على الله ، والافتراء عليه أعظم الذنوب وأكبر الكبائر.

والنوع السادس: الضلال عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا.

والنوع السابع: أنهم ما كانوا مهتدين ، والفائدة فيه أنه قد يضل الإنسان عن الحق إلا أن يعود إلى الاهتداء ، فبين تعالى أنهم قد ضلوا ولم يحصل لهم الاهتداء قط فثبت أنه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات السبعة الموجبة لأعظم أنواع الذم ، وذلك نهاية المبالغة".

قال القاسمي: "حمل كثير من المفسرين (الخسران) على ما يشمل الدارين. أما الدنيا فخسروا منافع أولادهم ، وثمرة ما خلقوا له. وكذا منافع أنعامهم بما ضيقوا

=

=

وحجروا فيها ابتداءًا. وأما الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل. وهذا التعميم، وإن كان حقًا، إلا أن الأظهر حمله على الآخرة، توفيقًا بين النظائر، كقوله تعالى (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)".

قوله تعالى: {سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٤٠]، أي: " جهالة وسفاهة لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم".

قال مقاتل: " يعني: جهلا بغير علم".

قال السمعاني: " أي: جهلا لا عن بصيرة".

قال النسفي: " لخفة أحلامهم وجهلهم بأن لله هو رازق أولادهم لا هم".

قال الطبري: "يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلكَ جهالة منهم بما لهم وعليهم، ونقصَ عقول، وضعفَ أحلام منهم، وقلة فهم بعاجل ضرّه وآجل مكروهه، من عظيم عقاب الله عليه لهم".

قال الزمخشري: أي: " لخفة أحلامهم، وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم، لا هم".

قال قتادة: " وهذا صنع أهل الجاهلية، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة، ويغذو كلبه".

عن الحارث قال: " حدثنا عبد العزيز قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما بعد المائة من سورة الأنعام قوله: {قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم}، الآية".

وروي عن ابن عباس، قال: "إذا سَرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام، {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}".

=

=

قال ابن العربي: "وهذا الذي قاله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها القاصرة في تنويع الحلال والحرام سفاهة بغير معرفة ولا عدل؛ والذي تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ آلهة أعظم جهلا وأكبر جرما؛ فإن الاعتداء على الله أعظم من الاعتداء على المخلوقين.

والدليل على أن الله تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في مخلوقاته أبين وأوضح من الدليل على أن هذا حلال، وهذا حرام.

وقد روي أن رجلا قال لعمرو بن العاص: إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم كنتم تعبدون الحجر. فقال عمرو: تلك عقول كادها باريها.

هذا الذي أخبر الله تعالى عنه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الله تعالى بالإسلام، وأبطله ببعثة الرسول ﷺ وكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يظهر، وننساه حتى لا يذكر إلا أن ربنا تبارك وتعالى ذكره بنصه، وأورده بشرحه، كما ذكر كفر الكافرين به. وكانت الحكمة في ذلك والله أعلم أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ، بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة".

قوله تعالى: {وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ} [الأنعام: ١٤٠]، أي: " وحرموا على أنفسهم ما رزقهم الله".

قال أبو الليث: "يعني: ما أعطاهم".

قال مقاتل: " من الحرث والأنعام".

قال البغوي: " يعني: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام".

قال ابن كثير: أي: " فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم".

قال السعدي: " أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقا لهم. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أَحَلِّ الحلال".

قال السدي: "ذكر ما صنعوا في أموالهم وأولادهم، فقال: {وحرموا ما رزقهم الله

=

=

افتراء على الله}".

عن قتادة: قوله: "{وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله}، قال: هم أهل الجاهلية، جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحاميا، تحكما من الشيطان في أموالهم".

وفي رواية أخرى عن قتادة أيضا: " هم أهل الجاهلية، جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحاميا تحريما من الشيطان، وحرموا من مواشيهم وحرثهم، فكان ذلك من الشيطان {افتراء على الله}".

قوله تعالى: {افْتِرَاءً عَلَى اللهِ} [الأنعام: ١٤٠]، أي: " كذبًا واختلاقًا على الله".

قال مقاتل: " الكذب، حين زعموا أن الله أمرهم بهذا، يعني: بتحريمه".

قال الطبري: "يقول: تكذّبًا على الله وتخرصًا عليه الباطل".

قال السعدي: " أي: كذبا يكذب به كل معاند كَفَّار".

قال البغوي: " حيث قالوا: إن الله أمرهم بها".

قال السمعاني: " لأنهم كانوا يدعونه دينا من الله - تعالى - وقد كذبوا في ذلك عليه".

قوله تعالى: {قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [الأنعام: ١٤٠]، أي: " قد بَعُدوا عن الحق، وما كانوا من أهل الهدى والرشاد".

قال السعدي: " أي: قد ضلوا ضلالا بعيدا، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم". قال الطبري: "يقول: قد تركوا محجة الحق في فعلهم ذلك، وزالوا عن سواء السبيل، {وما كانوا مهتدين}، يقول: ولم يكن فاعلو ذلك على هدًى واستقامة في أفعالهم التي كانوا يفعلون قبل ذلك، ولا كانوا مهتدين للصواب فيها، ولا موفقين له، ونزلت هذه الآية في الذين ذكر الله خبرهم في هذه الآيات من قوله: {وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا} الذين كانوا يبحرون البحائر، ويسيِّبون السوائب، ويئدون البنات".

=

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١).

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ} خَلَقَ {جَنَّات} بَسَاتِين {مَعْرُوشَات} مَبْسُوطَات عَلَى الْأَرْض كَالْبِطِّيخ {وَغَيْر مَعْرُوشَات} بِأَنْ ارتفعت على ساق كالنخل {و} أنشأ {النخل والزرع مختلفا أكله} ثَمَره وَحَبّه فِي الْهَيْئَة وَالطَّعْم {وَالزَّيْتُون وَالرُّمَّان مُتَشَابِهًا} وَرَقهمَا حَال {وَغَيْر مُتَشَابِه} طَعْمهمَا {كُلُوا مِنْ ثَمَره إذَا أَثْمَرَ} قَبْل النَّضْج {وَآتُوا حَقّه} زَكَاته {يَوْم حَصَاده} بِالْفَتْحِ وَالْكَسْر مِنْ الْعُشْر أَوْ نِصْفه {وَلَا تُسْرِفُوا} بِإِعْطَاءِ كُلّه فَلَا يَبْقَى لِعِيَالِكُمْ شَيْء {إنَّهُ لَا يُحِبّ الْمُسْرِفِينَ} الْمُتَجَاوِزِينَ مَا حُدَّ لَهُمْ[1].

=

قال أبو السعود: أي: " عن الطريق المستقيم، {وما كانوا مهتدين} إليه وإن هدوا بفنون الهدايات، أو وما كانوا مهتدين من الأصل لسوء سيرتهم، فالجملة حينئذ اعتراض وعلى الأول عطف على {ضلوا} ".

قال أبو رزين: "ضلوا بقتل أولادهم"، "لم يكونوا مهتدين بقتل أولادهم".

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [الأنعام: ١٤١]، أي: " والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد لكم بساتين: منها منها مرفوعات على عيدان، ومنها متروكات على وجه الأرض لم تعرش".

والآية تمهيد لما سيأتي من تفصيل أحوال الأنعام. أي: هو الذي أنعم عليكم بأنواع النعم، لتعبدوه وحده، فخلق لكم بساتين من الكروم وغيرها معروشات، أي: مسموكات بما عملتم لها من الأعمدة. يقال: عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان. وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ متروكات على وجه الأرض

=

=

لم تعرش. (و) أنشأ النَّخْلَ المثمر لما هو فاكهة وقوت، وَالزَّرْعَ المحصل لأنواع القوت مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ أي: ثمره وحبّه في اللون والطعم والحجم والرائحة. وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهًا في اللون والشكل، ورقهما وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ في الطعم كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ أي: كلوا من ثمر كل واحد مما ذكر، إذا أدرك.

قال الرازي: "لما ذكر تعالى كيفية خلقه لهذه الأشياء، ذكر ما هو المقصود الأصليّ من خلقها، وهو انتفاع المكلفين بها، فقال: كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ واختلفوا ما الفائدة منه؟ فقال بعضهم: الإباحة. وقال آخرون: بل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق، لأنه تعالى لما أوجب الحق فيه كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله، لمكان شركة المساكين فيه، بل هذا هو الظاهر. فأباح تعالى هذا الأكل، وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعا من هذا التصرف. وقال بعضهم: بل أباح تعالى ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم إما الأكل، وإما التصدق، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق، لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير. قال تعالى: وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ [القصص: ٧٧]".

قال البغوي: أي: " ابتدع بساتين، مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات".

قال ابن كثير: **"** يقول تعالى بيانا لأنه الخالق لكل شيء، من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة وقسَّموها وجَزَّءوها، فجعلوا منها حرامًا وحلالا فقال: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ}".

قال الطبري: **"**: وهذا إعلام من الله تعالى ذكره ما أنعم به عليهم من فضله، وتنبيهٌ منه لهم على موضع إحسانه، وتعريفٌ منه لهم ما أحلَّ وحرَّم وقسم في أموالهم من الحقوق لمن قسم له فيها حقًّا. يقول تعالى ذكره: وربكم، أيها الناس {أنشأ}، أي

=

=

أحدث وابتدع خلقًا، لا الآلهة والأصنام {جنات}، يعني: بساتين {معروشات}، وهي ما عَرَش الناس من الكروم، {وغير معروشات}، غير مرفوعات مبنيَّات، لا ينبته الناس ولا يرفعونه، ولكن الله يرفعه وينبته وينمِّيه".

اختلف في قوله تعالى: {مَعْرُوشَاتٍ} [الأنعام: ١٤١]، على أربعة أقوال:

أحدها: أنه تعريش الناس الكروم وغيرها، بأن ترفع أغصانها، قاله ابن عباس، والسدي.

والثاني: أن تعريشها هو رفع حظارها وحيطانها. ذكره الماوردي.

والثالث: أنها المرتفعة عن الأرض لعلو شجرها، فلا يقع ثمرها على الأرض، لأن أصله الارتفاع ولذلك سُمِّيَ السرير عرشًا لارتفاعه، ومنه قوله تعالى: {خاوية على عروشها} [الكهف: ٤٢] و [الحج: ٤٥]، أي: على أعاليها وما ارتفع منها.

والرابع: أن المعروشات ما عرشه الناس، وغير المعروشات ما نبت في البراري والجبال. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

قوله تعالى: {وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ} [الأنعام: ١٤١]، أي: " وأنشأ لكم شجر النخيل المثمر بما هو فاكهة وقوت، وأنواع الزرع المحصّل لأنواع القوت مختلفًا ثمره وحبُّه في اللون والطعم والحجم والرائحة".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: وأنشأ النخل والزرع مختلفا أكله يعني بـ «الأكل»، الثمر. يقول: وخلق النخل والزرع مختلفًا ما يخرج منه مما يؤكل من الثمر والحب".

قال القرطبي: "قوله تعالى: {والنخل والزرع} أفردهما بالذكر وهما داخلان في الجنات لما فيهما من الفضيلة".

قوله تعالى: {وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [الأنعام: ١٤١]، أي: " والزيتون والرمان متشابهًا منظره، ومختلفًا ثمره وطعمه".

=

=

قال الطبري: يعني: " في الطعم، منه الحلو، والحامض، والمزّ".
قال ابن جريج: " {متشابهًا}، في المنظر، {وغير متشابه}، في الطعم".
وذكر القرطبي: " في قوله تعالى: { {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [الأنعام: ١٤١]، أدلة ثلاثة:
أحدها: ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لا بدلها من مغير.
الثاني على المنة منه سبحانه علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، إذ خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، وإذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجني، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء، لأنه لا يجب عليه شي.
الثالث على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من صفته الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجني الجديد، والطعم اللذيذ، فأين الطبائع وأجناسها.
فأين الفلاسفة وأناسها، هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتب هذا الترتيب العجيب! كلا! لا يتم ذلك في العقول إلا لحي عالم قدير مريد.
فسبحان من له في كل شي آية ونهاية!
ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروا على الله الكذب وأشركوا معه وحللوا وحرموا دلهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم".
قوله تعالى: {كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ} [الأنعام: ١٤١]، أي: " كلوا -أيها الناس- مِن ثمره إذا أثمر".
قال الطبري: " يقول: كلوا من رطبه ما كان رطبًا ثمره".

=

=

عن محمد بن كعب: {كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ}، قال: " من رطبه وعنبه". وروي عن موسى بن عبيدة مثل ذلك.

وإنما قدم ذكر «الأكل» لأمرين:

أحدهما: تسهيلًا لإيتاء حقه.

والثاني: تغليبًا لحقهم وافتتاحًا بنفعهم بأموالهم.

قوله تعالى: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [الأنعام: ١٤١]، أي: " وأعطوا زكاته المفروضة عليكم يوم حصاده وقطاف".

عن الضحاك في قوله: " {وآتوا حقه يوم حصاده}، قال: يوم كيله".

محمد بن الحنفية قوله: " {وآتوا حقه يوم حصاده}، قال: يوم كيله، يعطي العشر ونصف العشر".

وفي قوله تعالى: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [الأنعام: ١٤١]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الصدقة المفروضة فيه: العُشْر فيما سقي بغير آلة، ونصف العشر فيما سقي بآلة، قاله أنس بن مالك، وابن عباس، والحسن، وجابر بن زيد، وسعيد بن المسيب وقتادة، وطاوس، ومحمد بن حنيفة، والضحاك، وابن زيد، وهو قول الجمهور.

والثاني: أنها صدقة غير الزكاة، مفروضة يوم الحصاد والصرام وهي إطعام من حضر وترك ما تساقط من الزرع والثمر، قاله ابن عمر، وعطاء، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس، وابن سيرين، وإبراهيم، وحماد، وابن أبي نجيح.

قال يزيد بن الأصم: " كان النخل إذا صُرِم يجيء الرجل بالعِذْق من نخله، فيعلِّقه في جانب المسجد، فيجيء المسكين فيضربُه بعصاه، فإذا تناثر أكلَ منه. فدخل رسول الله ﷺ ومعه حَسن أو حسين، فتناول تمرةً، فانتزعها من فيه. وكان رسول

=

=

الله ﷺ لا يأكل الصَّدقة، ولا أهلُ بيته. فذلك قوله: {وآتوا حقَّه يوم حصاده}".

وعن ميمون بن مهران، ويزيد بن الأصم قالا: "كان أهل المدينة إذا صرموا يجيئون بالعِذْق فيضعونه في المسجد، ثم يجيء السائل فيضربه بعصاه، فيسقط منه، وهو قوله: {وآتوا حقَّه يوم حصاده}".

والثالث: أن هذا كان مفروضًا قبل الزكاة ثم نسخ بها، روي ذلك عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، والسدي، وعطية، وابن حنيفة.

قال الطبري: " وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: كان ذلك فرضًا فرضه الله على المؤمنين في طعامِهم وثمارهم التي تُخْرِجها زروعهم وغرُوسهم، ثم نسخه الله بالصدقة المفروضة، والوظيفة المعلومةِ من العشر ونصف العشر. وذلك أن الجميع مجمعون لا خلاف بينهم: أنّ صدقة الحرث لا تؤخذ إلا بعد الدِّياس والتنقية والتذرية، وأن صدقة التمر لا تؤخذ إلا بعد الإجزاز.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله جل ثناؤه: {وآتوا حقه يوم حصاده}، ينبئ عن أنه أمرٌ من الله جل ثناؤه بإيتاء حقه يوم حصاده، وكان يوم حصاده هو يوم جَدِّه وقطعه، والحبُّ لا شك أنه في ذلك اليوم في سنبله، والتَّمر وإن كان ثمر نخل أو كَرْم غيرُ مستحكم جُفوفه ويبسه، وكانت الصدقة من الحبِّ إنما تؤخذ بعد دِياسه وتذريته وتنقيته كيلا والتمر إنما تؤخذ صدقته بعد استحكام يبسه وجفوفه كَيْلا علم أن ما يؤخذ صدقة بعد حين حَصْده، غير الذي يجب إيتاؤه المساكين يوم حَصاده".

والقول الأول وهو أن المراد بالحق الزكاة المفروضة هو قول الجمهور، واعتُرِض عليه بأن السورة مكية، والزكاة فرضت في المدينة، والجواب أن أصل الزكاة كان مشروعًا في أول الإسلام وذلك بالإنفاق في سبيل الله بدون تحديد، وفي

=

المدينة النبوية حددت الأنصبة والمقادير.

قال ابن الحصار: (ذكر الله الزكاة في السور المكيات كثيرًا تصريحًا وتعريضًا بأن الله سينجز وعده لرسوله ويقيم دينه ويظهره حتى تفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع، ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف، وأورد من ذلك قوله تعالى: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأنعام:١٤١]، وقوله في سورة المزمل: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [المزمل:٢٠]، ومن ذلك قوله فيها: {وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ} [المزمل:٢٠]).

واعتُرض أيضًا بأن الزكاة لا تؤخذ يوم الحصاد، والجواب على هذا من أوجه:

أحدها: أن الأمر بالإيتاء محمول على وجوب الإخراج، إلا أنه لا يمكن ذلك عند الجذاذ والحصاد، فيؤخر إلى زمن الإمكان بعد التنقية.

والثاني: أن اليوم ظرف للحق لا للإيتاء فكأنه قال: وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التنقية والتصفية.

والثالث: أن ذكر يوم الحصاد له فائدة، وهي أنه لا يجب الحق قبل يوم الحصاد، بل يجب يومه حين حصوله في يد صاحبه.

قال ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ٢٨٢: (قد أفادت هذه الآية: وجوب الزكاة فيما سمى الله سبحانه، وأفادت بيان ما يجب فيه من مخرجات الأرض التي أجملها في قوله: {وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} [البقرة:٢٦٧]، وفسرها ههنا، فكانت آية البقرة عامة في المخرج كله مجملة في القدر، وهذه الآية خاصة في مخرجات الأرض مجملة في القدر؛ فبينه رسول الله الذي أُمِر بأن يبين للناس ما نزل إليهم، فقال: "فيما سقت السماء العشر وما سقي بنضح أو دالية نصف العشر " فكان هذا بيانًا لمقدار الحق المجمل في هذه الآية).

وإذا عرفنا أن السلف يطلقون النسخ على البيان والتخصيص أمكن حمل كلامهم

=
على هذا المعنى العام، فأحاديث السنة التي فيها الأنصبة والمقادير بيان لما أُجمل في هذه الآية.

قال ابن كثير: (وفي تسمية هذا نسخًا نظر؛ لأنه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل، ثم إنه فصل بيانه وبُيّن مقدار المخرج وكميته، قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم).

* والأمر بإيتائها يوم الحصاد، للمبالغة في العزم على المبادرة إليه. والمعنى: اعزموا على إيتاء الحق واقصدوه، واهتموا به يوم الحصاد، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء. قال الحاكم: وقيل: إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفا على الأرباب، فلا يحسب عليهم ما أكل قبله.

وقد روى العوفيّ عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا زرع فكان يوم حصاده، لم يخرج مما حصد شيئا، فقال تعالى: وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد، وما يلقط الناس من سنبله.

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود عن جابر بن عبد الله قال: أمر رسول الله ﷺ من كل جادّ عشرة أوسق من التمر، بقنو يعلق في المسجد للمساكين. قال ابن كثير: إسناده جيد قويّ.

قوله تعالى: {وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأنعام: ١٤١]، أي: " ولا تتجاوزوا حدود الاعتدال في إخراج المال وأكل الطعام وغير ذلك. إنه تعالى لا يحب المتجاوزين حدوده بإنفاق المال في غير وجهه".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأنعام: ١٤١]، ستة أقوال:

أحدها: أن هذا الإسراف المنهي عنه هو أن يتجاوز رب المال إخراج القدر المفروض عليه إلى زيادة تجحف به، قاله أبو العالية، وعطاء، وابن جريج، وإياس
=

=

بن معاوية، والسدي.

وقد روى سعد بن سنان عن أنس قال: قال رسول الله -ﷺ-: "المُعْتَدِي فِي الصَّدَقَةِ كَمَانِعِهَا".

وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد تصدق بجميع ثمرته حتى لم يبق فيها ما يأكله.

والثاني: هو أن الخطاب للسلطان، نُهِى أن يأخذ من ربّ المال فوق الذي ألزم الله ماله، قاله ابن زيد.

والثالث: أن الخطاب في الآية للمساكين، يقول: لا تأخذوا فوق حقكم. وهو مروي عن ابن زيد -ايضا-.

والرابع: هو أن يمنع رب المال من دفع القدر الواجب عليه، قاله سعيد بن والمسيب، ومحمد بن كعب.

والخامس: أن المراد بهذا السرف ما كانوا يشركون آلهتهم فيه من الحرث والأنعام، قاله الكلبي.

والسادس: هو أن يسرف في الأكل منها قبل أن يؤدي زكاتها، قاله ابن بحر.

قال الطبري: " والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى بقوله: {ولا تسرفوا}، عن جميع معاني «الإسراف»، ولم يخصص منها معنًى دون معنى. وإذ كان ذلك كذلك، وكان «الإسراف» في كلام العرب: الإخطاء بإصابة الحق في العطية، إما بتجاوز حدّه في الزيادة، وإما بتقصير عن حدّه الواجب كان معلومًا أن المفرِّق مالَه مباراةً، والباذلَهُ للناس حتى أجحفت به عطيته، مسرفٌ بتجاوزه حدَّ الله إلى ما ليس له.

وكذلك المقصِّر في بذله فيما ألزمه الله بذله فيه، وذلك كمنعه ما ألزمه إيتاءه منه أهلَ سُهْمَان الصدقة إذا وجبت فيه، أو منعه من ألزمه الله نفقته من أهله وعياله ما

=

=

ألزمه منها. وكذلك السلطان في أخذه من رعيته ما لم يأذن الله بأخذه. كل هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفون، داخلون في معنى مَنْ أتى ما نهى الله عنه من الإسراف بقوله: {ولا تسرفوا}، في عطيتكم من أموالكم ما يجحف بكم إذ كان ما قبله من الكلام أمرًا من الله بإيتاء الواجب فيه أهله يوم حصاده. فإنّ الآية قد كانت تنزل على رسول الله ﷺ بسبب خاصّ من الأمور، والحكم بها على العامّ، بل عامّة آي القرآن كذلك. فكذلك قوله: {ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين}.

ومن الدليل على صحة ما قلنا من معنى «الإسراف» أنه على ما قلنا، قول الشاعر:

أَعْطَوا هُنَيْدَةَ يَحْدُوهَا ثَمَانِيَةٌ مَا فِي عَطَائِهِمُ مَنٌّ وَلا سَرَفُ

يعني بـ «السرف»: الخطأ في العطيّة".

قال النضر بن شميل: "الإسراف التبذير والإفراط، والسرف: الغفلة والجهل".

أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: "لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهبا في طاعة الله لم يكن إسرافا، ولو أنفقت صاعا في معصية الله كان إسرافا".

عن إبراهيم بن نشيط قال: "سألت عمرة مولى ابن عمر عن «الإسراف»، ما هو. فقال: ليس شيء أنفقته في طاعة الله إسرافا".

واختلف المفسرون في نسخ قوله تعالى: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [الأنعام: ١٤١]، على قولين:

أحدهما: أن هذا كان شيئا واجبًا، ثم نسخه الله بالعشر ونصف العشر. وهذا قول عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، والسدي، وعطية، وابن حنيفة.، وهو اختيار الطبري، والنحاس.

والثاني: أنها محكمة. وهذا اختيار مكي بن ابي طالب، وابن كثير.

قال مكي: "إنها محكمة نزلت في فرض الزكاة مجملة، وبينها النبي ﷺ ويعارض كونها في الزكاة قول أكثر الناس، أن الزكاة فرضت بالمدينة والأنعام مكية، فيصير

=

=

فرض الزكاة نزل بمكة، والله أعلم بذلك".

قال ابن كثير: " وفي تسمية هذا نسخًا نظر؛ لأنه قد كان شيئًا واجبًا في الأصل، ثم إنه فصل بيانه وبَيَّن مقدار المخرج وكميته. قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم، وقد ذم الله سبحانه الذين يصومون ولا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن»: {إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} أي: كالليل المدلهم سوداء محترقة {فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ} أي: قوة وجلد وهمة {قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [القلم: ١٧ - ٣٣]".

قال ابن الجوزي: " واختلف العلماء: في قوله تعالى: {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [الأنعام: ١٤١]، هل نسخ ذلك أم لا؟ إن قلنا أنه أمر وجوب فهو منسوخ بالزكاة، وإن قلنا إنه أمر استحباب، فهو باقي الحكم".

(تنبيه): زكاة الثمار والحبوب تكون عند حصادها وصرامها؛ وهذا هو حولها، ولا ينتظر حتى يدور عليها الحول، ومن زرع في العام ثمرا أكثر من مرة، فإنه يعطي زكاته عند كل حصاد وصرام ولو في العام مرات؛ لأن الله قيد ذلك بيوم الحطاد، وهو حول الثمار.

* قال في (الإكليل): استدل بالآية من أوجب الزكاة في كل زرع وثمر، خصوصا الزيتون والرمان المنصوص عليهما. ومن خصها بالحبوب، قال: إن الحصاد لا

=

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢).

{وَ} أَنْشَأَ {مِنْ الْأَنْعَام حَمُولَة} صَالِحَة لِلْحَمْلِ عَلَيْهَا كَالْإِبِلِ الْكِبَار {وَفَرْشًا} لَا تَصْلُح لَهُ كَالْإِبِلِ الصِّغَار وَالْغَنَم سُمِّيَتْ فُرُشًا لِأَنَّهَا كَالْفُرُشِ

=

يطلق حقيقة إلا عليها. وفيها دليل على أن الزكاة لا يجب أداؤها قبل الحصاد.

واستدل بها أيضا على أن الاقتران لا يفيد التسوية في الأحكام، لأنه تعالى قرن الأكل، وهو ليس بواجب اتفاقا، بالإيتاء، وهو واجب اتفاقا. انتهى.

وقوله تعالى: وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ النهي عن الإسراف، إما في التصدق، أي: لا تعطوا فوق المعروف. قال أبو العالية: كانوا يعطون يوم الحصاد شيئا ثم تبادروا فيه وأسرفوا، فنزلت وَلا تُسْرِفُوا. وقال ابن جريج: نزلت في ثابت ابن قيس بن شماس. جدّ نخلا له فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فنزلت. ولذا قال السدّي: أي: لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء. وإما في الأكل قبل الحصاد، وهذا عن أبي مسلم قال: ولا تسرفوا في الأكل قبل الحصاد كيلا يؤدي إلى بخس حق الفقراء. وإما في كل شيء، قال عطاء: نهوا عن السرف في كل شيء. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله، فهو سرف.

اختار ابن جرير قول عطاء. قال ابن كثير: ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية، حيث قال تعالى كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ أن يكون عائدا على الأكل. أي: لا تسرفوا في الأكل، لما فيه من مضرة العقل والبدن، كقوله تعالى كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا... [الأعراف: ٣١] الآية.

وفي صحيح البخاري «١» تعليقا: كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة. وهذا من هذا - والله أعلم -

لِلْأَرْضِ لِدُنُوِّهَا مِنْهَا {كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ الله وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَات الشَّيْطَان} طَرَائِقه مِنْ التَّحْرِيم وَالتَّحْلِيل {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوّ مُبِين} بَيِّن الْعَدَاوَة(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا} [الأنعام: ١٤٢].

أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال، وما يفرش للذبح (أي: يضجع) أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش.

قال الطبري: يقول: " وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشًا، مع ما أنشأ من الجنات المعروشات وغير المعروشات، و «الحمولة»، ما حمل عليه من الإبل وغيرها، و «الفرش»، صغار الإبل التي لم تدرك أن يُحْمَل عليها".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا} [الأنعام: ١٤٢]، أقوال:

أحدها: أن «الحَمُولة» كبار الإبل التي يُحْمَلُ عليها، و «الفرش» صغارها التي لا يحمل عليها، مأخوذ من افتراش الأرض بها على الاستواء كالفرش. قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، واختاره ابن قتيبة.

وقال ابن بحر: الافتراش: الإضجاع للنحر، فتكون «الحمولة» كبارها، و «الفرش» صغارها، قال الراجز:

أَوْرَثَني حَمولةً وفَرْشًا ... أَمُشُّها في كل يومٍ مَشًّا

أي: أمسحها.

والثاني: أن «الحَمُولة» ما حُمِلَ عليه من الإبل والبقر، و «الفرش»: الغنم، قاله ابن عباس، وقتادة.

وروي عن الحسن في قوله الآخر: " «الحمولة»، الإبل والبقر"، «الفرش»، الغنم".

ومنه قول الشاعر:

وحوينا الفرش من أنعامكم ... والحمولات وربّات الحَجَلْ

=

=

والثالث: أن «الحَمُولة»: الإبل، و «الفرش»: الفُصْلان والعَجَاجيل والغنم. قاله السدي.

والرابع::أن «الحَمُولة»، ما تركبون، و «الفرش»، ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها، وتتخذون من أصوافها لحافًا وفرشًا. وهذا قول ابن زيد.

قال الثعلبي: " حمولة بمعنى كل ما محمل عليها ويركب مثل كبار الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير، سميت بذلك لأنها تحمل أثقالهم، قال عنترة:

ما دعاني إلا حَمولةُ أهْلِها   وسط الديار تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ

و «الحمولة»: الأحمال".

قال الطبري: " والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن «الحمولة»، هي ما حمل من الأنعام، لأن ذلك من صفتها إذا حملت، لا أنه اسم لها، كالإبل والخيل والبغال، فإذا كانت إنما سميت «حمولة»، لأنها تحمل، فالواجب أن يكون كل ما حَمَل على ظهره من الأنعام فحمولة. وهي جمع لا واحد لها من لفظها، كالرَّكوبة، و «الجزورة». وكذلك «الفرش»، إنما هو صفة لما لطف فقرب من الأرض جسمه، ويقال له: «الفرش». وأحسبها سميت بذلك تمثيلا لها في استواء أسنانها ولطفها بالفَرْش من الأرض، وهي الأرض المستوية التي يتوطَّؤُها الناس".

قوله تعالى: {كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ} [الأنعام: ١٤٢]، أي: " كلوا مما أباحه الله لكم وأعطاكموه من هذه الأنعام".

قال ابن كثير: " أي: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله تعالى وجعلها رزقًا لكم".

وفي قوله تعالى: {كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ} [الأنعام: ١٤٢]، وجهان:

أحدهما: من الحمولة ليبين أن الانتفاع بظهرها لا يمنع من جواز أكلها.

=

=

والثاني: أنه إذن منه في عموم أكل المباح من أموالهم، ونهى عن أكل ما لا يملكونه.

قال الحسن: "يعني قول الله: مما رزقكم- أما إنه لم يذكر أصفركم وأحمركم، ولكنه أسفركم قال: تنتهون إلى حلاله". وروي عن مقاتل بن حيان نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [الأنعام: ١٤٢]، أي: " ولا تحرموا ما أحلَّ الله منها اتباعًا لطرق الشيطان، كما فعل المشركون".

قال ابن كثير: " أي: طرائقه وأوامره، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله، أي: من الثمار والزروع افتراء على الله".

قال ابن قتيبة: "أي: لا تقفوا أثره فيما يحرّم عليكم مما لم يحرّمه الله، ويحلّه لكم مما حرّمه الله عليكم".

قال عكرمة: "إنما سمي الشيطان، لأنه تشيطن".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [الأنعام: ١٤٢]، وجهان:

أحدهما: أنها طريقه التي يدعوكم إليها من كفر وضلال.

والثاني: أنها تخطيه إلى تحريم الحلال وتحريم الحرام، وقد ذكرنا ما في ذلك من زيادة التأول ومن الاحتمال، وأنه الانتقال من معصية إلى أخرى حتى يستوعب جميع المعاصي، مأخوذ من خطو القدم: انتقالها من مكان إلى مكان.

عن ابن عباس: قوله: "{ولا تتبعوا خطوات الشيطان}، قال: ما خالف فهو من خطوات الشيطان".

عن مجاهد: قوله: "{ولا تتبعوا خطوات الشيطان}، خطاه، أو قال: خطاياه".

عن عكرمة: خطوات الشيطان قال: نزغات الشيطان".

عن القاسم بن الوليد الهمداني قال: سألت قتادة، قلت: أرأيت قوله: {لا تتبعوا خطوات الشيطان}؟ قال: كل معصية لله فهو من خطوات الشيطان". وروي عن السدي نحو قول قتادة.

=

=

عن ابن زيد: قوله: "{خطوات الشيطان}، قال: لا تتبعوا طاعته، هي ذنوب لكم، وهي طاعة للخبيث".

عن أبي مجلز، في قوله: "{ولا تتبعوا خطوات الشيطان}، قال: المنذور المعاصي".

قال مسروق: "أتي عبد الله بن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريده، قال: أصائم أنت؟ قال: لا، قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن آكل ضرعا أبدا. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعم وكفر عن يمينك".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأنعام: ١٤٢]، أي: " إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة".

قال الطبري: أي: " إن الشيطان لكم عدو يبغي هلاككم وصدكم عن سبيل ربكم {مبين}، قد أبان لكم عدواته، بمناصبته أباكم بالعداوة، حتى أخرجه من الجنة بكيده، وخدَعه حسدًا منه له، وبغيًا عليه".

قال ابن كثير: " أي: إن الشيطان – أيها الناس – لكم {عَدُوٌّ مُبِينٌ}، أي: بَيِّن ظاهر العداوة، كما قال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: ٦]، وقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا} الآية، [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا} [الكهف: ٥٠]. والآيات في هذا كثيرة في القرآن".

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأنعام: ١٤٢]، قولان:

أحدهما: أنه ما بان لكم من عداوته لأبيكم آدم.

والثاني: ما بان لكم من عداوته لأوليائه من الشياطين، قاله الحسن.

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣).

{ثَمَانِيَة أَزْوَاج} أَصْنَاف بَدَل مِنْ حَمُولَة وَفُرُشًا {مِنْ الضَّأْن} زَوْجَيْنِ {اثْنَيْنِ} ذَكَر وَأُنْثَى {وَمِنْ الْمَعْز} بِالْفَتْحِ وَالسُّكُون {اثْنَيْنِ قُلْ} يَا مُحَمَّد لمن حرم ذكور الأنعام تارة وإناثها أُخْرَى وَنَسَبَ ذَلِكَ إلَى الله {آلذَّكَرَيْنِ} مِنْ الضَّأْن وَالْمَعْز {حَرَّمَ} الله عَلَيْكُمْ {أَمْ الْأُنْثَيَيْنِ} مِنْهُمَا {أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَام الْأُنْثَيَيْنِ} ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى {نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ} عَنْ كَيْفِيَّة تَحْرِيم ذَلِكَ {إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِيهِ الْمَعْنَى مِنْ أَيْنَ جَاءَ التَّحْرِيم فَإِنْ كَانَ مِنْ قِبَل الذُّكُورَة فَجَمِيع الذُّكُور حَرَام أَوْ الْأُنُوثَة فَجَمِيع الْإِنَاث أَوْ اشْتِمَال الرَّحِم فَالزَّوْجَانِ فَمِنْ أَيْنَ التَّخْصِيص وَالِاسْتِفْهَام لِلْإِنْكَارِ.

وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤).

{وَمِنْ الْإِبِل اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَر اثْنَيْنِ قُلْ آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَام الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ} بَلْ {كُنْتُمْ شُهَدَاء} حُضُورًا {إذْ وَصَّاكُمْ الله بِهَذَا} التَّحْرِيم فَاعْتَمَدْتُمْ ذَلِكَ لَا بَلْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ فِيهِ {فَمَنْ} أَيْ لَا أَحَد {أَظْلَم مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله كذبا} بذلك {ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}(١).

---

(١) قوله تعالى: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} [الأنعام: ١٤٣]، أي: " هذه الأنعام التي رزقها الله عباده من الإبل والبقر والغنم ثمانية أصناف: =

=

أربعة منها من الغنم، وهي الضأن ذكورًا وإناثًا، والمعز ذكورًا وإناثًا".

يبين القرآن بعد ذلك بعض ما كان عليه الجاهليون من جهالات ، وناقشهم فيما أحلوه وحرموه مناقشة حكيمة فقال: (ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ...) الزوج يطلق على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على الاثنين فهو مشترك والمراد هنا الإطلاق الأول.

والمعنى: ثمانية أصناف خلقها اللّه لكم ، لتنتفعوا بها أكلًا وركوبًا وحملًا وحلبًا وغير ذلك.

قال ابن زيد في قوله: "هي الإبل والبقر والضأن والمعز، هذه «الأنعام» التي قال الله: {ثمانية أزواج}".

عن قتادة قوله: "{ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين} الآية، إن كل هذا لم أحرم منه قليلا ولا كثيرًا، ذكرًا ولا أنثى".

عن السدي: "{ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين}، ومن البقر اثنين ومن الإبل اثنين، يقول: أنزلت لكم ثمانية أزواج من هذا الذي عددت، ذكر وأنثى".

عن مجاهد قوله: "{ثمانية أزواج}، قال: هذا في شأن ما نهى الله عنه من البحائر والسُّيَّب".

قال ابن قتيبة: " «الثمانية الأزواج»: الضأن، والمعز، والإبل، والبقر، وإنما جعلها ثمانية وهي أربعة، لأنه أراد: ذكرا وأنثى من كل صنف، فالذكر زوج، والأنثى زوج، والزوج يقع على الواحد والاثنين. ألا ترى أنك تقول للرجل: زوج، وهو واحد، وللمرأة: زوج، وهي واحدة؟ قال الله تعالى: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى} [النجم: ٤٥]".

و «الزوج»: اسم ينطلق على الواحد وعلى الاثنين، يقال للاثنين زوج، ويقال

=

=

للواحد زوج لأنه لا يكون زوجًا إلا ومعه آخر له مثل اسمه، قال لبيد:

مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقِرَامُهَا

فلذلك قال: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}، لأنها ثمانية آحاد.

قوله تعالى: {قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ} [الأنعام: ١٤٣]، أي: " قل لهم يا محمد على وجه التوبيخ والزجر: الذكرين من الضأن والمعز حرّم الله عليكم أيها المشركون أم الانثيين منهما؟".

قال السدي: "فالذكرين حرمت عليكم أم الأنثيين؟".

قال ابن عباس: " يقول: لم أحرم شيئًا من ذلك".

قال قتادة: " قال: سلهم: {آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين}، أي: لم أحرم من هذا شيئًا".

قال ابن جريج: " يقول: من أين حرمت هذا؟ من قبل الذكرين أم من قبل الأنثيين".

قال ابن زيد في قوله: {قل آلذكرين حرم أم الأنثيين}، قال: هذا لقولهم: {ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا}".

قال الصابوني: " هذا إنكارٌ لما كانوا يفعلونه من تحريم ما أحلَّ الله".

قال ابن قتيبة: " وقال يقايسهم في تحريم ما حرّموا: {قُلْ آلذَّكَرَيْنِ} من الضأن والمعز حَرَّمَ الله عليكم {أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ}؟، فإن كان التحريم من جهة الذكرين: فكل ذكر حرام عليكم، وإن كان التحريم من جهة الأنثيين: فكل أنثى حرام عليكم".

قال ابن كثير: " وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حَرّموا من الأنعام، وجعلوها أجزاءً وأنواعًا: بحيرة، وسائبة، ووصيلة وحامًا، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا. ثم بين أصناف

=

=

الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك. وأنه تعالى لم يحرم شيئًا من ذلك ولا شيئًا من أولاده. بل كلها مخلوقة لبني آدم، أكلا وركوبًا، وحمولة، وحلبا، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال تعالى: {وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} الآية [الزمر: ٦]".

قوله تعالى: {أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ} [الأنعام: ١٤٣]، أي: " وقل لهم: هل حَرَّم الله ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز من الحمل؟".

قال الصابوني: " أي: أو ما حملت إناث الجنسين ذكرًا كان أو أنثى؟".

قال ابن عباس: " يعني: هل تشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى؟ فهل يحرمون بعضًا ويحلون بعضًا؟".

قال السدي: " يقول: أي: ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، ما تشتمل إلا على ذكر أو أنثى، فما حرمت عليكم ذكرًا ولا أنثى من الثمانية. إنما ذكر هذا من أجل ما حرَّموا من الأنعام".

عن الحسن: "{أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين}، قال: ما حملت الرَّحم".

قال ابن جريج: يقول: " أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين؟ وإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى، فمن أين جاء التحريم؟ فأجابوا هم: وجدنا آباءنا كذلك يفعلون".

قال ابن كثير: " وقوله: {أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأَنْثَيَيْنِ} رَدٌّ عليهم في قولهم: {مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا}".

قال ابن قتيبة: " فإن كان التحريم من جهة الاشتمال، فالأرحام تشتمل على الذكور، وتشتمل على الإناث، وتشتمل على الذكور والإناث، فكل جنين حرام".

قوله تعالى: {نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأنعام: ١٤٣]، أي: " خبِّروني بعلم يدل على صحة ما ذهبتم إليه، إن كنتم صادقين فيما تنسبونه إلى ربكم".

=

=

قال ابن عباس: "يقول: كله حلال".

قال الزجاج: "أي: فسروا ما حرمتم بعلم، أي وأنتم لا علم لكم لأنكم لا تؤمنون بكتاب".

قال القرطبي: " أي: بعلم إن كان عندكم، من أين هذا التحريم الذي افتعلتموه؟ ولا علم عندهم، لأنهم لا يقرءون الكتب".

قال ابن كثير: " أي: أخبروني عن يقين: كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟".

قال الطبري: " يقول: قل لهم: خبروني بعلم ذلك على صحته: أيَّ ذلك حرم ربكم عليكم، وكيف حرم؟ {إن كنتم صادقين}، فيما تنحلونه ربكم من دعواكم، وتضيفونه إليه من تحريمكم، وإنما هذا إعلامٌ من الله جل ثناؤه نبيَّه أنّ كل ما قاله هؤلاء المشركون في ذلك وأضافوه إلى الله، فهو كذب على الله، وأنه لم يحرم شيئًا من ذلك، وأنهم إنما اتّبعوا في ذلك خطوات الشيطان، وخالفوا أمره".

قال الصابوني: " تعجيزٌ وتوبيخ، أي: أخبروني عن الله بأمرٍ معلوم لا بافتراءٍ ولا بتخرص إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله".

قال أبو السعود: " تكرير للإلزام وتثنية للتبكيت والإفحام أي أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبار الأنبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئا مما ذكر أو نبئوني تنبئة ملتبسة بعلم صادرة عنه {إن كنتم صادقين} أي في دعوى التحريم عليه سبحانه".

قوله تعالى: {وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ} [الأنعام: ١٤٤]، أي: " والأصناف الأربعة الأخرى: هي اثنان من الإبل ذكورًا وإناثًا، واثنان من البقر ذكورًا وإناثًا".

قال الصابوني: " أي: وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنين

=

=

هما الجاموس والبقرة".

قال الطبري: " وهذه أربعة أزواج، على نحو ما بيّنا من الأزواج الأربعة قبلُ من الضأن والمعز، فذلك ثمانية أزواج، كما وصف جل ثناؤه".

قوله تعالى: {قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ} [الأنعام: ١٤٤]، أي: " قل -أيها الرسول- لأولئك المشركين: أحَرَّم الله الذكرين أم الأنثيين؟".

قوله تعالى: {أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ} [الأنعام: ١٤٤]، أي: " أم حرَّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ذكورًا وإناثًا؟".

قال أبو السعود: " المقصود إنكار أن الله سبحانه حرّم عليهم شيئا من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمبالغة في الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم كانوا يحرمون من ذكر الأنعام تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كله إلى الله سبحانه وإنما عقب تفصيل كل واحد من نوعي الصغار ونوعي الكبار بما ذكر من الأمر بالاستفهام والإنكار مع

حصول التبكيت بإيراد الأمر عقيب تفصيل أنواع الأربعة بأن يقال قل آلذكور حرم أو الإناث أم ما اشتملت عليه أرحام الإناث لما في التثنية والتكري من المبالغة في التبكيت والإلزام".

قوله تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا} [الأنعام: ١٤٤]، أي: " أم كنتم أيها المشركون حاضرين، إذ وصاكم الله بهذا التحريم للأنعام".

قال ابن زيد في قوله: "{أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا}، الذي تقولون".

قال ابن قتيبة: " أي: حين أمر الله بهذا فتكونون على يقين؟ أم تفترونه عليه وتختلقونه؟ توبيخ".

قال الزجاج: "أي: هل شاهدتم الله قد حرم هذا إذ كنتم لا تؤمنون برسول".

=

=

قال البغوي: " قيل: أراد به: عمرو بن لحي ومن جاء بعده على طريقته".

قال الطبري: " إنه أمرٌ من الله جل ثناؤه نبيَّه ﷺ أن يقول لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين قص قصصهم في هذه الآيات التي مضت. يقول له عز ذكره: قل لهم، يا محمد، أيَّ هذه سألتكم عن تحريمه حرم ربكم عليكم من هذه الأزواج الثمانية؟ فإن أجابوك عن شيء مما سألتهم عنه من ذلك، فقل لهم: أخبرًا قلتم: إن الله حرم هذا عليكم، أخبركم به رسول عن ربكم، أم شهدتم ربكم فرأيتموه فوصَّاكم بهذا الذي تقولون وتزوّرون على الله؟ فإن هذا الذي تقولون من إخباركم عن الله أنه حرام بما تزعمون على ما تزعمون، لا يعلم إلا بوحي من عنده مع رسول يرسله إلى خلقه، أو بسماع منه، فبأي هذين الوجهين علمتم أنّ الله حرم ذلك كذلك، برسول أرسله إليكم، فأنبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟ أم شهدتم ربكم فأوصَاكم بذلك، وقال لكم: حرمت ذلك عليكم، فسمعتم تحريمه منه، وعهدَه إليكم بذلك؟ فإنه لم يكن واحدٌ من هذين الأمرين".

قال أبو السعود: " تكرير للإفحام كقوله تعالى نبئوني بعلم وأم منقطعة ومعنى الهمزة الإنكار والتوبيخ ومعنى بل الإضراب بما ذكر إلى التوبيخ بوجه أخرى بل كنتم حاضرين مشاهدين {إذ وصاكم الله بهذا} أي حين وصاكم بهذا الترحيم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم حسبما يقود إليه مذهبكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهددة والسماع وفيه من تركيك عقولهم والتهكم بهم ما لا يخفى".

قال ابن كثير: " وقوله: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا} تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله، من تحريم ما حرموه من ذلك".

قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٤٤]، أي: " فلا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق على الله الكذب؛ ليصرف الناس بجهله عن طريق الهدى".

=

=

قال ابن كثير: " أي: لا أحد أظلم منه".

قال السدي: ": كانوا يقولون يعني الذين كانوا يتّخذون البحائر والسوائب: إن الله أمر بهذا. فقال الله: {فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا ليضل الناس بغير علم}".

قال الصابوني: " عمومٌ في كل ظالم".

قال الطبري: " يقول: فمن أشد ظلمًا لنفسه، وأبعد عن الحق ممن تخرَّص على الله قيلَ الكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرّم، وتحليل ما لم يحلل، {ليضل الناس بغير علم}، يقول: ليصدّهم عن سبيله".

قال الزجاج: "وقد بين الاحتجاج أنهم لا يؤمنون بنبي ولا يدعون أن نبيا خبرهم عن الله أن هذا حرام، ولا أنهم شاهدوا الله قد حرم ذلك".

قال أبو السعود: " فنسب إليه تحريم ما لم يحرم والمراد كبراؤهم والمقررون لذلك أو عمر بن لحي بن قمعة وهو المؤسس لهذا الشر أو الكل لاشتراكهم في الافتراءعليه سبحانه وتعالى فأي طريق أظلم من فريق افتروا على الله كذبا، أي افترى عليه تعالى بصدور التحريم منه تعالى وإنما وصفوا بعد العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى إيذانا بخروجهم في الظالم عن الحدود والنهايات فإن من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه إذا كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه ويجوز أن يكون حالا من فاعل يصل، أي: ملتبسا بغير علم بما يؤدي بهم إليه".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ١٤٤]، أي: " إن الله تعالى لا يوفق للرشد مَن تجاوز حدَّه، فكذب على ربه، وأضلَّ الناس".

قال أبو السعود: أي: " كائنا من كان إلى ما فيه صلاح حالهم عاجلا أو آجلا وإذا

=

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا

=

كان هذا حال المتصفين بالظلم في الجملة فما ظنك بمن هو في أقصى غاياته".

قال الطبري: " يقول: لا يوفّق الله للرشد من افترى على الله وقال عليه الزُّور والكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يحرّم، كفرًا بالله، وجحودًا لنبوة نبيِّه محمد ﷺ".

قال ابن كثير: " وأول من دخل في هذه الآية: عمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَة، فإنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سيب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح".

قال البغوي في تفسير الآية: "وذلك أنهم كانوا يقولون: هذه أنعام وحرث حجر، وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء، وبعضها على النساء دون الرجال، فلما قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي ﷺ، وكان خطيبهم مالك بن عوف أبو الأحوض الجشمي، فقال: يا محمد بلغنا أنك تحرم أشياء مما كان آباؤنا يفعلونه، فقال له رسول الله ﷺ: «إنكم قد حرمتم أصنافا من الغنم على غير أصل، وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها، فمن أين جاء هذا التحريم؟ من قبل الذكر أم من قبل الأنثى»؟ فسكت مالك بن عوف وتحير فلم يتكلم. فلو قال جاء التحريم بسبب الذكور وجب أن يحرم جميع الذكور، وإن قال بسبب الأنوثة وجب أن يحرم جميع الإناث، وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل، لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر أو أنثى، فأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو البعض دون البعض فمن أين؟ ويروى أن النبي ﷺ قال لمالك: "يا مالك: ما لك لا تتكلم؟ قال له مالك: بل تكلم وأسمع منك".

مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥).

{قل لا أجد فيما أُوحِيَ إِلَيَّ} شَيْئًا {مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمهُ إِلَّا أَنْ يَكُون} بِالْيَاءِ وَالتَّاء {مَيْتَة} بِالنَّصْبِ وَفِي قِرَاءَة بِالرَّفْعِ مَعَ التَّحْتَانِيَّة {أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا} سَائِلًا بِخِلَافِ غَيْره كَالْكَبِدِ وَالطِّحَال {أَوْ لَحْم خِنْزِير فَإِنَّهُ رِجْس} حَرَام {أَوْ} إِلَّا أَنْ يَكُون {فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ} أَيْ ذُبِحَ عَلَى اسْم غَيْره {فَمَنْ اُضْطُرَّ} إِلَى شَيْء مِمَّا ذُكِرَ فَأَكَلَهُ {غَيْر بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبّك غَفُور} لَهُ مَا أَكَلَ {رَحِيم} بِهِ وَيُلْحَق بِمَا ذُكِرَ بِالسُّنَّةِ كُلّ ذِي نَاب مِنْ السِّبَاع وَمِخْلَب مِنْ الطير[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن طاوس؛ قال: إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويستحلون أشياء؛ فنزلت: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣٧٢) ونسبه لعبد بن حميد.وهو مرسل.

* قوله تعالى: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} [الأنعام: ١٤٥]، أي: " قل -أيها الرسول-: إني لا أجد فيما أوحى الله إليَّ شيئًا محرمًا على من يأكله مما تذكرون أنه حُرِّم من الأنعام".

قال الطبري: أي: " قل، يا محمد... إني لا أجد فيما أوحي إليّ من كتابه وآي تنزيله، شيئًا محرَّمًا على آكل يأكله مما تذكرون أنه حرمه من هذه الأنعام التي تصفون تحريمَ ما حَرّم عليكم منها بزعمكم".

قال النسفي: " أي: في ذلك الوقت أو في وحي القرآن لأن وحي السنة قد حرم =

=

غيره أو من الأنعام لأن الآية في رد البحيرة وأخواتها وأما الموقوذة والمتردية والنطيحة فمن الميتة وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يثبت بوحي الله وشرعه لا بهوى الأنفس، {محرما} حيوانا حرم أكله {على طاعم يطعمه} على آكل يأكله".

عن مجاهد: "{قل لا أجد فيما أوحي إلي محرمًا}، قال: مما كان في الجاهلية يأكلون، لا أجد محرمًا من ذلك على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دمًا مسفوحًا".

عن الحسن قال: "لولا حديث الزهري ما لبسنا فراكم ولا خفافكم حتى نعلم أذكية هي أم غير ذكية؟ قال أبو بكر: فحديث به الزهري فقال: حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتيبة عن ابن عباس، في قوله: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه} الآية، قال: طاعم الطعام، وأما القد والشعر والسن والظفر، من الميتة، فإنه لا يؤكل".

قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً} [الأنعام: ١٤٥]، أي: " إلا أن يكون قد مات بغير تذكية".

قال الطبري: أي: " قد ماتت بغير تذكية".

والميتة: هي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كا منخنقة أو موقوذة أو مترديه أو نطيحة.

والميتة إنما حرمت لاحتقان الرطوبات والفضلات والدم الخبيث فيها ، والذكاة لما كانت تزيل ذلك الدم والفضلات كانت سبب الحل.

ويستثنى من ذلك: ميتة البحر لقوله تعالى (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ) ، قال ابن عباس: صيد البحر ما أخذ حي ، وطعامه ما أخذ ميتًا.

وعن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال في البحر (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) رواه أبو داود. ويستثنى كذلك الجراد.

=

=

قوله تعالى: {أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا} [الأنعام: ١٤٥]، أي: " أو يكون دمًا مراقًا".
أى: دما مصبوبا سائلًا كالدم الذي يخرج من المذبوح عند ذبحه ، لا الدم الجامد كالكبد والطحال ، والسفح: الصب والسيلان.
قال ابن عباس: "يعني: مهراقا"، "كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة، وأخذوا الدم فأكلوه. قالوا: هو دم مسفوح".
قال قتادة: " حرم الدم ما كان مسفوحا، فأما لحم يخالطه الدم فلا بأس به".
وقال سفيان ابن عيينة: "المسفوح: العبيط".
قال الطبري: " وهو المُنْصَب".
قال الثعلبي: أي: " مهراقا سائلا".
قال الزجاج: " المسفوح: المصبوب، فكأنه إذا ذبحوا أكلوا الدم كما يأكلون اللحم".
وقوله {دَمًا مَسْفُوحًا}، " يعني: مهراقًا مصبوبًا، ومنه سمي الزنا سفاحًا، لصب الماء فيه ضائعًا، وقال طرفة بن العبد:

إِنِّي وَجدِّكَ مَا هَجَوْتُكَ وَالْ ... أَنْصَابِ يَسْفَحُ فَوْقَهُنَّ دَمُ

وكما قال عَبِيد بن الأبرص:

إذَا مَا عَادَهُ مِنْهَا نِسَاءٌ ... سَفَحْنَ الدَّمْعَ مِنْ بَعْدِ الرَّنِين

يعني: صببن، وأسلنَ الدمع.
عن عكرمة قال: "جاء رجل إلى ابن عباس فقال: آكل الطحال؟ قال: نعم. قال: إن عامتها دم؟ قال: إنما حرم الله الدم المسفوح".
قال الماوردي: "فأما الدم غير مسفوح فإن كان ذا عروق يجمد عليها كالكبد والطحال فهو حلال، لقوله -ﷺ-: «أُحِلَّتْ لَنَا مِيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَالمِيْتَتَانِ: الحُوتُ وَالجَرَادُ، وَالدَّمَانِ: الكَبِدُ وَالطُّحَالُ»".

=

=

وإن كان غير ذي عروق يجمد عليها وإنما هو مع اللحم وفيه، ففي تحريمه قولان:

أحدهما: لا يحرم لتخصيص التحريم بالمسفوح، وهو قول عائشة، وعكرمة، وقتادة.

قال عكرمة: "لولا هذه الآية، لتتبع المسلمون عروق اللحم كما تتبعها اليهود".

والثاني: أنه حرام لأنه من جملة المسفوح وبعضه، وإنما ذكر المسفوح لاستثناء الكبد والطحال منه.

قوله تعالى: {أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [الأنعام: ١٤٥]، أي: " أو يكون لحم خنزير فإنه نجس".

قال الماوردي: " يعني: نجسًا حرامًا".

قال الطبري: يقول: " أو إلا أن يكون لحم خنزير، و «الرجس»، هو: النجس والنتن، وما يُعْصى الله به".

قال الزجاج: " الرجس: اسم لما يستقذر، وللعذاب".

قال الحسن: " حرم الله الميتة والدم ولحم الخنزير".

(تنبيه): أجمع المسلمون على تحريم الخنزير بجميع أجزائه، وأما قول الألوسي في تفسيره (١/ ٤٣٩): خص اللحم بالذكر مع أن بقية أجزائه أيضا حرام خلافا للظاهرية ا. هـ فقوله: "خلافا للظاهرية" فيه نظر، فإنه لم يخالف فيه أحد، بل نقل ابن حزم الظاهري في المحلى (٧/ ٣٩٠، ٣٩٢) حكاية الإجماع على تحريم كل أجزائه، وأقرها حيث قال: لا يحل أكل شيء من الخنزير، لا لحمه ولا شحمه، ولا جلده، ولا عصبه، ولا غضروفه، ولا حشوته، ولا مخه، ولا عظمه، ولا رأسه، ولا أطرافه، ولا لبنه، ولا شعره - الذكر والأنثى والصغير والكبير سواء... وممن حكى هذا الإجماع: النيسابوري في تفسيره، فقال: وأما لحم الخنزير فأجمعت

=

=

الأمة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم وتخصيص اللحم بالذكر، لأن معظم الانتفاع متعلق به. (تفسير النيسابوري بهامش الطبري ٢/ ١١٩)، ونسب أيضا بعض الحنابلة إلى داود الظاهري القول بأن ما عدا اللحم من الخنزير جائز الأكل كما في مطالب أولي النهى (٦/ ٣٢١) وفي هذه النسبة نظر، فإن ابن حزم قد أحاط بمذهب داود إمام الظاهرية، وليس بمعقول أن يغفله في هذه المسألة إن خالفه، بل ليس بمعقول أن يسلم حكاية الإجماع إذا كان داود قد ذهب إلى حل ذلك، ومن عادة ابن حزم إذا خالف داود أن يحكي مذهبه ويبدي مخالفته له.

ومن رحمة الله تعالى بنا، وتيسيره علينا، أنه أباح لنا أكل الطيبات، ولم يحرم علينا إلا الخبائث، قال تعالى: (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) (الأعراف:١٥٧) فنحن لا نشك لحظة أن الخنزير حيوان خبيث قذر، أكله مضر بالإنسان، ثم هو يعيش على الأوساخ والقاذورات، وهو ما تأباه النفس السوية وتعافه وترفض تناوله، لما فيه من إخلال بطبع الإنسان ومزاجه السوي الذي خلقه الله ﷻ فيه.

وأما أضرار أكل الخنزير على جسم الإنسان، فقد أثبت الطب الحديث جملة منها، وكلما تقدم الناس في العلم فإنهم يكتشفون أمراضا أخرى، بسبب أكل لحم الخنزير فمن هذه الأضرار:

- يعد لحم الخنزير من أكثر أنواع اللحوم الحيوانية التي تحتوي مادة الكوليسترول الدهنية، والتي تقترن زيادتها في دم الإنسان بزيادة فرص الإصابة بتصلب الشرايين. كما أن تركيب الأحماض الدهنية في لحم الخنزير تركيب شاذ غريب يختلف عن تركيب الأحماض الدهنية في الأغذية الأخرى، مما يجعل امتصاصها أسهل بكثير من غيرها في الأغذية الأخرى وبالتالي زيادة كوليسترول الدم.
- يساهم لحم الخنزير ودهنه في انتشار سرطان القولون والمستقيم والبروستاتا

=

=

والثدي والدم.

• يسبب لحم الخنزير ودهنه الإصابة بالسمنة وأمراضها التي يصعب معالجتها.

• يسبب تناول لحم الخنزير الحكة والحساسية وقرحة المعدة.

• يسبب تناول لحم الخنزير الإصابة بالتهابات الرئة والناتجة عن الدودة الشريطية ودودة الرئة والتهابات الرئة الميكروبية.

وتتمثل أهم مخاطر تناول لحم الخنزير في احتواء لحم الخنزير على الدودة الشريطية وتسمى تينياسوليم التي يصل طولها إلى ٢ - ٣ متر. ويؤدي نمو بويضات هذه الدودة في جسم الإنسان فيما بعد إلى الإصابة بالجنون والهستيريا في حال نمو هذه البويضات في منطقة الدماغ، وإذا ما نمت في منطقة القلب فإنها تؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم وحدوث نوبات قلبية، ومن أنواع الديدان الأخرى التي تتواجد في لحم الخنزير دودة التريكانيلا الشعرية الحلزونية المقاومة للطبخ والتي قد يؤدي نموها في الجسم إلى الإصابة بالشلل والطفح الجلدي.

ويؤكد الأطباء أن أمراض الديدان الشريطية تعتبر من الأمراض الخطيرة التي تنجم عن تناول لحم الخنزير، وتتطور في الأمعاء الدقيقة عند الإنسان، وتنضج خلال شهور عدة لتصل إلى دودة بالغة، يتألف جسمها من حوالي ألف قطعة، ويصل طولها إلى ما بين ٤ - ١٠ أمتار، وتعيش وحيدة في أمعاء الإنسان المصاب وتخرج بيضها مع البراز. وعندما تبتلع الخنازير البيض وتهضمه، يدخل إلى الأنسجة والعضلات مشكلا الكيسة المذنبة أو اليرقة، وهي كيس يحتوي على سائل وعلى رأس الدودة الشريطية. وعند تناول لحم الخنزير المصاب تتحول اليرقة إلى دودة كاملة في أمعاء الإنسان، وتسبب هذه الديدان ضعف الإنسان، ونقص فيتامين (ب١٢)، الذي يسبب نوعا خاصا من فقر الدم، وقد يسبب حدوث أعراض عصبية مثل التهاب الأعصاب، وقد تصل اليرقات في بعض

=

=

الحالات إلى الدماغ مسببة حدوث الاختلاج، أو ارتفاع الضغط داخل الدماغ، وما يتلوه من صداع، واختلاج، أو حتى حدوث الشلل.

ويسبب تناول لحم الخنزير غير المطبوخ جيدا أيضا الإصابة بالديدان الشعرينية، وعندما تصل هذه الطفيليات إلى الأمعاء الدقيقة تخرج يرقات كثيرة بعد ٤ إلى ٥ أيام لتدخل إلى جدار الأمعاء، وتصل إلى الدم ومنه إلى معظم أنسجة الجسم، وتمر اليرقات إلى العضلات وتشكل كيسات هناك. ويعاني المريض من آلام عضلية شديدة، وقد يتطور المرض إلى حدوث التهاب السحايا، والدماغ، والتهاب عضلة القلب والرئة، والكليتين، والأعصاب، وقد يكون المرض مميتا في حالات قليلة.

ومن المعروف أن هناك أيضا بعض الأمراض الخاصة بالبشر، لا يشاركهم فيها من الحيوانات إلا الخنزير، ومن ذلك الروماتيزم، وآلام المفاصل، وصدق الله العظيم إذ يقول: "إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم" البقرة/ ١٧٣.

فهذه بعض أضرار أكل الخنزير، ولعلك بعد الوقوف عليها لا تستريب في تحريمه، وإننا لنأمل أن يكون ذلك الخطوة الأولى لهدايتك إلى الدين الحق، فلتقف، ولتبحث، ولتنظر، ولتتأمل، بعدل وإنصاف وتجرد لمعرفة الحق واتباعه واسأل الله تتعالى أن يهديك لما فيه خير لك في الدنيا والآخرة.

على أننا لو لم نعلم في أكل الخنزير مضرة ولا أذى، فهذا لا يغير من إيماننا بتحريمه شيئا، ولا يضعف من تركنا له، ولتعلم أن آدم عليه السلام إنما أخرج من الجنة لأجل أكلة أكلها من الشجرة التي نهاه الله عنها، وما علمنا عن تلك الشجرة شيئا، ولا كان آدم في حاج إلى أن يبحث في سبب تحريم الأكل منها، بل كان يكفيه، كما هو يكفينا ويكفي كل مؤمن، أن يعلم أن الله حرم هذا.

=

=

وانظر حول بعض الأضرار المترتبة على أكل لحم الخنزير: أبحاث المؤتمر العالمي الرابع عن الطب الإسلامي، ط الكويت (٧٣ وما بعدها).

قوله تعالى: {أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ} [الأنعام: ١٤٥]، أي: " أو الذي كانت ذكاته خروجًا عن طاعة الله تعالى؛ كما إذا كان المذبوح قد ذكر عليه اسم غير الله عند الذبح".

قال الزجاج: " أي: رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله، وكانوا يذكرون أسماء أوثانهم على ذبائحهم، «ففسق»: عطف على لحم خنزير، المعنى إلا أن يكون المأكول ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير أو فسقا، فسمي ما ذكر عليه غير اسم الله فسقا، أي خروجا من الدين".

قال الماوردي: " يعني: ما ذبح للأوثان والأصنام، سماه فسقًا لخروجه عن أمر الله".

قال الطبري: " يقول: أو إلا أن يكون مذبوحًا ذبحه ذابحٌ من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته، فذكر عليه اسم وثنه، فإن ذلك الذبح فسقٌ نهى الله عنه وحرّمه، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك، لأنه ميتة، وهذا إعلام من الله جل ثناؤه للمشركين الذين جادلوا نبيَّ الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادَلوهم به، أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرّمه الله، وأن الذي زعموا أنّ الله حرمه حلالٌ قد أحلَّه الله، وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله".

قال مقاتل: " يعني: الذي ذبح لأصنام المشركين ولغيرهم هذا حرام البتة، إن أدركت ذكاته أو لم تدرك ذكاته فإنه حرام البتة، لأنهم جعلوه لغير الله- ﷻ-".

قال ابن عثيمين: "المراد: ما ذكر عليه اسم غير الله عند ذبحه مثل أن يقول: «باسم المسيح»، أو «باسم جبريل»، أو «باسم اللات»، ونحو ذلك".

قال أبو عبيدة: أي: " وما ذكر غير اسم الله عليه إذا ذبح أو نحر، وهى من استهلال

=

=

الكلام".

و «الإهلال»، هو رفع الصوت.

قال الزجاج: " أي: ما رفع فيه الصوت بتسمية غير الله عليه وهذا موجود في اللغة، ومنه الإهلال بالحج إنما هو رفع الصوت بالتلبية".

قال الأصمعي: "الإهلال: أصله رفع الصوت، فكل رافع صوته فهو مهل، قال ابن أحمر:

يهل بالفرقد ركبانها كما يهل الراكب المعتمر

هذا معنى الإهلال في اللغة، ثم قيل للمحرم: مهل، لرفعه الصوت بالتلبية، يقال: أهل فلان بحجة أو عمرة، أي: أحرم بها؛ وذلك لأنه يرفع الصوت بالتلبية عند الإحرام، والذابح مهل، وذلك لأنه كان يسمي الأوثان عند الذبح، ويرفع صوته بذكرها".

ومنه الحديث: "إذا استهل المولود ورث".

قال الطبري: قيل أن العرب كانوا إذا أرادوا ذبح ما قرَّبوه لآلهتهم، سموا اسم آلهتهم التي قربوا ذلك لها، وجَهروا بذلك أصْواتَهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك، حتى قيل لكل ذابح، سمَّى أو لم يُسمِّ، جهر بالتسمية أو لم يجهر: «مُهِلٌّ»، فرفعهم أصواتهم بذلك هو «الإهلال» الذي ذكره الله تعالى فقال: {وما أهِلَّ به لغير الله}، ومن ذلك قيل للملبِّي في حَجة أو عمرة «مُهِلّ»، لرفعه صوته بالتلبية، واستهلال المطر، وهو صوت وُقوعه على الأرض، كما قال الشاعر:

ظَلَمَ البِطَاحَ لَهُ انْهِلالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ المُقْلَعِ

وفي قوله تعالى: {أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ} [الأنعام: ١٤٥]، قولان:

أحدهما: المراد: ما ذكر عليه غير اسم الله. قاله أبو العالية، والربيع بن أنس، وابن زيد، وعقبة بن مسلم التُّجيبي، وقيس بن رافع الأشجعي.

=

=

والثاني: المراد: ما ذبح لغير الله. وهذا قول ابن عباس، والحسن ،وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وعطاء، والزهري.

قوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ} [الأنعام: ١٤٥]، أي: " ألجأته الضرورة للأكل من هذه المحرمات بسبب الجوع الشديد".

قال الزجاج: " أي: دعته الضرورة إلى أكله".

قال الطبري: " معناه: فمن اضطر إلى أكلِ ما حرَّم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير، أو ما أهل لغير الله به".

قال الرازي: أي: فمن "أحوج وألجئ، وهو افتعل من الضرورة، وأصله من الضرر، وهو الضيق".

قال ابن كثير: " أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حُرّم في هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان".. "أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة".

وفي قوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ} [الأنعام: ١٤٥]، وجهان:

أحدهما: أن المراد: فمن أكره على أكله فأكله فلا إثم عليه، وهذا مذهب مجاهد، إذ قال: " الرجل يأخذُه العدو فيدعونه إلى معصية الله".

والثاني: أن المعنى: فمن احتاج إلى أكله لضرورة دعته من خوف على نفس فلا إثم عليه، وهو قول الجمهور.

قوله تعالى: {غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ} [الأنعام: ١٤٥]، أي: " غير طالب بأكله منها تلذذًا، ولا متجاوز حد الضرورة".

قال الزجاج: " فأكله غير باغ، أي غير قاصد لتحليل ما حرم الله، {ولا عاد}، أي: ولا مجاوز للقصد وقدر الحاجة. و «العادي»: الظالم".

قال الطبري: أي: " غير باغ في أكله إيّاه تلذذًا، لا لضرورة حالة من الجوع، ولا عادٍ

=

=

في أكله بتجاوزه ما حدَّه الله وأباحه له من أكله، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك، لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه".

وفي قوله تعالى: {غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ} [الأنعام: ١٤٥]، أربعة وجوه:

أحدها: غير باغ على الإمام ولا عاد على الأمة بإفساد شملهم، فيدخل الباغي على الإمام وأمته والعادي: قاطع الطريق، وهو معنى قول مجاهد، وسعيد بن جبير.

واعترض الإمام الطبري على هذا القول وقد ساق حجتين في ذلك:

إحداها: أن الباغي والعادي، وإن كان كلاهما قد أتى فعلا محرمًا، فإن إتيان هذا الفعل المحرم، لا يجعل قتل أنفسهما مباحًا لهما، إذ هو محرم عليهما قبل إتيانهما ما أتيا من محارم الله عليهما.

والثانية: أن الله قد رخص لكل مضطر أن يأكل مما حرم عليه، فاستثناء الباغي والعادي من رخصة الله للمضطر. لا يعد عنده تحريمًا، بل هو رد إلى ما كان محرمًا عليهما قبل البغي أو العدوان. ومع ذلك فإن هذا الرد إلى ما كان محرمًا عليهما، وإن كان قد حرم عليهما ما كان مرخصًا لهما ولكل مضطر قبل البغي والعدوان، فإنه لا يرخص لهما قتل أنفسهما، وهو حرام عليهما قبل البغي والعدوان.

إذن، فالواجب عليهما أن يتوبا، لا أن يقتلا أنفسهما بالمجاعة، فيزدادان إثمًا إلى إثمهما، وخلافًا إلى خلافهما بالبغي والعدوان أمر الله.

والثاني: غير باغ في أكله فوق حاجته ولا عاد يعني متعديًا بأكلها وهو يجد غيرها، وهو قول قتادة، والحسن، وعكرمة، والربيع، وابن زيد.

والثالث: غير باغٍ في أكلها شهوة وتلذذًا ولا عاد باستيفاء الأكل إلى حد الشبع، وهو قول السدي، وعطاء.

=

=

قال عطاء: " لا يشوي من الميتة ليشتهيه ولا يأكل إلا المعلقة، ويحمل معه ما يبلغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه.

والرابع: غير باغ، يعني: غير مستحله. و «العادي»: المخيف للسبيل، وهذا قول سعيد بن جبير، وروي عن مقاتل بن حيان نحوه في معنى «البغي».

والراجح أن {الباغي}، هو الطالب لأكل الميتة من غير ضرورة؛ و «العادي» هو المتجاوز لقدر الضرورة؛ يؤيده قوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣]. والله أعلم.

وفي أصل «البغي» في اللغة أقوال:

أحدها: الفساد، وتجاوز الحد. قال الليث: "البغي في عدو الفرس اختيال ومروح، وأنه يبغي في عدوه ولا يقال: فرس باغ".

قال الزجاج: "يقال: بغى الجرح يبغي بغيا، إذا ترامى إلى فساد، هذا إجماع أهل اللغة".

قال الأصمعي: " يقال: بغى الجرح يبغي بغيا: إذا ترامى بالفساد".

والثاني: الظلم والخروج عن الإنصاف. ومنه قوله تعالى: {والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون} [الشورى: ٣٩].

قال الأصمعي: يقال: " بغت السماء: إذا كثر مطرها حتى تجاوز الحد".

الثالث: الطلب. والعرب تقول خرج الرجل في بغاء إبلٍ له، أي في طلبها، ومنه قول الشاعر:

لا يمنعنّك من بغا ء الخير تعقادُ التمائم ... إن الأشائم كالأيامن، والأيامن كالأشائم

قال الزجاج: " ويقال: ابتغى لفلان أن يفعل كذا: أي صلح له أن يفعل كذا وكأنه قال: طلب فعل كذا فانطلب له، أي طاوعه، ولكن اجتزئ بقولهم - ابتغى".

وقوله {ولا عاد}، فـ(العدو): "هو التعدي وتجاوز ما ينبغي له أن يقتصر عليه،

=

=

يقال: عدا عليه عدوا وعدوا وعدوانا وعدا واعتداء وتعديا: ظلمه ظلما مجاوزا للقدر، وعدا طوره: جاوز قدره".

قوله تعالى: {فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: ١٤٥]، أي: " فإن الله تعالى غفور له، رحيم به".

قال الزجاج: " أي: يغفر لمن لم يتعد".

قال الطبري: أي: " فلا حرج عليه في أكله ما أكل من ذلك {فإنّ الله غفور}، فيما فعل من ذلك، فساتر عليه بتركه عقوبته عليه، ولو شاء عاقبه عليه {رحيم}، بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه، ولو شاء حرَّمه عليه ومنعه منه".

قال سعيد بن جبير: "{غفور}، يعني: لما أكل من الحرام {رحيم}، يعني: رحيما به إذ أحل له الحرام في الاضطرار".

قال البيضاوي: أي {غَفُورٌ}: " لما فعل، {رَحِيمٌ} بالرخصة فيه".

قال الصابوني: " ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة".

قال ابن كثير: " أي: غفور له، رحيم به، والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البَحِيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنما حُرِّم ما ذكر في هذه الآية، من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام، ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء".

وقد اختلف الفقهاء في مقدار ما يحل للمضطر أكله من الميتة، على قولين:

=

=

أحدهما: له أن يأكل منها مقدار ما يمسك به رمقه، وهو أحد قولي الشافعي واختيار المزني.

والثاني: أن يأكل منها حتى يشبع.

قال مقاتل بن حيان: "{غفور رحيم}، فيما أكل في اضطرار، وبلغنا والله أعلم أنه لا يزيد على ثلاث لقم".

قال الشيخ ابن عثيمين: والله سبحانه وتعالى أباح لنا الميتة بثلاثة شروط:

١ - الضرورة.

٢ - أن لا يكون مبتغيًا - أي طابًا لها -.

٣ - أن لا يكون متجاوزًا للحد الذي تندفع به الضرورة.

وبناءً على هذا ليس له أن يأكل حتى يشبع إلا إذا كان يغلب على ظنه أنه لا يجد سواها عن قرب؛ وهذا هو الصحيح؛ ولو قيل: بأنه في هذه الحال يأكل ما يسد رمقه، ويأخذ شيئًا منها يحمله معه - إن اضطر إليه أكل، وإلا تركه - لكان قولًا جيدًا.

قال مسروق: "من اضطُرَّ فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار. وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة".

وقد اختلف العلماء في الحصر الوارد في هذه الآية على أقوال أجملها في قولين:

القول الأول: إن الآية حصرت المحرمات فما لم يذكر تحريمه فيها فهو حلال، لذا فإن لحوم السباع وسائر الحيوانات مما لم يذكر في الآية مباح.

وهذا قول: ابن عباس، وعائشة، وابن عمر رضي الله عنهم، ومالك في رواية، وابن خويز منداد.

ومما استدلوا به:

ظاهر الآية، قالوا: إن ظاهر قوله: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما}

=

=

الأنعام:١٤٥ . يقتضي أن كل ما عدا المذكور فيها حلال.

وقد نوقش هذا القول بالآتي:

١ - قال ابن عبد البر: "وقد أجمع العلماء أن سورة الأنعام مكية، إلا قوله: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم} الآيات، الأنعام:١٥١، وأجمعوا أن نهي الرسول ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، إنما كان منه بالمدينة، ولم يرو ذلك عنه غير: أبي هريرة و أبي ثعلبة رضي الله عنهما وإسلامهما متأخر بعد الهجرة إلى المدينة بأعوام".

٢ - أن المقصود من سياق هذه الآية الكريمة؛ الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوا من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر الله رسوله ﷺ أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنماحرم ما ذكر في هذه الآية وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه فكيف تزعمون أيها المشركون أنه حرام؟! ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله؟! وليس في الآية دليل على ألا حرام على آكل أو شارب إلا ما ذكر فيها، وإنما تدل على أن النبي ﷺ لم يجد فيما أوحي إليه شيئا محرما منصوصا عليه إلا ما ذكر فيها، وليس ذلك بمانع أن يحرم الله في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ بعد ذلك أشياء سوى ما في هذه الآية.

٣- قال ابن حجر: "الاستدلال بالآية للحل إنما يتم فيما لم يأت فيه نص عن النبي ﷺ بتحريمه، وقد تواردت الأخبار بذلك، والتنصيص على التحريم مقدم على عموم التحليل، وعلى القياس".

ومن الأخبار التي أشار إليها ابن حجر ما تقدم من أن النبي ﷺ نهى عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، ومن ذلك نهيه عن لحوم الحمر الأهلية، وتحريم الخمر، كما في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر

=

=

والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون} المائدة: ٩٠، والإجماع على تحريم القاذورات، و الأشياء التي أوجب النبي ﷺ قتلها.

٤- أن القائل بأن الآية حصرت المحرمات يلزمه أن لا يحرم أشياء معلومة من الدين بالضرورة، كأكل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه عمدا، وأن يستحل الخمر ونحوها حيث أن هذه الأشياء لم تذكر في الآية.

٥- ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من إباحة ما عدا ما ذكر في هذه الآية؛ لعله كان في أول الأمر، ثم رجع بعدما اطلع على نهي النبي ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، يدل على ذلك ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، من حديث ميمون بن مهران، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وذكر الحديث.

القول الثاني: إن الآية لم تحصر المحرمات بل اشتملت على تحريم ما تضمنتها، ولم تستوعب جميع المحرمات. وهذا قال قول جمهور أهل العلم.

ومما استدلوا به:

١- أن كل محرم حرمه رسول الله ﷺ فهو مضموم إلى ما ذكر في الآيات، وهو زيادة حكم من الله على لسان نبيه ﷺ، ونظير ذلك نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قوله تعالى: {وأحل لكم ما وراء ذلكم} النساء: ٢٤.

والنبي ﷺ حرم أشياء كما تقدم فوجب العمل بما جاء عنه ﷺ إذ لا فرق بين ما حرمه الله في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، بدليل قوله تعالى: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول} النساء: ٥٩، وقال: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} النساء: ٨٠. وقال: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} الحشر: ٧، وغيرها.

والذي ترجح لدي مما سبق، هو: قول من قال إن الآية ليس فيها حصر

=

=

للمحرمات، وإنما يضم إليها ما ورد بعدها من المحرمات في الكتاب والسنة، إذ الآية مكية فهي في أول الأمر، ثم جاء بعدها الكثير من الأحكام. فظهر بذلك ضعف القول الأول، إضافة إلى ما ورد عليه من ردود قوية.

فالآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات في هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين فيما حرموه بغير علم من البحائر والسوائب وغيرها.

قال ابن كثير: الغرض من سياق هذه الآية الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، فأمر تعالى رسوله أنه لا يجد فيما أوحاه اللّه إليه أن ذلك محرم ، وأن الذي حرمه هو الميتة وما ذكر معها وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه. فكيف تزعمون أنه حرام؟! ومن أين حرمتموه ولم يحرمه اللّه تعالى؟! وعلى هذا فلا ينفى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا ، كما جاء النهى عن الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير.

وقال القرطبي: والآية مكية ، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة وغير ذلك ، وحرم رسول اللّه ﷺ بالمدينة أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ، وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال:

الأول: ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية وكل محرم حرمه رسول اللّه أو جاء في الكتاب مضموم إليها ، فهو زيادة حكم من اللّه على لسان نبيه ، على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر والفقه والأثر ،... ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ بقية الأقوال.

والخلاصة: أن الآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات في هذه الأربعة

=

=

وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين ، وذلك أن الكفار. كما قال الإمام الشافعي – لما حرموا ما أحل اللّه وأحلوا ما حرمه اللّه وكانوا على المضادة والمحادة ، جاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال – سبحانه – لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه ، نازلا منزلة من يقول:

لا تأكل اليوم حلاوة ، فتقول: لا آكل اليوم إلا الحلاوة ، والغرض المضادة لا للنفي والإثبات على الحقيقة.

فهو تعالى لم يقصد حل ما وراء الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير اللّه به ، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل.

فاختلف العلماء في حكم هذه الآية على قولين كما تقدم:

أحدهما: أن المعنى: لا أجد محرما مما كنتم تستحلون في الجاهلية إلا هذا، قاله طاؤس، ومجاهد.

والثاني: أنها حصرت المحرم، فليس في الحيوانات محرم إلا ما ذكر فيها.

ثم اختلف أصحاب هذا القول على وجهين:

الأول: فذهب بعضهم إلى أنها محكمة، وأن العمل على ما ذكر فيها، فكان ابن عباس لا يرى بلحوم الحمر الأهلية بأسا، ويقرأ هذه الآية ويقول: ليس شيء حراما إلا ما حرمه الله في كتابه. وهذا مذهب عائشة، والشعبي.

قال ابن عباس: " ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرم الله في كتابه، قوله: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة} ".

وقال ابن عباس –أيضا–: " كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا، فبعث الله نبيه ﷺ، وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو منه، ثم تلا هذه الآية: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما}، الآية".

=

=

وعن جابر بن زيد قال: "سألت البحر، يعني: ابن عباس في رجل ذبح ونسي أن يذكر، فتلا هذه الآية: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما}".

وعن ابن عباس أيضا، قال: "ماتت شاة لأم الأسود وفأخبرت النبي ﷺ، فقال: ألا انتفعتم بمسكها؟ فقالوا: يا رسول الله، مسك ميتة؟ فقرأ النبي ﷺ: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه}، فسلخت. قال ابن عباس: فجعلوا مسكها قربة، ثم رأيتها- بعد- سنة".

والثاني: ذهب آخرون أنها نسخت بالسنة، وبما ذكر في «المائدة» من: المنخنقة، والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع.

وقد ذكر الماوردي عن الجمهور: " أنها تشتمل على تحريم ما تضمنها وليست مستوعبة لجميع المحرمات لما جاءت به السنة من تحريم كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير".

قال البغوي: "وأكثر العلماء على أن التحريم لا يختص بهذه الأشياء، والمحرم بنص الكتاب ما ذكر هنا، ذلك معنى قوله تعالى: {قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما}، وقد حرمت السنة أشياء يجب القول بها".

قال القرطبي: " أعلم الله ﷻ في هذه الآية بما حرم. والمعنى: يا محمد لا أجد فيما أوحي إلي محرما إلا هذه الأشياء لا ما تحرمونه بشهوتكم. والآية مكية. ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة «المائدة» بالمدينة. وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة والخمر وغير ذلك. وحرم رسول الله صلى الله عليه بالمدينة أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير.

وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال: الأول- ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية، وكل محرم حرمه رسول الله ﷺ أو جاء في الكتاب مضموم

=

إليها، فهو زيادة حكم من الله ﷻ على لسان نبيه ﷺ. على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر، والفقه والأثر. ونظيره نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قوله: {وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُم} [النساء: ٢٤]، وكحكمه باليمين مع الشاهد مع قول: {فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَان} [البقرة: ٢٨٢]، وقد قيل: إنها منسوخة بقوله ﷺ «أكل كل ذي ناب من السباع حرام»".

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير".

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "أكل كل ذي ناب من السباع حرام".

عن عيسى بن نميلة الفزاري عن أبيه قال: "كنت عند عبد الله بن عمر فسأله رجل عن أكل القنفذ، فقرأ: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه}، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: سئل عنه رسول الله ﷺ فقال: «خبيث من خبائث». فقال ابن عمر: إن كان قاله رسول الله ﷺ فهو كما قاله".

والأصل عند الشافعي: "أن ما لم يرد فيه نص تحريم أو تحليل، فإن كان مما أمر الشرع بقتله -كما قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم» أو نهى عن قتله، كما روي أنه نهى عن قتل النحلة والنملة -فهو حرام، وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادات العرب، فما يأكله الأغلب منهم فهو حلال، وما لا يأكله الأغلب منهم فهو حرام، لأن الله تعالى خاطبهم بقوله: {قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَات} [المائدة: ٤]، فثبت أن ما استطابوه فهو حلال".

قال ابن الجوزي: "وقد رد قوم هذا القول، بأن قالوا: كل هذا داخل في الميتة، وقد ذكرت الميتة ها هنا فلا وجه للنسخ، وزعم قوم: أنها نسخت بآية المائدة، وبالسنة من تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير، وهذا ليس بصحيح، أما آية المائدة فقد ذكرنا أنها داخلة في هذه الآية، وأما ما ورد

=

في السنة فلا يجوز أن يكون ناسخا، لأن مرتبة القرآن لا يقاومها أخبار الأحاد ولو قيل: إن السنة خصت ذلك الإطلاق أو ابتدأت حكما، كان أصلح.

وإنما الصواب عندنا أن يقال: هذه الآية نزلت بمكة، ولم تكن الفرائض قد تكاملت ولا المحرمات اليوم قد تتامت، ولهذا قال: {في ما أوحي} على لفظ الماضي وقد كان حينئذ من قال: لا إله إلا الله ثم مات، دخل الجنة، فلما جاءت الفرائض والحدود، وقعت المطالبة بها، فكذلك هذه الآية إنما أخبرت بما كان في الشرع من التحريم يومئذ، فلا ناسخ إذن ولا منسوخ. ثم كيف يدعى نسخها وهي خبر، والخبر لا يدخله النسخ".

وقد اختار ابن الجوزي في مختصر عمدة الراسخ إحكام الآية وهو اختيار أبي جعفر النحاس، ومكي بن أبي طالب، وذكر ابن الجوزي في تفسيره أسباب إحكام البية-بعد ذكر دعوى الإحكام- فقال: "ولأرباب هذا القول في سبب إحكامها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها خبر والخبر لا يدخله النسخ.

والثاني: أنها جاءت جوابا عن سؤال سألوه، فكان الجواب بقدر السؤال، ثم حرم بعد ذلك ما حرم.

والثالث: أنه ليس في الحيوان محرم إلا ما ذكر فيها".

قال الإمام ابن كثير: " يقول تعالى آمرًا عبده ورسوله محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه: قل لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله: {لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} أي: آكل يأكله. قيل: معناه: لا أجد شيئًا مما حرمتم حرامًا سوى هذه. وقيل: معناه: لا أجد من الحيوانات شيئًا حرامًا سوى هذه. فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة «المائدة»، وفي الأحاديث الواردة، رافعًا لمفهوم هذه الآية.

=

=

ومن الناس من يسمي ذلك نسخًا، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخًا؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل".

قال الإمام الحافظ ابن عبد البر -رَحِمَهُ اللَّهُ- ما ملخصه، بعد أن أسند حديث أبي هريرة «أكل كل ذي ناب من السباع حرام»: "وهذا حديث ثابت مجتمع على صحته، وفيه من الفقه أن النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع نهي تحريم، لا نهي أدب وإرشاد، وكل خبر جاء عن النبي ﷺ فيه نهي، فالواجب استعماله على التحريم إلا أن يأتي معه أو في غيره دليل يبين أن المراد أنه ندب وأدب. وقد زعم بعض أصحابنا أنه نهى تنزه وتقذر، فإن أراد به نهي أدب فهذا ما لا يوافق عليه، وإن أراد أن كل ذي ناب من السباع يجب التنزه عنه كما يتنزه عن النجاسة فهذا غاية في التحريم. ولم يرده القائلون من أصحابنا. لأنهم استدلوا بظاهر هذه الآية قل لا أجد... وذكر أن من الصحابة من استعمل هذه الآية، ولم يحرم ما عداها، ويلزمه على أصله هذا أن يحل لحم الحمر الأهلية، وهو لا يقول هذا في لحم الحمر الأهلية. لأنه لا تعمل الزكاة عنده في لحومها ولا في جلودها، ولو لم يكن محرما إلا ما في هذه الآية لكانت الحمر الأهلية حلالا. وهو لا يقول به، ولا أحد من أصحابه، وهذه مناقضة، وكذلك يلزمه أن لا يحرم ما لم يذكر اسم الله عليه عمدا، ويستحل الخمر المحرمة عند جماعة المسلمين. وأظن قائل هذا القول من أصحابنا في أكل كل ذي ناب راعى اختلاف العلماء، ولا يجوز مراعاة الاختلاف عند طلب الحجة. لأن الاختلاف ليس منه شيء لازم دون دليل، وإنما الحجة اللازمة الإجماع لأن الإجماع يجب الانقياد إليه. فأما قوله تعالى قل لا أجد في ما أوحي... فقال قوم من فقهاء العراقيين، ممن يجيز نسخ القرآن بالسنة: إن هذه الآية منسوخة بالسنة. وقال آخرون: معنى الآية، أي لا أجد قد أوحي إلي في هذا الحال أي وقت نزول الآية. وقالت فرقة: الآية محكمة، ولا يحرم إلا ما فيها، وهو

=

=

قول ابن عباس، وقد روي عنه خلافه في أشياء حرمها، يطول ذكرها وكذلك اختلف فكيه عن عائشة، وروي عن ابن عمر من وجه ضعيف، وهو قول الشعبي وسعيد بن جبير.

وأما سائر فقهاء المسلمين في جميع الأمصار فمخالفون لهذا القول متبعون للسنة في ذلك. وقال أكثر أهل العلم، والنظر من أهل الأثر: إن الآية محكمة غير منسوخة، وكل ما حرمه النبي ﷺ مضموم إليها، ولا فرق بين ما حرم الله ﷻ في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ".

وفي السياق نفسه قال الشيخ السعدي: "فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط: {فَإِنَّهُ رِجْسٌ} وصف شامل لكل محرم، فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستقذرة التي حرمها الله على عباده، صيانة لهم، وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السُّنَّة، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره، إلا شرع الله -دل ذلك على أن المشركين، الذين حرموا ما رزقهم الله مفترون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو: أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله به، وما سوى ذلك فحلال.

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فينمونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا

=

=

المحرم على هذه الأمة كله من باب التنزيه لهم والصيانة".

** مسألة: تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في الأطعمة والأشربة..

أولا: تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في الأطعمة:

* قال أصحاب الفضيلة: "يجب على المسلم أن يتحرى الحلال والطيب في مطعمه ومشربه وملبسه.

* وأفتوا بحل العنب الأسود لأن الأصل في الأطعمة الحل.

* وأفتوا بكراهة أكل الثوم والبصل النيء لمن توقع حضور المسجد والمجامع العامة ومخالطة الناس إلا بعد كمال طبخه وذهاب رائحته أو إزالة رائحته بأي مزيل.

* وأفتوا بجواز أكل الكبد نية قبل طبخها إذا أمن الضرر.

* وذكروا بأن الأصل في اللحوم الحل إلا ما حرم الله، كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وسباع البهائم والطير التي تفترس بأنيابها ومخالبها وكل مستخبث من الحشرات والطيور أو كان مضرًا بالصحة.

* وأفتوا بحل الحلوى إلا إذا علم اختلاطها بشيء محرم.

* وأفتوا بحرمة الجيلاتين إذا كان محضرا من شيء محرم، وإن لم يكن داخلا في تكوينه شيء من المحرمات فهو حلال.

* وأفتوا بحل السمن المستورد جريا على أصل الإباحة إلا إذا ثبت ما ينقله للتحريم.

* وأفتوا بحل البيبسي لأن الأصل الحل ولم يثبت ما يخرجه عن هذا الأصل.

* وأفتوا بحل الجبن إذ لم يثبت ما يخرجه عن أصل الحل.

* وقالوا: الجبن والسمن والحليب الأصل فيه الحل ولا يجوز لأحد أن يحرم منه شيئأ إلا إذا ثبت اشتماله على ما يوجب التحريم ونحن لا نعلم موجبا للتحريم.

=

=

* وذكروا بأنه لا يجب السؤال عن أنفحة الأجبان لأن المسلمين لا يزلون يأكلون من أجبان الكفار من عهد الصحابة ولم يسألوا عن نوع الأنفحة.

* وقالوا: جميع ما لم يذك ذكاة شرعية نجس لا يجوز أكله ولا ينفعه الغسل بعد ذلك.

* وأفتوا بحل الجبن المصنوع من أنفحة البقر ما لم يحصل يقين أنها ذكت على غير الطريقة الشرعية.

* وأفتوا بحرمة الجبن المصنوع من أنفحة الخنزير.

* وأفتوا بحل ما يسمى (الخشاب) ما لم يكن مسكرًا.

* وأفتوا بجواز استعمال (المر) المعروف عند العطارين وأبطلوا ما يشاع من أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه (مر).

* وأفتوا بجواز أكل ما يبقيه الطفل الرضيع من الطعام والشراب.

* وذكروا بأن النبي ﷺ كان يأكل بثلاثة أصابع ، وليس من هديه أن يأكل بغير ذلك ، وكان يلعق أصابعه بعد الفراغ.

* وأفتوا بجواز المأكولات التي لا ارتباط لها بأعياد ومناسبات بدعية.

* وأفتوا بأن الدم الباقي في عروق الحيوان بعد الذبح طاهر فلا يضر ظهوره في الطعام.

* وأفتوا بحرمة تعمد ابتلاع الدم - أي دم الإنسان من الجرح - لأنه حرام ، وأما إن دخل في جوفه بلا قصد فلا إثم عليه.

* وأفتوا بحرمة أكل الذئب لأنه من جملة السباع.

* وأفتوا بحرمة أكل النمر لأنه من السباع.

* وذكروا بأن الشريعة حرمت أكل الخنزير لأنه حيوان يأكل القاذورات والنجاسات وهي أشهى طعام إليه ويتتبعها ويغشى أماكنها ، ولأنه يولد الدود في

=

=

الجوف وله أثر في إضعاف الغيرة والقضاء على العفة وأن له مضارًا في الجسد كعسر الهضم ومنع بعض الأجهزة من إفراز عصارتها لتساعد على هضم الطعام ، والله له الحكمة البالغة في تشريعه وإن لم يطلع عليها المكلفون.

* وأفتوا بحرمة استيراده – أي الخنزير – للبلاد الإسلامية ، ويحرم الإذن في ذلك.

* وذكروا: إذا تأكد المسلم أو غلب على ظنه أن لحم الخنزير أو شحمه أو مسحوق عظمه داخل منه شيء في طعام أو دواء أو معجون أسنان أو نحو ذلك فلا يجوز له أكله ولا شربه ولا الدهان منه.

* وأفتوا بلزوم الاستفسار عن نوعية تركيبة الطعام في المطاعم الغربية لغالب اشتمال أطعمتهم على المحرم.

* وأفتوا بعدم جواز أكل البقر المشوي على الصفيحة التي يشوى عليها لحم الخنزير ، وكذلك السكين ، أي لا يجوز أكل اللحم الذي قطع بالسكين التي قطع بها الخنزير.

* وأفتوا بأن ما حرم شرعًا من الأطعمة والأشربة فلا يجوز للمسلم أن يقدمه للكافر بحجة أنه جائز في دينه.

* وأفتوا بأن من أكل شيئًا من المحرمات جاهلا حقيقة الحال فإنه لا إثم عليه ، لكن على المسلم أن يتحرى فيما يستقبل.

* وأفتوا بحرمة اللحم إذا قلي في زيت قد قلي فيه لحم خنزير.

* وذكروا بأن كل ما أمر بقتله فيحرم أكله ، وبنوا على ذلك تحريم أكل الحية.

* وأفتوا بحرمة أكل القرد لأنه من ذوات الأنياب.

* وأفتوا بحرمة أكل الفأرة لأنه مأمور بقتلها ولأنها مستخبثة.

* وأفتوا بأن الإسراف ممنوع وإضاعة المال ممنوعة فيجب حفظ الطعام الباقي

=

=

للمرة الثانية أو إطعامه المحتاجين فإن لم يوجدوا فالحيوانات.

* وأفتوا بحرمة أكل القطة لأنها من ذوات الأنياب.

* وأفتوا بجواز أكل القواقع الحلزونية لأنها من صيد البحر.

* وذكروا بأن كل ما نهي عن قتله فيحرم أكله وبنوا على ذلك حرمة أكل الهدهد وحرمة أكل الصرد.

* وأفتوا بحرمة أكل الطيور التي لا مخلب لها وهي تأكل الجيف كالغراب وما كان مثله في أكل الجيف.

* وأفتوا بحرمة أكل اللحم المدهون بالخمر.

* وأفتوا بحرمة سقي الحيوانات الماء النجس لأن ذلك يجعلها كالجلالة.

* وأفتوا بجواز أكل الثمرة على شجرة مسقية بالنجاسة إن لم يظهر أثر النجاسة فيها.

* وأفتوا بأن الغنم إذا كان غالب شربها من النجاسة فإنه لا يجوز شرب لبنها حتى تحبس ثلاثة أيام وتطعم الطاهر كالحكم في الجلالة.

* وأفتوا بحرمة أكل جدي تغذى بلبن كلبة إلا بعد إطعامه الطاهر ثلاثة أيام.

* وأفتوا بجواز تربية الحيوانات في البيوت إلا الكلب لثبوت النهي عن اقتنائه إلا كلب ماشية أو صيد.

* وأفتوا بجواز جميع أنواع الطيور إلا ذوات المخالب كالحدأة والصقر.

* وأفتوا بجواز أكل جميع أنواع الأرانب.

* وأفتوا بجواز أكل جميع أنواع الخضراوات.

* وأفتوا بحرمة أكل الفرخ بعد تخلقه في البيضة إذا لم يذك الذكاة الشرعية، وأما طبخه وهو في البيضة وأكله فلا يجوز لأنه ميتة.

* وأفتوا بحل الوبر لأن الأصل الحل ولم يرد ما يحرمه.

=

=

* وأفتوا بحل أكل الضبع لثبوت الحديث بأنه من الصيد وحل أكلها.
* وأفتوا بجواز أكل الضب.
* وأفتوا بحرمة أكل الثعلب لأنه من ذوات الأنياب.
* وأفتوا بجواز أكل النعامة لأن الأصل الحل ولم يرد ما يحرمها.
* وقالوا: الأصل في حيوان البحر الذي لا يعيش عادة إلا فيه الحل لقوله سبحانه: أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعًا لكم وللسيارة.
* وأفتوا بجواز أكل السمك بعد كهربته في الماء ما لم يكن فيه ضرر على أحد.
* وأفتوا بجواز أكل السردين والفسيخ لأن أصلهما من السمك.
* وأفتوا بجواز أكل السمكة إذا انقطع بعضها وهي في السنارة.
* وأفتوا بجواز أكل السلحفاة البحرية والجمبري لحديث: هو الطهور ماؤه الحل ميتته.
* وأفتوا بجواز أكل لحم الحمار الوحشي ، والنهي خاص بالحمر الأهلية.
* وأفتوا بحل أكل القنفذ لأن الأصل الجواز.
* واختار أصحاب الفضيلة جواز أكل التمساح.
* واختاروا جواز أكل فرس البحر.
* وأفتوا بحل أكل سمك القرش.
* ومال أصحاب الفضيلة إلى حرمة أكل الضفدع.
* وأفتوا بحل أكل السرطان لأنه حيوان بحري.
* وقالوا: يحرم على المسلم أن يكثر من الأكل على وجه يضره لأن ذلك من الإسراف والإسراف حرام.
* وأفتوا بأن المسلم إذا عرف أن هذه الهدية أو هذا الطعام من هذا المال المحرم فإنه لا يجوز لها أكل الطعام ولا قبول الهدية. وأما إن كان ماله مختلطًا ولم يتميز

=

=

عين المال الذي اشتري به الطعام أو الهدية ففيه خلاف واختار أصحاب الفضيلة الجواز.

* وأفتوا بأنه لا يجوز لطلاب الجامعة أن يعطوا غيرهم تذاكر الطعام المخفضة الخاصة بهم لأنه كذب وخداع وأكل للمال بالباطل.

* وقال أصحاب الفضيلة: الذبائح التي تذبح على أضرحة الصالحين لا يجوز الأكل منها والإمام الذي يأكل منها يرشد ببيان عدم جواز الأكل فإن أكل بعد البيان فلا تصل خلفه.

* وقالوا: يحرم الأكل من المال المسروق أو الاستعانة به في نفقات الدراسة وغيرها.

* وأفتوا بحرمة الأكل عند من كسبه من القمار لأنه كسب محرم.

* وأفتوا بأفضلية عدم الاتكاء على اليد حال الأكل.

* وأفتوا بجواز أكل الثمار والمنتجات الزراعية التي تأتي من الكفار إلا الذبائح فقط فلا تحل إلا ذبيحة الكتابي إن كان ذبحها على الطريقة الشرعية وأما سائر الكفار فلا تحل ذبائحهم.

* وقالوا: الأكل مما يعده الكفار من الأطعمة التي لا تشتمل على محرم جائز.

* وأفتوا بجواز الأكل مع الكافر لمصلحة شرعية.

* وقالوا: الواجب احترام ما تبقى من الطعام وإعطاءه لمن يأكله من إنسان أو حيوان فإن لم يكن هناك من يحتاج إليه فإنه يوضع في مكان طاهر.

* وأفتوا بجواز قول الإنسان وهو المسجد: "تفضلوا للقهوة " وليس ذلك من إنشاد الضالة بل هو من مكارم الأخلاق.

* وأفتوا بجواز الأكل في المسجد أو رحبته أو سطحه أو الغرف التابعة له إذا دعت الحاجة لذلك مع التنبيه على وجوب تنظيفه من آثار الطعام.

=

ثانيا: تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في الأشربة:

* قال أصحاب الفضيلة: حرم الله سبحانه الخمر لما فيها من أضرار فتاكة بالعقول فهي تخامرها أي تغطيها وكان تحريمها سنة ست من الهجرة وقيل سنة أربع وكان ذلك قطعا بنزول قول الله سبحانه: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه " إلى قوله سبحانه: "فهل أنتم منتهون".

* وأفتوا بأن شرب الزوج للخمر عيب شرعي فيه يتيح للزوجة المطالبة بالفسخ ويكون ذلك عن طريق المحاكمة شرعيًا.

* وذكروا بأن الخمر حرام بالكتاب والسنة والإجماع.

* وقالوا: شارب الخمر مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته وهو تحت مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

* وأفتوا بوجوب الإنكار على من يشربها علنا فإن استجاب وإلا وجب رفع أمره إلى السلطان أو نائبه مع وجوب زجره بهجره.

* وقالوا: ولا يباح شرب الخمر بحال أما من اضطر إلى شربها بأن كان مثلا في مهلكة من الأرض أو غص بطعام وخشي على نفسه الهلاك ولم يجد في كل ما حوله إلا الخمر فإنه يشرب منها بقدر سد ضرورته ولا يزيد.

* وقالوا: وأما استخدامها للدواء فلا يجوز وليس من الضرورة.

* وقالوا: أما المكره على شربها فلا إثم عليه إذا كان صادقا في أنه مكره.

* وأفتوا بأن صلاة شارب الخمر صحيحة ما دام يعقل ما يقول وكذلك صومه صحيح.

* وقالوا: الخمر تجب إراقتها لإسكارها لا لنجاستها لأمر النبي ﷺ بذلك حينما نزلت الآيتان في تحريم الخمر ويحرم إبقاؤها والانتفاع بها على حالها ويحرم =

=

تحويلها عن خمريتها بالتخليل أو بتخليل بعض أجزائها وتخليصها مما بها من الكحول ولا خلطها بغيرها مما يراد الانتفاع به لنهي النبي ﷺ عن تخليل الخمر سدا للذريعة وقطعا لطريق إعادة تركيبها واستعمالها.

* وقالوا: لا يجوز خلط الأدوية بالكحول المسكرة لكن لو خلطت بالكحول جاز استعمالها إن كانت نسبة الكحول قليلة لم يظهر أثرها في لون الدواء ولا طعمه ولا ريحه وإلا حرم استعمال ما خلط بها.

* وقالوا: يحرم على المسلم أن يقدم خمرًا لرفقائه سواء كانوا كفارًا أم مسلمين.

* وأفتوا بحرمة العمل في الشركات المصنعة للخمور أيا كان نوع العمل.

* وأفتوا بحرمة البقاء في وظيفة مضيف الطائرة إن كان يلزم بتقديم الخمور للركاب.

* وقالوا: لا يجوز لسائق الأجرة المسلم أن يحمل من معه خمر لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان.

* وأفتوا بحرمة بيع المادة من شعير ونحوه لمن يستخدمها في تصنيع الخمر.

* وقالوا: وكل مادة حصل بها الإسكار فهي خمر محرمة وإن لم تسم خمرًا لقول النبي ﷺ: "كل مسكر خمر وكل خمر حرام"، وقول ﷺ: "ما أسكر كثيره فقليله حرام".

* وأفتوا بحرمة القصد إلى تخليل الخمر.

* وقالوا: إذا حولت الخمرة إلى خل بقيت على تحريمها ولا تنقلها الإزالة عن حكمها.

* وأفتوا بأنها إن تخللت بنفسها من دون عمل أحد فإنها تطهر بذلك وتباع.

* وأفتوا بحرمة شرب البيرة وعصير التفاح إذا كانت مسكرة.

* وأفتوا بجواز استعمال الخل لحديث: "نعم الإدام الخل".

=

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦).

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا} أَيْ الْيَهُود {حَرَّمْنَا كُلّ ذِي ظُفُر} وَهُوَ مَا لَمْ تُفَرَّق أَصَابِعه كَالْإِبِلِ وَالنَّعَام {وَمِنْ الْبَقَر وَالْغَنَم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومهمَا} الثُّرُوب وَشَحْم الْكُلَى {إلَّا مَا حَمَلَتْ ظهورها} أَيْ مَا عَلِقَ بِهَا مِنْهُ {أَوْ} حَمَلَتْهُ {الْحَوَايَا} الْأَمْعَاء جَمْع حَاوِيَاء أَوْ حَاوِيَة {أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} مِنْهُ وَهُوَ شَحْم الْأَلْيَة فَإِنَّهُ أُحِلَّ لَهُمْ {ذَلِكَ} التَّحْرِيم {جَزَيْنَاهُمْ} بِهِ {بِبَغْيِهِمْ} بِسَبَبِ ظُلْمهمْ

=

* وأفتوا بجواز البيرة المسماة " موسي " إن لم يك كثيرها يسكر.

* وقال أصحاب الفضيلة: الأصل في الأشياء الحل والطهارة فلا يجوز أن يحكم الشخص على شيء بأنه محرم ونجس إلا بدليل شرعي.

* وأفتوا بحرمة استعمال العطور الممزوجة بالكحول مزجا يقتضي اسكارها.

* وأفتوا بجواز استعمال الكولونيا والكحول إذا استعمل لأغراض طبية كتطهير جروح وتعقيم.

* وأفتوا بحرمة الدخان لما فيه من المفاسد.

* وأفتوا بجواز شرب الشاي والقهوة لأنهما من الأشربة المباحة.

* وأفتوا بحرمة تعاطي الحبوب المنبهة والمنومة لما فيها من المضار على متعاطيها.

* واختار أصحاب الفضيلة أن المائعات إذا وقعت فيها نجاسة فلها حكم الماء فلا تنجس إلا بالتغير.

بِمَا سَبَقَ فِي سُورَةِ النِّسَاء {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} فِي أَخْبَارِنَا وَمَوَاعِيدِنَا(١).

(١) قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [الأنعام: ١٤٦]، أي: " واذكر -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين ما حرمَّنا على اليهود من البهائم والطير: وهو كل ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنَّعام".

وفي تسمية اليهود بذلك أقوال: قيل: من التوبة كقول موسى (إنا هدنا إليك) أي تبنا إليك، وقيل: نسبة إلى يهود أكبر أولاد يعقوب، وقيل: لأنهم يتهودون، أي يتحركون عند القراءة.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وحرّمنا على اليهود {كل ذي ظفر}، وهو من البهائم والطير ما لم يكن مشقُوق الأصابع، كالإبل والنَّعام والإوز والبط".

واختلف في معنى: {كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [الأنعام: ١٤٦]، على أربعة أقوال:

أحدها: أنه ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، وعطاء الخراساني ،والسدي ،ومقاتل بن حيان، وكذلك روي عن حنش الصنعاني وزاد فيه: والخنزير.

والثاني: أنه الإبل فقط. وهذا قول ابن زيد.

والثالث: أنه عنى أنواع السباع كلها.

والرابع: أنه كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي حافر من الدواب.

والراجح-والله أعلم- هو القول الأول، " لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه حرم على اليهود كل ذي ظفر، فغير جائز إخراج شيء من عموم هذا الخبر إلا ما أجمع أهل العلم أنه خارج منه. وإذا كان ذلك كذلك، وكان النعام وكل ما لم يكن من البهائم والطير مما له ظفر غير منفرج الأصابع داخلا في ظاهر التنزيل، وجب أن يحكم له بأنه داخل في الخبر، إذ لم يأت بأن بعض ذلك غير داخلٍ في الآية، خبرٌ عن الله ولا =

=

عن رسوله، وكانت الأمة أكثرها مجمع على أنه فيه داخل".

وقرأ الحسن: «كل ذي ظفر» مكسورة الظاء مسكنة الفاء. وقرأ أبو سماك: «ظفر» بكسر الظاء والفاء، وهي لغة.

قوله تعالى: {وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا} [الأنعام: ١٤٦]، أي: " وحرّمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم".

عن السدي: قوله: "{ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما}، قال: حرمنا عليهم من الشحوم الثرب وشحم الكليتين، وكان اليهود يقولون: إنما حرمه إسرائيل، فنحن نحرمه".

واختلف في قوله تعالى: {وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا} [الأنعام: ١٤٦]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها شحوم الثّرْب خاصة، قاله قتادة.

والثاني: أنه كل شحم لم يكن مختلطًا بعظم ولا على عظم، قاله ابن جريج.

والثالث: أنه شحم الثرب والكلى، قاله السدي، وابن زيد.

قال الطبري: " والصواب في ذلك من القول أن يقال: إن الله أخبر أنه كان حرم على اليهود من البقر والغنم شحومهما، إلا ما استثناه منها مما حملت ظهورهما أو الحَوَايا أو ما اختلط بعظم. فكل شحم سوى ما استثناه الله في كتابه من البقر والغنم، فإنه كان محرمًا عليهم. وبنحو ذلك من القول تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ، وذلك قوله: «قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها ثم باعوها وأكلوا أثمانها»".

قوله تعالى: {إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا} [الأنعام: ١٤٦]، أي: " إلا الشحم الذي علق بالظهر منهما".

قال الطبري: " يعني: إلا شحوم الجَنْب وما علق بالظهر، فإنها لم تحرَّم عليهم".

=

=

قال البغوي: "أي: إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا} [الأنعام: ١٤٦]، وجهان:

أحدهما: أنه ما علق بالظهر من الشحم. قاله ابن عباس، والضحاك، ومقاتل بن حيان.

والثاني: أنه شحم الألية. وهذا قول أبي صالح، وهو مروي عن السدي أيضا.

قوله تعالى: {أَوِ الْحَوَايَا} [الأنعام: ١٤٦]، أي: "أو الأمعاء والمصارين".

قال البغوي: "أي: ما حملته الحوايا من الشحم".

قال الطبري: يعني" أو ما حملت الحوايا، وهي ما تحوَّى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي «المباعر»، وتسمى «المرابض»، وفيها الأمعاء".

قال ابن زيد: " {الحوايا}، المرابض التي تكون فيها الأمعاء، تكون وسطها، وهي: «بنات اللبن»، وهي في كلام العرب تدعى: «المرابض»".

وفي معنى: قوله تعالى: {أَوِ الْحَوَايَا} [الأنعام: ١٤٦]، وجوه:

أحدها: أنها المباعر. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو صالح، ومجاهد، ومقاتل بن حيان، والسدي، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني / واختاره الزجاج.

والثاني: أن «الحوايا»: المباعر والمرابض. وهذا قول الضحاك، وابن زيد، وهو مروي عن مجاهد أيضا.

والثالث: أنها بنات اللبن. وهذا قول ابن زيد.

والرابع: أنهاالبطون غير الثروب. وهذا مروي عن الضحاك، ومقاتل بن حيان.

والخامس: أنها الأمعاء التي عليها الشحم من داخلها، قاله بعض المتأخرين.

والسادس: أنها كل ما تحوّى في البطن واجتمع واستدار، قاله علي بن عيسى (١٩).

=

=

قوله تعالى: {أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [الأنعام: ١٤٦]، أي: " أو اختلط بعظم الألْية والجنب ونحو ذلك".

قال الطبري: يعني: " وإلا ما اختلط بعظم، فهو لهم أيضًا حلال".

قال ابن كثير: " أي: وإلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحللناه لهم".

قال البغوي: "يعني: شحم الألية، هذا كله داخل في الاستثناء، والتحريم مختص بالثرب وشحم الكلية".

وفي قوله تعالى: {أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [الأنعام: ١٤٦]، وجهان:

أحدهما: أنه شحم الجنب.

والثاني: أنه شحم الجنب والأليه، لأنه على العصعص، قاله ابن جريج، والسدي.

قال الزجاج: "نحو شحم الإلية. وهذا أكثر القولين".

قوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ} [الأنعام: ١٤٦]، أي: " ذلك التحرم المذكور على اليهود عقوبة مِنَّا لهم بسبب أعمالهم السيئة".

قال مقاتل بن حيان: " يقول: باستحلالهم ما كان الله حرم عليهم".

قال ابن زيد: " فعلنا ذلك بهم ببغيهم".

قال قتادة: "إنما حرم ذلك عليهم عقوبة ببغيهم".

قال الثعلبي: أي: "ذلك التحريم جزيناهم بظلمهم عقوبة لهم بقتلهم الأنبياء وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل".

قال ابن كثير: " أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به، مجازاة لهم على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا} [النساء: ١٦٠]".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فهذا الذي حرمنا على الذين هادوا من الأنعام والطير، ذوات الأظافير غير المنفرجة، ومن البقر والغنم، ما حرمنا عليهم من

=

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧).

{فَإِنْ كَذَّبُوك} فِيمَا جِئْت بِهِ {فَقُلْ} لَهُمْ {رَبّكُمْ ذُو رَحْمَة وَاسِعَة} حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلكُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَفِيهِ تَلَطُّف بِدُعَائِهِمْ إلَى الْإِيمَان {وَلَا يرد بأسه} عذابه إذا جاء {عن القوم المجرمين}[1].

=

شحومهما، الذي ذكرنا في هذه الآية، حرمناه عليهم عقوبة منّا لهم، وثوابًا على أعمالهم السيئة، وبغيهم على ربهم".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الأنعام: ١٤٦]، أي: " وإنَّا لصادقون فيما أخبرنا به عنهم".

قال الماوردي: أي: " فيما حكاه عنهم وحرمه عليهم".

قال الثعلبي: أي: "في أخبارنا عن هؤلاء اليهود وعما حرمنا عليهم من اللحوم والشحوم".

قال ابن كثير: " أي: وإنا لعادلون فيما جزيناهم به".

وقال الطبري: " يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرمنا عليهم من الشحوم ولحوم الأنعام والطير التي ذكرنا أنّا حرمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه، وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه".

(١) قوله تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ} [الأنعام: ١٤٧]، أي: " فإن كذبك -أيها الرسول- مخالفوك من المشركين واليهود، وغيرهم".

قال النسفي: أي: " فيما أوحيت إليك من هذا".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فإن كذبك، يا محمد، هؤلاء

=

اليهود فيما أخبرناك أنا حرمنا عليهم وحللنا لهم، كما بينا في هذه الآية".

قال ابن كثير: " يقول تعالى: فإن كذّبك - يا محمد - مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم".

عن مجاهد: قوله: "{فإن كذبوك}، قال: اليهود".

قوله تعالى: {فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} [الأنعام: ١٤٧]، أي: " فقل لهم: ربكم جل وعلا ذو رحمة واسعة".

قال الطبري: " {فقل ربكم ذو رحمة}، بنا، وبمن كان به مؤمنًا من عباده، ويغيرهم من خلقه {واسعة}، تسع جميع خلقه، المحسنَ والمسيء، لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنِّقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمة منه بكلا الفريقين".

قال البغوي: يعني: " بتأخير العذاب عنكم".

قال القرطبي: " أي: من سعة رحمته حلم عنكم فلم يعاقبكم في الدنيا".

قال النسفي: أي: " برحمته الواسعة يمهل المكذبين ولا يعاجلهم بالعقوبة".

قال ابن كثير: " وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، واتباع رسوله".

قال السعدي: أي: " فاستمر على دعوتهم، بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله {ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} أي: عامة شاملة لجميع المخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمته بأسبابها، التي رأسها وأسها ومادتها، تصديق محمد ﷺ فيما جاء به".

قوله تعالى: {وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: ١٤٧]، أي: " ولا يُدْفع عقابه عن القوم الذين أجرموا، فاكتسبوا الذنوب، واجترحوا السيئات".

قال البغوي: يعني: " عذابه، {عن القوم المجرمين} إذا جاء وقته".

قال النسفي: معناه"فلا يرد عذابه مع سعة رحمته {عن القوم المجرمين}، إذا جاء، أي: فلا تغتر بسعة رحمته عن خوف نقمته".

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ

=

قال الطبري: يقول" ولكن بأسه -وذلك سطوته وعذابه- لا يردّه إذا أحله عند غضبه على المجرمين بهم عنهم شيء، و {المجرمون} :هم الذين أجرَموا فاكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات".

قال السعدي: " {الْمُجْرِمِينَ} أي: الذين كثر إجرامهم وذنوبهم. فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ".

قال القرطبي: " ثم أعده لهم في الآخرة من العذاب فقال: {ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين} ، وقيل: المعنى ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين إذا أراد حلوله في الدنيا".

قال ابن كثير: " [وهذا] ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}
[الآية: ١٦٥]، وقال {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد: ٦]، وقال تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} [غافر: ٣]، وقال تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: ١٢ - ١٤]، والآيات في هذا كثيرة جدًا".

قال السدي: " كانت اليهود تقول: إنما حرمه إسرائيل- يعني: الثَّرْب وشحم الكليتين -، فنحن نحرمه. فذلك قوله: {فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين} ".

لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨).

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكنَا} نَحْنُ {وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْء} فَإِشْرَاكنَا وَتَحْرِيمنَا بِمَشِيئَتِهِ فَهُوَ رَاضٍ بِهِ قال تعالى {كَذَلِكَ} كَمَا كَذَّبَ هَؤُلَاءِ {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ} رُسُلهمْ {حَتَّى ذَاقُوا بَأْسنَا} عَذَابنَا {قُلْ هَلْ عِنْدكُمْ مِنْ عِلْم} بِأَنَّ الله رَاضٍ بِذَلِكَ {فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} أَيْ لَا عِلْم عِنْدكُمْ {إِنْ} مَا {تَتَّبِعُونَ} فِي ذَلِكَ {إِلَّا الظَّنّ وَإِنْ} مَا {أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} تَكْذِبُونَ فِيهِ.

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩).

{قل} إن لم يكن حُجَّة {فَلِلَّهِ الْحُجَّة الْبَالِغَة} التَّامَّة {فَلَوْ شَاءَ} هدايتكم {لهداكم أجمعين}[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٤٨]، أي: " سيقول الذين أشركوا: لو أراد الله أن لا نشرك -نحن وآباؤنا- وأن لا نحرم شيئًا مِن دونه ما فعلنا ذلك".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: {سيقول الذين أشركوا}، وهم العادلون بالله الأوثان والأصنام من مشركي قريش {لو شاء الله ما أشركنا}، يقول: قالوا احتجازًا من الإذعان للحق بالباطل من الحجة، لما تبين لهم الحق، وعلموا باطل ما كانوا عليه مقيمين من شركهم، وتحريمهم ما كانوا يحرّمون من الحروث والأنعام، على ما قد بيَّن تعالى ذكره في الآيات الماضية قبل ذلك: {وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا}، وما بعد ذلك: لو أراد الله منا الإيمان به، وإفراده بالعبادة دون الأوثان والآلهة، وتحليل ما حرم من البحائر والسوائب وغير ذلك من أموالنا، ما جعلنا لله شريكًا، ولا جعل ذلك له آباؤنا من قبلنا، ولا حرمنا ما نحرمه من هذه الأشياء التي نحن على تحريمها مقيمون، لأنه قادر على أن

=

=

يحول بيننا وبين ذلك، حتى لا يكون لنا إلى فعل شيء من ذلك سبيل: إما بأن يضطرنا إلى الإيمان وترك الشرك به، وإلى القول بتحليل ما حرمنا وأما بأن يلطف بنا بتوفيقه، فنصير إلى الإقرار بوحدانيته، وترك عبادة ما دونه من الأنداد والأصنام، وإلى تحليل ما حرمنا، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الأوثان والأصنام، واتخاذ الشريك له في العبادة والأنداد، وأراد ما نحرّم من الحروث والأنعام، فلم يَحُلْ بيننا وبين ما نحن عليه من ذلك".

قال الثعلبي: أي: "سيقول الذين أشركوا -لما الزمنا بينهم الحجة وتبينوا وتيقنوا باطل ما كانوا عليه- لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا من قبل ولا حرمنا ما حرمنا من التغاير والسوايب وغير ذلك لأنه قادر على أن يحمل بيننا وبين ذلك حتى لا نفعله ولكنه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الأصنام وتحريم الحرث والأنعام وأراد منا وأمرنا به فلم يحل بيننا وبين ذلك".

قال البغوي: يعني: " لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله، قالوا: {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا} من قبل، {ولا حرمنا من شيء} من البحائر والسوائب وغيرهما، أرادوا أن يجعلوا قوله: {لو شاء الله ما أشركنا} حجة لهم على إقامتهم على الشرك، وقالوا إن الله تعالى قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك".

قال ابن كثير: " هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبثت بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك؛ ولهذا قال: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ

=

=

الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ [مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ} [الزخرف: ٢٠]".

عن ابن عباس قوله: "{لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا}، وقال: {كذلك كذب الذين من قبلهم}، ثم قال: {ولو شاء الله ما أشركوا}، فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقرّبنا إلى الله زلفى، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، وقوله: {ولو شاء الله ما أشركوا}، يقول الله سبحانه: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين".

عن مجاهد: "{ولا حرمنا من شيء}، قال: قول قريش، يعني: إن الله حرم هذه البحيرة والسائبة".

قال الزجاج: "قولهم: {لو شاء الله ما أشركنا}، جعلوا هذا القول حجة في إقامتهم على شركهم.. والحجة عليهم في هذا أنهم إذا اعتقدوا أن كل من كان على شيء، والأشياء تجري بمشيئة الله تعالى - فهو على صواب فلا معنى إذن - على قولهم - للرسالة والأنبياء، فيقال لهم: فالذين على دين يخالفكم، أليس هو على ما شاء الله، فينبغي ألا تقولوا إنهم ضالون، وهو ﷻ يفعل ما يشاء، وهو قادر على أن يهدي الخلق أجمعين، وليس للعباد على الله أن يفعل بهم كل ما يقدر عليه".

قال النسفي: " إخبار بما سوف يقولونه {لو شاء الله} لانشرك {ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء} ولكن شاء فهذا عذرنا، يعنون: أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله لهم بمشيئته ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك".

قال القرطبي: " وقد لبست المعتزلة بقول: {لو شاء الله ما أشركنا}، فقالوا: قد ذم الله هؤلاء الذين جعلوا شركهم عن مشيئته. وتعلقهم بذلك باطل، لأن الله تعالى إنما ذمهم على ترك اجتهادهم في طلب الحق. وإنما قالوا ذلك على جهة الهزء واللعب. نظيره: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم} [الزخرف: ٢٠]، ولو قالوه على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة به لما عابهم، لأن الله تعالى يقول: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا} [الأنعام: ١٠٧]. و {مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ال}

=

=

[الأنعام: ١١١]، {وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [النحل: ٩]. ومثله كثير. فالمؤمنون يقولونه لعلم منهم بالله تعالى".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا} [الأنعام: ١٤٨]، أي: " كذلك كذَّب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم العذاب".

قال الطبري: " يقول: كما كذب هؤلاء المشركون، يا محمد، ما جئتهم به من الحق والبيان، كذب من قبلهم من فسقة الأمم الذين طَغَوا على ربهم ما جاءتهم به أنبياؤهم من آيات الله وواضح حججه، وردُّوا عليهم نصائحهم، {حتى ذاقوا بأسنا}، يقول: حتى أسخطونا فغضبنا عليهم، فأحللنا بهم بأسنا فذاقوه، فعطبوا بذوقهم إياه، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة. يقول: وهؤلاء الآخرون مسلوك بهم سبيلهم، إن هم لم ينيبوا فيؤمنوا ويصدقوا بما جئتهم به من عند ربهم".

قال النسفي: " أى: كتكذيبهم إياك كان تكذيب المقدمين رسلهم وتشبثوا بمثل هذا فلم ينفعهم ذلك إذ لم يقولوه عن اعتقاد بل قالوا ذلك استهزاء ولانهم جعلوا مشيئته الشرك والشرك مراد لكنه غير مرضي ألا ترى أنه قال فلوا شاء لهداكم أجمعين اخبرانه لو شاء منهم الهدى لآمن كلهم ولكن لم يشأ من الكل الإيمان بل شاء من

البعض الإيمان ومن البعض الكفر فيحب حمل المشيئة هنا على ما ذكرنا دفعا للتناقض {حتى ذاقوا بأسنا} حى أنزلنا عليهم العذاب".

قال ابن كثير: " أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء. وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام".

قال البغوي: " فقال الله تعالى تكذيبا لهم: {كذلك كذب الذين من قبلهم} من كفار الأمم الخالية، {حتى ذاقوا بأسنا} عذابنا... وقيل في معنى الآية: إنهم كانوا

=

=

يقولون الحق بهذه الكلمة إلا أنهم كانوا يعدونه عذرا لأنفسهم ويجعلونه حجة لأنفسهم في ترك الإيمان، ورد عليهم في هذا لأن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته، فإنه مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته، فإن مشيئته لا تكون عذرا لأحد".

قال النسفي: " أي: كتكذيبهم إياك كان تكذيب المقدمين رسلهم وتشبثوا بمثل هذا فلم ينفعهم ذلك إذ لم يقولوه عن اعتقاد بل قالوا ذلك استهزاء ولانهم جعلوا مشيئته الشرك والشرك مراد لكنه غير مرضي ألا ترى أنه قال فلوا شاء لهداكم أجمعين اخبرانه لو شاء منهم الهدى لآمن كلهم ولكن لم يشأ من الكل الإيمان بل شاء من البعض الإيمان ومن البعض الكفر فيحب حمل المشيئة هنا على ما ذكرنا دفعا للتناقض {حتى ذاقوا بأسنا} حى أنزلنا عليهم العذاب".

قال الآلوسي: " {حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا} : أي: نالوا عذابنا الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم، وفيه إيماء إلى أن لهم عذابا مدخرا عند الله تعالى؛ لأن الذوق أول إدراك الشيء".

قال الثعلبي: "قال الحسن بن الفضل: لما خبروا بهذه المقالة تعظيما وإجلالا لله سبحانه وتعالى وصفة منهم به لما عابهم ذلك، لأن الله قال ولو شاء الله ما أشركوا وقال سبحانه: {مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله} [الأنعام: ١١١]، وقال: {وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين} [النحل: ٩]، والمؤمنون يقولون هذا ولكنهم قالوا ذلك تكذيبا وتخرصا وبدلا من غير معرفة بالله تعالى وبما يقولون نظيره قوله: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم} [الزخرف: ٢٠]".

قوله تعالى: {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} [الأنعام: ١٤٨]، أي: " قل لهم -أيها الرسول-: هل عندكم -فيما حرَّمتم من الأنعام والحرث، وفيما زعمتم من أن الله قد شاء لكم الكفر، ورضيه منكم وأحبه لكم- من علم صحيح فتظهروه

=

=

لنا؟".

قال الآلوسي: " أي: هل لكم من علم بأن الإشراك وسائر ما أنتم عليه مرضي لله تعالى فتظهروه لنا بالبرهان؟

وهذا دليل على أن المشركين أمم استوجبوا التوبيخ على قولهم ذلك؛ لأنهم كانوا يهزؤون بالدين، ويبغون رد دعوة الأنبياء عليهم السلام، حيث قرع مسامعهم من شرائع الرسل عليهم السلام تفويض الأمور إليه سبحانه وتعالى، فحين طالبوهم بالإسلام، والتزام الأحكام، احتجوا عليهم بما أخذوه من كلامهم مستهزئين بهم – عليهم الصلاة والسلام –، ولم يكن غرضهم ذكر ما ينطوي عليه عِقدهم، كيف لا والإيمان بصفات الله تعالى فرع الإيمان به – عز شأنه – وهو عنهم مناط العَيُّوق".

قال ابن كثير: " {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ} أي: بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه {فَتُخْرِجُوهُ لَنَا}، أي: فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه".

قال القرطبي: "أي: أعندكم دليل على أن هذا كذا؟".

قال الثعلبي: أي: "من حظ وحجة على ما يقولون من غير علم ويقين".

قال البغوي: " أي: كتاب وحجة من الله {فتخرجوه لنا} حتى يظهر ما تدعون على الله تعالى من الشرك أو تحريم ما حرمتم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، المحرِّمين ما هم له محرِّمون من الحُروث والأنعام، القائلين: {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء}، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من الشرك وتحريم ما نحرم: {هل عندكم}، بدعواكم ما تدعون على الله من رضاه بإشراككم في عبادته ما تشركون، وتحريمكم من أموالكم ما تحرمون علمُ يقينٍ من خبر مَنْ يقطع

=

=

خبره العذر، أو حجة توجب لنا اليقين، من العلم {فتخرجوه لنا}، يقول: فتظهروا ذلك لنا وتبينوه، كما بينا لكم مواضع خطأ قولكم وفعلكم، وتناقض ذلك واستحالته في المعقول والمسموع".

قوله تعالى: {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ} [الأنعام: ١٤٨]، أي: " إن تتبعون في أمور هذا الدين إلا مجرد الظن".

قال البغوي: " أي: ما تتبعون فيما أنتم عليه، {إلا الظن} من غير علم ويقين".

قال الطبري: " يقولُ له: قل لهم: إن تقولون ما تقولون، أيها المشركون، وتعبدون من الأوثان والأصنام ما تعبدون، وتحرمون من الحروث والأنعام ما تحرّمون، إلا ظنًّا وحسبانًا أنه حق، وأنكم على حق، وهو باطلٌ، وأنتم على باطل".

قال ابن كثير: " {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ} أي: الوهم والخيال. والمراد بالظن هاهنا: الاعتقاد الفاسد".

قوله تعالى: {وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١٤٨]، أي: " وإن أنتم إلا تكذبون".

قال ابن كثير: " أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه".

قال الثعلبي: أي: "تكذبون".

قال الطبري: " وما أنتم في ذلك كله إلا تتقوّلون الباطل على الله، ظنًّا بغير يقين علم ولا برهان واضح".

قوله تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام: ١٤٩]، أي: " قل -أيها الرسول- لهم: فلله جل وعلا الحجة القاطعة التي يقطع بها ظنونكم".

قال الثعلبي: أي: "التامة الكافية على خلقه".

قال ابن كثير: " أي: له الحكمة التامة، والحجة البالغة في هداية من هَدى، وإضلال من أضل".

=

=

قال البغوي: "أي: {فلله الحجة البالغة} التامة على خلقه بالكتاب والرسول والبيان".

قال النسفي: أي: " {فلله الحجة البالغة} عليكم بأوامره ونواهيه ولا حجة لكم على الله بمشيئته".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، القائلين على ربهم الكذبَ، في تحريمهم ما حرموا من الحروث والأنعام، إن عجزوا عن إقامة الحجة عند قيلك لهم: هل عندكم من علم بما تدعون على ربكم فتخرجوه لنا، وعن إخراج علم ذلك لك وإظهاره، وهم لا شك عن ذلك عَجَزَة، وعن إظهاره مقصرون، لأنه باطل لا حقيقة له {فلله} الذي حرم عليكم أن تشركوا به شيئًا، وأن تتبعوا خطوات الشيطان في أموالكم من الحروث والأنعام {الحجة البالغة}، دونكم أيها
المشركون. ويعني بـ {البالغة}، أنها تبلغ مراده في ثبوتها على مَنْ احتج بها عليه من خلقه، وقَطْعِ عُذْرِه إذا انتهت إليه فيما جُعِلت حجة فيه".

قال الزجاج: "فحجته البالغة تبيينه أنه الواحد وإرساله الأنبياء بالحجج التي يعجز عنها المخلوقون".

قال القرطبي: " {فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ}، "أي: التي تقطع عذر المحجوج، وتزيل الشك عمن نظر فيها. فحجته البالغة على هذا تبيينه أنه الواحد، وإرساله الرسل والأنبياء، فبين التوحيد بالنظر في المخلوقات، وأيد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كل مكلف. فأما علمه وإرادتهوكلامه فغيب لا يطلع عليه العبد، إلا من ارتضى من رسول. ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به لأمكنه".

قوله تعالى: {فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: ١٤٩]، أي: " فلو شاء لوفَّقكم

=

=

جميعًا إلى طريق الاستقامة".

قال ابن عباس: " لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين".

قال النسفي: "أي: فلو شاء هدايتكم وبه تبطل صولة المعتزلة".

قال الطبري: " يقول: فلو شاء ربكم لوفَّقكم أجمعين للإجماع على إفراده بالعبادة، والبراءة من الأنداد والآلهة، والدينونة بتحريم ما حرم الله وتحليل ما حلله الله، وترك اتباع خطوات الشيطان، وغير ذلك من طاعاته، ولكنه لم يشأ ذلك، فخالف بين خلقه فيما شاء منهم، فمنهم كافر ومنهم مؤمن".

قال ابن كثير: " وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويُبْغض الكافرين، كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [يونس: ٩٩]، وقوله: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: ١١٨، ١١٩]".

قال البغوي: قوله: " {فلو شاء لهداكم أجمعين} فهذا يدل على أنه لم يشأ إيمان الكافر، ولو شاء لهداه".

قال عن الربيع بن أنس: " لا حجة لأحد عصَى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده. وقال: {فلو شاء لهداكم أجمعين}، قال: {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [سورة الأنبياء: ٢٣]".

(منبهة): قد يتعلل بعض المذنبين المقصرين على تقصيرهم وخطئهم بأن الله هو الذي قدر هذا عليهم؛ وعليه فلا ينبغي أن يلاموا على ذلك.

وهذا لا يصح منهم بحال؛ فلا شك أن الإيمان بالقدر لا يمنح العاصي حجة على ما ترك من الواجبات، أو فَعَلَ من المعاصي. باتفاق المسلمين والعقلاء.

=

=

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: "وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولًا لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس وأخذ الأموال، وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر. ونفس المحتج بالقدر إذا اعتدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يقبل منه، بل يتناقض، وتناقض القول يدل على فساده، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بدائه العقول " مجموع الفتاوى (٨/ ١٧٩)

وقد دل على فساد الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الطاعات؛ الشرع والعقل، فمن الأدلة الشرعية:

١ـ قول الله– تعالى –: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا ءَابَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ) الأنعام/ ٣٩، فهؤلاء المشركون احتجوا بالقدر على شركهم، ولو كان احتجاجهم مقبولًا صحيحًا ما أذاقهم الله بأسه. فمن احتج بالقدر على الذنوب والمعائب فيلزمه أن يصحح مذهب الكفار، وينسب إلى الله الظلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا.

٢ـ قال تعالى: (رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) النساء/ ١٦٥، فلو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغًا لما انقطعت الحجة بإرسال الرسل، بل كان إرسال الرسل لا فائدة له في الواقع.

٣ـ أن الله أمر العبد ونهاه، ولم يكلفه إلا ما يستطيع، قال تعالى: (فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) التغابن/ ١٦، وقال سبحانه: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا) البقرة/ ٢٨٦

ولو كان العبد مجبرًا على الفعل لكان مكلفًا بما لا يستطيع الخلاص منه، وهذا

=

=

باطل، ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل، أو إكراه، فلا إثم عليه لأنه معذور. ولو صح هذا الاحتجاج لم يكن هناك فرق بين المكره والجاهل، وبين العامد المتعمد، ومعلوم في الواقع، وبدائه العقول أن هناك فرقا جليا بينهما.

٤ـ أن القدر سر مكتوم، لا يعلمه أحد من الخلق إلا بعد وقوعه، وإرادة العبد لما يفعله سابقة لفعله، فتكون إرادته للفعل غير مبنية على علم بقدر الله، فادعاؤه أن الله قدر عليه كذا وكذا ادعاء باطل؛ لأنه ادعاءٌ لعلم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، فحجته إذًا داحضة؛ إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

٥ـ أنه يترتب على الاحتجاج بالقدر على الذنوب تعطيل الشرائع والحساب والمعاد والثواب والعقاب.

٦ - لو كان القدر حجة لأهل المعاصي لاحتج به أهل النار، إذا عاينوها، وظنوا أنهم مواقعوها، كذلك إذا دخلوها، وبدأ توبيخهم وتقريعهم، لكن الواقع أنهم لم يحتجوا به، بل إنهم يقولون كما قال الله ﷻ عنهم: (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل) إبراهيم/ ٤٤. ويقولون: (ربنا غلبت علينا شقوتنا) المؤمنون/ ١٠٦

وقالوا: (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) الملك/ ١٠. و (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) المدثر/ ٤٤، إلى غير ذلك مما يقولون.

ولو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغًا لاحتجوا به؛ فهم في بأمس الحاجة إلى ما ينقذهم من نار جهنم.

٧ - لو كان الاحتجاج بالقدر صحيحا لكان حجة لإبليس الذي قال: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) الأعراف/ ١٦، ولتساوى فرعون عدو الله، مع موسى كليم الله عليه السلام.

٨ - ومما يرد هذا القول، ويبين فساده: أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في

=

=

أمور دنياه حتى يدركه، ولا تجد شخصا يترك ما يصلح أمور دنياه ويعمل بما يضره فيها بحجة القدر فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر؟!

وإليك مثالًا يوضح ذلك: لو أن إنسانًا أراد السفر إلى بلد، وهذا البلد له طريقان، أحدهما آمن مطمئن، والآخر كله فوضى واضطراب، وقتل، وسلب، فأيهما سيسلك؟، لاشك أنه سيسلك الطريق الأول، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار؟

٩ ـ ومما يمكن أن يُرد به على هذا المحتج ـ بناء على مذهبه ـ أن يقال له: لا تتزوج، فإن كان الله قد قضى لك بولد فسيأتيك، وإلا فلن يأتيك. ولا تأكل ولا تشرب، فإن قدر الله لك شبعًا وريًا فسيكون، وإلا فلن يكون. وإذا هاجمك سبع ضار فلا تفر منه، فإن قدر الله لك النجاة فستنجو، وإن لم يقدرها لك فلن ينفعك الفرار. وإذا مرضت فلا تتداو، فإن قدر الله لك شفاءً شفيت، وإلا فلن ينفعك الدواء، فهل سيوافقنا على هذا القول أم لا؟ فإن وافقنا علمنا فساد عقله، وإن خالفنا علمنا فساد قوله، وبطلان حجته.

١٠ – المحتج بالقدر على المعاصي شبه نفسه بالمجانين، والصبيان، فهم غير مكلفين، ولا مؤاخذين، ولو عومل معاملتهم في أمور الدنيا لما رضي.

١١ – لو قبلنا هذا الاحتجاج الباطل لما كان هناك حاجة للاستغفار، والتوبة، والدعاء، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٢ – لو كان القدر حجة على المعائب والذنوب لتعطلت مصالح الناس، ولعمت الفوضى، ولما كان هناك داع للحدود، والتعزيرات، والجزاءات، لأن المسيىء سيحتج بالقدر، ولما احتجنا لوضع عقوبات للظلمة، وقطاع الطريق، ولا إلى فتح المحاكم، ونصب القضاء، بحجة أن كل ما وقع إنما وقع بقدر الله،

=

=

وهذا لا يقول به عاقل.

١٣ - أن هذا المحتج بالقدر الذي يقول: لا نؤاخذ، لأن الله كتب ذلك علينا، فكيف نؤاخذ بما كتب علينا؟ فيقال له: إننا لا نؤاخذ على الكتابة السابقة، إنما نؤاخذ بما فعلناه، وكسبناه، فلسنا مأمورين بما قدره الله لنا، أو كتبه علينا، وإنما نحن مأمورين بالقيام بما يأمرنا به، فهناك فرق بين ما أريد بنا، وما أريد منا، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أمرنا بالقيام به، وكون الله علم وقوع ذلك الفعل من القدم ثم كتبه لا حجة فيه لأن مقتضى علمه الشامل المحيط أن يعلم ما خلقه صانعون، وليس في ذلك أي نوع من أنواع الجبر، ومثال ذلك من الواقع ـ ولله المثل الأعلى ـ: لو أن مدرسا علم من حال بعض تلاميذه أنه لا ينجح هذا العام لشدة تفريطه وكسله، ثم إن هذا الطالب لم ينجح كما علم بذلك الأستاذ فهل يقول عاقل بأن المدرس أجبره على هذا الفشل، أو يصح للطالب أن يقال أنا لم أنجح لأن هذا المدرس قد علم أني لن أنجح؟ ! وبالجملة فإن الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي، أو ترك الطاعات احتجاج باطل في الشرع، والعقل، والواقع، ومما تجدر الإشارة إليه أن احتجاج كثير من هؤلاء ليس ناتجًا عن قناعة وإيمان، وإنما هو ناتج عن نوع هوى ومعاندة، ولهذا قال بعض العلماء فيمن هذا شأنه: "أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به" (مجموع الفتاوى ٨/ ١٠٧) يعني أنه إذا فعل الطاعة نسب ذلك نفسه، وأنكر أن يكون الله قدر ذلك له، وإذا فعل المعصية احتج بالقدر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن المحتجين بالقدر: "هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى" (مجموع الفتاوى ٨/ ٢٦٢) وعليه فلا يسوغ للعبد أن يحتج على معايبه ومعاصيه بالقدر. وإنما يسوغ الاحتجاج بالقدر: عند المصائب التي تحل بالإنسان كالفقر، والمرض، وفقد

=

=

القريب، وتلف الزرع، وخسارة المال، وقتل الخطأ، ونحو ذلك؛ فهذا من تمام الرضا بالله ربًا، فالاحتجاج إنما يكون على المصائب، لا المعائب، " فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال تعالى: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب "

ويوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلًا أسرع بسيارته وفرَّط في أسباب القيادة السليمة فتسبب في وقوع حادث، فوبِّخ على ذلك، وحوسب عليه فاحتج بالقدر، لم يكن الاحتجاج منه مقبولًا، بينما لو أن شخصا صُدِمت سيارته وهي في مكانها لم يتحرك بها، فلامه شخص فاحتج بالقدر لكان احتجاجه مقبولا، إلا أن يكون قد أخطأ في طريقة إيقافها.

فالمقصود أن ما كان من فعل العبد واختياره فإنه لا يصح له أن يحتج بالقدر، وما كان خارجا عن اختياره وإرادته فيصح له أن يحتج عليه بالقدر.

ولهذا حَجَّ آدم موسى عليهما السلام كما تقدم.

" فما قُدِّر من المصائب يجب الاستسلام له؛ فإنه من تمام الرضا بالله ربًا، أما الذنوب فليس لأحد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب " شرح الطحاوية (١٤٧).

(تنبيه): ذكر بعض العلماء أن ممن يسوغ له الاحتجاج بالقدر التائبُ من الذنب، فلو لامه أحد على ذنب تاب منه لساغ له أن يحتج بالقدر، فلو قيل لأحد التائبين: لم فعلت كذا وكذا؟ ثم قال: هذا بقضاء الله وقدره، وأنا تبت واستغفرت، لقُبل منه ذلك الاحتجاج، لأن الذنب في حقه صار مصيبة وهو لم يحتج على تفريطه بالقدر بل يحتج على المصيبة التي ألمت به وهي معصية الله ولا شك أن المعصية من المصائب، كما أن الاحتجاج هنا بعد أن وقع الفعل وانتهى، واعترف فاعله بعهدته

=

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠).

{قُلْ هَلُمَّ} أَحْضِرُوا {شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ الله حَرَّمَ هَذَا} الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ {فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَد مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِع أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} يُشْرِكُونَ[1].

=

وأقر بذنبه، فلا يسوغ لأحد أن يلوم التائب من الذنب، فالعبرة بكمال النهاية، لا بنقص البداية. والله أعلم.

(١) قوله تعالى: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا} [الأنعام: ١٥٠]، أي: " قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله تعالى هو الذي حرَّم ما حرَّمتم من الحرث والأنعام".

والمقصود من إحضارهم تفضيحهم وإلزامهم الحجة، وإظهار أنه لا متمسك لهم كمقلدين، ولذلك قيد الشهداء بالإضافة، ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصر مذهبهم.

قال السدي: " يقول: قل أروني الذين يشهدون أن الله حرم هذا مما حرمت العرب، وقالوا: أمرنا الله به".

عن مجاهد قوله: {هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا}، قال: البحائر والسُّيَّب".

قال ابن كثير: " أي: أحضروا شهداءكم {الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا} أي: هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه".

قال الزجاج: "أي: فهاتوا شهداءكم، وقربوا شهداءكم".

=

=

قال الثعلبي: "أي: احضروهم وأتوا بهم".

قال القرطبي: " أي: قل لهؤلاء المشركين أحضروا شهداءكم على أن الله حرم ما حرمتم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المفترين على ربهم من عبدة الأوثان، الزاعمين أنّ الله حرم عليهم ما هم محرموه من حروثهم وأنعامهم {هلم شهداءكم}، يقول: هاتوا شهداءكم الذين يشهدون على الله أنه حرم عليكم ما تزعمون أنه حرمه عليكم".

قال الشنقيطي: "فقوله: {هلم شهداءكم} صيغة تعجيز، فهم عاجزون عن بيان مستند".

قال السعدي: "أي: قل لمن حرَّم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحْضِروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

- إما: أن لا يحضروا أحدا يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذًا باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

- وإما: أن يحضروا أحدا يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول".

وأهل العالية من تهامة توحِّد: «هلم» في الواحد والاثنين والجميع، وتذكر في المؤنث والمذكر، فتقول للواحد: هلم يا فلان، وللاثنين والجميع كذلك، وللأنثى مثله، ومنه قول الأعشى:

وَكَانَ دَعَا قَوْمَهُ دَعْوَةً هَلُمَّ إِلَى أَمْرِكُمْ قَدْ صُرِمْ

ينشد: هلم، وهلموا.

وأما أهل السافلة من نجد، فإنهم يوحِّدون للواحد، ويثنُّون للاثنين، ويجمعون

=

=

للجميع. فيقال للواحد من الرجال: هلم، وللواحدة من النساء: هلمي، وللاثنين: هلما، وللجماعة من الرجال: هلموا، وللنساء: هَلْمُمْنَ.

قوله تعالى: {فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ} [الأنعام: ١٥٠]، أي: " فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوَّروا فلا تشهد بمثل شهادتهم ولا تصدّقهم فإنه كذبٌ بحتٌ".

قال السدي: " قال الله لرسوله: {فإن شهدوا فلا تشهد معهم}".

قال السمعاني: " يعني: فإن شهدوا كاذبين، فلا تشهد معهم".

قال النسفي: أي: " فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم فكان واحدا منهم".

قال القرطبي: " أي: [فإن] شهد بعضهم لبعض، فلا تصدق أداء الشهادة إلا من كتاب أو على لسان نبي، وليس معهم شي من ذلك".

قال الثعلبي: "فقالوا: نحن نشهد، فقال الله تعالى: فإن شهدوا فلا تشهد معهم إلى قوله يعدلون يشركون.".

قال الطبري: " يقول: يا محمد، فإن جاءوك بشهداء يشهدون أن الله حَرَّم ما يزعمون أن الله حرمه عليهم، {فلا تشهد معهم}، فإنهم كذبة وشهود زور في شهادتهم بما شهدوا به من ذلك على الله. وخاطب بذلك جل ثناؤه نبيه ﷺ، والمراد به أصحابه والمؤمنون به".

قال ابن كثير: " أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبًا وزورًا".

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأنعام: ١٥٠]، أي: " ولا توافق الذين حكَّموا أهواءهم، فكذبوا بآيات الله فيما ذهبوا إليه من تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله".

قال الطبري: " يقول: ولا تتابعهم على ما هم عليه من التكذيب بوحي الله

=

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)

=

وتنزيله، في تحريم ما حرم، وتحليل ما أحل لهم، ولكن اتبع ما أوحي إليك من كتاب ربك الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} [الأنعام: ١٥٠]، أي: " ولا تتبع الذين لا يصدقون بالحياة الآخرة ولا يعملون لها".

قال الطبري: " يقول: ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة، فتكذب بما هم به مكذبون من إحياء الله خلقه بعد مماتهم، ونشره إياهم بعد فنائهم".

قوله تعالى: {وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: ١٥٠]، أي: " والذين هم بربهم يشركون فيعبدون معه غيره".

قال الطبري: " يقول: وهم مع تكذيبهم بالبعث بعد الممات، وجحودهم قيام الساعة، بالله يعدلون الأوثانَ والأصنامَ، فيجعلونها له عِدْلا ويتخذونها له ندًّا يعبدونها من دونه".

قال ابن كثير: " أي: يشركون به، ويجعلون له عديلا".

قال السعدي: "أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان. فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة".

{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} أَقْرَأ {مَا حَرَّمَ رَبّكُمْ عَلَيْكُمْ أَ} نْ مُفَسِّرَة {لَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ} أَحْسِنُوا {بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادكُمْ} بِالْوَأْدِ {مِنْ} أَجْل {إِمْلَاق} فَقْر تَخَافُونَهُ {نَحْنُ نَرْزُقكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِش} الْكَبَائِر كَالزِّنَا {مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} أَيْ عَلَانِيَتهَا وَسِرّهَا {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْس الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ} كَالْقَوَدِ وَحَدّ الرِّدَّة وَرَجْم الْمُحْصَن {ذَلِكُمْ} الْمَذْكُور {وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} تتدبرون.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢).

{وَلَا تَقْرَبُوا مَال الْيَتِيم إِلَّا بِالَّتِي} أَيْ الخصلة الَّتِي {هِيَ أَحْسَن} وَهِيَ مَا فِيهِ صَلَاحه {حَتَّى يَبْلُغ أَشُدّهُ} بِأَنْ يَحْتَلِم {وَأَوْفُوا الْكَيْل وَالْمِيزَان بِالْقِسْطِ} بِالْعَدْلِ وَتَرْك الْبَخْس {لَا نُكَلِّف نَفْسًا إِلَّا وُسْعهَا} طَاقَتهَا فِي ذَلِكَ فَإِنْ أَخْطَأَ فِي الْكَيْل وَالْوَزْن وَالله يَعْلَم صِحَّة نِيَّته فَلَا مُؤَاخَذَة عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيث {وَإِذَا قُلْتُمْ} فِي حُكْم أَوْ غَيْره {فَاعْدِلُوا} بِالصِّدْقِ {وَلَوْ كَانَ} الْمَقُول لَهُ أَوْ عَلَيْهِ {ذَا قُرْبَى} قَرَابَة {وَبِعَهْدِ الله أَوْفُوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون} بالتشديد والسكون تتعظون.

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣).

{وَأَنَّ} بِالْفَتْحِ عَلَى تَقْدِير اللَّام وَالْكَسْر اسْتِئْنَافًا {هَذَا} الَّذِي وَصَّيْتُكُمْ بِهِ {صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا} حَال {فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُل} الطُّرُق الْمُخَالِفَة لَهُ {فَتَفَرَّقَ} فِيهِ حَذْف إِحْدَى التَّاءَيْنِ تَمِيل {بِكُمْ عن سبيله} دينه {ذلكم وصاكم

به لعلكم تتقون}(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [الأنعام: ١٥١].

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد -لهؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم (قُلْ) لهم (تَعَالَوْا) أي: هلموا وأقبلوا: (أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًا لا تخرصًا، ولا ظنًا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، الزاعمين أن الله حرم عليهم ما هم محرِّموه من حروثهم وأنعامهم، على ما ذكرت لك في تنزيلي عليك: تعالوا، أيها القوم، أقرأ عليكم ما حرم ربكم حقًا يقينًا، لا الباطل تخرُّصًا، تخرُّصَكم على الله الكذبَ والفريةَ ظنًّا، ولكن وحيًا من الله أوحاه إليّ، وتنزيلا أنزله عليّ".

قال ابن كثير: " فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد – لهؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم، {قُلْ} لهم {تَعَالَوْا} أي: هلموا وأقبلوا: {أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًا لا تخرصًا، ولا ظنًا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده".

قال الثعلبي: أي: " قل يا محمد: تعالوا أتل أقرأ ما حرم ربكم عليكم حقا يقينا كما أوحى إلي ربي وأمرني به لا ظنا ولا تكذيبا كما يزعمون".

قال القرطبي: " أي: تقدموا واقرءوا حقا يقينا كما أوحى إلي ربي، لا ظنا ولا كذبا كما زعمتم، وجعلوا التقدم ضربا من التعالي والارتفاع، لأن المأمور بالتقدم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعدا فقيل له تعال، أي ارفع شخصك بالقيام =

=

وتقدم، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي. قال ابن الشجري".
قال ابن عطية: " هذا أمر من الله ﷻ لنبيه ﷺ أن يدعوا جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله بشرع الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر، و {تعالوا}، معناه: أقبلوا، وأصله من «العلو»، فكأن الدعاء لما كان أمرا من الداعي استعمل فيه ترفيع المدعو، و «تعالى» هو مطاوع «عالى»، إذ تفاعل هو مطاوع فاعل، و {أتل}، معناه: اسردوا نص من التلاوة التي يصح هي اتباع بعض الحروف بعضا".
قوله تعالى: {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [الأنعام: ١٥١].
أى: أوصيكم ألا تشركوا مع اللّه في عبادتكم آلهة أخرى. بل خصوه وحده بالعبادة والخضوع والطاعة فإنه هو الخالق لكل شيء.
وصدر - سبحانه - هذه الوصايا بالنهى عن الشرك، لأنه أعظم المحرمات وأكبرها إفسادًا للفطرة، ولأنه هو الجريمة التي لا تقبل المغفرة من اللّه، بينما غيره قد يغفره - سبحانه - قال تعالى (إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ).
وقد ساق القرآن مئات الآيات التي تدعو إلى الإيمان وتنفر من الشرك وتقيم الأدلة الساطعة، والبراهين الدامغة على وحدانية اللّه ﷻ. وقد تقدم كثير منها.
قال الطبري: أي: " أن لا تشركوا بالله شيئًا من خلقه، ولا تعدلوا به الأوثان والأصنام، ولا تعبدوا شيئًا سواه".
قال السعدي: " أي: لا قليلا ولا كثيرا، وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أويصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدا، مخلصا لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا".

=

=

قال الماتريدي: قوله: {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} " يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: ألا تشركوا بعبادته عبادة غيره من شيطان أو وثن. والثالث: أن يحمل الأمرين معًا".

عن عبادة الصامت قال: "أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال، ألا تشركوا بالله شيئا وإن حرقتم وقطعتم وصلبتم".

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا من أمتك، دخل الجنة. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق. قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق، وإن شرب الخمر": وفي بعض الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ، وأنه، عليه السلام، قال في الثالثة: "وإن رغم أنفُ أبي ذر".

وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئا، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عَنَان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك".

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: "من مات لا يشرك بالله شيئًا، دخل الجنة".

فإن قيل: ما معنى قوله: {حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا}، والمحرم هو الشرك لا ترك الشرك؟

قيل: موضع: «أن» رفع، معناه: هو أن لا تشركوا.

وقيل: محله نصب، واختلفوا في وجه انتصابه:

قيل: معناه: حرم عليكم أن تشركوا به، و «لا» صلة كقوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ} [الأعراف: ١٢]، أي: منعك أن تسجد.

وقيل: تم الكلام عند قوله: {حرم ربكم}، ثم قال: {عليكم أن لا تشركوا به

=

=

شيئا}، على الإغراء.

قال الزجاج: ويجوز أن يكون (ألا تشركوا) محمولا على المعنى، فيكون: أتل عليكم ألا تشركوا به شيئا، فالمعنى: أتل عليكم تحريم الشرك به.

وجائز أن يكون على معنى: أوصيكم {ألا تشركوا به شيئا}، لأن قوله: {وبالوالدين إحسانا} محمول على معنى: أوصيكم بالوالدين إحسانا".

قوله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الأنعام: ١٥١]، أي: " وأن تحسنوا إلى الوالدين بالبر والدعاء ونحو ذلك من الإحسان".

قال الماتريدي: "أي: برا بهما".

قال الطبري: " يقول: وأوصى بالوالدين إحسانًا".

قال السمعاني: " أي: وأحسنوا بالوالدين إحسانا".

قال الماوردي: أي: "وأوصيكم بالوالدين إحسانًا، والإحسان تأدية حقوقهما ومجانبة عقوقهما والمحافظة على برهما".

قال ابن كثير: " أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا، أي: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣]، والله تعالى كثيرًا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٤، ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} الآية. [البقرة: ٨٣]".

قال القرطبي: " الإحسان إلى الوالدين: برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما وإزالة الرق عنهما وترك السلطنة عليهما".

=

=

وفي الصحيحين عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: " سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أيّ؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني".

قوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ} [الأنعام: ١٥١]، أي: " ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر".

لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ) وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خَشْيَة العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفةَ الافتقار، ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله ابن مسعود، رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندّا وهو خلَقَكَ". قلت: ثم أيّ؟ قال: "أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك". قلت: ثم أيّ؟ قال: "أن تُزَاني حليلة جارك". ثم تلا رسول الله ﷺ: وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) متفق عليه.

قال تعالى (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها) ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم. فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم، والتخلص منهم خوفا من الفقر، مع أن اللّه تعالى هو الرازق لكم ولهم.

وقد روى النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة، وورد في سورة الإسراء بصيغة أخرى هي قوله تعالى (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ ا خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) وليس إحداهم تكرارًا للأخرى، وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة.

فهنا يقول - سبحانه - مِنْ إِمْلاقٍ أى: لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم أيها

=

الآباء لذا قال (نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) فجعل الرزق للآباء ابتداء، لأن الفقر الذي يقتلون من أجله أولادهم حاصل لهم فعلًا.

وفي سورة الإسراء يقول (خَشْيَةَ إِمْلاقٍ) أي: خوفًا من فقر ليس حاصلًا، ولكنه متوقع بسبب الأولاد ولذا قال (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر، ليكف الآباء عن هذا التوقع، وليضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلًا عن رزق الآباء.

ففي كلتا الحالتين القرآن ينهى عن قتل الأولاد، ويغرس في نفوس الآباء الثقة باللّه، والاعتماد عليه.

وفي قوله تعالى: {نحن نرزقكم وإياهم}، مع قوله في الإسراء: {نحن نرزقهم وإياكم} [٣١] إشارة إلى أن الله يرزق الوالد بالولد، ويرزق الولد بالوالد، رحمة من الله فيهما متبادلة، ومن ذلك ما في سورة الكهف في مال اليتيمين؛ قال: {وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك} [الكهف - ٨٢]، وقد يحفظ الله الولد بصلاح والده، ولكن لا يضيعه لضياع والده؛ فلا تزر وازرة وزر أخرى؛ ولذا قال تعالى: {كل نفس بما كسبت رهينة (٣٨) إلا أصحاب اليمين} [المدثر: ٣٨ - ٣٩]؛ وهذا في الدنيا والآخرة؛ فيلحق الولد والده في الخير في الآخرة إن كانا مؤمنين، ولا يلحقه في الشر وجزاؤه بعمله؛ كما قال تعالى: {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء} [الطور: ٢١].

قال الطبري: يقول: "ولا تئدوا أولادكم فتقتلوهم من خشية الفقر على أنفسكم بنفقاتهم".

قال الزجاج: " أي: لا تقتلوا أولادكم من فقر، أي: من خوف فقر".

قال الثعلبي: أي: " ولا تئدوا بناتكم خشية العيش".

=

قال القرطبي: " أي: لا تئدوا- من الموءودة- بناتكم خشية العيلة، فإني رازقكم وإياهم. وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر، كما هو ظاهر الآية".

قال السعدي: أي: " من ذكور وإناث، بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجودا في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال، وهم أولادهم، فنهيهم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم، من باب أولى وأحرى".

قال ابن الجّوزي: يريد: دفن البنات أحياء من خوف الفقر".

قال ابن كثير: " لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ}، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خَشْيَة العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفةَ الافتقار".

قال أبو عبيدة: {مِنْ إِمْلَاقٍ}، أي: " من ذهاب ما فى أيديكم".

قال الشافعي: كان بعض العرب تقتل الإناث من ولدها صغارا خوف العيلة عليهم، والعار بهم، فلما نهى الله عز ذكره عن ذلك من أولاد المشركين، دل على تثبيت النهي عن قتل أطفال المشركين في دار الحرب، وكذلك دلت عليه السنة، مع ما دل عليه الكتاب من تحريم القتل بغير حق".

وفي معنى «الإملاق» في اللغة، أقوال:

أحدها: أنه الإفلاس، ومنه: الملق، لأنه اجتهاد المفلس في التقريب إلى الغنى طمعًا في تأجيله. وهذا قول الطبري، وهو معنى قول أبي عبيدة.

قال أبو عبيدة: " أملق فلان، أي: ذهب ماله، واحتاج، وأقفر مثلها".

والثاني: أن الإملاق: الفقر، قتلوا أولادهم خشية الفقر. وهذا قول ابن عباس،

=

=

وقتادة، والسدي، والضحاك، وابن جريج، واختيار الزجاج.

والثالث: أن الإملاق: الجوع بلغة لخم. حكاه النقاش عن مؤرج.

والرابع: أنه الإنفاق، يقال: أملق ماله بمعنى أنفقه، ورجل ملق يعطي بلسانه ما ليس في قلبه. حكاه القرطبي عن منذر بن سعيد.

وذكر أن عليا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال لامرأته: "أملقي من مالك ما شئت".

والخامس: أنه السرف في الإنفاق. ذكره النقاش عن محمد بن نعيم الترمذي.

قال الثعلبي: " الإملاق: الفقر ونفاد الزاد".

قوله تعالى: {نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} [الأنعام: ١٥١]، أي: " فإن الله يرزقكم وإياهم".

قال الطبري: أي: " فإن الله هو رازقكم وإياهم، ليس عليكم رزقهم، فتخافوا بحياتهم على أنفسكم العجزَ عن أرزاقهم وأقواتهم".

قال السعدي: " أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق".

قال الماوردي: " ثم ذكر فساد اعتقادهم في الإملاق بأن قال: {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}، لأن رزق العباد كلهم، من كفيل ومكفول، على خالقهم".

قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأنعام: ١٥١]، أي: " ولا تقربوا ما كان ظاهرًا من كبير الآثام، وما كان خفيًّا".

والفواحش: جمع فاحشة وهي كما قال الراغب في مفرداته: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال يقال: فحش فلان، أى صار فاحشًا مرتكبًا للقبائح.

قال السعدي: أي: " لا تقربوا الذنوب العظام المستفحشة، الظاهر منها والخفي، أو المتعلق منها بالظاهر، والمتعلق بالقلب والباطن، والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها، فإنه يتناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة

=

=

إليها".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ولا تقربوا الظاهرَ من الأشياء المحرّمة عليكم، التي هي علانية بينكم لا تناكرون ركوبها، والباطنَ منها الذي تأتونه سرًّا في خفاء لا تجاهرون به، فإن كل ذلك حرام.

وقد قيل: إنما قيل: لا تقربوا ما ظهر من الفواحش وما بطن، لأنهم كانوا يستقبحون من معاني الزنى بعضًا دون بعض.

وليس ما قالوا من ذلك بمدفوع، غير أن دليل الظاهر من التنزيل على النهي عن ظاهر كل فاحشة وباطنها، ولا خبر يقطع العذرَ، بأنه عنى به بعض دون جميع. وغير جائز إحالة ظاهر كتاب الله إلى باطن، إلا بحجة يجب التسليم لها".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأنعام: ١٥١]، ثمانية تأويلات:

أحدها: أن ذلك عام في جميع الفواحش سرها وعلانيتها، قاله قتادة، واختاره الطبري".

والثاني: أنه خاص في الزنى، {ما ظهر منها}: ذوات الحوانيت، {وما بطن}: ذوات الاستسرار، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك، والسدي.

والثالث: {ما ظهر}، جمعٌ بين الأختين، وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده، {وما بطن}، الزنى. قاله مجاهد.

وروي عن علي بن حسين:، قال: " {ما بطن}: نكاح امرأة الأب".

والرابع: {ما ظهر منها}،: نكاح الأمهات والبنات. وما بطن: الزنا. وهو مروي عن ابن عباس -أيضا-. وروي عن سعيد بن جبير، نحو ذلك في تفسيره: {ماظهر منها}.

والخامس: أن {ما ظهر منها} :الخمر، {وما بطن}: الزنى، وهو مروي الضحاك-

=

=

أيضا.

والسادس: ما ظهر منها: الظلم، يعني: ظلم الناس.: {وما بطن} من الفواحش: الزنا والسرقة. وهذا قول عكرمة.

والسابع: {ما ظهر منها}: العري، وكانوا يطوفون بالبيت عراة، {وما بطن}، الزنى. وهذا قول الزهري.

والثامن: أن {ما ظهر منها} أفعال الجوارح، {وما بطن} منها اعتقاد القلوب. وهذا قول سهل التستري، وذكره الماوردي.

قال سهل: " {ما ظهر منها}، ما نهى عن إتيانه بالجوارح الظاهرة، {وما بطن}، يعني: الإصرار عليه هو على ضربين:

- فواحد يأتي بمعصية ويبقى مصرا عليها مقيما على إتيانها.

- وآخر مصر على المعصية لمحبتها في القلب، ولا يقدر أن يفعلها متى وجدها لضعف جوارحه، وهو على أن يفعلها، وهذا من أعظم الإصرار".

قوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الأنعام: ١٥١]، أي: " لا تقتلوا النفس البريئة التي حرّم الله قتلها إلا بموجب".

قال سعيد بن جبير: " يعني: نفس المؤمن" "التي حرم قتلها إلا بالحق".

قال الطبري: " يعني بالنفس التي حرم الله قتلها، نفسَ مؤمن أو مُعاهد وقوله: {إلا بالحق}، يعني: بما أباح قتلها به: من أن تقتل نفسًا فتقتل قَوَدًا بها، أو تزني وهي محصنة فترجم، أو ترتدَّ عن دينها الحقِّ فتقتل. فذلك «الحق» الذي أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التي حرم على المؤمنين قتلها به".

قال السعدي: " وهي: النفس المسلمة، من ذكر وأنثى، صغير وكبير، بر وفاجر، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق".

قال السمعاني: " نهى عن القتل بالظلم، وأباح القتل بالحق، وهو مفسر في قول

=

=

النبي: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس»".

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "قال رسول الله ﷺ: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ} [الأنعام: ١٥١]، أي: " ذلكم المذكور هو ما أوصاكم تعالى بحفظه وأمركم به أمرًا مؤكدًا".

قال الطبري: " يعني هذه الأمور التي عهد إلينا فيها ربُّنا أن لا نأتيه وأن لا ندعه، هي الأمور التي وصَّانا والكافرين بها أن نعمل جميعًا به (لعلكم تعقلون)، يقول: وصاكم بذلك لتعقلوا ما وصاكم به ربكم".

قال أبو حيان: " أشار إلى جميع ما تقدم، وفي لفظ {وصّاكم} من اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان".

قال ابن عباس: " وصية الله: دين الله".

عن عبادة بن الصامت: قال رسول الله ﷺ: أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، حتى فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: ومن وفى بهن آجره الله، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبة، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه".

قال ابن عطية: " «الوصية»: الأمر المؤكد المقرر، ومنه قول الشاعر:

أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ ... نَبِيِّ الْإِلَهِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا"

=

=

قولـه تعـالى: {لَعَلَّكُـمْ تَعْقِلُـونَ} [الأنعـام: ١٥١]، أي: " لعلكـم تـسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا".

قال ابن عطية: " أي: من سمع هذه الوصية ترجى وقوع أثر العقل بعدها والميز بالمنافع والمضار في الدين".

قال السعدي: أي: " عن الله وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها وتقومون بها".

قال أبو حيان: "لما كان العقل مناط التكليف قال تعالى: {لعلكم تعقلون}، أي: فوائد هذا.

قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الأنعام: ١٥٢]، أي: " لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغًا رشيدًا".

وفي هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن، فإذا لاح للولي تصرفات أحدهما أكثر ربحًا فالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكثر ربحًا لأنه أحسن. واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير.

والخطاب للأولياء والأوصياء. أى: احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغه فادفعوه إليه.

قال ابن الجوزي: انما خص مال اليتيم، لأن الطمع فيه، لقلة مراعيه وضعف مالكه.

والآية دليل على أن أكل مال اليتيم من كبائر الذنوب.

قال الرازي:... وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى، لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله، لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى.

=

=

قال الطبري: يقول: " ولا تقربوا ماله إلا بما فيه صلاحه وتثميره".

قال الزجاج: " المعنى: احفظوه عليه حتى يبلغ أشده، أي: فإذا بلغ أشده فادفعوه إليه".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الأنعام: ١٥٢]، خمسة تأويلات:

أحدها: حفظ ماله عليه إلى أن يكبر ليتسلمه، قاله الكلبي.

والثاني: أن ذلك هو التجارة به، قاله مجاهد. وروي عن السدي: "فليثمر مالَه".

والثالث: هو ألا يأخذ من الربح إذا اتجر له بالمال شيئًا، قاله الضحاك.

والرابع: هو أن يأكل الولي بالمعروف من ماله إن افتقر، ويترك إن استغنى، ولا يتعدى من الأكل إلى الباس ولا غيره، قاله ابن زيد.

والخامس: أن التي هي أحسن: حفظ أصوله وتثمير فروعه. أفاده الماوردي.

قال القرطبي: قوله: {إلا بالتي هي أحسن} : " أي: بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصول وتثمير فروعه. وهذا أحسن الأقوال في هذا، فإنه جامع".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الأنعام: ١٥٢]، أقوال:

أحدها: أنه الحلم حين تكتب له الحسنات وعليه السيئات، قاله ربيعة، وزيد بن أسلم، ومالك، وعامر.

والثاني: أنه خمس عشرة سنة. وهذا قول محمد بن قيس.

والثالث: أنه ثماني عشرة سنة، وهذا قول سعيد بن جبير، وحكاه الماوردي عن علي بن عيسى.

والرابع: أنه خمس وعشرون سنة. قاله عكرمة، وهو اختيار أبي حنيفة.

قال ابن العربي: "وعجبا من أبي حنيفة، فإنه يرى أن المقدرات لا تثبت قياسا ولا نظرا وإنما تثبت نقلا، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة، ولكنه سكن دار الضرب

=

=

فكثر عنده المدلس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبريز الدين".

والخامس: أن الأَشُد: ثلاثون سنة، قاله السدي.

والسادس: أن الأشد: ثلاث وثلاثون سنة. وهذا مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

والسابع: أنه أربعون سنة. وهذا قول الحسن.

وإذا كان استناد الإمام الحسن -رَحِمَهُ اللهُ- على قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} [الأحقاف: ١٥]، فإن " أشد اليتيم غير أشد الرجل في قول الله ﷻ: {حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة}، وإن كان اللفظان واحدا؛ لأن أشد الرجل: الاكتهال والحنكة وأن يشتد رأيه وعقله. وذلك ثلاثون سنة، ويقال: ثمان وثلاثون سنة. وأشد الغلام: أن يشتد خلقه، ويتناهى ثباته".

والثامن: أنه ما بين الثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة. قاله ابن عباس، والكلبي.

والتاسع: أنه حتى يعقل وتجتمع قوته. قاله أبو العالية.

والعاشر: أنه حتى: يتناهى في الثبات إلى حد الرجال.

والحادي عشر: أن بلوغ أشده: أن يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغا. قاله الزجاج.

والثاني عشر: أن انتهاء الكهولة فيها مجتمع الأشد، كما قال سحيم بن وثيل:

أَخُو خَمْسِينَ مُجْتَمِعٍ أَشُدِّي وَنَجَّذَنِي مُدَاوَرَةُ الشُّؤُونِ

قال القرطبي: قوله: {حتى يبلغ أشده}، يعني: قوته، وقد تكون في البدن، وقد تكون في المعرفة بالتجربة، ولا بد من حصول الوجهين، فإن الأشد وقعت هنا مطلقة، وقد جاء بيان حال اليتيم في سورة" النساء" مقيدة، فقال: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا} [النساء: ٦]، فجمع بين قوة البدن

=

=

وهو بلوغ النكاح، وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد، فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه في شهوته وبقي صعلوكا لا مال له. وخص اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقاد الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال بفقيد الأب أولى. وليس بلوغ الأشد مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن، لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة. وخص اليتيم بالذكر لأن خصمه الله. والمعنى: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده. وفي الكلام حذف، فإذا بلغ أشده وأونس منه الرشد فادفعوا إليه ماله".

و «الأشُدّ»: جمع «شَدٍّ»: أي: القوة، وهو استحكام قوة شبابه وسنه، كما: شَدُّ النهار، ارتفاعه وامتداده. يقال: أتيته شدَّ النهار ومدَّ النهار، وذلك حين امتداده وارتفاعه؛ وكان المفضل ينشد بيت عنترة:

عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا ... خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلِمِ

ومنه قول الآخر:

تُطِيفُ بِهِ شَدَّ النَّهَارِ ظَعِينَةٌ ... طَوِيلَةُ أَنْقَاءِ اليَدَيْنِ سَحُوقُ

قوله تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} [الأنعام: ١٥٢]، أي: " وأوفوا الكيل والوزن بالعدل الذي يكون به تمام الوفاء".

قال الطبري: "يقول: لا تبخسوا الناس الكيلَ إذا كلتموهم، والوزنَ إذا وزنتموهم، ولكن أوفوهم حقوقهم. وإيفاؤهم ذلك، إعطاؤهم حقوقهم تامة {بالقسط}، يعني: بالعدل".

قال الماوردي: " أمر في مال البائع من تأدية بمثل ما أُمِر به في مال اليتيم".

عن مجاهد: " {بالقسط}، بالعدل".

قوله تعالى: {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [الأنعام: ١٥٢]، أي: " لا نكلّف أحدًا

=

=

إلا بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه".

عن ابن عباس، في قوله: "{لا نكلف نفسا إلا وسعها}، قال: هم المؤمنون، وسع الله عليهم أمر دينهم فقال: {مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}".

قال الطبري: "يقول: لا نكلف نفسًا، من إيفاء الكيل والوزن، إلا ما يسعها فيحلّ لها ولا تحرَجُ فيه، وذلك أن الله جل ثناؤه، علم من عباده أن كثيرًا منهم تَضيق نفسه عن أن تطيب لغيره بما لا يجبُ عليها له، فأمر المعطي بإيفاء رب الحق حقَّه الذي هو له، ولم يكلِّفه الزيادة، لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها. وأمر الذي له الحق، بأخذ حقه، ولم يكلفه الرضا بأقل منه، لما في النقصان عنه من ضيق نفسه. فلم يكلف نفسًا منهما إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق، فلذلك قال: {لا نكلف نفسًا إلا وسعها}".

قال البيضاوي: "أي: إلا ما يسعها ولا يعسرُ عليها، وذكره بعد وفاء الكيل لأن إيفاء الحق عسرٌ فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفوٌّ عنكم".

قال البغوي: " أي: طاقتها في إيفاء الكيل والميزان، أي: لم يكلف المعطي أكثر مما وجب عليه، ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه، حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه".

قال القرطبي: " أي: طاقتها في إيفاء الكيل والوزن. وهذا يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرر. وما لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين، ولا يدخل تحت قدرة البشر فمعفو عنه.

وقيل: «الكيل» بمعنى: «المكيال». يقال: هذا كذا وكذا كيلا، ولهذا عطف عليه بـ «الميزان».

وقال بعض العلماء: لما علم الله سبحانه من عباده أن كثيرا منهم تضيق نفسه عن أن تطيب للغير بما لا يجب عليها له أمر المعطي بإيفاء رب الحق حقه الذي هو

=

=

له، ولم يكلفه الزيادة، لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها. وأمر صاحب الحق بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقل منه، لما في النقصان من ضيق نفسه.

وفي موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال: «ما ظهر الغلول في قوم قط إلا ألقى الله في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنى في قوم الأكثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو».

وقال ابن عباس أيضا: «إنكم معشر الأعاجم قد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم الكيل والميزان»".

وقوله تعالى: {إِلَّا وُسْعَهَا} [الأنعام: ١٥٢]، يحتمل ثلاثة وجوه:

أحدها: إلا طاقتها. قاله سعيد بن جبير.

والثاني: إلا ما عملت لها. قاله عامر الشعبي.

والثالث: أنه خاص بأداء الفرائض. وهذا قول سفيان.

قوله تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [الأنعام: ١٥٢]، أي: " وإذا قلتم فتحرَّوا في قولكم العدل دون ميل عن الحق في خبر أو شهادة أو حكم أو شفاعة، ولو كان الذي تعلق به القول ذا قرابة منكم، فلا تميلوا معه بغير حق".

قال سعيد بن جبير: " يعني: ولو كان قرابتك فقل فيه الحق".

قال ابن زيد في قوله: "{وإذا قلتم فاعدلوا}، قال: قولوا الحق".

قال الطبري: يقول: " وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم، ذا قرابة لكم، ولا تحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره، أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه".

قال البغوي: " فاصدقوا في الحكم والشهادة، ولو كان المحكوم والمشهود عليه

=

=

ذا قرابة".

قال القرطبي: " يتضمن الأحكام والشهادات. {ولو كان ذا قربى}، أي: ولو كان الحق على مثل قراباتكم".

قال البيضاوي: أي: " في حكومة ونحوها، فاعدلوا فيه ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم".

قوله تعالى: {وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا} [الأنعام: ١٥٢]، أي: " وأوفوا بما عهد الله به إليكم من الالتزام بشريعته".

قال الطبري: " يقول: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الوفاء بعهد الله".

قال البيضاوي: "يعني: ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع".

قال القرطبي: "وهذا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ} [الأنعام: ١٥٢]، أي: " ذلكم المتلوُّ عليكم من الأحكام، وصَّاكم به ربكم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل للعادلين بالله الأوثان والأصنام من قومك: هذه الأمور التي ذكرت لكم في هاتين الآيتين، هي الأشياء التي عهد إلينا ربنا، ووصاكم بها ربكم، وأمركم بالعمل بها لا بالبحائر، والسوائب، والوصائل، والحام، وقتل الأولاد، ووأد البنات، واتباع خطوات الشيطان".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأنعام: ١٥٢]، أي: " رجاء أن تتذكروا عاقبة أمركم".

=

=

قال البيضاوي: أي: " تتعظون به".

قال الطبري: " يقول: أمركم بهذه الأمور التي أمركم بها في هاتين الآيتين، ووصاكم بها وعهد إليكم فيها، لتتذكروا عواقبَ أمركم، وخطأ ما أنتم عليه مقيمون، فتنزجروا عنها، وترتدعوا وتُنيبوا إلى طاعة ربكم".

وقرأ حمزة وحفص والكسائي: «تذكرون»، بتخفيف «الذال» حيث وقع، إذا كان بالتاء، والباقون بتشديدها.

روي عن ابن عباس قال: "هن الآيات المحكمات، قوله: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئًا}".

وعن السدي قال: "هؤلاء الآيات التي أوصى بها من محكم القرآن".

عن عبيد الله بن عديّ بن الخيار قال، سمع كعب الأحبار رجلا يقرأ: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم}، فقال: والذي نفس كعب بيده، إنّ هذا لأوَّل شيء في التوراة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم»".

عن علقمة قال: "جاء إليه نفر، فقالوا: قد جالست أصحابَ محمد، فحدثنا عن الوَحي. فقرأ عليهم هذه الآيات من «الأنعام»: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئًا}، قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: فما عندنا وحيٌ غيره".

قوله تعالى: {وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: ١٥٣]، أي: " ومما وصاكم الله به أن هذا الإسلام هو طريق الله تعالى المستقيم فاسلكوه".

قال البغوي: " أي: هذا الذي وصيتكم به في هاتين الآيتين: طريقي وديني مستويا قويما، {فاتبعوه}".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وهذا الذي وصاكم به ربكم، أيها الناس، في هاتين الآيتين من قوله: {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم}، وأمركم بالوفاء به،

=

=

هو «صراطه» يعني: طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده {مستقيمًا}، يعني: قويمًا لا اعوجاج به عن الحق، {فاتبعوه}، يقول: فاعملوا به، واجعلوه لأنفسكم منهاجًا تسلكونه، فاتبعوه".

قال السعدي: " أي: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه الله في كتابه، ووضحه لعباده، صراط الله الموصل إليه، وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر، {فَاتَّبِعُوهُ} لتنالوا الفوز والفلاح، وتدركوا الآمال والأفراح".

قال الماوردي: " {فَاتَّبِعُوهُ}، يعني: في العمل به".

قال القرطبي: " هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم، فإنه لما نهى وأمر حذر هنا عن اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه [كما وردت في] الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف، و «الصراط»: الطريق الذي هو دين الإسلام. {مستقيما} نصب على الحال، ومعناه: مستويا قويما لا اعوجاج فيه. فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد ﷺ وشرعه ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار".

وفي «الصراط» قولان:

أحدهما: القرآن.

والثاني: الشرع وسُمِّيَ ذلك صراطًا، والصراط هو الطريق لأنه يؤدي إلى الجنة فصار طريقًا إليها.

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو {وأن هذا} مفتوحة الألف مشددة النون، «صراطي»، غير محركة الياء، وقرأ ابن عامر {وأن هذا} مفتوحة الألف موقوفة النون «صراطى» مفتوحة الياء، وقرأ حمزة والكسائى {وأن هذا} مكسورة الألف مشددة النون «صراطى» ساكنة الياء، وقرأ ابن كثير وابن عامر «سراطى»، بالسين، وقرأ حمزة بين «الصاد والزاى» واختلف عنه وقد ذكر، وقرأ الباقون بـ «الصاد».

=

=

قال ابن القيم في الصراط المستقيم: وحقيقته شيء واحد، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلًا لهم إليه، ولا طريق إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسله، وجعله موصلًا لعباده إليه، وهو إفراده بالعبودية، وإفراد رسله بالطاعة.

والصراط يضاف إلى الله- ﷻ-، ويضاف إلى سالكه؛ ففي قوله تعالى (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم) هنا أضيف إلى سالكه، وفي قوله تعالى (صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) هنا أضيف إلى الله- ﷻ- فإضافته إلى الله ﷻ- لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذي وضعه لعباده- جل وعلا-، وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذين سلكوه.

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣]، أي: " ولا تسلكوا سبل الضلال، فتفرقكم، وتبعدكم عن سبيل الله المستقيم".

قال البغوي: أي: [ولا تتبعوا] الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق، مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل، فتميل، {بكم} وتشتت، عن طريقه ودينه الذي ارتضى، وبه أوصى".

قال السعدي: يقول: " {ولا تتبعوا} الطرق المخالفة لهذا الطريقفتضلكم عنه وتفرقكم يمينا وشمالا فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم".

قال الطبري: " يقول: ولا تسلكوا طريقًا سواه، ولا تركبوا منهجًا غيره، ولا تبغوا دينًا خلافه، من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل، فإنها بدع وضلالات فيشتّت بكم، إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعُكم إياها عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وصّى به الأنبياء، وأمر به الأمم قبلكم".

=

=

قال ابن كثير: " إنما وحد سبحانه «سَبيله»، لأن الحق واحد؛ ولهذا جمع لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥٧]".

قال ابن عباس: "أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك مَنْ كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} [الأنعام: ١٥٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: البدع والشبهات. قاله مجاهد.

والثاني: ولا تتبعوا الضلالات. وهذا قول ابن عباس.

والثالث: أنه الاختلاف والفرقة. وهذا معنى قول ابن عباس.

والرابع: ما تقدم من الكتب المنزلة نسخها بالقرآن. ذكره الماوردي وهو محتمل.

والخامس: ما تقدم من الأديان المتقدمة نسخها بالإسلام. ذكره الماوردي وهو محتمل.

قال ابن عطية: " وهذه الآية تعلم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد وتقدم القول في ذلكم وصاكم، وفي قوله لعلكم ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبارة لعلكم تعقلون، والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى".

قال القرطبي بعد أن ذكر قول ابن عطية: " قلت: وهو الصحيح.. فالهرب الهرب، والنجاة النجاة! والتمسك بالطريق المستقيم والسنن القويم، الذي سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح".

=

=

عن عبد الله بن مسعود، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: "خَطَّ رسول الله ﷺ خطًا بيده، ثم قال: "هذا سَبِيل الله مستقيما". وخط على يمينه وشماله، ثم قال: "هذه السُّبُل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه". ثم قرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}".

وعن الشعبي عن جابر قال: "كنا جلوسًا عند النبي ﷺ، فخط خطًا هكذا أمامه، فقال: "هذا سبيل الله". وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله، وقال: "هذه سبيل الشيطان". ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}".

وعن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: "ضرب الله مثلا صِراطًا مستقيمًا، وعن جَنْبَتَي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعا، ولا تتفرجوا وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك. لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم".

عن أبان: أن رجلا قال لابن مسعود: "ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفُه في الجنة، وعن يمينه جوادٌّ، وعن يساره جَوَادٌّ، وثمَّ رجال يدعون من مرّ بهم. فمن أخذ في تلك الجوادِّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود: {وأن هذا صراطي مستقيمًا}، الآية".

روى الأئمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: "و «وما نهيتكم عنه فانتهوا،

=

=

وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»".

وروى ابن ماجه وغيره عن العرباض بن سارية قال: "وعظنا رسول الله ﷺ موعظة دمعت منها الأعين، ووجلت منها القلوب، قلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظة مودع، فما تعهد إلينا؟ فقال: «قد تركتكم على البيضاء ليلها ونهارها، لا يزيغ عليها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما قد عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة وإن كان عبدا حبشيا، عضوا عليها بالنواجذ»".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ} [الأنعام: ١٥٣]، أي: " ذلكم التوجه نحو الطريق المستقيم هو الذي وصَّاكم الله به".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصاكم به ربكم من قوله لكم: {إن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل}".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣]، أي: " لتتقوا عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه".

قال الطبري: "يقول: لتتقوا الله في أنفسكم فلا تهلكوها، وتحذروا ربكم فيها فلا تسخطوه عليها، فيحل بكم نقمته وعذابه".

(تنبيه): البدعة في اللغة: اسم هيئة من الابتداع كالرفعة من الارتفاع وهي: كل شيء أحدث على غير مثال سابق. سواء أكان محمودا أم مذموما. وهي مأخوذة من بدع الشيء يبدعه بدعا إذا أنشأه واخترعه.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (١/ ٢٠٩): (" بدع". الباء والدال والعين أصلان: أحدهما ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال والآخر الانقطاع والكلال) وجاء في لسان العرب مادة بدع (٨/ ٦ - ٧): (بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه... والبديع والبدع: الشيء يكون أولا. وفي التنزيل: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا

=

=

مِنَ الرُّسُلِ} أي ما كنت أول من أرسل، قد أرسل قبلي رسل كثير. والبدعة: الحدث وما ابتدع في الدين بعد الإكمال.... وأبدع وابتدع وتبدع: أتى ببدعة. قال الله تعالى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا} وبدعه: نسبه إلى البدعة... والبديع: المحدث العجيب،.... وأبدعت الشيء: اخترعته لا على مثال. والبديع من أسماء الله - تعالى - لإبداعه الأشياء وإحداثه إياه. وهو البديع الأول قبل كل شيء. ورجل بدع وامرأة بدعة: إذا كان غاية في كل شيء، كان عالما أو شريفا أو شجاعا).

هذا ما يختص بالأصل الأول من معاني الكلمة، وهو الاختراع والإحداث وأما ما يختص بالأصل الثاني: وهو الانقطاع والكلال، فمنه قولهم - كما جاء في لسان العرب: (... أبدعت الإبل: بركت في الطريق من هزال أو داء أو كلال، وفي الحديث عند مسلم: «إني أبدع فأحملني»... كأنه جعل انقطاعها عما كانت مستمرة عليه من عادة السير إبداعا أي إنشاء أمر خارج عما اعتيد منها). وهذا راجع إلى المعنى الأول. لأن انقطاع الدابة عن السير طارئ على عادتها وأمر حادث لم يكن من قبل. ومن هذا المعنى الثاني أخذت البدعة أيضا، لأنها وإن كانت شيئا مخترعا لم يسبق له مثيل إلا أن فيها معنى الانقطاع، لأنها تنقطع بصاحبها عن سلوك الصراط المستقيم.

وعلى هذا فالكلمة تدور على معنى الإحداث والاختراع والخروج عن حد المألوف والمعهود.

قال الشاطبي في الاعتصام (١/ ٣٦): (ومن هذا المعنى - أي الإحداث والاختراع - سميت البدعة بدعة، فاستخراجها للسلوك عليها هو الابتداع، وهيئتها هي البدعة، وقد يسمى العمل المعمول على ذلك الوجه بدعة. فمن هذا المعنى سمي العمل الذي لا دليل عليه في الشرع بدعة، وهو إطلاق أخص منه في اللغة).

=

=

تعريف البدعة اصطلاحا: بعد بيان المعنى اللغوي للبدعة أنتقل لبيان معناها الاصطلاحي لنرى العلاقة بين المعنيين، وأول ما يقابلنا في البحث عن تعريف العلماء للبدعة هو أنه ليس هناك تعريف موحد متفق عليه بين العلماء، إذ انقسم العلماء في تعريف البدعة إلى فريقين:

- الفريق الأول وسع مدلول البدعة لتشمل كل ما حدث بعد رسول الله ﷺ سواء كان مذموما أو محمودا.

- والفريق الثاني قصر مدلول البدعة على الحادث المذموم الذي لم يرد به الشرع ولم يندرج تحت أصل يعمل به. مما يدخل في العبادة أو قصد به التعبد من العادات وبالجملة فهي تطلق عند هذا الفريق في مقابلة السنة.

وتبعا لذلك انقسم تعريف البدعة بسبب هذين الاتجاهين، فالاتجاه الأول يرى أن البدعة تنقسم إلى محمودة ومذمومة، والاتجاه الثاني يرى أن البدعة لا تكون إلا مذمومة. وسنعرض لتعريف البدعة لدى كل فريق بشيء من التفصيل، ونتبع ذلك بتحديد معنى البدعة الشرعية وبيان حكمها.

أولا - القائلون بالتقسيم: يرى هذا الفريق أن البدعة: هي كل ما أحدث في الدين بعد رسول الله ﷺ سواء أكان محمودا أم مذموما، وعلى ذلك فالبدعة عندهم تنقسم إلى محمودة ومذمومة، لكن منهم من اكتفى بذلك، ومنهم من قال بجريان الأحكام الخمسة عليها.

فممن ذهب إلى أنها تنقسم إلى محمودة ومذمومة الإمام الشافعي - رَحِمَهُ اللَّهُ - حيث قال: (البدعة بدعتان، بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود وما خالف السنة فهو مذموم).

واحتج بقول عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في قيام رمضان (نعمت البدعة هي). وروى عن الشافعي قول آخر يفسر ما سبق. فأخرج البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٦٨ -

=

=

٤٦٩) بسنده عنه قال: (المحدثات من الأمور ضربان: أحدهما: ما أحدث مما يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا فهي البدعة الضلالة. والثانية ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا - أي لا يخالف هذا الحادث الكتاب أو السنة أو الأثر أو الإجماع - فهي محدثة غير مذمومة).

وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص ١٦ - ١٧): (البدعة عبارة - عن فعل لم يكن فابتدع، والأغلب في المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان. فإن ابتدع شيء لا يخالف الشريعة ولا يوجب التعاطي عليها فقد كان جمهور السلف يكرهونه وكانوا ينفرون من كل مبتدع وإن كان جائزا حفظا للأصل وهو الاتباع... وقد جرت محدثات لا تصادم الشريعة ولا يتعاطى عليها فلم يروا بفعلها بأسا) واستشهد بقول عمر: "نعمت البدعة هذه". ثم قال: (ومتى أسند المحدث إلى أصل مشروع لم يذم، فأما إذا كانت البدعة كالمتمم فقد اعتقد نقص الشريعة، وإن كانت مضادة فهي أعظم).

وإذا كان الشافعي ومن تابعه قد اكتفى بتقسيم البدعة إلى قسمين: بدعة محمودة أو مستحسنة، وبدعة مذمومة. فإن العز بن عبد السلام ومن حذا حذوه مالوا إلى التفصيل. فالبدعة عندهم تجرى عليها الأحكام الخمسة.

قال العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/ ٢٠٤): (البدعة: فعل ما لم يعهد في عهد رسول الله ﷺ وهي منقسمة إلى: بدعة واجبة، وبدعة محرمة، وبدعة مندوبة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة، والطريق في معرفة ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشريعة فإن دخلت في قواعد الإيجاب فهي واجبة، وإن دخلت في قواعد التحريم فهي محرمة، وإن دخلت في قواعد المندوب فهي مندوبة، وإن دخلت في قواعد المكروه فهي مكروهة، وإن دخلت في قواعد المباح فهي مباحة).

=

=

وبمثل هذا قسمهما القرافي في الفروق (٤/ ٢٠٢). والنووي في تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢ - ٢٣)، وابن حجر في أحد المواضع في الفتح (٤/ ٢٥٣).

ثانيا - القائلون بذم البدعة مطلقا.

يرى هذا الفريق أن البدعة تطلق على كل ما أحدث في الدين مما لا أصل له في الشرع وأن البدعة مذمومة مطلقا. وقد ذهب إلى هذا جمع من الأئمة، والعلماء منهم الإمام مالك - رَحِمَهُ اللَّهُ - حيث قال كما في الاعتصام (١/ ٤٩): (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا).

وقال الإمام أحمد -رَحِمَهُ اللَّهُ- كما في طبقات الحنابلة لأبي يعلى الفراء (١/ ٢٤١): (أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ، والاقتداء بهم وترك البدع وكل بدعة ضلالة). وممن سار على هذا النهج ابن وضاح في كتابه البدع والنهي عنها حيث عقد بابا بعنوان كل محدثة بدعة وساق الآثار التي تؤكد ذلك وتؤيده.

ويعرف ابن تيميه البدعة بقوله: (إن البدعة في الدين هي ما لم يشرعه الله ورسوله، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب) مجموع الفتاوى (٤/ ١٠٧ - ١٠٨). ويقول ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٢٣٣): (والمراد بالبدعة: ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا، وإن كان بدعة لغة).

وإلى هذا ذهب الحافظ ابن حجر عند شرحه لقول ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وشر الأمور محدثاتها» حيث قال: (والمراد بقوله: كل بدعة ضلالة: ما أحدث ولا دليل له من الشرع بطريق خاص ولا عام) فتح الباري (١٣/ ٢٥٣، ٢٥٤). ولعل أحسن من فصل القول في هذا المجال الإمام الشاطبي - رَحِمَهُ اللَّهُ - حيث عرف

=

=

البدعة بتعريفين:

أولهما: أنها (طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالى.

وهذا التعريف على رأى من لا يدخل العادات في معنى البدعة وإنما يخصها بالعبادات.

ثانيهما: البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية) وهذا على رأى من أدخل العادات في مسمى البدع. وليس هذا التعريف داخلا معنا لأن الصحيح أن البدعة لا تدخل العادات إلا ما قصد به التعبد منها. ثم أخذ الشاطبي يشرح ألفاظ التعريف، ويتلخص ما قاله فيما يأتي: الطريقة والطريق: ما رسم للسلوك عليه.

في الدين: قيد يخرج الاختراع في أمور الدنيا.

وإنما قيدت بالدين لأنها فيه تخترع، وإليه يضيفها صاحبها، ولو كانت الطريقة مخترعة في الدنيا لم تسم بدعة، وذلك كإنشاء المدن الحديثة واختراع الآلات التي لم تكن موجودة من قبل.

مخترعة: أي لا أصل لها في الشريعة، ولا تعلق لها بها. لأن البدعة تتميز بأنها خارجة عما رسمه الشرع.

وهذا القيد يخرج ما حدث وله أصل في الشرع كتصنيف العلوم الشرعية مثلا، فإنها وإن لم توجد في الزمان الأول، فأصولها موجودة في الشرع، وهي مستمدة من قاعدة المصالح المرسلة، ولا ينبغي أن تسمى بدعة أصلا، ومن سمى مثل ذلك بدعة فإما أن يريد المفهوم اللغوي لها، - كما سمى عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - جمع الناس على قيام رمضان بدعة - وإما من جهله بمواقع السنة والبدعة.

تضاهي الشرعية: أي أن البدعة تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون كذلك بل

=

=

هي مضادة لها من أوجه متعددة منها: - وضع الحدود، وذلك كالناذر للصيام قائما لا يقصد، ضاحيا لا يستظل، والاقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف.

- ومنها التزام الكيفيات والهيئات المعينة، كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد، واتخاذ يوم ولادة النبي ﷺ عيدا، وما أشبه ذلك.

- ومنها التزام العبادات المعينة في أوقات معينة، لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة، وذلك كالتزام صيام يوم النصف من شعبان، وقيام ليلته، وكون البدعة تضاهي الأمور المشروعة وصف لازم لها، وإلا لكانت من باب الأفعال العادية.

ويبين ذلك، أن صاحب البدعة يخترعها ليضاهي بها السنة، سواء لبس بها صاحبها على الناس، أو كانت مما التبست عليه - هو - بالسنة ويؤكد هذا انتصار المبتدع لبدعته بأمور تخيل أنها مشروعة، ولو بدعوى الاقتداء بفلان المعروف منصبه في أهل الخير.

- يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله، تعالى، هذا القصد. قيد لإخراج العادات التي لا يقصد بها التعبد من البدع، وبيان أن ما ابتدع من الأمور الزائدة على المشروع، والمنسوبة للشرع، مقصود بها المبالغة في التعبد، أو تجديد النشاط إلى العبادة. الاعتصام (١/ ٣٧ - ٤٢).

وعرفها الشمني كما في الإبداع في مضار الابتداع: بأنها (ما أحدث على خلاف الحق المتلقي عن رسول الله ﷺ من علم أو عمل أو حال بنوع شبهة أو استحسان، وجعل دينا قويما وصراطا مستقيما)، والمراد بالعلم: الاعتقاد، وبالحال: هيئة العمل.

أدلة القائلين بالتقسيم. وبعد أن استعرضنا تعريف كل من الفريقين للبدعة أنتقل إلى عرض أدلة كل فريق ومناقشتها حتى يتسنى لنا تحديد معنى البدعة في الشرع.

=

=

وسأبدأ بالفريق الأول: وهم القائلون بالتقسيم:

إن مراد هذا الفريق باستدلالهم بهذه الأدلة هو بيان أنها تخصص العموم الوارد في ذم البدعة، وأنها ليست كلها ضلالة، بل منها المحمود والمذموم، وقد استدلوا بعدة أدلة منها:

- قول عمر ﵁ - عن جمع الناس على قيام رمضان -: «نعمت البدعة هذه» ووجه الاستدلال بهذا القول: أن عمر قد سمى ذلك الفعل بدعة، ووصفها بما يفيد حسنها فدل ذلك على أن هناك بدعة حسنة في الشرع.

- ومنها ما أخرجه مسلم بسنده عن جرير بن عبد الله - ﵁ - أن رسول الله ﷺ قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيء». قال النووي: (.... وفي هذا الحديث تخصيص قوله ﷺ: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وأن المراد به المحدثات الباطلة والبدع المذمومة) صحيح مسلم بشرح النووي (٧/ ١٠٤).

ويشرح الشاطبي وجه استدلالهم بهذا الحديث:

بأنه صريح في أن من سن سنة خير فذلك خير، وأن سن هنا بمعنى اخترع وابتدع لكون الاستنان قد نسب إلى المكلف دون الشارع، ولو كان المراد من عمل سنة ثابتة في الشرع لما قال: «من سن»، ويدل على ذلك قوله ﷺ عند البخاري: «ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها - من دمها - لأنه أول من سن القتل» فقوله ﷺ: «سن» بمعنى اخترع. لأنه أول من اخترع القتل بين الناس ولم يكن موجودا. ومثله قوله ﷺ «من سن في الإسلام سنة حسنة». أي اخترعها من نفسه وأحدثها. لكن بشرط أن تكون حسنة حتى يكون له الأجر، إذا

=

=

فليس المراد: من عمل سنة ثابتة، ولو كان المراد كذلك لقال من عمل بسنتي، أو بسنة من سنتي، أو من أحيا سنة من سنتي. الاعتصام. (١/ ١٧٨ - ١٧٩).

ومن الأدلة ما أخرجه الترمذي بسنده عن بلال بن الحارث: «أن النبي ﷺ قال لبلال بن الحارث: (اعلم: قلت: ما أعلم يا رسول الله؟ قال: إنه من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئا))».

قال الشاطبي: فقوله «من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدى»، واضح في العمل بما ثبت أنه سنة...، بخلاف قوله: من سن كذا، فإنه ظاهر في الاختراع أولا من غير أن يكون ثابتا في السنة. وأما قوله ﷺ لبلال بن الحارث «ومن ابتدع بدعة ضلالة» فظاهر أن البدعة لا تذم بإطلاق. بل بشرط أن تكون ضلالة، وأن تكون لا يرضاها الله ورسوله، فاقتضى هذا كله أن البدعة إذا لم تكن كذلك لم يلحقها ذم، ولا تبع صاحبها وزر، فعادت إلى أنها سنة حسنة، ودخلت تحت الوعد بالأجر). الاعتصام (١/ ١٧٩).

ومما استدلوا به أيضا: أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. قد استحسنوا أشياء لم يرد بها نص معين في كتاب ولا سنة مما رأوه حسنا وأجمعوا عليه، ولا تجتمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، وإنما يجتمعون على هدى وعلى ما هو حسن. مثال ذلك. أنهم أجمعوا على جمع القرآن وكتابته في المصحف وعلى جمع الناس على المصاحف العثمانية واطراح ما سواها، ثم اقتفى الناس أثرهم في ذلك الرأي الحسن، فجمعوا العلم ودونوه وكتبوه. ومثل ذلك قتل عمر الجماعة بالواحد، وتضمين الصناع، وكل هذه محدثات لم تكن في عهد رسول الله ﷺ وقد استحسنها الصحابة ومن بعدهم، فدل ذلك على أن البدع تنقسم إلى حسنة

=

=

وقبيحة وربما استدلوا بالحديث الموقوف على ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو قوله: «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن».

قال الشيخ علي محفوظ في الإبداع في مضار الابتداع (ص ١٢٨): (ووجه الشبهة فيه ظاهر وهو أنه قال: "ما رآه المسلمون والظاهر ما رأوه بعقولهم فرجع التحسين إليهم فهم المخترعون، ولو كان التحسين بالدليل لما نسب الرؤية إلى المسلمين، فدل على أن البدعة فيها الحسن والقبيح).

وبناء على ما تقدم فإن هذا الفريق يرى:

- أن البدعة تطلق على كل ما أحدث في الدين بعد رسول الله ﷺ سواء كان محمودا أو مذموما.

- أن كل ما ورد في ذم البدع. مثل قوله ﷺ «كل بدعة ضلالة» عام مخصوص.

- أن البدعة تدور عليها الأحكام الخمسة.

أدلة القائلين بذم البدعة: تتركز أدلة هذا الفريق حول إثبات أن البدعة سيئة ومذمومة مطلقا، وقد استدلوا على ذلك بأدلة من القرآن والسنة، فمن القرآن قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} فهذه الآية تدل على أن الشريعة قد جاءت كاملة فلا تحتاج إلى زيادة ولا نقصان. وحاصل كلام المبتدع وحاله، أن الشريعة لم تتم وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها في زعمه، ولو كان معتقدا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع ولم يستدرك عليها، ولاشك أن من اعتقد هذا فهو ضال عن الصراط المستقيم.

قال الإمام مالك: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا).

=

=

ومن الأدلة قوله تعالى: {وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}. فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع.

وليس المراد بالسبل: المعاصي، لأن المعاصي - من حيث هي - لم يضعها أحد طريقا تسلك دائما للتعبد. وإنما هذا الوصف خاص بالبدع والمحدثات.

فعن ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: «(خط لنا رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيما قال ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}».

قال مجاهد في قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} قال: البدع والشبهات ومن الآيات التي استدلوا بها قوله تعالى: {وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}، فالسبيل القصد هو طريق الحق، وما سواه جائر عن الحق، أي منحرف عنه إلى طرق البدع والضلالات والمعاصي.

وعن مجاهد: {قَصْدُ السَّبِيلِ} أي المقتصد منها بين الغلو والتقصير وذلك يفيد أن الجائر هو الغالي أو المقصر، وكلاهما من أوصاف البدع.

ومن الأدلة الواردة في القرآن مما يدل على ذم المبتدعين قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ} فهذه الآية تبين حال الزائغين عن اتباع الحق، وذلك باتباعهم لما تشابه من الكتاب. بقصد الفتنة في الدين وما ذاك إلا بسبب زيغ في قلوبهم وفساد في أفهامهم، وهذا صنيع أهل البدع لأنهم يتركون محكم الكتاب ويتمسكون بمتشابهه، وقد

=

=

ورد في الحديث ما يفسر الآية ويحذر من المبتدعة وأشباههم فقد أخرج البخاري بسنده «عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (تلا رسول الله ﷺ هذه الآية {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} إلى قوله: {أُولُو الْأَلْبَابِ} قالت: قال رسول الله ﷺ: فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)». وأخرج الآجري بسنده عن طاووس قال: (ذكر لابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الخوارج - وما يصيبهم عند قراءة القرآن؟ فقال - رضي الله تعالى عنه: "يؤمنون بمحكمه ويضلون عن متشابهه. وما يعلم تأويله إلا الله.. والراسخون في العلم يقولون: آمنا به ") ولا شك أن الخوارج كانوا أوائل المبتدعة، وكانت تلك سمتهم وسمة من أتى بعدهم من أهل البدع على اختلاف بدعهم وهي التمسك بالمتشابه وترك المحكم لزيغ في القلب.

وهذه الآيات قد تضمنت ذم الابتداع وأهله بطريق الإجمال ولم تخصص نوعا من البدع أو المحدثات دون نوع أو قسما دون قسم بل هي عامة، يستفاد منها ذم البدع مطلقا. وبعد أن استعرضنا بعض الآيات التي تشير إلى ذم البدعة وأهلها ننتقل إلى السنة لاستعراض الأحاديث التي استدل بها القائلون بذم البدع مطلقا.

فمن ذلك ما أخرجه أحمد وغيره عن العرباض بن سارية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا. فقال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبدا حبشيا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» فهذا الحديث نص في أن البدع كلها ضلالة بلا استثناء في ذلك ولا

=

=

يحتمل تخصيصا يخرج بعض البدع عن هذا الوصف، وذلك لورود التعميم في أحاديث أخرى، ولم يرد في حديث منها ما يخصص ذلك العموم.

ومن الأدلة ما أخرجه مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم. ويقول: "بعثت أنا والساعة كهاتين " ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد. فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٦٧ - ٢٦٨): (قوله: «كل بدعة ضلالة» قاعدة شرعية كلية بمنطوقها ومفهومها، أما منطوقها، فكأن يقال: حكم كذا بدعة، وكل بدعة ضلالة، فلا تكون من الشرع لأن الشرع كله هدى. فإن ثبت أن الحكم المذكور بدعة، صحت المقدمتان وأنتجتا المطلوب).

ومن الأدلة أيضا ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله تعالى عنها: قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». وفي رواية لمسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» فهذا الحديث يدل على أن من أحدث في الدين شيئا وليس أصل في الشرع يدل عليه فهو باطل ومردود على صاحبه.

قال النووي (١٢/ ١٦) عند شرحه لهذا الحديث بروايتيه: (... وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات. وفي الرواية الثانية زيادة، وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول: أنا ما أحدثت شيئا فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات، سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها.. وهذا الحديث مما ينبغي حفظه، واستعماله في إبطال المنكرات

=

=

وإشاعة الاستدلال به). ومع ما سبق. فالحديث يعتبر ميزانا توزن به الأعمال هل هي موافقة للشرع أم لا؟

قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٥٢): (وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، كما أن حديث: «إنما الأعمال بالنيات» ميزان للأعمال في باطنها، فهذا ميزان للأعمال في ظاهرها فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله – تعالى –فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء، ثم قال: "فهذا الحديث بمنطوقه يدل على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره فهو غير مردود، والمراد بأمره هاهنا: دينه وشرعه كالمراد بقوله في الرواية الأخرى «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». فالمعنى إذا أن كل من كان عمله خارجا عن الشرع، ليس متقيدا بالشرع فهو مردود.

وقوله: «ليس عليه أمرنا» إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عمله جاريا تحت أحكام الشريعة موافقا لها فهو مقبول، ومن كان خارجا عن ذلك فهو مردود ").

ومنها قوله ﷺ (.... «فمن رغب عن سنتي فليس مني» فهذا الحديث فيه تحذير ووعيد شديد لمن رغب عن السنة وعدل عنها إلى غيرها من الأهواء والبدع.

وبناء على ما سبق فإن هذا الفريق من العلماء يرى:

– أن جميع ما ورد في ذم البدع من نحو قوله ﷺ «كل بدعة ضلالة» عام باق على عمومه.

– أن البدعة لا تكون إلا مذمومة، وإن استحسنها صاحبها.

=

=

- إن البدعة تطلق على ما أحدث في الدين بعد رسول الله ﷺ مما لا دليل عليه في الشرع بطريق خاص ولا عام.

- أن البدعة المقصودة بالذم شرعا لا تقبل التقسيم. أما التي قسمها العلماء فهي البدعة اللغوية وهي أعم وأشمل من البدعة الشرعية.

وبناء على ذلك فقد ناقشوا القائلين بالتقسيم في دعواهم.

وقد سبق أن ذكرنا أن أصحاب هذا الاتجاه قد انقسموا إلى فريقين:

- ففريق يرى أن البدعة تنقسم إلى محمودة ومذمومة واكتفى بذلك. ويمثله الإمام الشافعي ومن تابعه.

- والفريق الثاني زاد على ذلك بالقول بتقسيمها إلى خمسة أقسام وكان هذا الفريق أكثر تفصيلا وتوضيحا. ويمثله العز بن عبد السلام وتلميذه القرافي ومن تابعهما.

أما الإمام الشافعي فقد ورد عنه قولان يفسر أحدهما الآخر. وحاصلهما أنه يرى أن البدعة المذمومة ما ليس لها أصل في الشريعة، وأن البدعة المحمودة ما أحدثت ولها أصل في الشريعة.

وقد نبه الحافظ ابن رجب على ذلك في جامع العلوم والحكم (ص ٢٣٤ - ٢٣٥) فقال: (وقد روى الحافظ أبو نعيم بإسناده عن إبراهيم بن الجنيد قال: سمعت الشافعي يقول: البدعة بدعتان: بدعة محمودة، وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم. واحتج بقول عمر - رضي الله عنه -: "نعمت البدعة هي". ومراد الشافعي - رحمه الله - ما ذكرناه من قبل أن أصل البدعة المذمومة ما ليس لها أصل في الشريعة ترجع إليه وهي البدعة في إطلاق الشرع. وأما البدعة المحمودة فما وافق السنة: يعني ما كان لها أصل من السنة ترجع إليه، وإنما هي بدعة لغة لا شرعا لموافقتها السنة. وقد روى عن الشافعي كلام آخر يفسر هذا، أنه قال: المحدثات ضربان: ما أحدث مما يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا

=

=

فهذه البدعة الضلالة، وما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا فهذه محدثة غير مذمومة).

أما القائلون بالتقسيم فقد سبق إيراد أدلتهم والآن أبدأ بمناقشتها.

- أولا: استدلالهم بقول عمر رضي الله عنه: "نعمت البدعة هذه" وأن عمر قد سمى جمع الناس على قيام رمضان بدعة واستحسنها.

ليس فيه دليل على ما ذهبوا إليه من وجود البدعة الحسنة شرعا. ذلك أن عمر - رضي الله عنه - لم يرد ذلك وإنما أراد المفهوم اللغوي لها وهو أوسع من المفهوم الشرعي. لأنها تطلق في اللغة على الحادث محمودا كان أو مذموما بخلاف الشرع فلا تطلق إلا على الحادث المذموم.

أما ما فعله عمر - رضي الله عنه - فقد كان سنة من كل وجه، ويوضح ذلك: أن قيام رمضان سنة وأنه صلى الله عليه وسلم قد حث عليه ورغب فيه فقال: «من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه».، ثم إنه صلى الله عليه وسلم صلى القيام في المسجد جماعة بأصحابه عدة ليال فلما كثر الناس في المسجد امتنع من الخروج إليهم خشية أن تفرض عليهم. فظل الأمر على ذلك حتى توفاه الله. ويبين ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم، فصلى فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال: أما بعد، فإنه لم يخف علي مكانكم، ولكن خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها. فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر ذلك».

وعلى ذلك فالجماعة في القيام سنة وليست بدعة، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وزال

=

=

المانع بانقطاع الوحي بقيت على سنيتها وظل الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وصدرا من خلافة عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى رأى عمر أن يجمع الناس على القيام وراء إمام واحد بدلا من صلاتهم في المسجد أوزاعا متفرقين. فعن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال: (خرجت مع عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلى الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلى بصلاته الرهط. فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل. ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، قال: نعم البدعة هذه، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون - يريد آخر الليل - وكان الناس يقومون أوله).

ثم أجمع الصحابة على صحة ما فعله عمر وأقروه فصار إجماعهم حجة.

هذا بالإضافة إلى أنه سنة خليفة راشد أمرنا باتباعها لما روى الترمذي بسنده عن العرباض بن سارية أنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة. الحديث، وفيه: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»، وعلى ذلك فالجماعة في قيام رمضان سنة وليست بدعة، وإنما سماها عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بذلك إرادة منه للمفهوم اللغوي، لا الشرعي. ولأن رسول الله ﷺ قد تركها لمانع - وهو خوف الافتراض - قد زال بوفاته واتفق أنها لم تصل جماعة في زمان أبي بكر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إما لأنه رأى أن قيام الناس آخر الليل أفضل من جمعهم على إمام أول الليل، وإما لضيق زمانه عن النظر في هذه الفروع لاشتغاله بحروب الردة وغير ذلك.

فلما تمهد الإسلام في زمان عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رأى جمعهم على إمام واحد وكان له الفضل في إحياء هذه السنة. وعلى ذلك فاستدلال القائلين بالتقسيم بهذا القول لا يؤدى إلى ما ذهبوا إليه من وجود البدعة الحسنة شرعا. ولو افترضنا صحة

=

=

استدلالهم بهذا فليس قول الصحابي حجة إذا خالف الحديث، كيف وقد أتت الأحاديث تشهد بالضلالة لكل بدعة.

يقول ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٥٨٩ - ٥٩٠): (وأما قول عمر: "نعمت البدعة هذه " فأكثر المحتجين بهذا لو أردنا أن نثبت حكما بقول عمر الذي لم يخالف فيه، لقالوا: "قول الصاحب ليس بحجة " فكيف يكون حجة لهم في خلاف قول رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-. ومن اعتقد أن قول الصاحب حجة فلا يعتقده إذا خالف الحديث فعلى التقديرين: لا تصلح معارضة الحديث بقول الصاحب.

ثم نقول: أكثر ما في هذا تسمية عمر تلك بدعة مع حسنها، وهذه تسمية لغوية لا تسمية شرعية، وذلك أن البدعة في اللغة تعم كل ما فعل ابتداء من غير مثال سابق، وأما البدعة الشرعية فكل ما لم يدل عليه دليل شرعي)

وأما استدلالهم بحديث: «من سن في الإسلام سنة حسنة» - وأن سن بمعنى اخترع وابتدع - على وجود البدعة الحسنة شرعا.

فالجواب: أنه ليس المراد بالاستنان هنا الاختراع، وإنما المراد به العمل بما ثبت في السنة النبوية، أو إحياء أمر مشروع غفل عنه الناس أو تركوه، وبيان ذلك من وجهين:

- الأول: أن سبب ورود الحديث يفسر المراد بذلك. ففي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار. قال فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج. فأمر بلالا فأذن وأقام. فصلى ثم خطب فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}، إلى آخر الآية: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} والآية

=

=

التي في الحشر: {اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ} تصدق رجل من ديناره من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة، قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس. حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة فقال رسول الله ﷺ: من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده. من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده. من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

فهذا الحديث يدل على أن المراد بالسنة الحسنة هو مثل ما فعله ذلك الصحابي، حيث أتى بتلك الصرة فانفتح بسببه باب الصدقة وتتابع الناس بعده فكان فاتحة الخير في هذا الإحسان. وإذا نظرنا إلى ما فعله هذا الصحابي نجد أن هذه الصدقة أمر مشروع وأنه لم يخترع شيئا جديدا.

غاية الأمر أنه كان له الفضل في تنبيه الصحابة وتشجيعهم - بفعله - على الصدقة وعلى ذلك فالمراد بالسنة الحسنة في الحديث: هو العمل بالسنة، خاصة إذا غفل عنها الناس أو تركوها، ويتسع معنى السنة الحسنة ليشمل كل ما كان من أبواب الخير مما نبه إليه الشرع وحث عليه بشرط أن يكون على مقصود الشرع من الاتباع.

- الوجه الثاني:

أن قوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة» لا يمكن حمله على الاختراع، لأن كون السنة حسنة أو سيئة لا يعرف إلا بموافقة الشرع أو بمخالفته فما وافق الشرع وأوامره فهو من السنة الحسنة، ويدل على ذلك معنى الحديث.

وتطلق السنة السيئة على أمرين:

=

=

- أحدهما: إحداث المعاصي واختراع الفجور كما في حديث ابن آدم الأول ولفظه: «ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها - وربما قال سفيان: من دمها - لأنه سن القتل أولا».

- والثاني: هو الإحداث في الدين والابتداع فيه.

وأيضا لو صح حمل هذا الحديث على وجود البدعة الحسنة شرعا لكان معارضا بالأحاديث الدالة على عموم ذم البدعة، وإذا تعارضت أدلة العموم والتخصيص، لم يقبل ذلك التخصيص.

وأما حديث بلال بن الحارث: وفيه «ومن ابتدع بدعة ضلالة»....) فهذا الحديث لا يحتج به ولا يصلح للاستدلال لأنه ضعيف. وسبب ضعفه أنه من رواية كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، وهو أحد المتروكين المجروحين ممن لا يعتد بحديثه قال عنه أحمد بن حنبل: منكر الحديث ليس بشيء، وقال الآجري: سئل عنه أبو داود فقال: كان أحد الكذابين، ومثل ذاك قال الشافعي: وقال ابن حبان: روى عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحل ذكرها في الكتب ولا في الرواية عنه إلا على جهة التعجب، وقال ابن عبد البر: مجمع على ضعفه. قال الحافظ الذهبي: وأما الترمذي فقد صحح له بعض الأحاديث ولذلك لا يعتمد العلماء على تصحيحه..

وأما استدلالهم بقول ابن مسعود: (ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن) فقد اعتاد كثير من الناس - المنتسبين للعلم منهم والجهال - الاحتجاج بهذا الأثر على أن في الدين بدعة حسنة، وأن الدليل على حسنها اعتياد الناس عليها - ويروون هذا الأثر على أنه مرفوع إلى النبي ﷺ هذا مع أن الحديث موقوف على ابن مسعود لا يصح رفعه بحال من الأحوال.

وقبل الجواب أورده بنصه. عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: (إن الله نظر في

=

=

قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجلعهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوه سيئا فهو عند الله سيئ)، وهذا الحديث ليس فيه دليل على ما ذهبوا إليه وذلك:

- لأن الحديث موقوف فلا يجوز أن يحتج به في معارضة النصوص القاطعة في أن: «كل بدعة ضلالة» كما صح عن النبي ﷺ في أكثر من حديث.

- وعلى التسليم بأنه حجة، فإنه لا يعارض تلك النصوص القاطعة في ذم البدعة لأمور:

١ - أن المراد بهذا الأثر إجماع الصحابة وعلى ذلك فاللام في "المسلمون " ليست للاستغراق، بل هي للعهد لأن سياق الأثر يدل على ذلك. كما وضحته زيادة الحاكم على هذا الأثر، ونص هذه الزيادة: «وقد رأى الصحابة أن يستحلفوا أبا بكر رضي الله عنه»..

٢ - وعلى التسليم بأن المراد به غير الصحابة فلا يعني أن المقصود به عموم المسلمين عالمهم وجاهلهم بل المقصود به أهل الإجماع. ولو كان المقصود به عموم المسلمين عالمهم وجاهلهم لاستلزم الباطل لأمرين:

- أحدهما: أنه سيناقض قوله ﷺ: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة».

ووجه التناقض - أن الحديث الأول يفيد - في نظر المستدلين به - أن كل مسلم مصيب لأن الحديث قد حكم بالحسن على مذهبه.

- الثاني: أنه يقتضي أن يكون العمل حسنا عند بعض الناس قبيحا عند البعض الآخر وهذا باطلولو كان المراد منه استحسان عامة المسلمين لكان هذا فتحا

=

=

لباب الابتداع في الدين.

وبعد هذا أرى أنه لا يمكن الاحتجاج بقول ابن مسعود على وجود البدعة الحسنة أو جوازها، وأما الاحتجاج به من المبتدعة وأشباههم إنما يكون لهوى في نفوسهم، وإلا فابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كان من أشد الصحابة تحذيرا من الابتداع ومقاومة للبدع.

وأما استدلالهم بما فعله السلف وعملوا به مما لم يرد فيه نص صريح أو خاص من كتاب أو سنة ومثلوا لذلك بجمع القرآن وتصنيف العلوم وغير ذلك - على وجود البدعة الحسنة.

والجواب عن ذلك: أن ما ذكروه واستدلوا به من فعل الصحابة ليس دليلا على ما ذهبوا إليه. لأن ما فعله الصحابة كان من قبيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أو من قبيل المصلحة المرسلة عند من يأخذ بها.

وأما جمع أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - للقرآن وجمع عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الناس على مصحف واحد فقد كان سببه الخوف من تفلت القرآن من الصدور وضياعه، فقام أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بجمعه بين الدفتين، ثم جاء عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فجمع الناس على مصحف واحد، وأمر بإحراق ما عداه من المصاحف خشية الاختلاف في القرآن ووقوع الفتنة بسبب ذلك.

فهذا الأمر - أعني جمع القرآن - لم يرد فيه نص عن النبي ﷺ بفعله على وجه الخصوص. لكن نصوص الشرع العامة تؤيده.

فقد كان النبي ﷺ يأمر بكتابة القرآن، ولا فرق بين أن يكتب مفرقا أو مجموعا بل صار جمعه أصلح وأيضا فجمع القرآن راجع إلى حفظ الشريعة، والأمر بحفظها معلوم، وراجع إلى سد الذريعة إلى وقوع الاختلاف في القرآن، وقد علم النهي عن الاختلاف في القرآن، بنصوص الشرع المستفيضة. ويرى ابن تيمية أن جمع

=

=

القرآن لم يخرج عن كونه سنة، لأن السنة - بمعناها الواسع - هي ما قام الدليل الشرعي على أنه طاعة لله ورسوله، سواء فعله الرسول ﷺ، أو فعل في زمانه أو لم يفعله في زمانه لعدم المقتضى حينئذ لفعله، أو وجود المانع منه، وإذا ثبت أنه أمر به أو استحبه فهو سنة، كما أمر بإجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب، وكما جمع الصحابة القرآن في المصحف، وداوموا على قيام رمضان في المسجد جماعة. وقد قال ﷺ: «لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه» فشرع كتابة القرآن، وعلى ذلك فكتابة القرآن مشروعة لكن لم يجمعه الرسول ﷺ في مصحف واحد لاحتمال نزول آيات أو سور أو احتمال نسخ لبعض آياته، فلأجل هذا الاحتمال لم يمكن جمعه في مصحف واحد حتى مات رسول الله ﷺ فقام أبو بكر - رضي الله عنه - بجمعه وقام عثمان - رضي الله عنه - بجمع الناس على مصحف واحد، وأجمع الصحابة على ذلك فصار إجماعهم دليلا شرعيا. وأما تدوين السنة والعلوم الشرعية فهو من باب تبليغ الشريعة. وقد ورد الأمر بذلك والحث عليه. فقال ﷺ «ليبلغ الشاهد منكم الغائب» وقال: «بلغوا عني ولو آية».

وثبت في السنة الأمر بكتابة العلم كقوله عليه الصلاة والسلام «اكتبوا لأبي شاة» وعن أبي هريرة - رضي الله عنه أنه - قال: «ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثا مني عن رسول الله ﷺ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب». فهذه الأحاديث تدل على أن كتابة العلم وتدوينه أمر مشروع. ويتأكد هذا إذا خيف عليه الضياع والدروس. وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: "أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم. وذهاب العلماء، ولا يقبل إلا حديث النبي ﷺ وليفشوا العلم، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا".

=

=

أما قتل عمر - رضي الله عنه - الجماعة بالواحد حينما اشتركوا في قتله، فإنه وإن لم يرد في الشرع دليل على خصوصه إلا أنه مستند إلى المصلحة التي أيدتها نصوص الشرع الدالة على وجوب حفظ الدماء والنفوس. ويبين وجه المصلحة في ذلك، أن القتيل معصوم الدم، وقد قتل عمدا، فإهدار دمه داع إلى هدم أصل القصاص، واتخاذ الاستعانة والاشتراك ذريعة إلى السعي بالقتل إذا علم أنه لا قصاص فيه، فإيقاع القصاص عليهم أمر تدعو إليه المصلحة الشرعية المعتبرة على وجه العموم وهي حفظ الدماء والنفوس، فلا يعد ذلك من قبيل الابتداع لموافقته مقاصد الشرع وأصوله المعتبرة.

ثم هو بعد ذلك فعل خليفة راشد أجمع عليه الصحابة.

أما تضمين الصناع فقد قضى الخلفاء الراشدون بتضمينهم، وقال علي رضي الله عنه: (لا يصلح الناس إلا ذاك) ووجه المصلحة في ذلك: أن الناس لهم حاجة إلى الصناع والغالب عليهم التفريط في عين الأمتعة، فلو لم يضمنوا مع شدة الحاجة إليهم لأفضى ذلك إلى أحد أمرين

- إما ترك الاستصناع بالكلية، وذلك شاق على الخلق.

- وإما أن يعملوا ولا يضمنوا بدعواهم الهلاك، فتضيع الأموال، وتتطرق الخيانة، فكانت المصلحة في التضمين، وهذا معنى قول علي: لا يصلح الناس إلا ذاك.

وبعد عرض أدلة الفريقين ومناقشة القائلين بالتقسيم تبين أن أدلة القائلين بذم البدع مطلقا أقوى وأسلم من المعارضة لأنه لم يرد في نصوص الشرع ما يعارضها وينقلها من العموم إلى الخصوص، ومن الإطلاق إلى التقييد، وأما ما ذكره الفريق الأول من أدلة فلا يتعارض مع أحاديث العموم الواردة في ذم البدعة. وذلك لأن البدعة هي ما أحدث في الدين وليس عليه دليل صحيح من الشرع لا خاص ولا عام. وما ذكروه من أمثلة فإما أن يكون داخلا في السنة بمعناها العام. وإما أن

=

=

يكون وسيلة لتحقيق أمر مشروع كبناء المدارس لنشر العلم الشرعي، وتصنيف العلوم النافعة واستخدام وسائل العصر النافعة في نشر الدين والعلم وهذا كله يندرج تحت معنى السنة الحسنة.

ثم إنه لا خلاف بين الفريقين في ذم البدع المذمومة وإنما الخلاف في تسمية السنة الحسنة بالبدعة الحسنة والاستدلال بما لا ينهض من الأدلة على وجود البدعة الحسنة. ولهذا الأمر خطورته لأن المبتدعة وأهل الأهواء يتذرعون بالخلاف في هذه المسألة ويعدون بدعهم المذمومة من قبيل البدعة الحسنة ويحاولون تخريجها على أصول الشرع، لأجل هذا كان تحرير محل النزاع في هذه المسألة مهما جدا. فالجميع متفقون على أن البدع المذمومة ضلالة، ومتفقون أيضا على أنه قد أحدثت بعد رسول الله ﷺ أشياء حسنة، ولكنهم اختلفوا في تسميتها.

فالفريق الأول سماها بدعة حسنة وحاول أن يثبت بالأدلة وجود البدعة الحسنة شرعا ليندرج تحتها كل ما أحدث من أمور الخير. وليس مقصدهم إلا ذلك.

والفريق الثاني: قال بأنها ليست من البدع في شيء - لأن البدع كلها ضلالة لا حسن فيها - وإنما هي من قبيل السنة الحسنة. طالما أنها مندرجة تحت نصوص الشرع وقواعده العامة.

فالخلاف لفظي، ومآل القولين واحد بين أهل العلم في هذه المسألة وإن كان الصحيح الذي لا مرية فيه هو أن البدعة كلها ضلالة، وأن ما سمي بدعة مما ثبت حسنه فاطلاق اسم البدعة عليه شرعا لا ينطبق ولا يسوغ، أما الخلاف الحقيقي فهو بين أهل العلم وأهل الأهواء حينما يريد المبتدعة تسويغ بدعهم المذمومة ونشرها استنادا إلى أنها بدعة حسنة، وأن فريقا من العلماء قالوا بوجود البدعة الحسنة فهنا يكون الخلاف الحقيقي، وتظهر خطورته في انتشار البدع الكثيرة بسبب الاعتماد على وجود مسمى البدعة الحسنة شرعا. فيجب المحافظة -

=

=

والحالة هذه - على عموم قوله ﷺ «كل بدعة ضلالة»

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٧٠ - ٣٧١): (.... إن المحافظة على عموم قول النبي ﷺ: «كل بدعة ضلالة» متعين، وأنه يجب العمل بعمومه، وأن من أخذ يصنف " البدع " إلى حسن وقبيح، ويجعل ذلك ذريعة إلى أن لا يحتج بالبدعة إلا على النهي فقد أخطأ، كما يفعل طائفة من المتفقهة، والمتكلمة والمتصوفة. والمتعبدة إذا نهوا عن " العبادات المبتدعة " " والكلام في التدين المبتدع "، ادعوا أن لا بدعة مكروهة إلا ما نهي، عنه، فيعود الحديث إلى أن يقال: "كل ما نهي عنه " أو " كل ما حرم " أو " كل ما خالف نص النبوة فهو ضلالة " وهذا أوضح من أن يحتاج (في رده) إلى بيان، بل كل ما لم يشرع من الدين فهو ضلالة).

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٥٢): (... ومعلوم أن كل ما لم يسنه ولا استحبه رسول الله ﷺ ولا أحد من هؤلاء الذين يقتدي بهم المسلمون في دينهم، فإنه يكون من البدع المنكرات ولا يقول أحد في مثل هذا إنه بدعة حسنة. إذ البدعة الحسنة - عند من يقسم البدع إلى حسنة وسيئة - لا بد أن يستحبها أحد من أهل العلم الذين يقتدي بهم، ويقوم عليها دليل شرعي على استحبابها، وكذلك من يقول البدعة الشرعية كلها مذمومة لقوله ﷺ في الحديث «كل بدعة ضلالة» ويقول: قول عمر في التراويح إن أسماها بدعة: باعتبار وضع اللغة. فالبدعة في الشرع عند هؤلاء ما لم يقم دليل شرعي على استحبابه. ومآل القولين واحد، إذ هم متفقون على أن ما لم يستحب أو يجب من الشرع فليس بواجب ولا مستحب، فمن اتخذ عملا من الأعمال عبادة ودينا وليس ذلك في الشريعة واجبا ولا مستحبا فهو ضال باتفاق المسلمين).

وعلى ذلك فالبدعة المنصوص على ضلالتها في الشرع هي:

=

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤).

{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَاب} التَّوْرَاة وَثُمَّ لِتَرْتِيبِ الْأَخْبَار {تَمَامًا} لِلنِّعْمَةِ {عَلَى الَّذِي أَحْسَن} بِالْقِيَامِ بِهِ {وَتَفْصِيلًا} بَيَانًا {لِكُلِّ شَيْء} يُحْتَاج إلَيْهِ فِي الدِّين {وَهُدًى وَرَحْمَة لَعَلَّهُمْ} أَيْ بَنِي إسرائيل {بلقاء ربهم} بالبعث {يؤمنون}(١).

=

- كل ما عارض السنة من الأقوال أو الأفعال أو العقائد.
- كل أمر يتقرب به إلى الله، وقد نهى عنه الشرع.
- كل أمر لا دليل عليه من الشرع، مما يلحق بالعبادات أو العقائد.
- كل عبادة لم تأت كيفيتها إلا في حديث ضعيف أو موضوع.
- كل عبادة أطلقها الشارع وقيدها الناس ببعض القيود مثل المكان والزمان أو الهيئة أو العدد.
- كل أمر لا يمكن أن يشرع إلا بنص أو توقيف ولا نص عليه فهو بدعة، إلا ما كان عن صحابي.
- ما نص على استحبابه بعض العلماء سيما المتأخرين منهم ولا دليل عليه.

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ} [الأنعام: ١٥٤]، أي: " ثم قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إن الله تعالى هو الذي أتى موسى التوراة تمامًا لنعمته على المحسنين من أهل ملته".

قال الطبري: أي: " ثم آتينا موسى التوراة تمامًا لنعمنا عنده وأيادينا قِبَله، تتم به كرامتنا عليه على إحسانه وطاعته ربَّه وقيامه بما كلّفه من شرائع دينه".

وثُم هاهنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب هاهنا، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُم سَادَ أبوهُ ... ثُمّ قد سَادَ قَبْلَ ذَلكَ جَده.

=

=

قال السعدي: (ثم) في هذا الموضع، ليس المراد منها الترتيب الزماني، فإن زمن موسى متقدم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب، وإنما المراد الترتيب الإخباري، فأخبر أنه آتى موسى الكتاب.

قال ابن كثير: وهاهنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) وكثيرًا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا)، وقوله في أول هذه السورة (قُلْ مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا)، وبعدها (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ مُبَارَكٌ)، وقال تعالى مخبراً عن المشركين (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى) قال تعالى (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ).

وفي قوله تعالى: {تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ} [الأنعام: ١٥٤]، ستة أقوال:

أحدها: تمامًا على إحسان موسى بطاعته، يعني: فيما امتحنه الله به في الدنيا من أمره ونهيه. قاله الربيع، وقتادة، والفراء.

والثاني: تمامًا لكرامته في الجنة على إحسانه في الدنيا، قاله الحسن، وهو مروي عن قتادة -أيضا-.

والقولان السابقان قريبان من المعنى، إذان المعنى: "ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا على ما أحسن موسى، أي: آتيناه الكتاب لأتمم له كرامتي في الآخرة، تمامًا على إحسانه في الدنيا في عبادة الله والقيام بما كلفه به من طاعته".

=

=

والثالث: تمامًا على المحسنين، و معناه تماما للكرامة والنعمة على الذي أحسن، أي: على كل من كان محسنا صالحا. قاله مجاهد، والزجاج، ويدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود: {تَمَامًا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا}.

قال الطبري: " وكأنّ مجاهدًا وجّه تأويل الكلام ومعناه إلى أن الله جل ثناؤه أخبر عن موسى أنه آتاه الكتاب فضيلة على ما آتى المحسنين من عباده".

فإن قال قائل: "فكيف جاز أن يقال: {على الذي أحسن}، فيوحِّد {الذي}، والتأويل على الذين أحسنوا؟

قيل: إن العرب تفعل ذلك خاصة في «الذي» وفي «الألف واللام»، إذا أرادت به الكل والجميع، كما قال جل ثناؤه: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}، [سورة العصر: ١، ٢]، وكما قالوا: كثر الدِّرهم فيه في أيدي الناس".

والرابع: تمامًا على إحسان الله إلى أنبيائه، قاله ابن زيد. وكان عن يحيى بن يعمر يقرأ: «تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ»، رفعًا.

قال الطبري: "وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، وإن كان لها في العربية وجه صحيح، لخلافها ما عليه الحجة مجمعة من قرأة الأمصار".

والخامس: تمامًا لنعمة الله على إبراهيم، لأنه من ولده، قاله ابن بحر.

والسادس: معناه: آتينا موسى الكتاب تماما، أي: تاما كاملا على أحسن ما تكون عليه الكتب أي على الوجه الذي هو أحسن. وهو معنى قول الكلبي.

والسابع: تماما على الذي هو أحسن الأشياء. ذكره الزجاج.

قال الطبري: "وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معناه: ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا لنعمنا عنده، على الذي أحسن موسى في قيامه بأمرنا ونهينا لأن ذلك أظهرُ معانيه في الكلام، وأن إيتاء موسى كتابه نعمةٌ من الله عليه ومنة عظيمة. فأخبر جل ثناؤه أنه أنعم بذلك عليه لما سلف له من صالح عمل وحُسن

=

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥).

{وَهَذَا} الْقُرْآن {كِتَاب أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَك فَاتَّبِعُوهُ} يَا أَهْل مَكَّة بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ

=

طاعة".

قوله تعالى: {وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٥٤]، أي: " وتفصيلا لكل شيء من أمور دينهم".

قال الطبري: " يعني: وتبيينًا لكل شيء من أمر الدين الذي أمروا به".

عن قتادة: "{وتفصيلا لكل شيء}، فيه حلاله وحرامه".

قوله تعالى: {وَهُدًى وَرَحْمَةً} [الأنعام: ١٥٤]، أي: " وهدى ودلالة على الطريق المستقيم ورحمة لهم".

قال الطبري: {هُدًى}، يعني: "تقويمًا لهم على الطريق المستقيم، وبيانًا لهم سُبُل الرشاد لئلا يضلوا، {وَرَحْمَةً}، يقول: ورحمة منا بهم ورأفة، لننجيهم من الضلالة وَعمى الحيرة".

قال الفخر الرازي: " الهدى: هو الدلالة، والرحمة: هي النعمة".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٥٤]، أي: " رجاء أن يصدِّقوا بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء، ويعملوا لذلك".

قال الطبري: " يعني: إيتائي موسى الكتاب تمامًا لكرامة الله موسى، على إحسان موسى، وتفصيلا لشرائع دينه، وهدًى لمن اتبعه، ورحمة لمن كان منهم ضالا لينجيه الله به من الضلالة، وليؤمن بلقاء ربه إذا سمع مواعظ الله التي وعظ بها خلقه فيه، فيرتدع عما هو عليه مقيمٌ من الكفر به، وبلقائه بعد مماته، فيطيع ربه، ويصدِّق بما جاءه به نبيه موسى ﷺ".

قال الفخر الرازي: " أي: لكي يؤمنوا بلقاء ربهم، والمراد به لقاء ما وعدهم الله به من ثواب وعقاب".

{وَاتَّقُوا} الْكُفْر {لعلكم ترحمون}(١).

(١) قوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام: ١٥٥]، أي: " وهذا القرآن كتاب أنزلناه على نبينا محمد ﷺ، خيره كثير".

قال قتادة: " وهو القرآن الذي أنزله الله على محمد عليه الصلاة والسلام (فاتبعوه)، يقول: فاتبعوا حلاله، وحرّموا حرامه".

قال الطبري: أي: " وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ {كتاب أنزلناه مبارك}".

قال البغوي: " {وهذا} يعني: القرآن".

قال الزجاج: " «المبارك»: ما يأتي من قبله الخير الكثير، وهو من نعت {كتاب}".

قال ابن عثيمين: " أي: ذو بركة، فهو مبارك؛ لأنه شفاء لما في الصدور، إذا قرأه الإنسان بتدبر وتفكر؛ فإنه يشفي القلب من المرض، وقد قال الله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الإسراء:٨٢].

مبارك في إتباعه؛ إذ به صلاح الأعمال الظاهرة والباطنة.

مبارك في اثاره العظيمة؛ فقد جاهد المسلمون به بلاد الكفر؛ لأن الله يقول: {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [الفرقان:٥٢]، والمسلمون فتحوا مشارق الأرض ومغاربها بهذا القرآن حتى ملكوها، ولو رجعنا إليه؛ لملكنا مشارق الأرض ومغاربها بهذا القرآن حتى ملكوها.

مبارك في أن من قرأه؛ فله بكل حرف عشر حسنات؛ فكلمة (قال) مثلًا فيها ثلاثون حسنة، وهذا من بركة القرآن؛ فنحن نحصل خيرات كثيرة لا تحصى بقراءة آيات وجيزة من كلام الله ﷻ.

والحاصل: أن القرآن كتاب مبارك؛ فكل أنواع البركة حاصلة بهذا القرآن العظيم، وثبوت نزوله من الله دليل على أنه كلامه".

=

قوله تعالى: {فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: ١٥٥]، أي: " فاتبعوه فيما يأمر به وينهى عنه".

قال البغوي والقرطبي:يعني: "واعملوا بما فيه".

قال الطبري: يقول: "فاجعلوه إمامًا تتّبعونه وتعملون بما فيه، أيها الناس".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا} [الأنعام: ١٥٥]، أي: " واتقوا الله أن تخالفوا له أمرًا".

قال البغوي: يعني: "وأطيعوا".

قال الطبري: "يقول: واحذروا الله في أنفسكم، أن تضيعوا العمل بما فيه، وتتعدّوا حدودَه، وتستحلُّوا محارمه".

قال القرطبي: "أي: اتقوا تحريفه".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: ١٥٥]، أي: " رجاء أن ترحموا فتنجوا من عذابه، وتظفروا بثوابه".

قال الزجاج: " أي: لتكونوا راجين للرحمة".

قال القرطبي: " أي لتكونوا راجين للرحمة فلا تعذبون".

قال الطبري: " يقول: لترحموا، فتنجوا من عذاب الله، وأليم عقابه".

(منبهة): اعلم رحمني الله وإياك أن الله سبحانه وتعالى أنزل شريعته التي جاءت في كتابه القويم القرآن الكريم وسنة رسوله الأمين ﷺ لتكون هادية للناس الصراط المستقيم، ولتكون حاكمة على أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم إلى يوم الدين.

وقد ختم الله تعالى كتبه بالقرآن المجيد، وختم رسله بمحمد ﷺ الرسول الأمين.

ومن ضرورة ذلك أن تكون الأحكام الشرعية التي تضمنتها تلك الشريعة الخاتمة شاملة وثابتة لا يشوبها نقص أو قصور، ولا يعتريها تبديل أو تغيير.

وهذه قضية بدهية عليها أدلة كثيرة من النصوص الشرعية.

وقبل المضي قدما في الموضوع يحسن التعريف بالحكم الشرعي وبالفتوى.

=

فالحكم الشرعي: «عبارة عن حكم الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين»، والفتوى والفتيا: «ذكر الحكم المسؤول عنه للسائل»؛ أي «جواب المفتي»، و «الإفتاء: بيان حكم الواقع المسؤول عنه»، فالإفتاء هو عمل المفتي، والفتوى هو ما يصدر عن المفتي.

والغالب أن الحكم الشرعي هو الحكم المتعلق بأفعال العباد على وجه العموم من غير التفات إلى واقع معين يرتبط به الحكم، كالقول بوجوب الصلاة وحرمة شرب الخمر وهكذا.

والغالب أن الفتوى هي ما كانت مرتبطة بواقع ما، فالفتوى على ذلك هي تطبيق الحكم الشرعي على الواقع، وإن كان في بعض الأحيان يأتي أحدهما بمعنى الآخر فهما مرتبطان، ولا تكون الفتوى صحيحة إلا إذا كان الحكم الشرعي منطبقا على الواقع انطباقا صحيحا، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعلام الموقعين (١/ ٨٧) في بيان علاقة الفتوى بالحكم الشرعي: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم.

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر» ا. هـ

وعندما استفتي شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥١١) في قتال التتار بين ذلك الارتباط وأفتى بقوله: «نعم يجب قتال هؤلاء، بكتاب الله وسنة رسوله واتفاق أئمة المسلمين، وهذا مبني على أصلين: أحدهما المعرفة بحالهم، والثاني: معرفة حكم الله في مثلهم» ا. هـ

ومن البين هنا أن الفتوى قد تدخل فيها أو ترتبط بها عدة عوامل، وبالتالي فإن

=

=

الفتوى تكون مرتبة عليها، وقد يحدث أن يستفتى المفتي في واقعة قد اجتمعت لها كل عواملها، فيفتي بالحكم الشرعي الذي ينطبق عليها، ثم تأتي واقعة أخرى مشابهة لها في الظاهر، لكن بينهما فرق مؤثر في الحقيقة نتيجة غياب بعض تلك العوامل أو وجود عوامل أخرى؛ فيفتي المفتي بحكم شرعي مناسب للحالة الجديدة، وهو بطبيعة الحال مغاير للفتوى الأولى، ومن هذا الوجه ونحوه على ما يأتي تفصيله -إن شاء الله - قال من قال من أهل العلم بـ «تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد»، فأخذت هذه الكلمة وأضرابها طائفة من المعاصرين وطاروا بها في كل حدب وصوب، وصاحوا بها في كل واد وناد، يرومون تغيير الشريعة وأحكامها إرضاء وتجاوبا مع الأهواء مما لا يحبه الله ورسوله، بل صارت عمدة من عمد الذين يريدون تحريف الدين تحت ما يزعمونه من ضرورة «تجديد الخطاب الديني».

مع إغفال ثبات الأحكام الشرعية.

أدلة ثبات الأحكام الشرعية:

والمراد بالثبات هنا بقاء الحكم الشرعي على ما هو عليه ودوامه وعدم تغيره لا بزمان ولا بمكان ولا بغير ذلك، والأدلة على ذلك كثيرة كما قدمنا، فمنها:

١ - قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} (المائدة: ٣)، فالدين قد كمل، والنعمة تمت، والتغيير فيما قد كمل نقص، وما لم يكن يومئذ دينا فلن يكون بعد دينا، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي يلزم عنه عدم التصديق بأن الله أكمل الدين، وهو في الوقت نفسه رفض لنعمة الله التي أتمها علينا.

٢ - قوله تعالى: {وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا} (الأنعام: ١١٥)، قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ -: «أي صدقا في الأخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي»، والحكم

=

=

الشرعي هو في باب الأمر والنهي، وحيث تغير العدل كان الظلم.

٣ - قوله تعالى: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} (المائدة: ٤٩).

ففي هذه الآية ثلاثة أمور:

١ - الأمر بالحكم بما أنزل الله (الشريعة).

٢ - بيان أن ترك الحكم بها إنما هو اتباع للأهواء.

٣ - بيان أن من الفتنة ترك بعض الشريعة.

وهذا الأمر للنبي ﷺ، وأمته من بعده، فكلهم مخاطب به، ولا شك أن القول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد للحكم بغير ما أنزل الله، ومؤد لترك بعض الشريعة، وهذا اتباع للهوى ووقوع في الفتنة، ولا يسلم المرء من ذلك إلا بالقول بثبات الحكم الشرعي وعدم تغييره.

٤ - قوله تعالى: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا} (الإسراء: ٧٣)، وهو يبين أن تغيير الحكم الشرعي إنما هو من الافتراء على الله ﷻ، والافتراء على الله لا يجوز عند أحد من المسلمين، فظهر من ذلك أن تغيير الحكم الشرعي أو القول بجواز ذلك محرم لا يجوز القول به ولا الإقدام عليه، وهذه الآية تدل على مدى حرص الكفار ورغبتهم في تغيير الحكم الشرعي، حتى إنهم ليتخذون من يفعل ذلك أو يقوم به «خليلا»، والخلة أعلى درجات المحبة، قال ابن جرير - رحمه الله -: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن نبيه ﷺ أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله».

٥ - قال الله تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} (المائدة: ٤٤). وقال: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} (المائدة: ٤٥).

=

=

وقال: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} (المائدة: ٤٧). فبين الله تعالى أن من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، ومن قال بجواز تغيير الحكم الشرعي، فهو إما حاكم بغير ما أنزل الله وإما مجوز لذلك.

٦ - قال الله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} (الأنعام: ١٥٣). فمن لم يتبع صراط الله المستقيم (الكتاب والسنة) اتبع سبل الشيطان، ولا يمكن للمرء أن يتبع الكتاب والسنة مع القول بعدم ثبات الحكم الشرعي وجواز تغييره.

٧ - قال الله تعالى: {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون} (الأعراف: ٣)، فأمر الله الناس أن تتبع ما أنزل إليها من ربها خالقها ورازقها، وبين أن من اتبع غير ذلك فقد اتبع أولياء من دونه، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد لاتباع الأولياء من دون الله. ثم تهدد الله وتوعد من يتبع الأولياء من دونه، فقال عقيب الآية المتقدمة: {وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون} (الأعراف: ٤).

٨ - قال الله تعالى: {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون} (الجاثية: ١٨)، فأمر رسوله ﷺ باتباع الشريعة التي أوحاها إليه، وبين أن ترك شيء من هذه الشريعة إنما هو اتباع لأهواء الذين لا يعلمون، ولا يمكن اتباع الشريعة كاملة مع القول بعدم ثبات الأحكام الشرعية أو بعضها وجواز تغييرها، ثم بين الله تعالى أن هؤلاء الداعين إلى ترك اتباع الشريعة بتغيير الحكم الشرعي ظالمون، وأنهم لن يغنوا عن أحد شيئا أو يدفعوا عنه شيئا من عذاب الله، فقال تعالى عقيب الآية المتقدمة: {إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين} (الجاثية: ١٩).

٩ - قال تعالى: {سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من

=

=

بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب} (البقرة: ٢١١)، فقد توعد الله سبحانه وتعالى بالعقاب الشديد من يبدل نعمته التي أنعمها على العباد، والأحكام الشرعية التي باتباعها استقامة العباد وصلاح الدنيا، والنجاة من النار والفوز بالجنة من أجل النعم التي أنعم الله بها، والقول بعدم ثبات الحكم الشرعي وجواز تغييره هو من تبديل نعمة الله.

١٠ - قال الله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} (يونس: ١٥).

وفي هذا من الدلالة على رغبة الكفار في أن يقع المسلمون في تغيير الأحكام الشرعية أو تبديل الوحي المنزل، وقد بينت الآيات أنه ليس لأحد ولو كان رسول الله ﷺ أن يغير الحكم الشرعي من تلقاء نفسه، بل عليه أن يتبع الأحكام الشرعية التي يوحيها الله إليه؛ لأن من فعل ذلك فقد عرض نفسه للعذاب العظيم، قال القرطبي رحمه الله في تفسيره (٨/ ٣١٩): «إني أخشى من الله إن خالفت أمره وغيرت أحكام كتابه وبدلت وحيه فعصيته بذلك عذاب يوم عظيم هوله». والآيات في ذلك أكثر من أن تحصر، ولو ذهبنا نتتبعها لطال بنا المقام.

وقد دلت السنة على ما دل عليه القرآن في ذلك، فمن السنة:

١ - قوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، أي مردود عليه، والقول بتغيير الحكم الشرعي إحداث في الدين لم يأت به كتاب ولا سنة، ولا أثر عن أصحاب رسول الله ﷺ، فهو مردود على صاحبه.

٢ - قوله ﷺ: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة).

فبين الرسول ﷺ أن النجاة في اتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين الذين

=

=

اتبعوه وساروا على سنته، وأمر أن يعض على ذلك بالنواجذ تمسكا بها، وعدم الحيد عنها قيد أنملة، وحذر من محدثات الأمور، وبين أن المحدثات في الدين ضلالة، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي يخالف كل ذلك، فهو يخالف التمسك بالسنة ويوقع في المحدثات.

٣ - قوله ﷺ: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي» فمن تمسك بالكتاب والسنة لم يضل أبدا، والمفهوم من ذلك أن من لم يتمسك يضل، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد لعدم التمسك بالكتاب والسنة أو ببعضها الذي تغير، والأدلة على ذلك من السنة كثيرة أيضا.

وبالنظر إلى أصول الفقه نجد أن علماء أصول الفقه يعرفون الحكم الشرعي بأنه «خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد أمرا أو نهيا أو تخييرا أو وضعا» وخطاب الشارع هو الكتاب والسنة، والقول بأنه يمكن تغيير الحكم الشرعي مكافئ للقول بإمكانية تغيير خطاب الشارع، وخطاب الشارع لا يملك أحد من البشر أن يغيره، وبالتالي فمن غير المستطاع القول بجواز تغيير الحكم الشرعي، ومن وجهة نظر ثانية فإن القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان هو نسخ للحكم الشرعي، هذا هو معنى النسخ عند الأصوليين، فالنسخ يراد به عندهم «رفع الحكم الشرعي بخطاب» أو «رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر» ونحو ذلك، فمضمون النسخ على ذلك هو تغيير الحكم الشرعي الثابت وإلغاء الحكم الشرعي القائم واستحداث حكم جديد، لكن النسخ لا يكون إلا من الله تعالى أو من رسوله ﷺ، وهو ما يعني أن النسخ قد انقطع بموت رسول الله ﷺ، فعلى ذلك الأحكام الشرعية ثبتت على ما مات عليه رسول الله ﷺ، وقد بين الرسول ﷺ أنه يدعو يوم القيامة على من بدل شيئا من الدين بعده فقال ﷺ: (ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقا

=

=

سحقا)، وفي رواية: «سحقا حقا لمن بدل بعدي»، والقائل بجواز تغيير الحكم الشرعي لا شك أنه داخل في هذا الحديث، نسأل الله السلامة.

وقد بين شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٣/ ٩٤) أن من يجوز النسخ بعد موت رسول الله ﷺ فهو «يجوز تبديل المسلمين دينهم بعد نبيهم، كما تقول النصارى أن المسيح سوغ لعلمائهم أن يحرموا ما رأوا تحريمه مصلحة، ويحلوا ما رأوا تحليله مصلحة، وليس هذا دين المسلمين ا. هـ

وبالجملة فإن الأدلة على بطلان القول بتغيير الأحكام بتغير الزمان كثيرة جدا، وفيما تقدم من الأدلة كفاية إن شاء الله.

قال الشاطبي في الموافقات (١/ ٧٨، ٧٩) في بيان ثبات الأحكام الشرعية وعدم تغييرها: «فلذلك لا تجد فيها بعد كمالها نسخا، ولا تخصيصا لعمومها، ولا تقييدا لإطلاقها، ولا رفعا لحكم من أحكامها، لا بحسب عموم المكلفين، ولا بحسب خصوص بعضهم، ولا بحسب زمان دون زمان ولا حال دون حال، بل ما أثبت سببا فهو سبب أبدا لا يرتفع، وما كان شرطا فهو أبدا شرط، وما كان واجبا فهو واجب أبدا أو مندوبا فمندوب، وهكذا جميع الأحكام فلا زوال لها ولا تبدل، ولو فرض بقاء التكليف إلى غير نهاية لكانت أحكامها كذلك» ا. هـ

إن القول بثبات الحكم الشرعي وعدم إمكانية تغييره من قبل أحد كائنا من كان إضافة إلى أنه الحكم الذي دلت عليه الأدلة كما تقدم؛ يمثل ضمانة من أهم ضمانات استقرار أحوال الأمة، واستتباب الأمن فيها، ومنع الاستبداد، ولقد أدرك أصحاب القوانين الوضعية أهمية الثبات وأثره في أمن المجتمع واستقراره فقالوا بثبات الدساتير، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا لأنها من صنع البشر.

وإذا تقدم هذا فإنه من غير المقبول أن نجد من بين المعاصرين من يقسم الأحكام الشرعية إلى قسمين: أحدهما ثابت، والآخر متغير، ويعرف المتغير بأنه «موارد

=

=

الاجتهاد وكل ما لم يقم عليه دليل قاطع من نص صحيح أو إجماع صريح»، فهذا قول غير صحيح لأنه مخالف للدليل، ولم ينقله قائله عن أحد من أهل العلم المعروفين السابقين على امتداد أجيال الأمة التي بلغت أربعة عشر قرنا وربعا من الزمان وعلى اتساع مذاهبها الفقهية وتنوعها.

قال الدكتور بكر أبو زيد في المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد (١/ ٨٤): (حصل من بعض المعاصرين خَطأ في قوله: تغير الأحكام فالحكم ثابت لا يتغير وإنما الفتوى به حسب المقتضى الشرعي، كما في سهم المؤلفة قلوبهم. والله أعلم).

❋ مفاسد القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان:

ويترتب على القول بجواز تغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان مفاسد كثيرة من أبرزها:

١ - اتخاذ الأولياء من دون الله، وهم المشرعون الذين يشرعون الحكم الجديد.

٢ - القول بقصور الشريعة وعدم صلاحية أحكامها لعموم الزمان والمكان.

٣ - تغيير وتبديل الدين بمرور الزمن.

٤ - عدم استقرار أحوال الأمة، وزوال الأمن، وشيوع الظلم والاستبداد.

الشبهة في القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان:

القائلون بتغيير الأحكام الشرعية بتغير الزمان لا يتعلقون في ذلك بنص سواء كان من القرآن أو من السنة، فليس عندهم أدلة على ذلك، فكل ما عندهم في ذلك كلمات لبعض أهل العلم من مثل «تغير الفتوى بتغير الزمان» ونحوها، وهم طوائف: طائفة اشتبه عليها ذلك ولم تدرس الأمر دراسة واعية وظنت هذا أمرا مشروعا. وطائفة مناوئة للدين وجدت في هذه الشبهة بغيتها في نفث سمومها والسعي في إطفاء نور الله الذي لا يطفأ، فأخذت تنشر هذا وتضخمه وتؤكد عليه،

=

=

وأصبح مثل هذا الكلام أداة كبيرة في أيدي الدعاة إلى تحريف الدين باسم تجديد الخطاب الديني. وطائفة مهزومة أمام الفكر الغربي المعاصر، وجدت في ذلك القول مخرجا ووسيلة للتوفيق بين ذلك الفكر وبين أحكام الشريعة.

والحق يتبين في ذلك من خلال الحديث عن ضوابط تغير الفتوى وهي:

١ - اختلاف العوائد والأعراف: من الأمور التي تتغير بسببها الفتوى تغير العوائد والأعراف التي تبنى عليها الفتوى، سئل الإمام القرافي كما في الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، (ص١١١، ١١٢) عن الأحكام المدونة في الكتب المرتبة على العوائد والأعراف التي كانت موجودة زمن جزم العلماء بهذه الأحكام، هل إذا تغيرت العوائد وصارت لا تدل على ما كانت تدل عليه أولا، هل يفتي بما تدل عليه العوائد والأعراف الجديدة، أو يفتي بما هو مدون في الكتب؟

فأجاب - رَحِمَهُ اللهُ - بقوله: «إن إجراء الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد، خلاف الإجماع وجهالة في الدين، بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة»، ثم شرع يفصل فقال: «ألا ترى أنهم لما جعلوا أن المعاملات إذا أطلق فيها الثمن يحمل على غالب النقود، فإذا كانت العادة نقدا معينا حملنا الإطلاق عليه، فإذا انتقلت العادة إلى غيره عينا ما انتقلت العادة إليه، وألغينا الأول لانتقال العادة عنه»، إلى أن يقول: «بل ولا يشترط تغيير العادة، بل لو خرجنا نحن من تلك البلد إلى بلد آخر عوائدهم على خلاف عادة البلد الذي كنا فيه، وكذلك إذا قدم علينا أحد من بلد عادته مضادة للبلد الذي نحن فيه؛ لم نفته إلا بعادته دون عادة بلدنا، ومن هذا الباب ما روي عن مالك: إذا تنازع الزوجان في قبض الصداق بعد الدخول؛ أن القول قول الزوج مع أن الأصل عدم القبض، قال القاضي إسماعيل: هذه كانت عادتهم بالمدينة أن الرجل لا يدخل بامرأته حتى تقبض جميع صداقها، واليوم

=

=

عاداتهم على خلاف ذلك، فالقول قول المرأة مع يمينها لأجل اختلاف العوائد، وينبغي أن يعلم أن معنى العادة في اللفظ أن ينقل إطلاق لفظ واستعماله في معنى حتى يصير هو المتبادر من ذلك اللفظ عند الإطلاق مع أن اللغة لا تقتضيه، فهذا هو معنى العادة في اللفظ، وهو الحقيقة العرفية، وهو المجاز الراجح في الأغلب، وهو معنى قول الفقهاء إن العرف يقدم على اللغة عند التعارض، وكل ما يأتي من هذه العبارات».

وقد نقل علاء الدين الطرابلسي الحنفي كلام القرافي وأقره كما في معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام (ص ١٢٩)

ومن بعد القرافي قال ابن القيم إعلام الموقعين (٣/ ١٤): «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد» ا. هـ

وهنا يظهر أمران:

الأول: أن الفتوى هي التي تتغير وليس الحكم الشرعي.

الثاني: أن الفتوى التي تتغير يكون حكمها الشرعي مرتبا على العوائد والأعراف.

ومن الأمثلة التي يذكرها الفقهاء على ذلك: ما يخرج في صدقة الفطر، فإن الحديث جاء بإخراج صاع من تمر أو شعير أو زبيب أو أقط، فرأى العلماء أن هذه الأقوات كانت هي غالب القوت عندما قال رسول الله ﷺ ذلك الحديث في ذلك الزمان، فكأنه قال: أخرجوا صاعا من غالب قوت البلد التي أنتم فيها، وعلى ذلك أفتى العلماء بجواز إخراج صاع من الأرز والذرة ونحوه إذا كان هذا هو غالب قوت البلد في زمنهم، فبالنظر المجرد إلى الفتوى بجواز إخراج الأرز والذرة يقول القائل: قد حدث تغير في الحكم، وبالنظر إلى حقيقة الأمر وأن المطلوب هو إخراج الصاع من غالب قوت البلد، فليس هناك تغير في الحكم الشرعي، كل ما هنالك أن الذي تغير هو غالب قوت البلد، والحكم باق على ما هو عليه، وهذا

=

=

المثال ونحوه قد ينظر إليه على أنه تغير للفتوى بتغير الزمان، والحقيقة أن الزمن بمجرده ليس مسوغا لتغيير الفتوى لأن هذا هو النسخ الذي لا يملكه أحد إلا الشارع وإنما نسب التغيير لتغير الزمان في كلام بعض أهل العلم؛ لأن الزمان هو الوعاء الذي تجري فيه الأحداث والأفعال والأحوال، وهو الذي تتغير فيه العوائد والأعراف، فنسبة تغير الفتوى لتغير الزمان من هذا الباب، وإلا لو ظل العرف كما هو عدة قرون لم يكن أحد مستطيعا أن يغير الفتوى.

ومن الأمثلة: (ما كان عند الفقهاء المتقدمين أنه إذا اشترى أحد دارا اكتفى برؤية بعض بيوتها [غرفها]، وعند المتأخرين لا بد من رؤية كل بيت منها على حدته، وهذا الاختلاف ليس مستندا إلى دليل، بل هو ناشئ عن اختلاف العرف والعادة – في أمر الإنشاء والبناء، وذلك أن العادة قديما في إنشاء الدور وبنائها أن تكون جميع بيوتها متساوية وعلى طراز واحد، فكانت على هذا رؤية بعض البيوت تغني عن رؤية سائرها، وأما في هذا العصر فإذ جرت العادة بأن الدار الواحدة تكون بيوتها مختلفة في الشكل والحجم لزم عند البيع رؤية كل منها على الانفراد).

ومن الأمثلة: (لفظ: الحرام، والخلية، والبرية، وحبلك على غاربك، ووهبتك لأهلك، ألفاظ كانت تستعمل في أعراف وعادات القدماء – كمالك رَحِمَهُ اللَّهُ – للدّلالة على الطّلاق الثّلاث بدون نيّة، ولكن الآن قلّ مَن يستعمل هذه الألفاظ للتّطليق، ولذلك لا بدّ من النّيّة وأن يُسأل المتكلّم بأحدها ماذا أراد بها؟).

٢ – وجود السبب وتحقق الشرط وانتفاء المانع أو عدم بعض ذلك: من المعلوم أن الأحكام مرتبة على وجود سببها، فإذا وجد سبب الحكم وتحقق شرطه وانتفى المانع، انطبق الحكم على الواقع، فإذا تخلف أحد الشروط أو وجد أحد الموانع انطبق حكم آخر على الواقع، والناظر من بعيد يرى أن الواقعتين متشابهتان، ولهما

=

حكمـان متغـايران، فـيظن أن الحكـم قـد تغيـر، والحقيقـة أن الـواقعتين وإن كانتـا متـشابهتين لكنهمـا غيـر متمـاثلتين، فهمـا واقعتـان مختلفتـان لكـل منهمـا حكـم يخصها، ونضرب مثلا لذلك، لـو أن رجـلا ملـك نـصاب الزكـاة، ثـم اسـتفتى أهـل العلـم عـن وجـوب إخـراج الزكـاة؛ فـإن المفتـي يـسأله: هـل حـال علـى الـنصاب الحول؟ فلو قال: نعم. وسأله: هل عليك دين؟ فقال: لا، هنا يجيبه المفتي بقولـه: نعم تجب عليك الزكاة. ويحـدد لـه المقـدار الواجـب إخراجـه حسب نـوع المـال الذي يملكه، فلو بعد فترة من الزمان جاءه الرجـل نفـسه وسـأله: هـل علـي زكـاة؟ فإذا سأله المفتي: هل عليك دين؟ وقال: نعم، علي دين يستوعب أكثر مـالي حتـى لا يبقى منه قدر النصاب. هنا يقول المفتي: ليس عليك زكاة.

والرائي غير المتبصر يرى أن الحكـم تغيـر، والأمـر لـيس كـذلك، فالحالـة الأولـى وجد السبب وتحقق الشرط وانتفـى المـانع، وأمـا الحالـة الثانيـة فقـد وجـد المـانع وهـو الـدين، فهنـا حالتـان مختلفتـان، لكـل حالـة حكـم في الـشرع، ولـيس في هـذا اختلاف، وفي مثـل هـذا يقـول الـدكتور عابـد الـسفياني كمـا في الثبـات والـشمول في الشريعة الإسلامية، (ص ٤٤٩، ٤٥٠): «إن تلك الواقعة التي تغير حكمها؛ إمـا أن تكون هي هي عند تغير الحكم بجميع خصائـصها والحيثيـات التـي تكتنفهـا، وإمـا أن تختلـف في بعـض خصائـصها وحيثياتهـا، فـإن كانـت الأولـى فـنحن ننـازع أشـد المنازعة في تغيـر حكمهـا؛ لأن ذلـك هـو النـسخ والتبـديل المنهـي عنـه كمـا سـيأتي بيانه، وإن كانت الثانية فليست في موضع النـزاع؛ لأنهـا حينئـذ حادثتـان، وحادثتـان متميزتـان مـن حيـث خصائـصهما والاعتبـارات التـي تحفهمـا لهمـا حكمـان لـيس غريبا ولا عجيبا، ولا يقال له تغير ولا تبدل» ا. هـ

وبالمثل لو أن شخصا سرق ثم تبين أن شروط إقامة الحد غير مستوفاة، فلم يحكم عليه القاضي بالقطع، فإنه لا يقال هنا قد تغير الحكم ولكن شروط إقامة الحد هي

=

التي لم تكتمل، وهذا هو الذي حدث في عهد عمر رضي الله عنه عام المجاعة عندما قحط الناس، وتعرضوا للهلاك بسبب الجدب، أصبح كثير ممن يسرق إنما يسرق لاضطراره إلى ذلك ليدفع عن نفسه الهلاك، وهذه حالة تدرأ عن صاحبها الحد، ونظرا لأن الأمر كان منتشرا واختلط من يسرق للضرورة ومن يسرق لغير ذلك ولم يمكن تمييزهما من بعض، فصار ذلك شبهة درأ بها عمر رضي الله عنه الحد في عام المجاعة، فلله دره! ما أفقهه وما أعلمه، ولما زالت المجاعة زالت الشبهة فكان من يسرق يقام عليه الحد، فليس في هذا أيضا تغيير للحكم الشرعي؛ لأن ما فعله عمر رضي الله عنه في عام المجاعة كان هو الواجب في مثل تلك الحالة.

٣ - الضرورة الملجئة: هناك أحوال اضطرار يقع فيها العبد المسلم مما يكون معه مضطرا لفعل ما حرم الله، ومن رحمة الله بالعباد أنه في هذه الأحوال لم يجعل عليهم إثما فيما فعلوه، والناظر غير المتبصر يظن أن الحكم اختلف، وهما في الحقيقة حالان مختلفان، لكل حال حكم، فحال الاختيار له حكم، وحال الاضطرار له حكم، وحالان مختلفان لهما حكمان متغايران لا يقال له تبدل ولا تغير، ولنضرب المثل لذلك، من المعلوم أن الله حرم أكل الميتة، فيحرم على العباد أكل لحوم الميتات (إلا ميتة البحر)، فمن أكل منها يقال له: هذا حرام، وقد فعلت ما يستوجب عقاب الله، فلو تغير حال أحد الناس وصار في حالة اضطرار بحيث إذا لم يأكل من الميتة هلك؛ هنا يصدق عليه وصف المضطر، وهنا يباح له الأكل من الميتة، والحكم تغير هنا في الظاهر، ولكن في الحقيقة الحكم لم يتغير، وإنما الذي تغير هو الحال التي ترتب عليه الحكم، ومن أمثلة ذلك ما حصل من غلمان حاطب الذين سرقوا ناقة، ولم يقطعهم عمر، فإنه أحضر عبد الرحمن بن حاطب وقال له: «والله! لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له؛ لقطعت أيديهم»، فهذا يبين أن عمر رأى

=

=

أن هؤلاء في حالة اضطرار تدرأ عنهم الحد، وأن عقوبتهم القطع لو كانوا غير مضطرين، وقد عاقب عمر حاطبا على ذلك وأضعف عليه الغرم.

٤ - تغير الوصف أو الاسم: هناك أحكام رتبت على أوصاف أو أسماء، فإذا تغيرت تلك الأوصاف أو الأسماء تغير الحكم تبعا لذلك. مثال: رجل تزوج امرأة، حل له منها ما يحل للرجل من امرأته، فلو طلقها حرم عليه منها ما كان حلالا له، هنا تغيرت صورة الحكم لأن ما كان حلالا جائزا للرجل تغير وصار حراما، وفي الحقيقة فإن المتغير هو الصفة أو الاسم وليس الحكم الشرعي؛ إذ الحكم باق على ما هو عليه، وهو أن الرجل تحل له زوجته، وأن الرجل تحرم عليه غير زوجته.

ومن أمثلة تغير الاسم أو الوصف الدال على تغير الحقيقة، تغير الخمر بحيث تصير خلا، فالخمر من أحكامها النجاسة، فإذا تغيرت حقيقة السائل المسكر وصار خلا، فقد تغير وصف السائل وتغير اسمه وصار خلا، والخل ليس بنجس (سواء قلنا بجواز تخليل الخمر أم لا)، وحكم الخمر لم يتغير، وإنما الخمر نفسها هي التي تغيرت.

وكمثال على ذلك أيضا أمر الله تعالى بصرف الزكاة إلى مستحقيها بقوله: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم} (التوبة: ٦٠). فالله بعلمه وحكمته وزع الزكاة على هذه الأصناف الثمانية، فإذا كان عام ولم نجد فقيرا يستحق الزكاة فمنعنا سهم الفقراء لعدم وجودهم، فهذا لا يعد تغييرا، وإنما فقدنا المستحق، وكذلك إذا كان فلان من الناس يعطى من الزكاة لأنه فقير، ثم وسع الله عليه وصار غنيا ومنعنا عنه الزكاة فلا يقال إن الحكم تغير، بل صفة هذا الشخص التي يستحق عليها الزكاة هي التي تغيرت، وهكذا فعل عمر

=

=

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سهم المؤلفة قلوبهم، فالمؤلفة قلوبهم هم من يعطون من الصدقات لأجل تألف قلوبهم على الإسلام، أو لأجل ضعف المسلمين حتى يأمن المسلمون شرهم، فهو حكم معلق على وصف وليس على أشخاص بأعيانهم، فإذا تحقق هذا الوصف في شخص أو عدة أشخاص فأعطيناهم سهم المؤلفة قلوبهم، ثم جاء العام الذي يليه وقد فقدوا وصف المؤلفة (كأن حسن إسلامهم، أو قوي المسلمون فلم يعد بهم ضعف) فمنعنا عنهم سهم المؤلفة قلوبهم؛ فليس في هذا تغير للحكم، وإنما الذي حدث أن هؤلاء الأشخاص استحقوا السهم في المرة الأولى لانطباق الوصف عليهم وليس لأشخاصهم، ثم فقدوا الوصف في العام الذي يليه، ففقدوا ما كان مترتبا على الوصف، وهذا إعمال للحكم الشرعي وليس تغييرا له.

٥ – تدافع المأمورات أو المنهيات: قد يكون هناك أمران مطلوب تحصيلهما ولكن لا يمكن تحصيل أحدهما إلا بتفويت الآخر، فهما على ذلك متدافعان، كما أنه قد يكون هناك أمران مطلوب اجتنابهما ولا يمكن اجتناب أحدهما إلا بفعل الآخر، فهنا تحصل أعظم المصلحتين، وتدفع أقبح المفسدتين، فمثلا: الشهادة يطلب فيها العدول، فإذا لم نجد العدول صرنا بين أمرين: إما ضياع الحقوق، وإما قبول شهادة غير العدول، أمران أحلاهما مر، وقد أفتى أهل العلم في مثل ذلك أن لكل قوم عدولهم، وعلى القاضي أن يتوسم فيهم ويقبل أكثرهم صلاحا وأقلهم فجورا، فقد ينظر هنا إلى أن هذا من قبيل تغيير الحكم، وذلك بقبول شهادة من لا يعرف بعدالة، والحقيقة أن هذا من باب التعارض وأنه لا يمكن تحصيل أحدهما إلا بتفويت الآخر، وهي فتوى وليست حكما، وهي فتوى خاصة بمثل هذه الحالة؛ بمعنى أنه إذا وجد العدول في هذا المكان لم تقبل شهادة غيرهم.

قال علاء الدين الطرابلسي الحنفي في معين الحكام (ص ١١٧): «قال القرافي في

=

=

باب السياسة: نص بعض العلماء على أنه إذا لم نجد في جهة إلا غير العدول؛ أقمنا أصلحهم وأقلهم فجورا للشهادة عليهم، ويلزم ذلك في القضاة وغيرهم لئلا تضيع المصالح، قال: وما أظن أحدا يخالف في هذا، فإن التكليف شرط في الإمكان، وهذا كله للضرورة لئلا تهدر الأموال وتضيع الحقوق، قال بعضهم: وإذا كان الناس فساقا إلا القليل النادر قبلت شهادة بعضهم على بعض، ويحكم بشهادة الأمثل فالأمثل من الفساق، هذا هو الصواب الذي عليه العمل، وإن أنكره كثير من الفقهاء بألسنتهم».

٦ - وجود العارض وزواله: قد يكون هناك شيء محبوب شرعا لكن يخشى من فعله أن يترتب عليه تكليف قد لا يقوم به الناس، فيترك هذا الشيء لذلك العارض، فإذا زال العارض رجع الأمر إلى حاله الأولى، وقد يظن أن هذا تغيرا للحكم وإنما هو من باب زوال العارض، مثال ذلك امتناع الرسول ﷺ عن قيام الليل في رمضان في المسجد بعدما فعل ذلك عدة ليال، وذلك خوفا من أن يفرض قيام الليل على المسلمين رحمة منه ﷺ بالمسلمين، فلما زال هذا الأمر بوفاة الرسول ﷺ وأمن عدم فرض قيام الليل؛ جاز الاجتماع في المسجد في رمضان لقيام الليل، وليس في هذا تغيير للحكم الشرعي.

٧ - تغير الآلات والوسائل: هناك من الأحكام الشرعية ما يكون تنفيذها عن طريق آلة أو وسيلة، والشريعة لم تحدد في كثير من الأمور الآلات والوسائل التي يتحقق بها الحكم الشرعي، بل تركتها ليختار المسلمون في كل زمان ومكان ما هو أنفع لهم وأصلح وأفضل في تنفيذ الحكم الشرعي؛ إذ ربما لو ألزم المسلمون بآلة أو وسيلة معينة لتعسر عليهم ذلك، ووجدوا في ذلك من المشقة والحرج الشيء الكثير لا سيما أن الوسائل والآلات تتعدد وتتباين، وقد يكون بعضها ميسرا وبعضها غير ذلك، وقد يختلف العسر واليسر بالنسبة للآلة أو الوسيلة نفسها

=

=

باختلاف الزمان والمكان، والله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، فله الحمد والمنة، مثال ذلك: أمر الله تعالى المسلمين بالجهاد في سبيله وقال: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} (الأنفال: ٦٠)، وقد كانت القوة المستطاعة في ذلك الزمان هي السيف والرمح والترس ونحو ذلك، فإن المفتي والعالم في ذلك الزمان: يقول يجب على المسلمين إعداد السيوف والرماح والحراب وما أشبه ذلك، ثم بعد الزمن المتطاول الذي أوصل إلى عصرنا يقول المفتي والعالم الآن يجب على المسلمين إعداد المدفع والدبابة والصاروخ والطائرة، ولا يجب إعداد السيف ولا الرمح ولا الحربة، فقد وجب اليوم ما لم يكن قبل واجبا، وسقط وجوب ما كان قبل واجبا، وهذا قد ينظر إليه على أنه تغير في الحكم الشرعي، والحقيقة أن الحكم لم يتغير؛ لأن الحكم الشرعي هو وجوب إعداد القوة المستطاعة، وكانت القوة المستطاعة في الزمن الأول: السيف والرمح ونحوه، وصارت اليوم المدفع والصاروخ، ونحوه، وقد تكون بعد فترة من الزمن شيئا آخر فالحكم الشرعي لم يتغير، وإنما الذي تغير هو الآلة أو الوسيلة التي يتحقق بها الحكم الشرعي في الواقع، وهذه الآلات والوسائل والأساليب المستجدة، لا يكفي فيها أن تكون محققة للحكم الشرعي بل هي محكومة بشروط هي:

١ - ألا تعارض قاعدة كلية من قواعد الشريعة.

٢ - ألا تخالف دليلا من أدلة الشرع التفصيلية.

٣ - ألا يترتب عليها مفسدة تربو على المصلحة المتحصلة منها.

من كل ما تقدم يتبين أن مسألة تغير الفتوى ليست مسألة متعلقة بالزمان المجرد، أو المكان المجرد، وكأن الزمان والمكان هما سبب تغيير الفتوى، ولكن لما كان الزمان والمكان أوعية للأحداث والأفعال والتغيرات والعوائد والأعراف نسب التغير للزمان والمكان، وهذا يطلق عليه في عرف البلاغيين مجاز مرسل علاقته

=

=

الظرفية، وقد تبين بما تقدم أيضا أن الموضوع منضبط وله قواعد تحكمه، وليس هو مجرد استجابة أو إذعانا لضغط الواقع، وهذه الأمثلة المتقدمة يمكن أن تندرج تحت قسمين كبيرين:

الأول: فتاوى مؤسسة من أول أمرها على العرف أو المصلحة المرسلة، ثم يتغير العرف أو المصلحة بتغير الزمان والمكان، فتتغير الفتوى تبعا لذلك.

الثاني: فتاوى مؤسسة على نصوص، لكن هذه النصوص كانت معللة بعلة أو راعت عرفا قائما، أو كانت مرتبة على صفة أو مقيدة بحالة ونحو ذلك، فإذا زالت العلة أو تغير العرف أو الصفة أو الحالة؛ فإن الفتوى تتغير أيضا لذلك.

ويمكننا أن نلاحظ مما تقدم عدة أشياء:

١ - أن عملية تغير الفتوى بتغير ما هي مرتبة عليه؛ إنما هي عملية تهدف إلى إبقاء الأمور تحت حكم الشريعة، وإن تغيرت صورتها الظاهرة، وهي ليست خروجا على الشريعة واستحدثا لأحكام جديدة.

٢ - أن التغير في الفتوى هو تغير خاص من حيث الزمان والمكان والشخص، حيث تتغير فقط بالنسبة للزمان أو المكان أو الشخص الذي تغيرت في حقه مسوغات الفتوى، وهذا معناه أن الأمور تكون باقية على ما هي عليه في بقية الأماكن والأزمان والأشخاص.

٣ - أن أهل العلم عندما قالوا بمراعاة الأحوال والعوائد ونحوها؛ إنما قالوا ذلك حتى لا يقعوا في الظلم: إما ظلم العباد بإلزامهم بما لم يلزمهم به الشرع، وإما ظلم أنفسهم بالخطأ على الدين.

٤ - أن الذي يقول في حق هذه العوائد والأعراف إنها تغيرت وبالتالي تتغير الفتوى المرتبة عليها؛ إنما هم أهل العلم والمعرفة بالشرع، وليس أهل الهوى والجهل.

=

=

٥ - أن العرف الذي تتغير به الفتوى ليس هو العرف الحاصل من وقوع الناس في مخالفة الشرع، فإذا صار من عرف الناس اليوم في بعض البلدان خروج المرأة كاشفة صدرها ونحرها، وكذلك إذا صار من عرف الناس التعامل بالربا في البنوك الربوية؛ فإن هذا العرف لا تتغير به الفتوى؛ لأنه عرف قائم على مخالفة الشرع فلا يعتد به؛ إذ العرف الذي يعتد به هو ما لم يكن مخالفا للشرع.

ونختم ببعض النقول عن أهل العلم في هذه المسألة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٩٦): «ليس لأحد أن يغير شريعته التي بعث بها رسوله، ولا يبتدع في دين الله ما لم يأذن به».

وقال شيخ الإسلام أيضا في مجموع الفتاوى (٣٣/ ٩٤): وكنا نتأول كلام هؤلاء على أن مرادهم أن " الإجماع " يدل على نص ناسخ، فوجدنا من ذكر عنهم: أنهم يجعلون الإجماع نفسه ناسخا! فإن كانوا أرادوا ذلك: فهذا قول يجوز تبديل المسلمين دينهم بعد نبيهم، كما تقول النصارى من: أن المسيح سوغ لعلمائهم أن يحرموا ما رأوا تحريمه مصلحة، ويحلوا ما رأوا تحليله مصلحة، وليس هذا دين المسلمين، ولا كان الصحابة يسوغون ذلك لأنفسهم، ومن اعتقد في الصحابة أنهم كانوا يستحلون ذلك: فإنه يستتاب، كما يستتاب أمثاله، ولكن يجوز أن يجتهد الحاكم، والمفتي، فيصيب، فيكون له أجران، ويخطئ، فيكون له أجر واحد.

قال القرافي في الفروق (١/ ٣٢١): فمهما تجدد في العرف: اعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك، واسأله عن عرف بلده، وأجره عليه، وأفته به دون عرف بلدك، ودون المقرر في كتبك، فهذا هو الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء

=

=

المسلمين، والسلف الماضين، وعلى هذه القاعدة تتخرج أيمان الطلاق، والعتاق، وجميع الصرائح والكنايات، فقد يصير الصريح كناية فيفتقر إلى النية، وقد تصير الكناية صريحا فتستغني عن النية.

وقد أثنى ابن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في إعلام الموقعين (٣/ ٧٨) على هذا الفقه الدقيق فقال - بعد أن نقل ما سبق -: وهذا محض الفقه، ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم، وعوائدهم، وأزمنتهم، وأحوالهم، وقرائن أحوالهم فقد ضل، وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم، وعوائدهم، وأزمنتهم، وطبائعهم، بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل، وهذا المفتي الجاهل: أضر ما يكونان على أديان الناس، وأبدانهم، والله المستعان.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم كما في مجموع فتاواه (١٢/ ٢٨٨، ٢٨٩): وحكم الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان، وتطور الأحوال، وتجدد الحوادث؛ فإنه ما من قضية، كائنة ما كانت، إلا وحكمها في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، نصا أو ظاهرا أو استنباطا أو غير ذلك، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، وليس معنى ما ذكره العلماء من "تغير الفتوى بتغير الأحوال" ما ظنه من قل نصيبهم - أو عدم - من معرفة مدارك الأحكام وعللها، حيث ظنوا أن معنى ذلك بحسب ما يلائم إراداتهم الشهوانية البهيمية، وأغراضهم الدنيوية، وتصوراتهم الخاطئة الوبية، ولهذا تجدهم يحامون عليها، ويجعلون النصوص تابعة لها، منقادة إليها، مهما أمكنهم، فيحرفون لذلك الكلم عن مواضعه، وحينئذ معنى "تغير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان" مراد العلماء منه ما كان مستصحبة فيه الأصول الشرعية، والعلل المرعية، والمصالح التي جنسها مراد لله تعالى، ورسوله ﷺ.

=

=

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢٦/ ٣٩١): كثيرا ما يشاع بأن الفتوى تتغير بتغير الزمان أو المكان، مثل: المذياع في أول ظهوره حرمه البعض، فنرجو من سماحتكم بيان الحق في هذه المسألة.

فأجاب: الفتوى في الحقيقة لا تتغير بتغير الزمان، ولا بتغير المكان، ولا بتغير الأشخاص.

ولكن الحكم الشرعي إذا علق بعلة فإنه إذا وجدت فيه العلة ثبت الحكم الشرعي، وإذا لم توجد لم يثبت الحكم الشرعي، وقد يرى المفتي أن يمنع الناس من شيء أحله الله لهم لما يترتب على فعل الناس له من المحرم كما فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الطلاق الثلاث حين رأى الناس تتايعوا فيها فألزمهم بها، وكان الطلاق الثلاث في عهد النبي ﷺ، وعهد أبي بكر وسنتين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة، فلما رأى عمر الناس تتايعوا في هذا ألزمهم بالثلاث ومنعهم من الرجوع إلى زوجاتهم، وكذلك ما حصل في عقوبة شارب الخمر كانت العقوبة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا تزيد على أربعين جلدة، ثم إن الناس كثر شربهم الخمر فاستشار عمر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فأشاروا بأن يجعل العقوبة ثمانين جلدة. فالأحكام الشرعية لا يمكن أن يتلاعب بها الناس، كلما شاءوا حرموا، وكلما شاءوا أوجبوا، وإنما يرجع إلى العلل الشرعية التي تقتضي الوجوب أو عدمه، وأما بالنسبة للمذياع: فلم يقل أحد بتحريمه من علماء التحقيق، وإنما قال بتحريمه أناس جهلوا حقيقة الأمر، وإلا فإن العلماء المحققين، وأخص منهم شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ، لم

يروا أن هذا من المحرمات، بل رأوا أن هذا من الأشياء التي علمها الله- عَزَّ وَجَلَّ- الخلق، وقد تكون نافعة، وقد تكون ضارة بحسب ما فيها، وكذلك مكبر الصوت -المكرفون- أيضا أنكره بعض الناس أول ما ظهر، لكن بدون تحقيق، وأما

=

=

المحققون فلم ينكروه، بل رأوا أنه من نعمة الله- ﷻ- أن يسر لهم ما يوصلوا خطبهم ومواعظهم إلى الأبعدين.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه أيضا (٢٦/ ٤٢٣): يعلم فضيلتكم أن للإمام الشافعي- رَحِمَهُ اللهُ- فقها في العراق، فلما انتقل إلى مصر كان له فقه آخر اختلفت فيه بعض الأحكام الشرعية، ونحن بطبيعة الحال نجزم بأن العقائد من الثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان ولا المكان. السؤال المطروح هو: إذا اختلف فقه الإمام الشافعي في بعض المسائل حين انتقل من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر تحتضنهما دولة واحدة، فكيف تكون مسائل الفقه لمن انتقل إلي بلاد يعتبر الإسلام فيها غريبا؟ ألا ترون أنه من الضروري معالجة كثير من الأمور التي تواجه المسلمين ولا تزال الآراء مختلفة بل متضاربة حولها؟

فأجاب: إن دين الله تعالى لا يتغير لكن الذي يتغير هو علم الإنسان أو فقهه؛ فأما علمه فربما يحصل على علم أكثر مما كان عليه من قبل فيزداد بذلك علما، وأما فقهه فربما يظهر له من معاني الكتاب والسنة ما لم يكن قد ظهر له من قبل، وهذا أمر مشاهد حتى في البلد الواحد، فإن الإنسان يظهر له بعض الأحيان أكثر مما سبق وذلك بالمناقشة وإبداء الآراء يتغير الإنسان عن رأيه الأول. وكذلك أيضا من العلم فكلما ازداد علما ازداد معرفة بالأحكام الشرعية.

وقال الدكتور بكر أبو زيد في المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد (١/ ٨٤): لقد أخطا خَطًا فاحشًا من قال بشمول: تغيُّر الفتوى بتغيُّر الزمان في القالبين المذكورين، فإِنَّها بالنسبة للأَول ثابتة لا تتغير ولا تتبدَّل. وما علمت في المتقدمين من قال عن هذه القاعدة بشمولها، بل كلامهم عنها يفيد أَنَّها قاعدة فرعية صورية وليست حقيقية، إِذْ يضربون لها المثال بتغير الأَعراف، وهذا محكوم بقواعد العرف والعادة، ومن هنا فهي صورية لا حقيقية، وابن القيم رحمه الله تعالى مع

=

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦).

أَنْزَلْنَاهُ ل {أَنْ} لَا {تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَاب عَلَى طَائِفَتَيْنِ} الْيَهُود وَالنَّصَارَى {مِنْ قَبْلنَا وَإِنْ} مُخَفَّفَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ إِنَّا {كُنَّا عَنْ دِرَاسَتهمْ} قِرَاءَتهمْ {لَغَافِلِينَ} لِعَدَمِ مَعْرِفَتنَا لَهَا إِذْ لَيْسَتْ بِلُغَتِنَا.

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧).

{أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَاب لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ} لِجَوْدَةِ أَذْهَاننَا {فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَة} بَيَان {مِنْ رَبّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَة} لِمَنْ اتَّبَعَهُ {فَمَنْ} أَيْ لَا أَحَد {أَظْلَم مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ الله وَصَدَف} أَعْرَض {عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتنَا سُوء الْعَذَاب} أَيْ أشده {بما كانوا يصدفون}[1].

=

جلالة قدره قد توسع بضرب المثال لها بما لا يسلم له رَحِمَهُ اللَّهُ. وليعلم هنا أن هذه القاعدة مع مسألة البحث هذه " فتح باب الاجتهاد " يستغلهما فقهاء المدرسة العصرانية الذين اعتلّت أذواقهم، وساورتهم الأهواء، ومجاراة الأغراض، فهذا يشيد حججًا لإباحة الربا، وذلك لوقف تنفيذ الحدود... وهكذا وكلها شبه على اساس هار مُتَدَاع للسقوط وبأول معول. فيجب على من ولاّه الله أمرَ المسلمين: معالجةُ هذه الأذواق الفاسدة بتحجيمها، والقضاء عليها، لتسلم الأمَّة من أمراضها واعتلالها، ورضي الله عن ابن مسعود إِذْ يقول: "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم وعليكم بالأمر العتيق".

(١) قوله تعالى: {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا} [الأنعام:
=

=

١٥٦]، أي: " وأنزلنا هذا القرآن؛ لئلا تقولوا -يا كفار العرب-: إنما أُنزل الكتاب من السماء على اليهود والنصارى".

قال القرطبي: أي: " لئلا تقولوا: إنما أنزل التوراة والإنجيل على اليهود والنصارى، ولم ينزل علينا كتاب".

عن ابن عباس: " {أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا}، وهم اليهود والنصارى". وروي عن قتادة، والسدي مثل ذلك.

وعن مجاهد: " {أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا}، اليهود والنصارى يُخاف أن تقوله قريش".

وفي قوله تعالى: {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا} [الأنعام: ١٥٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: أنزلناه لئلا تقولوا إنما أنزل الكتاب، أي: أنزلناه لتنقطع حجتهم، وإن كانت الحجة لله ﷻ، لأن الكتب التي أنزلت قبل النبي ﷺ قد كانت فيها الحجة، ولم يكن الله ﷻ: ليترك خلقه سدى بغير حجة، ولكن في تنزيل الكتاب والنبي ﷺ غاية الحجة، والزيادة في الإبانة. وهذا مذهب الكوفيين.

والثاني: أنزل الكتاب كراهة أن يقولوا: - إنما أنزلت الكتب على أصحاب موسى وعيسى. وهذا مذهب البصريين.

ولا يجيزون إضمار «لا»، لا يقولون: جئت أن أكرمك، أي: لئلا أكرمك، ولكن يجوز: فعلت ذلك أن أكرمك، على إضمار «محبة أن أكرمك»، و «كراهة أن أكرمك»، وتكون الحال تنبئ عن الضمير.

والثالث: معناه: فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة. قاله الفراء، والكسائي.

قوله تعالى: {وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [الأنعام: ١٥٦]، أي: " وقد كنا عن قراءة كتبهم في شغل، ونحن ليس لنا بها علم ولا معرفة".

=

=

قال ابن عباس: "، يقول: وإن كنا عن تلاوتهم لغافلين".

قال السدي: "يقول: وإن كنا عن قراءتهم لغافلين، لا نعلم ما هي".

عن قتادة: "{وإن كنا عن دراستهم لغافلين}، أي: عن قراءتهم".

عن ابن وهب قال: " قال ابن زيد في قوله: {وإن كنا عن دراستهم لغافلين}، قال: الدراسة، القراءة والعلم. وقرأ: {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}، [سورة الأعراف: ١٦٩]. قال: علموا ما فيه، لم يأتوه بجهالة".

قال الزجاج: " المعنى: وما كنا إلا غافلين عن تلاوة كتبهم".

قال ابن قتيبة: " أي: قراءتهم الكتب وعلمهم بها {غافلين}".

قال القرطبي: " أي: عن تلاوة كتبهم وعن لغاتهم. ولم يقل: عن دراستهما، لأن كل طائفة جماعة".

قال الطبري: " فإنه يعني: أن تقولوا: وقد كنا عن تلاوة الطائفتين الكتابَ الذي أنزلتُ عليهم «غافلين»، لا ندري ما هي، ولا نعلم ما يقرؤون وما يقولون، وما أنزل إليهم في كتابهم، لأنهم كانوا أهله دوننا،

ولم نعن به ولم نؤمر بما فيه، ولا هو بلساننا، فيتخذوا ذلك حجة. فقطع الله بإنزاله القرآنَ على نبيه محمد ﷺ حجتهم تلك".

قوله تعالى: {أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ} [الأنعام: ١٥٧]، أي: " ولئلا تقولوا -أيها المشركون-: لو أنَّا أُنزل علينا كتاب من السماء، كما أُنزل على اليهود والنصارى، لكنَّا أشدَّ استقامة على طريق الحق منهم".

قال الطبري: " أو: لئلا يقولوا: لو أنّا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على هاتين الطائفتين من قبلنا، فأمرنا فيه ونُهينا، وبُيِّن لنا فيه خطأ ما نحن فيه من صوابه، لكنا أشدَّ استقامة على طريق الحق، واتباعًا للكتاب، وأحسن عملا بما فيه، من الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا".

=

قال الزجاج: " وإنما كانوا يقولون {لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ}، لأنهم كانوا مدلين بالأذهان وحسن الأفهام، وذلك أنهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم وآثارهم، وهم أميون لا يكتبون".

عن قتادة: "{أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم}، فهذا قول كفار العرب".

قوله تعالى: {فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأنعام: ١٥٧]، أي: " فقد جاءكم كتاب بلسانكم عربي مبين، وذلك حجة واضحة مِن ربكم".

قال السدي: " يقول: قد جاءكم بينة، لسانٌ عربي مبين، حين لم تعرفوا دراسة الطائفتين، وحين قلتم: لو جاءنا كتاب لكنا أهدى منهم".

قال الطبري: "يقول: فقد جاءكم كتابٌ بلسانكم عربيٌ مبين، حجة عليكم واضحة بيّنة من ربكم".

قال الزجاج: " أي: فقد جاءكم ما فيه البيان وقطع الشبهات عنكم".

قال القرطبي: " أي: قد زال العذر بمجيء محمد ﷺ. و «البينة» و «البيان» واحد، والمراد محمد ﷺ، سماه سبحانه: «بينة»".

قوله تعالى: {وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} [الأنعام: ١٥٧]، أي: " وإرشاد إلى طريق الحق، ورحمةٌ لهذه الأمة".

قال القرطبي: " أي: لمن أتبعه".

قال البيضاوي: أي: " لمن تأمل فيه وعمل به".

قال البغوي: أي: "بيان ونعمة لمن اتبعه".

قال الطبري: " يقول: وبيان للحق، وفُرْقانٌ بين الصواب والخطأ، {ورحمة} لمن عمل به واتّبعه".

قال الصابوني: أي: " وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعبادة".

=

قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ} [الأنعام: ١٥٧]، أي: " فلا أحد أشد ظلمًا وعدوانًا ممن كذَّب بحجج الله تعالى".

قال البيضاوي: أي: " بعد أن عرف صحتها أو تمكن من معرفتها".

قال القرطبي: " أي: فإن كذبتم فلا أحد أظلم منكم".

قال الطبري: أي: " فمن أخطأ فعلا وأشدّ عدوانًا منكم، أيها المشركون، المكذبون بحجج الله وأدلته وهي آياته".

قوله تعالى: {وَصَدَفَ عَنْهَا} [الأنعام: ١٥٧]، أي: " أعرض عن آيات الله".

قال ابن عباس: " يقول: أعرض عنها". وروي عن قتادة مثل ذلك.

عن السدي: "{وصدف عنها}، فصدَّ عنها".

عن مجاهد: " {يصدفون عن آياتنا}، يعرضون عنها، و «الصدف»، الإعراض".

قال الطبري: " يقول: وأعرض عنها بعد ما أتته، فلم يؤمن بها، ولم يصدِّق بحقيقتها".

قال البيضاوي: أي: " أعرض أو صد عنها، فضل أو أضل".

قال أبو السعود: أي: صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال".

قوله تعالى: {سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ} [الأنعام: ١٥٧]، أي: " فهؤلاء المعرضون سنعاقبهم عقابًا شديدًا في نار جهنم؛ بسبب إعراضهم عن آياتنا، وصدِّهم عن سبيلنا".

قال الطبري: " يقول: سيثيب الله الذين يعرضون عن آياته وحججه ولا يتدبرونها، ولا يتعرفون حقيقتها فيؤمنوا بما دلتهم عليه من توحيد الله، وحقيقة نبوة نبيه، وصدق ما جاءهم به من عند ربهم {سوء العذاب}، يقول: شديد العقاب، وذلك عذاب النار التي أعدَّها الله لكفرة خلقه به {بما كانوا يصدفون}، يقول: يفعل الله ذلك بهم جزاء بما كانوا يعرضون عن آياته في الدنيا، فلا يقبلون ما جاءهم به نبيهم

=

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) .

{هَلْ يُنْظَرُونَ} مَا يَنْتَظِر الْمُكَذِّبُونَ {إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمْ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {الْمَلَائِكَة} لِقَبْضِ أَرْوَاحهمْ {أَوْ يَأْتِي رَبّك} أَيْ أَمْره بِمَعْنَى عَذَابه {أَوْ يَأْتِي بَعْض آيَات رَبّك} أَيْ عَلَامَاته الدَّالَّة عَلَى السَّاعَة {يَوْم يَأْتِي بَعْض آيَات رَبّك} وَهِيَ طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا كَمَا فِي حَدِيث الصَّحِيحَيْنِ {لَا يَنْفَع نَفْسًا إيمَانهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْل} الْجُمْلَة صِفَة النَّفْس {أَوْ} نَفْسًا لَمْ تَكُنْ {كَسَبَتْ فِي إيمَانهَا خيرا} طاعة أي لا ينفعها تَوْبَتهَا كَمَا فِي الْحَدِيث {قُلْ انْتَظِرُوا} أَحَد هَذِهِ الْأَشْيَاء {إنَّا مُنْتَظِرُونَ} ذَلِكَ[1].

=

محمد ﷺ".

(١) قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ} [الأنعام: ١٥٨]، أي: " هل ينتظر الذين أعرضوا وصدوا عن سبيل الله إلا أن يأتيهم ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم".

قال مجاهد: "يقول: عند الموت حين توفَّاهم". وروي عن ابن جريج نحو ذلك.

عن قتادة: "{إلا أن تأتيهم الملائكة}، بالموت". وروي عن السدي مثل ذلك.

قال الزجاج: " أي: إلا أن تأتيهم ملائكة الموت".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: هل ينتظر هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام {إلا أن تأتيهم الملائكة}، بالموت فتقبض أرواحهم".

قال أبو الليث: " معناه، أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا فماذا ينتظرون؟ فهل ينتظرون {إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ} لقبض أرواحهم".

=

=

وفي قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ} [الأنعام: ١٥٨]، وجهان:

أحدهما: هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة رسلًا، يعني الكفار الذين يتوقفون عن الإيمان مع ظهور الدلائل.

والثاني: هل ينظرون، يعني في حُجَج الله ودلائله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، قاله جويبر.

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: «تأتيهم الملئكة»، بالتاء، وقرأ حمزة والكسائى «يأتيهم»، بالياء.

قوله تعالى: {أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ} [الأنعام: ١٥٨]، أي: " أو يأتي ربك -أيها الرسول- للفصل بين عباده يوم القيامة".

قال الإمام البغوي: " بلا كيف، لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة".

قال مجاهد: "ذلك يوم القيامة". وروي عن عن قتادة، و ابن جريج نحو ذلك.

قال الطبري: يقول: " أو أن يأتيهم ربك، يا محمد، بين خلقه في موقف القيامة".

(تنبيه) تأويل المصنف لقوله تعالى {أَوْ يَأْتِيَ رَبّك} بقوله أَيْ أَمْره بِمَعْنَى عَذَابه. على خلاف مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة، أهل الحديث والأثر.

قال أبو الحسن الأشعري في رسالة إلى أهل الثغر (ص ٢٢٧):وأجمعوا على أنه ﷻ يجيء يوم القيامة والملك صفًا صفًا ... اهـ.

وقال أبو عثمان الصابوني في اعتقاد السلف أصحاب الحديث (ص ٢٧): وكذلك يثبتون ما أنزله الله – عز اسمه – في كتابه من ذكر المجيء والإتيان المذكورين في قوله ﷻ: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ} [سورة البقرة، الآية: ٢١٠]. وقوله عز اسمه: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [سورة الفجر، الآية: ٢٢]ا. هـ

وقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٥/ ٦٢): وقال عمرو بن عثمان

=

=

المكي في كتابه الذي سماه " التعرف بأحوال العباد والمتعبدين " قال: (باب ما يجيء به الشيطان للتائبين وذكر أنه يوقعهم في القنوط ثم في الغرور وطول الأمل ثم في التوحيد. فقال: "من أعظم ما يوسوس في "التوحيد " بالتشكل أو في صفات الرب بالتمثيل والتشبيه أو بالجحد لها والتعطيل. فقال بعد ذكر حديث الوسوسة: - واعلم رحمك الله أن كل ما توهمه قلبك أو سنح في مجاري فكرك أو خطر في معارضات قلبك من حسن أو بهاء أو ضياء أو إشراق أو جمال أو سنح مسائل أو شخص متمثل: فالله تعالى بغير ذلك؛ بل هو تعالى أعظم وأجل وأكبر ألا تسمع لقوله: {ليس كمثله شيء} وقوله: {ولم يكن له كفوا أحد} أي لا شبيه ولا نظير ولا مساوي ولا مثل أولم تعلم أنه لما تجلى للجبل تدكدك لعظم هيبته؟ وشامخ سلطانه؟ فكما لا يتجلى لشيء إلا اندك: كذلك لا يتوهمه أحد إلا هلك. فرد بما بين الله في كتابه من نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفؤ. فإن اعتصمت بها وامتنعت منه أتاك من قبل التعطيل لصفات الرب - تعالى وتقدس - في كتابه وسنة رسوله محمد ﷺ فقال لك: إذا كان موصوفا بكذا أو وصفته أوجب له التشبيه فأكذبه؛ لأنه اللعين إنما يريد أن يستزلك ويغويك ويدخلك في صفات الملحدين الزائغين الجاحدين لصفة الرب تعالى.

واعلم - رحمك الله تعالى - أن الله تعالى واحد لا كالآحاد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - إلى أن قال - خلصت له الأسماء السنية فكانت واقعة في قديم الأزل بصدق الحقائق لم يستحدث تعالى صفة كان منها خليا واسما كان منه بريا تبارك وتعالى؛ فكان هاديا سيهدي وخالقا سيخلق ورازقا سيرزق وغافرا سيغفر وفاعلا سيفعل ولم يحدث له الاستواء إلا وقد كان في صفة أنه سيكون ذلك الفعل فهو يسمى به في جملة فعله، كذلك قال الله تعالى: {وجاء ربك والملك صفا صفا} بمعنى أنه سيجيء؛ فلم يستحدث الاسم بالمجيء

=

=

وتخلف الفعل لوقت المجيء فهو جاء سيجيء ويكون المجيء منه موجودا بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه لأن ذلك فعل الربوبية فيستحسر العقل وتنقطع النفس عند إرادة الدخول في تحصيل كيفية المعبود فلا تذهب في أحد الجانبين؛ لا معطلا ولا مشبها وارض لله بما رضي به لنفسه وقف عند خبره لنفسه مسلما مستسلما مصدقا؛ بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنقير. إلى أن قال: "فهو تبارك وتعالى القائل: أنا الله لا الشجرة الجائي قبل أن يكون جائيا؛ لا أمره المتجلي لأوليائه في المعاد؛ فتبيض به وجوههم وتفلج به على الجاحدين حجتهم المستوي على عرشه بعظمة جلاله فوق كل مكان - تبارك وتعالى - الذي كلم موسى تكليما. وأراه من آياته فسمع موسى كلام الله؟ لأنه قربه نجيا. تقدس أن يكون كلامه مخلوقا أو محدثا أو مربوبا الوارث بخلقه لخلقه السميع لأصواتهم الناظر بعينه إلى أجسامهم يداه مبسوطتان وهما غير نعمته خلق آدم ونفخ فيه من روحه - وهو أمره - تعالى وتقدس أن يحل بجسم أو يمازج بجسم أو يلاصق به تعالى عن ذلك علوا كبيرا الشائي له المشيئة العالم له العلم الباسط يديه بالرحمة النازل كل ليلة إلى سماء الدنيا ليتقرب إليه خلقه بالعبادة وليرغبوا إليه بالوسيلة القريب في قربه من حبل الوريد البعيد في علوه من كل مكان بعيد ولا يشبه بالناس. إلى أن قال: {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه}. القائل: {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور} {أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا} تعالى وتقدس أن يكون في الأرض كما هو في السماء جل عن ذلك علوا كبيرا " اهـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (٥/ ٤٠٩): وتأويل المجيء والإتيان والنزول ونحو ذلك - بمعنى القصد والإرادة ونحو ذلك - هو قول طائفة. وتأولوا ذلك في قوله تعالى {ثم استوى إلى السماء} وجعل ابن الزاغوني وغيره ذلك: هو إحدى

=

=
الروايتين عن أحمد. والصواب: أن جميع هذه التأويلات مبتدعة لم يقل أحد من الصحابة شيئا منها ولا أحد من التابعين لهم بإحسان؛ وهي خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السنة والحديث: أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة. ولكن بعض الخائضين بالتأويلات الفاسدة يتشبث بألفاظ تنقل عن بعض الأئمة وتكون إما غلطا أو محرفة.

و قال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٣/ ٣٢٧): المثال الثاني عشر: قوله ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: "من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة". وهذا الحديث صحيح رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وروى نحوه من حديث أبي هريرة أيضًا وكذلك روى البخاري نحوه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب التوحيد الباب الخامس عشر. وهذا الحديث كغيره من النصوص الدالة على قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى وأنه سبحانه فعال لما يريد كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة مثل قوله تعالى: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان. وقوله: (وجاء ربك والملك صفًّا صفًا). وقوله: (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك). وقوله: (الرحمن على العرش استوى). وقوله ﷺ: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر" وقوله ﷺ: "ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب- إلا أخذها الرحمن بيمينه". إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على قيام الأفعال الاختيارية به تعالى. فقوله في هذا الحديث: تقربت منه وأتيته هرولة من هذا الباب. والسلف "أهل السنة والجماعة" يُجْرُون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله عَزَّ وَجَلَّ من غير تكييف ولا تمثيل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح حديث النزول ص ٤٦٦ جـ ٥ من مجموع
=

الفتاوي: وأما دنوه نفسه وتقربه من بعض عباده فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة ونزوله واستواءه على العرش وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث والنقل عنهم بذلك متواتر.

قوله تعالى: {أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام: ١٥٨]، أي: " أو يأتي بعض أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على مجيئها، وهي طلوع الشمس من مغربها؟".

قال قتادة: "آية موجبة، طلوع الشمس من مغربها، أو ما شاء الله".

قال الزجاج: " نحو خروج الدابة: أو طلوع الشمس من مغربها".

قال الطبري: " وذلك فيما قال أهل التأويل: طلوعُ الشمس من مغربها".

وفي قوله تعالى: {أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام: ١٥٨]، أقوال:

أحدها: أنه طلوع الشمس من مغربها، رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وبه قال ابن مسعود في رواية زرارة بن أوفى عنه، ومجاهد، وقتادة، والسدي.

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) متفق عليه.

وعن أبي ذر. قال: قال رسول الله ﷺ (أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت؟ قلت: لا أدري، قال: إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعي، يوشك يا أبا ذر! أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت، وذلك حين (لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ..) متفق عليه.

وقد جاء في الحديث عنه ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه) رواه مسلم.

وفي الحديث الآخر – عن أبي موسى – قال ﷺ (إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من

=

معربها) رواه مسلم.

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال التوبة مقبولة حتيتطلع الشمس من مغربها، فاذا طلعت، طبع على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا وذكر منها طلوع الشمس من مغربها».

قال القرطبي: "وإنما لا ينفع نفسا إيمانها عند طلوع الشمس من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحالة لم تقبل توبته كما لا تقبل توبة من حضره الموت".

والثاني: أنه طلوع الشمس والقمر من مغربهما، رواه مسروق عن ابن مسعود.

عن عبد الله بن مسعود في قوله: "{هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك}، قال: يصبحون والشمس والقمر من هاهنا من قبل المغرب، كالبعيرين القَرينين زاد ابن حميد في حديثه: فذلك حين {لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قَبْل أو كسبت في إيمانها خيرًا}، وقال: كالبعيرين المقترنين".

والثالث: أنه إحدى الآيات الثلاث، طلوع الشمس من مغربها، والدابة، وفتح يأجوج ومأجوج، روى هذا المعنى القاسم عن ابن مسعود.

والرابع: أنه طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض، رواه أبو هريرة عن النبي -ﷺ-.

=

=

والخامس: أنه طلوعَ الشمس من مغربها، والدجال، والدخَان، ودابة الأرض. رواه الحسن مرفوعا إلى النبي -ﷺ-.

قال ابن الجوزي: " والأول أصح".

قال الإمام البغوي: " {أو يأتي بعض آيات ربك}، يعني: طلوع الشمس من مغربها، عليه أكثر المفسرين ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعا".

قال الطبري: " وأولى الأقوال بالصواب في ذلك، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ذلك حين تطلع الشمس من مغربها.

قال الخازن: قال جمهور المفسرين: هو طلوع الشمس من مغربها.

قال القاسمي: ذهب الجمهور إلى أن المراد بـ (البعض) في الآية هو طلوع الشمس من مغربها.

(لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ) أي: إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك، فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلّطًا فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه كما جاء بذلك الأحاديث.

- قال الخازن: يعني لا ينفع من كان مشركًا إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ} [الأنعام: ١٥٨]، أي: " فحين يكون ذلك لا ينفع نفسا إيمانها، إن لم تكن آمنت من قبل".

قال محمد بن كعب: " يقول: إذا جاءت الآيات لم ينفع نفسًا إيمانها. يقول: طلوع الشمس من مغربها". وروي عن والضحاك، وصفوان بن عسال، وعبد الله بن عمرو، نحو ذلك.

قال الطبري: يقول: {يوم يأتي بعض آيات ربك}، لا ينفع من كان قبل ذلك مشركًا

=

=
بالله، أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية".
قال ابن كثير: " أي: إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمنا قبل ذلك، فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخَلِّطًا فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة".
قال الزجاج: " أي: لا ينفعها الإيمان عند الآية التي تضطركم إلى الإيمان، لأن الله جل ثناؤه قال: {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون}، وبعث الرسل بالآيات التي تتدبر، فيكون للمؤمن بها ثواب ولو بعث الله على كل من لم يؤمن عذابا، لاضطر الناس إلى الإيمان به، وسقط التكليف والجزاء".
قال مقاتل: " يقول: لم تكن صدقت من قبل طلوع الشمس من مغربها".
قال الماتريدي: في الآية" إشارة إلى أن من سبق منه الإيمان قبل أن يأتيه آيات ربه أو سبق منه كسب الخير من بعد الإيمان؛ فإن إيمانه في ذلك الوقت ينفعه".
قال الحافظ ابن حجر: "هي العلامات التي يعقبها قيام الساعة".
وقد أطلق بعض العلماء على "الأشراط" اسم "الآيات"؛ و"الآيات" هي الأمارات الدالة على الشيء، كالأمارات التي تُنصبُ في الصحراء؛ دالة على الطريق، أو توضع على الشاطئ؛ لتهديَ السفن، أو توضع في طريق المسافرين؛ لتدلهم على ما يقصدون من الأماكن.
قال الطيبي: "الآيات: أمارات للساعة: إما على قربها، وإما على حصولها؛ فمن الأول: الدجال، ونزول عيسى، يأجوج ومأجوج، والخسف. ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس".
واختلف في أول آيات الساعة وآخرها، قال ابن كثير: "حكى البيهقي، عن الحاكم أنه قال: أول الآيات ظهورا خروج الدجال، ثم نزول عيسى ابن مريم، ثم فتح يأجوج ومأجوج، ثم خروج الدابة، ثم طلوع الشمس من مغربها، قال: لأنها إذا
=

=

طلعت من مغربها آمن من عليها، فلو كان نزول عيسى بعدها، لم يلق كافرا.
وهذا الذي قاله فيه نظر؛ لأن إيمان أهل الأرض يومئذ لا ينفعهم، فإنه لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، فمن أحدث إيمانا أو توبة يومئذ لم تقبل منه، إلا أن يكون مؤمنا أو تائبا قبل ذلك، وكذلك قوله
تعالى في قصة نزول عيسى في آخر الزمان: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} [النساء: ١٥٩]. أي: قبل موت عيسى، وبعد نزوله يؤمن جميع أهل الكتاب به إيمانا ضروريا، بمعنى أنهم يتحققون أنه عبد الله ورسوله، فالنصراني يعلم كذب نفسه في دعواه فيه الربوبية والبنوة، واليهودي يعلم أنه نبي رسول من الله، لا ولد زانية، كما كان المجرمون منهم يزعمون ذلك، عليهم لعائن الله وغضبه المتدارك".
قال ابن حجر: "والذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة".
قال البرزنجي في الإشاعة: "وهذا جمع حسن - رَحِمَهُ اللَّهُ -".
واختلفوا في «ألا ينفعها إيمانها بظهور أول الآيات أو بظهور آخرها» على قولين:
أحدهما: إذا خرج أول الآيات، طرحت الأقلام، وجلست الحفظة، وشهدت الأجساد على الأعمال. قالته أم المؤمنين عائشة-رضي الله تعالى عنها-.
عن عن أبي هريرة، قال: " قال رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تطلعَ الشمس من مغربها، فيومئذ يؤمن الناس كلهم أجمعون، وذلك حين {لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا} ".
قال عبد الله بن مسعود: " الآية التي تختم بها الأعمال: «طلوع الشمس من

=

=

مغربها»، ألم تر أن الله قال: {يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا}، قال: فهي طلوع الشمس من مغربها".

عن صفوان بن عسّال قال: "حدثنا رسول الله ﷺ: إنّ من قِبَل مغرب الشمس بابًا مفتوحًا للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه. فإذا طلعت الشمس من نحوه، لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا".

وفي رواية أخرى عن صفوان: " ذكرت التوبة، فقال النبي ﷺ: للتوبة بابٌ بالمغرب مسيرة سبعين عامًا أو: أربعين عامًا فلا يزال كذلك حتى يأتي بعض آيات ربك".

عن أبي ذر قال: "قال رسول الله ﷺ، يومًا: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: إنها تذهب إلى مستقرِّها تحت العرش، فتخرُّ ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: "ارتفعي من حيث شئت"، فتصبح طالعة من مطلعها. ثم تجري إلى أن تنتهي إلى مستقرٍّ لها تحت العرش، فتخرّ ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: «ارتفعي من حيث شئت»، فتصبح طالعةً من مطلعها. ثم تجري لا ينكر الناسُ منها شيئًا، حتى تنتهي فتخرّ ساجدة في مستقر لها تحت العرش، فيصبح الناسُ لا ينكرون منها شيئًا، فيقال لها: «اطلعي من مغربك» فتصبح طالعة من مغربها. قال رسول الله، ﷺ: أتدرون أيّ يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: ذاك يومَ {لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا}.

عن أبي زرعة قال: " جلس ثلاثة من المسلمين إلى مروان بن الحكم بالمدينة، فسمعوه وهو يحدث عن الآيات: أن أولها خروجا الدجالُ، فانصرف القوم إلى عبد الله بن عمرو، فحدثوه بذلك، فقال: لم يقل مروان شيئًا! قد حفظت من رسول الله ﷺ في ذلك شيئًا لم أنسَه، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أوّل

=

=

الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، أو خروج الدابة على الناس ضُحًى، أيّتهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريبًا. ثم قال عبد الله بن عمرو، وكان يقرأ الكتب: أظن أولهما خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع، فيؤذن لها في الرجوع، حتى إذا بدا لله أن تطلع من مغربها، فعلت كما كانت تفعل، أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع، فلم يردَّ عليها شيئًا، فتفعل ذلك ثلاث مرات، لا يردّ عليها بشيء. حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب، وعرفت أن لو أذن لها لم تدرك المشرق، قالت: ما أبعدَ المشرق! ربِّ، منْ لي بالناس! حتى إذا صار الأفق كأنه طَوْق، استأذنت في الرجوع، فقيل لها: أطلعي من مكانك، فتطلع من مغربها. ثم قرأ: {يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها}، إلى آخر الآية".

عن أبي ذر قال: "كنت رِدْفَ النبي ﷺ ذات يوم على حمارٍ، فنظر إلى الشمس حين غربت فقال: إنها تغرب في عين حامية، تنطلق حتى تخرّ لربها ساجدة تحت العرش، حتى يأذن لها، فإذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها، فتقول: يا ربِّ، إن مسيري بعيد! فيقول لها: اطلعي من حيث غربت! فذلك حين {لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل}".

والقول الثاني: أن ذلك يكون بخروج آخر الآيات ليكون لنا فيها أثر في الإنذار.

روي عن ابن عباس قوله: "{يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا}، فهو أنه لا ينفع مشركًا إيمانه عند الآيات، وينفع أهل الإيمان عند الآيات إن كانوا اكتسبوا خيرًا قبل ذلك. قال ابن عباس: خرج رسول الله ﷺ عشيةً من العشيّات فقال لهم: يا عباد الله، توبوا إلى الله، فإنكم توشكون أن تروا الشمس من قِبَل المغرب، فإذا فعلت ذلك، حُبِست

=

=

التوبة، وطُوِي العمل، وخُتم الإيمان. فقال الناس: هل لذلك من آية يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إن آية تلكم الليلة، أن تطول كقدر ثلاث ليال، فيستيقظ الذين يخشون رَبهم، فيصلُّون له، ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقض، ثم يأتون مضاجعهم فينامون. حتى إذا استيقظوا والليل مكانه، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون بين يدي أمرٍ عظيم.، فإذا أصبحوا وطال عليهم طلوع الشمس، فبينا هم ينتظرونها إذ طلعت عليهم من قبل المغرب، فإذا فعلت ذلك لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل".

عن عبد الله بن أبي أوفى قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم هذه، فإذا كان ذلك يعرفها المتنفلون، يقوم أحدهم فيقرأ حزبه، ثم ينام، ثم يقوم فيقرأ حزبه، ثم ينام. فبينما هم كذلك إذ صاح الناس بعضهم في بعض فقالوا: ما هذا؟ فيفزعون إلى المساجد، فإذا هم بالشمس قد طلعت من مغربها، فضج الناس ضجة واحدة، حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها". قال: {حينئذ لا ينفع نفسًا إيمانها}".

قال ابن كثير: " هذا حديث غريب من هذا الوجه وليس هو في شيء من الكتب الستة".

قوله تعالى: {أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [الأنعام: ١٥٨]، أي: " ولا يُقبل منها إن كانت مؤمنة كسب عمل صالح إن لم تكن عاملة به قبل ذلك".

قال ابن كثير: " أي: ولا يقبل منها كَسْبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك".

قال أبو الليث: " يعني: المسلم الذي يعمل في إيمانه خيرا كأن لم يقبل عمله قبل ذلك، فإنه لا يقبل منه بعد ذلك. ومن كان قبل من قبل ذلك فإنه يقبل منه بعد ذلك أيضا أو كانت النفس مؤمنة ولم تكن كسبت خيرا قبل ذلك الوقت لا ينفعها الخير

=

=

بعد".

قال السدي: " يقول: كسبت في تصديقها خيرا، عملا صالحا. هؤلاء أهل القبلة، وإن كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيرا فعملت بعد أن رأت الآية، لم يقبل منها. وإن عملت قبل الآية خيرا، ثم عملت بعد الآية خيرا قبل منها".

وقال مقاتل بن حيان: " {أو كسبت في إيمانها خيرا}، يعني: المسلم الذي لم يعمل في إيمانه خيرا وكان قبل الآية مقيما على الكبائر".

قال مقاتل بن سليمان: " يقول لم تكن هذه النفس عملت قبل طلوع الشمس من مغربها ولم يقبل منها".

وقال الضحاك: "من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه، قبل منه، كما يقبل منه قبل الآية".

قال ابن الجوزي: " وقيل: إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها، أن الملحدة والمنجمين، زعموا أن ذلك لا يكون، فيريهم الله تعالى قدرته، ويطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق، ولتحقق عجز نمرود حين قال له إبراهيم: {فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ} [البقرة: ٢٥٨]".

وفي «الخير الذي تكسبه»، وجوه:

أحدها: تأدية الفروض على أكمل أحوالها.

والثاني: التطوع بالنوافل بعد الفروض.

والثالث: العمل الصالح. قاله السدي. وهذا أعم ويشمل القولين السابقين.

قال ابن الجوزي: " المراد بـ «الخير» -ها هنا-: العمل الصالح، وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ، لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان".

قوله تعالى: {قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} [الأنعام: ١٥٨]، أي: " قل لهم -أيها الرسول-: انتظروا مجيء ذلك؛ لتعلموا المحق من المبطل، والمسيء من

=

=

المحسن، إنا منتظرون ذلك".

قال الربيع: " خوّفهم عذابه وعقوبته ونقمته".

قال أبو الليث: " يعني: انتظروا العذاب فإنا منتظرون بكم حتى ننظر".

قال ابن كثير: " تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك. وإنما كان الحكم هذا عند طلوع الشمس من مغربها، لاقتراب وقت القيامة، وظهور أشراطها كما قال: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} [محمد: ١٨]، وقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ٨٤، ٨٥]".

وفي حكم قوله تعالى: {انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} [الأنعام: ١٥٨] قولان:

الأول: أنها اقتضت الأمر بالكف عن قتالهم، وذلك منسوخ بآية السيف. ذكره هبة الله.

والثاني: أن المراد بها التهديد، فهي محكمة. واختاره ابن الجوزي، وقال: "وهو الصحيح".

(تنبيه) في هذه الآية تهديد شديد للمشركين، بأن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتي الله لفصل القضاء، أو خروج الشمس من مغربها فعند ذلك لا ينفع الإيمان.

- قال ابن عطية: فمقصد هذه الآية تهديد الكافرين بأحوال لا يخلون منها كأنه قال: هل ينظرون مع إقامتهم على الكفر إلا الموت الذي لهم بعده أشد العذاب، والأخذات المعهودة لله ﷻ، أو الآيات التي ترفع التوبة وتعلم بقرب القيامة.

هناك موضعين لا يقبل فيهما الإيمان:

الأول: إذا طلعت الشمس من مغربها.

=

قال ابن الجوزي: وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان.

وقال القرطبي: قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسًا إيمانُها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس، وتَفْتُر كلّ قوّة من قوى البدن؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدّواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت.

وقال السعدي: والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ).

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويُغلق حينئذ بابُ التوبة.

الثاني: عند الاحتضار.

قال تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا).

فقوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي: وليس قبول التوبة ممن ارتكب السيئات والمنكرات واستمر عليها، (حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) أي: حتى إذا فاجأهم الموت وحضرت أسبابه وعلاماته وبلغت الحلقوم، (قَالَ إِنِّي

=

تُبْتُ الْآنَ) أي: قال في هذه الحال حضور الموت، واليأس من الحياة، إني تبت الآن، فهؤلاء لا تنفعهم توبتهم في هذه الحال، لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ).

ولحديث الباب (... ما لم يغرغر) أي تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله.

وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبيه ﷺ وبوعده قد صار ضرورة.

(منبهة): قال الله تعالى: (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون) [الأنعام: ١٥٨].

وفي الحديث عن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض» روي هذا الحديث من طريق: فضيل بن غزوان، عن أبي حازم «سلمان مولى عزة»، عن أبي هريرة، به. وقد روي عن فضيل بن غزوان من عدة طرق:

الأول: طريق محمد بن فضيل: أخرجه من طريقه: الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٥٨)، عن محمد بن العلاء، عن محمد بن فضيل، به.

=

=

قال الإمام مسلم: «واللفظ له». يعني: أن لفظ الحديث الذي ذكره إنما هو من رواية محمد بن العلاء. وهو اللفظ المذكور في المتن.

وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٥/ ٤١١)، عن محمد بن العلاء، به. ولفظه لفظ مسلم.

وأخرجه أبو يعلى في مسنده (١١/ ٣٣)، عن عبد الله بن عامر، عن محمد بن فضيل، به. ولفظه لفظ مسلم.

وأخرجه أيضا (١١/ ٣١) عن أبي هشام الرفاعي، عن محمد بن فضيل، به. وفيه اختلاف في ترتيب الآيات، حيث جاء بلفظ: «الدابة، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها».

الثاني: طريق يعلى بن عبيد: أخرجه من طريقه: الإمام الترمذي في سننه، في كتاب التفسير، حديث (٣٠٧٢)، عن عبد بن حميد، عن يعلى بن عبيد، به، وفيه اختلاف في ترتيب الآيات، حيث جاء بلفظ: «الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من المغرب، أو من مغربها». وأخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٢٥٣)، عن يعلى بن عبيد، به. ولفظه لفظ الترمذي.

وأخرجه ابن مندة في «الإيمان» حديث (١٠٥٠)، عن علي بن الحسين بن أبي عيسى، عن يعلى بن عبيد، به. ولفظه لفظ الترمذي. وأخرجه البيهقي في الاعتقاد (١/ ٢١٣)، عن محمد بن عبد الوهاب، عن محمد بن يعقوب، عن يعلى بن عبيد، به. ولفظه لفظ مسلم.

الثالث: طريق وكيع بن الجراح: أخرجه من طريقه: ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٥٠٦)، عن وكيع، به. باللفظ المذكور في المتن.

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، في الموضع السابق، عن زهير بن حرب، وأبي بكر بن أبي شيبة، كلاهما عن وكيع، به. ولم يذكر لفظه.

=

=

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٥)، حديث (٩٧٥١)، عن وكيع، به. بالترتيب المذكور في المتن، إلا أن فيه ذكر «الدخان» بدل «الدجال». وهذا خطأ؛ لأن جميع الرواة متفقون على ذكر «الدجال»، دون «الدخان»، ومما يؤكد وقوع الخطأ أن الحديث رواه عن وكيع: ابن أبي شيبة، ولم يذكر لفظ «الدخان»، ويبعد أن يكون الخطأ من الإمام أحمد، أو ابنه عبد الله راوي المسند عنه، والأقرب أن يكون من القطيعي، راوي المسند عن عبد الله بن الإمام أحمد، فقد ذكرت له أوهام في روايته للمسند، فلعل هذا منها، والله تعالى أعلم. وانظر في ترجمة «القطيعي»: لسان الميزان، لابن حجر (١/ ١٤٥)، والكواكب النيرات، لأبي البركات (١/ ١٧).

الرابع: طريق إسحاق بن يوسف: أخرجه من طريقه الإمام مسلم في صحيحه، في الموضع السابق، عن زهير بن حرب، عن إسحاق، به. ولم يذكر لفظه. وقد توبع أبوحازم في روايته عن أبي هريرة، لكنها متابعة ضعيفة، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٠١): «ورواه إسحاق بن عبد الله القروي، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، به. ولكن لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه؛ لضعف القروي».

* استشكل جمع من العلماء حديث أبي هريرة؛ لأمرين:

الأول: أن ظاهره أن الإيمان لا ينفع بعد خروج الدجال، ووجه الإشكال: أن وقت خروج الدجال يكون قبل زمن عيسى عليه السلام، وعليه فإنه لا ينفع الكفار إيمانهم، ولا الفساق توبتهم، عند نزول عيسى عليه السلام؛ لأن باب التوبة قد أغلق في زمن الدجال، وقد جاء النص صريحا بأن الإيمان ينفع في زمن عيسى عليه السلام، وإلا لما صار الدين واحدا، ولا كان في نزوله كبير فائدة.

الثاني: أن النصوص متظافرة على تفسير الآية بطلوع الشمس من مغربها، دون ذكر

=

=

الدجال، أو الدابة.

* مسالك العلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث:

مذهب عامة المفسرين أن المراد بـ «البعض» في الآية، هو: طلوع الشمس من مغربها.

وروي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: «التوبة معروضة على ابن آدم إن قبلها مالم تخرج إحدى ثلاث: مالم تطلع الشمس من مغربها، أو الدابة، أو فتح يأجوج ومأجوج».

وهذا الأثر عن ابن مسعود - رضي الله عنه - لا يصح، وقد روي عنه من عدة طرق أنه فسر الآية بطلوع الشمس من مغربها دون ذكر الدابة، أو يأجوج ومأجوج.

وأما حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - والذي فيه ذكر الثلاث؛ فقد قال بعض أهل العلم إن التوبة تنقطع بخروج إحدى هذه الثلاث.

قال ابن هبيرة: «حكم هاتين الآيتين (يعني الدابة، والدجال) في أن نفسا لا ينفعها إيمانها، الحكم في طلوع الشمس من مغربها». اهـ

وقال المناوي: «كل من الثلاثة مستبد في أن الإيمان لا ينفع بعد مشاهدتها؛ فأيها تقدمت ترتب عليها عدم النفع». اهـ

لكن مذهب عامة أهل العلم أن التوبة لا تنقطع إلا بطلوع الشمس من مغربها، وأما حديث أبي هريرة فلهم في الجواب عنه مسلكان:

الأول: مسلك قبول الحديث، مع توجيهه:

وهذا مذهب الجمهور من العلماء، حيث ذهبوا إلى توجيه الحديث، ودفع التعارض بينه وبين بقية الأحاديث، والتي اقتصرت على تفسير الآية بطلوع الشمس من مغربها، ولهم في التوجيه مذاهب:

الأول: أن عدم قبول التوبة مترتب على مجموع الثلاث - الدجال، والدابة،

=

=

وطلوع الشمس من مغربها - فإذا اجتمعت الثلاث انقطعت التوبة، وطلوع الشمس هو آخرها، وهو الذي يتحقق به عدم القبول.

قال ابن مفلح - بعد أن أورد حديث «ثلاث إذا خرجن» -: «فهذا المراد به أن طلوع الشمس آخر الثلاثة خروجا؛ فلا تعارض بينه وبين ما سبق». اهـ يريد الأحاديث التي اقتصرت على تفسير الآية بطلوع الشمس من مغربها.

واختار هذا الجمع: الملا علي بن سلطان القاري، والمباركفوري، غير أنهما لم يذكرا أن طلوع الشمس من مغربها هو آخر الثلاث.

وذكر الشيخ حمود التويجري حديث أبي هريرة من رواية الإمام أحمد، والتي فيها لفظ «الدخان» بدل «الدجال» وبين أن التوبة لا تزال مقبولة حتى تجتمع الثلاث، والتي آخرها طلوع الشمس من مغربها.

المذهب الثاني: إن كان البعض المذكور في الآية عدة آيات؛ فطلوع الشمس هو آخرها المتحقق به عدم القبول، وإن كان إحدى آيات؛ فهو محمول على طلوع الشمس من مغربها؛ لأنه أعظم الثلاث.

ذكره القاسمي في تفسيره، وهو بمعنى التوجيه الأول.

المذهب الثالث: أن خروج الثلاث يكون متتابعا، بحيث يكون الزمن الذي بينها يسير جدا؛ فتكون النسبة التي بينها مجازية، فكأنها خرجت في وقت واحد.

ذكره الحافظ ابن حجر، وتعقبه بقوله: «وهذا بعيد؛ لأن مدة لبث الدجال إلى أن يقتله عيسى، ثم لبث عيسى وخروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك سابق على طلوع الشمس من المغرب». اهـ

قلت: بل جاء النص صريحا بأن مدة لبث الدجال إلى أن يقتله ابن مريم عليه السلام، أطول من ذلك؛ فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوما، أو أربعين شهرا، أو أربعين

=

=

عاما، فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة....".

وعن النواس بن سمعان - رضي الله عنه - قال: «ذكر رسول الله ﷺ الدجال..... فقلنا: يا رسول الله: وما لبثه في الأرض؟ قال أربعون يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قال النووي: «قوله ﷺ: (يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم) قال العلماء: هذا الحديث على ظاهره، وهذه الأيام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور في الحديث؛ يدل عليه قوله ﷺ: (وسائر أيامه كأيامكم)». اهـ

وأما عيسى ابن مريم عليه السلام فقد جاء أن مدة لبثه أربعون سنة؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ ذكر عيسى فقال: ".... ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون».

فهذه النصوص وغيرها ترد القول بأن خروج الثلاث يكون متتابعا، وأن الزمن الذي بينها يسير، وحسبك مدة بقاء عيسى عليه السلام؛ فإن مكثه أربعين سنة ليس بالزمن اليسير.

المذهب الرابع: ما قاله البيهقي: «إن كان في علم الله أن طلوع الشمس سابق احتمل أن يكون المراد نفى النفع عن أنفس القرن الذين شاهدوا ذلك، فإذا انقرضوا وتطاول الزمان وعاد بعضهم إلى الكفر عاد تكليف الإيمان بالغيب، وكذا في قصة الدجال لا ينفع إيمان من آمن بعيسى عند مشاهدة الدجال، وينفعه بعد انقراضه». اهـ

قلت: يتخرج من كلام البيهقي أن التوبة تنقطع عند طلوع الشمس من مغربها، ثم تعود بعد تطاول الزمان؛ فإذا خرج الدجال انقطعت، ثم تعود بعد ذلك لتنفع وقت عيسى عليه السلام.

=

=

وقريبا منه قول أبي عبد الله القرطبي: «توبة كل من شاهد ذلك (يعني طلوع الشمس من مغربها) أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبيه ﷺ وبوعده قد صار ضرورة؛ فإن امتدت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان، ولا يتحدثون عنه إلا قليلا، فيصير الخبر عنه خاصا وينقطع التواتر عنه؛ فمن أسلم في ذلك الوقت أو تاب قبل منه». اهـ وأيد ذلك:

١ - بما روي: «أن الشمس والقمر يكسيان بعد ذلك الضوء والنور، ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك».

٢ - وبما روي عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - أنه قال: «يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة، حتى يغرسوا النخل».

٣ - وبما روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: «لا يقبل الله من كافر عملا ولا توبة إذا أسلم حين يراها إلا من كان صغيرا يومئذ؛ فإنه لو أسلم بعد ذلك قبل ذلك منه، ومتى كان مؤمنا مذنبا فتاب من الذنب قبلت منه».

٤ - وبما روي عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - أنه قال: «إنما لم يقبل وقت الطلوع حتى تكون صيحة فيهلك كثير من الناس، فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت وهلك لم يقبل منه، ومن تاب بعد ذلك قبلت منه».

ونقل الحافظ أبو زرعة العراقي عن شيخه البلقيني أنه قال: «إذا تراخى الحال بعد ذلك، وبعد العهد بهذه الآية، وتناساه أكثر الناس قبلت التوبة والإيمان بعد ذلك؛ لزوال الآية التي تضطر الناس إلى الإيمان». اهـ

ونقله عن البلقيني: الإمام الآلوسي، ومال إليه وأيده.

واعترض على هذا المذهب: بأن لا دليل عليه، وبأن الأخبار الصحيحة ترده؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه». فمفهوم هذا الحديث أن من تاب بعد ذلك لم تقبل منه.

=

=

وقد ساق الحافظ ابن حجر عدة آثار تدل على أن الشمس إذا طلعت من مغربها أغلق باب التوبة ولم يفتح بعد، ثم قال: «فهذه آثار يشد بعضها بعضا، متفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب أغلق باب التوبة ولم يفتح بعد، وأن ذلك لا يختص بيوم الطلوع، بل يمتد إلى يوم القيامة». اهـ

المسلك الثاني: مسلك تضعيف الحديث:

فقد ذهب أبو العباس القرطبي إلى أن ذكر الدجال في حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهم من بعض الرواة، وأن التكليف لا يرتفع إلا بطلوع الشمس من مغربها، كما دلت عليه بقية الأحاديث..

والذي يظهر صوابه ـ والله تعالى أعلم ـ هو مسلك قبول الحديث، مع توجيهه، ودفع التعارض بينه وبين بقية الأحاديث التي اقتصرت على تفسير الآية بطلوع الشمس من مغربها، فيكون معنى حديث أبي هريرة: أن عدم قبول التوبة مترتب على مجموع الثلاث - الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها - فإذا اجتمعت الثلاث انقطعت التوبة، ويكون طلوع الشمس هو آخرها، وهو الذي يتحقق به عدم القبول.

ويمكن تلخيص المسألة وحصرها في خمسة أمور:

١ - أن المراد بـ «البعض» في الآية هو طلوع الشمس من مغربها فقط، دون غيرها.

٢ - أن التوبة لا تنقطع إلا بطلوع الشمس من مغربها.

٣ - أن طلوع الشمس من مغربها هو آخر الآيات الثلاث المذكورة في حديث أبي هريرة.

٤ - أن زمن عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يعقب الدجال.

٥ - أن زمن عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فيه خير كثير، دنيوي وأخروي، والتوبة والإيمان مقبولان فيه.

=

=

وسأذكر من الأدلة ما يؤيد كل أمر، مع ذكر الإيرادات والاعتراضات، والجواب عنها.

أولا: الأدلة على أن المراد بـ «البعض» في الآية هو طلوع الشمس من مغربها فقط، دون غيرها:

بعد النظر في الأحاديث الواردة في تفسير الآية وجدت أنها متفقة على تفسير «البعض» بطلوع الشمس من مغربها، ولم يأت ما يخالف ذلك إلا ما يظهر من حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، ولكن عند التأمل فإنه لا يظهر بينه وبين بقية الأحاديث تعارض، لإمكان حمله على بقية الأحاديث التي اقتصرت على تفسير الآية بطلوع الشمس من مغربها، وإن في اتفاق الأحاديث على تفسير «البعض» بالطلوع فقط، لدلالة واضحة على أنه هو المراد.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد بـ «بعض آيات الله» طلوع الشمس من مغربها». اهـ

وقال الآلوسي: «روي هذا التعيين عنه ﷺ في غير ما خبر صحيح». اهـ

ولنورد بعضا من هذه الأخبار الصحيحة:

١ - عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها؛ فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل» أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، حديث (٤٦٣٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٥٧).

٢ - وعن أبي سعيد الخدري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، عن النبي ﷺ - في قول الله عَزَّ وَجَلَّ -: (أو يأتي بعض آيات ربك) [الأنعام: ١٥٨] قال: «طلوع الشمس من مغربها».

٣ - وعن أبي ذر الغفاري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، أن النبي ﷺ قال يوما: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى

=

=

مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا، حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها، فقال رسول الله ﷺ: أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، حديث (١٥٩).

٤ - وعن صفوان بن عسال المرادي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من قبل مغرب الشمس بابا مفتوحا عرضه سبعون سنة، فلا يزال ذلك الباب مفتوحا للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه؛ فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا».

٥ - ومما يؤكد أن المراد بـ «البعض» هو طلوع الشمس فقط، اتفاق الصحابة على تفسير الآية بذلك، روي هذا التفسير عن: ابن عباس، وعبد الله بن عمرو، وابن مسعود، وصفوان بن عسال، ولا يعرف لهم مخالف؛ إلا ما روي عن ابن مسعود - في إحدى الروايات عنه - بأنه فسرها بإحدى ثلاث: الطلوع، أو الدابة، أو يأجوج ومأجوج، وقد تقدم أن ذلك لا يصح عنه.

فهذه الأحاديث مع اتفاق الصحابة رضي الله عنهم تؤكد القول بأن المراد بالبعض هو طلوع الشمس من مغربها دون غيرها، ولو كانت الثلاث المذكورة في حديث أبي هريرة هي المرادة بتفسير الآية، أو بعض المراد لذكرت في بقية الأحاديث، وفي هذا دلالة واضحة على أن أحد الثلاث غير مستبد بانقطاع التوبة بوجوده، بل لا بد من اجتماعها معا، والله تعالى أعلم.

=

=

فإن قيل: هذا التأويل فيه إهمال لبقية الثلاث المذكورة في الحديث؛ لأنكم قصرتم تفسير الآية على واحدة من هذه الثلاث، ولم تعملوا البقية، والحديث صريح بأن المراد بالبعض هو الثلاث، لا واحدة منها.

والجواب على هذا الإيراد سيأتي تبعا عند ذكر فائدة مجيء الثلاث في الحديث، وسيأتي أن قصر تفسير الآية على واحدة من الثلاث لا يعني إهمال البقية، وإنما ذكرت لفائدة أخرى كما سيأتي تقريره.

ثانيا: الأدلة على أن التوبة لا تنقطع إلا بطلوع الشمس من مغربها:

١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

٢ - وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

٣ - وعن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

فهذه الأحاديث متفقة على أن التوبة لا تنقطع إلا بطلوع الشمس من مغربها، والقول بأن زمن الدجال لا ينفع فيه الإيمان ولا التوبة فيه مخالفة صريحة لهذه الأحاديث؛ لأن وقته قبل طلوع الشمس من مغربها.

ثالثا: الأدلة على أن طلوع الشمس من مغربها هو آخر الآيات الثلاث المذكورة في حديث أبي هريرة.

هناك عدة أدلة تؤيد القول بأن طلوع الشمس من مغربها هو آخر الثلاث المذكورة في الحديث، ومن هذه الأدلة:

١ - حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «من تاب قبل أن تطلع الشمس

=

=

من مغربها تاب الله عليه» أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء، حديث (٢٧٠٣) ومفهوم هذا الحديث أن من تاب بعد أن تطلع الشمس من مغربها لم تقبل منه توبته، والأصل بقاء الحديث على إطلاقه، ولا يصح تقييد ذلك بوقت الطلوع، وإذا كانت التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها مردودة امتنع أن يكون وقت الدجال بعد طلوعها؛ لأن عيسى عليه السلام بعد الدجال، وزمنه فيه خير كثير، والإيمان والتوبة مقبولان فيه، فلم يبق إلا أن يكون طلوعها بعد الدجال.

٢ - وحديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء، حاجا أو معتمرا، أو ليثنينهما» أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الحج، حديث (١٢٥٢).، وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج» أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحج، حديث (١٥٩٣). وقد ثبت أن خروج يأجوج ومأجوج يكون بعد عيسى عليه السلام ،

فهذان الحديثان يدلان على أن باب التوبة لم يغلق بعد في زمن عيسى، إذ لو كان قد أغلق لما كان للحج فائدة، وقد سبق أن وقت الدجال قبل زمن عيسى عليه السلام، وفي ذلك دلالة واضحة على أن طلوع الشمس يعقب الدجال.

٣ - ومما يؤكد أن طلوع الشمس هو آخر الثلاث، أن الأحاديث متظافرة على أن التوبة لا تنقطع إلا بطلوع الشمس من مغربها، ولو كانت هي الأولى في الخروج لما كان لذكر بقية الثلاث فائدة؛ لأن انقطاع التوبة قد وقع بطلوع الشمس قبل ذلك.

قال الشيخ حمود التويجري - بعد أن أورد حديث (ثلاث إذا خرجن) -: «وظاهر هذا الحديث يدل على أن التوبة لا تزال مقبولة حتى تخرج الثلاث كلها، وقد تواترت الأحاديث الدالة على أن التوبة لا تزال مقبولة ما لم تطلع الشمس من

=

=

مغربها، فيستفاد من حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مع الأحاديث الواردة في قبول التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها أن خروج الدابة والدخان متقدم على طلوع الشمس من مغربها، والله أعلم». اهـ

وأما الدابة فالأظهر أن خروجها متقدم على طلوع الشمس من مغربها، لكن الزمن الذي بينهن يسير جدا، وليس في هذا القول مخالفة لحديث عبد الله بن عمرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، أن النبي ﷺ قال: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى».؛ لأن الحديث إنما ذكر الأولية للشمس والدابة معا، لا للشمس وحدها؛ بدليل قوله في الحديث: «وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا».، ولو كان مراده ﷺ في الأولية الشمس دون الدابة لما قال ذلك، ومما يؤكد هذا المعنى أن عبد الله بن عمرو راوي الحديث لم يفهم من الحديث أن طلوع الشمس متقدم على الدابة، حيث وقع منه تردد في الأولية بقوله: «وأظن أولاها خروجا طلوع الشمس من مغربها» وترجيحه لأولية الشمس مبني على اطلاعه على كتب أهل الكتاب، لا أنه سمع ذلك من النبي ﷺ، يدل على ذلك أن الراوي عن ابن عمرو قال: «ثم قال عبد الله - وكان يقرأ الكتب -: وأظن أولاها خروجا طلوع الشمس من مغربها»، قال الحافظ ابن كثير: «وقد ظن عبد الله بن عمرو أن طلوع الشمس متقدم على الدابة، وذلك محتمل ومناسب». اهـ

قلت: لكن الذي يظهر تقدم الدابة على الطلوع، وأما الأحاديث الواردة بتقدم طلوع الشمس على الدابة، فإنها ضعيفة، والله تعالى أعلم.

الإيرادات والاعتراضات على القول بأن زمن الدجال متقدم على طلوع الشمس من مغربها:

الإيراد الأول: فإن قيل: فما جوابكم عن حديث عبد الله بن عمرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال:

=

=

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا».

فهذا الحديث صريح بأن طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة يعد من أول الآيات، ويلزم منه أن خروج الدجال متأخر عنهما.

والجواب: أن الروايات مختلفة في تعيين أول الآيات:

١ - ففي رواية: «أن أولها طلوع الشمس من مغربها».

٢ - وفي رواية: «أن أولها نار تحشر الناس إلى محشرهم».

٣ - وقيل: أولها خروج الدجال.

وللعلماء في الجمع بين هذه الأحاديث أقوال:

١ - قال الحافظ ابن حجر: «الذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم عليه السلام، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب قال: وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس». اهـ

واختار هذا الجمع البرزنجي، حيث نقله عن الحافظ ابن حجر واستحسنه.

٢ - ويرى الحافظ ابن كثير: أن طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة يعد من أول الآيات السماوية التي ليست بمألوفة، وأما خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج فكلها أمور مألوفة، وهي من أول الآيات الأرضية.

قال الحافظ ابن كثير - بعد أن أورد حديث عبد الله بن عمرو -: «أي أول الآيات

=

=

التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، فكل ذلك أمور مألوفة؛ لأن أمر مشاهدته ومشاهدة أمثاله مألوف؛ فأما خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف ومخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر؛ فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية». اهـ

واختار هذا الجمع ابن أبي العز الحنفي.

٣ - ويرى الطيبي أن الآيات عبارة عن أمارات على الساعة، إما على قربها، وإما على حصولها؛ فمن الأول: الدجال، ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويأجوج ومأجوج، والخسف، ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس. واختار هذا الجمع المناوي.

٤ - ويرى أبو العباس القرطبي أن الأولية في حديث عبد الله بن عمرو المراد بها: أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة والطبع على كل قلب بما فيه، وعلل ذلك: بأن ما قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمان الكافر فيه يصح.

وأما حديث أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب». فقد جاء في حديث آخر أنها آخر الآيات؛ فعن حذيفة بن أسيد الغفاري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: «اطلع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى

=

=

محشرهم».

قال الحافظ ابن حجر: «ويجمع بينهما بأن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات، وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلا، بل يقع بانتهائها النفخ في الصور، بخلاف ما ذكر معها فإنه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا». اهـ

قلت: ويؤيد هذا الجمع أن حديث أنس روي بلفظ: «وأما أول شيء يحشر الناس فنار تخرج من قبل المشرق فتحشرهم إلى المغرب».

حيث لم ينص على أنها أول الآيات، بل فيه أنها أول من يحشر الناس.

ويحتمل أن النار المذكورة في حديث أنس نار أخرى غير المذكورة في حديث حذيفة، فالأولى تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، والثانية تخرج من اليمن فتسوق الناس إلى المحشر الذي هو أرض الشام، فتكون الأولى أول الآيات، والثانية آخر الآيات.

يقوي هذا الاحتمال اختلاف مكان وصفة خروج كل من النارين؛ فالأولى تخرج من المشرق وتسوق الناس إلى المغرب، والثانية تخرج من اليمن وتسوق الناس إلى محشرهم.

وبهذا يتبين أن الحديث الوارد في أن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة، لا ينافي القول بأن أولها خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام، لما علمت من اختلاف الروايات في أول الآيات، ولما ذكر من أن الأولية في الحديث ليست على إطلاقها، وعليه فلا يصح الاعتراض، والله تعالى أعلم.

الإيراد الثاني: أن في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - تقديم طلوع الشمس من مغربها على الدجال، فكيف يقال إن طلوعها آخر الثلاث؟

والجواب: أن هذا الترتيب غير متفق عليه بين رواة الحديث، وتفصيل ذلك:

=

=

أن الحديث رواه فضيل بن غزوان، وقد روي عن فضيل من أربعة طرق، وفي كل طريق اختلاف في ترتيب الآيات:

الأول: طريق وكيع بن الجراح: وقد اتفق الرواة عنه على الترتيب الآتي: طلوع الشمس، والدجال، والدابة.

الثاني: طريق يعلى بن عبيد: وقد اختلف الرواة عنه في الترتيب:

فرواه عبد بن حميد، وإسحاق بن راهويه، والصغاني، بلفظ: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس.

ورواه عنه محمد بن عبد الوهاب، بلفظ: طلوع الشمس، والدجال، والدابة.

الثالث: طريق محمد بن فضيل: وقد اختلف الرواة عنه في الترتيب:

فرواه محمد بن العلاء، وعبد الله بن عامر بلفظ: طلوع الشمس، والدجال، والدابة.

ورواه أبو هشام الرفاعي بلفظ: الدابة، والدجال، وطلوع الشمس.

الرابع: طريق إسحاق بن يوسف: ولم يخرجه من هذا الطريق إلا مسلم في صحيحه، ولم يذكر لفظ الحديث، وإنما ذكر هذا الطريق متابعة.

والخلاصة: أن هذه الروايات الواردة في ترتيب الحديث لا يمكن الجزم بأن أحدها هو الذي قاله النبي ﷺ؛ وإذ الأمر كذلك فلا يصح الجزم بأن طلوع الشمس من مغربها هو أول الثلاث.

وعلى التسليم بأن الحديث قد جاء هكذا عن النبي ﷺ بتقديم الطلوع على الثلاث؛ فإنه لا يدل على تقدم الطلوع؛ لأن تقديمها في الذكر لا يقتضي تقدمها في الوقوع، كما أن العطف لا يفيد الترتيب، ولاحتمال أن يكون قدم الطلوع؛ لأن مدار عدم قبول التوبة متوقف عليه.

ومما يؤكد أن الترتيب غير مراد في الحديث: ذكر الدجال بين طلوع الشمس

=

=

وخروج الدابة، وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن طلوع الشمس وخروج الدابة قريبان من بعضهما، ونص الحديث: «وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا».، وقد تقدم أن مدة مكث الدجال إلى أن يقتله ابن مريم تعد طويلة، وهذا دليل واضح بأن طلوع الشمس ليس بأول الثلاث، والله تعالى أعلم.

الإيراد الثالث: إذا كانت التوبة لا تنقطع إلا بطلوع الشمس من مغربها، فما فائدة ذكر الدجال والدابة في الحديث؟

والجواب: أن ذكرهما هو بمثابة التحذير والإعلام بقرب طلوع الشمس من مغربها، فكأن خروجهما إرهاص وإيذان بقرب طلوع الشمس من مغربها، يدل على ذلك: حديث أبي مالك الأشعري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن النبي ﷺ قال: «إن ربكم أنذركم ثلاثا....، فذكر الدخان، والدابة، والدجال» وهذا الحديث واضح الدلالة في المقصود؛ لأن فيه التصريح بأن الدجال والدابة إنما هي نذر لما بين يديها من طلوع الشمس من مغربها، والذي يعني رفع التوبة، وعدم قبول الإيمان، فيكون خروجهما تحذيرا للناس وتنبيها لهم بأن عليهم التوبة قبل أن يأت يوم لا تنفع فيه، وذلك اليوم هو طلوع الشمس من مغربها.

وإنما لم يذكر في حديث أبي مالك طلوع الشمس من مغربها؛ لأن طلوعها لا يقع فيه إنذار، وهذا مما يؤكد أن الدجال والدابة إنما هي نذر، والله تعالى أعلم.

ويلاحظ في حديث أبي هريرة تعليق الشرط على ثلاثة أشياء، مع أن الجواب حاصل بأحدها، وهو طلوع الشمس من مغربها، ولهذا نظائر في الكتاب والسنة:

فمن الكتاب: قوله تعالى: (إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت) [الانفطار: ١ - ٥] فانظر كيف علق الشرط على أربعة أشياء، وهي: انفطار السماء، وانتثار الكواكب،

=

=

وتفجير البحار، وبعثرة القبور، مع أن الجواب - وهو علم النفس بما قدمت وأخرت - لا يكون إلا بعد بعثرة القبور.

ونظير هذا المثال من السنة قوله ﷺ: «إذا جلس بين شعبها الأربع، ومس الختان الختان؛ فقد وجب الغسل». فانظر كيف علق وجوب الغسل على شيئين، مع أنه لا يجب إلا بواحد منهما، وهو التقاء الختانين.

رابعا: الأدلة على أن زمن عيسى - عليه السلام - يعقب الدجال:

تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ بخروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وأغلب هذه الأحاديث فيها التصريح بقتل عيسى ابن مريم للدجال، وفي هذا دلالة واضحة بأن زمن عيسى يعقب الدجال، وفيما يأتي ذكر بعض الأحاديث الدالة على قتل عيسى عليه السلام للدجال:

١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق، أو بدابق ،

فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدا، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدا، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاءوا الشأم خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فأمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته» أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفتن، حديث (٢٨٩٧).

=

=

٢ - وعن النواس بن سمعان - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أن النبي ﷺ ذكر الدجال فقال: "....
فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله.... » أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفتن، حديث (٢٩٣٧). قال الحافظ ابن كثير في «النهاية» (١/ ١٤٩): «هذا هو الأشهر في موضع نزوله أنه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق؛ وقد رأيت في بعض الكتب أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق، فلعل هذا هو المحفوظ، وتكون الرواية «فينزل على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق» فتصرف الراوي في التعبير بحسب ما فهم، وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى شرق الجامع الأموي، وهذا هو الأنسب والأليق». اهـ

خامسا: الأدلة على أن زمن عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فيه خير كثير، دنيوي وأخروي، والتوبة والإيمان مقبولان فيه:

هناك عدة أدلة تدل على أن زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التوبة والإيمان مقبولان فيه، سواء كانت التوبة والإيمان قبل نزوله، أم بعد ذلك.

وفيما يلي ذكر بعض هذه الأدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا (١٥٩)) [النساء: ١٥٩].

حيث أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة أن جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد نزوله، ولا يتخلف أحد منهم عن التصديق والإيمان به، فدل على قبول الإيمان في زمنه.

الإيرادات والاعتراضات على هذا الدليل:

=

=

الإيـراد الأول: أن الاسـتدلال بهـذه الآيـة غيـر مـستقيم؛ لأن هنـاك خلافـا بـين المفسرين في مرجع الضمير في قوله: (قبل موتـه) [النساء: ١٥٩] فبعضهم يقـول: إن الضمير راجع إلى الكتابي، والمعنى أن الكتـابي يـؤمن عنـد المـوت والمعاينـة، بأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عبد الله ورسوله.

وقال آخرون: معنى الآية: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمـد ﷺ قبـل مـوت الكتابي.

والجواب: أن الصواب رجوع الضمير إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا إلى الكتابي، وهذا هـو مذهب الجمهور من المفسرين، روي عن أبي هريـرة، وابـن عبـاس، وبـه قـال أبـو مالك، والحسن البصري، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهو اختيار: ابن جرير، وابن كثير، والشوكاني، والشنقيطي.

ومما يرجح هذا الاختيار:

١ - أن الضمائر في الآيات التي قبلهـا كلهـا راجعـة إلـى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قـال تعـالى: (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ومـا قتلـوه ومـا صـلبوه ولكـن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتبـاع الظـن ومـا قتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيمـا (١٥٨)) [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

فقوله: (وما قتلوه) (وما صلبوه) (ولكن شبه لهم) (اختلفوا فيـه) (لفـي شـك منـه) (ما لهم به من علم) (وما قتلوه) (بل رفعه الله) كل هذه الضمائر راجعة إلى عيـسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولمـا عطـف عليهـا قولـه: (وإن مـن أهـل الكتـاب إلا ليـؤمنن بـه قبـل موتـه) وجب أن يكون الضمير عائدا إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى تنسجم الضمائر.

٢ - ومما يقوي عود الضمير إلى عيـسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن الأصـل في الـضمير عـوده علـى مفسر مذكور، وليس في الآية ذكر للكتابي، وإنما المذكور عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

=

=

«فأما من فسر الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام؛ فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلا به فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيمانا نافعا له إذا كان قد شاهد الملك؛ كما قال تعالى: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) [النساء: ١٨]، وقال تعالى: (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) [غافر: ٨٤ – ٨٥]، ومن تأمل هذا القول وأمعن النظر فيه اتضح له أنه هو الواقع، لكن لا يلزم منه أن يكون هو المراد من الآية، والله تعالى أعلم».

الإيراد الثاني: على التسليم بأن الضمير عائد على عيسى عليه السلام؛ فإن هذا الإيمان إيمان اضطراري، بمعنى أن أهل الكتاب يتحققون أن عيسى عبد الله ورسوله، ومثل هذا لا ينفع صاحبه، كحالة الغرغرة فإن الإيمان لا ينفع عندها.

والجواب: أن الآية لم تفصل في هذا الإيمان، من حيث القبول والرد، فبقيت على إطلاقها بأن الإيمان نافع في زمن عيسى عليه السلام، ولا يصح تقييدها إلا بدليل.

الدليل الثاني: على أن من أحدث إيمانا أو توبة في زمن عيسى عليه السلام قبل منه، حديث أبي هريرة، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر عيسى ابن مريم فقال: "... وإنه نازل... فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام».

والشاهد من الحديث قوله: «ويدعو الناس إلى الإسلام»، وهذا نص صريح بأن عيسى عليه السلام يدعو إلى الإسلام، ويلزم من دعوته أن الإيمان مقبول ممن آمن به واتبعه، وإلا فكيف يدعوهم إلى الإسلام وهو يعلم أن إسلامهم غير نافع لهم.

فإن قيل: إن اللفظ الذي استدللتم به غير متفق عليه بين رواة الحديث، حيث روي بلفظ: «فيقاتل الناس على الإسلام»، وبلفظ: «ويعطل الملل، حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير الإسلام». وهذه الروايات ليس فيها أنه يدعو للإسلام،

=

=

وعليه فلا يستقيم الاستدلال.

فالجواب: أن لفظ: «فيقاتل الناس على الإسلام» هو بمعنى لفظ «ويدعو الناس إلى الإسلام» ولا فرق؛ لأن قتاله الناس على الإسلام إنما هو من أجل أن يسلموا، فمن أسلم كف عنه، ومن أبى قاتله، يدل على هذا المعنى حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.... » ومعلوم أن النبي ﷺ لم يبعث للقتال وحسب، وإنما بعث لدعوة الناس للإيمان، والقتال إنما هو لمن أعرض وأبى.

وكذا الرواية الثانية هي بمعنى هذه الرواية، والله تعالى أعلم.

الدليل الثالث: ما ورد من أحاديث أن المسلمين يقاتلون العدو في زمن الدجال، وزمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ،

وقد جاء ما يفيد بأن التوبة لا تنقطع ما دام المسلمون يقاتلون العدو؛ فعن عبد الله بن وقدان السعدي أن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»، والهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة؛ لحديث: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها».

وفي هذا كله دلالة واضحة على أن التوبة لا تزال مقبولة في زمن الدجال، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى أن تطلع الشمس من مغربها.

الدليل الرابع: قوله ﷺ عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام».

فهذا الحديث يدل على دخول الناس كافة في دين الله في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا يقال بأن عيسى يقتل جميع من لم يكن مؤمنا؛ لأن هذا لم يرد به دليل، ويبعد أن يقتل أعدادا هائلة من البشر؛ لأن نزوله إنما هو لهداية الناس، لا لإزهاق أرواحهم، فدل على أن وقته يكون لدعوة الناس للإيمان، وبالتالي فزمنه زمن

=

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩).

{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينهمْ} بِاخْتِلَافِهِمْ فِيهِ فَأَخَذُوا بَعْضه وَتَرَكُوا بَعْضه {وَكَانُوا شِيَعًا} فِرَقًا فِي ذَلِكَ وَفِي قِرَاءَة فَارَقُوا أَيْ تَرَكُوا دِينهمْ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ وَهُمْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى {لَسْت مِنْهُمْ فِي شَيْء} أَيْ فَلَا تَتَعَرَّض لَهُمْ {إِنَّمَا أَمْرهمْ إِلَى الله} يَتَوَلَّاهُ {ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ} فِي الْآخِرَة {بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} فَيُجَازِيهِمْ بِهِ وَهَذَا مَنْسُوخ بِآيَةِ السَّيْف[1].

=

إيمان وقبول، والله تعالى أعلم. ا.هـ من كتاب -[الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد ﷺ فتفرقوا، فلما بعث محمد أنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ٧٧، ٧٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٤٣٠ رقم ٨١٥٣) بالسند المسلسل بالعوفيين عن عطية العوفي عن ابن عباس به. وسنده ضعيف جدًا.

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} [الأنعام: ١٥٩]، أي: " إن الذين فرقوا دينهم بعد ما كانوا مجتمعين على توحيد الله والعمل بشرعه، فأصبحوا فرقا وأحزابا".

قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسُّدِّي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، =

=

وقد وصفُوا بالتفرق؛ قال الله تعالى (وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُوا الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة).

وقد خرج أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وابن حبان وصححه الحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة واقترفت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة).

عن السدي: "} فَرَّقُوا دِينَهُمْ}، قال: تركوا دينهم "، {وَكَانُوا شِيَعًا}، قال: فرقاء".

قال الزجاج: " معنى: {وكانوا شيعا}، أي: كانوا متفرقين في دينهم، يعنى به إليهود والنصارى، لأن النصارى بعضها يكفر بعضا وكذلك اليهود، وهم أيضا أهل التوراة، وبعضهم يكفر بعضا، أعني إليهود تكفر النصارى، والنصارى تكفر إليهود.

وفي هذه الآية حث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة، وأن لا يتفرقوا في الدين وأن لا يبتدعوا البدع ما استطاعوا".

وعن ابن عباس، في قوله: " {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا}، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} [الأنعام: ١٥٩]، أربعة تأويلات:

أحدها: أنهم اليهود خاصة، قاله مجاهد، والضحاك.

الثاني: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي.

قال السدي: معناه: " تركوا دينهم وكانوا شيعًا".

=

=

قال ابن عباس: "وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد، فتفرقوا. فلما بعث محمد أنزل الله: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء}".

الثالث: أنهم جميع المشركين، قاله الحسن.

الرابع: أنهم أهل البدع من هذه الأمة، الذين اتبعوا متشابه القرآن دون محكمه، قاله أبو هريرة.

وقد روي عن ابي هريرة، قال: "قال رسول الله ﷺ، في هذه الآية: "{إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء}، وليسوا منك، هم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة".

وعن شريح عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: "يا عائشة، {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا}، هم أصحاب الأهواء والبدع. يا عائشة، إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع ليست لهم توبة، فهم مني براء، وأنا منهم بريء".

قال ابن كثير: "غريب، لا يصح رفعه".

وقال أبو غالب، عن أبي أمامة، "في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا}، قال: هم الخوارج". قال ابن كثير: "وروى عنه مرفوعًا، ولا يصح".

الخامس: أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وهذا قول ابن كثير.

قال ابن كثير: "والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه} وَكَانُوا شِيَعًا} أي: فرقًا كأهل الملل والنحل - وهي الأهواء والضلالات - فالله قد بَرَّأ رسوله مما هم فيه. وهذه الآية كقوله تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

=

=

وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} الآية [الشورى: ١٣]، وفي الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلات، ديننا واحد».

فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل بُرآء منها".

قال الطبري: " والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله أخبر نبيه ﷺ أنه بريء ممن فارق دينه الحق وفرقه، وكانوا فرقًا فيه وأحزابًا شيعًا، وأنه ليس منهم. ولا هم منه، لأن دينه الذي بعثه الله به هو الإسلام، دين إبراهيم الحنيفية، كما قال له ربه وأمره أن يقول: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام: ١٦١].

فكان من فارق دينه الذي بعث به ﷺ من مشرك ووثنيّ يهودي ونصرانيّ ومتحنِّف، مبتدع قد ابتدع في الدين ما ضلّ به عن الصراط المستقيم والدين القيم ملة إبراهيم المسلم، فهو بريء من محمد ﷺ، ومحمد منه بريء، وهو داخل في عموم قوله: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء}".

وفي تفريقهم الذي فرقوه، قولان:

أحدهما: أنه الدين الذي أمر الله به، فرقوه لاختلافهم فيه باتباع الشبهات.

والثاني: أنه الكفر الذي كانوا يعتقدونه دينًا لهم.

وفي تفسير قوله تعالى: {وَكَانُوا شيَعًا} [الأنعام: ١٥٩]،وجهان:

أحدها: يعني: فرقاء. قاله السدي.

والثاني: ويحتمل: أن يكون الشيع المتفقين على مشايعة بعضهم لبعض، وهو الأشبه، لأنهم يتمالأون على أمر واحد مع اختلافهم في غيره. أفاده الماوردي.

قال ابن قتيبة: " {وَكَانُوا شِيَعًا}، أي: فرقا وأحزابا".

=

=

وفي أصل قوله تعالى: {شِيَعًا} [الأنعام: ١٥٩]، وجهان:

أحدهما: أصله: الظهور، من قولهم شاع الخبر إذا ظهر.

والثاني: أصله: الاتباع، من قولهم شايعه على الأمر إذا اتبعه، قاله الزجاج.

إذ أن معنى: «شيعت» في اللغة: اتبعت، والعرب تقول: شاعكم السلم وأشاعكم، السلم، ومعناه: تبعكم السلم، قال الشاعر:

أَلا يَا نَخْلةً مِن ذاتِ عِرْقٍ ... بَرُودِ الظِّلِّ، شَاعَكُم السَّلامُ

وتقول: آتيتك غدا أو شيعه أي أو اليوم الذي يتبعه، فمعنى «الشيعة»: الذين يتبع بعضهم بعضا، ومعنى «الشيع»: الفرق التي كل فرقة منهم يتبع بعضهم بعضا وليس كلهم متفقين.

واختلف القرأة في قراءة قوله: {فَرَّقُوا دِينَهُمْ} [الأنعام: ١٥٩]، على وجهين:

أحدهما: «فَارَقُوا دِينَهُمْ»، بالف، قرأه علي بن ابي طالب-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وحمزة والكسائي، والمعنى: خرجوا فارتدوا عنه، من «المفارقة».

والثاني: «فَرَّقوا دِينَهُمْ»، مشددة، قرأه عبد الله بن مسعود-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، و ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر.

وكأنّ عبد الله تأوّل بقراءته ذلك كذلك: "أن دين الله واحد، وهو دين إبراهيم الحنيفية المسلمة، ففرّق ذلك اليهود والنصارى، فتهوّد قومٌ وتنصَّر آخرون، فجعلوه شيعًا متفرقة".

قال الطبري: " والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان، قد قرأت بكل واحدة منهما أئمة من القرأة، وهما متفقتا المعنى غير مختلفتيه. وذلك أن كل ضالّ فلدينه مفارق، وقد فرَّق الأحزابُ دينَ الله الذي ارتضاه لعباده، فتهود بعض وتنصر آخرون، وتمجس بعض. وذلك هو «التفريق» بعينه، ومصير أهله شيعًا متفرقين غير مجتمعين، فهم لدين الله الحقِّ مفارقون، وله مفرِّقون. فبأيِّ

=

=

ذلك قرأ القارئ فهو للحق مصيب، غير أني أختار القراءة بالذي عليه عُظْم القرأة، وذلك تشديد «الراء» من «فرقوا»".

قوله تعالى: {لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: ١٥٩]، أي: " إنك -أيها الرسول- بريء منهم".

قال الزجاج: " يدل على أن من فرق دينه من أهل ملة الإسلام وابتدع البدع فقد صار به منهم".

وفي قوله تعالى: {لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: ١٥٩]، وجوه:

أحدها: لست من قتالهم في شيء، ثم نسخها بسورة التوبة فأمر بقتالهم، قاله السدي، والكلبي.

والثاني: لست من مخالطتهم في شيء، نَهْيٌ لنبيه -ﷺ- عن مقاربتهم، وأمر له بمباعدتهم، قاله قتادة، كما قال النابغة:

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُورًا ... فإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّي

والثالث: معناه: بريء منهم نبيهم ﷺ. قاله أبو الأحوص.

وفي هذا المعنى روي مرة الطيب، قال: "ليتق امرؤ ألا يكون من رسول الله ﷺ في شيء. ثم قرأ هذه الآية: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء}".

والرابع: معناه: ليس إليك شيء من أمرهم. وهذا قول ابن قتيبة.

والخامس: معناه: من السؤال عنهم والبحث عن تفرقهم. أفاده الآلوسي.

والسادس: معناه: لست منهم في شيء من الضرر، وهو وعد لرسول الله ﷺ بالعصمة عنهم. ذكره الآلوسي كذلك..

قال الطبري: " قوله: {لست منهم في شيء}، إعلام من الله نبيَّه محمدًا ﷺ أنه من مبتدعة أمته الملحدة في دينه بريء، ومن الأحزاب من مشركي قومه، ومن اليهود

=

=

والنصارى".

قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ} [الأنعام: ١٥٩]، أي: " إنما حكمهم إلى الله تعالى".

قال الطبري: " يقول: أنا الذي إليَّ أمر هؤلاء المشركين الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعًا، والمبتدعة من أمتك الذين ضلوا عن سبيلك، دونك ودون كل أحد. إما بالعقوبة إن أقاموا على ضلالتهم وفُرْقتهم دينهم فأهلكهم بها، وإما بالعفو عنهم بالتوبة عليهم والتفضل مني عليهم".

عن السدي: قوله: "{إنما أمرهم إلى الله}، هؤلاء اليهود والنصارى".

قوله تعالى: {ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام: ١٥٩]، أي: " ثم يخبرهم بأعمالهم، فيجازي من تاب منهم وأحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته".

قال الطبري: " يقول: ثم أخبرهم في الآخرة عند ورودهم عليَّ يوم القيامة بما كانوا يفعلون، فأجازي كلا منهم بما كانوا في الدنيا يفعلون، المحسنَ منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة".

وفي حكم قوله تعالى: {لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [الأنعام: ١٥٩]، قولان:

أحدها: معناه: لست من قتالهم في شيء، ثم نسخ بآية السيف: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة: ٥]. قاله السدي.

والثاني: أنها نزلت على النبي ﷺ إعلامًا من الله له أنَّ من أمته من يُحْدث بعده في دينه. وليست بمنسوخة، لأنها خبرٌ لا أمر، والنسخ إنما يكون في الأمر والنهي. وهذا قول أبي الأحوص، ومالك بن مغول.

روي عن أبي الأحوص: " أنه تلا هذه الآية: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء}، ثم يقول: بريء نبيكم ﷺ منهم".

وقال ابن قتيبة: معناه: " ليس إليك شيء من أمرهم".

=

=

قال ابن الجوزي: " فعلى هذين القولين [الأخيرين]، الآية محكمة".
قال النحاس: "إن هذه الآية عن الناسخ والمنسوخ بمعزل".
قال الطبري: " والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قوله: {لست منهم في شيء}، إعلام من الله نبيَّه محمدًا ﷺ أنه من مبتدعة أمته الملحدة في دينه بريء، ومن الأحزاب من مشركي قومه،
ومن اليهود والنصارى. وليس في إعلامه ذلك ما يوجب أن يكون نهاه عن قتالهم، لأنه غير محال أن في الكلام: لست من دين اليهود والنصارى في شيء فقاتلهم. فإن أمرهم إلى الله في أن يتفضل على من شاء منهم فيتوب عليه، ويهلك من أراد إهلاكه منهم كافرًا فيقبض روحه، أو يقتله بيدك على كفره، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون عند مقدَمهم عليه.
وإذ كان غير مستحيل اجتماع الأمر بقتالهم، وقوله: {لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله}، ولم يكن في الآية دليلٌ واضح على أنها منسوخة، ولا ورد بأنها منسوخة عن الرسول خبرٌ كان غير جائز أن يُقْضَى عليها بأنها منسوخة، حتى تقوم حجةٌ موجبةٌ صحةَ القول بذلك، لما قد بينا من أن المنسوخ هو ما لم يجز اجتماعه وناسخه في حال واحدة".
ومن فوائد الآية الكريمة: أن الجماعة حق، والفرقة زيغ، قال تعالى في موضع آخر: " {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} [هود: ١١٨]، فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف.
وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل، أن النبي ﷺ، قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة، والعامة، والمسجد».
وعن النبي ﷺ: «أنه قال لما نزل قوله تعالى: "{قل هو القادر على أن يبعث

=

عليكم عذابا من فوقكم} [الأنعام: ٦٥] قال: هاتان أهون».

فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض، مع براءة الرسول من هذه الحال، وهم فيها في جاهلية. ولهذا قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن – فهو هدر، أنزلوهم منزلة الجاهلية.

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت تقول: "ترك الناس العمل بهذه الآية، يعني قوله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} [الحجرات: ٩]. فإن

المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية".

ومنها حرمة الفرقة في الدين وأن اليهود والنصارى فرقوا دينهم وأن أمة الإسلام أصابتها الفرقة كذلك بل وهي أكثر لحديث: "ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة". وفي رواية: قيل فمن الناجية؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابي". رواه جماعة من الأئمة.

فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة، وأن الاختلاف واقع لا محالة.

فقد حذر الله ﷻ من التفرق والاختلاف بعد الائتلاف، فقال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}، وقال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)} [آل عمران: ١٠٥]، وقال سبحانه وتعالى: {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)} [يونس: ١٩]، وقال تَعَالَى: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠).

{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ} أَيْ لَا إِلَه إِلَّا الله {فَلَهُ عَشْر أَمْثَالهَا} أَيْ جَزَاء عَشْر حَسَنَات {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلهَا} أَيْ جَزَاءَهُ {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} يُنْقَصُونَ مِنْ جَزَائِهِمْ شَيْئًا(١).

=

فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)} [الروم: ٣١، ٣٢].

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "من صام ثلاثة أيام من كل شهر فذلك صيام الدهر؛ فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} فاليوم بعشرة أيام.

أخرجه أحمد (٥/ ١٤٥، ١٤٦)، والترمذي (٧٦٢)، والنسائي في المجتبى (٤/ ٢١٩)، وفي الكبرى (٢٧١٦)، وابن ماجه (١٧٠٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨١٦٦)، وابن عدي (٦/ ٢٤٣١)، والبزار (٣٩٠٤) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وفي بعض النسخ: حسن فقط، وصححه الصعدي في النوافح العطرة (٣٨٨)، وكذا صححه العلامة الألباني في الإرواء (٤/ ١٠٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٢/ ٦٠٦): حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات لكنه منقطع، فإن أبا عثمان -وهو عبد الرحمن بن مل- لم يسمعه من أبي ذر بينهما فيه رجل كما سيأتي. لكن الحديث روي من وجوه أخرى يصح بها، وله شواهد.

وعن عبد الله بن عمر؛ قال: نزلت هذه الآية في الأعراب: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}؛ قال رجل: فما للمهاجرين؟ قال: ما هو أعظم من ذلك: {إِنَّ اللهَ لَا

=

=

يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)} [النساء: ٤٠] وإذا قال الله لشيء: عظيم؛ فهو عظيم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ٨١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٤٣٢ رقم ٨١٦٨) من طريق فضيل بن مرزوق عن عطية العوفي عن ابن عمر.

وهذا سند ضعيف؛ فيه عطية العوفي؛ صدوق يخطئ كثيرًا كان شيعيًا مدلسًا.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٤٠٥) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

وعن الربيع بن أنس؛ قال: نزلت هذه الآية: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)} وهم يصومون ثلاثة أيام من الشهر ويؤدون عشر أموالهم، ثم نزلت الفرائض بعد ذلك صوم رمضان والزكاة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ٨١) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع به. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال. والثانية: أبو جعفر الرازي؛ صدوق سيئ الحفظ.

* قوله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [الأنعام: ١٦٠]، أي: "من لقي ربه يوم القيامة بحسنة من الأعمال الصالحة فله عشر حسنات أمثالها".

عن أبي ذر الغفاري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "من صام ثلاثة أيام من كل شهر فذلك صيام الدهر؛ فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها} فاليوم بعشرة أيام. أخرجه أحمد (٥/ ١٤٥، ١٤٦)، والترمذي (٧٦٢)، والنسائي في المجتبى (٤/ ٢١٩)، وفي الكبرى (٢٧١٦)، وابن ماجه (١٧٠٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨١٦٦)، وابن عدي (٦/ ٢٤٣١)، والبزار (٣٩٠٤) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وفي بعض النسخ: حسن

=

=

فقط، وصححه الصعدي في النوافح العطرة (٣٨٨)، وكذا صححه العلامة الألباني في الإرواء (٤/ ١٠٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٢/ ٦٠٦): حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات لكنه منقطع، فإن أبا عثمان - وهو عبد الرحمن بن مل- لم يسمعه من أبي ذر بينهما فيه رجل كما سيأتي. لكن الحديث روي من وجوه أخرى يصح بها، وله شواهد.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: من وافَى ربَّه يوم القيامة في موقف الحساب، من هؤلاء الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعًا، بالتوبة والإيمان والإقلاع عما هو عليه مقيم من ضلالته، وذلك هو الحسنة التي ذكرها الله فقال: من جاء بها فله عشر أمثالها، ويعني بقوله: {فله عشر أمثالها}، فله عشر حسنات أمثال حسنته التي جاء بها".

في تفسير «الحسنة والسيئة»، -هنا- قولان:

أحدهما: أن الحسنة: «لا إله إلا الله»، والسيئة: «الشرك». قاله عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأبو صالح، وشقيق، ومجاهد، والقاسم بن أبي بزة، وعطاء، وإبراهيم.

والثاني: أنه على العموم في الحسنات والسيئات أن جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها تفضلًا، وجعل جزاء السيئة مثلها عدلًا.

عن أبي ذرّ قال: "قلت: يا رسول الله، علمني عملا يقرِّبني إلى الجنة ويباعدني من النار. قال: إذا عملت سيئة فاعمل حسنة، فإنها عشر أمثالها. قال: قلت: يا رسول الله، " لا إله إلا الله " من الحسنات؟ قال: هي أحسن الحسنات".

وروي عن ابن مسعود-رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشرا، وإذا عمل سيئة لم يكتب عليه إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلبت وحداته أعشاره".

عن قتادة قوله: "{من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى

=

=

إلا مثلها وهم لا يظلمون}، ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: الأعمال ستة: مُوجِبة ومُوجِبة، ومُضْعِفة ومُضْعِفة، ومِثْل ومِثْل. فأما الموجبتان: فمن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقي الله مشركًا به دخل النار. وأما المضعف والمضعف: فنفقة المؤمن في سبيل الله سبعمئة ضعف، ونفقته على أهل بيته عشر أمثالها. وأما مثل ومثل: فإذا همّ العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت عليه سيئة".

ثم في ذلك قولان:

أحدهما: أنه عام في جميع الناس. وهذا قول من قال بأن «الحسنة كلمة الإخلاص، والسيئة: الكفر». ومن الأخبار التي جاءت في ذلك:

عن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله ﷺ، فيما يروي عن ربه، ﷻ قال: "قال رسول الله ﷺ: "إن ربكم ﷻ رحيم، من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله، ﷻ، ولا يهلك على الله إلا هالك".

عن خُرَيْم بن فاتك الأسدي؛ أن النبي ﷺ قال: "الناس أربعة، والأعمال ستة. فالناس مُوَسَّع له في الدنيا والآخرة، وموسع له في الدنيا مَقْتور عليه في الأخرة، ومقتور عليه في الدنيا موسع له في الآخرة، وشَقِيٌ في الدنيا والآخرة. والأعمال مُوجبتان، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف، وسبعمائة ضعف؛ فالموجبتان من مات مُسْلِمًا مؤمنًا لا يشرك بالله شيئًا وَجَبَتْ له الجنة، ومن مات كافرًا وجبت له النار. ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها، فعلم الله أنه قد أشعَرَها قَلْبَه وحرص عليها، كتبت له حسنة. ومن هم بسيئة لم تكتب عليه، ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه. ومن عمل حسنة كانت عليه بعشرة أمثالها. ومن أنفق نفقة في سبيل الله، ﷻ،

=

=

كانت له بسبعمائة ضعف".

وروي عن النبي ﷺ قال: "يحضر الجمعة ثلاثةُ نَفَر: رجل حَضَرها بِلَغْوٍ فهو حَظُّه منها، ورجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه، وإن شاء مَنَعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يَتَخَطَّ رَقَبَة مسلم ولم يُؤْذ أحدًا، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله يقول: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}".

وعن أبي ذر، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدَّهْرَ كله".

والقول الثاني: أنه خاص في الأعراب إذا جاء أحدهم بحسنة فله عشر أمثالها، فأما غيرهم من المهاجرين فلمن جاء منهم بحسنة سبعمائة، قاله ابن عمر، وأبو سعيد الخدري.

وفي مضاعفة "الحسنة" بعشر أمثالها، وجوه:

أحدها: لأن الله فرض عُشْر أموالهم، وكانوا يصومون في كل شهر ثلاثة أيام وهي البيض منه، فكان آخر العُشْر من المال آخر جميع المال، وآخر الثلاثة الأيام آخر جميع الشهر.

وأما مضاعفة ذلك بسبعمائة ضعف، فلقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَآءُ} [البقرة: ٢٦١]، فضاعف الله الحسنة بسبعمائة ضعف.

وكان الحسن البصري يقرأ: «فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالُهَا» بالتنوين.

قال الطبري: "وذلك على وجه صحيح في العربية، غير أن القرأة في الأمصار على خلافها، فلا نستجيز خلافها فيما هي عليه مُجْمِعة".

والقول الثاني: أن الحسنة اسم عام يطلق على كل نوع من الإيمان وينطلق على

=

=

عمومه، فإن انطلقت الحسنة على نوع واحد منه، فليس له عليها من الثواب إلا مثل واحد، وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين، كان الثواب عليها مثلين كقوله: {اتَّقُوا اللهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ} [الحديد: ٢٨]، والكفل: النصيب كالمثل، فجعل لمن اتقى وآمن بالرسول نصيبين، نصيبًا لتقوى الله، ونصيبًا لإيمانه برسوله، فدل على

أن الحسنة التي جعلت لها عشر أمثالها هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله في صفته عشرة أنواع بقوله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، إلى قوله: {وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الاحزاب: ٣٥]، فكانت هذه الأنواع العشرة التي ثوابها عشرة أمثالها، فيكون لكل نوع منها مثل. قاله ابن بحر.

قال الماوردي: "وهذا تأويل فاسد، لخروجه عن عموم الظاهر، لما لا يحتمله تخصيص العموم، لأن ما جمع عشرة أنواع فهو عشر حسنات، فليس يجزي عن حسنة إلا مثلها، وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها".

والثالث: أن له عشر أمثالها في النعيم والزيادة لا في عظيم المنزلة، لأن منزلة التعظيم لا تنال إلا بالطاعة، وهذه مضاعفة تفضيل كما قال: {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ} [فاطر: ٣٠]. ذكره الماوردي عن بعض المفسرين.

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، وهي قوله: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا).

وفي الصحيحين: عبدِ اللهِ بنِ عباسِ بنِ عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رَسُول الله ﷺ، فيما يروي عن ربهِ، تباركَ وتعالى، قَالَ: ((إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَها اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالى عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وَإنْ هَمَّ بهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إِلى سَبْعمئةِ ضِعْفٍ إِلى أَضعَافٍ كَثيرةٍ، وإنْ

=

=

هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً).

– والحسنة شرعًا: اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب الحسن، وهي كل ما أمر به الشرع.

والسيئة شرعا: اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب السيئ، وهي كل ما نهى عنه الشرع نهي تحريم.

وأما زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء الله أن يضاعف له تكون حسب الإخلاص والإحسان في العمل.

كما قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

وعن ابن مسعود قال (جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله! هذه في سبيل الله، فقال: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة) رواه مسلم

وفي حديث الصيام (قال تعالى: إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به) متفق عليه.

– قال النووي: التَّضْعِيف بِعَشْرَةِ أَمْثَالهَا لَا بُدّ بِفَضْلِ الله وَرَحْمَته وَوَعْده الَّذِي لَا يُخْلَف، وَالزِّيَادَة بَعْد بِكَثْرَةِ التَّضْعِيف إِلَى سَبْعمِائَةِ ضِعْف، وَإِلَى أَضْعَاف كَثِيرَة، يَحْصُل لِبَعْضِ النَّاس دُون بَعْض عَلَى حَسَب مَشِيئَته سُبْحَانه وَتَعَالَى.

–وقال ابن رجب: إن مضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون بحسب حسن الإسلام، ويكون بحسب كمال الإخلاص، وبحسب فضل ذلك العمل في نفسه، وبحسب الحاجة إليه.

وقال ابن حجر: وهذا يدل على أن تضعيف حسنة العمل إلى عشرة مجزوم به وما زاد عليها جائز وقوعه بحسب الزيادة في الإخلاص وصدق العزم وحضور القلب وتعدى النفع كالصدقة الجارية والعلم النافع والسنة الحسنة وشرف العمل ونحو

=

=

ذلك

وقال الشيخ ابن عثيمين: (إلى سبعمائة ضعف) وهذا تحت مشيئة الله تعالى، فإن شاء ضاعف هذا، وإن شاء لم يضاعف.

قال ابن تيمية: وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغيًا من بغايا بني إسرائيل).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له).

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلبًا يغفر لها.

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له.

وقال: والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلًا عظيمًا.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: (يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مد البصر، فيقال: هل تنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: لا ظلم عليك،

=

=

فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتوضع هذه البطاقة في كفه ، والسجلات في كفة ، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات).

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق ، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله ، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجّح قول صاحب البطاقة.

قوله تعالى: {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} [الأنعام: ١٦٠]، أي: " ومن لقي ربه بسيئة فلا يعاقب إلا بمثلها".

قال الطبري: " يقول: ومن وافى يوم القيامة منهم بفراق الدِّين الحقّ والكفر بالله، فلا يجزى إلا ما ساءه من الجزاء، كما وافى الله به من عمله السيئ".

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الأنعام: ١٦٠]، أي: "وهم لا يُنقصون من جزائهم شيئًا".

قال الطبري: " يقول: ولا يظلم الله الفريقين، لا فريق الإحسان، ولا فريق الإساءة، بأن يجازي المحسن بالإساءة والمسيء بالإحسان، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هو له، لأنه جل ثناؤه حكيمٌ لا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يستحق أن يضعه فيه، ولا يجازي أحدًا إلا بما يستحقّ من الجزاء".

و «الظلم»:هو "وضع الشيء في غير موضعه"، ومنه قول نابغة الذبياني:

إِلا أُوَارِيَّ لأيًا مَا أُبَيِّنُهَا وَالنُّؤْيُ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ

فجعل الأرض مظلومة، لأن الذي حفر فيها النؤى حَفر في غير موضع الحفر، فجعلها مظلومة، لموضع الحفرة منها في غير موضعها، ومن ذلك قول ابن قَميئة في صفة غيث:

ظَلَمَ الْبِطَاحَ بِهَا انْهِلالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ الْمُقْلَعِ

=

=

قوله ظلمه إياه: مجيئه في غير أوانه، وانصبابه في غير مصبِّه. ومنه: ظَلَم الرجلُ جَزوره، وهو نحره إياه لغير علة. وذلك عند العرب وَضْع النحر في غير موضعه.

وفي الآية دليل على أن السيئات لا تضاعف مطلقًا، فقول بعض العامة: إن السيئات تضاعف في مكة كما تضاعف الحسنات، هذا الإطلاق لا يجوز، لأن السيئات لا تضاعف مطلقًا كما في هذه الاية.

(فائدة): قوله ﷺ في حديث ابن عباس السابق (وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) أي: من همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة إذا كان تركها من خشية لله كما في رواية لمسلم (إنما تركها من أجلي أو من جرائي).

ومثل قصة الذي همّ بابنة عمه بسوء فتركها لله، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفرجت الصخرة.

- فإن تركها بسبب عدم القدرة عليها مع الاشتغال بتحصيل أسبابها، فهذا يعاقب كمن عمِل، فتكتب عليه سيئة.

قال الشيخ ابن عثيمين: من همّ بالسيئة وسعى في تحصيلها لكن عجز عنها، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملًا، دليل ذلك، قول النبي ﷺ (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه).

- **قال ابن كثير**: واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام:

تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونِيَّة؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: "فإنما تركها من جرائي" أي: من أجلي.

وتارة يتركها نسيانًا وذُهولا عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيرًا ولا فعل شرًا.

=

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١).

{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم} ويبدل من محله {دينا قيما} مستقيما {ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين}[1].

=

وتارة يتركها عجزًا وكسلًا بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها، كما جاء في الحديث، في الصحيحين: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار". قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: "إنه كان حريصًا على قتل صاحبه.

(وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) فلا ينقصون من حسناتهم، ولا يزاد عليهم في السيئات، ولا يعاقبون بظلم غيرهم

قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا).

ظلمًا: أي: زيادة في السيئات (ولا هضمًا) أي نقصًا في الحسنات.

قال تعالى (إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا).

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ١٦١].

يقول الله تعالى آمرًا نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

قال الطبري: "يقول: قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة، فوفقني له".

قال ابن كثير: " يقول الله تعالى آمرًا نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم الله به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف".

قوله تعالى: {دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [الأنعام: ١٦١]، أي: " وهو دين

=

=

الإسلام القائم بأمر الدنيا والآخرة، وهو دين التوحيد دين إبراهيم عليه السلام".

قال الطبري: " يقول: مستقيمًا {ملة إبراهيم}، يقول: دين إبراهيم، {حنيفًا} يقول: مستقيمًا".

قال الأخفش: " {دينا قيما} أي: مستقيما".

قال الزجاج: " القيم: هو المستقيم".

قال ابن كثير: " أي: قائمًا ثابتًا،} مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} كقوله} وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة: ١٣٠]، وقوله} وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} [الحج: ٧٨]، وقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

وليس يلزم من كونه عليه السلام أُمِرَ باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه، عليه السلام قام بها قيامًا عظيمًا، وأكملت له إكمالا تامًا لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل، عليه السلام".

وفي معنى قوله تعالى: {حَنِيفًا} [الأنعام:١٦١]، لأهل اللغة فيه قولان:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم.

قال الطبري: " (الحنيف)، فإنه المستقيم من كل شيء".

ومنه قيل للأعرج: أحنف، تفاؤلا بالسلامة، كما قالوا للديغ: سليم، والمهلكة: مفازة، قالوا: فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف.

الثاني: أن الحنيف المائل، لأن الأحنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى

=

=

الأخرى بأصابعها، وتحنف إذا مال. وهذا قول الزجاج.

قال الزجاج: " الحنيفية: الميل إلى الإسلام ميلا لا رجوع معه".

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {حَنِيفًا} [الأنعام: ١٦١]، على أقوال:

أحدها: أن الحنيفية حج البيت، والحنيف هو الحاج. وهذا قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعطية، وكثير بن زياد، وعبد الله بن قاسم، والضحاك، والسدي.

وقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم الإسلام (الحنيفية)، لأنه أول إمام لزم العباد - الذين كانوا في عصره، والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة - اتباعه في مناسك الحج، والائتمام به فيه. قالوا: فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته، فهو (حنيف)، مسلم على دين إبراهيم".

الثاني: أنها اتباع الحق، قاله مجاهد، والربيع بن أنس.

الثالث: اتباع إبراهيم في شرائعه التي هي شرائع الإسلام.

فقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم (الحنيفية)، لأنه أول إمام سن للعباد الختان، فاتبعه من بعده عليه. قالوا: فكل من اختتن على سبيل اختتان إبراهيم، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام، فهو " حنيف " على ملة إبراهيم".

الرابع: أنها: الإخلاص. قاله السدي، ومقاتل بن سليمان، وخصيف.

الخامس: وقيل: (الحنيفية) الإسلام. فكل من ائتم بإبراهيم في ملته فاستقام عليها، فهو (حنيف).

قال القفال: "وبالجملة فالحنيف لقب لمن دان بالإسلام كسائر ألقاب الديانات، وأصله من إبراهيم عليه السلام".

السادس: أن الحنيف: المستقيم. قاله محمد بن كعب، وروي عن عيسى بن جارية مثله.

=

السابع: أن الحنيف: الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم. قاله أبو قلابة.

الثامن: أن الحنيف: الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا. قاله أبو العالية.

التاسع: أن الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات، والعمات، وما حرم الله ﷻ، والختان. وكانت حنيفة في الشرك: كانوا أهل الشرك، وكانوا يحرمون في شركهم الأمهات والبنات والخالات والعمات، وكانوا يحجون البيت، وينسكون المناسك. قاله قتادة، وأبو عبيدة.

قال أبو عبيدة: " الحنيف فى الجاهلية من كان على دين إبراهيم، ثم سمّى من اختتن وحج البيت حنيفا لما تناسخت السنون، وبقي من يعبد الأوثان من العرب قالوا: نحن حنفاء على دين إبراهيم، ولم يتمسكوا منه إلا بحج البيت، والختان والحنيف اليوم: المسلم.

قال ذو الرمة:

إذا خالف الظّل العشيّ رأيته حنيفا ومن قرن الضّحى يتنصّر

يعنى الحرباء".

والصواب: أن (الحنيفية) هو الإستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته، وهذا اختيار الإمام الطبري. والله أعلم.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: {دينا قيما}، مفتوحة «القاف» مشددة «الياء»، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى: {قيما} مكسورة «القاف» مفتوحة «الياء»".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٦١]، أي: " وما كان إبراهيم عليه السلام من المشركين مع الله غيره".

قال الطبري: " يقول: وما كان من المشركين بالله، يعني إبراهيم صلوات الله عليه،

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢).

{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي} عِبَادَتِي مِنْ حَجّ وغيره {ومحياي} حياتي {ومماتي} موتي {لله رب العالمين}.

لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣).

{لَا شَرِيك لَهُ} فِي ذَلِكَ {وَبِذَلِكَ} أَيْ التَّوْحِيد {أُمِرْت وَأَنَا أَوَّل الْمُسْلِمِينَ} مِنْ هَذِهِ الأمة[1].

=

لأنه لم يكن ممن يعبد الأصنام".

سمعت ذر بن عبد الله الهَمْدَاني، يحدث عن ابن أبْزَى، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: "أصبحنا على مِلَّة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين".

وعن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحبّ إلى الله؟ قال: "الحنيفية السمحة".

عن عائشة، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: "وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه، لأنظر إلى زَفْن الحبشة، حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه" قال عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال لي عروة: "إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: "لتعلم يَهودُ أن في ديننا فُسْحَةً، إني أرسلت بِحَنيفيَّة سَمْحَة".

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي} [الأنعام: ١٦٢]، أي: " قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إن صلاتي التي أعبد بها ربي".

قال مقاتل بن حيان: " صلاتي المفروضة".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، الذين يسألونك أن تتبع أهواءهم على الباطل من عبادة

=

=

الآلهة والأوثان: {إن صلاتي}".

قال ابن كثير: " يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله".

قوله تعالى: {وَنُسُكِي} [الأنعام: ١٦٢]، أي: "و ذبحي".

قال الطبري: " يقول: وذبحي".

قال ابن كثير: " ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر: ٢]، أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى".

وفي قوله تعالى: {وَنُسُكِي} [الأنعام: ١٦٢]، أربعة أقوال:

أحدها: أنه الذبيحة في الحج والعمرة، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والضحاك، وابن قتيبة، واختار هذا القول الطبري، والقرطبي، وابن عطية، وابن الجوزي، وابن كثير.

واستدلوا بالنظائر القرآنية: فقد ورد شاهد في القرآن للفظ النسك المراد به الذبح، قال تعالى (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك).

قال ابن عطية: ويحصن تخصيص الذبيحة بالذكر في هذه الآية، أنها نازلة قد تقدم ذكرها والجدل فيها في السورة.

والثاني: معناه: ديني، قاله الحسن.

والثالث: معناه: عبادتي، قاله الزجاج، من قولهم فلان ناسك أي عابد، والفرق بين الدين والعبادة: أن الدين اعتقاد، والعبادة عمل.

والرابع: معناه: حجّي. وهذا قول مقاتل بن حيان.

قال الواحدي: "و «نسك» في اللغة على معنيين: أحدهما: ذَبَح، والآخر: عَبَدَ، فلا

=

=

يُدرى أيهما الأصل".

قال ابن قتيبة: " {وَنُسُكِي} ذبائحي، جمع «نَسِيكةٍ». وأصل «النُّسُك»: ما تقربت به إلى الله".

وقال القرطبي: "إن أصل «النسك» في اللغة: «الغسل»، يقال منه: نسك ثوبه إذا غسله، وهو في الشرع اسم للعبادة، يقال: رجل ناسك إذا كان عابدا".

قال أبو السعود: "والنُسُك في الأصل غايةُ العبادة وشاعَ في الحج لما فيه من الكُلفة والبعد عن العادة".

قال الفخر الرازي: " روى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: النسك سبائك الفضة كل سبيكة منها نسيكة وقيل: للمتعبد ناسك لأنه خلص نفسه من دنس الآثام وصفاها كالسبيكة المخلصة من الخبث وعلى هذا التأويل فـ«النسك»: كل ما تقربت به إلى الله تعالى، إلا أن الغالب عليه في العرف: الذبح".

قوله تعالى: {وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي} [الأنعام: ١٦٢]، أي: " وحياتي ووفاتي وما أقدّمه في هذه الحياة من خيرات وطاعات".

قال الطبري: " يقول: وحياتي، ووفاتي".

قال الفخر الرازي: " أي: حياتي وموتي لله".

قال القرطبي: أي: " ما أعمله في حياتي، وما أوصي به بعد وفاتي".

قال في التسهيل: أي: " أعمالي في حين حياتي وعند موتي خالصا لوجهه وطلب رضاه".

وفي قوله تعالى: {وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي} [الأنعام: ١٦٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أن حياته ومماته بيد الله تعالى لا يملك غيره له حياة ولا موتًا، فلذلك كان له مصليًا وناسكًا.

والثاني: أن حياته لله في اختصاصها بطاعته، ومماته له في رجوعه إلى مجازاته.

=

=

والثالث: أن عملي في حياتي ووصيتي عند مماتي لله. أفاده الماوردي.

قال البغوي: " أي: هو يحييني ويميتني، وقيل: محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا مت على الإيمان لله رب العالمين، وقيل: طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله رب العالمين".

وكلهم قرأ: {ومحياي} محركة «الياء»، {ومماتي} ساكنة «الياء»، غير نافع فإنه أسكن «الياء» في {ومحياي} ونصبها في «مماتي».

قال ابن عاشور: "... وبهذا يكون ذكر الممات مقصودًا منه استيعاب جميع مدّة الحياة حتّى زمن الإشراف على الموت.

قوله تعالى: {لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)} [الأنعام: ١٦٣]

لا شريك له في ألوهيته ولا في ربوبيته ولا في صفاته وأسمائه، وبذلك التوحيد الخالص أمرني ربي جل وعلا وأنا أول من أقر وانقاد لله من هذه الأمة.

قوله تعالى: {لَا شَرِيكَ لَهُ} [الأنعام: ١٦٣]، أي: " لا شريك له في ألوهيته ولا في ربوبيته ولا في صفاته وأسمائه".

قال الطبري: أي: " في شيء من ذلك من خلقه، ولا لشيء منهم فيه نصيب، لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلا له خالصًا".

قال في التسهيل: أي: " لا أريد بأعمالي غير الله، فيكون نفيا للشرك الأصغر وهو الرياء، ويحتمل أن يريد لا أعبد غير الله فيكون نفيا للشرك الأكبر".

قال ابن كثير: " فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥]، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

=

=

الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٧٢]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]، وقال يوسف، عليه السلام: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]، وَقَالَ مُوسَى} يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [يونس: ٨٤ - ٨٦]، وقال تعالى: {إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ [بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ} الآية [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [المائدة: ١١١].

فأخبر الله تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «نحن مَعاشِر الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد» فإن أولاد العلات هم الأخوة من أب واحد وأمهات شَتَّى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا، بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والأخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة".

قوله تعالى: {وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ} [الأنعام: ١٦٣]، أي: " وبذلك التوحيد الخالص

=

=

أمرني ربي جل وعلا".

قال الطبري: " يقول: وبذلك أمرني ربي".

قال الماوردي: " يعني: ما قدم ذكره".

قال صاحب الكشاف: أي: " وبذلك من الإخلاص أمرت".

قال في التسهيل: " إشارة إلى الإخلاص الذي تقتضيه الآية قبل ذلك".

قوله تعالى: {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٣]، أي: " وأنا أول من أقر وانقاد لله من هذه الأمة".

قال قتادة: " أول المسلمين من هذه الأمة".

قال الطبري: " يقول: وأنا أوّل من أقرَّ وأذْعن وخضع من هذه الأمة لربه بأن ذلك كذلك".

قال الماوردي: " يعني: من هذه الأمة حثًّا على اتباعه والمسارعة بالإسلام".

قال في التسهيل: " لأنه ﷺ سابق أمته".

قال صاحب الكشاف: " لأن إسلام كل نبى متقدم لإسلام أمته".

وقال مقاتل: " يعني: المخلصين من أهل مكة".

قال أبو الليث: أي: "من اهل مكة، ويقال: أول المسلمين يوم الميثاق".

قال الآلوسي: أي: {وأنا أول} "المنقادين إلى امتثال ما أمر الله تعالى به، وقيل: المستسلمين لقضاء الله تعالى وقدره، والمراد مسلمي أمته كما قيل، وهذا شأن كل نبي بالنسبة إلى أمته".

عن علي رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح، ثم قال: "} وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٧٩]،} إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} اللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك،

=

=

ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، لا يغفر الذنوب إلا أنت. واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت. تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك..".

قوله تعالى: {لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢].

أي: كل ذلك لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ فأنا متجرد تجردًا كاملًا لخالقي ورازقي بكل خالجة في القلب، وبكل حاجة في هذه الحياة.

فهو - سبحانه - رب كل شيء. ولا شريك له في ملكه، بذلك القول الطيب، وبذلك العمل الخالص أمرت وأنا أول المسلمين الممتثلين لأوامر اللّه والمنتهين عن نواهيه من هذه الأمة.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (رب العالمين) صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره، لأنّ غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد، كما أشار إليه قوله في أوّل السورة (الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون).

- قال ابن عطية: هذا أمر من الله ﷻ أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها وتصرفه مدة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله ﷻ وإرادة وجهه طلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله ﷻ.

(لاَ شَرِيكَ لَهُ) في ألوهيته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه وصفاته.

(وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) قال قتادة: أي من هذه الأمة.

وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

=

=

وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

وقال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

وقال يوسف، عَلَيْهِ السَّلَامُ (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

وَقَالَ مُوسَى (يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).

وقال تعالى (إِنَّا أَنزلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ [بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ).

وقال تعالى (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ).

فأخبر الله تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال عليه [الصلاة السلام (نحن مَعاشِر الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد) فإن أولاد العلات هم الأخوة من أب واحد وأمهات شَتَّى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات. (تفسير ابن كثير).

=

قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤).

{قُلْ أَغَيْر الله أَبْغِي رَبًّا} إلَهًا أَيْ لَا أَطْلُب غَيْره {وَهُوَ رَبّ} مَالِك {كُلّ شَيْء

=

- قال الخازن: قوله تعالى (وأنا أول المسلمين) قال قتادة: يعني من هذه الأمة وقيل معناه وأنا أول المستسلمين لقضائه وقدره.

قال الطبري: " يعني: أن ذلك كله له خالصًا دون ما أشركتم به، أيها المشركون، من الأوثان".

قال القرطبي: " أي: أفرده بالتقرب بها إليه".

قال الماوردي: " {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، صفة الله تعالى أنه مالك العالم دون غيره، فلذلك كان أحق بالطاعة والتعبد من غيره".

قال الفخر الرازي في تفسير الآية: " اعلم أنه تعالى كما عرفه الذين المستقيم عرفه كيف يقوم به ويؤديه فقوله: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢]، يدل على أنه يؤديه مع الإخلاص وأكده بقوله: {لَا شَرِيكَ لَهُ} [الأنعام: ١٦٣]، وهذا يدل على أنه لا يكفي في العبادات أن يؤتى بها كيف كانت بل يجب أن يؤتى بها مع تمام الإخلاص وهذا من أقوى الدلائل على أن شرط صحة الصلاة أن يؤتى بها مقرونة بالإخلاص".

عن جابر بن عبد الله قال: "ضَحَّى رسول الله ﷺ في يوم عيدٍ بِكَبْشَيْنِ وقال حين ذبحهما: "وَجَّهْت وجهي للذي فَطَر السموات والأرض حنيفًا وَمَا أنا من المشركين،} إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}".

وَلَا تَكْسِبِ كُلّ نَفْس} ذَنْبًا {إلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِر} تَحْمِل نَفْس {وَازِرَة} آثِمَة {وزر} نفس {أخرى ثُمَّ إلَى رَبّكُمْ مَرْجِعكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فيه تختلفون}(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا} [الأنعام: ١٦٤].

يقول تعالى (قُلْ) يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه (أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا) أي: أطلب ربا سواه، وهو رب كل شيء، يَرُبّنِي ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر.

وهذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا في القرآن كما قال تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، وقوله (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)، وقوله (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا)، وقوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا)، وأشباه ذلك من الآيات.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "سيدا وإلها".

قال الطبري: " قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، الداعيك إلى عبادة الأصنام واتباع خطوات الشيطان: أسوى الله أطلب سيدًا يسودني؟".

قال في التسهيل: " تقرير وتوبيخ للكفار، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم".

قال ابن كثير: " يقول تعالى: {قُلْ} يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: {أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا} أي: أطلب ربا سواه".

قال ابن عطية: أي: " أفيحسن عندكم أن أطلب إلها غير الله".

قوله تعالى: {وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٦٤]، أي: " وهو خالق كل شيء ومالكه ومدبره؟".

قال الطبري: " يقول: وهو سيد كل شيء دونه ومدبّره ومصلحه".

=

=

قال السعدي: أي: " والله رب كل شيء، فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، منقادون لأمره، فتعين عليّ وعلى غيري، أن يتخذ الله ربا، ويرضى به، وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين".

قال ابن كثير: أي: "يَرُبّنِي ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر.

هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا في القرآن كما قال تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]، وقوله} فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هود: ١٢٣]، وقوله} قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [الملك: ٢٩]، وقوله} رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [المزمل: ٩]، وأشباه ذلك من الآيات".

قال في التسهيل: قوله: {وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}،" برهان على التوحيد ونفي الربوبية عن غير الله".

قال الربيع: " كان في ذلك الزمان، لا مخرج للعلماء العابدين إلا إحدى خَلَّتين: إحداهما أفضل من صاحبتها. إمَّا أمرٌ ودعاء إلى الحق، أو الاعتزال فلا تشارك أهل الباطل في عملهم، وتؤدي الفرائض فيما بينك وبين ربك، وتحبّ لله وتبغض لله، ولا تشارك أحدًا في إثم. قال: وقد أنزل في ذلك آية محكمة: {قل أغير الله أبغي ربًا وهو رب كل شيء}، إلى قوله: {فيه تختلفون}، وفي ذلك قال: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} [سورة البينة: ٤]".

قوله تعالى: {وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا} [الأنعام: ١٦٤]، أي: " ولا يعمل أي إنسان عملا سيئا إلا كان إثمه عليه".

قال ابن عباس: "عليها ما اكتسبت، من العمل".

=

=

قال محمد بن كعب القرظي: "عليها ما اكتسبت من الشر".

قال البغوي: أي: " لا تجني كل نفس إلا ما كان من إثمه على الجاني".

قال الطبري: " يقول: ولا تجترح نفس إثمًا إلا عليها، أي: لا يؤخذ بما أتت من معصية الله تبارك وتعالى، وركبت من الخطيئة، سواها، بل كل ذي إثم فهو المعاقب بإثمه والمأخوذ بذنبه".

قال الماوردي: " يعني: إلا عليها عقاب معصيتها ولها ثواب طاعتها".

قال في التسهيل: " ردّ على الكفار لأنهم قالوا له: أعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وأخراك، فنزلت هذه الآية: أي: ليس كما قلتم، وإنما كسب كل نفس عليها خاصة".

قوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤]، أي: " ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى".

قال البغوي: " أي: لا تحمل نفس حمل أخرى، أي: لا يؤاخذ أحد بذنب غيره".

قال القرطبي: " أي: لا تحمل حاملة ثقل أخرى، أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها".

قال في التسهيل: أي: " لا يحمل أحد ذنوب أحد، وأصل «الوزر»: الثقل، ثم استعمل في الذنوب".

قال الطبري: " يقول: ولا تأثم نفس آثمة بإثم نفس أخرى غيرها، ولكنها تأثم بإثمها، وعليه تعاقب، دون إثم أخرى غيرها.

وإنما يعني بذلك المشركين الذين أمرَ الله نبيه ﷺ أن يقول هذا القول لهم. يقول: قل لهم: إنا لسنا مأخوذين بآثامكم، وعليكم عقوبة إجرامكم، ولنا جزاء أعمالنا. وهذا كما أمره الله جل ثناؤه في موضع آخر أن يقول لهم: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [سورة الكافرون: ٦]".

=

=

قال الماوردي: " أي: لا يتحمل أحد ذنب غيره فيأثم به ويعاقب عليه، ولا يحمل ذنبه غيره، فيبرأ منه ويسلم من عقابه".

قال ابن كثير: " قوله: {وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر: ١٨]، وقوله} فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا} [طه: ١١٢]، قال علماء التفسير: فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته. وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [المدثر: ٣٨، ٣٩]، معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذراريهم، كما قال في سورة الطور: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الآية: ٢١]، أي: ألحقنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان،} وَمَا أَلَتْنَاهُمْ} أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم، بفضله ومنته، ثم قال: {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: ٢١]، أي: من شر".

وفي أصل «الوزر»، وجهان:

أحدهما: أصله الثقل، من قوله: {وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ} [الشرح: ٢ – ٣]، ومنه سمي وزير الملك لتحمله الثقل عنه.

والثاني: أن أصله الملجأ من قوله: {كَلاَّ لاَ وَزَرَ} [القيامة: ١١]، ومنه سُمِّي وزير

=

=

المَلِكِ لأنه يلجأ إليه في الأمور.

عن عروة عن أبيه قال: "سئلت عائشة عن ولد الزنا؟ فقالت: ليس عليه من خطيئة أبويه شيء، وقالت: {ولا تزر وازرة وزر أخرى}".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ} [الأنعام: ١٦٤]، أي: "ثم إلى ربكم معادكم يوم القيامة".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان: كل عامل منا ومنكم فله ثواب عمله، وعليه وزره، فاعملوا ما أنتم عاملوه {ثم إلى ربكم}، أيها الناس {مرجعكم}، يقول: ثم إليه مصيركم ومنقلبكم".

قال ابن كثير: أي: "اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه".

قال ابن عطية: "قوله: {ثم إلى ربكم مرجعكم}، تهديد ووعيد".

قوله تعالى: {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [الأنعام: ١٦٤]، أي: "فيخبركم بما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين".

قال الربيع بن أنس: "يبعثهم من بعد الموت، فيبعث أولياءه وأعداءه فينبئهم بأعمالهم".

قال الطبري: يقول: "{فينبئكم بما كنتم فيه}، في الدنيا، {تختلفون} من الأديان والملل، إذ كان بعضكم يدين باليهودية، وبعضٌ بالنصرانية، وبعض بالمجوسية، وبعض بعبادة الأصنام وادِّعاء الشركاء مع الله والأنداد، ثم يجازي جميعَكم بما كان يعمل في الدنيا من خير أو شر، فتعلموا حينئذ من المحسنُ منَّا والمسيء".

قال ابن كثير: أي: "وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال تعالى: {قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [سبأ: ٢٥، ٢٦]".

=

=

قال ابن عطية: " أي: فيعلمكم أن العقاب على الاعوجاج تبيين لموضع لحق، وقوله بما كنتم فيه تختلفون يريد على ما حكى بعض المتأولين من أمري في قول بعضكم هو ساحر وبعضكم هو شاعر. وبعضكم افتراه، وبعضكم اكتتبه ونحو هذا. وهذا التأويل يحسن في هذا الموضع وإن كان اللفظ يعم جميع أنواع الاختلافات من الأديان والملل والمذاهب وغير ذلك".

قال النسفي: {بما كنتم فيه تختلفون}، أي: " من الأديان التي فرقتموها".

وهذا وعيدٌ وتهديد أي مرجعكم إِليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ويميز بين المحسن والمسيء.

(منبهة): قال الله تعالى: (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤].

وفي الحديث عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا كان يوم القيامة دفع الله عَزَّ وَجَلَّ إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول: هذا فكاكك من النار".

وفي رواية له: "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا".

وفي رواية ثالثة: "يجيء يوم القيامة، ناس من المسلمين، بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى" هذه الروايات الثلاث أخرجها مسلم في صحيحه، في كتاب التوبة، حديث (٢٧٦٧) (٤٩)، وحديث (٢٧٦٧) (٥٠)، وحديث (٢٧٦٧) (٥١)، أما الرواية الأولى فأخرجها في الأصول، وأما الثانية والثالثة فأخرجهما في المتابعات، والرواية الثالثة لفظها مشكل جدا، والحديث أصله واحد، حيث روي عن أبي موسى الأشعري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من طريق واحدة، وهي طريق أبي بردة عنه، لكن اختلف فيه على أبي بردة، فروي عنه بثلاثة ألفاظ، اثنان منها متقاربان، والثالث فيه نكارة، وسأقوم بتخريج هذه الألفاظ،

=

=

وبيان المحفوظ منها:

اللفظ الأول: "إذا كان يوم القيامة دفع الله ﷻ إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول: هذا فكاكك من النار".

وهذا اللفظ رواه طلحة بن يحيى، عن أبي بردة، به.

أخرجه من طريق طلحة: مسلم في صحيحه، في كتاب التوبة، حديث (٢٧٦٧) (٤٩)، والإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٠٩، ٤١٠)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ١٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٤٠).

وقد تابع طلحة على هذا اللفظ جمع من الرواة، فرووه عن أبي بردة بنحو مما رواه أبو طلحة، ولم يختلفوا فيه على أبي بردة، ومن هؤلاء الرواة:

١ - يزيد بن عبد الله: أخرجه من طريقه: الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٠٢).

٢ - صديق بن موسى: أخرجه من طريقه: الطبراني في المعجم الأوسط (١/ ١٩٥)، وحمزة بن محمد الكتاني في "جزء البطاقة" (١/ ٤١).

٣ - إسماعيل بن رافع: أخرجه من طريقه: الكتاني في "جزء البطاقة" (١/ ٤١).

٤ - عبد الملك بن عمير: أخرجه من طريقه: الطبراني في الأوسط (١/ ٥)، وفي مسند الشاميين

(٣/ ٤٠٣).

٥ - محمد بن المنكدر: أخرجه من طريقه: الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٠٧)، والطبراني في الأوسط

(٨/ ٣٠٢)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ٢١٥).

٦ - بريد بن عبد الله بن أبي بردة: أخرجه من طريقه: الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٠٢).

٧ - معاوية بن إسحاق: أخرجه من طريقه: الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٠٨).

=

=

٨ - عمرو بن قيس السكوني: أخرجه من طريقه: الطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٤٠٠).

٩ - سالم أبي النظر: أخرجه من طريقه: الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٢٥).

١٠ - عبد الله بن عثمان بن عثيم: أخرجه من طريقه: الطبراني في الموضع السابق.

١١ - عبد الأعلى بن أبي المساور: أخرجه من طريقه: ابن ماجة في سننه، في كتاب الزهد، حديث
(٤٢٩١).

ورواه نصر بن علقمة، وعروة بن عبد الله بن قشير، عن أبي موسى، بنحو من هذا اللفظ؛ إلا أنه منقطع من طريقهما؛ فإنهما لم يلقيا أبا موسى، ولعل الواسطة بينهما وبين أبي موسى هو أبو بردة بن أبي موسى.

أخرج رواية نصر بن علقمة: الطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٦٧) و (٣/ ٣٧٥)، وأخرج رواية عروة بن قشير: الطبراني في الأوسط (٢/ ٣٦٩).

وروي مرفوعا من حديث أنس، وابن عمر رضي الله عنهما، أما حديث أنس: فأخرجه ابن ماجة في سننه، في كتاب الزهد، حديث (٤٢٩٢)، قال: حدثنا جبارة بن المغلس، حدثنا كثير بن سليم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن هذه الأمة مرحومة عذابها بأيديها، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من المسلمين رجل من المشركين فيقال: هذا فداؤك من النار". وإسناده ضعيف جدا؛ فيه جبارة بن المغلس، وكثير بن سليم، وهما ضعيفان، واتهم الأول بوضع الحديث.

وأما حديث ابن عمر: فأخرجه أبو نعيم في الفتن (٢/ ٥٩٣) قال: حدثنا ابن وهب، عن مسلمة بن علي، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن ابن شهاب، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة، عذابها في الدنيا الزلازل والبلاء، فإذا كان يوم القيامة أعطى الله كل رجل من أمتي

=

=

رجلا من الكفار من يأجوج ومأجوج فيقال هذا فداؤك من النار". وإسناده ضعيف جدا، فيه مسلمة بن علي الخشني: متروك، وعبد الرحمن بن يزيد: ضعيف.

اللفظ الثاني: "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا".

وهذا اللفظ رواه عون بن عتبة، وسعيد بن أبي بردة، عن أبي بردة، به.

أخرجه من طريقهما مسلم في صحيحه، في كتاب التوبة، حديث (٢٧٦٧) (٥٠)، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، حدثنا قتادة أن عونا وسعيد بن أبي بردة حدثاه، أنهما شهدا أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه عن النبي ﷺ قال: "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا". قال: فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ. قال: فحلف له. قال: فلم يحدثني سعيد أنه استحلفه، ولم ينكر على عون قوله.

وأخرجه من طريقهما: الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٩٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٤١)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٩٧).

ورواه مسلم في الموضع السابق من طريق سعيد دون عون بن عتبة، وممن أخرجه من طريق سعيد أيضا: الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٩١)، والطيالسي في مسنده (١/ ٦٨)، وأبو يعلى في مسنده

(١٣/ ٢١٤)، وفي بعض ألفاظهم اختلاف وزيادات؛ إلا أن المعنى متفق مع رواية مسلم.

اللفظ الثالث: "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى".

أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب التوبة، حديث (٢٧٦٧) (٥١)، قال: "حدثنا

=

=

محمد بن عمرو بن عباد بن جبلة بن أبي رواد، حدثنا حرمي بن عمارة، حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي، عن غيلان بن جرير، عن أبي بردة، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى". فيما أحسب أنا. قال أبو روح: لا أدري ممن الشك. قال أبو بردة: فحدثت به عمر بن عبد العزيز فقال: أبوك حدثك هذا عن النبي ﷺ؟ قلت: نعم". اهـ من صحيح مسلم.

قلت: الحديث بهذا اللفظ منكر وشاذ، كما قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣/ ٤٨١)

و (١١/ ٤٠١)، وغيلان بن جرير ثقة من رواة الصحيحين؛ إلا أن الآفة من شداد أبي طلحة الراسبي، فقد تفرد بهذا اللفظ المنكر، وخالف غيره من الرواة، وقد أشار إلى تفرده: الحافظ البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٤٢) حيث قال: "وأما حديث شداد أبي طلحة الراسبي، عن غيلان بن جرير، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: "يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب مثل الجبال يغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى" - فيما أحسب أنا - قاله بعض رواته، فهذا حديث شك فيه راويه، وشداد أبو طلحة ممن تكلم أهل العلم بالحديث فيه، وإن كان مسلم بن الحجاج استشهد به في كتابه، فليس هو ممن يقبل منه ما يخالف فيه، والذين خالفوه في لفظ الحديث عدد، وهو واحد، وكل واحد ممن خالفه أحفظ منه، فلا معنى للاشتغال بتأويل ما رواه مع خلاف ظاهر ما رواه الأصول الصحيحة الممهدة في (ألا تزر وازرة وزر أخرى (٣٨)) [النجم: ٣٨] والله أعلم".

* لم يستشكل أحد من العلماء الحديث بروايتيه الأولى والثانية، وإنما استشكلوا الحديث بروايته الثالثة، التي أفادت معنى زائدا في الحديث، وهو مضاعفة العذاب

=

=

على اليهود والنصارى بسبب تحميلهم ذنوب المسلمين، وهذا المعنى يوهم معارضة الآية الكريمة، التي فيها أن أحدا لا يعذب بوزر غيره.

* للعلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث مسلكان:

الأول: مسلك الجمع بينهما: وعلى هذا المسلك الأكثر من العلماء، حيث ذهبوا إلى إعمال الآية على ظاهرها، وأن الله تعالى لا يعذب أحدا من خلقه، ولا يزيد عليه في العذاب بسبب ذنب غيره، وأما الحديث فأولوه على غير ظاهره، وذكروا أوجها في معناه:

الأول: أن الله تعالى يسقط مؤاخذة المسلمين بذنوبهم حتى كأنهم لم يذنبوا، ويضاعف على اليهود والنصارى العذاب بسبب ذنوبهم، حتى يكون عذابهم بقدر جرمهم، وجرم مذنبي المسلمين لو أخذوا بذلك، وله تعالى أن يضاعف العذاب لمن يشاء، ويخففه عمن يشاء.

ذكر هذا الجواب: القاضي عياض، وابن الجوزي، وأبو العباس القرطبي، وأبو عبد الله القرطبي، والقنوجي.

الوجه الثاني في معنى الحديث: أن الله تعالى يغفر ذنوب المسلمين، ويسقطها عنهم، ويضع على اليهود والنصارى مثلها؛ بكفرهم وذنوبهم، فيدخلهم النار بأعمالهم، لا بذنوب المسلمين، وقوله في الحديث: "ويضعها" مجاز، والمراد يضع عليهم مثلها بذنوبهم، لكن لما أسقط سبحانه وتعالى عن المسلمين سيئاتهم، وأبقى على الكفار سيئاتهم، صاروا في معنى من حمل إثم الفريقين، لكونهم حملوا الإثم الباقي، وهو إثمهم.

ذكر هذا الجواب: ابن الجوزي، وابن مفلح، والنووي.

الوجه الثالث في معنى الحديث: أن يكون المراد آثاما كان للكفار سبب فيها، بأن سنوها، فتسقط عن المسلمين بعفو الله تعالى، ويوضع على الكفار مثلها، لكونهم

=

=

سنوها، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من عمل بها. ذكر هذا الجواب: ابن مفلح، والنووي.

الثاني: مسلك الترجيح: حيث ذهب بعض العلماء إلى تضعيف الحديث بروايته الثالثة، كالإمام البخاري، والبيهقي، والحافظ ابن حجر.

أما البخاري فأعله بسبب الاختلاف فيه على أبي بردة، ولأنه معارض لحديث الشفاعة، والذي فيه: "أن قوما يعذبون ثم يخرجون من النار". قال: ورواة حديث الشفاعة أكثر وأبين وأشهر.

وأما البيهقي فقد تقدم ذكر سبب إعلاله للحديث عند تخريجه في أول المسألة، وملخص رأيه:

- أن الحديث بلفظه الثالث هو مما تفرد به شداد أبو طلحة الراسبي، فلم يروه على الصواب، وخالفه غيره - وهم الأكثر - فرووه على الصواب، ولم يذكروا فيه هذا اللفظ المشكل.

- أن الحديث مخالف لقوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤].

وأما الحافظ ابن حجر فضعف الحديث تبعا للإمام البخاري والبيهقي، وذكر وجها آخر في تضعيفه: وهو مخالفته للأحاديث الواردة في القصاص يوم القيامة، ومنها: حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ قال: "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه".

* والذي يظهر صوابه - والله تعالى أعلم - هو ضعف الحديث بلفظه الثالث؛ ومما يقوي ضعفه:

أن الحديث رواه عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، أربعة عشر راويا، وقد اتفق هؤلاء الرواة على لفظ واحد، وهو اللفظ الأول، ورواه اثنان آخران بلفظ مقارب

=

=

في المعنى للفظ الأول، وتفرد شداد أبو طلحة الراسبي باللفظ الثالث، وهو اللفظ المشكل، فلم يتابعه عليه أحد، وشداد قد تكلم أهل العلم في روايته، فلا يقبل منه ما تفرد به، ناهيك عن مخالفة ما رواه للأصول المحكمة - من الكتاب والسنة وإجماع العلماء - القاطعة بأن الله تعالى لا يعذب أحدا من خلقه بوزر غيره، والله تعالى أعلم.

(منبهة ثانية): قال الله تعالى: (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤].

وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ؛ فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو وليدة، وقضى أن دية المرأة على عاقلتها" أخرجه البخاري (٦٩١٠)، ومسلم (١٦٨١).

وعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "ضربت امرأة ضرتها بعمود فسطاط وهي حبلى فقتلتها، قال: فجعل رسول الله ﷺ دية المقتولة على عصبة القاتلة، وغرة لما في بطنها، فقال رجل من عصبة القاتلة: أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهل، فمثل ذلك يطل (٣). فقال رسول الله ﷺ: أسجع كسجع الأعراب. قال: وجعل عليهم الدية" أخرجه مسلم (١٦٨٢).

* ظاهر الأحاديث إيجاب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني - وعاقلة الرجل قراباته من قبل الأب، وهم عصبته-، وهذا الظاهر يوهم معارضة الآية، التي فيها أن أحدا لا يؤخذ بذنب غيره، وبحسب دلالة الآية فإن الأولى وجوب الدية على الجاني نفسه لا على العاقلة؛ لأنه هو المتسبب في القتل والمباشر له.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والأحاديث:

=

=

أجمع العلماء على وجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني.

حكى الإجماع: ابن بطال، وأبو عبد الله القرطبي، والحافظ ابن حجر.

وأما الآية فإن للعلماء في دفع التعارض بينها وبين الأحاديث مذهبين:

الأول: التخصيص.

ويرى أصحاب هذا المذهب أن الآية على عمومها في أن أحدا لا يؤخذ بذنب غيره، إلا أن هذا العموم قد خص منه تحمل العاقلة دية قتل الخطأ وشبه العمد، وذلك لثبوت الحديث فيه.

وعلى هذا المذهب جماعة من أهل العلم، منهم: الشافعي، وابن حزم، وابن عبد البر، وابن رشد، والحافظ ابن حجر، والزرقاني، والمباركفوري، والصنعاني، والشوكاني.

قال الحافظ ابن حجر: "تحمل العاقلة الدية ثابت بالسنة، وأجمع أهل العلم على ذلك، وهو مخالف لظاهر قوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، لكنه خص من عمومها ذلك؛ لما فيه من المصلحة؛ لأن القاتل لو أخذ بالدية لأوشك أن تأتي على جميع ماله؛ لأن تتابع الخطأ منه لا يؤمن، ولو ترك بغير تغريم لأهدر دم المقتول.

قال: ويحتمل أن يكون السر فيه أنه لو أفرد بالتغريم حتى يفتقر لآل الأمر إلى الإهدار بعد الافتقار، فجعل على عاقلته لأن احتمال فقر الواحد أكثر من احتمال فقر الجماعة؛ ولأنه إذا تكرر ذلك منه كان تحذيره من العود إلى مثل ذلك من جماعة أدعى إلى القبول من تحذيره نفسه، والعلم عند الله تعالى". اهـ

المذهب الثاني: أن تغريم العاقلة هو من باب المواساة للجاني والتخفيف عنه.

ويرى أصحاب هذا المذهب أن الجاني لم يرتكب ذنبا حتى تتحمله العاقلة، وإنما ارتكب خطأ لم يقصد إليه، ومن باب التخفيف عليه جعلت الدية مشتركة بينه

=

=

وبين عاقلته حتى لا تجحف في ماله.

وهذا المذهب قال به جماعة من أهل العلم، منهم: الجصاص، والخطابي، والسرخسي، والكاساني، والرازي، والطاهر ابن عاشور، والآلوسي، والشنقيطي. (٣)

قال الجصاص: "تواترت الآثار عن النبي ﷺ في إيجاب دية الخطأ على العاقلة، واتفق السلف وفقهاء الأمصار عليه.

فإن قيل: قال الله تعالى: (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤]، وقال النبي ﷺ: "لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه" (٤)، وقال لأبي رمثة وابنه: "إنك لا تجني عليه ولا يجني عليك"، والعقول أيضا تمنع أخذ الإنسان بذنب غيره.

قيل له: أما قوله تعالى: (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام: ١٦٤]، فلا دلالة فيه على نفي وجوب الدية على العاقلة؛ لأن الآية إنما نفت أن يؤخذ الإنسان بذنب غيره، وليس في إيجاب الدية على العاقلة أخذهم بذنب الجاني، إنما الدية عندنا على القاتل، وأمر هؤلاء القوم بالدخول معه في تحملها على وجه المواساة له، من غير أن يلزمهم ذنب جنايته، وقد أوجب الله في أموال الأغنياء حقوقا للفقراء من غير إلزامهم ذنبا لم يذنبوه، بل على وجه المواساة، وأمر بصلة الأرحام بكل وجه أمكن ذلك، وأمر ببر الوالدين، وهذه كلها أمور مندوب إليها للمواساة وإصلاح ذات البين، فكذلك أمرت العاقلة بتحمل الدية عن قاتل الخطأ على جهة المواساة من غير إجحاف بهم وبه". اهـ.

والذي يظهر صوابه - والله تعالى أعلم - أن تغريم العاقلة هو من باب المواساة للجاني والتخفيف عنه، وليس في تغريمهم ما يعارض الآية؛ لأن الآية إنما نفت أن يؤخذ الإنسان بذنب غيره، والجاني لم يرتكب ذنبا حتى تتحمله العاقلة، وإنما

=

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥).

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِف الْأَرْض} جَمْع خَلِيفَة أَيْ يَخْلُف بَعْضكُمْ بَعْضًا فِيهَا {وَرَفَعَ بَعْضكُمْ فَوْق بَعْض دَرَجَات} بِالْمَالِ وَالْجَاه وَغَيْر ذَلِكَ {ليبلوكم} ليختبركم {فيما آتَاكُمْ} أَعْطَاكُمْ لِيَظْهَر الْمُطِيع مِنْكُمْ وَالْعَاصِي {إنَّ رَبّك سَرِيع الْعِقَاب} لِمَنْ عَصَاهُ {وَإِنَّهُ لَغَفُور} للمؤمنين {رحيم} بهم[1].

=

وقع منه خطأ أوجب دفع الدية لأهل المقتول، حفظا للدماء وصيانة لها من الهدر، ولما كانت الدية تجحف في مال الجاني أوجب الله تعالى على العاقلة تحملها من باب المواساة والتخفيف عنه، والله تعالى أعلم. انظر كتاب الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة.

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ} [الأنعام: ١٦٥].

أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلًا بعد جيل، وقَرْنا بعد قرن، وخَلَفا بعد سَلَف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأرْضِ يَخْلُفُونَ). وكقوله تعالى (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأرْضِ).

وقوله تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفَةً).

وقوله (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).

- قال السعدي: قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأرْضِ) أي: يخلف بعضكم بعضا، واستخلفكم الله في الأرض، وسخَّر لكم جميع ما فيها، وابتلاكم، لينظر كيف تعملون.

قال السمعاني: " أي: يخلف بعضكم بعضا".

=

=

قال مقاتل: " يعني: من بعد هلاك الأمم الخالية".

قال ابن أبي زمنين: " المعنى: سكان الأرض؛ يخلف بعضكم بعضا، واحدهم: خليفة".

قال البغوي: " يعني: أهلك أهل القرون الماضية وأورثكم الأرض يا أمة محمد ﷺ من بعدهم، فجعلكم خلائف منهم فيها تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وأمته: والله الذي جعلكم، أيها الناس، {خلائفَ الأرض}، بأن أهلك مَنْ كان قبلكم من القرون والأمم الخالية، واستخلفكم، فجعلكم خلائف منهم في الأرض".

قال ابن كثير: أي: " جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل، وقَرْنا بعد قرن، وخَلَفا بعد سَلَف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: {وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الأرْضِ يَخْلُفُونَ} [الزخرف: ٦٠]، وكقوله تعالى: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأرْضِ} [النمل: ٦٢]، وقوله} إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠]، وقوله} عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٢٩]".

وفي قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ} [الأنعام: ١٦٥]، وجوه:

أحدها: أنه جعلهم خلفًا من الجان سكانًا للأرض، حكاه الماتريدي، والماوردي، وابن الجوزي، عن ابن عباس.

والثاني: أن سكان الأرض يخلف بعضهم بعضا، وذلك فإن أهل كل عصر يخلف أهل العصر الذي قبله، كما مضى أهل عصر خلفه أهل عصر بعده على انتظام، حتى تقوم الساعة على العصر الأخير فلا يخلق عصر، فصارت هذه الأمة خلفًا للأمم الماضية. ذكره الماوردي، وهو معنى قول السدي، وابن زيد، وابن قتيبة، والنحاس، وغيرهم.

=

=

قال السدي: " أما {خلائف الأرض}، فأهلك القرون واستخلفنا فيها من بعدهم".

قال ابن زيد: " يستخلف في الأرض قوما بعد قوم، وقوما بعد قوم".

قال النحاس: " وقيل لان بعضهم يخلف بعضا حتى تقوم الساعة عليهم، والحديث يقوي هذا القول".

والثالث: جعل بعضهم خليفة لبعض ليتآلفوا بالتعاون. ذكره الزجاج.

والرابع: لأنهم آخر الأمم وكانوا خلفًا لمن تقدمهم. وهذا قول أبو عبيدة، والزجاج.

قال أبو عبيدة: " جعلت أمة محمد ﷺ خلائف كل الأمم".

قال الزجاج: " قيل خلائف الأرض أمة محمد ﷺ لأن النبي ﷺ خاتم النبيين فأمته قد خلفت سائر الأمم.

و «الخلائف»: جمع «خليفة»، كما «الوصائف» جمع «وصيفة»، وهي من قول القائل: خَلَف فلان فلانًا في داره يخلُفه خِلافة، فهو خليفة فيها، قال الشماخ:

تُصِيبُهُمُ وَتُخْطِئُنِي المَنَايا وَأَخْلُفُ فِي رُبُوعٍ عَنْ رُبُوعِ

والخامس: أنهم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها. أفاده الزمخشري.

والخامس: في بيان صحبة رسول الله ﷺ وحسن المعاملة معه.

يعني: أصحاب رسول الله ﷺ جعلهم خلائف من تقدمهم من المكذبين والصديقين؛ ليعلموا ما حل بالمكذبين برسول الله ﷺ ليحذروا تكذيبه والخلاف له، ويرغبوا في تصديقه والموافقة له والطاعة؛ ليكون لهم بمن تقدمهم عبرة في التحذير والترغيب، ويكون لهم بمن تقدمهم قدوة

وعبرة؛ ليعرفوا صحبة رسول الله ﷺ أن كيف يجب أن يصحبوه ويعاملوه: من الإحسان إليه، والتعظيم له والتصديق، ويجتنبوا الإساءة إليه والتكذيب. ذكره

=

=

الماتريدي.

والسادس: في بيان وحدانية الرب.

يعني: البشر كلهم، جعل بعضهم خلائف بعض في الوجود وفي الأحوال في الحياة، والموت، والغناء، والفقر، والصحة، والسقم، وفي العز، والذل، وفي كل شيء، وفي الصغر، والكبر؛ ليكون لهم في ذلك عبر ودليل على معرفة منشئهم وخالقهم؛ لأنه لو أنشأهم جميعا معا - لم يعرفوا أحوال أنفسهم وتغيرهم من حال إلى حال، ولكن أنشأهم واحدا بعد واحد وقرنا بعد قرن؛ ليعرفوا أحوال أنفسهم وانتقالهم من حال إلى حال؛ ليعرفوا أن منشئهم واحد؛ لأنهم لو كانوا جميعا معا - لم يعرفوا مبادئ أحوالهم من حال نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم من حال الصغر إلى حال الكبر، وكذلك هذا في جميع الأحوال: من الغنى والفقر، والصحة، والسقم، ولو كان كله على حالة واحدة - لم يعرفوا ذلك، لكن جعل بعضهم خلائف بعض؛ ليدلهم على ما ذكرنا. ذكره الماتريدي -أيضا-.

قال في التسهيل: المعنى: "يخلف بعضكم بعضا في السكنى في الأرض أو خلائف عن الله في أرضه، والخطاب على هذا لجميع الناس، وقيل: لأمة محمد صلّى الله عليه واله وسلّم لأنهم خلفوا الأمم المتقدمة".

قوله تعالى: {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} [الأنعام: ١٦٥].

أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك كقوله (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) وقوله تعالى (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا).

عن السدي: "{ورفع بعضكم فوق بعض درجات}، يقول: في الرزق".

=

=

قال مقاتل بن حيان: " يعني: في الفضل والغنى".

قال مقاتل بن سليمان: " يعنى بالـ {درجات}، الفضائل والرزق".

قال الكلبي: "فضائل في المعاش".

قال النحاس: " أي: فضل بعضكم على بعض في الرزق".

قال ابن قتيبة: " أي: فضَّل في المال والشرف".

قال الزمخشري: يعني: " في الشرف والرزق".

قال القرطبي: أي: " في الخلق والرزق والقوة والبسطة والفضل والعلم".

قال السمعاني: " يعني: في الدنيا بالفقر والغنى، والمرض والصحة، ونحو هذا".

قال الماوردي: " يعني: ما خالف بينهم في الغنى بالمال وشرف الآباء وقوة الأجسام، وهذا، وإن ابتدأه تفضلًا من غير جزاء ولا استحقاق، لحكمه منه تضمنت ترغيبًا في الأعلى وترهيبًا من الأدنى، لتدم له الرغبة والرهبة".

قال الطبري: " يقول: وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضكم فوق بعض، بأن رفع هذا على هذا، بما بسط لهذا من الرزق ففضّله بما أعطاه من المال والغِنى، على هذا الفقير فيما خوَّله من أسباب الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاه من الأيْد والقوة على هذا الضعيف الواهن القُوى، فخالف بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا، وخفض من درجة هذا عن درجة هذا".

قال ابن كثير: " أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} [الزخرف: ٣٢]، وقوله تعالى {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا} [الإسراء: ٢١]".

قال الماتريدي: " قوله - ﷻ -: {ورفع بعضكم فوق بعض درجات}، يحتمل

=

=

هذا في الأحوال، ويحتمل في الخلقة جعل لبعض فضائل ودرجات على بعض، وجعل بعضا فوق بعض بدرجات في الدنيا؛ ليكتسبوا لأنفسهم في الآخرة الدرجات والفضائل، على ما رغبوا في الدنيا في فضائل الخلقة ودرجات بعضها فوق بعض، ونفروا في الدون من ذلك؛ ليرغبهم ذلك في اكتساب الدرجات في الآخرة، وينفوهم عن اكتساب ما ينفرون عنه في الدنيا".

قال ابن عطية: "قوله: {ورفع بعضكم فوق بعض درجات}، لفظ عام في المال والقوة والجاه وجودة النفوس والأذهان وغير ذلك.

قال الرازي: "في الشرف والعقل، والمال، والجاه، والرزق، وإظهار هذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل، فإنه تعالى متعال عن هذه الصفات، وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان.

(لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره".

قوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [الأنعام: ١٦٥]، أي: " ليبلوكم فيما أعطاكم من نعمه، فيظهر للناس الشاكر من غيره".

قال السمعاني: " أي: ليختبركم فيما أعطاكم".

قال الزمخشري: أي: " من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والحر بالعبد، والغنى بالفقير".

قال مقاتل بن حيان: " يقول: ليبتليكم، فيبلو الغني والفقير، والشريف والوضيع، والحر والعبد"، "} في ما آتاكم}، يقول: فيما أعطاكم".

قال مقاتل بن سليمان: " يقول: يبتلي بعض المؤمنين الموسر بالغني، ويبتلي بعض المؤمنين المعسر بالفاقة".

قال النحاس: " أي: ليختبركم فيما أعطاكم فينظر كيف شكركم، وقد علم ما

=

=

يكون علم غيب وانما تقع المجازاة على الشهادة".

قال الطبري: " يعني: ليختبركم فيما خوَّلكم من فضله ومنحكم من رزقه، فيعلم المطيع له منكم فيما أمره به ونهاه عنه، والعاصي؛ ومن المؤدِّي مما آتاه الحق الذي أمره بأدائه منه، والمفرِّط في أدائه".

قال البغوي: أي: " ليختبركم فيما رزقكم، يعني: يبتلي الغني والفقير والشريف والوضيع والحر والعبد، ليظهر منكم ما يكون عليه من الثواب والعقاب".

قال ابن كثير: " أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره".

قال القرطبي: " أي ليظهر منكم ما يكون غايته الثواب والعقاب. ولم يزل بعلمه غنيا، فابتلى الموسر: بالغنى وطلب منه الشكر، وابتلى المعسر بالفقر وطلب منه الصبر. ويقال: {ليبلوكم}، أي: بعضكم ببعض. كما قال: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً} [الفرقان: ٢٠].

قال الماتريدي: " يحتمل: ليبلوكم فيما آتاكم من الأحوال المختلفة: من الفقر والغناء، والسقم والصحة، والصغر والكبر، وغير ذلك من الأحوال. ويحتمل: {في ما آتاكم} من النعم، أي: ليبلوكم بالشكر على ما آتاكم من النعم.. و «الابتلاء» منه هو ما بين السبيلين جميعا سبيل الحق وسبيل الباطل، وبين أن كل سبيل إلى ماذا أفضاه لو سلكه: لو سلك سبيل الحق أفضاه إلى النعم الباقية والسرور الدائم، وإن سلك سبيل الباطل أفضاه إلى عذاب شديد وحزن دائم".

قال الزجاج: " فدل بهذا أنه فضل بعض الناس ليختبرهم فيما رزقهم وهو جل ثناؤه عالم بما يكون منهم قبل ذلك، إلا أنه اختبرهم ليظهر منهم ما يكون عليه الثواب والعقاب".

قال الفخر الرازي: " والامتحان وهو المراد من قوله: {ليبلوكم في ما آتاكم}، وقد

=

=

ذكرنا أن حقيقة الابتلاء والامتحان على الله محال إلا أن المراد هو التكليف وهو عمل لو صدر من الواحد منا لكان ذلك شبيها بالابتلاء والامتحان فسمى لهذا الاسم لأجل هذه المشابهة".

عن أبي سعيد الخدري، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الدنيا حُلْوَة خَضِرَة وإن الله مُسْتَخْلِفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ} [الأنعام: ١٦٥]، أي: " إن ربك سريع العقاب لمن كفر به وعصاه".

قال مقاتل: أي: " لمن عصاه في فاقة أو غنى، يخوفهم كأنه قد جاء ذلك اليوم".

قال عطاء: " {سريع العقاب} لأعدائه".

قال النسفي: أي: " لمن كفر".

قال السعدي::أي: " لمن عصاه وكذّب بآياته".

قال الزمخشري: أي: " لمن كفر نعمته.. ووصف العقاب بالسرعة، لأن ما هو آت قريب".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: {إن ربك}، يا محمد، لسريع العقاب لمن أسخطه بارتكابه معاصيه، وخلافه أمره فيما أمره به ونهاه، ولمن ابتلى منه فيما منحه من فضله وطَوْله، تولِّيًا وإدبارًا عنه، مع إنعامه عليه، وتمكينه إياه في الأرض، كما فعل بالقرون السالفة".

قال ابن أبي زمنين: " {إن ربك سريع العقاب}، إذا جاء الوقت الذي يريد أن يعذبهم فيه حين كذبوا رسله".

قال ابن عطية: " لما أخبر عَزَّ وَجَلَّ بهذا ففسح للناس ميدان العمل وحضهم على الاستباق إلى الخير توعد ووعد تخويفا منه وترجية، فقال: {إن ربك سريع

=

=

العقاب}، وسرعة عقابه إما بأخذاته في الدنيا، وإما بعقاب الآخرة، وحسن أن يوصف عقاب الآخرة ب سريع لما كان متحققا مضمون الإتيان والوقوع، فكل آت يحكم عليه بالقرب ويوصف به.

قال ابن كثير: " وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع ممن عصاه وخالف رسله".

فإن قيل: فكيف جعله سريعًا وهو في الآخرة. فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن كل آت قريب، كقوله: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} [النحل: ٧٧]، وقوله: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [المعارج:٦ – ٧]. قاله الزجاج، والنحاس.

قال الزجاج: " فإنما ذلك لأن أمر الساعة سريع، لأن كل ما زال وإن تطاول فهو بمنزله ما لم يحس سرعة".

قال النحاس: " فعقابه جل وعز وإن كان أكثره يوم القيامة فان كل آت قريب".

والثاني: إن ربك سريع العقاب في الدنيا لمن استحق منه تعجيل العقاب فيها. ذكره الماوردي.

والثالث: أنه إذا شاء عاقب، فصار عقابه سريعًا لأنه يقترن بمشيئته، وهذا قول ابن بحر.

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: ١٦٥]، أي: " وإنه لغفور لمن آمن به وعمل صالحا وتاب من الموبقات، رحيم به".

قال مقاتل: أي: " بعد التوبة".

قال ابن أبي زمنين: أي: " لمن تاب من شركه وآمن بربه".

قال عطاء: " غفور لأوليائه رحيم بهم".

قال النسفي: أي: "لمن قام بشكرها".

=

=

قال الزمخشري: أي: " لمن قام يشكر نعته".

قال القرطبي: أي: " لمن أطاعه".

قال السعدي: أي: " لمن آمن به وعمل صالحا، وتاب من الموبقات".

قال الطبري: " {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ}،يقول: وإنه لساتر ذنوبَ مَنْ ابتلى منه إقبالا إليه بالطاعة عند ابتلائه إياه بنعمة، واختباره إياه بأمره ونهيه، فمغطٍّ عليه فيها، وتارك فضيحته بها في موقف الحساب،} رَحِيمٌ}، بتركه عقوبته على سالف ذنوبه التي سلفت بينه وبينه، إذ تاب وأناب إليه قبل لقائه ومصيره إليه".

قال ابن عطية: " {وإنه لغفور رحيم}، ترجية لمن أذنب وأراد التوبة، وهذا في كتاب الله كثير اقتران الوعيد بالوعد لطفا من الله تعالى بعباده.

قال في التسهيل: " جمع بين التخويف والترجية، وسرعة عقابه تعالى، إما في الدنيا بمن عجل أخذه، أو في الآخرة، لأن كل آت قريب".

عن سعيد بن جبير: قوله: "{لغفور}، يعني: غفورا للذنوب"، " {رحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين".

قال محمد بن إسحاق: "{لغفور}، أي: يغفر الذنب"، " {رحيم}، يرحم العباد على ما فيهم".

قال ابن كثير: "} وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خير وطلب.. وكثيرا ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال تعالى: وقوله: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقوله {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد: ٦] وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا

=

=

وبهذا ليَنْجَع في كُلَّ بحَسَبِه. جَعَلَنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزَجَر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء، جواد كريم وهاب".

قال الفخر الرازي: " أي يغفر الذنوب ويستر العيوب في الدنيا بستر فضله وكرمه ورحمته وفي الآخرة بأن يفيض عليه أنواع نعمه وهذا الكلام بلغ في شرح الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه".

قال الكرماني: " قيّد قوله {غفور رحيم} بـ«اللام»، ترجيحا للغفران على العقاب".

عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبي ﷺ قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طَمِع بالجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنطَ من الجنة أحد، خلق الله مائة رَحْمَة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها، وعند الله تسعة وتسعون".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها قوله تعالى: "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " وفى سورة الشعراء: "فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " فانفردت آية الأنعام بزيادة قوله "بالحق لما جاءهم " وبقوله "فسوف " من حرف التنفيس بدل السين فيسأل عن وجه ذلك؟

والجواب والله أعلم: أن آية الأنعام لما ترتبت على إطناب وبسط آيات من حمده سبحانه وانفراده بالخلق والاختراع فقال تعالى: "الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " فذكر سبحانه خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور فالظلمات عن أجرام هذه المخلوقات والأنوار عن أجرام ما جعل فى السماوات وزينها بها من شمس وقمر وكواكب للقتداء والضياء.

=

ثم ذكر خلقهم كم طين وقد تردد فى الكتاب العزيز تنبيه المكلفين بما صدرت به سورة الأنعام فقال تعالى: "إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين " وقال تعالى: "تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا".

ثم قال بعد آية الأنعام: "وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين " فلما تقدم هذا الإطناب ناسبه ما أتبع به من قوله تعالى: "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا يستهزئون " فناسب الإطناب الإطناب.

وقال تعالى قبل آية الشعراء: "تلك آيات الكتاب المبين " ثم اعترض بتسلية نبيه ﷺ فقال: "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " وليس هذا المعترض به مما ذكروا به ثم قال بعد: "إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين " وهذا راجع إلى تسليته عليه السلام فلم يبق مجردا لتذكيرهم سوى قوله تعالى: "تلك آيات الكتاب المبين " وما بعد من وعيدهم وتهديهم بقوله: "وما يأتيهم من ذكر.. "الآية، وهذا إيجاز فناسبه ما نيط به من قولهم: "فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " إيجازا لإيجازا وإطنابا لإطناب.

الآية الثانية: قوله تعالى: "ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم " وفى سورة الشعراء: "أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم "، للسائل أن يسأل هنا عن شيئين: أحدهما ثبوت الواو العاطفة فى آية الشعراء وسقوطها من آية الأنعام؟ والثانى وجه اختصاص كل واحدة منهما بموضعهما وإبداء المناسبة؟

والجواب عن ذلك: إن آية الأنعام لم يتقدم قبلها التنبيه على ما به التذكار والاعتبار مفصحا به تنبيها مع تخويف وتهديد متأكد مكرر يستدعى التقريع والتوبيخ بمقتضى الهمزة الداخلة على واو العطف كما فى سورة الشعراء وان كان المتقدم فى كل واحدة من السورتين متضمنا ما يحصل به الاعتبار مع ما فى المتقدم

=

فى الأنعام من التفصيل والإطناب إلا أن المتقدم فى سورة الشعراء أوضح وأنص من حيث التخويف لعدم الاعتبار بالدلائل المنصوبة مشاهدة للمعتبرين فلما لم يكن وضوح التنبيه فيما قبل آية الأنعام كوضوحه فى السورة الأخرى بما انجر معه من التخويف المتكرر وإنما المتقدم قبل قوله: "ألم يروا " إيماء إلى الاعتبار بأحوال القرون السابقة وليس كالواقع قبل آية الشعراء لم يرد ما بعده مما هو تنبيه مخوف معطوفا عليه إذ لا يناسبه "كفروا " المتقدم من شديد التخويف المنجر فيما بعده أما آية الشعراء فإن قوله تعالى قبلها: "تلك آيات الكتاب المبين " تحريك وتنبيه، ثم إن ما يتلوه من قوله تعالى: "لعلك بلخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " وإن كان تسلية لنبينا ﷺ فى طيه أعظم وعيد وتهديد لمن اعتبر ثم بعد ذلك قوله تعالى: "إن نشأ عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين " إلى ما بعده فهذا أوضح تنبيه بما صحبه من مخوف التهديد فعطف عليه قوله: "ألم يروا إلى الأرض كم آتينا فيها"... الآية وناسبه أوضح مناسبة.

فصل: ومما تعلق بهذه الآية من المغفل زيادة "من " فى قوله تعالى: "ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض " وفى سورة السجدة: "ألم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم " وفى ص: "كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا...".

وردت هذه الآى الثلاث بزيادة "من "فيها وسائر ما ورد فى القرآن من مثل هذه الآى لم ترد فيها "من "كقوله تعالى فى سورة مريم: "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا " وفى آخرها: "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد " وفى طه: "أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم "، وفى يس: "ألم يروا من أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون "وفى سورة ق: "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا " فهذه خمسة مواضع

=

لم ترد فيها "من " فيسأل عن وجه زيادتها فى الآى الثلاث الأول وسقوطها فى هذه الخمس مع اتحاد المقصود أو تقاربه؟

والجواب والله أعلم: أن "من " إنما تزاد فى هذه الآى حيث يراد تأكيده ضمن الآى من المعطيات ولإشارة إلى الوعيد وهى أبدا فى أمثال هذه المواضع محرزة معنى التأكيد لا تنفك عن ذلك ثم إن حذفها أوجز من إثباتها ولكل مقام مقال، فحيث ورد فى هذه الآى ما قبله استيفاء تفصيل وعيدين فى أمة بعينها أو أكثر أو تكرر التهديد وشدة التخويف من مقتضى السياق وفحوى الكلام فذلك موضع زيادتها والتأكيد بإثباتها وحيث لا يتقدم فى اقتضاء مقتضاها نفوذ الوعيد فهذا يناسبه الإيجاز بحذفها إذ لا يراد من تأكيد الوعيد ما يراد فى الآى الأخر فهذا إن شاء الله يوضح ما ورد من الحذف ولإثبات فى هذا الحرف ثم نقول: أما آية الأنعام فقد تقدمها قوله تعالى: "الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور "، وقد كانوا يعترفون بأنه تعالى الخالق "ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله " ثم تتابع ما بعد على هذا إلى قوله "وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين " على بيان الأمر ووضوحه ثم قال "فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون " فحصل التسجيل ببقائهم على اظفعراض وإنفاذ الوعيد عليهم ولا أشد من هذا ونحوع بل مثله فى الشدة والإشارة إلى إنفاذ الوعيد قوله تعالى فى سورة السجدة "ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها " فاكتنف الآية ما تضمنته الآيتان من الوعيد والتهديد فناسب ذلك ما اقتضته زيادة "من " من مناسبة التأكيد فقيل "ومن قبلهم " وأما آية ص فحسبك ما تضمنته من أولها إلى قوله "وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق " ثم قال تعالى مخبرا عن حالهم فى تكذيبهم واستبعادهم "عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب " ولعظيم تمردهم ووعيدهم المحكى عنهم فى هذه الآى ما أمر به ﷺ

=

من الصبر فى قوله تعالى "اصبر على ما يقولون " ثم أعقب تعالى بقصة داود عليه السلام أعلاما لنبيه بأن ذلك مراده منهم بما قدر لهم فى الأزل فقد سخر الجبال والطير لداود وألان له الحديد فلو شاء لهدى هؤلاء فلعظيم ما ورد فى هذه الآى من مرتكبات كفار قريش وغيرهم لذلك ما ورد التأكيد بزيادة "من " فى قوله بعد ذكر شقاقهم واغترارهم "كم أهلكنا من قبلهم من قرن " فهذا وجه زيادة "من " فى هذه الآى أما الآى الأخرى خمستها فلم يرد فيها ولا فيما اتصل بها ما ورد فى هذه من التغليظ فى الوعيد ومتوالى التهديد وإن كانت قل ما ترد إلا لذلك ولكن اشتداد التهديد إنما هو بحسب ما يقارن أو يكنف أو يتقدم أو ينجر معها من التغليظ فى الوعيد فبحسب ذلك يقوى الرجاء أو يضعف وإذا تأملت قوله تعالى فى الآية الأولى من سورة مريم "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا " لم تجدها فى نفسها أو فيما انتظم معها متقدما أو متأخرا توازن فى التهديد واحدة من تلك الآى الثلاث ألا ترى فيما نوظر بين المعنيين بهذه الآية والمهلكين قبلهم من القرون السالفة وأن ذلك إنما هو فيما غرهم من سعة الحال وكثرة المال حسبما أشار إليه قوله تعالى عن المهلكين قبل هؤلاء أنهم كانوا أحسن أثاثا ورئيا فهذه الآية كقولهم "نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين " ولو استبصروا لاهتدوا من قوله تعالى "إنما نملى لهم ليزداوا إثما " ومع ما أعقبت هذه الآية من المنتظم معها من قوله "فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا " فليست فى التغليظ كتلك الآى إذا حقق ما قبلها وكذلك الآية الثانية وهى قوله "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد... "الآية فى نفسها وفيما انتظمت به وأما آية طه فأوضح فى إيحاء الرجاء فى نفسها وما نتظمت به ألا ترى ما قوله تعالى "أفلم يهد لهم " وما تضمن تذكيرهم بهذا إلى قوله "لأولى النهى " من عظيم الحلم وعلى الرفق وكذا ما بعد فإن هذا من منتظم تلك الآى الثلاث وأما آية يس

=

وآية ق فأوضح فيما ذكرنا وتأمل مفهومها وما انتظم معهما وإنما حاصلهما بما اتصل بهما تحريك للاعتبار وتذكير بالالاء والنعم وتأمل قوله فى المنتظم بآية يس والمعقبة به من قوله " أفلا يشكرون " وعلى ما يترتب الشكر إذ لا يمكن إلا مرتبا على حصول الإيمان والتصديق وقوله عقب آية ق " إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " فقد وضح ما بين الضربين وورود كل منهما على ما يناسب ويجب والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة الأنعام قوله تعالى: "قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " وفى سورة النمل " قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة " وفى سورة الروم: "قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين "

هنا سؤالان أحدهما: اختلاف حالاتهم فيما وسموا به فى أعقاب الآى من التكذيب والاجرام ومن التعامى عن النظر فى البدأة والنشأة الآخرة والاشراك مع أن الأمر للكل باعتبار إنما وقع بلفظ ولحد وهو قوله: "قل سيروا فى الأرض فانظروا " ثم تنوع ما أحيل عليه فى النظر واختلف وإذا لحظ الجواب عما وقع به التعقيب فى كل واحدة من هذه الآى تفصل إلى أربعة أسئلة والسؤال الثانى: اختلاف حرف العطف.

والجواب عن السؤال الأول على رعى التفصيل أنه لما تقدم آية الأنعام قوله تعالى: "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم "والإشارة إلى أصناف المكذبين من المخاطبين وغيرهم ثم أشير إليهم بعد فى قوله: "ألم يروا كم أهكلنا من قبلهم من قرن "وكلهم إنما أهلك بإعراضه وتعاميه المؤديين إلى تكذيبه أح - يل من بعدهم على كل حال من تقدمهم فيما ذكر مكتفى الإعراض والتعامى بما تقدم فى الآى المذكورة قبل ومفصحا بالتكذيب المسبب عن ذلك فى قوله تعالى: "ثم

=

انظروا كيف كان عاقبة المكذبين " والتحم هذا بقوله: "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم " على أتم مناسبة وأصحها.

وأما آية النمل فمنزلة على ما تقدم من قوله تعالى: "بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون " وإنكارهم العودة بقولهم: "أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين " وذلك بعد ما ذكر مما بسط لهم من واضح الدلالات وقدم لهم الشواهد البينة من لدن قوله تعالى: "أم من خلق السماوات والأرض"... الآية المتكلم فيها فذكروا بما يشاهدونه ويعلمون أن آلهتهم لا تفعل ذلك فكان مرتكبهم بعد هذا إجراما وتعاميا عن الاعتبار بما ذكروا به فقيل لهم: سيروا فى الأرض فانظروا عواقب أمثالكم من المتعامين عن النظر ولم يقع قبل تفسير صريح وتكذيب وقد بسط من الاعتبار فى هذه الآى ما لم يبسط قبل آية الأنعام، فورد التعقيب هنا بوسمهم - أعنى الممحال - بالإجرام فقيل: "انظروا كيف كان عاقبة المجرمين " مناسب لما تقدم من اجترامهم مع الوضوح ومتابعة التذكير وإرااءة البراهين.

وأما آية العنكبوت فإن الله سبحانه لما قدم ذكر العودة الأخراويه بما يقوم مقام الإفصاح وتحصل المقصود من ذلك فى أربعة مواضع من هذه السورة على القرب والاتصال منها قوله تعالى: "من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت " قوله تعالى: "وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون " وفوله: "واشكروا له إليه ترجعون " وقوله: "ألم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده " ولم يتقدم فى السور الأخر على الاتصال مثل هذا فناسبه إحالتهم وتذكيرهم بالاستدلال بالبدأة على العودة فقال تعالى: "فانظروا كبف بدأ الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة".

وأما آية الروم فقد تقدم قبلها قوله: "ولا تكونوا من المشركين " وقوله: "إذا فريق

=

=

منهم بربهم يشركون " قوله: "أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون " قوله: "هل من شركائهم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون " فلما تقدم ذكر من امتحن بالشرك وسوء عاقبتهم ولم يتقدم مثل هذا فى السور المتقدمة ناسبه ما أعقب به من قوله: "قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين " فجاء كل على ما يجب.

وأما ورود ما أعقبت به كل آية من هذه من المأمور بالنظر فيه والاعتبار به بالفاء من حروف العطف سوى آية الأنعام فذلك بين لأنهم أمروا أن يعقبوا سيرهم بالتدبر والاعتبار وحصر نظرهم واعتبارهم فى المعقب المذكور بعد الفاء ولم تقع إشارة إلى اعتبارهم بغير ذلك وأما آية الأنعام فإنها افتتحت بذكر خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور وإنما ذكر هذا من الخلق الأكبر ليعتبر بذلك فإنه أعظم معتبر وأوسعه قال تعالى: "لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس " فكأن الآية فى قوة أن لو قيل: سيروا فى الأرض فاعتبروا لخالقها، وكيف دحاها لكم وذللها لسكانكم، وجعل فيها رواسى أن تميد بكم وفجر فيها الأنهار إلى عجائب ما أودع فيها وكيف جعل السماء سقفا محفوظا بغير عماد وزينها بالنجوم لتهتدوا بها فى الظلمات وجعل الشمس والقمر حسبانا وضياء وزينا للسماء الدنيا وكيف محا آية الليل لمصلحة العباد وجعل آية النهار مبصرة إلى ما لا يحصى من منافعها وعجائبها لمن منح الاعتبار قال تعالى: "إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين " ثم انظروا عاقبة من كذب ونبه فلم يعتبر فعطف هذا بثم المقتضية مهلة الزمان حيث يراد ذلك. وتفخيم الأمر وتفاوت المنظور وتجريد الأمر لكل من الضربين مما قبلها وما بعدها فليس موضع تعقيب بالفاء إذا لم يرد أن يكون سيرهم لمجرد الاعتبار بمن كذب فأخذ تذييبه فقط بل الضربين مما ذكرناه ومهدناه وفى كل آية منهما أشفى دلالة وقصد فى الآى الأخر تذكيرهم واعتبارهم

=

=

بأحد المكذبين وهو المعقب بالفاء فلما افترق القصدان عطف كل بما يناسب والله أعلم.

الآية الرابعة: قوله تعالى: "وذلك الفوز المبين " وفى الجاثية: "ذلك هو الفوز المبين " بزيادة "هو " وسقوط واو العطف.

لما تقدم فى سورة الأنعام قوله تعالى: "قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم " ثم أعقب بقوله تعالى: "من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه " والمراد من يصرف عنه العذاب فى الآخرة فقد رحمه عطف عليه قوه: "وذلك الفوز " وكان الكلام فى قوة قوله فقد رحم وفاز كما فى قوله: "فمن زحزح عن النار وأدخل النار فقد فاز " والفاء هنا وفى قوله: "فقد رحمه " جواب الشرط والفوز مسبب عن الرحمة فاكتفى بذكره فى آية آل عمران وذكرا معا فى آية الأنعام فعطفه عليه بين ولم يتقدم من أول السورة إلى هنا ما يتوهمه العاقل فوزا فيحترز منه بما يعطيه ضمير هو من المفهوم فلم يقع الضمير هنا.

أما آية الجاثية فقد ورد قبلها قوله تعالى مخبرا عن قول منكرى البعث: "ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر " فأفهم قوله "ما هى إلا حياتنا الدنيا " أن هذه الحياة هى الحاصلة لهم ولا حياة وراءها فمن تنعم فيها فذاك فوزه فأخبروا أن الأمر ليس كما ظنوه وذكر تعالى أمر الساعة وتفصيل الأحوال فيها وقال: "فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته " ثم قيل "ذلك هو الفوز المبين " لا الحياة التى هى لهو ولعب فكأن قد قيل: ذلك الفوز لا ما ظننتموه فوزا فأحرز مفهوم الضمير هذا المقصود ولم يتقدم فى آية الأنعام ما يستدعيه كما لم يتقدم فى آية الجاثية ما يستدعى العطف فجاء كل على ما يناسب والله أعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: "وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن

=

=

يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير " وفى سورة يونس: "وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم "، فورد جواب الشرط الثانى فى الآية الأولى بقوله: "فهو على كل شئ قدير " وفى الثانية بقوله: "فلا راد لفضله " وقال فى الأولى: "وإن يمسسك " وفى آية يونس: "وإن يردك " وأعقبت آية يونس بقوله: "وهو الغفور الرحيم " فخص هاتين الصفتين العليتين من صفاته تعالى فهذه ثلاث أسئلة فللسائل أن يسأل عن توجيهها وموجب ما ورد عليه ما ذكر؟

والجواب عن الأول والله أعلم أن مدار الأية الأولى وهى آية الأنعام على أنه سبحانه المنفرد بالخلق والاختراع والمتصرف فى عباده بما يشاء والقدير على كل شئ ونفى هذه الصفات عمن سواه سبحانه وتنزيل هذا عل ما افتتحت به السورة من قوله تعالى: "الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور " وقوله: "هو الذى خلقكم من طين " وقوله "وهو الله فى السماوات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم " وقوله فيمن أهلكه من القرون بكفرهم: "مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا.... "الآية وقوله: "قل لمن ما فى السماوات والأرض... "الآية وقوله: "قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض... "الآية

فدارت هذه الآى كلها على التعريف بوحدانيته تعالى وانفراده بخلق الأشياء وملكها وقهرها ولم يقع فيها تعرض إلى أن أحدا من خلقه يمنع أو يدفع أو يتعاطى استبدادا بشئ وإن كان قد يفهم بعض ذلك من الجارى أثناء الكلام كقوله: "ثم الذين كفروا بربهم يعدلون " وقوله: "قل أغير الله أتخذ وليا... "الآية بل فى قوة الجارى فى هذه الآى أن المشار إليهم بمخالفة مقتضاها أخلدوا إلى ترك التغير واشبهوا البهائم فى البعد عن النظر وكأنهم يرون أن الأفعال وما يتجرد فى

=

=

العالم من المدركات المشاهدات من الأجسام والأعراض على كثرة تنوعها واختلاف شيآتها وأشكالها زجدت بأنفسها لا عن فاعل تقدمها أوجدها بالقدرة والاختيار بل تكونت بأنفسها فقوبل مرتكبهم بالتعريف بقدرته تعالى على كل شئ وأنه الموجد لما فى العالم العلوى والسفلى وقيل له عليه السلام: "وإن يمسسك الله بضر.. "الآية إعلاما بأن ما يكون من هذا فمنه تعالى لأنه المنفرد بالخلق والقدير على كل شئ فهذا حاصل ما تقتضيه آية الأنعام.

وأما آية يونس فقد ذكر قبلها حال من ظن أن غيره تعالى يضر أو ينفع قال تعالى: "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " فقد نسبوا لهم النفع بالشفاعة وقال تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم... "الآية

وقال تعالى: "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار... "الآية

وقال تعالى: "قل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده " وقال تعالى: "قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق " فدارت هذه الآيات على أنهم توهموا نفع ما اتخذوه معبودا من شركائهم فبطل توهمهم واضمحل باطلهم واتبع ما تقدم بقوله جل وتعالى لنبيه عليه السلام: "ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك " ثم بقوله تعالى: "وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله " وحصل من هذا أن كل ما عبد دونه سبحانه وتوهم أنه يضر أو ينفع ليس كما ظنوه قال تعالى: "وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه " فناسب ما تقدم من التنصيص على انفراده تعالى بالخلق والأمر.

والجواب عن السؤال الثانى والله أعلم: أن قوله تعالى هنا: "وإن يردك بخير " ولم يقل: "وإن يمسسك بخير " كما فى آية الأنعام أنه تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى:

=

=

"إن الذين حقت كلمة ربك لا يؤمنون... "الآية

فهو إعلام منه سبحانه بجرى الخلائق على ما قدر لهم أزلا وسبق به حكمه تعالى ثم أعقب بقوله تعالى: "ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا " فهذا تأكيد للغرض المذكور من جرى العباد على ما قدر لهم وما شاءه سبحانه فيهم وإن ذلك لا يرده راد ولا يعارضه معارض فناسب هذا قوله تعالى: "وإن يردك بخير فلا راد لفضله " أتم مناسبة ثم وقع بعد هذا قوله تعالى: "يصيب به من يشاء من عباده " وإصابته سبحانه من يشاء بالخير هو المراد بقوله فى آية الأنعام: "وإن يمسسك بخير " فاجتمع فى آية يونس الأمران معا وكأن قد قيل: وإن يمسسك بخير ويردك به فلا راد لما أصابك به وأراده لك ففى هذه الآية من إمعان المقصود وتأكيده ما ليس فى آية الأنعام ليطابق هذا التأكيد والإمعان ما تقدم من قوله تعالى: "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون " وقوله: "ولو شاء ربك لأمن من فى الأرض كلهم جميعا " ولم يتقدم فى آية الأنعام مثل هذا فوقع الاكتفاء هناك بقوله: "وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير " فجاء كل على من هذا على أتم مناسبة وأوضح ملاءمة والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثالث أنه لما تقدم هذه الآية من مؤثرات الخوف والجهل ومهيجات الرهب واالخشية ما اقتضاه الاخبار بغيبة للقدر وجهل للمشيئة فى قوله: "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك... "الآية

وقوله: "ولو شاء ربك لأمن من فى الأرض كلهم جميعا " وعظم موقع ذلك على المؤمنين وكان مع ذلك للوفاء بمزدلفات الأعمال مما لا يحصل بالآمال أنسهم سبحانه بذكر الصفتين العليتين فقال: "وهو الغفور الرحيم " فناسب ورود الوصفين ما تقدم والله أعلم بما أراد.

الآية السادسة

=

=

قوله تعالى: "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون " وقال فيما بعد من هذه السورة: قوله تعالى: "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شئ " وفى سورة الأعراف: قوله تعالى: "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون " وفى سورة العنكبوت: قوله تعالى: "ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه " وفى سورة الصف: قوله تعالى: "ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام " وفى هذه الآيات سؤالان: أحدهما وجه ورود الآيات فى هذه المواضع بهذا النص من قوله "فمن أظلم ممن افترى على كذبا " وتعقيب كل آية منها بما اتصل بها والسؤال الثانى: تعريف الكذب فى سورة الصف وتنكيره فيما عداها.

والجواب عن الأول: أن الأولى تقدمها قوله: "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا يستهزئون " ثم قال تعالى بعد: "ولو أنزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين " فحصل من هذا افتراؤهم وفى قولهم: إنه سحر.

وتكذيبهم قال تعالى: "فقد كذبوا بالحق لما جاءهم " وجعلهم مع الله آلهة سواه فجمعوا بين الشرك والتكذيب فناسب هذا ورود قوله تعالى: "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا " على طريقة التعجب من مرتكبهم وسوء حالهم أى: من أظلم يا محمد من هؤلاء الجامعين بين الافتراء والشرك والتكذيب مع وضوح الشواهد وكثرة الدلائل الواردة أثناء هذه الآى مما لا يتوقف فيه معتبر فقد وضح تناسب هذا كله وحق لمرتكبه الوصف بالظلم الذى لا يفلح المتصف به وهو ظلم الافتراء على الله والشرك والتكذيب.

وأما الآية الثانية من سورة الأنعام فإن قبلها ذكر الرسل عليهم السلام وتعقيب

=

=

ذكرهم بقوله: "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " ثم قال تعالى: "وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ " فأعظم تعالى مرتكبهم فى هذا وفى تعاميهم عن التوراة وما تضمنته من الهدى والنور ثم أعقب ذلك بقوله تنزيها للرسل عليهم السلام عن الافتراء على الله سبحانه وادعاء الوحى فصار الكلام بجملته فى قوة أن لو قيل: ألا ترون ما تضمن كتاب موسى من الهدى والنور والبراهين الواضحة وهل يمكن أحد أعظم افتراء من هذا ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه بشئ " فهذا أوضح شئ ولما لم يتقدم فى الآية الأولى ذكر الأنبياء والوحى إليهم كما فى هذه لم يناسبها ما ورد هنا فجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم.

وأما آية الأعراف فتقدمها وعيد من كذب بآيات الرسل واستكبر عنها وأنهم أهل الخلود فى النار فناسب هذا قوله تعالى: "فمن أظلم ممن افترى على كذبا أو كذب بآياته..

"الآية.

وأما آية يونس فتقدم قبلها قوله تعالى: "وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله " إلى آخر الآية ولا أظلم ممن قال من فصحاء العرب العالمين بمقاطع الكلام وجليل النظم وعلى البلاغة: "ائت بقرآن غير هذا " أو بدله مع علمهم بعلى فصاحته واعترافهم بالعجز عنه فجمعوا بين إنكار ما علموا صدقه ممن عرفوا على حاله وجليل منصبه فإخباره تعالى عنهم بقوله: "فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " فجمعوا بين الانكار وبين وقولهم فى إنكارهم "أو بدله " فلا أظلم من هؤلاء ثم فى إنكارهم وقولهم "أو بدله " أعظم إقدام وأوضح إجرام لأنه كفر على علم فلهذا أعقبت الأية هنا بقوله: "إنه لا يفلح المجرمون " ولم يقع قبل التى فى سورة الأنعام وقبل

=

=

آية الأعراف مثل هذا الاقدام على مثل هذه الجريمة فى القول وإنما تقدم عداوتهم زظلمهم أنفسهم فى مرتكباتهم وتعاميهم فناسبه قوله: "إنه لا يفلح الظالمون " وأما آية العنكبوت وآية الصف فجوابهما بين مما تقدم.

وجواب ثان: وهو أنه قد تقدم مما به الاعتبار فى الأولى من آيتى الانعام وآية يونس ما فيه كفاء وإن تنوع فقد جنعه جامع الاعتبار وفى كل شفاء لمن وفق للاعتبار به فمن عدل عنه فظالم إلا أن الاجترام يبنى على أشد من الظلم وإن كان قد أجرى مع الظلم عدم الفلاح إلا أن الجرم أنبأ بالشدة وأخص بالاشعار بشناعة المرتكب وتقدم أن ترتيب السور والآى مراعى وعظيم الموقع وأنه لا يعارضه ترتيب النزول فإذا تقرر هذا فنقول: قدم وصفهم بالظلم ثم تكرر ذلك ممن افترى أو كذب وقد وصف أولا بالظلم فوصف ثانيا بالاجترام ترقيا فى الشر كما يترقى فى الخير وأيضا ليناسب ما وقع فى يونس متقدما من قوله: "وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين".

والجواب عن السؤال الثانى أن آية الصف قد انفردت عن كل ما تقدم من هذه الآى بذكر تعيين المفترى فيه الكذب منطوقا به من غير الإجمال الوارد فى الآى الأخر بل ورد على التفصيل والتعيين وذلك بين من قوله تعالى: "وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله اليكم لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد " ثم قال: "فلما جاءهم بالبينات " أى فلما جاءهم الرسول الذى سماه لهم عيسى بالبينات والدلائل القاطعة والتصديق لما بين يديه من التوراة قالوا هذا سحر مبين فافتروا الكذب وارتكبوا البهت فيما لا توقف فيه ولا اشكال فقيل متعجبا من حالهم على الجارى فى لسان العرب: "ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب " معرفا بأداة العهد ليقوم مقام الوصف حتى كأن قد قيل هذا الكذب الذى لا امتراء فيه ولا توقف ولما لم يرد فى الآى

=

=

الأخر ما تقدم هنا كان الوجه أن يرد منكرا كما ثبت فورد على ما يناسب ويجب والله أعلم.

الآية السابعة: قوله تعالى: "ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها... "الآية وفى سورة يونس: "ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كلنوا لا يعقلون ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون " فورد الفعل فى الأولى مسندا إلى ضمير المفرد وفى الثانية إلى ضمير جماعة مع استوائهم فى الجمعية ومع اتفاق الغايتين فى أن استماعهم مع قصدهم إياه لا يجب عليهم فللسائل أن يسأل فيقول: لم ورد فى الأولى "ومنهم منيستمع إليك " وفى الثانية "ومنهم من يستمعون إليك " مع اتفاق الآيتين فيما ذكر؟

والجواب والله أعلم: أن نقول "من " لفظ مفرد ويصلح للاثنين والجميع.

على هذا وضعه فإذا ورد فى تكيب كلامهم فأول ما يحمل على السابق من حكمه اللفظى من الافراد فلهذا ترد صلته إن كان موصولا أو صفته إن كان موصوفا أو خبره إن كان شرطا أو استفهاما كصلة "الذى "...الواقع على المفرد فتقول فى الصلة والصفة: من الناس من يفعل كذا وتقول فى الاستفهام: من يفعل ذلك؟ فيرفع الفعل ضميرا مفردا وسواء كان المراد فى المعنى واحدا أو أكثر قم قد يكون فيما اتصل بالكلام بعد ضمير أو غيره يراعى فيه معنى من حيث يراد أكثر من واحد فيأتون بع على معنى "من " لا على لفظها كقولك: "من الناس من يفعل كذا ويخطئون فى ذلك ومنهم من يفعل كذا مستمرين على فعلهم يبين ضمير الجمع فى قولك: وهم يخطئون والحال فى قوله: مستمرين على فعلهم أن المراد أكثر من واحد وعلى هذا كلام العرب فى الكثير المطرد وعيه جاء القرآن قال تعالى: "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر " ثم قال: "وما هم بمؤمنين

=

=

" فعاد الضمير مجموعا فى قوله "وما هم " بعد عودته مفردا وهذا كثير وقال تعالى: "ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا ندخله جنات تجرى من تحتها الأنهار " فعاد الضمير من ندخلع مفردا على لفظ "من " ثم قال "خالدين " وهو حال من الضمير قتبين بهذا الجمع أن المراد جميع، وقد يجرى الكلام على أوله فى الإفراد كقوله تعالى: "ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا... "الآيات، فورد فيها ضمائر ثمانية كلها عائدة على لفظ "من " ولم يرجع منها شئ على معنى "من " مع أن المعنى على الكثرة ثم أعلم بعد أن المراد بما يبينه ما يأتى بعد الضمير المفرد المحمول على لفظ "من " إنما هو أعنى المبين كثرة أو وحدة أما إبهام التعيين فمقصود لا يرتفع فإن إبهام الصلة أو الخبر فى هذا أبلغ فى تكميل فائدة الكلام وإحرازها ألا ترى أن قول الملك لخاصته: إن منكم من يفعل كذا أهيج لنفوس السامعين وأبلغ فى التحريض على الشئ أو الزجر عنه بحسب
المرتكب فإن كان مما يحبه الملك تشوقت نفوس المخاطبين إليه وإن كان على الضد من ذلك اشتد خوف جنيعهم وحذرهم وهذا يستدعى طولا قد يخرجنا عن مقصودنا والوارد من هذا فى الكتاب العزيز كثير.
ونرجع إلى مقصودنا فنقول: إن آية الأنعام وردت على الأكثر المطرد وقد ورد فيما انتظم بالآية بيان كون المستمعين جماعة وذلك قوله: "وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا " فبين أن المراد جماعة وارتفع الاحتمال ولما لم يرد فيها انتظم مع آية سورة يونس ضمير ولا غير ذلك مما يبين المستمعين جماعة وكان بيان ذلك مرادا مقصودا أتى الضمير أولا ضمير جمع حملا على معنى "من " ولم يحمل على لفظها فيفرد لئلا يوهم أن المستمع واحد وذلك غير مقصود فقيل: "ومنهم من يستمعون إليك " إذ ليس فى الكلام بعد ما يبين ذلك.
فإن قيل فإن "من " قد تقرر حكمها أنها يراد بها الكثير وإن كانت مفردة اللفظ
=

=

وصالحة له وإذا كانت فى الأكثر من كلامهم مراد بها الكثير فذلك يرفع إيهام إرادة واحد؟ فالجواب أن إرادة الواحد بها - وإن كان الأقل - مبق حكم الايهام قال تعالى: "ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا... "الآيات إلى قوله "ولبئس المهاد " نزلت هذه الآى فى الأخنس بن شريق وقد تكرر الضمير فيها ثمانى مرات ضمير مفرد وتأكد بذلك أن المعنى بها واحد كما قال المفسرون وقال تعالى: "منهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى " نزلت فى الجد بن قيس لما دعاه رسول الله ﷺ إلى جهاد الروم وقال: هل لك فى جلاد بنى الأصفر وقصته مشهورة وقال تعالى: "ومنهم من عاهد الله... "الآية نزلت فى ثعلبة بن حاطب إلى غير هذا من المواضع وقد تقدم أيضا أنها تصلح للاثنين وأنشد سيبويه رحمه الله.

[الفرزدق]

تعال فإن عاهدتنى لا تخوننى نكن مثل من ياذيب يصطحبان

فإذا ثبت أن "من " تصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث وقد ذكر المفسرون وأهل السير أن المعترضين لسماع القرآن منه ﷺ كانوا جماعة سماهم المفسرون فتحرير المراد فى الآية محرز للمعنى المقصود ومتأكد إذ ليس فيما بعد مما فى المنتظم مع الآية ما يبين المراد كما فى غيرها فوجب رعى ذلك فقيل: "ومنهم من يستمعون " ولزم ذلك ليرتفع الإيهام.

فإن قيل: فإن قوله تعالى فى آية يونس "أفأنت تسمع الصم " يبين ذلك كما يبينه فى آية الأنعام قوله تعالى: "وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه " وما بعد إذ الارتباط حاصل فى الآيتين ونظام الكلام ملتئم؟ فالجواب أن ارتباط قوله تعالى: "أفأنت تسمع الصم " بما قبله صحيح كارتباط قوله تعالى "وجعلنا على قلوبهم أكنة " بما قبله إلا أن قوله تعالى "وجعلنا على قلوبهم أكنة " مبين أن ما وقعت عليه "من " جماعة وكأن الكلام فى قوة أن لو قيل: وجعلنا على قلوب السامعين إذ لا يراد

=

=

بالضمير غير ما وقعت عليه أما قوله تعالى: "أفأنت تسمع الصم" فليس كذلك بل المراد بلفظ الصم جنس الصم، والمستمعون بعض ذلك فحصل الارتباط بهذا الوجه لا أن الصم يراد بهم من وقعت عليه "من" فقط وهذا كقولهم: زيد نعم الرجل فإن الرجل لم يرد به زيد وحده إنما أريد به جنس الرجال وإنما زيد واحد منهم فحصل الارتباط بهذا الوجه فليس كقوله "وجعلنا على قلوبهم" وبهذا يتم المعنى المقصود من تسلية نبينا ﷺ، وكأن قد قيل له عليه السلام: إن الصم الذين لا يعقلون لم تكلف أسماعهم وهؤلاء منهم فلا درك عليه فيهمن ﷺ فانفصلت آية يونس من آية الأنعام وورد كل على ما يجب.

فإن قيل إذا كان الأكثر فى "من" وقوعها على الكثير فقد وردت آية يونس على ما هو قليل فى كلامهم وفى هذا ما يسأل عنه؟ قلت ذلك كله فصيح ومعروف من كلامهم ولا يلزم من كون الوارد أقل أن يكون دون الكثير فى الفصاحة بل كل فصيح، وقد بوب سيبويه رحمه الله على حال "من" فى وقوعها على من ذكر فقال فى كتابه: "هذا باب إجرائهم صلة من وخبرها إذا عنيت اثنين كصلة اللذين وإذا أرادت جماعة كصلة الذين ثم ذكر الآية: ومنهم منيستمع إليك" وأنشد بيت الفرزدق وقد تقدم.

تعال فإن عاهدتنى لا تخوننى..... البيت

وقد تقدم ذكر ما أجريت فيه مجرى التى كقول العرب: ومن كانت أمك وأيهن كانت أمك، وأورد عن [بياض] قراءة من قرأ: "ومن تقنت منكن لله ورسوله" فقد ذكر سيبويه رحمه الله أن هذا كله من كلام العرب ودل قوله فى الترجمة: هذا باب إجرائهم بالاضافة إلى ضمير الجمع وإنما يريد العرب وهذا مشير إلى أن العرب تتكلم به كثيرا وأنه ليس فى كلام بعضهم دون بعض ووضح من جملة هذا أن قوله تعالى فى آية يونس "ومنهم من يستمعون" بضمير الجماعة لا يلائم الموضع

=

=

سواه إذ ليس بعده ما يبين أن المراد جمع أما آية الأنعام فقد ورد فى المنتظم بها مما بعد ما يبين المراد فجاء كل على ما يحب والله أعلم.

الآية الثامنة: قوله تعالى: "وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين " وفى سورة المؤمنون: "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين " وفى الجاثية: "وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نمةت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. "الآية.

للسائل أن يسأل فيقول: إن هذه الآى الثلاث قد اتحد محصولها من إنكارهم البعث الأخراوى أن لا حياة بعد هذه الحياة الدنياويه ولم يرد فيها عدول عن هذا من قولهم فما وجه الاقتصار فى آية الأنعام؟ وزيادة نموت ونحيا فى الأخريين؟ وانفراد آية الجاثية بقولهم: "وما يهلكنا إلا الدهر " عوض قولهم فى الأوليين "وما نحن بمبعوثين "؟

فالجواب عن ذلك والله أعلم: أن آية الأنعام لم يرد فيما تقدمها زيادة على ما أخبروا به من حالهم فى إنكارهم البعث ألا ترى أن بنيت الآية على ما تقدمها من قوله تعالى: "ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد... "الآية فكأن قد قيل لهم: إنكم كنتم تنكرون البعث ووجود هذه الحياة الأخراوية ولم يرد أثناء هذا ما يستدعى زائدا.

أما آية المؤمنين فترتب الوارد فيها من قولهم "نموت ونحيا " على ما تقدم من دعاء الرسل إياهم، وقد ذكر الامداد فى دنياهم الحامل على عتوهم وقولهم فى المرسل إليهم: "ما هذا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون " فلما طال هذا الكلام بما أغروا به سفهاءهم ناسب هذا الطول ما زيد هنا من قوله "نموت ونحيا " أى طائفة تموت وطائفة توجد.

وشأن ما يرد فى الكتاب العزيز مما ظاهره التكرر زيادة فائدة أو تتميم معنى أو لبناء غيره من الكلام عليه حتى لا يكون تكرارا عند من وفق لاعتباره.

=

=

وأما آية الجاثية فهى المفصحة بمرتكبهم الشنيع من إنكارهم فاعلا مختارا حين قالوا: "وما يهلكنا إلا الدهر " فزادوا إلى إنكارهم البعث الأخراوى إنكارهم توقف الموت على آجال محدودة للخلائق ووقوعه بإرادة وتقدير من الموحد سبحانه ثم أتبعوا شنيع مرتكبهم هذا بقولهم للرسل تحكيما لإنكارهم البعث: "فأتوا بآياتنا إن كنتم صادقين " أى إن كنتم صادقين فى أنا نحيى بعد الموت فأرونا دليلا على ذلك بإحياء من مات من آبائنا وبما ورد هنا من هذه الزيادة حصل التعريف بجملة مقالهم الشنيع واستوفته هذه الآية ما لا يتأتى فى غير هذا مما يتكرر.

الآية التاسعة قوله تعالى: "وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو " وهذه الآية الأولى مغفلة وفى هذه السورة أيضا "وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت " وفى الأعراف: "قالوا إن الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا " وفى سورة العنكبوت: "وما هذا الحياة الدنيا إلا فلهو ولعب " وفى سورة القتال: "إنما الحياة الدنيا لعب ولهو " وفى سورة الحديد: "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو " ففى آيتى الأنعام وسورة القتال وسورة الحديد تقديم اللعب على وعطف اللهو علي عليه وثبت فى الأعراف والعنكبوت بالعكس فقدم فيهما اللهو على اللعب والواو وان كانت لا ترتب فانه لا يتقدم اللفظ فى الكتاب العزيز ذكرا أو يتأخر الا لموجب فوجه تقديم اللعب فى الأنعام أنه المتقدم فى الوجود الدنياوى على اللهو ولأن أول ابتداء تعقل الإنسان وميزه حاله حال اللعب وهو المطابق لسن الابتداء فإذا استمر ألهى عن التدبر والاعتبار وشغل تمادية عن التفكر فيما به النجاة والفوز وقد ينضاف إلى اللعب شاغل غيره أو يعاقبه فيحصل بالمجموع الغفلة عن النظر فى الآيات فيعقب الهلاك، قال تعالى: "ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن

=

=

والإنس.... " الآية فلما لم يبرح هؤلاء عن الجرى على مهيع الصم والبكم الذين لا يعقلون جرى الإخبار عنهم فى الآية الثانية من الانعام بمقتضى أحوالهم فى أعمارهم التى لم تخرج عن أحوال البهائم فأول أعمارهم لعب وعقب ذلك لهو فورد الاخبار على حسب جرى الأعمار وانهم اعتمدوا البقاء مع مقتضى الطبع الانسانى إذ لم يصغ المكلف إلى داع ولا تكلف الخروج عن مقتضى هواه ولا جنح إلى مفارقة مألوف الطباع قال تعالى: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه " فأمر تعالى نبيه عليه السلام بالاعراض عنهم فقال: "وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا " على مقتضى الهوى والطبع وهذه الحال هى التى نبه سبحانه عباده المؤمنين على أنها حال الحياة الدنيا وصفتها التى تمتاز بها فأعلم بذلك ليجتنبوها ويحذروا غرورها فقال تعاليفى الآية الأولى من هذه السورة: "وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو " وقال فى سورة القتال: "إنما الحياة الدنيا لعب ولهو " ألا ترى أن الخطاب قبل هذه الآية خطاب للمؤمنين بالأمر بالطاعة لله ورسوله ووصية لهم وإعلام بحال عدوهم من الكفار وذلك قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله... " الآية، وفى سورة الحديد: "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو " فعرف عباده المؤمنين منها بالصفة التى هى فضلها وبها امتيازها على الترتيب الذى وجودها عليه من تقديم اللعب فى هذه الآى الأربع.

أما آية الأعراف فإنها قول المؤمنين أهل الجنة إخبارا عن حال الكافرين الموجبة لتعذيبهم فقدموا فى الذكر اللهو الشاغل عن الاستجابة الجارى مع سن التكليف والمساوق له الثانى عن اللعب إذ وجود اللعب أولى فى السن التى معظمها غير سن التكليف وجرى الأقلام بالتزام الطاعة واجتناب المخالفة فقصدوا أن يخصوا موجب التعذيب من الأعمال فذكروا مساوقه ومظنته وهو معاقب اللعب والذى

=

=

اتخذه الكافر بالقصد والاختيار عوضا عن شاق التكاليف، ولم يذكر اللعب أولا لأنه جار فى البدأة وحين لا تكليف فكأن الكلام فى قوة أن لو قيل: ان الله محرم نعيم الجنة على من تأبط الكفر واعتمده واتبع اللعب واللهو من كفره فلم يبرح عن ملازمة الطبع والهوى.

وأما آية العنكبوت فإنها تقدم قبلها قوله تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله "، ولا يسأل عن هذا ويجيب الا من جاوز سن اللعب وبلغ سن التى فيها ينعلق التكايف بالمخاطب ويصح خطابه وعتابه على تفريطه.

فناسب ذلك من ذكر الحياة الدنيا تقديم ما يساوق تلك السن فقدم ذكر اللهو والتلى اللعب ليناسب وايحصل ذكر مانعهم من الاستجابة وتكميل النظر المخلص لهم وآخر ذكر اللعب الذى لا يساوق مع أنه متبوع اللهو لزوما لمن لم تسبق له سابقة سعادة فهذا وجه التقديم والتأخير فيما ذكر ولو ورد على العكس لما كان ليناسب والله أعلم.

الآية العاشرة قوله تعالى: "وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون " وفى سورة الأعراف: "والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون " وفى سورة يوسف: "ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون " فى هذه الآى ثلاثة أؤولة والآية الأولى من مغفلات صاحب كتاب الدرة أحدها قوله فى الأنعام "وللدار "باللام الموطية للقسم، وفى الأعراف "والدار " بغير تلك اللام والثانى جرى الأخرة على الدار نعتا لها فى السورتين وفى سورة يوسف "ولدار الآخرة " على الإضافة والثالث قوله فى السورتين "للذين يتقون " وفى سورة يوسف "للذين اتقوا".

والجواب عن الأول: أن آية الأنعام تقدمها قوله تعالى معرفا بحال الدنيا "وما

=

=

الحياة الدنيا إلا لعب ولهو " ومعنى التأكيد فى هذا حاصل من جرى الكلام وسياقه لأنك إذا قلت: ما المال إلا الإبل فكأنك نفيت عن غير الإبل أن يكون مالا وأثبت ذلك لها ثباتا مؤكدا وانها المال حقيقة وكأن ما سواها ليس بمال وعلى هذا يجرى ما دخلته الا بعد ما النافية من مثل هذا ومثل هذا هو المعنى الحاصل من لفظ القسم الصريح فناسبه هذا مجئ اللام الموطية للقسم داخلة على المبتدأ فى الآية المعرفة لحال الدار الأخرى فى قوله: "وللدار الآخرة " وكأنه نص قولك والله للدار الآخرة خير، وتناسب هذا مع ما تقدم قبله من تقدير القسم المؤكد كما تبين، وليس فى آية الأعراف ما يقتضى هذا لأنها مناطة بقوله تعالى: "فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى " ثم قال: "والدار الآخرة خير "، على هذا نظم هذا الكلام وليس فيه ما يقتضى قسما فلم تدخله تلك اللام.

والجواب عن السؤال الثانى: أن جرى النعت بلفظ الآخرة على الدار فى الآيتين وجهه مطابقة ما تقدم قبل كل واحدة من الآيتين أما فى آية الأنعام فقوله تعالى مخبرا عنهم: "وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا " فطابق هذا قوله تعالى: "وللدار الآخرة خير " وأما آية الأعراف فقوله تعالى: "فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى " المراد به الدار الدنيا فقوبل بقوله: "والدار الآخرة خير " وهذا بين ولما لم يتقدم مثل ذلك قبل آية يوسف ورد لفظ الدار مضافا بغير الألف واللام فيه فقيل: "ولدار الآخرة خير " وجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثالث: ان قوله تعالى فى سورة يوسف: "ولدار الآخرة خير للذين اتقوا " قد تقدم قبله قوله تعالى: "أولم يسيروا فى الأرض... " الآية، والحاصل منه انهم ظلموا أنفسهم فأهلكوا ولو اتقوا لنجوا فناسب هذا المعنى

=

=

المقدر ورود الماضى فى قوله تعالى: "للذين اتقوا " أوضح مناسبة.
الآية الحادية عشرة: قوله تعالى: "وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه " وفى سورة العنكبوت: "وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه " فى قراءة نافع وأبى عمرو وحفص ولمك يختلف فى توحيد لفظ آية فى الأنعام والمقصود واحد؟
ووجه ذلك والله أعلم أن لولا فى الآيتين تحضيض وإنما يجرى فى كلامهم عندما يراه المتكلم به أولى أو أهم فى مقصود ما أو أتم فى مطلب ما إلى أشباه هذا مما يستدعى التحضيض ولما تقدم قبل آية الأنعام ذكر دلائل من خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور بحال من كذب وعاند إلى ما تبع ذلك من الآيات التى يحتاج فيها إلى النظر وإعمال الفكر والاعتبار وكان مظنه لتغبيط الجاحد، فطلبوا آية تبهر ولا يحتاج معها إلى كبير نظر كناقة صالح عليه السلام أو شبه ذلك فافتتحوا فيما ذكره سبحانه عنهم بأداة لولا التحضيضية حرصا على ما طلبوه، وأتوا بالفعل مضعفا لما أرادوه من التأكيد فقالوا: نزل وأفردوا آية لما قصدوه من أنه عليه السلام جاءهم بآية واحدة من الضرب الذى طلبوه، وهذا مناسب وقد صرحوا بما طلبوه من هذا الضرب بالذى ذكرنا فى قولهم: "لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب... " الآية، وفى قولهم: "لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا " إلى ما أشبه هذا فقال تعالى: قل لهم يا محمد إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون أى لا يعلمون ما كان يعقبهم ذلك لو وقع على وفق اقتراحهم من تعجيل أخذهم وهلاكهم كما جرى لغيرهم من الأمم كقوم صالح عليه السلام وغيرهم وقد قدم لهؤلاء التنبيه على ذلك فى قوله تعالى: "ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون " وأيضا ففى ذلك من الحكمة ما سبق فى علمه تعالى من هداية من شاء واضلال من شاء وليرفع بالعلم والنظر من هداه إليه ووفقه فلو ورد هذا الفعل غير مضعف ولم

=

=

تفرد آية لما أحرز هذا المعنى.

أما آية العنكبوت فقد تقدم قبلها قوله تعالى: "بل هو آيات بينات فى صدرو الذين أوتوا العلم " ثم قال تعالى: "وما يجحد بآياتنا " وتأخر بعدها قوله تعالى: "قل إنما الآيات عند الله " فلم يكن ليناسب بعد اكتناف هذه الجموع توحيد آية ثم ان هذه الآية لم يتقدمها من التهديد وشديد الوعيد ما تقدم آية الأنعام فناسب ذلك ورودالفعل غير مضعف وجاء ذلك كله على ما يجب ولم يكن عكس الوارد ليناسب والله أعلم.

الآية الثانية عشرة قوله تعالى: "قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين "، ثم قال بعد: "قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم " ثم قال بعد: "قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون " وفى سورة يونس: "قل أرأيتكم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون " ففى هذه الآى الأربع أربعة أسؤلة: الأول ما وجه التكرار فى الواردة فى سورة الأنعام؟ والثانى: ما وجه اختصاص بعضها بتأكيد الخطاب الحاصل من الضمير بالإتيان بالأداة بعد فى قوله: "قل أرأيتم " وسقوط ذلك من بعضها؟.

الثالث: ما وجه تخصيص كل آية منها بما اتبعت به؟، الرابع: ما وجه الترتيب فى الآيات الثلاث وهو قوله فى التنبيه أولا: "إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة " وتأخير التنبيه بمثل ذلك من ذكر العذاب فى قوله: "قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة... " الآية وتسيط التنبيه بقوله: "قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم "؟

والجواب عن الأول: أنه إنما أعيد لفظ التنبيه لتسويغ معتبرات كل منها كاف فى الدلالة لمن وفق ونظير هذا ما ورد فى قوله تعالى: "قل الحمد لله وسلام على

=

=

عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون " ثم قال: "أمن خلق السماوات والأرض " أمن فعل كذا فهذه الدلالات التى نبهوا على الاعتبار بها نظائر الآى الواردة فى آية الأنعام وأما الإتيان بأداة الخطاب بعد الضمير المحصل لذلك فتأكيد فى إيقاظ المنبه إنباء باستحكام غفلته كما يحرك النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان وشبه هذا ألا ترى وصفهم قبل هذا بقوله تعالى: "والذين كفروا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات " فذكروا أولا تذكير الصم والبكم، وإنما يذكر هؤلاء بأبلغ ما يقع به التحريك والتنبيه، ثم لما بسط الكلام وامتد الوعظ إلى الآية الأخرى قيل لهم: "قل أرأيتم " فلم يحتج إلى التأكيد، وذكروا بأمر مشاهد فى كثير من الخلق فقيل لهم: "إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم " ثم لما أخذوا بكل وجهة يحصل منها الإتعاظ اتبع ذلك بذكر العذاب وسوء الجزاء لمن لم يتعظ وكررت أداة الخطاب وأكد كما يقال لمن نبه فلم ينتبه ولا أجدى عليه التذكار كيف رأيت؟ ويحرك تجريك المتمادى على غيه بتكرر الخطاب فقد حصل الجواب عن الكل.

وأما آية يونس فمنفردة ولم يتقدم قبلها ذكر صم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب وقد تقدم قبلها قوله تعالى: "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار " إلى ما بعد هذا فحصل تحريكهم وتنبيهم بما لم يبق لعده الا التذكير بعذابهم ان لم يجد ذلك عليهم فالتدريج هنا حاصل كما هناك لكن بطريقة أخرى والله أعلم بما أراد.

فصل: واعلم أن من جعل الأداة المؤكد بها الخطاب فى أرأيتكم ضميرا لم يلزمه اعتراض بتعدى فعل المضمر المتضل إلى مضمره المتصل لأن ذلك جائز فى باب الظن وفى فعلين من غير باب ظننت وحسبت وهما: فقدت وعدمت، وكذلك تعدى فعل الظاهر إلى مضمره المتصل جائز فى الأفعال المذكورة والآيات

=

=

المتكلم فيها من باب الظن لأن المراد برأيت رؤية القلب فهى من الباب المستثنى وإنما الممتنع مطلقا تعدى فعل المضمر المتصل إلى ظاهره فلا اختلاف فى منع هذا فى كل الأفعال وأما من جرد أداة الخطاب المؤكد بها للحرفية وهو قول الجمهور فلا كلام فى ذلك.

الآية الثالثة عشرة: قوله تعالى: "فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون " وفى سورة الأعراف: "وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلاه بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون " بإدغام تاء التفعل فى فاء الكلمة مع اتحاد المرمى فى الآيتين فيسأل عن وجه ذلك؟

والجواب والله أعلم: أن العرب تراعى مجاورة الألفاظ فتحمل اللفظ على مجاوره لمجرد المضارعة اللفظية وان اختلف المعنى ومنه الاتباع فى ينوؤك ويسوؤك قال سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد ذكر بعض ما تتبع فيه العرب وتحمل اللفظ على ما قرن به لول أفرد عنه لم ينطق به كذلك فقال: كما أن يتوؤك يتبع يسوؤك يريد أنك تقول: ينيئك بضم الياء وكسر النون متعديا على مثال يزيلك وزنا وتعدية إلى المفعول فإذا ذكرته بعد يسوؤط ابعته إياه فقلت يسوؤك وينوؤك مع اختلاف المعنى فهم فيما اتفق معناه من هذا أحرى أن يفعلوا فيه ذلك.

وماضى الفعل من الضراعة لا إدغام فيه إنما تقول تضرع إذ لا حرف مضارعة فيه يسوغ الإدغام فلما ورد الماضى فيما بنى علي آية الأنعام من قوله: "فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا " ولا ادغام فيه لما ذكرنا ورد الأول مفكوكا غير مدغم فقيل يتضرعون رعيا للمناسبة، أمأ آية الأعراف فلم يرد فيها ما يستدعى هذه المناسبة فجاء مدغما على الوجه الأخف إذ لا داعى لخلافه والله أعلم.

الآية الرابعة عشرة: قوله تعالى: "قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك " بتكرير ضمير الخطاب المجرور من قوله "لكم "

=

=

وفى سورة هود: "ولا أقةل لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك " بغير تكرير الخطاب فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب والله سبحانه أعلم أن الوارد فى سورة هود إنما هو حكاية قوله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ متلطفا ومشفقا من حال قومه ألا ترى استفتاح خطابه لهم بقوله: "أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده... " الآية وقوله: "ويا قوم لا أسألكم عليه مالا... " الآية وقوله: "يا قوم من ينصرنى من الله " إلى قوله "إنى إذا لمن الظالمين " فتأمل جليل ملاطفته عَلَيْهِ السَّلَامُ وما يفهم من كلامهم من عظيم الإشفاق من حالهم وإرادته ما به نجاتهم من العذاب ومن أخذهم بمرتكباتهم فهذا كله استلطاف فى الدعاء لا يلائمه تكرار كلمة تفهم تعنيفا أو توبيخا والتأكيد والتكرار يفهم ذلك ويردان حيث يقصد.

وأما قوله تعالى فى آية الأنعام: "ولا أقول لكم إنى ملك " فوارد طى كلام أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبليغه عتاة قريش والعرب توبيخا لهم وتقريعا فقيل له: "قل " والمراد: قل لهم يا محمد: ": "قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك.... " الآية ولم يؤمر أن يقول هذا لأبى بكر وعمر وخاصة أصحابه إنما عنى به من يقول: "مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها " فمن يصدر عنه هذا وأشباهه مما ينبئ عن الازراء وفساد الظاهر والباطن فهم المقول لهم: "لا أقول لكم عندى خزائن الله.... " الآية فتكرر فيها قوله "لكم " تأكيدا يفهم التعنيف ويناسب التوبيخ والتقريع ونظير هذا وان خالفه فى تخصيص المخاطب بمقصود الكلام وإنما قصد به تعنيف مستحقى التعنيف ممن لم يخاطب فهو من قبيل قولهم: إياك أعنى واسمعى يا جارة... وقوله تعالى فى خطاب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ

=

=

الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى " فتأمل تكرار قوله "بإذنى " وما يتضمن من توبيخ من جعل عيسى عليه السلام إلها واتخذه معبودا فخزطب عيسى عليه السلام وهو المحفوظ المعصوم من توهم استبداد دل قدره صلى الله عليه وسلم عن ذلك ولكن هذا كما قيل له صلى الله عليه وسلم: "أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله " والمراد بذلك تقريع من اتخذه عليه السلام إلها ومرادنا من هذا ما اجتمعت عليه هذه الآى من إشعار التقريع والتوبيخ الحاصلين من التأكيد والتكرار ثم يصرف ذلك فى كل من الآيتين لمن تأهل له ولما لم يكن ذلك مفصودا فى آية هود لم يرد فيها تأكيد ولا تكرار وجاء كل من ذلك على ما يناسب والله أعلم.

الآية الخامسة عشرة: قوله تعالى: "إن هو إلا ذكرى للعالمين " وفى سورة التكوير: "إن هو إلا ذكر للعالمين " للسائل أن يسأل عن وجه ورود الخبر بلفظ التأنيث فى الأولى والتذكير فى الثانية مع تذكير المبتدأ فيهما؟

والجواب عنه والله أعلم أن آية التكوير لما تقدمها القسم على القرآن بقوله تعالى: "فلا أقسم بالخنس " إلى ما وقع القسم به ثم ورد ضمير المقسم عليه فى قوله: "إنه لقول رسول كريم " أى أن القرآن لقول رسول كريم، والمراد به جبريل عليه السلام ثم اتبع بوصفه إلى قوله "ثم أمين " ثم قيل "وما صاحبكم بمجنون " والاشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فنزهه تعالى عن قول أعدائه ونسبتهم إياه إلى الجنون ثم وصفه تعالى بأنه على الغيب الموحى به والمأمون على تبليغه غير متهم ولا بخيل على القراءتين فقال: "وما هو على الغيب بضنين " ثم أعقب بقوله تعالى: "وما هو " أى وما القرآن "بقول شيطان رجيم " فجرت هذه الضمائر على التذكير على ما يجب ثم اتبع بقطع تعلقهم فقيل: "فأين تذهبون " أى إن كل ما رمتم من رميه عليه الصلاة والسلام به من السحر والجنون والتقول لا يقوم شئ من ذلك على ساق ولا يتوهم ذلك ذو عقل سليم ثم قال: "إن هو إلا ذكر للعالمين " والضمير

=

=

للقرآن ولا يمكن وروده خلاف هذا لمنافرة التناسب ومباعدة التلاؤم.

وأما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين " فنوسب بين قوله: "إن هو إلا ذكرى " وبين ما تقدم فكأن التقدير إن هو أى الأمر أو المراد المقصود أو ما ذكر من الكتاب والحكم والنبوة إلا ذكر فناسبه ذكرى هنا لما تقدم بيانه ولم يتقدم هنا ما يستدعى لفظ التذكير ويناسبه فجاء كل على ما يجب والله أعلم.

الآية السادسة عشرة: قوله سبحانه: "والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون " لم يقرأ هنا بغير هذا اللفظ وكذا فى المعارج وفى سورة المؤمنون فى قراءة الجماعة إلا الشيخين "على صلواتهم " بالجمع فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عنه والله أعلم: أن ذلك مناسب لما اكتنف هذا الوصف فى آية سورة المؤمنون لما كان ذكر محافظتهم على صلاتهم قد اكتنفه ما تقدمه وما تأخر عنه من تفخيم الوصف فى المتقدم وتفخيم الجزاء فى المتأخر ناسب ذلك تفخيم العبارة عن فعلهم فورد بلفظ الجمع فى قراءة الأكثرين فقيل: "والذين هم على صلواتهم " أما تفخيم الوصف المتقدم فذكرهم بالفلاح وهو الظفر بالمراد والبقاء فى الخير وذكرهم بالخشوع فى صلاتهم وإعراضهم عن اللغو ولم يقع متقدم وصفهم فى سورة المعارج ما يوازن هذه الأوصاف.

وأما آية الأنعام فلم يتقدم فيها غير ذكرهم بالإيمان فقط وأما نعتهم الوارد فى جزائهم فوصفهم بأنهم الوارثون ثم تخصيصهم بأنهم الوارثون ثم تخصيصهم بإرث الفردوس وهو أعلى الجنة ومنه تنفجر أنهار الجنة، ووصفهم بالخلود فيها، ولا يوازن هذا بقوله عقب آية المعارج: "أولئك فى جنات مكرمون". وأما آية

=

=

الأنعام فلم يرد فيها ذكر جزائهم بالجمع كما فى آية سورة المؤمنون وإن لم يقرأ بذلك فى الأخريين وظهرت مناسبة ذلك والله أعلم.

الآية السابعة عشرة: قوله تعالى: "ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة "، وفى سورة الكهف: "لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة " ومرمى الآيتين واحد، فيسأل عن زيادة "فرادى " فى آية الأنعام؟

والجواب والله أعلم: أن ذلك مراعى فيه فى آية الأنعام ما أعقبت به من قوله: "وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم " أى ما أعطيناكم فى الدنيا مما شغلكم عن آخرتكم، ثم قال: "وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء " أى منفردين عما كنتم تؤملون من أندادكم ومعبوداتكم من دونه سبحانه، فلرعى هذا المعقب به فى آية الأنعام ما قيل فيها: "ولقد جئتمونا فرادى".

أما آية الكهف فقبلها قوله تعالى: "ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة فحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا " ثم قال: "وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة " مجردين عن كل متعلق.

ولم يقع هنا ذكر ولا إشارة إلى ما عبد من دون الله فلهذا لم يقع هنا "فرادى " وذلك بين التناسب وعكس الوارد لم يناسب والله أعلم.

الآية الثامنة عشرة قوله تعالى: "قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون "، وبعد هذه: "قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون "، ثم بعد هذه: "إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون "، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف هذه الأوصاف التابعة فى الآى الثلاث؟

والجواب: أنه لما تقدم الآية الأولى قوله جل وتعالى: "وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر " فذكر سبحانه من المعتبرات التى يتوصل بالنظر فيها إلى معرفته وحدانيته تعالى ما يحصل الاطلاع عليه تعقلا وتنقلا ويستند فى كثير منه إلى التعاون فى تعرفه والاطلاع عليه بمن تقدمت له به

=

=

المعرفة فيحصل فى ذلك علم منقول فيما يتعلق بذات المتعرف المطلوب به الاستدلال أو فى أدوات موصولة إليه إذ ليس علم ذلك راجعا إلى مجرد الفكر والتفطن ألا ترى أن إدراك العلم بنجوم السماء وتفصيل ذلك بتعيين الكواكب الثابتة والسيارة المتنقلة فى أبراجها وخنوس الخمسة منها واشتراكها مع الشمس والقمر فى انتقالها فى منازلها مختلفات الحالات فى السرعة والبطء فكم بين قطع القمر الفلك فى ثمان وعشرين ليلة وقطع زحل إياه فى ست وثلاثين سنة جارية فى أفلاكها من غرب إلى شرق وقذف الفلك الأعظم بالكل من شرق إلى غرب على العكس "ذلك تقدير العزيز العليم " وياعرف هذا القسط مما ذكرنا يتحصل للمعتبر الاهتداء بها على الكمال فى ظلمات البر والبحر والعلم بعدد السنين والحساب والقلب فى كثير من هذا الضرب مورد على البصر فيما ينهيه إليه فصر هذا الضرب من المعتبرات الدالة على الصانع تعالى كالمخبر به الحاصل بواسطة من خارج فتناسب ذلك التعبير عن المتذكر به بالعلم الذى مواده ومحصلاته الخبر القاطع مع النظر السديد فقيل فى ختام هذه الآية: "لقوم يعلمون " وقيل ما معناه أن الوارد فى قوله تعالى: "إن الله فالق الحب والنوى " إلى قوله تعالى: "وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر " آيات تنبه على معرفة الله تعالى والعلم به وبوحدانيته وهو أشرف معلوم، فأعقب بأشرف ما يوصف به المعتبرون فقيل: "لقوم يعلمون " وذلك أعلى من الوصف بقوله تعالى: "لقوم يفقهون "و: "لقوم يؤمنون " ولذلك ما ورد وصفه تعالى بالعلم ولا يوصف سبحانه بالفقه ولا العقل فلما كان المعلوم أشرف
المعلومات عبر عن الآيات التى نصبت للدلالة عليه باللفظ الأشرف انتهى وهو قول حسن والتناسب فيه واضح.

أما الآية الأخرى فتقدم قبلها قوله تعالى: "وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة
=

=

فمستقر ومستودع " ومرجع العلم بنشأة الإنسان وتقلبه من صلب إلى رحم، وارتباط أعضائه الظاهرة والباطنة، وجمع أجزائه وتصرف كل عضو فى ما له خلق، واحتياج الأعضاء بعضها إلى بعضها وجرى ما وكل منها بغذاء الإنسان اجتذابا وانتحالا وطبخا وتقسيما وتجزئة على الأعضاء واتقان كل عضو منها زجرى لما يسر له، إلى غير ذلك هذا مما يبسطه من تكلم فى التشريع، فالعلم بهذا كله جملة وتفصيلا مما لا يحصل بالسمع والبصر وإنما يطلع بالاعتبار والتفكر من ذوى الفطن السالمة والنظر العقلى السديد والفهم المصيب، فناسب هذا قوله تعالى "لقوم يفقهون " والفقه التفهم والتفطن وذلك من جملة ألهم إليه وأشار قوله تعالى: "وفى أنفسكم أفلا تبصرون".

وأما الآية الثالثة فإنه سبحانه لما ذكر إنزال الماء من السماء وإخراج النبات من الأرض به فى قوله سبحانه وتعالى: "وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا منه نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان "، فلما أورد هذا كان مذكرا بالبعث الأخراوى والنشأة الثانية كما قال تعالى فى آية الأعرف: "كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون " وإنما يحصل العلم بذلك وسائر أمور الآخرة من قبل الرسل عليهم الصلاة والسلام والإيمان بهم وبما جاؤوا به فقال تعالى: "إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " أى يصدقون بالبعث وأنه تعالى كما بدأهم يعودون فقد وضحت مناسبة هذه الآيات الثلاث لما أعقب بها والله سبحانه أعلم.

الآية التاسعة عشرة: قوله تعالى: "والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه " وورد فيما بعد من هذه السورة: "والزيتون والرمان متشابها وغير زتشابه كلوا من ثمره وآتوا حقه يوم حصاده "، فورد فى الآية الأولى "مشتبها وغير متشابه " وفى الثانية: "متشابها "، وفى الأولى: "انظروا إلى ثمره إذا

=

=

أثمر وينعه "، وفى الثانية: "كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده "، يسأل عن المختلف فى الآيتين مع اتحاد مرماهما؟

والجواب عن الأول: أن مشتبها ومتشابها لا فرق بينهما إلا ما لا يعد فارقا إذ الافتعال والتفاعل متقاربان، أصولهما: الشين والباء والهاء من قوله أشبه هذا هذا إذا قاربه وماثله، ورد فى أولى الآيتين على أخف البناء وفى الثانية على أثقلهما رعيا للترتيب المتقرر وقد مر نحو هذا فى قوله: "فمن تبع هداى " وقوله "فمن اتبع " فى سورة طه.

والجواب عن الثانى: أن قوله تعالى فى الأولى: "انظروا إلى ثمره أذا أثمر وينعه " مبنى على ما قبله مما بناه على الاعتبار، قال تعالى: "إن الله فالق الحب والنوى.... " الآية، وقال تعالى: "فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا... " الآية، وقوله: "وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها... " الآية، ثم قال تعالى: "وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ وأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه "، فلما كان مبنى هذه الآى على الاعتبار والتنبيه بما نصب تعالى من الدلائل على وحدانيته لم يكن ليناسب ذلك ويلائمه إلا الأمر بالنظر والاعتبار لا الأمر بالأكل، أما الآية الثانية فمبنية على غير هذا وقد تقدمها قوله تعالى: "وقالوا هذه أنعام وحرث حجر " أى منع: "لا يطعمها إلا من نشاء "، وجرى ما بعد على التناسب إلى قوله: "وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان " إلى قوله: "كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده " ثم قال بعد ذكر الأنعام: "كلوا مما رزقكم الله "، وجرى ما بعد على هذا فى تفصيل ما أحل سبحانه لعباده ورد ما ظنت يهود تحريمه على هذه الأمة، ثم أتبع سبحانه لعباده بذكر ما حرم أكله فقال لنبيه عليه السلام:

=

=

"قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا.... " الآية، ثم أتبع تعالى بما حرم على بنى إسرائيل أكله فقال: "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر " فلم يتخلل هذه الآيات من غير أحكام المأكولات فى التنويع والإباحة خلاف ذلك سوى الأمر بزكاة الحرث فى قوله: "وآتوا حقه يوم حصاده "فدارت هذه الآى على ما أنعم به سبحانه من ضروب ما خلقه تعالى مما أقام به حياة عباده مأكلا وملبسا ومعونة فى حركاتهم وانتقالاتهم ومباح ذلك ومحرمه، فلم يكن ليلائم ذلك إلا ما يناسبه، ولم يكن ليناسب الآية المتقدمة لو قيل: كلوا، ولا هذه الآية لو قيل: انظروا، فجاء كل على ما يجب ويلائم ولا يناسب خلافه، والله أعلم.

الآية الموفية عشرين: قوله تعالى: "ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل " وفى سورة غافر: "ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون".

للسائل أن يسأل عن وجه التقديم والتأخير فيما قدم وأخر فى هاتين الآيتين.

والجواب عن ذلك: أن آية الأنعام لما تقدم فيها قوله تعالى: "وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم "، وقوله تعالى: "أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة " كان الملائم نفى ما جعلوه وادعوه من الشركاء والصاحبة والولد، فقدم ما الأمر عليه من وحدانيته سبحانه وتعاليه عن الشركاء والولد فقال: "لا إله إلا هو "، وعرف العباد بعد بأن كل ما سواه سبحانه خلقه وملكه فقدم الأهم فى الموضع.

وأما آية غافر فتقدمها قوله تعالى: "لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس " ثم قوله تعالى: "الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا " فلما تقدم ذكر الخلق الأعظم ولم يتقدم هنا ما تقدم فى آية الأنعام ما أتبع بالتنبيه

=

=

على أنه سبحانه خالق كل شئ فكان تقديم هذا التعريف هنا أنسب وأهم، ثم أعقب بالتعريف بوحدانيته تعالى فجاء كل على ما يجب ويناسب ولم تكن واحدة من الآيتين لتناسب ما تقدم الأخرى والله سبحانه أعلم.

الآية الحادية والعشرون: قوله تعالى: "ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون "، وورد بعد هذا: "ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون "، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف الاسمين فى قوله "ولو شاء ربك "، و"ولو شاء الله "؟

والجواب عن ذلك والله أعلم: أنه لما تقدم الآية الأولى قوله تعالى: "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله "، فعرف سبحانه نبيه، عليه السلام بما سبق لهؤلاء وما قدره عليهم فى الأزل حتى لا يجدى عليهم شئ ولا ينفعهم تذكار فلما تقدم من القدر على هؤلاء ما يثير أشد الخوف كان مظنة إشفاق فأنس نبيه صلى الله عليه وسلم ولاطفه بإضافة اسم ربوبيته سبحانه لنبيه عليه السلام، مخاطبا له فقال: "ولو شاء ربك ما فعلوه " فسكن جأشه وتلطف فى تأنيسه، عليه السلام وتأنيس أمته بأنسه، ولما لم يقع قبل الآية بعد مثل هذا وإنما قبلها: "وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم ولو شاء الله ما فعلوه " وليس هذا فى اقتضاء الحتم عليهم المؤذن بقطع الرجاء منهم كقوله فى الأولى: "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة... "الآية، فلذلك قال عقب هذه الآية الثانية: "ولو شاء الله ما فعلوه " فجاء باسمه الأعظم تعالى من غير إضافة إذ ليس هذا مثل الأول، ولو ورد الاسم الأعظم أولا والاسم الكريم المضاف ثانيا لما ناسب على ما تمهد، والله سبحانه أعلم.

الآية الثانية والعشرون قوله تعالى: "إن ربك هم أعلم من يضل عن سبيله وهو أعمل بالمهتدين " وفى سورة النجم: قوله تعالى: "إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله " بزيادة الباء فى "من " من قوله: "بمن ضل عن سبيله " وكذا فى سورة القلم

=

=

بخلاف الأخريين "ضل " ففى هذا سؤالان: أحدهما زيادة الباء فى آيتى النجم والقلم ويقوطهما فى الأنعام والثانى ورود الماضى فى آيتى النجم والقلم وورود المضارع فى الآية الأنعام.

والجواب عن الأول أن سقوط الباء الداخلة على "من " فى آية الأنعام إنما ذلك والله أعلم لاستثقال زيادتها مع الزيادة اللازمة للمضارع مع التقارب إيثارا للإيجاز أما آيتا النجم والقلم فلا زيادة فى الفعل لكونه ماضيا فزيد باء التأكيد الداخلة على "من " ويشهد لهذا اطراد زيادتها فى الآيتين لورود الماضى فيهما بخلاف آية الأنعام.

والجواب عن الثانى: أن آية الأنعام قد اكتنفها من غير الماضى من الأفعال والإعلام بما يكون قطعيا أو يتوقع فى المآل ما يقتضى المناسبة فى النظم ولو ورد غير الماضى هنا لما ناسب ولا لاءم، أما آية النجم فمبنية على مطلع السورة فى قوله تعالى: "والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى "، فقال تعالى مشيرا إلى حالهم: "إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله " فبرأ نبيه ﷺ مما نسبوا إليه وأثبت ذلك بكناية وتعريض أوقع فى نفوسهم من الإفصاح بتعيينهم وأما آية القلم فإنه لما تقدم فيها قوله تعالى: "ما أنت بنعمة ربك بمجنون " وقوله تعالى: "فستبصر ويبصرون بأييكم المفتون " تهديدا لهم وتعريفا بكذبهم فى قولهم حين نسبوه إلى الجنون أعقب ذلك بقوله تعالى: "إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله " فسجلت هذه الكناية بضلالهم وكذبهم وتناسب هذا كله أوضح تناسب.

الآية الثالثة والعشرون قوله تعالى: "كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون "، وفى سورة يونس: "كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون "، للسائل أن يسأل عن الفرق؟

والجواب أنه لما تقدم قبل آية الأنعام قوله تعالى: "أو من كان ميتا فأحييناه

=

=

وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس " والمراد أو من كان ميتا فى غمرات الجهل والكفر فأحييناه بنور الإيمان والعلم كمن مثله فى الظلمات أى ظلمات الجهل والكفر متماديا على غيه غير مقلع عن كفره لا يجدى عليه إنذار ولا ينتفع بوعظ التذكار فسواء فى حقه الإنذار وعدمه فلما ذكر فى هذا الطرف من لم يشم بارق إيمان وسجل بعدم خروجه عن مقتضى موبقاته فى شنيع ذلك الخذلان أعقب تعالى: "كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون "فوسم بكفره للبأس من خيره.

أما آية يونس فقد تقدم قبلها: "وإذا مس الإنسان الضر " والمراد هنا جنس الإنسان: "دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما " أى دعانا على أى حال كان على مقتضى قوله تعالى: "ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون " ثم قال: "فلما كان كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه " ذكر سبحانه من حال الإنسان حال متذكر داع عند مس الضر غير مشرك ولا كافر حال ففى حاله فى دعائه عند الضر ومروره فى المخالفات أو الغفلة عند كشفه شبه من حال المقول فيهم: "خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا "، فأعقب ذكر هذا الضرب بقوله تعالى: "كذلك زين للمسرفين " أى أن هؤلاء زين لهم لمرتكبهم فى مرورهم بعد كشف الضر عنهم على أحوالهم قبل مس الضر إياهم كما زين للمسرفين ما كانوا يعملون، فتشبهت أحوالهم بأحوال المسرفين ليزدجر المؤمن ويستعيذ من مثل تلك الحال ويدأب على الطاعة والتضرع إلى الله سبحانه، والمسرف هنا والله أعلم محتمل أن يراد به المسرف فى المعاصى دون الكفر أو المسرف فى كفره المقول فيه وفيمن كان على حاله: "وأن المسرفين هم أصحاب النار "، فعدل فى آية يونس عن أن يقال "للكافرين " إلى قوله "المسرفين " لما فى صفة الإسراف من الاحتمال لمناسبة ما تقدمه من تقلب حالتى الإنسان عند مس الضر إياه وكشفه عنه.

أما آية الأنعام فقد تقدمها قوله تعالى: "كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها "

=

=

فإنما ذكر فى هذه الآية طرفان قد بولغ فيهما وهما المجعول له نور يمشى به فى الناس لا يفارقه والمتخبط فى ظلمات لا يخرج عنها فلا يمكن أن تكون حال أسوأ من حال هذا لأن ذكر الطرفين لا واسطة بينهما يقتضى من حيث البلاغة النهاية فى كل طرف فعبر هنا بصفة الكفر أما حال المسرف من حيث ما ذكرنا من الاحتمال فدون حال المتخبط فى الظلمات فعلى هذا يحتمل أن يكون الإسراف فيما دون الكفر فيكون المتصف به غير منقطع الرجاء إذا لم يبلغ الكفر، قال تعالى: "قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله "، فشتان ما بين مسرف راج ومتخبط فى ظلمات كفر داج، فجاء كل على ما يناسب، ولم يكن ليناسب العكس بوجه، والله سبحانه أعلم.

الآية الرابعة والعشرون قوله تعالى: "ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون " وفى سورة هود: "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها صالحون " فقال فى الأولى "وأهلها غافلون " وقال فى الثانية "وأهلها مصلحون " فللسائل أن يسأل عن الفرق بين الموضعين؟

والجواب والله أعلم أنه لما تقدم هنا قوله تعالى: "يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم "، فقدم سبحانه ذكر بعثة الرسل للجن والإنس وإنذارهم وتذكيرهم بالآيات وتعريف الخلق بالجزاء الأخراوى على مقتضى قوله تعالى: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " فلا عذر لأحد وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: "أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير " فلم يتركوا سدى ولا عذر لمغض ولا متغافل بعد تنبيهه "ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون " فهذا مناسب وتقدم آية هود قوله تعالى: "فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم " ولو كانوا ينهون عن الفساد فى

=

=

الأرض لكانوا مصلحين فلم يكونوا ليؤخذوا بالعقاب "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " فقد ناسب كلا من الآيتين ما أعقبت به ولم يكن ليناسب آية الأنعام "وأهلها مصلحون " ولا آية هود "وأهلها غافلون "، والله أعلم بما أراد وسيذكر إن شاء الله فرق ما بين قوله "مهلك " فبر باسم الفاعل وقوله "ليهلك " بلام الجحود الداخلة على الفعل المستقبل فى سورة هود إن شاء الله.

الآية الخامسة والعشرون: قوله تعالى: "قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون "، وكذا فى سورة الزمر وفى قصة شعيب عليه السلام من سورة هود "ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون " فأفردت آية هود هذه بمجئ حرف التسويف عريا عن اقتران فاء التعقيب به بخلاف الأخريين مع اتفاق الآيات الثلاث فى التهديد وحرف التسويف للسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عن ذلك والله أعلم: أن هذه الآيات الثلاث وعيد لمن كفر وكذب وآية الأنعام وآية الزمر منها أريد بهما كفار العرب من هذه الأمة وقد افتتحنا بأمره سبحانه نبيه عليه السلام بوعيدهم فى قوله سبحانه وتعالى: "قل يا قوم اعملوا على مكانتكم " فقوى فى هاتين الآيتين تقدير معنى الشرط المنجر تقديره فى الأوامر نحو قوله تعالى: "قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة " لافتتاحها بأمره تعالى نبيه عليه السلام ثم أمره عليه السلام لهم فى قوله "اعملوا " فاعتضد ما يستدعى الجوابية بالفاء فوردت فى الجواب المبنى على الشرط المقدر بعد هذا الأمر على أحد مأخذى النحويين أو الذى تضمنته الجملة ونابت منابه على القول الآخر، ولما كانت آية هود إخبارا لنبينا عليه الصلاة والسلام فضعف فيها تقدير الشرط فلم تدخل الفاء وجاء كل على ما يجب والله أعلم.

الآية السادسة والعشرون قوله تعالى: "سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا كذلك كذب الذين من قبلهم "، وفى سورة النحل: "لو شاء

=

=

الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم".

للسائل أن يسأل عما اختلف فى هاتين الآيتين مع أن المقصود واحد؟

والجواب عن ذلك والله أعلم أنه لما تقدم آية الأنعام قوله تعالى: "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر " وهذا إخبار عن بنى إسرائيل فيما حرم عليهم ثم ورد بعدها قوله تعالى: "قل هلم شهدائكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا " وهو خطاب لهم أيضا، فقد اكتنف الآية المذكورة ما مرجعه إلى بنى إسرائيل فيما حرم عليهم وما ألحقوه بذلك تحريفا وتبديلا ووردت الآية المتكلم فيها مورد ما يرد من الجمل الاعتراضية لاتصال ما بعدها بما قبلها، فلم يكن ليلائم ذلك الاسهاب وطول الكلام إذ الوجه فيما يرد اعتراضا أن يؤخر وأما آية النحل فلم يتقدمها خطاب لغير العرب مؤمنهم وكافرهم وقد أطنب فى تذكيرهم ووعظهم، وقد بسط لهم ذكر نعم ودلائل، فناسب ذلك الاسهاب الوارد فيها من قوله: "لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ " ولم يكن ليناسب آية الأنعام ما ورد هنا، ولا الوارد هنا ذلك الإيجاز، والله سبحانه أعلم.

الآية السابعة والعشرون: قوله تعالى: "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم "، وفى سورة بنى إسرائيل [الإسراء]: "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم "، ففى الأولى "من إملاق "و "نرزقكم " بتقديم ضمير المخاطبين فللسائل أن يسأل عن وجه هذا الاختلاف فى الآيتين مع اتحاد المقصد فيهما؟

والجواب عن ذلك والله أعلم أن المخاطبين بآية الأنعام إنما كان فعلهم ذلك من أجل الفقر الحاصل حال قتلهم فقيل من إملاق أى من أجل الاملاق الحاصل ثم

=

=

قيل لهم "نحن نرزقكم وإياهم "فقد رزقه تعالى لهم لحصول فقرهم فى الحال ليكون أمنع لهم وكأن السياق يشعر بتشفيع الأولاد فى رفع فقر الآباء القاتلين فكأن قد قيل لهم: إنما ترزقزن بهم فلا تقتلوهم، فتأكد تقديم كفار العرب وكان وأدهم البنات خشية الفقر المتوقع والعجز عن مؤنتهن فيما يتوقعونه مستقبلا فقيل "خشية إملاق " فجعلت الخشية هى العلية فى فعلهم، فانتصبت على ذلك، والمعلول الذى هو الإملاق لم يقع بعد وضمن تعالى لهم رزقهم ورزق أولادهم ودفع ذلك المتوقع ليرفع ذلك خشيتهم، فلهذا قدم هنا ضمير الأولاد ثم عطف عليه ضمير الآباء.

وكان الأهم هنا فقدم، وجاء كل فى الموضعين على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية الثامنة والعشرون قوله تعالى: "ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون "، تلوها: "ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون " وفى الثالثة تليها: "ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف فى المعلل به فى هذه الآيات؟

والجواب عن ذلك والله أعلم: أنه لما كانت الخلل الخمس فى الآية الأولى وهى: الشرك والعقوق وقتل الأولاد لأجل الفقر وارتكاب الفواحش وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق، خمستها مما يدرك العقل ابتداء قبحها، ويستقل بدركها أعنى أن العقل يستوضح قبحها شرعا لبيان أمرها فى استقباح الشرع إياها، وإلا فالعقل عندنا لا يحسن ولا يقبح.

فلما كانت على ما ذكرنا أتبعت بترجى التعقل لأن السلامة منها لا تكون مع وضوح أمرها إلا بتوفيق الله تعالى ولذلك جاءت بأداة الترجى.

ولما كانت الخمس التالية لها وهى قوله: "ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن " إلى آخرها مما تؤثر فيه الشهوات والأهواء وذلك مما يعمى ويصم أتبع برجاء التذكر فقيل: "لعلكم تذكرون " ومن تذكر أبصر فعقل فامتنع، قال تعالى:

=

=

"إن الذين اتقوا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون "، ولما كان مجموع هذه المرتكبات العشر مما اتفقت عليه الشرائع ولم ينسخ منها شئ وهى الحكمة التى من أخذ بها كان سالكا الصراط المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمت واتخذ أسنى وقاية من عذاب الله قال تعالى: "وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه " والأمر عام لكافة الخلق ثم قال سبحانه وتعالى: "ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله " أتبعه بقوله: "ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " وترتب حاصلا من مضمن الآيات الثلاث أنه من عقل وتذكر اتقى والمتقون هم المفلحون فسبحان من هذا كلامه.

الآية التاسعة والعشرون: قوله تعالى: "وأنا أول المسلمين "، وفى سورة الأعراف: "وأنا أول المؤمنين "، يسأل عن الفرق؟

والجواب والله أعلم: أن هذه الآية لما تقدمها قوله تعالى: "قل إننى هدانى ربى إلى صراطى مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا " وقد قال فى سورة آل عمران: "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين " وفى وصيته عليه السام لبنيه: "يا بنى إن الله اصطفى لكم الذين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون " وبهذا أوصى يعقوب عليه السلام قال تعالى: "وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب... " الآية، وهى جواب بنى يعقوب حين قال لهم: "ما تعبدون من بعدى " فأجابوا بقولهم "نعبد إلهك "الى قوله "إلها واحدا ونحن له مسلمون " وقال سبحانه لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين: "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " وقال تعالى: "قل – أى يا محمد – إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا " إلى قوله: "وأنا أول المسلمين "، فإنما قال عليه السلام وعمل واقتدى ظاهرا وباطنا بما أمر به وما درج عليه هؤلاء الصفوة المذكورون ومن سلك مسلكهم وعبارة الإسلام تعم الاستسلام بالظاهر والباطن، والإيمان الذى

=

=

هو التصديق داخل تحت ذلك وفى جملة ما يطلق عليه اسم الإسلام فقد تحصلت عبارته عليه السلام منبئة عن الكمال فى مسمى الإيمان والإسلام على الحال التى درج عليها المصطفون الأخيار وحالهم فى ذلك لا يدركها غيرهم من حيث الكمال التام صلى الله عليهم أجمعين ولا قطعنا عن التمسك بهديهم.

فقد وضح بما ورد فى هذه الآية الجليلة أنه لا يناسب هنا غير هذا الوارد والله أعلم.

وأما آية الأعراف وقوله فيها: "وأنا أول المؤمنين " فالقائل ذلك موسى عليه السلام حين سأل الرؤية وظن أنها جائزة فى الدنيا فلم يسأل عليه السلام محالا وإنما سأل جائزا ممكنا وحاشاه عليه السلام من أن يسأل محالا ويجهل من ربه مثل هذا لولا الجواز، فلما استعجل وطلب ذلك فى الدنيا قال له ربه تعالى: "لن ترانى " فى الدنيا وأمره أن ينظر إلى الجبل، وأراه تلك الآية العظمى وصار الجبل دكا وخر موسى صعقا لعظبم ذلك المطلع فلما أفاق قال "سبحانك تين إليك " ولم يرد عليه السلام تبت من معصية ولا جهل بربه أن يجوز عليه ما لا يجوز فأقدار الأنبياء عليهم السلام فوق ذلك، وهو أعلم الخلق بما يجوز عليه تعالى وما يستحيل ثم قال: "وأنا أول المؤمنين " أى أول المصدقين بأنك لا ترى فى الدنيا وليس موضع التعبير بأن يقول: "وأنا أول المسلمين " لأن ذلك الوصف حاصل له عليه السلام على الصفة الحاصلة اللمصطفين ممن تقدم وإنما أراد ما يعبر عن مجرد التصديق بهذا الذى غاب عند جواز تعجيله مع علمه بجوازه على الجملة فقد وضح ورود كل من العبارتين بالإسلام والإيمان على ما يجب ولا يناسب العكس بوجه والله سبحانه أعلم.

الآية الموفية ثلاثين من سورة الأنعام قوله تعالى: "وهو الذى جعلكم خلائف الأرض " وفى سورة فاطر: "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض " بإضافة لفظ

=

خلائف فى الأولى ولـم يضف فى الثانية بل جئ بحرف الوعاء فيسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عنه والله أعلم: أنه لما تقدم قبل آية الأعراف قوله سبحانه لنبيه ﷺ "قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم " واستمر الخطاب له معرفا عن حاله وواضح طريقه إلى قوله: "قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ "، فعم ما سواه سبحانه بالدخول تحت ملكه وقهره، فناسب هذا ما ذكر من إنعامه على عباده بجعلهم خلائف الأرض، ولو كان بحرف الوعاء لم يكن ليفهم التوسعة فى الاستيلاء والاطلاق إلا بضميم يحرز ذلك أن قوله فى الأرض إنما يفهم أنه موضع استخلافهم وهل كلها أو بعضها ذلك محتمل، أما بغير حرف الوعاء فأظهر فى التعميم وإن كان لم يكن مصا إلا أنه أظهر من المتقيد بحرف الوعاء فناسب الإطلاق الاطلاق.

وأما قوله فى سورة الملائكة [فاطر]: "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض " فقد تقدم قبله: "والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها " إلى قوله: "أولم نعمركم.... " الآية ثم أعقب قوله "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض " بقوله "فمن كفر فعليه كفره... "الآيات، فلما اكتنف الآية ما ذكرته مما هو نقيض الوارد فى آية الأنعام ناسب ذلك التقييد بحرف الوعاء إذ لا يلائم البسط القبض فجاء كل على ما يجب ولا يناسب العكس والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية الحادية والثلاثون: قوله تعالى: "إن ربك سريع الحقاب وإنه لغفور رحيم "، وفى الأعراف: "إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم " للسائل أن يسأل عن اختصاص آية الأعراف بزيادة اللام المؤكدة فى الخبر وسقوطها من آية الأنعام؟

والجواب والله أعلم أن آية الأنعام لما تقدمها قوله تعالى: "قل إننى هدانى ربى

سورة الأعراف(١)

=

إلى صراط مستقيم " ثم استمر ما بعد على خطابه ﷺ لما منحه الله تعالى إلى قوله: "وهو الذى جعلكم خلائف الأرض... " الآية، فهذا له ﷺ ولأمته فجاء الخبر من قوله: "إن ربك سريع العقاب " بغير لام التأكيد مناسبا للحال إذ هؤلاء المذكورون ليسوا بجملتهم ممن استحق عقابا، ومن عوقب من أهل القبلة فعقابه منقطع بفضل الله فلا حامل على التأكيد لأن ذكر العقاب هنا تخويف يحمل المؤمن على استحباب الرغب والرهب وما ينبغى للمؤمن أن يكون عليه.

وأما آية الأعراف فقد ورد قبلها قوله تعالى: "وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب " وقد تقدم ذكر المقصودين بهذا الوعيد وذكر مرتكباتهم السيئات فتخلصت الآية للمستحقين العقاب بمجترحاتهم المفصحة بكفرهم فناسب تأكيد الخبر المنبئ بعقابهم وسوء مآلهم وجاء كل على كما يجب ويناسب. ا.هـ من ملاك التأويل (١/ ١٤٠-١٧٦).

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على أربعة أقوال:

أحدها: أنها مكية، وهذا قول ابن عباس، وعن عبد الله بن الزبير.

والثاني: أنها مكية إلا آية واحدة، وهي: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} [الأعراف: ١٦٣]، إلى آخر الآية وسائرها مكية. وهذا قول قتادة.

والثالث: أنها مكية إلا ثمان آيات، وهي: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ} [الأعراف: ١٦٣]، إلى قوله: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ} [الأعراف: ١٧١]. وهذا قول الإمام الشوكاني.

والرابع: أنها مكية إلا إحدى عشر آية، وهي: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} [الأعراف: ١٦٣]، إلى قوله: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

=

=

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الأعراف: ١٧٢]، فهذه الآيات مدنيات. وهذا قول مقاتل.

قال الفيروزآبادي: " هذه السّورة نزلت بمكة إِجماعًا". وحكي الإجماع أيضا البغوي وابن الجوزي.

* عدد آياتها مائتان وستُّ آيات فى عدّ قرّاءِ كوفة والحجاز، وخمس فى عدّ الشَّام والبصرة. وكلماتها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة. وحروفها أَربعة عشر أَلفا وثلاثمائة وعشرة أَحرف. والآيات المختَلف فيها خمس: المص {بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} {مُخْلِصِينَ لَهُ الدين} {ضِعْفًا مِّنَ النار} على بنى إِسرائِيل.

مجموع فواصل آياته (م ن د ل) على الدّال منها آية واحدة: المص، وعلى اللاَّم واحدة: آخرها إِسرائيل.

* أسماء السورة.

تسمى سورة «الأعراف»

«الأعراف» في اللغة: جمع: عُرف، وكل عال مرتفع، قال الزجاج: "الأعراف: أعالي السور، ويقال لكل عال عرف وجمعه: «أعراف».

قال الطبري: " «الأعراف»: جمع، واحدها: «عُرْف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب فهو «عُرْف»، وإنما قيل لعُرف الديك: «عرف»، لارتفاعه على ما سواه من جسده، ومنه قول الشماخ بن ضرار:

وَظَلَّتْ بِأَعْرَافٍ تَغَالَى، كَأَنَّهَا ... رِمَاحٌ نَحَاهَا وِجْهَةَ الرِّيحِ رَاكِزُ

يعني بقوله: "بأعراف"، بنشوز من الأرض، ومنه قول الآخر:

كُلُّ كِنَازٍ لَحْمُهُ نِيَافِ ... كَالْعَلَمِ الْمُوفِي عَلَى الأعْرَافِ

وكان السدي، يقول: «إنما سمي "الأعراف" أعرافًا، لأن أصحابه يعرفون الناس»".

والأعراف: هو السور الذي بين الجنة والنار كما ذكره المفسرون، وهو قول ابن

=

=

عباس، ومجاهد، وأبي جعفر، والضحاك.

و «الأعراف» هو الاسم الذي اشتهرت به هذه السورة من عهد الرسول-ﷺ- في كلام أصحابه، إذ روي عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: "قرأ رسول الله ﷺ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرّقها في ركعتين".

وعن زيد بن ثابت: "أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في المغرب بسورة الأعراف في الركعتين كلتيهما".

وعن عروة بن الزبير: "أن مروان أخبره: أن زيد بن ثابت قال له: «ما لى أراك تقرأ فى المغرب بقصار السور؟ قد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بطولى الطوليين». قال ابن أبى ملكية: وما طولى الطوليين؟ قال: الأعراف".

وبهذا الاسم دونت السورة في المصاحف وكتب التفسير والحديث، ووجه تسميته بالأعراف، لأنه ذكر فيها لفظ «الأعراف»، وهو السور الذي بين الجنة والنار، وذلك في قوله تعالى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [الأعراف: ٤٦].

ولقد تفردت بذكر شأن أهل الأعراف في الآخرة، ولك يذكر في غيرها من السور بهذا اللفظ، ولكنه بلفظ «سور» في سورة الحديد، وذلك في قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: ١٣].

وتسمى سورة «الميقات».

ذكر هذا الأسم الفيروزآبادي وعلل تسميتها بذلك لاشتمالها على ذكر يقات موسى في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا} [الأعراف: ١٤٣].

=

=

وتسمى سورة «الميثاق» وتسمى بذلك لاشتمالها على حديث الميثاق في قوله تعالى {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [الأعراف: ١٧٢].

* مقصود السّورة على سبيل الإجمال: تسليةُ النبىّ ﷺ فى تكذيب الكفَّار إيَّاه (و) ذكر وزن الأعمال يوم القيامة، وذكر خَلْق آدم، وإِباءُ إبليس من السّجدة لآدم، ووسوسته لهما لأكل الشّجرة، وتحذير بنى آدمَ من قبول وسوسته، والأَمر باتِّخاذِ الزِّينة، وستر العورة فى وقت الصّلاة، والرّد على المكذِّبين، وتحريم الفواحش ظاهرًا وباطنًا، وبيان مَذَلَّة الكُفَّار فى النَّار، ومناظرة بعضهم بعضًا، ويأسهم من دخول الجنَّة، وذكر المنادِى بين الجنَّة والنَّار، ونداء أَصحاب الأَعراف لِكلا الفريقين وتمنِّيهم الرّجوع إِلى الدّنيا، وحُجّة التوحيد، والبرهان على ذات الله تعالى وصفاته، وقصة نوح والطُّوفان، وذكر هود وهلاك عاد، وحديث صالح وقهر ثمود، وخبر لوط وقومه، وخبر شُعَيْب وأَهل مَدْيَن، وتخويف الآمنين من مكر الله، وتفصيل أَحوال موسى (وفرعون والسّحرة، واستغاثة بنى إِسرائيل، وذكر الآيات المفصَّلات، وحديث خلافة هارون، وميقات موسى)، وقصّة عِجْل السّامِرِىّ فى غَيْبَةِ موسى و (رجوع موسى) إِلى قومه، ومخاطبته لأَخيه هارون، وذكر النبى الأُمِّىّ العربىّ ﷺ، والإِشارة إِلى ذكر الأَسباط، وقصّة أَصحاب السّبْت، وأَهْل أَيْلة، وذم علماءِ أَهل الكتاب، وحديث الميثاق ومعاهدة الله تعالى الذَّرية وطرد بَلْعام بسبب ميله إِلى الدنيا، ونصيب جهنَّم من الجنِّ والإِنس، وتخويف العباد بقرب يوم القيامة، وإِخفاء علمه على العالمين، وحديث صحبة آدم وحواء فى أَوّل الحال، وذمّ الأَصنام وعُبّادها وأَمر الرّسول بمكارم الأَخلاق، وأَمر الخلائق بالإِنصات والاستماع لقراءَة القرآن، وخُطْبة الخطباءِ يوم الجمعة، والإِخبار عن خضوع الملائكة فى الملكوت، وانقيادهم بحضرة الجلال فى قوله: {يُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}.

=

=

* المتشابهات: قوله: {مَا مَنَعَكَ} هنا، وفى ص {ياإبليس مَا مَنَعَكَ} وفى الحِجْر {قَالَ ياإبليس مَالَكَ} بزيادة {ياإبليس} فى السورتين؛ لأَن خطابه قَرُب من ذكره فى هذه السّورة وهو قوله: {إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ} فحسن حذف النِّداءَ والمنادى، ولم يقرب فى ص قربَه منه فى هذه السّورة؛ لأَن فى ص {إِلاَّ إِبْلِيسَ استكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين} بزيادة {استكبر} فزاد حرف النِّداءِ والمنادى، فقال: {ياإبليس مَا مَنَعَكَ} وكذلك فى الحِجْر فإِنَّ فيها {إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُوْنَ مَعَ السَّاجِدِينَ} بزيادة (أَبَى) فزاد حرف النِّداء والمنادى فقال {ياإبليس مَالَكَ}.

قوله: {أَلاَّ تَسْجُدَ} وفى ص {أَنْ تَسْجُدَ} وفى الحِجْر {أَلاَّ تَكُونَ} فزاد فى هذه السّورة (لا). وللمفسِّرين فى (لا) أَقوال: قال بعضهم: (لا) صِلَة كما فى قوله: {لِئَلاَّ يَعْلَمَ}. وقال بعضهم: الممنوع من الشئ مضطّر إِلى خلاف ما مُنِع منه. وقال بعضهم: معناه: مَنْ قال لك: لا تسجدْ. وقد ذكر فى مطوّلات مبسوطة. والذى يليق بهذا الموضع ذكرُ السبب الذى خَصَّ هذه السّورة بزيادة (لا) دون السّورتين. قال تاج القرّاء: لمّا حُذِف منها (يا إِبليس) واقتُصر على الخطاب جُمع بين لفظ المنع ولفظ (لا) زيادةً فى النفى، وإِعلامًا أَنَّ المخاطب به إِبليس؛ خلافًا للسّورتين؛ فإِنه صرّح فيهما باسمه. وإِن شئت قلت: جمع فى هذه السّورة بين ما فى ص والحِجْر، فقال: ما منعك أَن تسجد، مالك أَلاَّ تسجد، وحذف (مالك) لدلالة (الحال ودلالة) السّورتين عليه، فبقى: ما منعك أَلاَّ تسجد. وهذه لطيفة فاحفظها.

قوله: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}، وفى ص مثله. وقال فى الحجر: {لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ} فجاءَ على لفظ آخر، لأَنَّ السّؤال فى الأَعراف وص: ما منعك، فلمّا اتّفق السّؤال اتّفق الجواب، وهو قوله: {أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي

=

مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}، ولمّا زاد فى الحجر لفظ الكون فى السّؤال وهو قوله {مَالَكَ أَلاَّ تَكُوْنَ مَعَ السَّاجِدِيْنَ} زاد فى الجواب أَيضًا لفظ الكون فقال: {لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ}.

قوله: {أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} وفى الحجر وفى ص {رَبِّ فَأَنْظِرْنِّى} لأَنه سبحانه لمّا اقتصر فى السّؤال على الخطاب دون صريح الاسم فى هذه السّورة، اقتصر فى الجواب أَيضًا على الخطاب، دون ذكر المنادى. وأَمَّا زيادة الفاء فى السّورتين دون هذه السّورة فلأَنَّ داعية الفاء ما تضمّنه النِّداء من أَدْعو أَو أنادى؛ نحو قوله: {رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا} أَى أَدعوك، وكذلك داعية الواو فى قوله: {رَبَّنَا وَآتِنَا} فحذف المنادَى، فلمّا حذفه انحذفت الفاء.

قوله: {إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ} هنا، وفى السّورتين (فإِنّك)؛ لأَنَّ الجواب يُبنى على السّؤال، ولمّا خلا السّؤال فى هذه السّورة عن الفاءِ خلا الجواب عنه، ولمّا ثبت الفاءُ فى السّؤال فى السّورتين ثبتت فى الجواب، والجواب فى السّور الثلاث إِجابة، وليس باستجابة.

قوله: {فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي} فى هذه السّورة وفى ص {فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ}، وفى الحِجْر: {رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي} لأَنَّ ما فى هذه السّورة موافق لما قبله فى الاقتصار على الخطاب دون النداءِ، وما فى الحِجْر موافق لما قبله من مطابقة النِّداءَ، وزاد فى هذه السّورة الفاءَ التى هى للعطف ليكون الثانى مربوطًا بالأَوّل، ولم يدخل فى الحجر، فاكتفى بمطابقة النداءِ (لامتناع النداءِ) منه؛ لأَنَّه ليس بالذى يستدعيه النداءُ؛ فإِن ذلك يقع مع السّؤال والطلب، وهذا قسم عند أَكثرهم بدليل ما فى ص، وخبرٌ عند بعضهم. والَّذى فى ص على قياس ما فى الأَعراف دون الحِجْر؛ لأَنَّ موافقتهما أكثر على ما سبق، فقال: {فَبِعِزَّتِكَ} وهو قسم عند الجميع، ومعنى {بِمَا أَغْوَيْتَنِي} يئول إِلى معنى {فَبِعِزَّتِكَ} والله أَعلم. وهذا الفصل فى هذه السّورة برهان لامع.

=

وسأَل الخطيبُ نفسَه عن هذه المسائل، فأَجاب عنها، وقال: إِنَّ اقتصاص ما مضى إِذا لم يُقصد به أَداءُ الأَلفاظ بعينها، كان اتِّفاقها واختلافها سواءً إِذا أَدّى المعنى المقصود، وهذا جواب حسن إِن رضِيت به كُفِيت مُؤَنة السّهر إِلى السّحر.

قوله: {قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا} ليس فى القرآن غيره؛ لأَنَّه سبحانه لمّا بالغ فى الحكاية عنه بقوله: {لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ} الآية بالغ فى ذمّه فقال: اخرج منها مذءُومًا مدحورًا، والذَّأْم أَشدّ الذم.

قوله: (فكلا) سبق فى البقرة. قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ} بالفاءِ [حيث] وقع إِلاَّ فى يونس، فإِنَّه جملة عُطفت على جملة بينهما اتِّصال وتعقيب، وكان الموضع لائقا بالفاءِ، وما فى يونس يأتى فى موضعه.

قوله: {وَهُمْ بالآخرة كَافِرُونَ} ما فى هذه السّورة جاءَ على القياس، وتقديره: وهم كافرون بالآخرة، فقدّم (بالآخرة) تصحيحًا لفواصل الآية، وفى هود لمّا تقدّم {هاؤلاء الذين كَذَبُوا على رَبِّهِمْ} ثمّ قال: {أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} ولم يقل (عليهم) والقياس ذلك التبس أَنَّهم هم أَم غيرهم، فكرّر وقال: {وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ} ليعلم أَنَّهم هم المذكورون لا غيرهم، وليس (هم) هنا للتَّأْكيد كما زعم بعضهم؛ لأَنَّ ذلك يزاد مع الأَلف واللاَّم، ملفوظًا أَومقدّرًا.

قوله: {وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح} هنا، وفى الرّوم بلفظ المستقبل وفى الفرقان وفاطر بلفظ الماضى، لأَنَّ ما قبلها فى هذه السّورة ذِكر الخوف والطَّمع، وهو قوله: {وَادْعُوْهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} وهما يكونان فى المستقبل لا غير، فكان (يرسل) بلفظ المستقبل أَشبه بما قبله، وفى الرّوم قبله {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ} فجاءَ بلفظ المستقبل ليوافق ما قبله. وأَمَّا فى الفرقان فإِنَّ قبله {كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ} الآية (وبعد الآية) (وهو الَّذى جعل لكم [ومرج وخلق] وكان الماضى أَليق به. وفى فاطر مبنىّ على أَوّل السّورة

=

=

{الحمد للهِ فَاطِرِ السماوات والأرض جَاعِلِ الملائكة رُسُلًا} وهما بمعنى الماضى، فبنى على ذلك (أَرسل) بلفظ الماضى؛ ليكون الكلّ على مقتضَى اللَّفظ الَّذى خصّ به.

قوله: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا} هنا بغير واو، وفى هود والمؤمنين (ولقد) بالواو؛ لأَنَّه لم يتقدّم فى هذه السّورة ذكرُ رسول فيكونَ هذا عطفًا عليه، بل هو استئناف كلام. وفى هود تقدّم ذكرُ الرُّسُل مرّات، وفى المؤمنين تقدّم ذكر نوح ضِمنًا؛ لقوله {وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ}؛ لأَنَّه أَوّل مَن صَنعَ الفلك، فعطف فى السّورتين بالواو.

قوله: {أَرْسَلْنَا نُوْحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ} بالفاءِ هنا، وكذا فى المؤمنين فى قصّة نوح، وفى هود فى قصّة نوح، {إِنِّي لَكُمْ} بغير فاء، وفى هذه السّورة فى قصّة عاد بغير فاء؛ لأَنَّ إِصبات الفاءِ هو الأَصل، وتقديره أَرسلنا نوحًا فجاءَ فقال، فكان فى هذه السّورة والمؤمنين على ما يوجبه اللَّفظ. وأَمّا فى هود فالتقدير: فقال إِنى فأَضمر ذلك قال، فأَضمر معه الفاءَ. وهذا كما قلنا فى قوله: {فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ} أَى فقال لهم: أَكفرتم، فأَضمر القول والفاءَ معًا وأَمّا فى قصّة عاد فالتقدير: وأَرسلنا إِلى عاد أَخاهم هودًا فقال، فأَضمر أَرسلنا، وأَضمر الفاءَ؛ لأَنَّ الفاء لفظ (أَرسلنا).

قوله: {قَالَ الملأ} بغير واو فى قصّة نوح وهود فى هذه السّورة، وفى هود والمؤمنين (فقال) بالفاء، لأَن ما فى هذه السورة فى القصّتين لا يليق بالجواب وهو قولهم لنوح {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِين} وقولهم لهود {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِين} بخلاف السّورتين، فإِنَّهم أَجابوا فيهما بما زعموا أَنَّه جواب.

قوله: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ} فى قصّة نوح وقال فى قِصّة هود {وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِيْنٌ} لأَنَّ ما فى هذه الآية {أُبَلِّغُكُمْ} بلفظ المستقبل، فعطف عليه

=

=
{وَأَنصَحُ لَكُمْ} كما فى الآية الأُخرى {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} فعطف الماضى (على الماضى)، فكن فى قصّة هود قابل باسم الفاعل قولهم له {وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِين} ليقابَل الاسم بالاسم.

قوله: {أُبَلِّغُكُمْ} فى قصّة نوح وهود بلفظ المستقبل وفى قصّة صالح وشعيب {أَبْلَغْتُكُمْ} بلفظ الماضى، لأَنَّ [ما] فى قصّة نوح وهود وقع فى ابتداءِ الرّسالة، و [ما] فى قصّة صالح وشُعَيب وقع فى آخر الرّسالة، ودُنوّ العذاب.

قوله: {رِسَالاَتُ رَبِّي} فى القِصَصِ إِلاَّ فى قصّة صالح؛ فإِنَّ فيها (رسالة) على الواحدة لأَنَّه سبحانه حَكَى عنهم بعد الإِيمان بالله والتقوى أَشياءَ أُمِروا بها إِلاَّ فى قصّة صالح؛ فإِنَّ فيها ذكر الناقة فقط، فصار كأَنَّه رسالة واحدة. وقوله: {بِرِسَالاَتِي وبِكَلاَمِي} مختلف فيهما.

قوله: {فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ فِي الفلك وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَآ} وفى يونس {فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك} لأَنَّ أَنجينا ونجّينا للتَّعدّى، لكنَّ التشديد يدلّ على الكثرة والمبالغة، وكان فى يونس {وَمَنْ مَعَهُ} ولفظ (من) يقع على أَكثر ممّا يقع عليه (الَّذين) لأَنَّ (مَن) يصلح للواحد والاثنين، والجماعة، والمذكر، والمؤنَّث، بخلاف الذين فإِنَّه لجمع المذكر فحسب، وكان التَّشديد مع (مَن) أَليق.

قوله: {وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} وفى هود، {وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} وفى الشعراءِ {وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ} لأَنَّ فى هذه السّورة بالغ فى الوعظ، فبالغ فى الوعيد، فقال: {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وفى هود لمّا اتَّصل بقوله {تَمَتَّعُوْا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ} وصفه بالقرب فقال: {عَذَابٌ قَرِيبٌ} وزاد فية الشعراءِ ذكر اليوم لأَنَّ قبله: {لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} والتقدير: لها شرب يوم معلوم، فختم الآية بذكر اليوم، فقال: عذاب يوم
=

=

عظيم.

قوله: {فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ} على الواحدة وقال: {وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} حيث ذكرَ الرّجفة وَهى الزلزلة وَحّد الدّار، وحيث ذكر الصّيحة جَمَعَ؛ لأَنَّ الصّيحة كانت من السّماءِ، فبلوغها أكثر وأَبلغ من الزلزلة، فاتَّصل كلُّ واحد بما هو لائق به.

قوله: {مَّا نَزَّلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ} وفى غيره {أَنْزَلَ} لأَنَّ أَفعل كما ذكرنا آنفًا للتعدّى، وفَعَّل للتعدّى والتَّكثير، فذكر فى الموضع الأَوّل بلفظ المبالغة؛ ليجرى مجرى ذكر الجملة والتفصيل، أَو ذكر الجنس والنَّوع، فيكون الأَوّل كالجنس، وما سواه كالنَّوع.

قوله: {وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتًا} فى هذه السّورة، وفى غيرها {مِنَ الْجِبَال} لأَنَّ [ما] فى هذه السّورة تقدّمه {مِنْ سُهُوْلِهَا قُصُورًا} فاكتفى بذلك.

قوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المجرمين} وفى غيرها {فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين} لأَنَّ ما فى هذه وافق ما بعده وهو قوله {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.

قوله: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة} بالاستفهام، وهو استفهام تقريع وتوبيخ وإِنكار، وقال بعده: {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُوْنَ} فزاد مع الاستفهام (إِنَّ) لأَن التقريع والتَّوبيخ والإِنكار فى الثانى أَكثر. ومثله فى النَّمل: {أَتَأْتُوْنَ} وبعده أَئِنكم وخالف فى العنكبوت فقال: {إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة} {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال} فجمع بين أَئِنَّ وأَئن وذلك لموافقة آخِر القصّة، فإِنَّ فى الآخر {إِنَّا مُنَجُّوْكَ} و {إِنَّا مُنْزِلُوْنَ} فتأَمّل فيه؛ فإِنَّه صعب المستخرج.

قوله: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} هنا بلفظ الاسم، وفى النَّمل {قَوْمٌ تَجْهَلُوْنَ} بلفظ الفعل. أَو لأَنَّ كلّ إِسراف جهل وكلَّ جهل إِسراف، ثمّ ختم الآية بلفظ الاسم؛

=

=

موافقة لرءُوس الآيات المتقدّمة، وكلها أسماءُ:

للعالمين، الناصحين، المرسلين، جاثمين، كافرون، مؤْمنون، مفسدون. وفى النَّمل وافق ما قبلها من الآيات، وكلها أَفعال: تبصرون، يتَّقون، يعملون.

قوله: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ} بالواو فى هذه السّورة. وفى سائر السّور (فما) بالفاءِ؛ لأَنَّ ما قبله اسم، والفاء للتعقيب، والتعقيب يكون مع الأَفعال. فقال فى النَّمل {تَجْهَلُوْنَ فَمَا كَانَ} وكذلك فى العنكبوت {وَتَأْتُوْنَ فِي نَادِيْكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ} وفى هذه السّورة {مُسْرِفُوْنَ وَمَا كَانَ}.

قوله: {أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ} فى هذه السّورة وفى النَّمل {أخرجوا آلَ لُوطٍ} ما فى هذه السّورة كناية فسّرها ما فى السورة الَّتى بعدها، وهى النَّمل ويقال: نزلت النَّمل أَوّلًا، فصرّح فى الأُولى، وكَنَّى فى الثانية.

قوله: {كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} (هاهنا، وفى النمل: {قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغابرين} أَى كانت فى علم الله من الغابرين).

قوله: {بَمِا كَذَّبُوْا مِنْ قَبْل} هنا وفى يونس {بِمَا كَذَّبُوْا بِهِ} لأَنَّ أَوّل القصّة هنا {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُوا واتقوا} وفى الآية {ولاكن كَذَّبُوا} وليس بعدها الباء، فختَم القصّة بمثل ما بدأَ به، فقال: كذَّبوا من قبل. وكذلك فى يونس وافق ما قبله وهو {كَذَّبُوْهُ} {فَنَجَّيْنَاهُ} ثمّ {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} فختَم بمثل ذلك، فقال: {بِمَا كَذَّبُوْا بِهِ}. وذهب بعض أَهل العلم إِلى أَنَّ ما فى حقِّ العقلاءِ من التكذيب فبغير الباء؛ نحو قوله: كذَّبوا رسلى، وكذَّبوه، وغيره؛ وما فى حقِّ غيرهم بالباءِ؛ نحو كَّذبوا بآياتنا وغيرها. وعند المحقِّقين تقديره: فكذَّبوا رسلنا بردِّ آياتنا، حيث وقع.

قوله: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله}، وفى يونس {نَطْبَعُ} بالنون؛ لأَنَّ فى هذه السّورة قد تقدّم ذكر الله سبحانه بالتَّصريح، والكناية، فجمع بينهما فقال: {وَنَطْبَعُ على قُلوبِهِم} بالنّون، وختم الآية بالتَّصريح فقال: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله} وأَمّا فى يونس فمبنىّ على

=

=

ما قبله: من قوله: {فَنَجَّيْنَاهُ} {وَجَعَلْنَاهُمْ} {ثُمَّ بَعَثْنَا} بلفظ الجمع، فختم بمثله، فقال: {كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوْبِ الْمُعْتَدِين}.

قوله: {قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هاذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} وفى الشعراءِ {قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ}؛ لأَنَّ التقدير فى هذه الآية: قال الملأُ من قوم فرعون وفرعونُ بعضُهم لبعض، فحذف (فرعون) لاشتمال الملأ من قوم فرعون على اسمه؛ كما قال: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ} أى آل فرعون وفرعون، فحذف (فرعون)، لأَنَّ آل فرعون اشتمل على اسمه. فالقائل هو فرعون نفسه بدليل الجواب، وهو (أَرْجِه) بلفظ التوحيد، والملأ هم المقول لهم؛ إِذ ليس فى الآية مخاطبون بقوله: {يُخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ} غيرهم. فتأَمّل فيه فإِنَّه برهان للقرآن شاف.

قوله: {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} وفى الشعراءِ {مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ} لأَنَّ الآية (الأُولى فى هذه السورة بنيت على الاقتصار [وليس] كذلك الآية) الثانية، ولأَنَّ لفظ السّاحر يدل على السّحر.

قوله: {وَأَرْسِلْ}، وفى الشعراءِ: {وَابْعَثْ} لأَنَّ الإِرسال يفيد معنى البعث، ويتضمّن نوعًا من العُلُوّ؛ لأَنه يكون من فوق؛ فخُصّت هذه السّورة به، لمّا التبس؛ ليعلم أَنَّ المخاطَب به فرعون دون غيره.

قوله: {بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيْمٍ} وفى الشُّعراءِ بكلِّ {سَحَّارٍ} لأَنَّه راعى ما قبله فى هذه السّورة وهو قوله: {إِنَّ هاذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} وراعى فى الشُّعراءِ الإِمامَ فإِنَّ فيه (بكلِّ سَحّار بالأَلف) وقرئَ فى هذه السّورة {بِكُلِّ سَحَّارٍ} أَيضًا طلبًا للمبالغة وموافقةً لما فى الشعراءِ.

قوله: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا} وفى الشعراءِ {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ} لأَنَّ القياس فى هذه السّورة وجاءَ السّحرة فرعون وقالوا، أَو فقالوا، لا بدّ من ذلك؛ لكن أَضمر فيه (فلمّا) فحسُن حذف الواو.

=

=

وخصّ هذه السّورة بإضمار (فلمّا) لأَنَّ ما فى هذه السّورة وقع على الاختصار والاقتصار على ما سبق. وأمّا تقديم فرعون وتأْخيره فى الشعراءِ لأَنَّ التَّقدير فيهما: فلمّا جاءَ السّحرة فرعون قالوا لفرعون، فأَظهر الأَول فى هذه السّورة لأَنَّها الأُولى، وأَظهر الثَّانى فى الشَّعراءِ؛ لأَنَّها الثانية.

قوله: {قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} وفى الشُّعراءِ {إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ} (إِذًا) فى هذه السّورةِ مضمرة مقدّرة؛ لأنَ (إِذًا) جزاء، ومعناه: إِن غَلبتم قرّبتكم، ورفعتُ منزلتكم. وخصّ هذه السّورة بالإِضمار اختصارًا.

قوله: {إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وإِمَّا أَنْ نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ} وفى طه {وَإِمَّا أَنْ نَّكُوْنَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} راعى فى السّورتين أَواخر الآى. ومثله {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينْ} فى السّورتين، وفى طه {سُجَّدًا} وفى (السّورتين) أَيضًا {ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} وليس فى طه {رَبِّ الْعَالَمِينَ} وفى السّورتين {رَبِّ مُوْسَى وَهَارُوْنَ} وفى طه {رَبِّ هَارُوْنَ وَمُوْسَى} (وفى هذه السورة: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ} [وفى الشعراءِ: {فَلَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ لأُقَطِّعَنَّ}] وفى طه {فلأُقَطِّعَنَّ} وفى السّورتين [{وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} ، وفى طه]: {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِيْ جُذُوْعِ النَّخْلِ} . وهذا كلّه لمراعاة فواصل الآى؛ لأَنَّها مرعيّة يبتنى عليها مسائل كثيرة.

قوله: {ءَامَنْتُمْ بِهِ} (وفى السّورتين: آمنتم) له) لأَنَّ هنا يعود إِلى ربّ العالمين وهو المؤْمن (به) سبحانه وفى السورتين يعود إِلى موسى؛ لقوله {إِنَّهُ لَكَبِيْرُكُمْ} وقيل آمنتم به وآمنتم له واحد.

قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ} (وفى السورتين: قال آمنتم، لأَن هذه السورة مقدّمة على السّورتين فصرّح فى الأُولى، وكَنَى فى الأخريَيْن، وهو القياس: وقال الإِمام: لأَنَّ [ما] هنا بَعُد عن ذكر فرعون فصرّح وقرُب فى السّورتين ذكرُه فكَنَى.

قوله: {ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ} وفى السّورتين {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ} ؛ لأَنَّ (ثمّ) يدلُّ على أَنَّ

=

=

الصَّلْب يقع بعد التقطيع، وإذا دَلَّ فى الأُولى عُلِمَ فى غيرها، ولأَنَّ الواو يصلح لما يصلح له (ثمّ).

قوله: {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُوْنَ} وفى الشعراءِ {لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُوْنَ} بزيادة (لا ضير) لأَنَّ هذه السّورة اختُصِرَتْ فيها القِصَّة، وأُشبعت فى الشعراءِ، وذكر فيها أَوّل أَحوال موسى مع فرعون، إِلى آخرها، فبدأ بقوله: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا} وخَتَمَ بقوله ثمّ {أَغْرَقْنَا الآخرين} فلهذا وقع زوائد لم تقع فى الأَعراف وطه، فتأَمّل تعرف إِعجاز التنزيل.

قوله {يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُقَتِّلُونَ} بغير واو على البدل. وقد سبق.

قوله: {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَآءَ الله} هنا وفى يونس: {قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَآءَ الله} لأَنَّ أَكثر ما جاءَ فى القرآن من لفظ الضرّ والنفع معًا جاء بتقديم لفظ الضّرّ؛ لأَنَّ العابد يعبد معبوده خوفًا من عقابه أَوّلًا، ثمَّ طمعًا فى ثوابه ثانيًا. يقوّيه قوله: {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}، وحيث تقدم النفع تقدّم لسابقة لفظ تضمّن نفعًا. وذلك فى ثمانية مواضع: ثلاثة منها بلفظ الاسم، وهى هاهنا والرّعد وسبأ. وخمسة بلفظ الفعل وهى فى الأَنعام {مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا} وفى آخر يونس {مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ} وفى الأَنبياءِ {مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ} وفى الفرقان {مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ} وفى الشعراءِ {أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} أَمّا فى هذه السورة فقد تقدّمه {مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي وَمَن يُضْلِلْ} فقدّم الهداية على الضّلالة. وبعد ذلك {لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السواء} فقدّم الخير على السّوءِ، فكذلك قدّم النَّفع على الضرّ وفى الرّعد {طَوْعًا وَكَرْهًا} فقدّم الطَّوع وفى سبأ {يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ} فقدّم البسط. وفى يونس قدّم الضّرّ على الأَصلِ ولموافقته ما قبلها {لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ} وفيها {وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر} فتكرّر فى الآية ثلاث مرّات. وكذلك ما جاءَ بلفظ الفعل فلسابقة

=

=

معنى يتضمّن فعلًا.

أمّا سورة الأنعام ففيها {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيْعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا}، ثمّ وصلها بقوله: {قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُوْنِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا} وفى يونس تقدّمه قوله: {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والذين آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين} ثمّ قال: {وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ} وفى الأَنبياءِ تقدّمه قول الكفار لإِبراهيم فى المجادلة {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هاؤلاء يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ} وفى الفرقان تقدّمه قوله: {أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل} وعَدَّ نِعَمًا جَمّة فى الآيات ثمّ قال: {وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُهُمْ} تأمّل؛ فإِنه برهان ساطع للقرآن. بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٠٣ - ٢٢١).

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

المص (١).

{المص} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ(٢).

كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢).

هَذَا {كِتَاب أُنْزِلَ إِلَيْك} خِطَاب لِلنَّبِيِّ ﷺ {فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرك حَرَج} ضِيق {مِنْهُ} أَنْ تُبَلِّغهُ مَخَافَة أَنْ تُكَذَّب {لِتُنْذِر} مُتَعَلِّق بِأُنْزِلَ أَيْ لِلْإِنْذَارِ {بِهِ وَذِكْرَى} تَذْكِرَة {لِلْمُؤْمِنِينَ} بِهِ(٣).

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في فواتح السور بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

(٣) قوله تعالى: {كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الأعراف: ٢]، أي: " هذا القرآن كتاب عظيم أنزله الله عليك -أيها الرسول-".

قال ابن كثير: " أي: هذا كتاب أنزل إليك، أي: من ربك".

قال قتادة: " وهو القرآن الذين أنزله الله على محمد ﷺ".

قال السعدي: يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبينًا له عظمة القرآن (كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ) أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكمًا مفصلًا.

وإنما قيل: أُنْزِلَ ولم يقل أنزله اللّه وأنزلناه، للإيذان بأن المنزل مستغن عن التعريف لشرفه وغاية ظهوره.

قوله تعالى: {فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ} [الأعراف: ٢]، أي: " فلا يضقْ صدرك من تبليغه خوفًا من تكذيب قومك".

=

=

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فلا يضق صدرك، يا محمد، من الإنذار به مَنْ أرسلتك لإنذاره به، وإبلاغه مَنْ أمرتك بإبلاغه إياه، ولا تشك في أنه من عندي، واصبر للمضيّ لأمر الله واتباع طاعته فيما كلفك وحملك من عبء أثقال النبوة، كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن الله معك".

قال الزمخشري: " أى شك منه، كقوله: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ} [يونس: ٩٤]، وسمى «الشك»: حرجا، لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه. أى لا تشك في أنه منزل من الله، ولا تحرج من تبليغه «١» لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فأمته الله ونهاه عن المبالاة بهم".

وفي تفسير «الحرج» -ها هنا- ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الضيق، قاله الحسن، والزجاج.

وأصل الحرج: الضيق، قال الشماخ بن ضرار:

ولو ردت المعروف عندي رددتها   لحاجة لا العالي ولا المتحرج

قال الماوردي: " معناه: فلا يضيق صدرك خوفًا ألا تقوم بحقه".

قال الزجاج: " أي: فلا - يضيقن صدرك من تأدية ما أرسلت به".

والثاني: أن «الحرج» هنا: الشك، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والسدي وعكرمة. قال الراجز:

آليت لولا حرج يعروني   ما جئت أغزوك ولا تغزوني

ومعناه: فلا تشك فيما يلزمك فيه فإنما أنزل إليك لتنذر به.

قال الطبري: " لأن الشك فيه لا يكون إلا من ضيق الصدر به، وقلة الاتساع لتوجيهه وجهته التي هي وجهته الصحيحة. وإنما اخترنا العبارة عنه بمعنى «الضيق»، لأن ذلك هو الغالب عليه من معناه في كلام العرب".

=

=

قال ابن قتيبة: " أصل «الحرج»: الضيق، والشاك في الأمر يضيق صدرا؛ لأنه لا يعلم حقيقته. فسمى الشك حرجا".

والثالث: لا يضيق صدرك بالقرآن بأن يكذبوك، كما قال تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦]. قاله الفراء.

قال الشنقيطي ": وجمهور العلماء: على أن المراد بالحرج في الآية الضيق، أي لا يكن في صدرك ضيق عن تبليغ ما أمرت به لشدة تكذيبهم لك، لأن تحمل عداوة الكفار، والتعرض لبطشهم مما يضيق به الصدر، وكذلك تكذيبهم له ﷺ مع وضوح صدقه بالمعجزات الباهرات مما يضيق به الصدر. وقد قال ﷺ (إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة) أخرجه مسلم. والثلغ: الشدخ وقيل ضرب الرطب باليابس حتى ينشدخ، وهذا البطش مما يضيق به الصدر.

ويدل لهذا الوجه في الآية قوله تعالى (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ)، وقوله (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ)، وقوله (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بهذا الحديث أَسَفًا) وقوله (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

ويؤيده: أن الحرج في لغة العرب: الضيق، وذلك معروف في كلامهم، ومنه قوله تعالى (لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ)، وقوله (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ)، وقوله (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) أي: شديد الضيق إلى غير ذلك من الآيات.

والثاني: (فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ) أي: شك منه، أي لا يكن في صدرك شك في كون هذا القرآن حقًا، وعلى هذا القول فالآية، كقوله تعالى (الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين) وقوله (الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين)، وقوله (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين).

=

=

والممتري: هو الشاك. لأنه مفتعل من المرية وهي الشك، وعلى هذا القول فالخطاب للنبي ﷺ.

والمراد نهى غيره عن الشك في القرآن".

قوله تعالى: {لِتُنْذِرَ بِهِ} [الأعراف: ٢]، أي: " لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن".

قال الطبري: يعني: " هذا كتاب أنزلناه إليك، يا محمد، لتنذر به من أمرتك بإنذاره".

قال ابن كثير: " أي: أنزل إليك لتنذر به الكافرين".

قوله تعالى: {وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٢]، أي: " ولتذكر وتعظ به المؤمنين".

قال الطبري: يعني: " وتذكر به المؤمنين".

قال الماوردي: " فجعله إنذارًا للكافرين وذكرى للمؤمنين ليعود نفعه على الفريقين".

قال الشنقيطي: لم يبين هنا المفعول به لقوله النذر، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله (وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا)، وقوله (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ) إلى غير ذلك من الآيات.

والإنذار: هو الإعلام المقرون بالتخويف.

(وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) يتذكرون به ويتعظون.

- والذكرى: هي الاتعاظ، لأن المؤمنين يذكرهم فتنفعهم الذكرى، قال تعالى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ).

قال الشنقيطي: وقد جمع تعالى في هذه الآية الكريمة بين الإنذار والذكرى في قوله (لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ) فالإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين، ويدل لذلك قوله تعالى (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلَسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا) وقوله (وَذَكِّرْ

=

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣).

قُلْ لَهُمْ {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} أَيْ الْقُرْآن {وَلَا تَتَّبِعُوا} تَتَّخِذُوا {مِنْ دُونه} أَيْ الله أَيْ غَيْره {أَوْلِيَاء} تُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَته تَعَالَى {قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء تَتَّعِظُونَ وَفِيهِ إِدْغَام التَّاء فِي الْأَصْل فِي الذَّال وَفِي قِرَاءَة بِسُكُونِهَا وَمَا زَائِدَة لتأكيد القلة(١).

=

فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين) وقوله (فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيد).

ولا ينافي ما ذكرنا من أن الإنذار للكفار، والذكرى للمؤمنين. أنه قصر الإنذار على المؤمنين دون غيرهم في قوله تعالى (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ). لأنه ملا كان الانتفاع بالإنذار مقصورًا عليهم، صار الإنذار كأنه مقصور عليهم، لأن ما لا نفع فيه فهو كالعدم.

ومن أساليب اللغة العربية: التعبير عن قليل النفع بأنه لا شيء.

(١) قوله تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأعراف: ٣]، أي: " اتبعوا -أيها الناس- ما أُنزل إليكم من ربكم من الكتاب والسنة بامتثال الأوامر واجتناب النواهي".

أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كلّ شيء ومليكه.

- فإن قيل: لماذا قال: (أُنزِلَ إِلَيْكُمُ) وإنما أنزل على الرسول.

قلنا: إنه منزل على الكل بمعنى أنه خطاب للكل.

- قال أبو حيان: لما ذكر تعالى أن هذا الكتاب أنزل إلى الرسول أمر الأمة باتّباعه وما أنزل إليكم يشمل القرآن والسنة لقوله (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي

=

=

يوحى).

قال قتادة: " ثم قال للمؤمنين: اتبعوا ما أنزل الله إليكم من ربكم من القرآن".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك الذين يعبدون الأوثان والأصنام: اتبعوا، أيها الناس، ما جاءكم من عند ربكم بالبينات والهدى، واعملوا بما أمركم به ربكم".

قال ابن كثير: " ثم قال تعالى مخاطبًا للعالم: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كلّ شيء ومليكه".

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} [الأعراف: ٣]، أي: " ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكُهّان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم".

قال الطبري: " يقول: لا تتبعوا أمر أوليائكم الذين يأمرونكم بالشرك بالله وعبادة الأوثان، فإنهم يضلونكم ولا يهدونكم".

قال ابن كثير: " أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره".

قوله تعالى: {قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٣]، أي: " إنكم قليلا ما تتعظون، وتعتبرون، فترجعون إلى الحق".

قال الطبري: " يقول: قليلا ما تتعظون وتعتبرون فتراجعون الحق".

قال ابن كثير: {قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ} كقوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣]. وقوله: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [الأنعام: ١١٦] وقوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]".

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤).

{وَكَمْ} خَبَرِيَّة مَفْعُول {مِنْ قَرْيَة} أُرِيدَ أَهْلهَا {أَهْلَكْنَاهَا} أَرَدْنَا إهْلَاكهَا {فَجَاءَهَا بَأْسنَا} عَذَابنَا {بَيَاتًا} لَيْلًا {أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} نَائِمُونَ بِالظَّهِيرَةِ وَالْقَيْلُولَة اسْتِرَاحَة نِصْف النَّهَار وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهَا نَوْم أَيْ مَرَّة جَاءَهَا لَيْلًا وَمَرَّة جَاءَهَا نهارا.

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥).

{فما كان دعواهم} قولهم {إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين}.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦).

{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إلَيْهِمْ} أَيْ الْأُمَم عَنْ إجَابَتهمْ الرُّسُل وَعَمَلهمْ فِيمَا بَلَغَهُمْ {وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} عَنْ الْإِبْلَاغ.

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧).

{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ} لَنُخْبِرَنَّهُمْ عَنْ عِلْم بِمَا فَعَلُوهُ {وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} عَنْ إبْلَاغ الرُّسُل وَالْأُمَم الْخَالِيَة فِيمَا عَمِلُوا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} [الأعراف: ٤]، أي: " وكثير من القرى أهلكنا أهلها بسبب مخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولا بذلِّ الآخرة، والمراد بالقرية أهلها".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: حذّر هؤلاء العابدين غيري، والعادلين بي الآلهة والأوثان، سَخَطي لا أُحِلّ بهم عقوبتي فأهلكهم، كما أهلكت من سلك سبيلهم من الأمم قبلهم، فكثيرًا ما أهلكت قبلهم من أهل قرى عصوني وكذّبوا رسلي وعبدوا غيري".

قال ابن الجوزي: " (كم) تدل على الكثرة، و"رب" موضوعة للقلة".

=

=

وإهلاك القرى بسبب ظلمهم وكفرهم، كما قال تعالى (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ).

- قال الرازي: قيل: في الآية محذوف والتقدير: وكم من أهل قرية ويدل عليه وجوه:

أحدها: قوله (فَجَاءَهَا بَأْسُنَا) والبأس لا يليق إلا بالأهل.

وثانيها: قوله (أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) فعاد الضمير إلى أهل القرية.

وثالثها: أن الزجر والتحذير لا يقع للمكلفين إلا بإهلاكهم.

ورابعها: أن معنى البيات والقائلة لا يصح إلا فيهم.

قال ابن كثير: "أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خِزْيُ الدنيا موصولا بذُلِّ الآخرة، كما قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام: ١٠]. وقال تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلا قَلِيلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} [القصص: ٥٨]".

قال الماوردي: "هذا إخبار من الله تعالى عن حال من أهلكه بكفر تحذيرًا للمخاطبين به عن مثله".

قال ابن عاشور: "وإنّما خُصّ بالذّكر إهلاك القرى، دون ذكر الأمم كما في قوله (فأمّا ثمود فأهلكوا بالطّاغية وأمّا عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية)، لأنّ المواجهين بالتّعريض هم أهل مكّة وهي أمّ القرى، فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها ولأنّ تعليق فعل (أهلكنا) بالقرية دون أهلها لقصد الإحاطة والشّمول، والإهلاك: الإفناء والاستئصال".

قوله تعالى: {فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا} [الأعراف: ٤]، أي: " فجاءها عذابنا وهم

=

=

نائمون ليلا".

قال ابن قتيبة: " يعني: العذاب، ليلا".

قال الطبري: "يقول: فجاءتهم عقوبتنا ونقمتنا ليلا قبل أن يصبحوا".

قال ابن كثير: " أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ليلا".

وفي قوله: {أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا} [الأعراف: ٤]، أربعة وجوه:

أحدها: معناه: أهلكناها حكمًا، فجاءها بأسنا فعلًا.

والثاني: أهلكناها بإرسال الملائكة إليها بالعذاب، فجاءها بأسنا بوقوع العذاب لهم.

والثالث: أهلكناها بخذلاننا لها عن الطاعة، فجاءها بأسنا عقوبة على المعصية.

والرابع: أن البأس والهلاك وقعا معًا في حال واحدة، لأن الهلاك كان بوقوع البأس فلم يفترقا، وليس دخول الفاء بينهما موجبة لافتراقهما بل قد تكون بمعنى الواو كما يقال أعطيت وأحسنت، فكان الإحسان بالعطاء ولم يكن بعد العطاء، قاله الفراء.

فإن قيل: إنما أتاها البأس قبل الإهلاك، فكيف يقدَّم الهلاك؟ فعنه ثلاثة أجوبة.

فقيل: الفاء بمعنى الواو، فلا يلزم الترتيب.

وقيل: أي وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا؛ كقوله (فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم).

وقيل: إن الهلاك واقع ببعض القوم؛ فيكون التقدير: وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع.

وقيل: المعنى وكم من قرية أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا.

وقيل: أهلكناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها، فجاءها بأسنا وهو الاستئصال.

والبأس: العذاب الآتي على النفس.

=

=

وقيل: المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إياهم في وقت كذا؛ فمجيء البأس على هذا هو الإهلاك.

(بَيَاتًا) أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته (بَيَاتًا) أي: ليلًا.

عن مالك بن دينار، قال: " قالت ابنة الربيع لأبيها: يا أبتاه، مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: إني أخاف البيات".

قوله تعالى: {أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} [الأعراف: ٤]، أي: " أو جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار".

والقيلولة، وهي: الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غَفْلة ولَهْو.

كما قال تعالى (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُون. أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ).

وقال (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِين * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ).

قال ابن عطية: وإنما خص وقتي الدعة والسكون لأن مجيء العذاب فيهما أفظع وأهول لما فيه من البغت والفجأة.

ومن العبر التي نأخذها من هاتين الآيتين أن العاقل هو الذي يحافظ على أداء الأوامر واجتناب النواهي، ولا يأمن صفو الليالي، ورخاء الأيام، بل يعيش حياته وصلته بربه مبنية على الخوف والرجاء فإنه فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ.

قال ابن قتيبة: " من القائلة، نصف النهار".

قال الطبري: " يعني: نهارًا في وقت القائلة".

قال ابن كثير: " {قَائِلُونَ} من القيلولة، وهي: الاستراحة وسط النهار".

وفي مجيء العذاب في وقت النوم دون اليقظة، قولان:

=

=

أحدهما: لأن العذاب في وقت الراحة أشد وأغلظ.

قال أبو حيان: " وخص مجيء البأس بهذين الوقتين، لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أقطع وأشق ولأنه يكون المجيء فيه على غفلة من المهلكين، فهو كالمجيء بغتة".

والثاني: لئلا يتحرزوا منه ويهربوا عنه، لاستسلام النائم وتحرز المستيقظ.

قال ابن كثير: " وكلا الوقتين وقت غَفْلة ولَهْو كما قال تعالى {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُون * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأعراف: ٩٧، ٩٨]. وقال: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِين * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [النحل: ٤٥ - ٤٧]".

قوله تعالى: {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا} [الأعراف: ٥]، أي: " فما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته".

قال ابن قتيبة: " أي: قولهم وتداعيهم".

قال الزمخشري: يعني: " ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم".

قال الطبري: أي: " فلم يكن دعوى أهل القرية التي أهلكناها، إذ جاءهم بأسنا وسطوتُنا بياتًا أو هم قائلون".

قال ابن كثير: " أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب".

ولـ «الدعوى»، في كلام العرب، وجهان:

أحدهما: الادعاء للحق.

والثاني: الدعاء، قول الله تبارك وتعالى: (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ) [سورة الأنبياء: ١٥]، ومنه قول كثير عزّة:

=

=

وَإِنْ مَذِلَتْ رِجْلِي دَعَوْتُكِ أَشْتَفِي بِدَعْوَاكِ مِنْ مَذْلٍ بِهَا فَيَهُونُ

قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأعراف: ٥]، أي: " إلا الإقرار بالذنوب والإساءة، وأنهم حقيقون بالعذاب الذي نزل بهم".

قال الطبري: أي: " إلا اعترافهم على أنفسهم بأنهم كانوا إلى أنفسهم مسيئين، وبربهم آثمين، ولأمره ونهيه مخالفين".

قال الزمخشري: يعني: " إلا اعترافهم ببطلانه وفساده".

قال ابن كثير: أي: " إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. كما قال تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْ بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِين} [الأنبياء: ١١ - ١٥]".

قال عبد الله بن مسعود: " ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم، ثم قرأ: {فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين}".

قوله تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} [الأعراف: ٦]، أي: " فلنسألن الأمم الذين أرسل إليهم المرسلون: ماذا أجبتم رسلنا إليكم؟".

قال ابن عباس: " يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين".

قال السدي: " يقول فلنسألن الأمم: ما عملوا فيما جاءت به الرسل؟".

وروي عن القاسم أبي عبد الرحمن: " أنه تلا هذه الآية: {فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين}، قال: يسأل العبد يوم القيامة عن أربع خصال، يقول ربك: ألم أجعل لك جسدا، ففيم أبليته؟ ألم أجعل لك علما ففيم عملت؟ ألم أجعل لك مالا، ففيم أنفقته في طاعتي أم في معصيتي؟، ألم أجعل لك عمرا، ففيم أفنيته".

=

=

وقال مجاهد: " يقول: الناس يسألهم عن لا إله إلا الله".

قال القرطبي: " قوله تعالى: {فلنسئلن الذين أرسل إليهم} دليل على أن الكفار يحاسبون، وفي التنزيل: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} [الغاشية: ٢٦]، وفي سورة القصص: {وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُون} [القصص: ٧٨]،يعني: إذا استقروا في العذاب، والآخرة مواطن: موطن يسألون فيه للحساب. وموطن لا يسألون فيه. وسؤالهم تقرير وتوبيخ وإفضاح".

قوله تعالى: {وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: ٦]، أي: " ولنسْألَنَّ المرسلين عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعمَّا أجابتهم به أممهم".

قال ابن عباس: " ويسأل المرسلين عما بلغوا".

قال السدي: " ولنسألن الرسل: هل بلغوا ما أرسلوا به؟".

قال الطبري: " يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلتهم إلى الأمم: هل بلغتهم رسالاتي، وأدَّت إليهم ما أمرتهم بأدائه إليهم، أم قصّروا في ذلك ففرَّطوا ولم يبلغوهم؟".

قال الشوكاني: "أي: الأنبياء الذين بعثهم الله: أي: نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم، ومن أطاع منهم ومن عصى، وقيل: المعنى فلنسألن الذين أرسل إليهم يعني الأنبياء، ولنسألن المرسلين يعني الملائكة".

وقال السفاريني عن مسألة حسابهم: "والجواب أنه لاحساب على الأنبياء عليهم السلام على سبيل المناقشة والتقريع".

قال القرطبي: " وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح، أي عن جواب القوم لهم. وهو معنى قوله: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ} [الأحزاب: ٨]، وقيل: المعنى: {ولنسئلن المرسلين}، أي: الملائكة الذين أرسلوا إلى الرسل، وقيل: المعنى {فلنسئلن الذين أرسل إليهم}، أي: الأنبياء، {ولنسئلن المرسلين}، أي:

=

=

الملائكة الذين أرسلوا إليهم".

ويقول النسفي فيما ينقله عنه السفاريني: "الأنبياء لاحساب عليهم، وكذلك أطفال المؤمنين، وكذلك العشرة المبشرة بالجنة، هذا فى حساب المناقشة، وعموما الآيات الكريمة مخصوص بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب، ولهذا قال علماؤنا في عقائدهم: ويحاسب المسلمون المكلفون، إلا من شاء الله أن يدخل الجنة بغير حساب وكل مكلف مسؤول، ويسأل من شاء من الرسل عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب الرسل".

وعلى القول بأنهم يسألون - ومعلوم أنه لا ذنوب لهم ليحاسبوا عليها - فما المقصود من وقوع السؤال عليهم؟

أجاب الرازي عن ذلك بقوله: "فإن قيل: فما الفائدة فى سؤال الرسل مع العلم بأنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة؟ قلنا لأنهم إذا أثبتوا أنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة؛ التحق التقصير بكليته بالأمة؛ فيضاعف إكرام الله فى حق الرسل لظهور براءتهم عن جميع موجبات التقصير، ويتضاعف أسباب الخزي والإهانة فى حق الكفار لما ثبت أن كل التقصير كان منهم".

فالذي يظهر أن إطلاق القول بأن الأنبياء يسألون؛ أن المقصود به مساءلتهم عن تبليغهم الدعوة إلى أقوامهم، وهو مجرد مساءلة لزيادة إقامة الحجة على العصاة، وليس مساءلة مناقشة وتقريع، كما ظهر مما سبق.

وأما إطلاق القول بأنهم لا يسألون، فالمراد به ما تقدم من أنهم لا يسألون سؤال مناقشة واستظهار.

وإذا كان قد ثبت أن طائفة من أتباع الأنبياء يدخلون الجنة بغير حساب، فكيف بالأنبياء الذين لهم المزية الأولى في كل تكريم؟

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ عن مساءلة الأنبياء: "وسؤال الله للرسل

=

=

ماذا أجبتم [المائدة: ١٠٩]، لتوبيخ الذين كذبوهم، كسؤال الموءودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها".

عن ابن عمر وعائشة وأبي موسى، قال رسول الله ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته".

وفي سنن الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟".

قوله تعالى: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ} [الأعراف: ٧]، أي: " فَلَنَقُصَّنَّ على الخلق كلهم ما عملوا بعلم منا لأعمالهم في الدنيا فيما أمرناهم به، وما نهيناهم عنه".

قال الضحاك: " لنخبرنهم بما عملوا بعلم منا".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فلنخبرن الرسل ومَنْ أرسلتهم إليه بيقين علمٍ بما عملوا في الدنيا فيما كنت أمرتهم به، وما كنت نهيتهم عنه".

قال الزمخشري: أي: " عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم".

قال ابن عباس: " يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون".

قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} [الأعراف: ٧]، أي: " وما كنا غائبين عنهم في حال من الأحوال".

قال الضحاك: " عن الرسل والأمم ما بلغت وما رد عليهم قومهم".

قال الطبري: " {وما كنا غائبين}، عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها".

قال ابن كثير: " يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من

=

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨).

{وَالْوَزْن} لِلْأَعْمَالِ أَوْ لِصَحَائِفِهَا بِمِيزَانٍ لَهُ لِسَان وَكَفَّتَانِ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيث كَائِن {يَوْمئِذٍ} أَيْ يَوْم السُّؤَال الْمَذْكُور وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة {الْحَقّ} الْعَدْل صِفَة الْوَزْن {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينه} بِالْحَسَنَاتِ {فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ} الْفَائِزُونَ.

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩).

{وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينه} بِالسَّيِّئَاتِ {فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسهمْ} بِتَصْيِيرِهَا إِلَى النَّار {بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يظلمون} يجحدون[1].

=

قليل وكثير، وجليل وحَقِير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور،} وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]".

قال الزمخشري: " فإن قلت: فإذا كان عالما بذلك وكان يقصه عليهم، فما معنى سؤالهم؟ قلت معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم".

(١) قوله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ} [الأعراف: ٨]، أي: " ووزن أعمال الناس يوم القيامة يكون بميزان حقيقي بالعدل والقسط الذي لا ظلم فيه".

قال الطبري: أي: " الوزن يوم نسأل الذين أرسل إليهم والمرسلين، العدل".

قال الزمخشري: " أى: والوزن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم الوزن العدل، يعنى وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها".

=

=

قال ابن كثير: {وَالْوَزْنُ}، أي: للأعمال يوم القيامة} الْحَق} أي: لا يظلم تعالى أحدا، كما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٠].".

والوزن: عمل يعرف به قدر الشيء، يقال: وزنته وزنا وزنة. وهو مبتدأ، ويومئذ متعلق بمحذوف خبره. والحق صفته. أى: والوزن الحق يوم القيامة.

ومعنى الآيتين الكريمتين: والوزن الحق ثابت في ذلك اليوم الذي يسأل الله فيه الرسل والمرسل إليهم. ويخبرهم جميعا بما كان منهم في الدنيا، فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان والعمل الصالح، فأولئك هم الفائزون بالثواب والنعيم، ومن خفت موازين أعماله بالكفر والمعاصي فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت بهم إلى سوء العقاب.

قال الجمل في حاشيته على الجلالين: فإن قلت: أليس الله- تعالى- يعلم مقادير أعمال العباد، فما الحكمة في وزنها؟ قلت فيه حكم: منها، إظهار العدل وأن الله- تعالى- لا يظلم عباده، ومنها: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى. ومنها تعريف العباد بما لهم من خير أو شر وحسنة أو سيئة، ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه- سبحانه- أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ وفي صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه».

أخرج ابن جرير، وابن أبي الدنيا، واللّالكائيُّ عن حذيفة قال: " صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام، قال: يا جبريل، زِن بينهم! فردَّ من بعضٍ على بعض. قال: وليس ثم ذهبٌ ولا فضة. قال: فإن كان للظالم حسنات، أخذ من حسناته

=

=

فترد على المظلوم، وإن لم يكن له حسنات حُمِل عليه من سيئات صاحبه، فيرجع الرجل عليه مثل الجبال، فذلك قوله: {والوزن يومئذ الحق} " وإسناده ضعيف.

وفي قوله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ} [الأعراف: ٨]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الوزن ها هنا هو «القضاء» بالحق، أي: بالعدل، قاله مجاهد.

الثاني: أنه موازنة الحسنات والسيئات بعلامات يراها الناس يوم القيامة.

الثالث: أنه موازنة الحسنات والسيئات بميزان له كفتان، قاله الحسن.

قال البغوي: " قال الأكثرون: أراد به وزن الأعمال بالميزان، وذاك أن الله تعالى ينصب ميزانا له لسان وكفتان كل كفة بقدر ما بين المشرق والمغرب".

واختلف في كيفية الوزن على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الذي يوزن هوالحسنات والسيئات بوضع إحداهما في كفة والأخرى في كفة، قاله الحسن، والسدي.

قال البغوي: " قيل: توزن الأعمال، روي ذلك عن ابن عباس، فيؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان، والحكمة في وزن الأعمال امتحان الله عباده بالإيمان في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى".

قال ابن كثير: " والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضًا، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما".

كما جاء في الصحيح من أن "البقرة" و "آل عمران" يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان – أو: غيَايَتان – أو فِرْقَان من طير صَوَافّ.

ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللَّون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك.

وقال -ﷺ-: " يجئ القرآن يوم القيامة فيقول يا رب حله فيلبس تاج الكرامة ثم

=

=

يقول يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يا رب ارض عنه فيرضى عنه فيقال: اقرأ وارق، ويزاد بكل آية حسنة".

وفي حديث البراء، في قصة سؤال القبر: "إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها فلا يمرون يعنى بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هو رسول الله ﷺ فيقولان له وما علمك فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد فى السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه يجئ بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم

=

=

الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى قال وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول يا أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الخبيث فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ {لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط} [الأعراف: ٤٠] فيقول الله اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق} [الحج: ٣١] فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول من أنت فوجهك الوجه يجئ بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة".

والثاني: أن الذي يوزن صحائف الأعمال، فأما الحسنات والسيئات فهي أعمال، والوزن إنما يمكن في الأجسام، وهذا مروي عن عبد الله بن عمر، إذ قال: " عبد

=

=

الله بن عمرو، قال: يُؤْتى بالرجل يوم القيامة إلى الميزان، فيوضع في الكِفّة، فيخرج له تسعة وتسعون سِجِلا فيها خطاياه وذنوبه. قال: ثم يخرج له كتاب مثل الأنْمُلة، فيها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ. قال: فتوضع في الكِفّة، فترجح بخطاياه وذنوبه".

عن أبي هريرة، قال رسول الله -ﷺ-: " إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة".

والثالث: أن الذي يوزن هو الإنسان، وهذا قول عبيد بن عمير، إذ قال " يؤتى بالرجل العظيم الطويل الأكول الشَّروب، فلا يزن جناح بَعُوضة".

ويقوي هذا القول ما روي في مناقب عبد الله بن مسعود-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن معاوية بن قرة، عن أبيه. قال: "كان ابن مسعود على شجرة يجتني لهم منها، فهبت الريح فكشفت عن ساقيه، فضحكوا من دقة ساقيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان يوم القيامة من أحدٍ»".

قال ابن كثير: " وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها".

وعند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدل على أن الذي يوزن هو العمل، ويخص بعض الناس، فتوزن صحائف أعماله، أو يوزن هو نفسه، وأما ما ورد في حديث ابن مسعود وحديث صاحب البطاقة؛ فقد يكون هذا أمرا يخص الله به من يشاء من عباده.

وقرئ: «يومئذ القسط».

قوله تعالى: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [الأعراف: ٨]، أي: " فمن ثقلت موازين أعماله -لكثرة حسناته".

واختلف في قوله تعالى: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [الأعراف: ٨]، على قولين:

=

=

أحدهما: معناه: فمن كثرت حسناته. قاله مجاهد.

والثاني: معناه: فمن ثقلت موازينه التي توزن بها حسناته وسيئاته. وهذا قول عمرو بن دينار.

قال الطبري: " والصواب من القول في ذلك عندي، القول الذي ذكرناه عن عمرو بن دينار، من أن ذلك هو «الميزان» المعروف الذي يوزن به، وأن الله جل ثناؤه يزن أعمال خلقه الحسنات منها والسيئات، كما قال جل ثناؤه: {فمن ثقلت موازينه}، موازين عمله الصالح {فأولئك هم المفلحون}، يقول: فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاح، وأدركوا الفوز بالطلبات، والخلود والبقاء في الجنات، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بقوله: «ما وُضِع في الميزان شيء أثقل من حسن الخُلق»، ونحو ذلك من الأخبار التي تحقق أن ذلك ميزانٌ يوزن به الأعمال، على ما وصفت.

فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه، وِجْهَته، وقال: أوَ بالله حاجة إلى وزن الأشياء، وهو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعده، وفي كل حال؟ أو قال: وكيف توزن الأعمال، والأعمال ليست بأجسام توصف بالثقل والخفة، وإنما توزن الأشياء ليعرف ثقلها من خفتها، وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة، والكثرة والقلة؟

قيل له في قوله: وما وجه وزن الله الأعمالَ، وهو العالم بمقاديرها قبل كونها: وزن ذلك، نظيرُ إثباته إياه في أمِّ الكتاب واستنساخه ذلك في الكتب، من غير حاجة به إليه، ومن غير خوف من نسيانه، وهو العالم بكل ذلك

في كل حال ووقت قبل كونه وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حجة على خلقه، كما قال جل ثناؤه في تنزيله: {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

=

=
هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ} [سورة الجاثية: ٢٨ - ٢٩] الآية. فكذلك وزنه تعالى أعمال خلقه بالميزان، حجة عليهم ولهم، إما بالتقصير في طاعته والتضييع، وإما بالتكميل والتتميم".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ٨]، أي: " فأولئك هم الناجون غدًا من العذاب، الفائزون بجزيل الثواب".

عن ابن عباس: "{فأولئك هم المفلحون}، أي: الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا".

قوله تعالى: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} [الأعراف: ٩]، أي: " ومن خَفَّتْ موازين أعماله -لكثرة سيئاته-".

قال مجاهد: "من خفت حسناته".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: ومن خفت موازين أعماله الصالحة، فلم تثقل بإقراره بتوحيد الله، والإيمان به وبرسوله، واتباع أمره ونهيه".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} [الأعراف: ٩]، أي: " فأولئك هم الذين أضاعوا حظَّهم من رضوان الله تعالى".

قال الطبري: أي: " فأولئك الذين غَبَنوا أنفسهم حظوظها من جزيل ثواب الله وكرامته".

قال عبيد الله بن الغيزار: "إن الأقدام يوم القيامة لمثل النبل في القرن، والسعيد من وجد لقدميه موضعا، وعند الميزان ملك ينادي: ألا أن فلان بن فلان ثقلت موازينه، سعد سعادة لن يشقى بعدها أبدا، ألا أن فلان بن فلان خفت موازينه، شقي لن يسعد بعدها أبدا".

قوله تعالى: {بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ٩]، أي: " بسبب تجاوزهم الحد بجحد آيات الله تعالى وعدم الانقياد لها".
=

=

قال الطبري: "يقول: بما كانوا بحجج الله وأدلته يجحدون، فلا يقرّون بصحتها، ولا يوقنون بحقيقتها".

(تنبيه): المراد بالميزان عند أهل السنة ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد، وخالف في ذلك المعتزلة، وبعض الطوائف.

قال سفيان بن عيينة كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٥): السنة عشرة: إثبات القدر، وتقديم أبي بكر وعمر، والحوض، والشفاعة، والميزان، والصراط ا. هـ

وقال الإمام أحمد كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٨): أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم إلى أن يقول: والإيمان بالميزان.

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٣٨): وحكى حنبل بن إسحاق في كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال ردا على من أنكر الميزان ما معناه: قال الله تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة} وذكر النبي ﷺ الميزان يوم القيامة فمن رد على النبي ﷺ فقد رد على الله ﷻ ا. هـ

وبوب البخاري (٩/ ٣٤) على إثبات الميزان وما يوزن فيه بقوله: باب: قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ [الأنبياء: ٤٧] وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن ا. هـ

وقال الطحاوي في عقيدته المشهورة: ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان ا. هـ.

وقال ابن بطة في الإبانة (ص ٩٧): وقد اتفق أهل العلم بالأخبار والعلماء الزهاد العباد في جميع الأمصار: أن الإيمان بذلك - يعنى الميزان - واجب لازم ا. هـ

=

=

وقال السفاريني في لوامع الأنوار (٢/ ١٨٤).: والحاصل: أن الإيمان بالميزان ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ا. هـ

وقال البرديسي في تكملة شرح الصدور (ص ١٥): اعلم أن الموازين حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ا. هـ

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ١/ ٢٦١ - ٢٦٣): وفي الحديث -أي حديث البطاقة- دليل على أن ميزان الأعمال له كفتان مشاهدتان وأن الأعمال وإن كانت أعراضا فإنها توزن، والله على كل شيء قدير، وذلك من عقائد أهل السنة، والأحاديث في ذلك متضافرة إن لم تكن متواترة ا. هـ

وقال العلامة الألباني أيضا في الصحيحة (١/ ١/ ٢٥٩ - ٢٦٠): أن الميزان يوم القيامة حق ثابت وله كفتان، وهو من عقائد أهل السنة خلافًا للمعتزلة وأتباعهم في العصر الحاضر ممن لا يعتقد ما ثبت من العقائد في الأحاديث الصحيحة، بزعم أنها أخبار آحاد لا تفيد اليقين... ا. هـ

وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة والإجماع، وقد رد عليهم علماء أهل السنة كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

مسألة: هل هو ميزان واحد تورزن به أعمال العباد أم موازين متعددة؟

اختلف أهل العلم هل هو ميزان واحد تورزن به أعمال العباد أم أن الموازين متعددة ولكل شخص ميزانه الخاص، فمن قال بالتعدد استدلوا بأن الميزان قد ورد في بعض الآيات بصيغة الجمع، مثل قوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) الأنبياء / ٤٧. ومن قال بأنه واحد استدلوا بمثل قول النبي ﷺ: (يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات و الأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي...). وحملوا الآية التي

=

=

ورد فيها الميزان بصيغة الجمع على تعدد الموزونات من الأعمال والأقوال والصحف والأشخاص. فقالوا: إنه جمع الأشياء التي توزن فيه.

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٣٧): الموازين جمع ميزان وأصله موزان فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، واختلف في ذكره هنا بلفظ الجمع هل المراد أن لكل شخص ميزانا أو لكل عمل ميزان فيكون الجمع حقيقة أو ليس هناك إلا ميزان واحد والجمع باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص، ويدل على تعدد الأعمال قوله تعالى: {ومن خفت موازينه} ويحتمل أن يكون الجمع للتفخيم، كما في قوله تعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين} مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحد، والذي يترجح أنه ميزان واحد ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا ا. هـ وسئل العلامة اللألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٩/ ٣٦٤): قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} (الأنبياء:٤٧) فهل الميزان يوم القيامة واحد أم عدة موازين؟

فأجاب: لا شك أن لفظ القرآن لا يجوز تغييره وتبديله، فما دام أن الله ﷻ أطلق لفظة الموازين فهي موازين، ولا مانع أن تكون هذه الموازين كما نعلم من أمور الغيب مختلفة، وليس ينبغي أن نتصورها ميزانًا معينًا، كيف والموازين في الدنيا الآن قد تعددت وتنوعت، فمن باب أولى أن يكون يوم القيامة أن تكون هناك موازين متعددة، فما دام أن الله ﷻ جمع الموازين في مثل هذا اللفظ القرآني فاعتقد أنه من التعطيل بمكان أن يفسر الموازين: بالميزان، وهذا ليس من طريقة السلف. ا. هـ

وقال العلامة العثيمين في شرح العقيدة السفارينية (ص٤٧٣): بقي البحث في: هل الميزان واحد توزن به الأعمال كلها، أو أن لكل أمة ميزانًا؛ حيث إن الأمم تتفاضل في الثواب، أو أن لكل شخص ميزانًا؟

=

=

في هذا أقوال للعلماء؛ فمنهم من قال: لكل شخص ميزان، ومنهم من قال: لكل أمة ميزان، ومنهم من قال: الميزان واحد.

ولنستعرض الآيات الدالة على الميزان وما تدل عليه، قال تعالى (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف: ٨)، وهذا الدليل لا يدل على تعدد، ولا على إفراد، لأنه قال: الوزن.

ولكن هناك أدلة تذكر الميزان مثل قوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (الأنبياء: الآية٤٧)، والموازين هنا جمع.

وفي حديث: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان)، والميزان هنا مفرد، فمن قالوا بما يقتضيه الجمع قالوا بأن المراد بالميزان في قوله: (ثقيلتان في الميزا) الجنس، ومن قالوا بأن الميزان واحد، قالوا: إن الجمع في الآية باعتبار الموزون.

والذي يظهر لي - والله أعلم - إن الموازين متعددة بحسب الأمم؛ لأن الأمم تتفاضل في الأعمال، وإذا كانت تتفاضل في الأعمال لزم أن تكون موازين أعمالها مختلفة.

ولهذا كانت هذه الأمة - ولله الحمد - توفي سبعين أمة، وهي أكرمها عند الله ﷻ، وهي اقلها زمنا وأكثرها أجرا، فزمنها من العصر إلى الغروب، ويعطون أجرهم مرتين، إذًا لا يمكن أن يكون ميزان هؤلاء كميزان الآخرين.

ثم إن رجحان الحسنات معناه أن تنزل الكفة، لا أن ترتفع الكفة، فهي لما تثقل تنزل، وفي حديث البطاقة طاشت السجلات أي ارتفعت، وعلى هذا يكون الوزن من جهة نزول الكفة إذا ثقلت كالوزن في الدنيا.

وأما من قال: إن رجحان الحسنات يكون إذا ارتفعت، وأن هذا هو الثقل، فهذا غير صحيح، وهو خلاف المحسوس، نسأل الله أن يثقل موازيننا يوم القيامة.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠).

{وَلَقَدْ مَكَّنَاكُمْ} يَا بَنِي آدَم {فِي الْأَرْض وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِش} بِالْيَاءِ أَسْبَابًا تَعِيشُونَ بِهَا جَمْع مَعِيشَة {قَلِيلًا مَا} لِتَأْكِيدِ الْقِلَّة {تَشْكُرُونَ} عَلَى ذَلِك.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١).

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ} أَيْ أَبَاكُمْ آدَم {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} أَيْ صَوَّرْنَاهُ وَأَنْتُمْ فِي ظَهْره {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اُسْجُدُوا لِآدَم} سُجُود تَحِيَّة بِالِانْحِنَاءِ {فَسَجَدُوا إلَّا إبْلِيس} أَبَا الْجِنّ كَانَ بَيْن الْمَلَائِكَة {لم يكن من الساجدين}[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ} [الأعراف: ١٠].

يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جَعَل الأرض قرارًا، وجعل لها رواسي وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا، وأباح منافعها، وسَخَّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها.

قال الزمخشري: يعني: " جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا".

قال القرطبي: " أي: جعلناها لكم قرارا ومهادا".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ولقد وطَّأْنا لكم، أيها الناس، في الأرض، وجعلناها لكم قرارًا تستقرُّون فيها، ومهادًا تمتهدونها، وفراشًا تفترشونها".

قال الرازي: "أي جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا ومكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها".

قال ابن عاشور: "أي جعلنا لكم قدرة، أي أقدَرناكم على أمور الأرض وخوّلناكم التّصرف في مخلوقاتها، وذلك بما أودع الله في البشر من قوّة العقل والتفكير التي أهلته لسيادة هذا العالم والتّغلّب على مصاعبه، وليس المراد من التّمكين هنا =

=

القـوّة والحكـم كـالمراد في قولـه تعـالى (إنـا مكنـا لـه في الأرض) لأنّ ذلـك لـيس حاصلًا بجميع البشر إلاّ على تأويل".

قـال الـسعدي: " أي: هيأناهـا لكـم، بحيـث تتمكنـون مـن البنـاء عليهـا وحرثهـا، ووجوه الانتفاع بها".

عن قتادة: قوله: "{ولقد مكناكم في الأرض}، يقول: أعطيناهم".

قال ابن كثير: " يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما مكن لهم مـن أنـه جَعَـل الأرض قرارًا، وجعل لها رواسي وأنهارًا، وجعـل لهـم فيهـا منـازل وبيوتًـا، وأبـاح منافعهـا، وسَخَّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ} [الأعراف: ١٠]، قولان:

أحدهما: سهلنا عليكم التصرف فيها حتى وصلتم إلى مرادكم منها.

والثاني: ملكناكم إياها حتى صرتم أحق بها.

قال الزجاج: " معنى «التمكين في الأرض»: التمليك والقدرة".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [الأعراف: ١٠].

أي: وجعلنـا لكـم مكاسـب وأسـبابًا تتجـرون فيهـا، وتتـسببون أنـواع الأسـباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلـك، كمـا قـال تعـالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ).

قال الطبـري: أي: " تعيـشون بهـا أيـام حيـاتكم، مـن مطـاعم ومـشارب، نعمـة منـي عليكم، وإحسانًا مني إليكم".

قال القرطبي: أي: " وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة. و «المعايش»: جمع معيشة، أي: ما يتعيش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة".

قال ابن كثير: " أي: مكاسـب وأسـبابًا يتجـرون فيهـا، ويتـسببون أنـواع الأسـباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قـال تعـالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا

=

=

تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: ٣٤]".

قال السعدي: أي: "مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذي هيأها، وسخر أسبابها".

قال الشنقيطي: "قوله تعالى (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) الآية، لم يبين هنا كيفية هذه المعايش التي جعل لنا في الأرض، وكلنه بين ذلك في مواضع أخر.

كقوله (فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَآئِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ).

وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ).

وقوله (وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شتى كُلُوا وارعوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى).

وذكر كثيرًا من ذلك في سورة النحل كقوله (والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) إلى غير ذلك من الآيات".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [الأعراف: ١٠]، وجوه:

أحدها: يعني: الأنعام سخرها لكم. قاله الضحاك.

والثاني: ما تعيشون به من نبات وحيوان.

قال الزجاج: " معنى: «المعايش»: يحتمل أن يكون ما يعيشون به".

والثالث: ما تتوصلون به إلى معايشكم فيها من زراعة أو عمل.

قال الزمخشري: " {معايش}، جمع: معيشة، وهي: ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها. وما يتوصل به إلى ذلك".

وقرأ عبد الرحمن الأعرج: «مَعَائِشَ»، ممدودة مهموزة.

=

=

قال أبو بكر: "وهو غلط".

قوله تعالى: {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [الأعراف: ١٠]، أي: " ومع هذا الفضل والإنعام فشكركم لنعم الله قليل".

قال الطبري: " يقول: وأنتم قليل شكركم على هذه النعم التي أنعمتها عليكم لعبادتكم غيري، واتخاذكم إلهًا سواي".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} [الأعراف: ١١]، أي: " ولقد أنعمنا عليكم بخلق أصلكم -وهو أبوكم آدم من العدم- ثم صوَّرناه على هيئته المفضلة على كثير من الخلق".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} [الأعراف: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: ولقد خلقناكم في ظهر آدم، أيها الناس، ثم صورناكم في أرحام النساء. خلقًا مخلوقًا ومثالا ممثلا في صورة آدم. وهذا قول ابن عباس، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك، والسدي.

الثاني: ولقد خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صورناكم في أرحام النساء، قاله عكرمة، والأعمش.

الثالث: ولقد خلقناكم، يعني: آدم، ثم صورناكم في ظهره، قاله مجاهد.

الرابع: خلقناكم نطفًا في أصلاب الرجال وترائب النساء، ثم صورناكم عند اجتماع النطفتين في الأرحام، وهو معنى قول الكلبي.

الخامس: خلقناكم في بطون أمهاتكم، ثم صورناكم فيها بعد الخلق بشق السمع والبصر، قاله معمر.

قال ابن كثير: "دلّ قوله تعالى(ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ) على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني

=

=

إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [البقرة: ٥٧] والمراد: آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ولكن لما كان ذلك مِنَّةً على الآباء الذين هم أصلٌ صار كأنه واقع على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} [المؤمنون: ١٢ - ١٣] فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس، لا معينا".

قال الطبري: " وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويله: {ولقد خلقناكم}، ولقد خلقنا آدم {ثم صورناكم}، بتصويرنا آدم، كما قد بينا فيما مضى من خطاب العرب الرجلَ بالأفعال تضيفها إليه، والمعنيُّ في ذلك سلفه، وكما قال جل ثناؤه لمن بين أظهر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}، [سورة البقرة: ٦٣]. وما أشبه ذلك من الخطاب الموجَّه إلى الحيّ الموجود، والمراد به السلف المعدوم، فكذلك ذلك في قوله: {ولقد خلقناكم ثم صورناكم}، معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صوَّرناه.

وإنما قلنا هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن الذي يتلو ذلك قوله: {ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم}، ومعلوم أن الله تبارك وتعالى قد أمر الملائكة بالسجود لآدم، قبل أن يصوِّر ذريته في بطون أمهاتهم، بل قبل أن يخلُق أمهاتهم.

و «ثم» في كلام العرب لا تأتي إلا بإيذان انقطاع ما بعدها عما قبلها، وذلك كقول القائل: "قمت ثم قعدت"، لا يكون "القعود" إذ عطف به بـ «ثم» على قوله: «قمت» إلا بعد القيام، وكذلك ذلك في جميع الكلام. ولو كان العطف في ذلك بالواو، جاز أن يكون الذي بعدها قد كان قبل الذي قبلها، وذلك كقول القائل:

=

«قمت وقعدت»، فجائز أن يكون «القعود» في هذا الكلام قد كان قبل «القيام»، لأن الواو تدخل في الكلام إذا كانت عطفًا، لتوجب للذي بعدها من المعنى ما وجب للذي قبلها، من غير دلالة منها بنفسها على أن ذلك كان في وقت واحد أو وقتين مختلفين، أو إن كانا في وقتين، أيهما المتقدم وأيهما المتأخر. فلما وصفنا قلنا إنّ قوله: {ولقد خلقناكم ثم صورناكم}، لا يصح تأويله إلا على ما ذكرنا.

فإن ظن ظانّ أن العربَ، إذ كانت ربما نطقت بـ «ثم» في موضع «الواو» في ضرورة شعره، كما قال بعضهم:

سَأَلْتُ رَبِيعَةَ: مَنْ خَيْرُهَا ... أَبًا ثُمَّ أُمًّا؟ فَقَالَتْ: لِمَهْ؟

بمعنى: أبًا وأمًّا، فإن ذلك جائز أن يكون نظيره فإن ذلك بخلاف ما ظن. وذلك أن كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات العرب، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذّ من لغاتها، وله في الأفصح الأشهر معنى مفهومٌ ووجه معروف".

قوله تعالى: {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} [الأعراف: ١١]، أي: " ثم أمرنا ملائكتنا عليهم السلام بالسجود له -إكرامًا واحترامًا وإظهارًا لفضل آدم-".

قد اختلف العلماء ما المراد بالملائكة:

فقيل: ملائكة الأرض فقط.

وقيل: ملائكة الأرض والسماء.

ونسبه الرازي للأكثر.

ورجحه ابن كثير، لقوله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون).

قال القاسمي: اخلتفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود، فقيل: هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض.

قال تقي الدين ابن تيمية: هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى، وقيل: هم جميع الملائكة حتى جبريل وميكائيل، وهذا قول العامة من أهل العلم

=

بالكتاب والسنة. (تفسير القاسمي).

وقال ابن تيمية: ومن قال خلافه فقد رد القرآن بالكذب والبهتان، لأنه سبحانه قال (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) وهذا تأكيد للعموم. (مجموع الفتاوي).

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: فلما صوّرنا آدم وجعلناه خلقًا سويًّا، ونفخنا فيه من روحنا، قلنا للملائكة: {اسجدوا لآدم}، ابتلاء منا واختبارًا لهم بالأمر، ليعلم الطائع منهم من العاصي".

قال ابن كثير: " ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو مُنْطَوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا} وهذا كقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ} الآية [الحجر: ٢٨ - ٣٠]، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم، عليه السلام، بيده من طين لازب، وصوره بشرًا سويا ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الرب تعالى وجلاله".

واختلف ما المراد بالسجود:

فقيل: المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء.

قال الرازي مضعفا هذا القول: ... فضعيف أيضا؛ لأن السجود لا شك أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك؛ لأن الأصل عدم التغيير.

وقيل: كان قبلة والسجدة لله.

قال ابن عثيمين: "و «السجود»، هو السجود على الأرض بأن يضع الساجد جبهته على الأرض خضوعًا، وخشوعًا؛ وليس المراد به هنا الركوع؛ لأن الله تعالى فرَّق

=

=

بين الركوع والسجود، كما في قوله تعالى: {تراهم ركعًا سجدًا} [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا} [الحج: ٧٧]".

و «السجود»، معناه في كلام العرب التذلل والخضوع، قال الشاعر:

يجمع تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

"الأكم": الجبال الصغار، جعلها سجدا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها. وعين ساجدة، أي فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض.

و «السجود» أصله: الانحناء والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته، وهو عام في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحق الثواب، نحو قوله: {فاسجدوا لله واعبدوا} [النجم:٦٢]، أي: تذللوا له، وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنبات، وعلى ذلك قوله: {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال} [الرعد:١٥]، وقوله: {يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله} [النحل:٤٨]، فهذا سجود تسخير، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة، وأنها خلق فاعل حكيم، وقوله: {ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون} [النحل:٤٩]، ينطوي على النوعين من السجود، التسخير والاختيار، وقوله: {والنجم والشجر يسجدان} [الرحمن:٦]، فذلك على سبيل التسخير، وقوله: {اسجدوا لآدم} [البقرة/ ٣٤]، قيل: أمروا بأن يتخذوه قبلة، وقيل: أمروا بالتذلل له، والقيام بمصالحه، ومصالح أولاده، فائتمروا إلا إبليس، وقوله: {ادخلوا الباب سجدا} [النساء:١٥٤]، أي: متذللين منقادين، وخص السجود في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة، وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن، وسجود الشكر، وقد يعبر به عن الصلاة بقوله: {وأدبار السجود} [ق:٤]، أي: أدبار الصلاة،

=

=

ويسمون صلاة الضحى: سبحة الضحى، وسجود الضحى، {وسبح بحمد ربك} [طه:١٣٠] قيل: أريد به الصلاة، والمسجد: موضع الصلاة اعتبارا بالسجود، وقوله: {وأن المساجد لله} [الجن:١٨]، قيل: عني به الأرض، إذ قد جعلت الأرض كلها مسجدا وطهورا كما روي في الخبر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتح خزائن الأرض فتلت في يدي".

وقيل: المساجد: مواضع السجود: الجبهة والأنف واليدان والركبتان والرجلان، وقوله: {ألا يسجدوا لله} [النمل/ ٢٥] أي: يا قوم اسجدوا، وقوله: {وخروا له سجدا} [يوسف/ ١٠٠]، أي: متذللين، وقيل: كان السجود على سبيل الخدمة في ذلك الوقت سائغا، ومنه قول الشاعر:

وافى بها لدراهم الإسجاد   من خمر ذي نطف أغن منطق

عنى بها دراهم عليها صورة ملك سجدوا له.

والإسجاد: إدامة النظر، قال أبو عمرو: وأسجد إذا طأطأ رأسه، قال:

فضول أزمتها أسجدت   سجود النصارى لأحبارها

يقول: لما ارتحلن ولوين فضول أَزِمَّة جمالهن على معاصمهن أَسْجدت لهن.

قال أبو عبيدة: وأنشدني أعرابي من بني أسد:

وقلن له أسجد لليلى فأسجدا

يعني بعيرها أنه طأطأ رأسه لتركبه.

وأخرج الطبري: "عن قتادة، قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}، فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أَسْجَد له ملائكته".

وقد استدل من فضل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة: {اسْجُدُوا لآدَمَ}، قالوا: وذلك يدل على أنه كان أفضل منهم، وفيه مناقشة.

=

=

وحكى النقاش عن مقاتل: "أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه". قال ابن عطية: "والقرآن يرد على هذا القول".

وقال قوم: "سجود الملائكة كان مرتين". قال ابن عطية: "والإجماع يرد هذا".

واختلف اهل العلم في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة، وذكروا وجهين في ذلك:

أحدهما: كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة، لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا، ومعنى "لآدم": إلى آدم، كما يقال صلى للقبلة، أي إلى القبلة. وهذا قول الجمهور.

الثاني: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض، ولكنه مبقى على أصل اللغة، فهو من التذلل والانقياد، أي اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل، {فَسَجَدُوا} أي امتثلوا ما أمروا به.

قال ابن عطية: "وفي هذه الوجوه كلها كرامة لآدم عليه السلام".

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام أم كان مباحا إلى عصر الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وفيه قولين:

أحدهما: أن ذلك السجود كان خاصا بآدم فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى.

والثاني: أن ذلك السجود كان جائزا بعد آدم إلى زمان يعقوب عليه السلام، لقوله تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف: ١٠٠] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين.

والصحيح: أن سجود التحية والإكرام كان مباحا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان

=

=

مباحا في الشرائع السابقة إلى أن نسخ في شريعتنا، ومن المعلوم أن السجود لغير الله على وجه العبادة لم يكن مباحًا في أية شريعة فكل الأنبياء نهوا عن ذلك وبلغوا أقوامهم، روي عن عبد الله بن أبي أوفى أنه: لمَّا قدِمَ معاذٌ منَ الشَّامِ سجدَ للنَّبيِّ ﷺ قالَ ما هذا يا مُعاذُ قالَ أتيتُ الشَّامَ فوافقتُهُم يسجُدونَ لأساقفتِهِم وبطارقتِهِم فوَدِدْتُ في نَفسي أن نفعلَ ذلِكَ بِكَ فقالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: " فلا تفعَلوا فإنِّي لو كُنتُ آمرًا أحدًا أن يسجُدَ لغيرِ اللهِ لأمَرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجِها والَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لا تؤدِّي المرأةُ حقَّ ربِّها حتَّى تؤدِّيَ حقَّ زوجِها ولو سألَها نفسَها وَهيَ علَى قتَبٍ لم تمنعْهُ".

ومعنى "القتب" أن العرب يعز عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة، وفي بعض طرق معاذ: ونهى عن السجود للبشر وأمر بالمصافحة.

والذي عليه جمهور أهل العلم بلا خلاف ولا نزاع بينهم أن هذا السجود من معاذ -رضي الله عنه- كان سجود تحية لا عبادة إذ كيف يجهل هذا الصحابي الجليل أن سجود العبادة لا ينبغي إلا لله.

وتجدر الاشارة بأن السجود كان فيما مضى يستعمل تحية وإكراما كما فعل أبوا يوسف وإخوته وكما فعلت الملائكة لآدم هذا من باب التحية والإكرام وليس من باب العبادة، وأما في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فإن الله -عز وجل- منع من ذلك وجعل السجود لله وحده سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يسجد لأحد لا للأنبياء ولا غيرهم، حتى محمد عليه الصلاة والسلام منع أن يسجد له أحد وأخبر أن السجود لله وحده سبحانه وتعالى، فعلم بهذا أن جميع أنواع العبادة كلها لله وحده سبحانه وتعالى، ومن أعظمها السجود فإنه ذلك وانكسار لله سبحانه وتعالى فهو من أفضل العبادات فلا يصرف لغيره من الناس لا للأنبياء ولا للجن

=

=

ولا للإنس ولا لغيرهم، والله المستعان.

قوله تعالى: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [الأعراف: ١١]، أي: " فسجدوا جميعًا، لكنَّ إبليس الذي كان معهم لم يكن من الساجدين لآدم؛ حسدًا له على هذا التكريم العظيم".

قال الطبري: " يقول: فسجد الملائكة، إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين لآدم، حين أمره الله مع مَنْ أمرَ من سائر الملائكة غيره بالسجود".

قال ابن عطية: "وتلك معصية كفر لأنها عن معتقد فاسد صدرت".

قال ابن عثيمين: " {فسجدوا}، أي: من غير تأخير؛ فالفاء هنا للترتيب، والتعقيب".

قال ابن كثير: " فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين".

ولفظة «إبليس» لغة: أبلس الرجل قُطِع به، وأبلس سكت، وأبلس من رحمة الله يئس وندم ومنه سُمِّي إبليس لأنه أبلس من رحمة الله وقيل: إبليس لا ينصرف لأنه أعجمي معرفة، والمبلس الساكت من الحزن أو الخوف، والإبلاس الحَيْرة.

فيمكن القول بأن (إبليس) (إفعِيل)، من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندمُ والحزن، ومن ذلك قوله جل ثناؤه: (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [سورة الأنعام: ٤٤]، أي: "أنهم آيسون من الخير، نادمون حزنًا"، كما قال العجَّاج:

يَا صَاحِ، هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسَا؟ قَالَ: نَعَمْ، أَعْرِفُهُ! وَأَبْلَسَا

وقال رؤبة:

وَحَضَرَتْ يَوْمَ الْخَمِيسِ الأَخْمَاسْ وَفِي الْوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلاسْ

يعني به: اكتئابًا وكسوفًا.

وأخرج الطبري " عن السُّدّيّ، قال: كان اسم إبليس (الحارث)، وإنما سمي إبليس حين أبلس متحيِّرًا".

=

=

وقال ابن عباس: " إبليس، أبلسه الله من الخير كله، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته".

وفي مفهوم الشرع لا يُوجد تعريف اصطلاحي لإبليس في الشرع، إذ هو مخلوق معروف لدى الأديان الأخرى، وهو رمزُ الشرّ عند كل شعب من الشعوب ودين من الأديان وطائفة من الطوائف، وعليه نعرّف إبليس بأنه: الجانّ الذي أبى السجود لآدم حين خلقه الله، فاستحق لعنته، وطُرِد من جنته، ووجبت له النار بعد إنظار الله له إلى يوم القيامة، وأُوتِي من وسائل الإغواء ما لم يُؤتَ أحد من العالمين.

وقد اختلف العلماء هل إبليس من الجن أم من الملائكة، على أربعة أقوال:

القول الأول: أنه كان من الملائكة:

ذهب بعض أهل العلم إلى أن إبليس كان من الملائكة فلما عصى الله تعالى أخرجه من صف الملائكة، وقال به من العلماء: ابن عباس في رواية عنه وابن مسعود، وقتادة، ومحمد بن إسحاق، وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب، ورجحه ابن جرير الطبري بل وانتصر له، ورجحه البغوي، ونسبه ابن عطية والقرطبي والشوكاني إلى أنه قول الجمهور.

واستدلوا أولئك بقول الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤]، فلو لم يكن إبليس من الملائكة لم يؤمر بالسجود ولم يؤاخذ بالعصيان.

وهذا الاستدلال ضعيف جدًا، فتنوعت إجابات العلماء عن هذا الدليل:

- قال ابن تيمية عن إبليس: "كان منهم (أي من الملائكة) باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله".

- وقال ابن كثير: "وذلك أنه (أي إبليس) كان قد توسّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم

=

=

وتعبد وتنسك فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة".

- وقال ابن عثيمين: "وإنما استثناه الله من الملائكة لأنه كان معهم وليس منهم يبين ذلك آية الكهف (وكان من الجن).. ثم قال: وهذا الاستثناء يسمى استثناء منقطعا، كما تقول: (جاء القوم إلا حمارا) وهو كلام عربي فصيح فاستثنى الحمار من القوم وإن لم يكن منهم".

القول الثاني: أنه من الجن: وقال به من العلماء: ابن عباس" في رواية أخرى والحسن البصري" - صححه عنه ابن كثير- وسعد بن مسعود و شَهر بن حَوْشب وابن زيد، ورجحه ابن تيمية والسيوطي والزمخشري وابن كثير والشنقيطي - صاحب الأضواء - وابن عثيمين والشيخ أبو بكر الجزائري.

ولهذا ذهب عامة أهل العلم إلى أن إبليس وذريته لم يكونوا قط من الملائكة، ويدل على ذلك عدة أدلة:

أحدها: قول الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠]، فبين الله أن سبب فسقه كونه من الجن، أي أنه من عنصر أو من جنس آخر غير الملائكة، أما الاستثناء في قوله تعلى: (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)، فإنه استثناء منقطع أي أن (إلا) هنا بمعنى (لكن)، وهو كقوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)} [النبأ: ٢٤ - ٢٥]، هذا الاستثناء منقطع لأن الحميم والغساق ليس من البرد والشراب والمعنى: لكن يطعمون الحميم والغساق.

والثاني: وقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠].

=

=

وهنا نص الله أن له ذرية يعني (نسل) وهم الجن، والملائكة لانسل لهم. فلو كان ملكا لم يكن له نسل.

والثالث: أن إبليس مخلوق من نار كما قال تعالى حاكيا عن إبليس: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢]، والملائكة مخلوقة من نور لما في صحيح مسلم عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: " خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من نار وخلق آدم مما وُصف لكم". ففرق الرسول ﷺ بين خلق الملائكة وخلق الجن.

والرابع: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]. فلو كان إبليس ملكا ماعصى الله.

والخامس: أن الجن الذين هم ذرية إبليس، لهم شهوة للطعام والشراب وغيره، وليس للملائكة شهوة دل على ذلك عدة نصوص منها:

ـ أن الجن سألوا الرسول ﷺ لما اجتمعو به عن طعامهم فقال: "كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر مايكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم.. فلاتستنجو بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن".

ـ قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠]، والذرية لابد لها من شهوة.

ـ قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٥٦]

ـ حديث: "فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله".

فالملائكة من صفتهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويسبحون الليل ولا يفترون،

=

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢).

{قال} تعالى {ما منعك أ} {لا} زائدة {تسجد إذ} حين {أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين}[١].

=

وما فعله إبليس يعد معصية ولا يتناسب مع صفات الملائكة.

القول الثالث: أن إبليس كان أصله من الملائكة فمسخه الله من الجن لما عصاه. قال به من العلماء: ابن عباس في رواية، ودليل هذا القول: أنه تفسير صحابي.

القول الرابع: وهو قول أشار إليه الشيخ ابن تيمية- رَحِمَهُ اللَّهُ- في هذه المسألة، فقال: " الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله"، ولكن هذا القول ليس عليه دليل.

والراجح: أن إبليس لم يكن من الملائكة، وهو الصحيح، لقوة أدلته. وهو الذي عليه المحققون من أهل العلم-والله تعالى أعلم-.

وإبليس: اسم مشتق من الإبلاس، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس وفعله بلس. والراجح أنه اسم أعجمي، ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة وهو كائن حي، وقد أخطأ وزل من حمله على معنى داعي الشر الذي يخطر في النفوس، إذ ليس من المعقول أن يكون ذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه. قال- تعالى-: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ.

(١) قوله تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} [الأعراف: ١٢].

أى: قال الله- تعالى- لإبليس: ما ألزمك واضطرك إلى أن لا تسجد لآدم؟ فالمنع مجاز عن الإلجاء والاضطرار، أو ما حملك ودعاك إلى ألا تسجد؟ فالمنع مجاز عن الحمل، والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

و (لا) في قوله: أَلَّا تَسْجُدَ مزيدة للتنبيه على أن الموبخ عليه ترك السجود. وتوكيد

=

=

لمعنى الفعل الذي دخلت عليه وتحقيقه، كأنه قيل: ما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك.

قال الطبري: " وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيله لإبليس، إذ عصاه فلم يسجد لآدم إذ أمره بالسجود له. يقول: قال الله لإبليس: أيّ شيء منعك أن تدع السجود لآدم {إذ أمرتك}، أن تسجد".

قال صاحب الكشاف: " فإن قلت: لم سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟

قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقدا أنه غير واجب عليه، لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب".

قوله تعالى: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} [الأعراف: ١٢]، أي: " فقال إبليس: أنا أفضل منه خلقًا".

قال الطبري: " يقول: قال إبليس: أنا خير من آدم".

قوله تعالى: {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢].

أي: قال إبليس أنا خير من آدم، لأنى مخلوق من عنصر النار الذي هو أشرف من عنصر الطين، والأشرف لا يليق به الانقياد لمن هو دونه.

قال الطبري: " إنه خبرٌ من الله جل ثناؤه عن جواب إبليس إياه إذ سأله: ما الذي منعه من السجود لآدم، فأحوجه إلى أن لا يسجد له، واضطره إلى خلافه أمرَه به، وتركه طاعته أنّ المانعَ كان له من السجود، والداعيَ له إلى خلافه أمر ربه في ذلك: أنه أشد منه أيْدًا، وأقوى منه قوة، وأفضل منه فضلا لفضل الجنس الذي منه خلق، وهو النارُ، على الذي خلق منه آدم، وهو الطين. فجهل عدوّ الله وجه الحق، وأخطأ سبيل الصواب. إذ كان معلومًا أن من جوهر النار الخفة والطيش

=

=

والاضطراب والارتفاع علوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حملَ الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق، على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطبَ والهلاكَ. وكان معلومًا أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبُّت، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك، كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق، إلى التوبة من خطيئته، ومسألته ربَّه العفوَ عنه والمغفرة. ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: «أول مَنْ قاسَ إبليس»، يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قوله، وبعده من إصابة الحق، في الفضل الذي خص الله به آدم على سائر خلقه: من خلقه إياه بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاده له الملائكة، وتعليمه أسماء كلِّ شيء، مع سائر ما خصه به من كرامته. فضرب عن ذلك كلِّه الجاهلُ صفحًا، وقصد إلى الاحتجاج بأنه خُلق من نار وخلق آدم من طين!! وهو في ذلك أيضًا له غير كفء، لو لم يكن لآدم من الله جل ذكره تكرمة شيء غيره، فكيف والذي خصّ به من كرامته يكثر تعداده، ويملّ إحصاؤه؟".

قال ابن كثير: "وقول إبليس- لعنه الله- أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ.. إلخ. من العذر الذي هو أكبر من الذنب، إذ بين بأنه خير من آدم لأنه خلق من النار وآدم خلق من الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله- تعالى- خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسا فاسدا في مقابلة نص، وهو قوله- تعالى-: فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ، فشذ من بين الملائكة لترك السجود فأبعده الله عن رحمته، وكان قياسه فاسدا لأن النار ليست أشرف من الطين، فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبت، وهو محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس

=

=

عنصره، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله. وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: «قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»".

قال ابن سيرين: " أوّل من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس". وروي عن الحسن نحو ذلك".

قال ابن عباس: " لما خلق الله آدم قال للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة، دون الملائكة الذين في السموات: {اسجدوا لآدم}، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر، لما كان حدَّث نفسه، من كبره واغتراره، فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سنًّا، وأقوى خلقًا، خلقتني من نار وخلقته من طين! يقول: إنّ النار أقوى من الطين".

وروي عن مجاهد قوله: "{خلقتني من نار}، قال: ثم جعل ذريته من ماء".

قال صاحب الكشاف: " فإن قلت: كيف يكون قوله أنا خير منه جوابا لما منعك، وإنما الجواب أن يقول: منعني كذا؟ قلت: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم، وبعلة فضله عليه، وهو أن أصله من نار وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه، وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأمورا بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعدا أن يؤمر بما أمر به".

قال ابو الحسن الأشعري: " وأجمعوا على أنه ليس لأحد من الخلق الاعتراض على الله تعالى في شيء من تدبيره، ولا إنكار لشيء من فعله إذْ كان مالكًا لما يشاء منها غير مملوك وأنه تعالى حكيم قبل أن يفعل سائر الأفعال، وأن جميع ما يفعله لا يخرجه عن الحكمة، وأن من يعترض عليه في أفعاله متبع لرأي الشيطان حين امتنع من السجود لآدم عليه السلام وزعم أن ذلك فساد في التدبير وخروج من الحكمة

=

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)

{قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا} أَيْ مِنْ الْجَنَّة وَقِيلَ مِنْ السَّمَاوَات {فَمَا يَكُون} يَنْبَغِي {لَك أَنْ تَتَكَبَّر فِيهَا فَاخْرُجْ} مِنْهَا {إِنَّك مِنْ الصَّاغِرِينَ} الذليلين[1].

=

حين قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}".

(١) قوله تعالى: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا} [الأعراف: ١٣].

جملة استئنافية كالتي قبلها والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مخالفته للأمر أي اهبط من السماء التي هي محل المطيعين من الملائكة الذين لا يعصون الله فيما أمرهم إلى الأرض التي هي مقر من يعصي ويطيع فإن السماء لا تصلح لمن يتكبر ويعصي أمر ربه مثلك، وقيل اهبط من الجنة والهبوط النزول والإنحدار من فوق إلى أسفل على سبيل القهر والهوان والاستخفاف ومن التفاسير الباطلة ما قيل: أن معنى أهبط منها أي أخرج من صورتك النارية التي افتخرت بها إلى صورة مظلمة مشوهة، وقيل المراد هبوطه من زمرة الملائكة.

قال الطبري: " يعني: من الجنة".

قال الزمخشري: أي: " من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة، إلى الأرض التي هي مقر العاصين المتكبرين من الثقلين".

قال ابن كثير: " يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمر قدري كوني: {فَاهْبِطْ مِنْهَا}، أي: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي".

وفي قوله تعالى: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا} [الأعراف: ١٣]، أربعة وجوه:

أحدهما: أنه أُهْبِط من السماء لأنه كان فيها، قاله الحسن.

الثاني: أراد به: من الجنة.

الثالث: أنه أهبط من المنزلة الرفيعة التي استحقها بطاعة الله إلى المنزلة الدَّنِيَّةِ التي استوجبها لمعصيته، قاله ابن بحر.

=

=

الرابع: أراد به: من الأرض؛ فإن الله – تعالى – لما طرده؛ أخرجه من الأرض إلى جزائر البحر، وكان من قبل له ملك الأرض، حتى قيل: إنه لا يدخل الأرض إلا خائفا، سارقا، على هيئة شيخ عليه أطمار. ذكره السمعاني.

قوله تعالى: {فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا} [الأعراف: ١٣].

أي في الجنة لأنه لا ينبغي أن يسكن في الجنة أو السماء متكبر مخالف لأمر الله ﷻ، ولا يتوهم أنه يجوز أن يتكبر في غيرها لأن التقدير ما يكون لك أن تتكبر فيها ولا في غيرها وعلى هذا لا مفهوم لها.

قال الطبري: " يقول: فليس لك أن تستكبر في الجنة عن طاعتي وأمري، فإن قال قائل: هل لأحد أن يتكبر في الجنة؟ قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبتَ، وإنما معنى ذلك: فاهبط من الجنة، فإنه لا يسكن الجنة متكبر عن أمر الله، فأما غيرها، فإنه قد يسكنها المستكبر عن أمر الله، والمستكين لطاعته".

قال ابن كثير: " قال كثير من المفسرين: الضمير -في قوله: {فِيهَا} -عائد إلى «الجنة»، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى".

قوله تعالى: {فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} [الأعراف: ١٣]، أي: " فاخرج من الجنة، إنك من الذليلين الحقيرين".

قال الطبري: " يقول: فاخرج من الجنة، إنك من الذين قد نالهم من الله الصَّغَار والذلّ والمَهانة".

قال ابن كثير: " أي: الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده، مكافأة لمراده بضده".

قال الزمخشري: أي: " من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاغرا، إذا أهنته. وفي ضده: قم راشدا. وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار. وعن عمر رضى الله عنه:

=

قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤).

{قَالَ أَنْظِرْنِي} أَخِّرْنِي {إِلَى يَوْم يُبْعَثُونَ} أَيْ الناس.

قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥).

{قَالَ إنَّك مِنْ الْمُنْظَرِينَ} وَفِي آيَة أُخْرَى {إِلَى يَوْم الْوَقْت الْمَعْلُوم} أَيْ يَوْم النَّفْخَة الأولى[1].

=

«من تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: انتعش أنعشك الله. ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض»".

قال السدي: " «الصغار»، هو الذل".

وجملة (إنك من الصاغرين) تعليل للأمر بالخروج أي: إنك من أهل الصغار والهوان على الله وعلى صالحي عباده يذمك كل إنسان، ويلعنك كل لسان لتكبرك، وبه علم أن الصغار لازم للاستكبار فكل من تردى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان والصغار، ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع، وقال الزجاج: استكبر عدو الله إبليس فابتلاه الله بالصغار والذلة والصغار بالفتح الذل والضيم وكذا الصغر والصاغر الذليل والراضي بالضيم.

(١) قوله تعالى: {قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الأعراف: ١٤].

جملة استئنافية أي أمهلني إلى يوم البعث وكأنه طلب أن لا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده والضمير في يبعثون لآدم وذريته أي يبعثون من قبورهم بالنفخة الثانية عند قيام الساعة.

قال السمعاني: " أي: أمهلني، سأل المهلة إلى القيامة".

قال القرطبي: " سأل النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب. طلب ألا يموت، لأن يوم البعث لا موت بعده".

=

=

قال الطبري: " أي: أخّرني وأجّلني، وأنسئْ في أجلي، ولا تمتني إلى يوم يبعث الخلق... وهذه أيضًا جَهْلة أخرى من جَهَلاته الخبيثة. سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه. وذلك أنه سأل النَّظِرة إلى قيام الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق. ولو أعطي ما سأل من النَّظِرة، كان قد أعطي الخلودَ وبقاءً لا فناء معه، وذلك أنه لا موت بعد البعث".

قال أبو السعود: " أراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد يوم البعث".

وفي قوله تعالى: {قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الأعراف: ١٤]، وجهان:

أحدهما: أنه سأله الإنظار بالعقوبة إلى البعث وهو يوم القيامة.

والثاني: أنه سأله الإنظار بالحياة إلى يوم يبعثون وهو يوم القيامة لئلا يذوق الموت، فَأُجِيْبَ بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم، وهي النفخة الأولى ليذوق الموت بين النفختين، وهو أربعون سنة، قاله الكلبي.

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ} [الأعراف: ١٥]، أي: " قال الله تعالى: إنك ممن كتبتُ عليهم تأخير الأجل إلى النفخة الأولى في القرن".

قال الطبري: أي: " إلى يوم ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله".

قال ابن كثير: " أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا مُعَقِّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب".

قال القرطبي: " وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين، فأبى الله ذلك عليه. وقال: {إلى يوم يبعثون}، ولم يتقدم من يبعث، لأن القصة في آدم وذريته، فدلت القرينة على أنهم هم المبعوثون".

قال السمعاني: " هذا الإنظار إلى النفخة الأولى، كما قال في موضع آخر مقيدا:
=

=

{إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} [الحجر: ٣٨، ص:٨١]، وأراد به: النفخة الأولى، فإن قيل: وهل يجوز أن يجيب الله دعوة الكافر؛ حيث أجاب دعوة اللعين؟ قيل: يجوز على طريق الاستدراج والمكر والإملاء لا على سبيل الكرامة".

فإن قال قائل: "فهل أَحَدٌ مُنْظَرٌ إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له: «إنك منهم»؟

قيل: نعم، مَنْ لم يقبض الله روحه من خلقه إلى ذلك اليوم، ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المنظرين بآجالهم إليه. ولذلك قيل لإبليس: {إنك من المنظرين}، بمعنى: إنك ممن لا يميته الله إلا ذلك اليوم".

قال صاحب الكشاف: " فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم؟

قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده".

وقد بين الله مدة النظر والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) وذلك هو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم، قيل الحكمة في إنظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه.

قال النسفي: ({قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ} [الأعراف:١٥] إلى النفخة الأولى، وإنما أُجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء، وفيه تقريب لقلوب الأحباب، أي: هذا بِرِّي بمن يسيئني فكيف بمن يحبني، وإنما جسره على السؤال مع وجود الزلل منه في الحال علمه بحلم ذي الجلال).

وقال ابن كثير: (أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب).

=

=

وقال السعدي: (فلما أعلن عدو الله بعداوة الله وعداوة آدم وذريته سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم، ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم ليتبين الصادق من الكاذب ومن يطيعه ومن يطيع عدوه أجابه لما سأل فقال: {قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥)} [الأعراف:١٥]). والله أعلم.

(فائدة): في هذه الآية وما قبلها: عدل الله سبحانه بسماع قول الظالم وطلبه قبل عقابه، وهو أعلم سبحانه بظلمه وعناده وسوء قصده؛ وذلك أن الله لا ينزل عقوبة بظالم حتى يقيم الحجة عليه؛ ليقطع عذره عند نفسه قبل غيره، ومن ذلك: أن الله يقيم الحجج المادية على العباد في الآخرة بالبينات عليهم، وهو أعلم بهم؛ بالكتابة عليهم، وإشهاد الملائكة، وإشهاد جوارحهم عليهم؛ ليقطع بذلك أعذارهم؛ وهذا من كمال عدله، فجعله سبحانه على نفسه، ولم يجعله عليه أحد.

* وفي هذه الآية: أنه يجب على السلطان والقاضي أن يسمع قول الظالم والجاني ولو قامت البينات عليه من غير إقراره؛ لأن من مقاصد الحكم إقامة العدل في الظالم عند نفسه؛ حتى لا تسول له نفسه وشيطانه أنه ظلم وبغي عليه ولم يسمع قوله، أو يدعي أحد من أهله وذويه أن له حجة لم تسمع، فيقع ذلك في بعض النفوس الجاهلة، فإن وقع، فهو ظلم تسبب فيه السلطان بتقصيره بعدم سماع قول الظالم وإزالة شبهته وعناده عند نفسه ولو لم يقر بذلك عند غيره.

وهذا إذا كان في سماع الظالم المعاند، فإنه في حق المظلوم وصاحب الحق أولى وأوجب.

وإذا كانت خصومة بين اثنين أو جماعة، وجب على القاضي السماع منهما جميعا في مجلس واحد؛ حتى يستوفي الردود بينهما، ولا يجوز له أن يسمع من كل واحد في مجلس؛ حتى لا يقول في خصمه شيئا وهو غائب وعنده حجة تدفعه، وقد قال

=

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦).

{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتنِي} أَيْ بِإِغْوَائِك لِي وَالْبَاء لِلْقَسَمِ وَجَوَابه {لَأَقْعُدَنّ لَهُمْ} أَيْ لِبَنِي آدَم {صِرَاطك الْمُسْتَقِيم} أَيْ عَلَى الطَّرِيق الْمُوصِل إلَيْك.

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧).

{ثُمَّ لَآتِيَنهمْ مِنْ بَيْن أَيْدِيهمْ وَمِنْ خَلْفهمْ وَعَنْ أَيْمَانهمْ وَعَنْ شَمَائِلهمْ} أَيْ مِنْ كُلّ جهة فأمنعهم عن سلوكه قال بن عَبَّاس وَلَا يَسْتَطِيع أَنْ يَأْتِي مِنْ فَوْقهمْ لِئَلَّا يَحُول بَيْن الْعَبْد وَبَيْن رَحْمَة الله تَعَالَى {وَلَا تَجِد أَكْثَرهمْ شَاكِرِينَ} مُؤْمِنِينَ.

قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨).

{قَالَ اُخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا} بِالْهَمْزَةِ مُعَيَّبًا أَوْ مَمْقُوتًا {مَدْحُورًا} مُبْعَدًا عَنْ

=

النبي ﷺ: (يا علي، إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول؛ فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء)؛ رواه أحمد وأبو داود (١)، وعندهما عن عبد الله بي الزبير؛ قال: "قضى رسول الله ﷺ أن الخصمين يقعدان بين يدي الحكم" (٢).

ومن مقاصد الشرع في سماع أطراف الخصومة ولو تبين الظالم منهما: إقناع الباغي ببغيه، وقطع حجته عند نفسه حتى تنزل عليه العقوبة بتسليم لا بعناد، فتجد نفسه مدخلا لاتهام الشريعة وأهلها، فيتحول من الذنب والظلم إلى الكفر، ومن مقاصدها: أن تسد أبواب اتهام الشريعة وأهلها من المنافقين أو من أهل الجهل من قرابة الظالم بأن الظالم لم ينصف وقد ظلم وبغي عليه؛ لأن لديه حجة لم تسمع منه.

الرَّحْمَة {لَمَنْ تَبِعَك مِنْهُمْ} مِنْ النَّاس وَاللَّام لِلِابْتِدَاءِ أَوْ مُوَطِّئَة لِلْقَسَمِ وَهُوَ {لَأَمْلَأَن جَهَنَّم مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ} أَيْ مِنْك بِذُرِّيَّتِك وَمِنْ النَّاس وَفِيهِ تَغْلِيب الْحَاضِر عَلَى الْغَائِب وَفِي الْجُمْلَة مَعْنَى جَزَاء مِنْ الشَّرْطِيَّة أَيْ مَنْ تَبِعَك أُعَذِّبهُ(١).

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي} [الأعراف: ١٦]، أي: " قال إبليس لعنه الله: فبسبب غوائك وإضلالك لي".

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس (إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي).

قال الطبري: " يقول: فبما أضللتني".

قال الزمخشري: أي: " فبسبب إغوائك إياى".

قال ابن كثير: " يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس} إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} أي: كما أغويتني".

قال القرطبي: " أي: فبما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار. وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار، قيل: معنى الكلام القسم، أي فبإغوائك إياي لأقعدن لهم على صراطك، أو في صراطك، فحذف. دليل على هذا القول قوله في «ص»: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٢]، كأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظاما لقدره عنده. وقيل: الباء بمعنى اللام، كأنه قال: فلإغوائك إياي. وقيل: هي بمعنى مع، والمعنى فمع إغوائك إياي. وقيل: هو استفهام، كأنه سأل بأي شي أغواه؟. وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبم أغويتني؟".

ولأهل اللغة في معنى قوله تعالى: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي} [الأعراف: ١٦]، قولان:

=

=

أحدهما: أنه على معنى القسم، وتقديره: فبإغوائك لي لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

قال الطبري: " وفي هذا بيان واضح على فساد ما يقول القدرية، من أن كل من كفر أو آمن فبتفويض الله أسبابَ ذلك إليه، وأن السبب الذي به يصل المؤمن إلى الإيمان، هو السبب الذي به يصل الكافر إلى الكفر. وذلك أنّ ذلك لو كان كما قالوا: لكان الخبيث قد قال بقوله: {فبما أغويتني} ،فبما أصلحتني، إذ كان سبب «الإغواء» هو سبب «الإصلاح»، وكان في إخباره عن الإغواء إخبارٌ عن الإصلاح، ولكن لما كان سبباهما مختلفين، وكان السبب الذي به غوَى وهلك من عند الله. أضاف ذلك إليه فقال: {فبما أغويتني}".

قال أبو مودود، سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: "قاتل الله القدريّة، لإبليس أعلمُ بالله منهم!".

والثاني: أنه على معنى المجازاة، تقديره: فلأنك أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

وفي معنى قوله: {أَغْوَيْتَنِي} [الأعراف: ١٦]، أربعة أقوال:

أحدها: معناه أضللتني، قاله ابن عباس، وابن زيد.

قال القرطبي: "و «الإغواء»: الإضلال والإبعاد".

والثاني: معناه خيبتني من جنتك، او من رحمتك، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَد النَّاس أَمْرَهُ   وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيّ لائما

أي: ومن يخب.

والثالث: معناه: عذبتني، كقوله تعالى: {فَسَوْفَ يَلْقَونَ غَيًا} [مريم: ٥٩] أي عذابًا، قاله الحسن.

والرابع: معناه: أهلكتني بلعنك لي.

=

=

قال القرطبي: "و «الإغواء»: الإهلاك، قال الله تعالى: {فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًا} [مريم: ٥٩]، أي: هلاكا".

يقال: غوى الفصيل إذا أشفى على الهلاك بفقد اللبن، قال الشاعر:

مُعَطَّفَةُ الأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُهَا بِرَازِئِهَا دَرًّا وَلا مَيِّتٍ غَوَى

وأصل «الإغواء» في كلام العرب: تزيين الرجل للرجل الشيء حتى يحسّنه عنده، غارًّا له، وقد حكي عن بعض قبائل طيئ، أنها تقول: "أصبح فلان غاويًا"، أي: أصبح مريضًا.

قوله تعالى: {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [الأعراف: ١٦].

أي: لأقعدن لعبادك -الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه -على (صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي.

- قال الرازي: المراد منه أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها، ولهذا المعنى ذكر القعود لأن من أراد أن يبالغ في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود ومواظبته على الإفساد هي مواظبته على الوسوسة حتى لا يفتر عنها.

قال الصابوني: أي: " لأقعدنَّ لآدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة الموصل للجنة كما يقعد القُطّاع للسابلة".

قال الطبري: **"** يقول: لأجلسن لبني آدم"صراطك المستقيم"، يعني: طريقك القويم، وذلك دين الله الحق، وهو الإسلام وشرائعه، وإنما معنى الكلام: لأصدَّن بني آدم عن عبادتك وطاعتك، ولأغوينهم كما أغويتني، ولأضلنهم كما أضللتني".

عن سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرِقَةٍ،

=

=

فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذرُ دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل؟ فعصاه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جَهْدُ النفس والمال، فقال: أتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد".

وفي قوله تعالى: {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [الأعراف: ١٦]، وجهان من التفسير:

أحدهما: طريق مكة ليصد عن قصدها في الحج والعمرة، قاله عون بن عبد الله.

قال الطبري: وهذا القول"وإن كان من صراط الله المستقيم، فليس هو الصراط كله. وإنما أخبر عدوّ الله أنه يقعد لهم صراط الله المستقيم، ولم يخصص منه شيئًا دون شيء. فالذي روي في ذلك عن رسول الله ﷺ، أشبهُ بظاهر التنزيل، وأولى بالتأويل، لأن الخبيث لا يألو عباد الله الصدَّ عن كل ما كان لهم قربة إلى الله".

والثاني: طريق الحق ليصد عنها بالإغواء، قاله مجاهد، واختاره الطبري.

(تنبيه) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٣٩): وأما القدرية الإبليسية فهم الذين يقرون بوجود الأمر والنهي من الله ويقرون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه لكن يقولون: هذا فيه جهل وظلم. فإنه بتناقضه يكون جهلا وسفها وبما فيه من عقوبة العبد بما خلق فيه يكون ظلما. وهذا حال إبليس. فإنه قال {بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين} . فأقر بأن الله أغواه ثم جعل ذلك عنده داعيا يقتضي أن يغوي هو ذرية آدم. وإبليس هو أول من عادى الله وطغى في خلقه وأمره وعارض النص بالقياس. ولهذا يقول بعض السلف: أول من قاس إبليس. فإن الله أمره بالسجود لآدم فاعترض على هذا الأمر بأني خير منه وامتنع من السجود. فهو أول من عادى الله وهو الجاهل الظالم الجاهل بما في أمر الله من الحكمة الظالم باستكباره الذي جمع فيه بين بطر الحق وغمط الناس. ثم

=

=

قوله لربه " فبما أغويتني لأفعلن " جعل فعل الله الذي هو إغواؤه له حجة له وداعيا إلى أن يغوي ابن آدم. وهذا طعن منه في فعل الله وأمره وزعم منه أنه قبيح فأنا أفعل القبيح أيضا. فقاس نفسه على ربه ومثل نفسه بربه. ولهذا كان مضاهيا للربوبية كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ {: إن إبليس ينصب عرشه على البحر ثم يبعث سراياه فأعظمهم فتنة أقربهم إليه منزلة. فيجيء الرجل فيقول: ما زلت به حتى فعل كذا. ثم يجيء الآخر فيقول: ما زلت به حتى فرقت بينه وبين زوجته فيلتزمه ويدنيه منه ويقول: أنت أنت} والقدرية قصدوا تنزيه الله عن السفه وأحسنوا في هذا القصد. فإنه سبحانه مقدس عما يقول الظالمون من إبليس وجنوده علوا كبيرا حكم عدل. لكن ضاق ذرعهم وحصل عندهم نوع جهل اعتقدوا معه أن هذا التنزيه لا يتم إلا بأن يسلبوه قدرته على أفعال العباد وخلقه لها وشمول إرادته لكل شيء. فناظروا إبليس وحزبه في شيء واستحوذ عليهم إبليس من ناحية أخرى. وهذا من أعظم آفات الجدال في الدين بغير علم أو بغير الحق. وهو الكلام الذي ذمه السلف فإن صاحبه يرد باطلا بباطل وبدعة ببدعة. فجاء طوائف ممن ناظرهم من أهل الإثبات ليقرروا أن الله خالق كل شيء ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه على كل شيء قدير. فضاق ذرعهم وعلمهم واعتقدوا أن هذا لا يتم إن لم ننكر محبة الله ورضاه وما خص به بعض الأفعال دون بعض من الصفات الحسنة والسيئة؛ وننكر حكمته ورحمته فيجوز عليه كل فعل لا ينزه عن ظلم ولا غيره من الأفعال. وزاد قوم في ذلك حتى عطلوا الأمر والنهي والوعد والوعيد رأسا. ومال هؤلاء إلى الإرجاء كما مال الأولون إلى الوعيد. فقالت الوعيدية كل فاسق خالد في النار لا يخرج منها أبدا؛ وقالت الخوارج: هو كافر. وغالية المرجئة أنكرت عقاب أحد من أهل القبلة. ومن صرح بالكفر أنكر الوعيد في الآخرة رأسا كما يفعله طوائف من الاتحادية والمتفلسفة

=

=

والقرامطة والباطنية. وكان هؤلاء الجبرية المرجئة أكفر بالأمر والنهي والوعد والوعيد من المعتزلة الوعيدية القدرية. وأما مقتصدة المرجئة الجبرية الذين يقرون بالأمر والنهي والوعد والوعيد وأن من أهل القبلة من يدخل النار فهؤلاء أقرب الناس إلى أهل السنة. وقد روى الترمذي {عن النبي ﷺ أنه قال: لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبيا أنا آخرهم}. لكن المعتزلة من القدرية أصلح من الجبرية والمرجئة ونحوهم في الشريعة علمها وعملها. فكلامهم في أصول الفقه وفي اتباع الأمر والنهي خير من كلام المرجئة من الأشعرية وغيرهم. فإن كلام هؤلاء في أصول الفقه قاصر جدا وكذلك هم مقصرون في تعظيم الطاعات والمعاصي. ولكن هم في أصول الدين أصلح من أولئك فإنهم يؤمنون من صفات الله وقدرته وخلقه بما لا يؤمن به أولئك. وهذا الصنف أعلى فلهذا كانت المرجئة في الجملة خيرا من القدرية حتى إن الإرجاء دخل فيه الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم بخلاف الاعتزال. فإنه ليس فيه أحد من فقهاء السلف وأئمتهم.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ} [الأعراف: ١٧]، أي: "ثم آتي عبادك من كل جهة من الجهات الأربع لأصدّهم عن دينك".

وفي تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ} [الأعراف: ١٧]، سبعة أقوال:

أحدها: {مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ}، أي: أشككهم في آخرتهم،} وَمِنْ خَلْفِهِمْ}، أرغبهم في دنياهم، {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ}: أي من قبل حسناتهم، {وَعَن شَمَآئِلِهِم}، من قبل سيئاتهم، قاله ابن عباس، وروي عن قتادة نحو ذلك.

الثاني: {مِنّ بَيْنِ أيْدِيهِمْ}: يعني من الدنيا، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ}: من الآخرة، {وَعَنْ

=

=

أَيْمَأنِهِمْ} : من قبل حسناتهم، {وَعَن شَمَآئِلِهِم} : من قبل سيئاتهم، وهذا مروي عن ابن عباس أيضا، وإبراهيم، والحكم، وابن جريج.

الثالث: {مِنّ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} : من قبل، دنياهم، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} : من قبل آخرتهم، {وَعَنْ أَيْمَأنِهِمْ} : الحق أشككهم فيه فأصدهم عنه، {وَعَن شَمَآئِلِهِم} : الباطل أرغبهم فيه وأزينه لهم، قاله السدي، وإبراهيم.

الرابع: {مِنّ بَيْنِ أَيْدِيهِم} } وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ} من حيث ينظرون، {وَمِنْ خَلْفِهِم} {وَعَنْ شَمَائِلِهِم} : من حيث لا يبصرون، قاله مجاهد.

الخامس: أراد من كل الجهات التي يمكن الاحتيال عليهم منها، ولم يذكر من فوقهم لأن رحمة الله تصده، ولا من تحت أرجلهم لما فيه التنفير، قاله بعض المتأخرين.

السادس: {مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم} : فيما بقي من أعمارهم فلا يقدمون على طاعة، {وَمِنْ خَلْفِهِم} : فيما مضى من أعمارهم فلا يتوبون عن معصية، {وَعَنْ أَيْمَانِهِم} : من قبل غناهم فلا ينفقونه في مشكور، {وَعَن شَمَائِلِهِمِ} : من قبل فقرهم فلا يمتنعون فيه عن محظور. أفاده الماوردي.

السابع: {مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم} : بسط أملهم، {وَمِنْ خَلْفِهِم} ، تحكيم جهلهم، {وعن أيمانهم} : فيما ييسر لهم، {وَعَن شَمَائِلِهِم} : فيما تعسر عليهم. أفاده الماوردي.

قال القرطبي: " ومن أحسن ما قيل في تأويل: {ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم} ، أي: لأصدنهم عن الحق، وأرغبنهم في الدنيا، وأشككهم في الآخرة. وهذا غاية في الضلالة. كما قال: {وَلَأُضِلَّنَّهُمْ} [النساء: ١١٩] حسب ما تقدم".

قال الطبري: " وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال: معناه: ثم لآتينهم من جميع وجوه الحقّ والباطل، فأصدّهم عن الحق، وأحسِّن لهم الباطل.

=

=

وذلك أن ذلك عَقِيب قوله: {لأقعدن لهم صراطك المستقيم}، فاخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرَهم الله أن يسلكوه، وهو ما وصفنا من دين الله دينِ الحق، فيأتيهم في ذلك من كل وجوهه، من الوجه الذي أمرهم الله به، فيصدّهم عنه، وذلك «من بين أيديهم وعن أيمانهم» ومن الوجه الذي نهاهم الله عنه، فيزيّنه لهم ويدعوهم إليه، وذلك «من خلفهم وعن شمائلهم»".

قال أبو حيان: "الظاهر أنّ إتيانه من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته وإغوائه له والجدّ في إضلاله من كل وجه يمكن ولما كانت هذه الجهات يأتي منها العدوّ غالبًا ذكرها لا أنه يأتي من الجهات الأربع حقيقة".

قال ابن عباس: " ولم يقل: «من فوقهم»، لأن الرحمة تنزل من فوقهم".

قوله تعالى: {وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: ١٧]، أي: " ولا تجد أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتك".

قال الطبري: " يقول: ولا تجد، ربِّ، أكثر بني آدم شاكرين لك نعمتَك التي أنعمت عليهم، كتكرمتك أباهم آدم بما أكرمته به، من إسجادك له ملائكتك، وتفضيلك إياه عليَّ و «شكرهم إياه»، طاعتهم له بالإقرار بتوحيده، واتّباع أمره ونهيه".

وعن ابن عباس قوله: "{ولا تجد أكثرهم شاكرين}، يقول: موحِّدين".

فإن قيل: فكيف علم إبليس ذلك؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنه ظن ذلك فصدق ظنه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِم إِبْلِيس ظَنَّهُ} [سبأ: ٢٠]، وسبب ظنه أنَّه لما أغوى آدم واستزله قال: ذرية هذا أضعف منه، قاله الحسن.

والثاني: أنه يجوز أن يكون علم ذلك من جهة الملائكة بخبر من الله.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (ولا تجد أكثرهم شاكرين) زيادة في بيان قوّة إضلاله

=

=

بحيث لا يفلت من الوقوع في حبائله إلاّ القليل من النّاس، وقد عَلِم ذلك بعلم الحدس وترتيب المسبّبات.

وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ).

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها.

قوله تعالى: {قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا} [الأعراف: ١٨]، أي: " قال الله تعالى لإبليس: اخرج من الجنة ممقوتًا مطرودًا".

قال قتادة: " يقول: اخرج منها لعينًا منفيًّا".

قال الطبري: " وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن إحلاله بالخبيث عدوِّ الله ما أحلّ به من نقمته ولعنته، وطرده إياه عن جنته، إذ عصاه وخالف أمره، وراجعه من الجواب بما لم يكن له مراجعته به. يقول: قال الله له عند ذلك: {اخرج منها}، أي من الجنة، {مذؤُومًا مدحورًا}، يقول: مَعِيبًا".

وفي قوله تعالى: {مَذْءُومًا} [الأعراف: ١٨]، خمسة أقوال:

أحدها: يعني مذمومًا، قاله ابن زيد، وقرأ الأعمش «مذومًا».

والثاني: لئيمًا، قاله الكلبي.

والثالث: مقيتا، قاله ابن عباس.

صغيرا منفيا. مروي عن ابن عباس أيضا.

والرابع: منفيًا، قاله مجاهد، والربيع، والسدي.

والخامس: أنه شدة العيب، وهو أسوأ حالًا من المذموم، قاله الطبري، والأخفش، قال الشاعر:

=

وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩).

=

صَحِبْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَذِيمُهَا

وقال عامر بن جذامة:

جذامة لم يأخذوا الحق بل زاغت قلوبهم قبل القتال ذأمًا

وفي قوله تعالى: {مَدْحُورًا} [الأعراف: ١٨]، وجوه:

أحدها: المدفوع.

الثاني: المطرود، قاله مجاهد، والسدي.

والثالث: المصغر. قاله الربيع.

قال الطبري: " «المدحور»: فهو المُقْصَى، يقال: دحره يدحَرُه دَحْرًا ودُحُورًا، إذا أقصاه وأخرجه، ومنه قولهم: ادحَرْ عنكَ الشيطان".

قوله تعالى: {لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأعراف: ١٨]، أي: " لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك من بني آدم أجمعين".

قال الطبري: " وهذا قسم من الله جل ثناؤه. أقسم أن مَنْ اتبع من بني آدم عدوَّ الله إبليس وأطاعه وصَدَّق ظنه عليه، أن يملأ من جميعهم، يعني: من كفرة بني آدم تُبّاع إبليس، ومن إبليس وذريته جهنم. فرحم الله امرًا كذّب ظن عدوِّ الله في نفسه، وخيَّب فيها أمله وأمنيته، ولم يمكّن من طمعَ طمعٍ فيها عدوَّه، واستغشَّه ولم يستنصحه، فإن الله تعالى ذكره إنما نبّه بهذه الآيات عباده على قِدَم عداوة عدوِّه وعدوهم إبليس لهم، وسالف ما سلف من حسده لأبيهم، وبغيه عليه وعليهم، وعرّفهم مواقع نعمه عليهم قديمًا في أنفسهم ووالدهم ليدّبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب، فينزجروا عن طاعة عدوه وعدوهم إلى طاعته ويُنيبوا إليها".

{و} قَالَ {يَا آدَمُ اُسْكُنْ أَنْتَ} تَأْكِيد لِلضَّمِيرِ فِي اُسْكُنْ لِيَعْطِف عَلَيْهِ {وَزَوْجك} حَوَّاء بِالْمَدِّ {الْجَنَّة فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَة} بِالْأَكْلِ مِنْهَا وَهِيَ الْحِنْطَة {فتكونا من الظالمين}.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠).

{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَان} إبْلِيس {لِيُبْدِيَ} يُظْهِر {لَهُمَا ما ووري} فُوعِلَ مِنْ الْمُوَارَاة {عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتهمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَة إلَّا} كَرَاهَة {أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ} وَقُرِئَ بِكَسْرِ اللَّام {أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ} أَيْ وَذَلِكَ لَازِم عَنْ الْأَكْل مِنْهَا كَمَا فِي آيَة أُخْرَى {هَلْ أَدُلّك عَلَى شَجَرَة الْخُلْد وَمُلْك لَا يبلى}.

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١).

{وَقَاسَمَهُمَا} أَيْ أَقْسَمَ لَهُمَا بِاَللهِ {إنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ} فِي ذَلِكَ.

فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢).

{فَدَلَّاهُمَا} حَطَّهُمَا عَنْ مَنْزِلَتهمَا {بِغُرُور} مِنْهُ {فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَة} أَيْ أَكَلَا مِنْهَا {بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتهمَا} أَيْ ظَهَرَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا قُبُله وَقُبُل الْآخَر وَدُبُره وَسُمِّيَ كُلّ مِنْهُمَا سَوْأَة لِأَنَّ انْكِشَافه يَسُوء صَاحِبه {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ} أَخَذَا يُلْزِقَانِ {عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَق الْجَنَّة} لِيَسْتَتِرَا بِهِ {وَنَادَاهُمَا رَبّهمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَة وَأَقُلْ لَكُمَا إنَّ الشَّيْطَان لَكُمَا عَدُوّ مُبِين} بَيِّن الْعَدَاوَة وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِير.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣).

{قالا ربنا ظلمنا أنفسنا} بمعصيتنا {وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننا من الخاسرين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [الأعراف: ١٩]، أي: " وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة".

يذكر تعالى أنه أباح لآدم، عليه السلام، ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة.

قال القرطبي: " قال لآدم بعد إخراج إبليس من موضعه من السماء: اسكن أنت وحواء الجنة".

قال الطبري: " فأسكن جل ثناؤه آدم وزوجته الجنة بعد أن أهبط منها إبليس وأخرجه منها".

و «الجنة»: هي "البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك لأنه مستتر بأشجاره".

وفي الجنة التي أمر بسكناها قولان:

أحدهما: أنها في السماء في جنة الخلد التي وعد المتقون، وجاز الخروج منها لأنها لم تجعل ثوابًا فيخلد فيها ولا يخرج منها. وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أنها جنة من جنات الدنيا لا تكليف فيها وقد كان مكلفًا. وحكي القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنها في الأرض.

قال ابن عثيمين: " ظاهر الكتاب، والسنة أنها جنة الخلد، وليست سواها؛ لأن "أل" هنا للعهد الذهني".

وإن قيل: "كيف يكون القول الصحيح أنها جنة الخلد مع أن من دخلها لا يخرج منها. وهذه أُخرج منها آدم؟

فالجواب: أن من دخل جنة الخلد لا يخرج منها: بعد البعث؛ وفي هذا يقول ابن =

=

القيم في الميمية المشهورة".

قوله تعالى: {فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا} [الأعراف: ١٩]، أي: " فكلا من ثمارها من أي مكان شئتما".

قال البغوي: أي: " كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما".

قال الطبري: " وأباح لهما أن يأكلا من ثمارها من أيّ مكان شاءا منها".

وفي قوله تعالى: {فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا} [الأعراف: ١٩]،، وجهان:

أحدهما: من حيث شئتما من الجنة كلها.

والثاني: ما شئتما من الثمار كلها لأن المستثنى بالنهي لمَّا كان ثمرًا كان المأمور به ثمرًا.

قال ابن عثيمين: المعنى: "في أيّ مكان من هذه الجنة، ونقول أيضًا: وفي أيّ زمان؛ لأن قوله تعالى: {كُلا} فعل مطلق لم يقيد بزمن".

قوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٩]، أي: " ولا تأكلا من ثمرة هذه الشجرة -عَيَّنها لهما".

والقرب: الدنو، والمنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهى على القرب منها القصد منه المبالغة في النهى عن الأكل، إذ في النهى عن القرب من الشيء نهى عن فعله من باب أولى.

قال الطبري: "ونهاهما أن يقربا ثمر شجرة بعينها"، "والشجر في كلام العرب: كلّ ما قام على ساق، ومنه قول الله جل ثناؤه: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ} [الرحمن: ٦]، يعني بـ «النجم»: ما نَجمَ من الأرض من نَبت، وبالشجر ما استقلّ على ساق".

قال ابن كثير: " يذكر تعالى أنه أباح لآدم، عليه السلام، ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة".

=

=

اختلف أهل التفسير في الشجرة التي نُهِيا عنها، على أقوال:

أحدها: أنها البُرُّ، وهذا قول ابن عباس.

الثاني: أنها الكَرْمُ، وهذا قول السُّدِّيِّ، وجعدة بن هبيرة.

الثالث: أنها التِّين، وهذا قول ابن جريجٍ، ويحكيه عن بعض الصحابة.

الرابع: أنها شجرة الخلد التي تأكل منها الملائكة. قاله يعقوب بن عتبة.

والصواب: أن هذه الشجرة غير معلومة النوع، وأنه لا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يَضَع لعباده دليلا على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة، فتبقى على إبهامها. والله أعلم.

قال ابن جرير: "والصواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلًا على ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة".

وقال ابن عطية: "وليس في شيء من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ؛ وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها".

قال الرازي: "قوله تعالى (وَلا تَقْرَبَا هَـذِهِ الـشَّجَرَةَ) قال بعض العلماء هذا النهي نهي تحريم ويدل عليه أمور:

أحدها: أن قوله تعالى (وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة) كقوله (وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ) وقوله (وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ) فكما أن هذا للتحريم فكذا الأول.

وثانيها: أنه قال (فَتَكُونَا مِنَ الظالمين) معناه: إن أكلتما منها فقد ظلمتما أنفسكما ألا تراهما لما أكلا (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا).

وثالثها: أن هذا النهي لو كان نهي تنزيه لما استحق آدم بفعله الإخراج من الجنة

=

=

ولما وجبت التوبة عليه".

قوله تعالى: {فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٩]، "أي: فتصيروا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله".

قال الطبري: " يقول: فتكونا ممن خالف أمر ربِّه، وفعل ما ليس له فعله".

قال ابن عثيمين: " أي: من المعتدين لمخالفة الأمر".

قال البغوي: أي: فتصيرا من الضارين بأنفسكما بالمعصية".

وأصل " الظلم " في كلام العرب، وضعُ الشيء في غير موضعه، ومنه قول نابغة بني ذبيان:

إِلا أُوَارِيَّ لأيًا مَا أُبَيِّنُهَا وَالنُّؤْيُ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ

فجعل الأرض مظلومة، لأن الذي حفر فيها النؤى حَفر في غير موضع الحفر، فجعلها مظلومة، لموضع الحفرة منها في غير موضعها، ومن ذلك قول ابن قَمِيئة في صفة غيث:

ظَلَمَ الْبِطَاحَ بِهَا انْهِلالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ الْمُقْلَعِ

قوله ظلمه إياه: مجيئه في غير أوانه، وانصبابه في غير مصبِّه. ومنه: ظَلم الرجلُ جَزوره، وهو نحره إياه لغير علة. وذلك عند العرب وَضْع النحر في غير موضعه.

وذكروا في قوله تعالى {فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأعراف:١٩]، وجهان:

أحدهما: من المعتدين في أكل ما لم يُبَحْ لكما.

والثاني: من الظالمين لأنفسكما في أكلكما.

واختلفُوا في معصية آدم بأكله من الشجرة، على أي وجهٍ وقعت منه، على أربعة أقوال:

أحدها: أنه أكل منها وهو ناسٍ للنهي لقولِهِ تعالى: {ولقد عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ} [طه: ١١٥]، وزعم صاحب هذا القول، أن الأنبياء يلزمهم التحفظ

=

=

والتيقُّظُ لكثرة معارفهم وعُلُوِّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم، فيكون تشاغله عن تذكُّر النهي تضييعًا صار به عاصيًا.

الثاني: أنه أكل منها وهو سكران فصار مؤاخذًا بما فعله في السُّكْرِ، وإن كان غير قاصدٍ له، كما يؤاخَذُ به لو كان صاحيًا، وهو قول سعيد بن المسيب.

الثالث: أنه أكل منها عامدًا عالمًا بالنهي، وتأول قوله: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ} [طه: ١١٥] أي فَزَلَّ، ليكون العَمْدُ في معصيةٍ يستحق عليها الذمَّ.

الرابع: أنه أكل منها على جهة التأويل، فصار عاصيًا بإغفال الدليل، لأن الأنبياء لا يجوز أن تقع منهم الكبائر، ولقوله تعالى في إبليس: {فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ} [الأعراف: ٢٢] وهو ما صرفهما إليه من التأويل.

واختلف من قال بهذا في تأويله الذي استجاز به الأكل، على ثلاثةِ أقاويلَ:

أحدها: أنه تأويل على جهةِ التنزيه دون التحريم.

الثاني: أنه تأويل النهي عن عين الشجرة دون جنسها، وأنه إذا أكل من غيرها من الجنسِ لم يعصِ.

الثالث: أن التأويل ما حكاه الله تعالى عن إبليس في قوله: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} [الأعراف: ٢٣].

قوله تعالى: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ} [الأعراف: ٢٠].

أي: ألقى إليهما إبليس الوسوسة، والوسوسة في الأصل الصوت الخفي، ومنه قيل لصوت الحلي وسواس، والمراد بها هنا: الحديث الخفي الذي يلقيه الشيطان في قلب الإنسان ليقارف الذنب.

قال الطبري: أي: " فوسوس إليهما".

قال ابن كثير: " حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ليُسلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن".

=

=

و «الوسوسة»: الوسوسة: "حديث يلقيه الشيطان في قلب الإنسان "، وهي إخفاء الصوت بالدعاء، يقال: وسوس له إذا أوهمه النصيحة، ووسوس إليه إذا ألقى إليه المعنى، وفي ذلك قول رؤبة بن العجاج:

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الفَلَقْ   سرًا وقد أوّن تأوين العقق

فإن قيل: فكيف وسوس لهما وهما في الجنة وهو خارج عنها؟ فعنه ثلاثة أجوبة هي أقاويل اختلف فيها أهل التأويل:

أحدها: أنه وسوس إليها وهما في الجنة في السماء، وهو في الأرض، فوصلت وسوسته بالقوة التي خلقها الله له إلى السماء ثم الجنة، قاله الحسن.

والثاني: أنه كان في السماء وكانا يخرجان إليه فيلقاهما هناك.

والثالث: أنه خاطبهما من باب الجنة وهما فيها.

قوله تعالى: {لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا} [الأعراف: ٢٠]، أي: " لتكون عاقبتهما انكشاف ما سُتر من عوراتهما".

قال الطبري: " معنى الكلام: فجذب إبليس إلى آدم حوّاء، وألقى إليهما: ما نهاكما ربكما عن أكل ثمر هذه الشجرة، إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، ليبدي لهما ما واراه الله عنهما من عوراتهما فغطاه بستره الذي ستره عليهما".

روي عن ابن منبه، في قوله: {فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا}، قال: كان عليهما نور، لا ترى سوءاتهما".

قوله تعالى: {وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} [الأعراف: ٢٠]، أي: " وقال في وسوسته لهما في محاولة المكر بهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من الشجرة إلا كراهية أن تكونا مَلكَين أو تصبحا من المخلّدين في الجنة".

=

=

قال الطبري: " وقال الشيطان لآدم وزوجته حواء: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرَها، إلا لئلا تكونا ملكين".

قال الحسن: " ذكر تفضيل الملائكة، فضلوا بالصور وفضلوا بالأجنحة، وفضلوا بالكرامة".

عن السدي: "{أو تكونا من الخالدين}، يقول: لا تموتون أبدا". وروي عن محمد بن كعب القرظي نحوه.

قال ابن كثير: " وقال كذبا وافتراء: ما نهاكما ربكما عن أكل الشجرة إلا لتكونا ملكين أي: لئلا تكونا ملكين، أو خالدين هاهنا ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما كقوله: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى} [طه: ١٢٠] أي: لئلا تكونا ملكين، كقوله: {يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا} [النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلوا،} وَأَلْقَى فِي الأرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} [النحل: ١٥] أي: لئلا تميد بكم".

قال الماوردي: " وهذا هو الذي ألقى به من الوسوسة إليهما استغواءً لهما بالترغيب في فضل المنزلة ونعيم الخلود.

فإن قيل: هل تصورا ذلك مع كمال معرفتهما؟

قيل: إنما كملت معرفتهما بالله تعالى لا بأحكامه".

وفي قول إبليس ذلك قولان:

أحدهما: أنه أوهمهما أن ذلك في حكم الله جائز أن يقلب صورتهما إلى صور الملائكة وأن يخلدهما في الجنة.

والثاني: أنه أوهمهما أنهما يصيران بمنزلة الملائكة في علو المنزلة مع علمهما بأن قلب الصور لا يجوز.

وكان ابن عباس، ويحيى بن ابي كثير يقرءان: «إلا أَنْ تَكُونَا مَلِكَيْنِ»، بكسر

=

=

«اللام»".

قال الطبري: " وكأنَّ ابن عباس ويحيى وجَّها تأويل الكلام إلى أن الشيطان قال لهما: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين من الملوك وأنهما تأوّلا في ذلك قول الله في موضع آخر: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى}، [سورة طه: ١٢٠]، والقراءة التي لا أستجيز القراءة في ذلك بغيرها، القراءةُ التي عليها قرأة الأمصار وهي، فتح «اللام» من: «مَلَكَيْنِ»، بمعنى: ملكين، من الملائكة، لما قد تقدم من بياننا في أن كل ما كان مستفيضًا في قرأة الإسلام من القراءة، فهو الصواب الذي لا يجوزُ خلافه".

قوله تعالى: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: ٢١]، أي: " وأقسم الشيطان لآدم وحواء بالله إنه ممن ينصح لهما في مشورته عليهما بالأكل من الشجرة، وهو كاذب في ذلك".

قال السدي: " وحلف لهما بالله إني لكما لمن الناصحين". وروي عن محمد بن كعب نحو ذلك.

عن قتادة عن مطرف،: "يعني قوله: {وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين} – قال لهما: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما. وإنما يخدع المؤمن- بالله.

قال قتادة: وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله- خدعنا".

قال أبو حيان: "لم يكتف إبليس بالوسوسة وهو الإلقاء في خفية سرًّا ولا بالقول حتى أقسم على أنه ناصح لهما".

قال ابن كثير: " أي: حلف لهما بالله: {إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} فإني من قَبْلكما هاهنا، وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين".

قال الطبري: أي: " وحلف لهما، كما قال في موضع آخر: {تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ}

=

=

[سورة النمل: ٤٩]، بمعنى تحالفوا بالله، وكما قال خالد بن زهير ابن عمّ أبي ذويب:

وَقَاسَمَهَا بِاللهِ جَهْدًا لأَنْتُمُ أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا

بمعنى: وحالفهما بالله، وكما قال أعشى بني ثعلبة:

رَضِيعَيْ لِبَانٍ، ثَدْيَ أُمٍّ تَقَاسَمَا بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ

بمعنى: تحالفا.

وقوله: {إني لكما لمن الناصحين}، أي: لممن ينصح لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكل ثمر الشجرة التي نهيتما عن أكل ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به، من أنكما إن أكلتماه كنتما ملكين أو كنتما من الخالدين".

قال الماوردي: " أي: حلق لهما على صدقه في خبره ونصحه في مشورته، فقبلا قوله وتصورا صدقه لأنهما لم يعلما أن أحدًا يجترئ على الحلف بالله كاذبًا.

ويحتمل وجهًا آخر: أن يكون معنى قوله: {وَقَاسَمَهُمَا}، أي: قال لهما: إن كان ما قلته خيرًا فهو لكما دوني وإن كان شرًا فهو عليّ دونكما ومن فعل ذلك معكما فهو من الناصحين لكما، فكانت هذه مقاسمتهما أن قسم الخير لهما والشر له على وجه الغرور لتنتفي عنه التهمة ويسرع إليه القبول".

قال الآلوسي: " وإنما عبر بصيغة «المفاعلة» للمبالغة، لأن من يباري أحدا في فعل يجد فيه فاستعمل في لازمه، وقيل: المفاعلة على بابها، والقسم وقع من الجانبين لكنه اختلف متعلقه فهو أقسم لهما على النصح وهما أقسما له على القبول.

وتعقب بأن هذا إنما يتم لوجود المقاسمة عن ذكر المقسم عليه وهو النصيحة أما حيث ذكر فلا يتم إلا أن يقال: سمي قبول النصيحة نصيحة للمشاكلة والمقابلة كما قيل في قوله تعالى: {وَواعَدْنا مُوسى} [الأعراف: ١٤٢] أنه سمي التزام موسى عليه السلام الوفاء والحضور للميعاد ميعادا فأسند التعبير بالمفاعلة، وقيل: قالا

=

=

له أتقسم بالله تعالى إنك لمن الناصحين؟ وأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة. وعلى هذا فيكون- كما قال ابن المنير- في الكلام لف لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان بلفظ التكلم بل بلفظ الخطاب، وقيل: إنه إلى التغليب أقرب، وقيل: إنه لا حاجة إليه بأن يكون المعنى حلفا عليه بأن يقول لهما: إني لكما لمن الناصحين".

فإن قيل: كيف صدقاه؟

قاله غير واحد أنهما ظنا أن أحدًا لا يقسم بالله تعالى كاذبًا ورووًا في ذلك خبرًا.

وذهب كثير من المحققين أن التصديق لم يوجد منهما لا قطعًا ولا ظنًا، وإنما أقدما على المنهي عنه لغلبة الشهوة كما نجد من أنفسنا أن نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهيه وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال.

قوله تعالى: {فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ} [الأعراف: ٢٢]، أي: " أي خدعهما بما غرهما به من القسم بالله".

قال الطبري: أي: " فخدعهما بغرور".

قال الماوردي: " معناه: فحطهما بغرور من منزلة الطاعة إلى حال المعصية".

فإن قيل: "فهل علما عند أكلهما أنها معصية؟

قيل: لا، لأن إقدامهما عليها مع العلم بأنها معصية يجعلها كبيرة، والأنبياء معصومون من الكبائر، وإنما أقدما عليها لشبهة دخلت عليهما بالغرور".

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "خلق الله آدم في آخر ساعات النهار من يوم الجمعة ثم عهد إليه فنسي فسمي الإنسان".

وفي رواية أخرى عنه أيضا: " خلق آدم من صلصال من حمأ ومن طين لازب، وأما اللازب: فالجيد، وأما الحمأ: فالحمأة، وأما الصلصال: فالتراب المرقق، وإنما سمي إنسانا لأنه عهد إليه فنسي".

=

=

ولقد قال بعض الشعراء:

وما سُمِّي الإنسانُ إلا لنسيهِ ولا القلبُ إلا أنه يَتَقَلَّبُ

قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا} [الأعراف: ٢٢]، أي: " فلما أكلا منها انكشفت لهما عوراتهما، وزال ما سترهما الله به قبل المخالفة".

قال الطبري: " يقول: فلما ذاق آدم وحواء ثمر الشجرة، يقول: طعماه، انكشفت لهما سوءاتهما، لأن الله أعراهما من الكسوة التي كان كساهما قبل الذنب والخطيئة، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطآ والمعصية التي ركبا".

قال السدي: " فأبى آدم أن يأكل منها، فتقدمت حواء فأكلت ثم قالت: يا آدم، كل فإني قد أكلت فلم تنظرني. فلما أكل آدم بدت لهما سوآتهما".

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعره شجرة فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم، مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء، أرأيت إن تبت ورجعت أعائد إلى الجنة؟ قال: نعم، فذلك قوله: {فتلقى آدم من ربه كلمات} الآية".

قال ابن عباس: " لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقي في أطراف أصابعه".

فإن قيل: فلم بدت لهما سوآتهما ولم تكن بادية لهما من قبل؟ ففي ذلك ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنهما كانا مستورين بالطاعة فانكشف الستر عنهما بالمعصية.

الثاني: أنهما كانا مستورين بنور الكرامة فزال عنهما بذلك المهانة.

الثالث: أنهما خرجا بالمعصية من أن يكونا من ساكني الجنة، فزال عنهما ما كانا

=

=

فيه من الصيانة.

قوله تعالى: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ} [الأعراف: ٢٢]، أي: " فأخذا يلزقان بعض ورق الجنة على عوراتهما".

قال ابن عباس: " ينزعان ورق التين ويجعلانه على سوءاتهما".

قال السدي: " أقبلا يغطيان عليهما من ورق الجنة، التين".

قال قتادة: " يوصلان عليهما من ورق الجنة".

قال محمد بن كعب: " يأخذان ما يواريان به عورتهما".

قال مجاهد: " يرقعان، كهيئة الثوب".

قال الطبري: " يقول: أقبلا وجعلا يشدَّان عليهما من ورق الجنة، ليواريا سوءاتهما".

قال القرطبي: " المعنى: يقطعان الورق ويلزقانه ليسترا به، ومنه خصف النعل".

وفي {مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ} [الأعراف: ٢٢]، قولان:

أحدهما: ورق الموز.

الثاني: ورق التين، قاله ابن عباس، والسدي.

قال وهب بن منبه: " كان لباس آدم وحواء عليهما السلام نورًا على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا. فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوءاتهما".

قوله تعالى: {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ} [الأعراف: ٢٢]، أي: " وناداهما ربهما جل وعلا ألم أنهكما عن الأكل من تلك الشجرة".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ونادى آدمَ وحواءَ ربُّهما: ألم أنهكما عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرها".

قوله تعالى: {وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأعراف: ٢٢]، أي: "

=

=

وأقل لكما: إن الشيطان لكما عدو ظاهر العداوة؟".

قال الطبري: أي: " وأعلمكما أن إبليس لكما عدو مبين، يقول: قد أبان عداوته لكما، بترك السجود لآدم حسدًا وبغيًا".

عن محمد بن قيس قوله: "{وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين}، لم أكلتها وقد نهيتك عنها؟ قال: يا رب، أطعمتني حواء! قال لحواء: لم أطعمته؟ قالت: أمرتني الحية! قال للحية: لم أمرتها؟ قالت: أمرني إبليس! قال: ملعون مدحور! أما أنت يا حواء فكما دمَّيت الشجرة تَدْمَيْن كل شهر. وأما أنت يا حية، فأقطع قوائمك فتمشين على وجهك، وسيشدخُ رأسك من لقيك، اهبطوا بعضكم لبعض عدو".

قال ابن عباس: " لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني! قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كَرْهًا، ولا تضع إلا كرها. قال: فرنَّت حواء عند ذلك، فقيل لها: الرنّة عليك وعلى ولدك".

قوله تعالى: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا} [الأعراف: ٢٣]، أي: " قال آدم وحواء: ربنا ظلمنا أنفسنا بالأكل من الشجرة".

قال الطبري: أي: " قال: آدم وحواء لربهما: يا ربنا، فعلنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلاف أمرك، وبطاعتنا عدوَّنا وعدوَّك، فيما لم يكن لنا أن نطيعه فيه، من أكل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها.

وهذا خبرٌ من الله جل ثناؤه عن آدم وحواء فيما أجاباه به، واعترافِهما على أنفسهما بالذنب، ومسألتهما إياه المغفرة منه والرحمة، خلاف جواب اللعين إبليس إياه".

عن ابن عباس: "قال آدم وحواء: {ربنا ظلمنا أنفسنا}، يعني: ذنبا أذنباه. فغفره لهما".

=

=

قوله تعالى: {وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣]، أي: " وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن ممن أضاعوا حظَّهم في دنياهم وأخراهم".

قال الطبري: " يقول: وإن أنت لم تستر علينا ذنبنا فتغطيه علينا، وتترك فضيحتنا به بعقوبتك إيانا عليه {وترحمنا}، بتعطفك علينا، وتركك أخذنا به، لنكونن من الهالكين".

قال قتادة: " قال آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب، أرأيتَ إن تبتُ واستغفرتك؟ قال: إذًا أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأل النَّظِرة، فأعطى كلَّ واحد منهما ما سأل".

عن الضحاك في قوله: "{ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا}، الآية، قال: هي الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربه".

قال السمعاني-في الآية-: " اعترف آدم بالذنب، وسأل المغفرة، وهذا هو الفرق بين معصيتة ومعصية إبليس، أن إبليس عصى وأصر على المعصية، وآدم عصى وتاب عن المعصية، وأن إبليس كان متعمدا، وآدم كان ساهيا، واختلفوا في أن آدم هل عرف عند الأكل أنه معصية؟ قال بعضهم: عرف ذلك، لكن الله غفر له، وتاب عليه، وقيل: دخل عليه شبهة من وسوسة إبليس، ولم يكن متعمدا؛ إذ كان معصوما نبيا".

قال السعدي: فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه ربه وهداه.

(فائدة): قال ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ١٩٧): وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، قال تعالى: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)

=

=

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ} [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢].

فالوسوسة: حديث النّفس والصوت الخفي، وبه سُمِّي صوت الحُليِّ وسواسًا، ورجل موسوِس بكسر الواو، ولا يفتح فإنه لحن، وإنما قيل له: مُوَسوسٌ؛ لأن نفسه تُوسوِس إليه، قال تعالى: {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} [ق: ١٦].

وعلم عدوُّ الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما؛ فإنها معصية، والمعصية تَهتِكُ ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انْهتَك ذلك الستر، فبدت لهما سوآتهما، فالمعصية تُبدي السوأة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبي ﷺ في رؤياه الزناة والزواني عراةً باديةً سوآتُهم. وهكذا إذا رُئيَ الرجل أو المرأة في منامه مكشوف السوأة، فإنه يدل على فساد دينه، قال الشاعر:

إِنِّي كَأَنِّي أَرَى مَنْ لا حَيَاءَ لَهُ ... وَلَا أَمَانَةَ وَسْطَ النَّاسِ عُرْيَانا

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباسًا ظاهرًا يواري العورة ويسترها، ولباسًا باطنًا من التقوى، يُجَمِّلُ العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

ثم قال: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ}؛ أي: إلا كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن هاهنا دخل عليهما؛ لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها. وهذا باب كيدِه الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم؛ فإنه يجري منه مجرى الدم، حتى يصادق نفسه ويخالطها، ويسألها عما تحبه وتُؤْثِرُه، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب.

وكذلك علَّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا؛ أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوَونه، فإنه باب لا يُخْذَلُ عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدودٌ، وهو عن

=

=

طريق مقصده مصدود.

فشامّ عدوُّ الله الأبوين، فأحسّ منهما إيناسًا وركونًا إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}.

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها «مَلِكَيْنِ» بكسر اللام، ويقول: «لم يطمعا أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرفا أن يكونا ملِكين، فأتاهما من جهة المُلْك».

ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأُخرى: {قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}.

وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدوُّ الله آدم أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب، وكان آدم أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولاسيّما مما نهاه الله عنه؟

فالجواب: أن آدم وحواء لم يطمعا في ذلك أصلًا، وإنما كذبهما عدو الله، وغرّهما، وخدعهما؛ بأن سمّى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد، ومنه وَرِثَ أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحبُّ النفوسُ مسمَّياتها، فسمَّوا الخمر أمَّ الأفراح، وسمَّوا أخاها بلُقَيْمة الراحة، وسمَّوا الربا بالمعاملة، وسمَّوا المُكُوسَ بالحقوق السلطانية، وسمَّوا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان، وسمَّوا أبلغ الكفر ـ وهو جحد صفات الرب ـ تنزيهًا، وسمَّوا مجالس الفسوق مجالس الطَّيِّبة! فلما سمَّاها شجرة الخلد قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا؛ فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون.

ولم يكن آدم قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت الشُّبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة

=

=

والشهوة، وساعد القدر لما قد فرغ الله سبحانه مِن تقديره، فأخذتهما سِنةُ الغَفْلة، واستيقظ لهما العدو، كما قيل:

وَاسْتَيْقَظُوا وَأَرَادَ اللهُ غَفْلَتَهُمْ ... لِيَنْفُذَ القَدَرُ المَحْتُومُ فِي الأَزَلِ

إلا أن هذا الجواب يَعترض عليه قولُهُ: {أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}.

فيقال: الماكر المخادع لابد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده، ولا حاجة بنا إلى تصحيح كلام عدوِّ الله، والاعتذار عنه، وإنما نعتذر عن الأب في كون ذلك رَاجَ عليه وولج سمعه، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا مَلَكين، وإنما ردّد الأمر بين أمرين: أحدهما ممتنع، والآخر ممكن، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر، ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يُردِّده، فقال: {يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}، فلم يُدْخِل أداة الشك هاهنا كما أدخلها في قوله: {إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}، فتأمله.

ثم قال تعالى: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}، فتضمن هذا الخبر أنواعًا من التأكيد:

أحدهما: تأكيده بالقسم.

الثاني: تأكيده بـ (إنّ).

الثالث: تقديم المعمول على العامل إيذانًا بالاختصاص، أي: نصيحتي مختصة بكما، وفائدتها إليكما لا إليّ.

الرابع: إتيانه باسم الفاعل الدّال على الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال على التجدد، أي: النصح صفتي وسجيَّتي، ليس أمرًا عارضًا لي.

الخامس: إتيانه بلام التأكيد في جواب القسم.

السادس: أنه صوّر نفسه لهما ناصحًا من جملة الناصحين، وكأنّه قال لهما:

=

=

الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم، كما تقول لمن تأمره بشيء: كلُّ أحد معي على هذا، وأنا من جملة من يشير عليك به.

سَعَى نَحْوَها حَتَّى تجَاوَزَ حَدَّهُ ... وَكَثَّرَ فَارْتَابَتْ وَلَوْ شَاءَ قَلَّلَا

وورّث عدوُّ الله هذا المكرَ لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين، كما كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا جاءوه: {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ} [المنافقون: ١]، فأكدوا خبرهم بالشهادة وبـ (إنَّ) وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه: {وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ} [التوبة: ٥٦].

ثم قال تعالى: {فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ} [الأعراف: ٢٢].

قال أبو عبيدة: خذلهما وخلّاهما، من تَدْلِيةِ الدلو، وهو إرسالها في البئر.

وذكر الأزهري لهذه اللفظة أصلين: أحدهما؛ قال: أصله الرجل العطشان يتدلى في البئر ليروَى من الماء، فلا يجد فيها ماءً، فيكون قد تدلى فيها بالغرور، فوُضِعَت التدلية موضع الإطماع فيما لا يُجدي نفعًا، فيقال: دَلّاه، إذا أطمعه، ومنه قول أبي جندب الهذلي:

أَحُصُّ فَلَا أُجِيرُ وَمَنْ أُجِرْهُ ... فَلَيْسَ كَمَنْ تَدَلَّى بِالْغُرُورِ

أَحُصُّ أي: أقطع.

الثاني: فدلَّاهما بغرور؛ أي: جرّأهما على أكل الشجرة، وأصله: دلَّلهما من الدلال والدالَّة، وهي الجراءة.

قال شَمرٌ: يقال: ما دلَّك عليّ، أي: ما جرّأك علي، وأنشد لقيس بن زهير:

أَظنُّ الحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الحَلِيمُ

قلت: أصل التدلية في اللغة: الإرسال والتعليق، يقال: دلّى الشيء في مهْوَاة؛ إذا أرسله بتعليق، وتدلى الشيء بنفسه، ومنه قوله تعالى: {فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ} [يوسف: ١٩].

=

=

قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلى دلوه؛ إذا أرسلها في البئر، ودَلَاها بالتخفيف: إذا نزعها من البئر، فأدلى دلوه يُدلِيه إدلاءً: إذا أرسلها، ودَلَاها يَدْلوها دلوًا: إذا نزعها وأخرجها، ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلى الرجل برحمٍ منه.

ويشاركه في الاشتقاق الأكبر: الدلالة، وهي التوصل إلى الشيء بإبانته وكشفه، ومنه الدَّلُّ، وهو ما يدل على العبد من أفعاله، وكان عبد الله بن مسعود يُشبَّه بالنبي ﷺ في هَديه ودلِّه وسمْتِه، فالهدي: الطريقة التي عليها العبد من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدلّ: ما يدل من ظاهره على باطنه، والسّمت: هيأته ووقاره ورزانته.

والمقصود ذكر كيد عدوّ الله ومكره بالأبوين.

قال مُطرِّف بن عبد الله: قال لهما: إني خُلِقتُ قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتَّبعاني أُرشدكما، وحلف لهما، وإنما يُخدَع المؤمن بالله.

قال قتادة: «وكان بعض أهل العلم يقول: من خادَعَنا بالله خُدِعْنا».

فالمؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خِبٌّ لئيم.

وفى «الصحيح»: «أن عيسى ابن مريم رأى رجلًا يسرق، فقال: سرقتَ؟ فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو! فقال المسيح: آمنتُ بالله وكذّبتُ بصري».

وقد تأوَّله بعضهم على أنه لما حلف له جَوّز أن يكون قد أخذ ماله، فظنه المسيح سرقه.

وهذا تكلُّف، وإنما كان الله سبحانه في قلب المسيح أجلّ وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبًا، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فردّ التهمة إلى بصره لمّا اجتهد له في اليمين بالله، كما ظنَّ آدم صدقَ إبليس لما حلف له بالله، وقال: ما ظننت أحدًا يحلف بالله كاذبًا.

فصل

ومن كيده العجيب: أنه يُشامُّ النفس، حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها: قوة

=

=

الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟
فإنْ رأى الغالبَ على النفس المهانةَ والإحجام؛ أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وثقّله عليه، وهوّن عليه تركه، حتى يتركه جملة، أو يُقصِّر فيه ويتهاون يه.
وإن رأى الغالبَ عليه قوةَ الإقدام وعلوّ الهمة؛ أخذ يُقلّل [٣٥ أ] عنده المأمور به، ويُوهِمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة.
فيقصِّر بالأول ويتجاوز بالثاني، كما قال بعض السلف: «ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشّيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر».
وقد اقتطع أكثرُ الناس إلا أقلَّ القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جدًّا الثابتُ على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.
فقوم قصّر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحدّ بالوسواس.
وقوم قصّر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم، وقعدوا كَلًّا على الناس، مستشرفين إلى ما بأيديهم.
وقوم قصّر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس، حتى أضرُّوا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة، فأضروا بقلوبهم وأبدانهم.
وكذلك قصّر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم.
وقصّر بقوم في خُلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات، كالجمعة والجماعات

=

=

والجهاد وتعلُّم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

وقصّر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفورٍ أو شاةٍ ليأكله، وتجاوز بآخرين حتى جرّأهم على الدماء المعصومة.

وكذلك قصّر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم، دون العمل به.

وقصّر بقوم حتى أطعمهم من العشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم، وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص.

وقصّر بقوم حتى زيّن لهم ترك سنة رسول الله ﷺ من النكاح، فرغبوا عنه بالكُلِّيّة، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام.

وقصّر بقوم حتى جَفَوا الشيوخَ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله.

وكذلك قصّر بقوم حتى منعهم قبولَ أقوالِ أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حلّلوه والحرام ما حرّموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة.

وقصّر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم، ولكنهم يعملونها بدون مشيئته وقدرته، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: إنهم لا يفعلون شيئًا البتة، وإنما الله سبحانه هو فاعل تلك الأفعال حقيقة، فهي نفس فعله لا أفعالهم، والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعلٌ البتةَ.

وقصّر بقوم حتى قالوا: إن رب العالمين ليس داخلًا في خلقه ولا بائنًا عنهم، ولا هو فوقهم ولا تحتهم، ولا خلفهم ولا أمامهم، ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: هو في كل مكان بذاته، كالهواء الذي هو داخل في كل مكان.

=

=

وقصّر بقوم حتى قالوا: لم يتكلم الرب سبحانه بكلمة واحدة البتة، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: لم يزل أزلًا وأبدًا يقول: {يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]، ويقول لموسى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ} [النازعات: ١٧]؛ فلا يزال هذا الخطاب قائمًا به ومسموعًا منه، كقيام صفة الحياة به.

وقصّر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يُشَفِّع أحدًا في أحد البتة، ولا يرحم أحدًا بشفاعة أحدٍ، وتجاوز بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده [٣٥ ب] بغير إذنه، كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم.

وقصّر بقوم حتى قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريل وميكائيل، فضلًا عن أبي بكر وعمر، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة.

وقصّر بقوم حتى نَفَوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته وعطّلوه منها، وتجاوز بآخرين حتى شبَّهوه بخلقه ومَثّلوه بهم.

وقصّر بقوم حتى عادَوا أهل بيت رسول الله ﷺ، وقاتلوهم، واستحلُّوا من حرمتهم، وتجاوز بقوم حتى ادَّعَوا فيهم خصائص النبوة من العصمة وغيرها، وربما ادعوا فيهم الإلهية.

كذا قصّر باليهود في المسيح حتى كذَّبوه، ورمَوه وأمَّه بما برأهما الله منه، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله، وجعلوه إلهًا يُعبَد مع الله.

وقصّر بقوم حتى نَفَوا الأسباب والقُوى والطبائع والغرائز، وتجاوز بآخرين حتى جعلوها أمرًا لازمًا لا يمكن تغييره ولا تبديله، وربما جعلها بعضهم مستقلة بالتأثير.

وقصّر بقوم حتى تعبَّدوا بالنجاسات، وهم النصارى وأشباهُهم، وتجاوز بقوم حتى أفضى بهم الوسواس إلى الآصار والأغلال، وهم أشباه اليهود.

=

=

وقصّر بقوم حتى تزيّنوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يُسقطون به جاهَهم عندهم، وسَمَّوْا أنفسهم الملامتية.

وقصّر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها، وعدُّوها فضلًا أو فضولًا، وتجاوز بآخرين حتى قَصَرُوا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يُسْقِطُ وَارِدَهُ لوِرْدِهِ.

وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا، لو تتبعناه لبلغ مبلغًا كثيرًا، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة انتهى كلام ابن القيم.

مسألة: في هذه الآيه: ستر العورات والسوءات عند الخروج، ولو لم يكن هناك من يرى العورة، وهذا من الفطرة التي فطر عليها الإنسان، وما عدا ذلك مخالف للفطرة، منهي عنه جبلة وشرعة، ولما ظهرت عورات حواء وآدم، خصفا وقطعا من ورق شجر الجنة ما يستر عوراتهما، فلم ينتظرا حتى تؤويهما دارهما، ولا أن يلوذا بحائط أو شجرة أو دار؛ وذلك أن الحائط والشجر يستر من جهة دون بقية الجهات، وورق الشجر أقرب من الدور؛ لأنه عندهما، وتناله أيديهما.

والمبادرة بستر العورات من آدم وحواء ومن ورقي الشجر مشعر بالوجوب، وذكر السوءات مؤكد لذلك؛ لأن إخراجها يسوء الإنسان في نفسه، ويسوء غيره أن يراه من أحد، وهذه من فوارق الإنسان عن الحيوان.

وليس في الجنة من الناس سوى آدم وحواء؛ لأنهما أبوا البشر، وكل البشر بعدهما، وإنما فيها من الملائكة والحيوان وما شاء الله، ولا يثبت أنه كان قبل آدم بشرية مشابهة لبشرية آدم وذريته.

وقد تكلف بعض المعاصرين ليوافق الملاحدة الذين يقولون بنظرية النشوء والتطور، وبعض علماء الطبيعة الذين يذكرون عمر الأرض بملايين طويلة،

=

=

وتكلفهم بأن الأرض معمورة قبل بشرية آدم من بشر آخرين، وتعسفوا أدلة لذلك من القرآن.

* وأنزل الله اللباس وشرع الاستتار بكل حال، وجعل الاستتار هو الأصل، والكشف والنزع عارضا.

ولما رخص الله للرجل من زوجته وللمولى من أمته، فالرخصة بما قامت الحاجة إليه، فليس للزوجين أن يبقيا عراة - ولو لم يرهما أحد - بلا حاجة، ولا أن تبقى الأمة متعرية عند سيدها بلا حاجة، وقد كره مالك أن يكشف الرجل فخذه عند زوجته؛ يعني: بلا حاجة؛ وذلك من مالك أحفظ لغريزة الحياء، وأدوم لغريزة الشهوة.

ولما رفع أبواب العورات بين الزوجين، لم يكن ذلك مسقطا لباب الحياء بينهما، فتكشف العورات عند الحاجات، ولو لم يأثما بكشفها في غير حاجة، ومن الفطرة: الاستتار والتزين باللباس ولو بين الزوجين، وإبداء السوءتين والعورات بين الزوجين بلا حاجة ولا مقصد مأذون به: مكروه؟ لأنه يسقط هيبة الحياء في النفس، وتزهد نفوس بعضهما في بعض، وتتشوف إلى غيرهما من الحرام، وقد فطر الله آدم وحواء على ذلك، فسترا عوراتهما بورق الشجر مع أنه لا يراهما أحد من البشر غيرهما، فليس لهما ذرية عند ذلك؛ ولذلك قال تعالى: {ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما} [الأعراف: ٢٧]، فجعل رؤية بعضهما لبعض بلا حاجة من مقاصد الشيطان ولو كانت مباحة في الأصل، ولكن الأصل الستر واللباس، وأما الكشف فعارض.

وقد جعل الله الأصل في بني آدم الستر باللباس؛ فتستتر المرأة وتتزين ولو كانت لا يراها أحد، والرجل يكون وحده ولو في فلاة لا يراه أحد يحب أن يستر بدنه، فذلك استتار تحبه النفس، وهي مفطورة عليه، حتى لو كان الإنسان في بيته مغلق

=

=

الأبواب، لم يحب أن يبقى عريانا؛ لأنه مخالف للفطرة، ولو كان الإنسان أعمى البصر لا يرى عورة نفسه ولا يراه أحد، لأحب أن يستتر؛ لحرارة الفطرة في نفسه التي يجدها.

* وقد شرع الله الاستتار باللباس؛ لجملة من الأسباب:

الأول: حياء من الله؛ فالله يحب أن يستحيا منه؛ وذلك من تعظيمه وإجلاله، والله لا تستر عنه عين، ولا تستتر عنه عورة فلا يراها؛ وإنما مجرد فعل اللباس والاستتار به من الحياء من الله ولو كان في علم العبد أن الله يراه؛ فالإنسان يستتر في نفسه وهو يعلم نفسه؛ حفظا لحياء نفسه، وقد جاء في ستر العورة حياء من الله حديث بهز؛ كما في "المسند"، و"السنن"، عن معاوية بن حيدة؛ قال: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)، قال: قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: (إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها)، قال: قلت: يا رسول الله إذا كان أحدنا خاليا؟ قال: (الله أحق أن يستحيا منه من الناس).

وروي في بعض الأخبار: أن آدم وحواء استترا حياء من الله لما بدت سوءاتهما؛ فعن أبي بن كعب مرفوعا؛ أن الله قال لآدم: يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن، قال: يا رب، لا، ولكن استحياء.

وجاء ذلك في بعض الإسرائيليات؛ كما قال وهب بن منبه: "دخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه ﷻ: يا آدم، أين أنت؟ قال: أنا هذا يا رب، قال: ألا تخرج، قال: أستحيي منك يا رب".

وكان بعض خيار السلف يستترون فيغطون رؤوسهم وهم في الخلاء حياء من الله؛ كما صح عن أبي بكر وطاوس، فقد روى عروة بن الزبير، عن أبيه، أن أبا بكر الصديق قال وهو يخطب الناس: يا معشر المسلمين، استحيوا من الله، فوالذي

=

=

نفسي بيده، إني لأظل حين أذهب إلى الغائط في الفضاء مغطيا رأسي؛ استحياء من ربي.

وكان طاوس يأمر ابنه بذلك.

وجاء في ذلك خبر مرسل عند البيهقي، ومن حديث عائشة مرفوعا، ولا يصح، ونص على استحبابه غير واحد من الفقهاء كإمام الحرمين والغزالي والبغوي وغيرهم.

الثاني: حياء من الملائكة؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم؛ كما جاء في الحديث، ومما يتأذى منه بنو آدم: بدو السوءة؛ وذلك من مقاصد قيام الفطرة في آدم وحواء وذريتهما، وحبهما للاستتار في الجنة وليس فيها من البشر غيرهما.

وقد دل الدليل: أن الملائكة مجبولة على الحياء كبني آدم؛ كما قال ﷺ: (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)؛ يعني: عثمان بن عفان.

الثالث: الاستتار عن الناس، والحياء منهم؛ فإن هذا من أعظم مقاصد اللباس واتخاذ الزينة، ولهذا لما سأل معاوية بن حيدة عن العورات، كان أول ما بدأ به النبي ﷺ حفظ العورات عن أعين الناس.

ومن حاز له أن يبدي عورته له، فيكون ذلك بقدر الحاجة؛ حفظا لفطرة أصل الاستتار؛ ولذا شرع ستر عورة الطفل وليس له عورة لكل الناظرين، ولو كان مولودا، لتحفظ هيبة العورة في نفسه، ومن هذا ما جاء في التفريق بين الأطفال في المضاجع؛ كما في قوله ﷺ: (واضربوهم عليها لعشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع)؛ فإن من مقاصد التفريق: ألا تبدو العورات؛ فإن الصغير لا يحترز في عورته في منامه كما يحترز الكبير، فأمر بالتفريق بينهم في المضاجع حتى لا تظهر سوءات بعضهم لبعض، فينشؤوا على ذلك، أو يكون ذلك مثيرا لغرائزهم في حرام.

=

=

وكذلك: فإنه يستحب لباس الزوجين عند بعضهما البعض من غير دواعي الحاجة إلى ذلك، وذلك حفظا للفطرة بينهما، ولوازغ الحياء أن يكسر.

الرابع: الاستتار عن الجن؛ وذلك أن الجن يبصرون بني آدم، وبنو آدم لا يبصرونهم؛ وذلك أن الله لما ذكر قصة آدم وحواء مع إبليس وما جرى عليهما من كشف سوءتيهما، ذكر الله حال رؤية الجن للإنسان من غير أن يراه: {إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم} [الأعراف: ٢٧].

وفي ذكر هذا المعنى في سياق قصة كشف عورة آدم وحواء: إشارة إلى مشروعية الاستتار عن الجان، وإن كانت المشروعية عن أعين بني آدم آكد وأشد؛ ولذا روي في الحديث مشروعية التسمية عند كشف الإنسان لعورته؛ حتى يمنع الله بها الجن عن رؤيته؛ كما في الترمذي؛ من حديث علي مرفوعا: (ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول: باسم الله).

الخامس: الاستتار للنفس والحفاظ على فطرتها! فإن كشف السوءة في حال الخلوة، والدوام على ذلك: يكسر فطرة الحياء والاستتار، ولو كان الواحد أعمى لا يرى نفسه وليس عنده من يراه، فالهيبة لحياء النفس وهي تحس بالتعري وهيبته ولو كانت في ظلام أو لا تبصر.

* حد عورة الرجل: اتفق العلماء على أن السوءتين وما أحاط بهما عورة، واختلف في فخذ الرجل على قولين:

الأول - وهو قول حمهور العلماء وقولة الأئمة الأربعة في المشهور - أن الفخذ عورة، وأن عورة الرجل من سرته إلى ركبته، واختلفوا في عين الركبة والسرة: هل هما عورة أو لا؟ على قولين كما يأتي.

الثاني: أن الفخذ ليست بعورة؛ وهو رواية عن أحمد، وذهب إلى هذا بعض الفقهاء من بعض المذاهب، واستدلوا بأن النبي ﷺ كشف فخذه، كما ثبت عن

=

=

أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ يوم خيبر "حسر الإزار عن فخذه، حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي الله ﷺ"؛ رواه البخاري.

وعن أبي موسى: "أن النبي ﷺ كاد قاعدا في مكان فيه ماء، قد انكشف عن ركبتيه أو ركبته، فلما دخل عثمان غطاها" رواه البخاري.

أنواع عورة الرجل:

وحديثا أنس وأبي موسى لا يلزم منهما أن الفخذ ليست بعورة؛ وإنما فيهما التخفيف في الفخذين، وأن العورة بالنسبة للرجل على نوعين: عورة مغلظة، وعورة مخففة:

فأما العورة المغلظة: فهما السوءتان وما أحاط بهما من مواضع، وهذه العورة لا يجوز إظهارها إلا لزوجة وما ملكت اليمين؛ ولا تظهر إلا للضرورة، ولا يجوز إبداؤها في الحاجات؛ كرفع الثوب عن طين الأرض ووحله، أو عند الاغتسال في البرك والمسابح، وكل حاجة: لا تحل فيها المحرمات؛ وإنما تحل المحرمات في الضرورات؛ كالتطبب ونحوه.

وأما المخففة؛ فالفخذ وما علاها، ويجوز إظهارها للحاجات، والحاجات عارضة لا دائمة، ويحرج من هذا من اتحذ لباسا قصيرا يظهر فخذه! فهذا لباس دائم لا يجوز، ويدل على كونها عورة مخففة أن النبي ﷺ أبداها في حاجة؛ كما في حديث أنس لما مر بحائط بخيبر، أو على حال لا يظهر فيه الاستدامة ككشف بعض الفخذ حال الجلوس؛ كما في حديث أبي موسى، ففعله النبي ﷺ جالسا لا قائما؛ ولهذا لما رأى النبي ﷺ أبا بكر كشف عن ركبته وهو قائم من غير مرور بحائط ولا وحل؛ قال: (أما صاحبكم، فقد غامر)؛ كما في البخاري، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: "كنت جالسا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: (أما صاحبكم، فقد غامر)، فسلم،

=

قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤).

{قَالَ اهْبِطُوا} أَيْ آدَم وَحَوَّاء بِمَا اشْتَمَلْتُمَا عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّتكُمَا {بَعْضكُمْ} بَعْض الذُّرِّيَّة {لِبَعْضٍ عَدُوّ} مِنْ ظُلْم بَعْضهمْ بَعْضًا {وَلَكُمْ فِي الْأَرْض

=

فذكر الحديث" رواه البخاري؛ وذلك أن هذا الفعل لا يفعله إلا من نزلت به نازلة من خصومة أو شدة، والمغامر من يرمي بنفسه في الشدائد؛ وذلك أن أبا بكر كان بينه وبين عمر شيء، فجاء إلى النبي ﷺ بذلك.

ثم إن أنس بن مالك وأبا موسى لم يذكرا كشف النبي ﷺ للفخذ من غير بيان السبب والحال، مما يشعر بأنها مخففة للحاجة لا على الدوام، بحيث تفصل عليها الألبسة والأزر والبناطيل، ولما ذكر أنس أنه رأى فخذ النبي ﷺ، ظهر أنه فعل ذلك اعتراضا، ولو لم يكن اعتراضا، لما ذكره في موضع معين.

والقول بأن الفخذ عورة هو الاحتياط، ومن قال بأن الفخذ ليست بعورة يشق عليه وضع حد للعورة؛ وذلك أن الفخذ كالساق عضو متصل؛ القول في أدناه كالقول في أعلاه، ومن لم يجعل أدنى الفخذ عورة، لم يقدر على حد العورة بحد منضبط في أعلاها، ومن قال بأن أدنى الفخذ ليس بعورة، وجب أن يقوله في أعلاها مما ليس بفرج، وهذا مجازفة.

وعن مالك وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه؛ أن الفخذ عورة مخففة، وقد جاء في غير ما حديث أن (الفخذ عورة)! من حديث ابن عباس، وجرهد.

واختلف في الركبة والسرة: هل هما من العورة أو لا؟ على قولين مشهورين:

فلم يجعلهما مالك والشافعي وأحمد في قول عورة. وجعلهما أبو حنيفة عورة.

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من اللّه إلا بُعْدًا.

مُسْتَقَرّ} أَيْ مَكَان اسْتِقْرَار {وَمَتَاع} تَمَتُّع {إلَى حِين} تَنْقَضِي فِيهِ آجَالكُمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [الأعراف: ٢٤].
هذا الخطاب لآدم وحواء وإبليس، وهذه العداوة بين آدم وذريته وبين الشيطان، كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا).
وأما ما ورد في قوله بالتثنية (اهبطا منها) قيل المراد آدم وحواء، وقيل: آدم وإبليس وحواء تبع لآدم وهذا الصحيح.
- وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم، أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ.
- قال الرازي: اعلم أن في هذه الآيات تحذيرًا عظيمًا عن كل المعاصي من وجوه:
أحدها: أن من تصور ما جرى على آدم عليه السلام بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي.
وثانيها: التحذير عن الاستكبار والحسد والحرص.
وثالثها: أنه سبحانه وتعالى بين العداوة الشديدة بين ذرية آدم وإبليس، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الحذر.
- فإن قيل ما الحكمة من إهباط آدم من الجنة؟ ذكر ابن القيم رحمه الله عدة حكم:
فقال: ليعود إليها على أحسن أحواله، فأراد سبحانه أن سيذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها ما يُعظّم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار، فإن الضد يظهر حسنه الضد، ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها.
وأيضًا، فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلًا وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه، فخلّى بينهم وبين أعدائه، وامتحنهم بهم، فلما آثروه وبذلوا نفوسهم =

=

وأموالهم في مرضاته ومحابه، نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن ليُنال بدون ذلك أصلًا، فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات، ولم يكن يُنال هذا إلا على الوجه الذي قدّره وقضاه من إهباطه إلى الأرض.

وأيضًا، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى، فمن أسمائه: الغفور، والرحيم، والحليم، والخافض، الرافع.. ولابد من ظهور آثار هذه الأسماء، فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دار يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى، فيغفر لمن يشاء، ويرحم من يشاء، ويخفض من يشاء، ويرفع من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

وأيضًا، فإنه سبحانه الملِك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى، ويثيب ويُعاقب، ويهين ويكرم، ويعز ويذل، فاقتضى ملكه سبحانه أن ينزِل آدم وذريته دارًا تجري عليهم فيها أحكام الملك، ثم ينقلهم إلى دار يُتم عليهم فيها ذلك.

وأيضًا، فإنه - سبحانه - أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب هو الإيمان النافع، وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة، يوم لا ينفع نفسًا إلا إيمانها في الدنيا، فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب، واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه.

وأيضًا، فإنه سبحانه لما كان يحب الصابرين، ويحب المحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب الشاكرين، وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات، اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارًا يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته، فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم.

وأيضًا، فإنه سبحانه جعل عبوديته أفضل درجاتهم - وذكر نبيه باسم العبودية في

=

=

أعلى الدرجات - اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارًا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله، وتقربهم إليه بمحابه، وترك مألوفاتهم من أجله.

وأيضًا: فإنه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل بدار النعيم والبقاء، إنما يحصل في دار المحنة والابتلاء، وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم، لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف. [مفتاح دار السعادة].

قال الطبري: " وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن فعله بإبليس وذريته، وآدم وولده، والحية، يقول تعالى ذكره لآدم وحواء وإبليس والحية: اهبطوا من السماء إلى الأرض، بعضكم لبعض عدوّ".

قال الماوردي: " قيل: أسكنهما الجنة لئلا ساعات خلت من يوم الجمعة، وأخرجهما لتسع ساعات خلت من ذلك اليوم".

و «الهبوط»: النزول من فوق إلى أسفل، يقال هَبط فلان أرضَ كذا ووادِيَ كذا، إذا حلّ ذلك كما قال الشاعر:

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ، حَتَّى إِذَا هَبَطَتْ ... أَيْدِي الرِّكَابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِسٍ فَلَقَا

فإن قيل: فالمأمور بالهبوط آدم وحواء لأن إبليس قد كان أهبط من قبل حين امتنع عن السجود لآدم، فكيف عبر عنهما بلفظ الجمع؟ فعن ذلك خمسة أجوبة:

أحدها: أنهم آدم، وحواء، وإبليس، والحية. قاله ابن عباس، والسدي، واختاره الطبري.

قال السدي: " فلعنَ الحية، وقطع قوائمها، وتركها تمشي على بطنها، وجعل رزقها من التراب، وأهبطوا إلى الأرض: آدم، وحواء، وإبليس، والحية".

والثاني: أنهم آدم وحواء والحية. قاله أبو صالح مولى أم هانئ، واختاره البغوي.

قال الماوردي: " فهبط آدم بأرض الهند على جبل يقال له واسم، وهبطت حواء بجدة، وهبطت الحية بأصفهان".

=

=

والثالث: أنهم آدم وحواء والوسوسة، قاله الحسن.

والرابع: أن المقصود: آدم وحواء وإبليس وذريتهم. اختاره ابن عطية واحتج بأن: "إبليس مخاطب بالإيمان بإجماع".

والخامس: أن الخطاب، ظاهره العموم، ومعناه الخصوص في آدم وحواء، لأن إبليس لا يأتيه هدى، وخوطبا بلفظ الجمع تشريفا لهما. ذكره ابن عطية.

والصحيح هو أن آدم وزوجته ممن عُني به في قوله: {اهبطوا}، وهو قول الجمهور. والله أعلم.

قال ابن كثير: " العمدة في العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالى في سورة "طه" قال: {اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا} [الآية: ١٢٣] وحواء تبع لآدم. والحية - إن كان ذكرها صحيحا - فهي تبع لإبليس".

واختلف في «مهبط آدم» على ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه أهبط بالصفا. قاله ابن عمر.

والثاني: أنه هبط بالهند.، قاله ابن عباس، والحسن، والسدي.

قال ابن عباس: "إن أول ما أهبط الله آدم إلى الأرض أهبطه بدحناء أرض بالهند".

قال السدي: " قال الله: {اهبطوا منها جميعا}، فهبطوا: فنزل آدم بالهند وأنزل معه بقبضة من ورق الجنة فبثه بالهند فنبتت شجرة الطيب فإنما أصل ما يجاء به من الهند من الطيب من قبضة الورق التي هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم حين أخرج من الجنة أسفا على الجنة حين أخرج منها".

والثالث: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها دحنا، بين مكة والطائف. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

وفي «مهبط حواء» قولان:

أحدهما: أنها هبطت بالمروة. قاله ابن عمر.

=

=

والثاني: أنها هبطت بجدة. قاله الحسن.

وفي «مهبط إبليس»، قولان:

أحدهما: بالأبلة.

والثاني: بالمدار.

قال رجاء بن أبي سلمة: "أهبط آدم يديه على ركبتيه مطأطئا رأسه، وأهبط إبليس مشبكا بين أصابعه رافعا رأسه إلى السماء".

قال السري بن يحيى: "أهبط آدم من الجنة ومعه البذور، فوضع إبليس عليها يده، فما أصاب يده ذهب منفعته".

قال ابن كثير: "وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم، أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله -ﷺ-".

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ} [الأعراف: ٢٤]، أي: " ولكم في الأرض مكان تستقرون فيه".

قال الرازي: "الأكثرون حملوا قوله تعالى (وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ) على المكان، والمعنى أنها مستقركم حالتي الحياة والموت".

قال ابن عطية: "قوله تعالى (مستقر) لفظ عام لزمن الحياة ولزمن الإقامة في القبور، وبزمن الحياة فسر أبو العالية وقال: هي كقوله (الذي جعل لكم الأرض فراشًا) وبالإقامة في القبور فسر ابن عباس واللفظ يعمهما فهي كقوله (ألم نجعل الأرض كفاتًا أحياء وأمواتًا)".

قال ابن كثير: " أي: قرار".

وفي معنى «المستقر» وجوه:

=

=

أحدها: أنه موضع الاستقرار، قاله أبو صالح.

قال الزجاج: "أي: مُقَام وثبوت".

قال أبو العالية: " هو قوله: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِرَاشًا} [البقرة:٢٢]".

قال الطبري: " يعني: بذلك أنه جعل لكم الأرض مهادا موطأ وقرارا يستقر عليها".

والثاني: أنه القبور. قاله ابن مسعود، وابن عباس، والسدي.

والثالث: المراد: مستقر فوق الأرض ومستقر تحت الأرض. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

قوله تعالى: {وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف: ٢٤]، أي: " وتتمتعون إلى انقضاء آجالكم".

عن ابن عباس: "{ومتاع إلى حين}، قال: إلى يوم القيامة وإلى انقطاع الدنيا".

قال الطبري: أي: " تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا، وذلك هو الحين الذي ذكره".

قال ابن كثير: أي: " أعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول".

قال الماوردي: " يعني: إلى انقضاء الدنيا".

قال الثعلبي: " الى حين اقتضاء آجالكم ومنتهى أعماركم".

قال ابن كثير: " أي: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة".

قال أبو حيان: " «المتاع»: ما استمتع به من المنافع، أو الزاد، أو الزمان الطويل، أو التعمير".

قال الماوردي: " «المتاع»: فهو المنتفع به من عروض الدنيا التي يستمتع بها".

واختلف في قوله تعالى: {إِلَى حِينٍ} [الأعراف: ٢٤]، على وجوه::

أحدها: إلى الموت. قاله السدي.

=

=

والثاني: {إلى حين}: أي: الحياة. قاله ابن عباس.

والثالث: معناه: إلى قيام الساعة. قاله ابن عباس، ومجاهد.

قال ابن عباس: " حتى يصير إلى الجنة أو إلى النار".

والرابع: إلى أجل. قاله الربيع.

والخامس: أن «الحين» الذي لا يدرك. قاله عكرمة.

والسادس: أن «الحين»: الوقت البعيد، قال خويلد:

كأبي الرماد عظيم القدر جفنته حين الشتاء كحوض المنهل اللقف

يقال: لقف الحوض لقفا، أي: تهور من أسفله واتسع.

والسابع: أن «الحين»: وقت مجهول القدر ينطلق على طويل الزمان وقصيره، وإن كان موضوعًا في الأغلب للتكثير، قال جرير:

وَمَا مِرَاحُكَ بَعْدَ الْحِلْمِ وَالدِّينِ وَقَدْ عَلاكَ مَشِيبٌ حِينَ لا حِينِ

أي: وقت لا وقت.

وقال القرطبي: "و «الحين» أيضا: المدة ومنه قوله تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الأِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ} [الإنسان: ١]، والحين الساعة قال الله تعالى {أو تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ} [الزمر: ٥٨]، قال ابن عرفة الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها وقوله "فذرهم في غمرتهم حتى حين} [المؤمنون: ٥٤] أي حتى تفنى آجالهم وقوله تعالى {تؤتي أكلها كل حين} [إبراهيم: ٢٥] أي كل سنة وقيل بل كل ستة أشهر وقيل بل غدوة وعشيا، والحين الغدوة والعشية قال الله تعالى {فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} [الروم: ١٧] ويقال عاملته محاينة من الحين وأحينت بالمكان إذا أقمت به حينا وحان حين كذا أي قرب، قالت بثينة:

وإنَّ سُلُوِّي عن جميلٍ لَساعةٌ من الدَّهْرِ ما حانتْ ولا حان حِينُها"

=

=

وقد ذكر أهل التفسير أن لكلمة «حين» في القرآن الكريم، دلالات:

أحدها: «حين» بمعنى: ستة أشهر، ومنه قوله تعالى: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

والثاني: «حين» بمعنى: منتهى الآجال، ومنه قوله تعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة: ٣٦]، وقوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: ٩٨].

والثالث: «حين» بمعنى: الساعات، ومنه قوله تعالى: {فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} [الروم:١٧ – ١٨].

والرابع: «حين» بمعنى: وقت منكر، ومنه قوله تعالى: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [ص: ٨٨].

والخامس: «حين» بمعنى: أربعون سنة، ومنه قوله تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [الإنسان: ١].

والسادس: «حين» بمعنى: ثلاثة أيام، ومنه قوله تعالى في الذاريات: {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ} [الذاريات: ٤٣].

والسابع: «حين» بمعنى: نصف النهار، ومنه قوله تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ} [القصص: ١٥].

والثامن: «حين» بمعنى: خمس سنين، ومنه قوله تعالى: {ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا

=

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥).

{قَالَ فِيهَا} أَيْ الْأَرْض {تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} بِالْبَعْثِ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُول[1].

=

رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} [يوسف: ٣٥]. على أن نهاية سجن يوسف بوقت خروجه.

والتاسع: «حين»: ابتداء القتال يوم بدر، ومنه قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} [الصافات: ١٧٤]. على أن نهاية الاعراض عن المشركين بوقت الأمر بقتالهم.

(١) قوله تعالى: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ} [الأعراف: ٢٥].

يعني: قال الله ﷻ لآدم وذريته وإبليس وأولاده (فيها تحيون) يعني في الأرض تعيشون أيام حياتكم (وفيها تموتون) يعني: وفي الأرض تكون وفاتكم وموضع قبوركم (ومنها تخرجون) يعني: ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم للحساب يوم القيامة.

قال الطبري: " يقول: في الأرض تحيون، يقول: تكونون فيها أيام حياتكم".

قال ابن كثير: " يخبر تعالى أنه يجعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم".

قوله تعالى: {وَفِيهَا تَمُوتُونَ} [الأعراف: ٢٥]، أي: " وفيها تكون وفاتكم".

قال الطبري: " يقول: في الأرض تكون وفاتكم".

قال ابن كثير: أي: " وفيها مماتهم وقبورهم".

قوله تعالى: {وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأعراف: ٢٥]، أي: " ومنها يخرجكم ربكم، ويحشركم أحياء يوم البعث".

قال الطبري: " يقول: ومن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم إليه لبعث القيامة

=

يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦).

{يَا بَنِي آدَم قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا} أَيْ خَلَقْنَاهُ لَكُمْ {يُوَارِي} يَسْتُر {سَوْآتكُمْ وَرِيشًا} وَهُوَ مَا يُتَجَمَّل بِهِ مِنْ الثِّيَاب {وَلِبَاس التَّقْوَى} الْعَمَل الصَّالِح وَالسَّمْت الْحَسَن بِالنَّصْبِ عُطِفَ عَلَى لِبَاسًا وَالرَّفْع مُبْتَدَأ خَبَره جُمْلَة {ذَلِكَ خَيْر ذَلِكَ مِنْ آيَات الله} دَلَائِل قُدْرَته {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} فَيُؤْمِنُونَ فِيهِ الْتِفَات عَنْ الْخِطَاب[1].

=

أحياء".

قال ابن كثير: أي: " ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلا بعمله".

قال ابن كثير: "كقوله تعالى (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) يخبر تعالى أنه يجعل الأرض دارًا لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة. الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلا بعمله".

قال ابن عطية: "حكم من الله ﷻ أمضاه وجعله حتمًا في رقاب العباد يحيون في الأرض ويموتون فيها ويبعثون منها إلى الحشر أحياء كما أنشأ أول خلق يعيده".

(١) قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا} [الأعراف: ٢٦]

قال ابن كثير: " يمتن تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش فاللباس المذكور هاهنا لستر العورات - وهي السوآت والرياش والريش: هو ما يتجمل به ظاهرًا، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه للجهلة من العرب الذين كانوا يتعرون للطواف،

=

=

اتباعا منهم أمر الشيطان، وتركا منهم طاعة الله، فعرفهم انخداعهم بغروره لهم، حتى تمكن منهم فسلبهم من ستر الله الذي أنعم به عليهم، حتى أبدى سوءاتهم وأظهرها من بعضهم لبعض، مع تفضل الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنهم قد سار بهم سيرته في أبويهم آدم وحواء اللذين دلاهما بغرور حتى سلبهما ستر الله الذي كان أنعم به عليهما حتى أبدى لهما سوءاتهما فعراهما منه: {يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا}، يعني: بإنزاله عليهم ذلك، خلقه لهم، ورزقه إياهم، و «اللباس»: ما يلبسون من الثياب، {يواري سوءاتكم}، يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم، وكنى بـ «السوءات»، عن: العورات".

قال ابن عاشور: والرّيش لباس الزّينة الزائد على ما يستر العورة، وهو مستعار من ريش الطّير لأنّه زينته، ويقال للباس الزّينة رِياش.

قال الرازي: الريش لباس الزينة، استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يواري سوآتكم، ولباسًا يزينكم، لأن الزينة غرض صحيح كما قال (لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) وقال)لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ).

قال الثعلبي: قوله تعالى (يا بني آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ) أي خلقنا لكم، وقيل: نزّلنا أسبابه وآلاته.

- قال الماوردي: فإن قيل: فليس ذلك بمنزل من السماء؟

فعنه جوابان:

أحدهما: أنه لما كان ينبت من المطر الذي نزل من السماء صار كالمنزل من السماء، قاله الحسن.

والثاني: أن هذا من بركات الله، والبركة تنسب إلى أنها تنزل من السماء، كما قال تعالى (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ).

- قال القرطبي: قوله تعالى (أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا) يعني المطر الذي ينبت القطن

=

=

والكتان، ويُقيم البهائم الذي منها الأصواف والأوبَار والأشعار؛ فهو مجاز مثل (وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ).

وقيل: هذا الإنزال إنزال شيء من اللباس مع آدم وحوّاء، ليكون مثالًا لغيره.

وقال سعيد بن جبير: (أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ) أي: خلقنا لكم؛ كقوله (وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) أي خلق. وقيل: ألهمناكم كيفية صنعته.

عن مجاهد، في قول الله: "{لباسا يواري سوءاتكم}، قال: كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة، ولا يلبس أحدهم ثوبا طاف فيه".

و «السوءات»: واحدتها: «سوءة»، من «السوء»، وسميت العورة: «سوءة»، لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده، كما قال الشاعر:

خرقوا جيب فتاتهم لم يبالوا سوءة الرجله

عن معبد الجهني: "{يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم}، قال: اللباس الذي يواري سوءاتكم: وهو لبوسكم هذه".

عن الضحاك قوله: "{قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم}، قال: يعني ثياب الرجل التي يلبسها".

عن السدي: "{لباسا يواري سوءاتكم}، قال: هي الثياب".

عن عروة بن الزبير قال: " اللباس: الثياب".

وفي دخول الشبهة عليهم في ذلك وجهان:

أحدهما: أن الثياب قد دنستها المعاصي فخرجوا عنها.

والثاني: تفاؤلًا بالتعري من الذنوب فقال الله تعالى: {قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا}، أي: ما تلبسون من الثياب.

فإن قيل: فليس ذلك بمنزل من السماء. فعنه جوابان:

أحدهما: أنه لما كان ينبت من المطر الذي نزل من السماء صار كالمنزل من

=

=

السماء، قاله الحسن.

والثاني: أن هذا من بركات الله، والبركة تنسب إلى أنها تنزل من السماء، كما قال تعالى: {وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ} [الحديد: ٢٥].

وفي قوله تعالى: {وَرِيشًا} [الأعراف: ٢٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه المعاش، قاله معبد الجهني.

والثاني: أنه اللباس والعيش والنعيم، قاله ابن عباس.

قال الزجاج: " والريش: اللباس. العرب تقول: أعطيته بريشته، أي بكسوته، والريش: كل ما ستر الرجل في جسمه ومعيشته".

قال النحاس: "الريش: عند أكثر أهل اللغة ما ستر من لباس أو معيشة".

والثالث: أنه الجمال والزينة، قاله ابن زيد، ومنه قوله رؤبة:

إِلَيكَ أَشْكُو شِدَّةَ المَعِيشِ ... وَجَهد أَعْوَامٍ نَتَفْنَ رِيشي

يريد: أذهبن جمالي وزينتي.

والرابع: أنه المال: قاله ابن عباس، ابن الزبير، ومجاهد، والضحاك، والسدي، قال الشاعر:

فَرِيشي مِنْكُمُ وَهَوايَ مَعْكُمْ ... وإنْ كَانَتْ زِيَارَتُكُمْ لِمَامَا

والخامس: أنه المعيشة والمال. قاله الكلبي.

والسادس: أن الريش والرياش: ما ظهر من اللباس، وريش الطائر ما ستره الله به. قاله عبد الله بن مسلم، وهو قول أهل اللغة.

قال شيخ الإسلام: "الصحيح أن الريش هو الأثاث والمتاع".

وقرأ زر بن حبيش والحسن البصري: «ورياشا».

قال الطبري: " وقد روي عن النبي ﷺ خبر في إسناده نظر: أنه قرأه: «ورياشا»".

وفي «الريش» و «الرياش»، وجهان:

=

=

أحدهما: أن معناهما واحد وإن اختلف لفظهما.

قال ابن الجوزي: " على قول الأكثرين الريش والرياش بمعنى".

قال الطبري: " فمن قرأ ذلك: «ورياشا»، فإنه محتمل أن يكون أراد به جمع «الريش»، كما تجمع: الذئب، ذئابا، والبئر: بئارا.

ويحتمل أن يكون أراد به مصدرا، من قول القائل: راشه الله يريشه رياشا وريشا، كما يقال: لبسه يلبسه لباسا ولبسا"، وقد أنشد بعضهم:

فلما كشفن اللبس عنه مسحنه بأطراف طفل زان غيلا موشما

بكسر"اللام" من"اللبس".

والوجه الثاني: أن معناهما مختلف، فالريش ما بطن، والرياش ما ظهر.

قال الطبري: " و «الرياش»، في كلام العرب، الأثاث، وما ظهر من الثياب من المتاع مما يلبس أو يحشى من فراش أو دثار.

و «الريش»: إنما هو المتاع والأموال عندهم. وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال. يقولون: أعطاه سرجا بريشه، ورحلا بريشه، أي: بكسوته وجهازه. ويقولون: إنه لحسن ريش الثياب، وقد يستعمل: «الرياش» في الخصب ورفاهة العيش".

قوله تعالى: {وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: ٢٦]، أي: " ولباسُ تقوى الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي هو خير لباس للمؤمن".

وفي «لباس التقوى»، سبعة تأويلات:

أحدها: أنه الإيمان، قاله قتادة، والسدي، وابن جريج.

الثاني: الحياة، قاله معبد الجهني.

الثالث: أنه العمل الصالح، قاله ابن عباس.

الرابع: أنه السمت الحسن، قاله عثمان بن عفان، وهو مروي عن ابن عباس ايضا.

=

=

الخامس: خشية الله، قاله عروة بن الزبير.

السادس: ستر العورة للصلاة التي هي التقوى، قاله ابن زيد.

السابع: لبس ما يُتَّقَى به الحر والبرد، قاله ابن بحر.

قال ابن كثير: " وكل هذه متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير.. «عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص قُوهي محلول الزرّ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام. ثم قال: يا أيها الناس، اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "والذي نفس محمد بيده، ما عمل أحد قط سرا إلا ألبسه الله رداء علانية، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر". ثم تلا هذه الآية: "ورياشًا" ولم يقرأ: وريشًا -} وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ} قال: "السمت الحسن"» " هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم وفيه ضعف.

وفي قوله تعالى: {ذَلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: ٢٦]، وجهان:

أحدهما: أنه راجع إلى «لباس التقوى»، ومعنى الكلام: أن لباس التقوى خير من الرياش واللباس، قاله قتادة، والسدي.

والثاني: أنه راجع إلى جميع ما تقدم من: {قَدْ أَنزَلْنَا علَيكُمْ لِبَاسًا يُوارِي سَوْءَاتِكُم وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوى}، ثم قال: {ذَلِكَ} الذي ذكرته هو {خَيْرٌ} كله.

قرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وحمزة {ولباس التقوى} رفعا، وقرأ نافع وابن عامر والكسائى {ولباس التقوى} نصبا.

قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ} [الأعراف: ٢٦]، أي: " ذلك الذي مَنَّ الله به عليكم من الدلائل على ربوبية الله تعالى ووحدانيته وفضله ورحمته بعباده".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ذلك الذي ذكرت لكم أني أنزلته إليكم، أيها الناس، من اللباس والرياش، من حجج الله وأدلته التي يعلم بها من كفر صحة

=

يَـابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَـنَّكُمُ الـشَّيْطَانُ كَمَـا أَخْـرَجَ أَبَـوَيْكُمْ مِـنَ الْجَنَّـةِ يَنْـزِعُ عَنْهُمَـا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَـا سَـوْآتِهِمَا إِنَّـهُ يَـرَاكُمْ هُـوَ وَقَبِيلُـهُ مِـنْ حَيْـثُ لَا تَـرَوْنَهُمْ إِنَّـا جَعَلْنَـا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧).

{يَـا بَنِـي آدَم لَا يَفْتِنَـنكُمْ} يُـضِلَّنكُمْ {الـشَّيْطَان} أَيْ لَا تَتَّبِعُـوهُ فَتُفْتَنُـوا {كَمَـا أَخَرَجَ أَبَوَيْكُمْ} بِفِتْنَتِهِ {مِنْ الْجَنَّة يَنْزِع} حَال {عَنْهُمَـا لِبَاسـهمَا لِيُرِيَهُمَـا سَـوْآتهمَا إِنَّـهُ} أَيْ الـشَّيْطَان {يَـرَاكُمْ هُـوَ وقبيلـه} جنـوده {مـن حيـث لا تـرونهم} للطافـة أَجْسَادهمْ أَوْ عَدَم أَلْوَانهمْ {إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِين أولياء} أعوانـا وقرنـاء {للـذين لا يؤمنون}(١).

=

توحيد الله، وخطأ ما هم عليه مقيمون من الضلالة".

قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: ٢٦]، أي: " لكـي تتـذكروا هـذه الـنعم، فتشكروا لله عليها".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: جعلت ذلك لهم دليلا على مـا وصـفت، ليـذكروا فيعتبروا وينيبوا إلى الحق وترك الباطل، رحمة مني بعبادي".

(١) قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ} [الأعراف: ٢٧]، أي: " يـا بنـي آدم لا يخدعنَّكم الشيطان بإضلاله وفتنته".

قـال الطبـري: " يقـول تعـالى ذكـره: يـا بنـي آدم، لا يخـدعنكم الـشيطان فيبـدي سوءاتكم للناس بطاعتكم إياه عند اختباره لكم".

قال النسفي: أي: "[لا] يخدعنكم ولا يضلنكم بـأن لا تـدخلوا الجنـة.. والنهـي في الظاهر للشيطان وفي المعنى لبني آدم، أي: لا تتبعوا الشيطان فيفتنكم".

قال ابن كثير: "يقول تعالى محذرًا بني آدم مـن إبلـيس وقبيلـه، ومبينًـا لهـم عداوتـه القديمـة لأبـي البـشر آدم - عليه السلام - في سـعيه في إخراجـه مـن الجنـة التـي هـي دار

=

=

النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا)".

قال الرازي: اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده أتبعها بأن حذر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان فقال (يَذَّكَّرُونَ يا بني آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مّنَ الجنة) وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيده ولطف وسوسته وشدة اهتمامه إلى أن قدر على إلقاء آدم في الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة فبأن يقدر على أمثال هذه المضار في حق بني آدم أولى.

فبهذا الطريق حذر تعالى بني آدم بالاحتراز عن وسوسة الشيطان فقال (لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان) فيترتب عليه أن لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم، فترتب عليه خروجهما منها وأصل الفتون عرض الذهب على النار وتخليصه من الغش.

قال المراغي: " من سنن العربية تكرار النداء فى مقام التذكير والوعظ: أي لا تغفلوا يا بنى آدم عن أنفسكم فتمكنوا الشيطان من وسوسته لكم والتحيل فى خداعكم وإيقاعكم فى المعاصي".

عن عبد الرحمن بن معقل، قال: "ذكر الجد عند ابن عباس: فقال: أي أب لكم أكبر؟ فقال: آدم قال: فإن الله يقول: {يا بني آدم}".

قوله تعالى: {كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ} [الأعراف: ٢٧]، أي: " كما أغوى أبويكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنة".

قال الطبري: أي: " فأخرجهما بما سبب لهما من مكره وخدعه، من الجنة".

قال النسفي: أي: "كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها".

=

=

قال المراغي: أي: " كما وسوس لأبويكم آدم وحواء فزّين لهما معصية ربهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما عنها، وكان ذلك سببا فى خروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها، ودخولهما فى طور آخر يكابدان فيه شقاء المعيشة وهمومها".

قوله تعالى: {يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا} [الأعراف: ٢٧]، أي: " ينزع عنهما لباسهما الذي سترهما الله به؛ لتنكشف لهما عوراتهما".

قال الطبري: أي: " ونزع عنهما ما كان ألبسهما من اللباس، ليريهما سوءاتهما بكشف عورتهما، وإظهارها لأعينهما بعد أن كانت مستترة".

قال النسفي: أي: "أخرجهما نازعًا لباسهما بأن كان سببًا في أن نزع عنهما".

قال المراغي: " أي: إنه أخرجهما من الجنة وكان سببا فى نزع ما اتخذاه لباسا لهما من ورق الجنة لأجل أن يريهما سوءاتهما".

و «الفتنة»: "الاختبار والابتلاء".

قال الرازي: قوله تعالى (يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا) حال، أي أخرجهما نازعًا لباسهما وأضاف نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يتول ذلك، لأنه كان بسبب منه، فأسند إليه كما تقول أنت فعلت هذا؟ لمن حصل منه ذلك الفعل بسبب.

وإن لم يباشره، وكذلك لما كان نزع لباسهما بوسوسة الشيطان وغروره أسند إليه.

وفي قوله تعالى: {يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا} [الأعراف: ٢٧]، ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن لباسهما كان أظفارًا تستر البدن فنزعت عنهما وتركت زينة وتبصرة، قاله ابن عباس، وعكرمة.

الثاني: أن لباسهما كان نورًا، قاله وهب بن منبه.

الثالث: أن نزع عنهما لباسهما من تقوى الله وطاعته، قاله مجاهد.

قال الطبري: " والصواب من القول في تأويل ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى

=

=

حذر عباده أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم آدم وحواء، وأن يجردهم من لباس الله الذي أنزله إليهم، كما نزع عن أبويهم لباسهما."اللباس" المطلق من الكلام بغير إضافة إلى شيء في متعارف الناس، وهو ما اجتاب فيه اللابس من أنواع الكسي، أو غطى بدنه أو بعضه.

وإذ كان ذلك كذلك، فالحق أن يقال: إن الذي أخبر الله عن آدم وحواء من لباسهما الذي نزعه عنهما الشيطان، هو بعض ما كانا يواريان به أبدانهما وعورتهما.

وقد يجوز أن يكون ذلك كان ظفرا، ويجوز أن يكون كان ذلك نورا، ويجوز أن يكون غير ذلك، ولا خبر عندنا بأي ذلك تثبت به الحجة، فلا قول في ذلك أصوب من أن يقال كما قال جل ثناؤه: {ينزع عنهما لباسهما}".

وفي قوله تعالى: {لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا} [الأعراف: ٢٧]، قولان:

أحدهما: أجسادهما من العورة حين خرجا من لباسهما، وهو مقتضى قول ابن عباس.

والثاني: سوأة معصيتهما حتى خرجا من تقوى الله وطاعته، وهو معنى قول مجاهد.

قوله تعالى: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧]، أي: " إن الشيطان يراكم هو وذريته وجنسه وأنتم لا ترونهم فاحذروهم".

وفي قوله تعالى: {وَقَبِيلُهُ} [الأعراف: ٢٧]، وجوه:

أحدها: قومه، وهو قول الجمهور.

والثاني: جيلُهُ، قاله السدي.

والثالث: الجن والشياطين. قاله مجاهد.

والرابع: نسله. قاله ابن زيد.

=

=

قال الطبري: " و {قبيله}، يعني: وصنفه وجنسه الذي هو منه واحد جمع جيلا، وهم الجن".

وقوله تعالى: {مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧]، يحتمل وجهين:

أحدهما: من حيث لا تبصرون أجسادهم.

والثاني: من حيث لا تعلمون مكرهم وفتنتهم.

عن قتادة: قوله: "{إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم}، قال: والله إن عدو الله يراك من حيث لا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله".

قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٢٧]، أي: " إنَّا جعلنا الشياطين أولياء للكفار الذين لا يوحدون الله، ولا يصدقون رسله، ولا يعملون بهديه".

قال الطبري: " يقول: جعلنا الشياطين نصراء الكفار الذين لا يوحدون الله ولا يصدقون رسله".

(منبهة): قال الله تعالى: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون (٢٧)) [الأعراف: ٢٧].

وفي الحديث عن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عن النبي ﷺ قال: "إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة؛ ليقطع علي الصلاة؛ فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: (قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) [ص: ٣٥]".) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

* ظاهر الآية الكريمة نفي رؤية الإنس للجن، وأما الحديث ففيه إثبات الرؤية، وهذا يوهم خلاف الآية.

=

=

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث:
اختلف العلماء في إمكان رؤية الإنس للجن على مذهبين:
الأول: إمكان رؤية الإنس للجن.
وهذا مذهب أهل السنة، إلا أنهم اختلفوا في تأويل الآية، والجمع بينها وبين الحديث، على أقوال:
الأول: أن الآية محمولة على الأعم الأغلب، وليس المراد نفي رؤيتهم مطلقا؛ حيث إن الغالب هو عدم رؤيتهم من قبل الإنس، ولكن لا مانع من رؤيتهم في بعض الأحيان، كما وقع للنبي ﷺ.
وهذا رأي: الخطابي، والبغوي، والقاضي عياض، وأبي العباس القرطبي، والنووي، وابن رجب، والآلوسي.
القول الثاني: أن المراد في الآية نفي رؤيتنا لهم في الحال التي يروننا فيها، وليس في الآية ما يفيد نفي رؤيتنا لهم مطلقا؛ إذ المستفاد منها أن رؤيتهم إيانا مقيدة من هذه الحيثية، فلا نراهم في وقت رؤيتهم لنا فقط، ويجوز رؤيتنا لهم في غير ذلك الوقت.
وهذا رأي: شيخ الإسلام ابن تيمية، والكرماني، وابن حجر الهيتمي، والشوكاني.
قال الشوكاني: "وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشياطين غير ممكنة، وليس في الآية ما يدل على ذلك، وغاية ما فيها: أنه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنا لا نراه أبدا؛ فإن انتفاء الرؤية منا له في وقت رؤيته لنا لا يستلزم انتفاءها مطلقا". اهـ
واعترض: بأن في حديث أبي هريرة رؤية الاثنين، بعضهم لبعض، في آن واحد، وليس فيه ما ذكر من التفصيل.
القول الثالث: أن رؤيتهم على طبيعتهم وصورهم الأصلية التي خلقوا عليها

=

=

ممتنعة؛ لظاهر الآية، لكن إذا تشكلوا في غير صورهم أمكن رؤيتهم، وعليه تحمل الأحاديث والآثار الواردة في المسألة.

ذكر هذا القول: القاضي عياض.

وهو اختيار: الحافظ ابن حجر، والعيني.

واعترض عليه النووي قائلا: "هذه دعوى مجردة؛ فإن لم يصح لها مستند؛ فهي مردودة".

القول الرابع: أن رؤيتهم على صورهم التي خلقوا عليها هو مما اختص به الأنبياء - عليهم السلام - وهو من معجزاتهم، وعليه تحمل الآية، وأما سائر الناس فلا يمكنهم رؤيتهم إلا إذا تشكلوا في غير صورهم التي خلقوا عليها.

وهذا رأي: ابن بطال، والنحاس، وابن عاشور.

قال ابن بطال: "رؤيته ﷺ للعفريت هو مما خص به، كما خص برؤية الملائكة، وقد أخبر ﷺ أن جبريل - عليه السلام - له ستمائة جناح، ورأى النبي ﷺ الشيطان في هذه الليلة، وأقدره الله عليه لتجسمه؛ لأن الأجسام ممكن القدرة عليها، ولكنه ألقى في روعه ما وهب سليمان - عليه السلام - فلم ينفذ ما قوي عليه من حبسه رغبة عما أراد سليمان الانفراد به، وحرصا على إجابة الله تعالى دعوته، وأما غير النبي من الناس فلا يمكن منه، ولا يرى أحد الشيطان على صورته غيره ﷺ؛ لقوله تعالى: (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)، لكنه يراه سائر الناس إذا تشكل في غير شكله، كما تشكل الذي طعنه الأنصاري حين وجده في بيته على صورة حية فقتله فمات الرجل به، فبين النبي ﷺ ذلك بقوله: "إن بالمدينة جنا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام؛ فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان"". اهـ

القول الخامس: أن رؤية الجن ممتنعة مطلقا إلا لنبي، أو في زمن نبي.

=

=

وهذا رأي: ابن حزم، حيث قال عن الجن: "وهم يروننا ولا نراهم، قال الله تعالى: (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)....، وإذ أخبرنا الله ﷻ أننا لا نراهم، فمن ادعى أنه يراهم أو رآهم فهو كاذب، إلا أن يكون من الأنبياء - عليهم السلام - فذلك معجزة لهم، كما نص رسول الله ﷺ أنه تفلت عليه الشيطان ليقطع عليه صلاته قال: فأخذته فذكرت دعوة أخي سليمان، ولولا ذلك لأصبح موثقا يراه أهل المدينة، وكذلك في رواية عن أبي هريرة - رضي الله عنه - للذي رأى؛ أنها هي معجزة لرسول الله ﷺ، ولا سبيل إلى وجود خبر يصح برؤية حتى بعد موت رسول الله ﷺ، وإنما هي منقطعات، أو عمن لا خير فيه". اهـ

ونقل عن الإمام الشافعي أنه قال: "من زعم من أهل العدالة أنه يرى الجن أبطلت شهادته؛ لأن الله ﷻ يقول: (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)، إلا أن يكون نبيا".

القول السادس: أن الآية خارجة مخرج التمثيل لدقيق مكر الشيطان وخفي حيله، وليس المقصود منها نفي الرؤية حقيقة. ذكره الآلوسي في تفسيره احتمالا آخر في الجمع، ولا يخفى بعده، بل هو من التفسير الإشاري المخالف لظاهر القرآن الكريم.

أدلة هذا المذهب:

استدل القائلون بإمكان الرؤية - وهم أهل السنة - بأدلة منها:

الدليل الأول: حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الوارد في المسألة.

الدليل الثاني: قصة أبي هريرة - رضي الله عنه - مع الشيطان، وقد رآه أبو هريرة في صورة مسكين على هيئة إنسان، وهذا يدل على أن الشياطين والجن يتشكلون في غير صورهم.

الدليل الثالث: أن الله تعالى نص في كتابه على عمل الجن لسليمان - عليه السلام -

=

=

ومخاطبتهم له، في قوله تعالى: (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين (٣٩)) [النمل: ٣٩]، ومثل هذا لا ينكر مع تصريح القرآن بذلك، وثبوت الأحاديث الصحيحة.

المذهب الثاني: نفي إمكان رؤية الجن مطلقا، لا لنبي، ولا لغيره.

وهذا مذهب المعتزلة، وبعض الأشاعرة. وبه قال الزمخشري، والفخر الرازي.

قال الزمخشري - بعد أن أورد الآية -: "وفيه دليل بين أن الجن لا يرون، ولا يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة". اهـ

وقال الفخر الرازي: "قوله تعالى: (من حيث لا ترونهم) يدل على أن الإنس لا يرون الجن؛ لأن قوله: (من حيث لا ترونهم) يتناول أوقات الاستقبال من غير تخصيص، قال بعض العلماء: ولو قدر الجن على تغيير صور أنفسهم بأي صورة شاؤا وأرادوا لوجب أن ترتفع الثقة عن معرفة الناس، فلعل هذا الذي أشاهده وأحكم عليه بأنه ولدي أو زوجتي جني صور نفسه بصورة ولدي أو زوجتي، وعلى هذا التقدير يرتفع الوثوق عن معرفة الأشخاص". اهـ

والذي يظهر صوابه - والله تعالى أعلم - هو إمكان رؤية الإنس للجن، وأن الآية محمولة على نفي رؤيتهم على الهيئة التي خلقوا عليها، لكن إذا تشكلوا في صور أخرى من إنسان أو حيوان أمكن رؤيتهم، وعليه فتكون الآية مقيدة بمنع رؤيتهم في حال دون حال، وتلك الحال هي هيئتهم التي خلقوا عليها.

يدل على هذا الاختيار:

١ - ما ذكر في المسألة من الأحاديث، والتي فيها رؤية النبي ﷺ لهم.

٢ - وما ورد من رؤية بعض الصحابة لهم على صورة إنسان، أو حيوان، وهذا يدل على أنهم لا يرون على هيئتهم التي خلقوا عليها، لكن إذا تشكلوا في صور

=

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨).

{وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَة} كَالشِّرْكِ وَطَوَافهمْ بِالْبَيْتِ عُرَاة قَائِلِينَ لَا نَطُوف فِي ثِيَاب عَصَيْنَا الله فِيهَا فَنُهُوا عَنْهَا {قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا} فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ {وَالله أَمَرَنَا بِهَا} أَيْضًا {قُلْ} لَهُمْ {إِنَّ الله لَا يَأْمُر بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُونَ} أَنَّهُ قَالَهُ استفهام إنكار[1].

=

أخرى أمكن رؤيتهم.

٣ - أنه لم ينقل أن أحدا رآهم على هيئتهم التي خلقوا عليها، لا في حديث، ولا في أثر، على حين تعددت الوقائع برؤيتهم في صور أخرى، فدل على صحة ما قلناه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما رؤية كثير من الناس للجن - حال الصرع وغير الصرع - فهذا أكثر وأشهر من أن يذكر....، وقد اتفق أئمة الإسلام على وجود الجن، وقد رآهم غير واحد من الناس، وخاطبوهم...".

(إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) أي: إن جعلنا الشياطين أعوانًا وقرناء للكافرين.

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا} [الأعراف: ٢٨]، أي: " وإذا أتى الكفار قبيحًا من الفعل اعتذروا عن فعله بأنه مما ورثوه عن آبائهم".

قال الطبري: أي: " وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء، قبيحا من الفعل، وهو «الفاحشة»، وذلك تعريهم للطواف بالبيت وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه، قالوا: «وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستن بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه»".

=

=

قال ابن كثير: " كانت العرب - ما عدا قريشًا - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحُمْس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا، طاف عريانًا. وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئًا يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُه أو كلّه وما بدَا منه فلا أحلّهُ

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا}".

قال الخازن: "قوله تعالى (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) قيل: هذا خطاب للذين كانوا يطوفون بالبيت عراة والمعنى: لا يخدعنكم بغروره ولا يضلنكم فيزين لكم كشف عوراتكم في الطواف وإنما ذكر قصة آدم هنا وشدة عداوة إبليس له ليحذر بذلك أولاد آدم.

فائدة: إذا ذكر الله مقالة أحد، فإن الله يذكر معها أو قبلها أو بعدها ما يدل على بطلانها".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا} [الأعراف: ٢٨]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها وردت في العرب الذين كانوا يطوفون عراة، والفاحشة التي فعلوها: كشف العورة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبي، والسدي، وهو قول أكثر المفسرين.

=

=

قال مجاهد: " كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قبلها النسعة أو الشيء، فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله"

الثاني: أنها في عبدة الأوثان، والفاحشة التي فعلوها: الشرك، قاله الحسن.

الثالث: أنها اتخاذ البَحِيْرَةِ والسائبة والوصيلة والحام، قاله الكلبي.

قال شيخ الإسلام: "والفاحشة أريد بها: كشف السوءات، فيستدل به على أن في الأفعال السيئة من الصفات ما يمنع أمر الشرع بها، فإنه أخبر عن نفسه في سياق الإنكار عليهم أنه لا يأمر بالفحشاء، فدل ذلك على أنه منزه عنه، فلو كان جائزًا عليه لم يتنزه عنه.

فعلم أنه لا يجوز عليه الأمر بالفحشاء؛ وذلك لا يكون إلا إذا كان ال الفعل في نفسه سيئًا، فعلم أن كلما كان في نفسه فاحشة فإن الله لا يجور عليه الأمر به، وهذا قول من يثبت للأفعال في نفسها صفات الحسن والسوء، كما يقوله أكثر العلماء كالتميميين وأبي الخطاب؛ خلاف قول من يقول: إن ذلك لا يثبت قط إلا بخطاب.

وكذلك قوله {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء:٣٢] علل النهي عنه بما اشتمل عليه أنه فاحشة، وأنه ساء سبيلًا، فلو كان إنما صار فاحشة وساء سبيلا بالنهي لما صح ذلك، لأن العلة تسبق المعلول لا تتبعه. ومثل ذلك كثير في القرآن".

قوله تعالى: {وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا} [الأعراف: ٢٨]، أي: "وقالوا: والله أمرنا بالتجرد من الثياب إذ كيف نطوف في ثيابٍ عصينا فيها الله!".

قال الطبري: أي: " والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه".

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} [الأعراف: ٢٨]، أي: " قل لهم يا

=

=

محمد: الله منزّه عن النقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوئ الخصال".

قال الطبري: " يقول الله جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قل}، يا محمد، لهم: {إن الله لا يأمر بالفحشاء}، يقول: لا يأمر خلقه بقبائح الأفعال ومساويها".

قال ابن كثير: " أي: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: {إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك".

قال ابن القيم: "فقوله: {قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك، وأنه يتعالى ويتقدس عنه، ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه. وهذا كلام يصان عنه آحاد العقلاء فكيف بكلام رب العالمين".

قوله تعالى: {أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٢٨]، أي: " أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علمٍ ونظرٍ صحيح؟".

قال الطبري: " يقول: أترووون على الله أنه أمركم بالتعري والتجرد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك؟".

قال ابن كثير: " أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته".

(لطيفة): جاءت هذه الآية بعد قصة آدم وحواء مع إبليس، وما جازى الله كلا منهم، وكشف سوءة آدم وحواء، ثم تحذير الله لبني آدم من بعدهما أن يسول لهم الشيطان كشف عوراتهم بقوله تعالى: {لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما} [الأعراف: ٢٧] ثم ذكر الله بعد ذلك الفاحشة، مبينا أن أول ما يقع في بني آدم كشف العورات، ثم تكون الفواحش؛ فالشر خطوات، فإن بدأ جيل بالتعري، تبعه الجيل الذي يليه بتطبيع الفاحشة، وظنوها في أسلافهم؛ كما قال تعالى بعد آية كشف العورات: {وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها}.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩).

{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} بِالْعَدْلِ {وَأَقِيمُوا} مَعْطُوف عَلَى مَعْنَى بِالْقِسْطِ أَيْ قَالَ أَقْسِطُوا وَأَقِيمُوا أَوْ قَبْله فَاقْبَلُوا مُقَدَّرًا {وُجُوهكُمْ} لِلَّهِ {عِنْد كُلّ مَسْجِد} أَيْ أَخْلِصُوا لَهُ سُجُودكُمْ {وَادْعُوهُ} أُعْبُدُوهُ {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين} مِنْ الشِّرْك {كَمَا بَدَأَكُمْ} خَلَقَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا {تَعُودُونَ} أَيْ يُعِيدكُمْ أَحْيَاء يَوْم الْقِيَامَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} [الأعراف: ٢٩]، أي: " قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أمر ربي بالعدل".

قال ابن كثير: " أي: بالعدل والاستقامة".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه: {قل}، يا محمد، لهؤلاء الذين يزعمون أن الله أمرهم بالفحشاء كذبا على الله: ما أمر ربي بما تقولون، بل {أمر ربي بالقسط}، يعني: بالعدل".

قال مجاهد، والسدي: " والقسط: العدل"

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: ٢٩]، أي: " وأمركم بأن تخلصوا له العبادة في كل موضع من مواضعها، وبخاصة في المساجد".

قال ابن كثير: " أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله تعالى وما جاءوا به عنه من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة، وأن يكون خالصًا من الشرك".

وفي قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: ٢٩]، أربعة تأويلات:

=

=

أحدها: معناه: توجهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة، قاله مجاهد، والسدي، وابن زيد.

والثاني: معناه: اجعلوا سجودكم خالصًا لله تعالى دون ما سواه من الأوثان والأصنام، قاله الربيع بن أنس.

والثالث: معناه: اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة، أمرًا بالجماعة لها، ندبًا عند الأكثرين، وحتمًا عن الأقلين.

والرابع: أن أي موضع أدركت فيه وقت الصلاة فصل فيه فإنه مسجد ولا تؤخرها إلى حضور المسجد.

قال الطبري: والراجح، "ما قاله الربيع: وهو أن القوم أمروا أن يتوجهوا بصلاتهم إلى ربهم، لا إلى ما سواه من الأوثان والأصنام، وأن يجعلوا دعاءهم لله خالصا، لا مكاء ولا تصدية، لأن الله إنما خاطب بهذه الآية قوما من مشركي العرب، لم يكونوا أهل كنائس وبيع، وإنما كانت الكنائس والبيع لأهل الكتابين. فغير معقول أن يقال لمن لا يصلي في كنيسة ولا بيعة: وجه وجهك إلى الكعبة في كنيسة أو بيعة".

قوله تعالى: {وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [الأعراف: ٢٩]، أي: " واعبدوه مخلصين له العبادة والطاعة".

قال الربيع: " أن تخلصوا له الدين والدعوة والعمل، ثم توجهون إلى البيت الحرام".

قال الطبري: "يقول: واعملوا لربكم مخلصين له الدين والطاعة، لا تخلطوا ذلك بشرك، ولا تجعلوا في شيء مما تعملون له شريكا".

قال ابن كثير: " أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله تعالى وما جاءوا به عنه من الشرائع،

=

=

وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة، وأن يكون خالصًا من الشرك".

قال ابن القيم: "أخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء. بل أوامره كله حسنة في العقول، مقبولة في الفطر، فإنه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره، وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك. فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء.

أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويحسنه وينزه نفسه عن الأمر بضده وأنه لا يليق به تعالى".

قوله تعالى: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف: ٢٩]، أي: " وكما أن الله أوجدكم من العدم فإنه قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى".

وفي قوله تعالى: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف: ٢٩]، أربعة وجوه:

أحدها: كما بدأكم شقيًا وسعيدًا، كذلك تبعثون يوم القيامة، قاله ابن عباس، وهو معنى قول جابر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والسدي، ومحمد بن كعب.

قال مجاهد: " يبعث المسلم مسلما، والكافر كافرا".

قال سعيد بن جبير: " كما كتب عليكم تكونون".

قال أبو العالية: " ردوا إلى علمه فيهم".

قال أبو العالية: " عادوا إلى علمه فيهم، ألم تسمع إلى قول الله فيهم: {كما بدأكم تعودون}؟ ألم تسمع قوله: {فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة}؟".

قال محمد بن كعب: " من ابتدأ الله خلقه على الشقوة صار إلى ما ابتدأ الله خلقه عليه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة، كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه. ومن ابتدئ خلقه على السعادة، صار إلى ما

=

=

ابتدئ عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدئ عليه خلقهم".

قال ابن كثير: " ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع – أو: ذراع – فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع – أو: ذراع – فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة»".

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: "إن العبد ليعمل – فيما يرى الناس – بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار. وإنه ليعمل – فيما يرى الناس – بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم".

ثم قال ابن كثير: " ولا بد من الجمع بين هذا القول – إن كان هو المراد من الآية – وبين قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: ٣٠] وما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه».

وفي صحيح مسلم، عن عِياض بن حمَار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادي حُنَفَاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث.

ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر، في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله في غرائزهم وفطرهم، ومع هذا قدر أن منهم شقيًا ومنهم سعيدًا: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن:٢] وفي الحديث: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمُعْتِقُهَا، أو مُوبِقها» وقدر الله نافذ في

=

=

بريته، فإنه هو} الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى: ٣] و} الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠].

وفي الصحيحين: "فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»".

الثاني: معناه: كما بدأكم فآمن بعضكم وكفر بعضكم، كذلك تبعثون يوم القيامة.

والثالث: كما خلقكم ولم تكونوا شيئًا، كذلك تعودون بعد الفناء أحياء، قاله الحسن، وابن زيد، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ايضا.

قال الحسن: " كما بدأكم ولم تكونوا شيئا فأحياكم، كذلك يميتكم، ثم يحييكم يوم القيامة".

قال قتادة: " بدأ خلقهم ولم يكونوا شيئا، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم".

قال مجاهد: " يحييكم بعد موتكم".

والرابع: كما بدأكم لا تملكون شيئًا، كذلك تبعثون يوم القيامة.

قال الطبري: " وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، القول الذي قاله من قال: معناه: كما بدأكم الله خلقا بعد أن لم تكونوا شيئا، تعودون بعد فنائكم خلقا مثله، يحشركم إلى يوم القيامة، لأن الله تعالى ذكره: أمر نبيه ﷺ أن يعلم بما في هذه الآية قوما مشركين أهل جاهلية، لا يؤمنون بالمعاد، ولا يصدقون بالقيامة. فأمره أن يدعوهم إلى الإقرار بأن الله باعثهم يوم القيامة، ومثيب من أطاعه، ومعاقب من عصاه. فقال له: قل لهم: أمر ربي بالقسط، وأن أقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وأن ادعوه مخلصين له الدين، وأن أقروا بأن كما بدأكم تعودون فترك ذكر"وأن أقروا بأن". كما ترك ذكر «أن» مع «أقيموا»، إذ كان فيما ذكر دلالة على ما حذف منه.

وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجه لأن يؤمر بدعاء من كان جاحدا النشور بعد

=

فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠).

{فَرِيقًا} مِنْكُمْ {هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمْ الضَّلَالَة إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِنْ دُون الله} أي غيره {ويحسبون أنهم مهتدون[1]}.

=

الممات، إلى الإقرار بالصفة التي عليها ينشر من نشر، وإنما يؤمر بالدعاء إلى ذلك من كان بالبعث مصدقا، فأما من كان له جاحدا، فإنما يدعى إلى الإقرار به، ثم يعرف كيف شرائط البعث، على أن في الخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ «يحشر الناس عراة غرلا وأول من يكسى إبراهيم ﷺ. ثم قرأ: {كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين}، [سورة الأنبياء: ١٠٤]»... ما يبين صحة القول الذي قلنا في ذلك، من أن معناه: أن الخلق يعودون إلى الله يوم القيامة خلقا أحياء، كما بدأهم في الدنيا خلقا أحياء".

وفي رواية أخرى عن النبي -ﷺ-: ".. ويجاء بكم عراة حفاة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله اكسوا خليلى فيؤتى بريطتين بيضاوين من رياط الجنة فيلبسهما ثم يقعد مستقبل العرش ثم أكسى على أثره فأقوم عن يمين الله مقاما لا يقومه غيرى يغبطنى فيه الأولون والآخرون ويشق لى نهر من الكوثر إلى حوضى يجرى فى حال من المسك ورضراض نباته قضبان الذهب ثمارها اللؤلؤ والجوهر شرابه أشد بياضا من اللبان وأحلى من العسل من سقاه الله منه شربة لم يظمأ بعدها ومن حرمه لم يرو بعدها".

(١) قوله تعالى: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ} [الأعراف: ٣٠]، أي: " جعل الله عباده فريقين: فريقًا وفَّقهم للهداية إلى الصراط المستقيم، وفريقًا وجبت عليهم الضلالة عن الطريق المستقيم، وهو الفعال لما يريد لا يُسأل عما يفعل".

وفي هذا أن الناس ينقسمون إلى قسمين مهتد وضال، فعلى المسلم أن يسأل الله

=

=

الهداية.

قال تعالى (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ).

وقال ﷺ (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم.

وقال ﷺ (قال تعالى: فاستهدوني أهدكم...).

قال الطبري: أي: " كما بدأكم في الدنيا صنفين: كافرا، ومؤمنا، كذلك تعودون في الآخرة فريقين: فريقا هدى، وفريقا حق عليهم الضلالة".

قال الزجاج: " معناه إنه أضَل فَريقًا حَق عليهم الضلالة".

عن أبي العالية، في قوله: {فَرِيقًا هَدَى}، قال: في علمه".

عن السدي: قوله: {فَرِيقًا هَدَى}، يقول: فريقا مهتدين". {وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ}: فريق ضلال".

قوله تعالى: {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الأعراف: ٣٠]، أي: " اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله".

وهذا تعليل للفريق الذي حقت عليهم الضلالة، أي: اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله، (وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا) فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية الشيطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله وجاروا عن قصد المحجة، باتخاذهم الشياطين نصراء من دون الله، وظهراء".

قال الصابوني: " هذا تعليل للفريق الذين حقت عليهم الضلالة".

قوله تعالى: {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأعراف: ٣٠]، أي: " يظنون أنهم على بصيرة وهداية".

=

قال الطبري: يقول" فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق، وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادا منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه هاد. وفريق الهدى، فرق. وقد فرق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية".

قال الزجاج: " وقوله: {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}، يدل على أن دومًا ينتحلون الإِسلامَ ويزعمونَ أن من كان كافرًا، وهو لَا يعلم إنَّه كافر فليس بكافرٍ مُبْطِلُون لأمر نِحْلتِهِمْ، لأن الله جل ثناؤُه قد أعلمنا أنهم يَحْسَبون أنهمْ مهتدون، ولا اختلاف بين أهل اللغة في أن الحُسْبَانَ ليس تأْويله غيرَ مَا يُعْلم من معنى حسب. والدليل على أن الله قد سماهم بظنهم كَفَرةً قوله ﷻ: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: ٢٧]. فأعلمَ أنهم بالظنِ كافِرونَ، وأنهم معذبونَ".

عن ابن عباس: "{كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف: ٢٩]، قال: إن تموتوا يحسب المهتدي أنه على هدى، ويحسب الغني أنه على هدى، حتى يتبين له عند الموت، وكذلك تبعثون يوم القيامة، وذلك قوله: {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ".

عن الربيع، في قوله: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف: ٢٩]، خلقهم من التراب وإلى التراب يعود، وما تكبر من هو اليوم حي وغدا يموت، وإن الله ﷻ وعد المتكبرين أن يضعهم ويرفع المستضعفين فقال:

منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى، ثم قال: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأعراف: ٣٠]".

قال السعدي: لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًا والحق باطلًا، وفي
=

يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١).

{يَا بَنِي آدَم خُذُوا زِينَتَكُمْ} مَا يَسْتُر عَوْرَتكُمْ {عِنْد كُلّ مَسْجِد} عِنْد الصَّلَاة وَالطَّوَاف {وكلوا واشربوا} ما شئتم {ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين}[1].

=

هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل اللّه ومَنِّه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تولى - بجهله وظلمه - الشيطانَ، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌّ، أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

قال الشنقيطي: قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ).

بَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، أَنَّ الْكُفَّارَ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَمِنْ تِلْكَ الْمُوَالَاةِ طَاعَتُهُمْ لَهُمْ فِيمَا يُخَالِفُ مَا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى، وَمَعَ ذَلِكَ يَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى هُدًى.

وبين في موضع آخر: أن من كان كذلك فهو أخسر الناس عملا، والعياذ بالله تعالى، وهو قوله جل وعلا (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا).

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول: من يعيرُني تطوافًا؟ تجعله على فرجها وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، فما بدا منه؛ فلا أحله؛ فنزلت هذه الآية: {خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}.

=

=

أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤/ ٢٣٢٠ رقم ٣٠٢٨).

* قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: ٣١]، أي: "يا بني آدم كونوا عند أداء كل صلاة على حالة من الزينة المشروعة من ثياب ساترة لعوراتكم ونظافة وطهارة ونحو ذلك".

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول: من يعيرني تطوافا؟ تجعله على فرجها وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، فما بدا منه؛ فلا أحله؛ فنزلت هذه الآية: {خذوا زينتكم عند كل مسجد} أخرجه مسلم (٣٠٢٨).

هذه الآية الكريمة ردٌّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عُراة، كما رواه مسلم عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة.. الحديث، فقال الله تعالى (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ).

قال ابن كثير: ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل الثياب البياض.

قال السعدي: قوله تعالى (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحا مشوها.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس.

فهذه الآية وإن كان سبب نزولها في طوافهم بالبيت عراة فلفظها عام لكل مسجد (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

=

=

قال الزمخشري: أي: ريشكم ولباس زينتكم عند كل مسجد كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة. وعن طاوس، لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدكم يطوف عريانا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت عنه، لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها: وقيل: تفاؤلا ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب".

وفي قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: ٣١]، أربعة أقوال:

أحدها: أن ذلك وارد في ستر العورة في الطواف على ما تقدم ذكره، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والضحاك، وعطاء، وقتادة، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وابن زيد، والزهري، وطاوس.

الثاني: أنه وارد في ستر العورة في الصلاة، قاله مجاهد أيضا، به قال الزجاج.

وقال السدي: " ما يواري العورة عند كل مسجد".

قال الزجاج: " هذا أمر بالاستتار في الصلوات، وكان أهل الجاهلية يطوفون عراة. ويقولون: لا نطوف حول البيت في ثياب قد أذنبنا فيها، وكانت المرأة تطوف عريانة أيضا إلا أنها كانت تشد في حقويها أشياء من سيور مقطعة، تسمي العرب ذلك الرهط، قالت امرأة تطوف وعليها رهط:

اليوم يبدو بعضه أوكله فما بدا منه فلا أحله

تعني: الفرج، لأن السيور لا تستر سترا تاما.

فأمر الله بعد ذكره عقوبة آدم وحواء في أن بدت لهما سوءاتهما بالاستتار في وقت كل صلاة، بعد أن أعلم أن التعري وظهور السوءة مكروه من لدن آدم".

الثالث: أنه وارد في التزين بأجمل اللباس في الجمع والأعياد.

الرابع: أنه أراد به المشط لتسريح اللحية، وأن الزينة: المشط. قاله ابن قتيبة.

=

=

قوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا} [الأعراف: ٣١]، أي: " وكلوا واشربوا من طيبات ما رزقكم الله، ولا تتجاوزوا حدود الاعتدال في ذلك".

وفي هذا أنه لا ينبغي للإنسان أن يحرم شيئًا حلله الله كما قال تعالى (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم).

قال الماوردي: " يعني: ما أحله الله لكم، ويحتمل أن يكون هذا أمر بالتوسع في الأعياد".

قال مجاهد: " أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله.

قال ابن عباس: ": أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سَرَفًا أو مَخِيلة".

وروي عن النبي ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير إسراف ولا مخيلة».

قال الزجاج: " قوله بعقب الاستتار: {وكلوا واشربوا}، لأنهم ادعوا أن الله جل ثناؤه قد حرم عليهم شيئا مما في بطون الأنعام، وحرم عليهم البحيرة والسائبة، وكانوا يزعمون فيما يأتون من الفحشاء كالتعري وما أشبهه - أن الله جل ثناؤه - أمرهم بذلك فأمرهم الله بالاستتار، وأن يأكلوا - ما زعموا أن الله ﷻ حرمه مما لم يحرمه، وأن يشربوا مما زعموا أن الله - جل وعز - حرم عليهم شربه، لأن ألبان البحيرة والسائبة كانت عندهم حراما".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تُسْرِفُوا} [الأعراف: ٣١]، أقوال:

أحدها: لا تسرفوا في التحريم، قاله السدي.

والثاني: معناه: لا تأكلوا حرامًا فإنه إسراف، قاله ابن زيد.

والثالث: معناه: لا تسرفوا في الطعام والشراب. والسرف: هو مجاوزة الحد. وهذا معنى قول ابن عباس.

والخامس: معناه: لا تسرفوا في الإنفاق. أفاده الماوردي.

=

=

قال الزجاج: " «الإسراف»: أن يأكل ما لا يحل أكله مما حرم الله تعالى أن يؤكل شيء منه، أو تأكل مما أحل لك فوق القصد ومقدار الحاجة، فأعلم الله ﷻ أنه لا يحب من أسرف، ومن لم يحببه الله ﷻ فهو في النار".

- قال الشنقيطي: والإسراف المنهي عنه هنا فيه للعلماء وجهان:

أحدهما: أن المعنى لا تسرفوا في الأكل والشرب فتأكلوا فوق الحاجة، وتشربوا فوق الحاجة، لأن الإسراف في الأكل والشرب يثقل البدن، ويعوق صاحبه عن طاعة الله، والقيام بالليل، فيجعل صاحبه كلما كانت بطنه ملأى من الأكل والشرب كان ثقيل الجسم، لا ينهض لطاعة الله، فنهاهم الله عن الإسراف في الأكل، وكذلك يسبب الأمراض.

في الحديث (المؤمن يأكل في معيٍ واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء) متفق عليه.

وقال ﷺ (بحسب امرئ لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فثلثه لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه) رواه الترمذي.

الوجه الثاني: أن معنى (وَلاَ تُسْرِفُوا) أي: لا تجاوزوا حدود الله، فتحرِّمُوا ما أحلّ الله كالودك للمُحْرِم، وكاللباس للطَّائِف، فهذه أمورٌ لم يحرمها الله، ولا تسرفوا في التحريم والتحليل بأن تحرموا ما أحلَّ الله، وتحللوا ما حرَّم الله، وكلا الإسرافين إسراف. ولا مانع من أن تشمل الآية الجميع. فلا يجوز الإسراف بتحريم ما أحلَّ الله، وتحليل ما حرَّم الله، كما لا يجوز الإسراف الكثير بملء البطن مِلْئًا شديدًا من الأكل والشرب حتى يتكاسل الإنسان ولا يتنشط لطاعة الله.

قال الجصاص: وَالْإِسْرَافُ هُوَ مُجَاوَزَةُ حَدِّ الِاسْتِوَاءِ، فَتَارَةً يَكُونُ بِمُجَاوَزَةِ الْحَلَالِ إلَى الْحَرَامِ وَتَارَةً يَكُونُ بِمُجَاوَزَةِ الْحَدِّ فِي الْإِنْفَاقِ فَيَكُونُ مِمَّنْ قَالَ اللهُ تَعَالَى (إنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) وَالْإِسْرَافُ وَضِدُّهُ مِنْ الْإِقْتَارِ مَذْمُومَانِ، وَالِاسْتِوَاءُ هُوَ التَّوَسُّطُ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ دَيْنُ اللهِ بَيْنَ الْمَقْصُورِ وَالْغَالِي، قَالَ

=

=

اللهُ تَعَالَى (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} وَقَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) وَقَدْ يَكُونُ الْإِسْرَافُ فِي الْأَكْلِ أَنْ يَأْكُلَ فَوْقَ الشِّبَعِ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ إِلَى الضَّرَرِ، فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ أَيْضًا.

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١]، أي: " إن الله لا يحب المتجاوزين المسرفين في الطعام والشراب وغير ذلك".

ويحتمل قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١]، وجهين:

أحدهما: لا يحب أفعالهم في السرف.

والثاني: لا يحبهم في أنفسهم لأجل السرف.

فإن السرف يبغضه اللّه، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.

مسألة: نزلت هذه الآية في حال العرب في الجاهلية؛ أنهم كانوا يقصدون الكعبة عراة، ويطوفون عندها بلا لباس؛ فأنزل الله على نبيه هذه الآية؛ كما صح من حديث ابن عباس؛ كما في مسلم وغيره، عنه؛ قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء؛ الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول:

أليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

وكانت قريش لا تفعل ذلك هي ومن حالفها، وأما غيرهم من قبائل العرب الذين يأتون من اليمن وغيرها كالأعراب، فقد كانوا يؤمرون بأخذ لباس يسترهم من لباس قريش؛ إما شراء أو عارية، أو يطوفون عراة، كما عند مسلم والبخاري، عن هشام بن عروة، من أبيه؛ قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة، إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون عراة، إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا،

=

=

فيعطي الرجال الرجال، والنساء النساء. وصح نحوه عن الزهري.

ويروى أن قريشا كانت تقول: نحن أهل الحرم، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا.

وليس فعل قريش هذا على أثارة من سلف لهم؛ وإنما جاهلية ابتدعوها؛ لتعظمهم العرب، ويسودوا عليهم بالجاه والمال.

وقول الله تعالى في الآية: {يابني آدم خذوا زينتكم}، جعل الخطاب فيه لبني آدم؛ تذكيرا لهم بحال أبيهم آدم ومكر إبليس به وبزوجه حتى انكشفت سوءاتهما، التي قد ذكرها الله قريبا في هذه السورة، وأن فعل كفار قريش من تسويل الشيطان من جنس، ما فعله بأبيهم، وفعلهم أعظم؛ لأن آدم لم يكشف سوءته بنفسه؛ وإنما عوقب بكشفها، وقريش فعلت ذلك تدينا وتعبدا، وفي حرم الله، وأمام الناظرين.

وفي الخطاب بـ {يابني آدم}، تذكير بأن الستر واللباس فطرة آدمية تشترك فيها جميع البشرية، لا تحتاج إلى دليل من الوحي يثبتها، ولو رجعوا إلى فطرتهم بعقول صحيحة، لوجدوا ذلك وبان لهم تعديهم.

وقول الله تعالى: {خذوا زينتكم عند كل مسجد}:

المراد به: المسجد الحرام، ويدخل في حكمه كل مسجد؛ للاشتراك في العلة، وقوله: {عند كل مسجد}؛ أي: موضع تتعبدون الله فيه، ويكون المراد به القصد؛ كلما قصدتم المسجد، فخذوا زينتكم في كل مرة، فجعل الموضع الواحد في كل مرة مسجدا، ويؤيد هذا قوله تعالى قبل ذلك: {وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد} [الأعراف: ٢٩]؛ أي: عند كل مرة تتعبدون الله فيها للصلاة والدعاء ولو كان الموضع واحدا.

❊ أخذ زينة اللباس للعبادة ومكانها: ويدخل في معنى الآية أخذ الزينة لغرضين:

الأول: لموضع العبادة؛ سواء كان لغرض العبادة أو لغيرها، وللعبادة آكد؛

=

=

لاجتماع الأمرين؛ وذلك أن مواضع الجادة محترمة معظمة، فيستحب التزين لها وعدم دخولها مع كشف عورة أو رائحة نتنة؛ تعظيما لها وللملائكة وللمصلين والمعتكفين والذاكرين.

الثاني: للعبادة، وهي الصلاة؛ فيستحب أخذ الزينة لها ولو لم يكن ذلك في موضع عبادة، وهو المسجد، فالمقصد من الزينة العبادة؛ لأن دور العبادة لم تتخذ إلا لأجل العبادة، وإنما عظمت المساجد لأجل العبادة فيها، ولو لم يكن فيها عبادة، لم تكن معظمة؛ فمن أراد الصلاة، استحب له أخذ الزينة لها، والاستتار ولو كان المصلي في بيته لا يراه أحد.

* الأصل حل اللباس: وفي الآية: دليل على أن الأصل في اللباس: الحل، فسمى الله اللباس بالزينة ولم يستثن منه شيئا، وإذا ورد النص لإطلاق الحل على عين، دل على أن الأصل فيها الحل، وأن الاستثناء فيها قليل، وقد صرحت الآية بعد ذلك بقوله تعالى: {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق} [الأعراف: ٣٢].

والزينة؛ كل لباس اجتمع فيه أمران: ستر البدن أو عضو منه، وأن يكون اللباس حسنا: أما ستر البدن أو عضو منه: فلا يدخل فيه الزينة التي لا تستر، فليست ملبوسا لبدن ولا لعضو منه؛ كالكحل والخضاب ومكياج المرأة وحليها، ولا يدخل فيه ما لا يستر البدن ولا عضوا منه؛ كالخاتم؛ فهذا غير مقصود من الزينة.

ويستحب ما ستر البدن أو أكثره، كالإزار والرداء والقميص والثوب، أو عضوا منه؛ كالعمامة والنعلين، وروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال ذات يوم؛ (خذوا زينة الصلاة)، قيل: وما زينة الصلاة؟ قال: (البسوا نعالكم، فصلوا فيها).

وأما حسن اللباس: فلا يدخل فيه قبيح اللباس ولو غلا ثمنه، ولا اللباس الحرام؛ كالحرير للرجل وجلود الخنزير والكلاب وما دل الدليل على تحريمه؛ لأن

=

=

المحرم لا يسميه الشارع لباسا بإطلاق إلا مع تقييد تحريمه، فضلا عن تسميته زينة.

وأما إزالة النجاسة والريح الخبيثة من البدن والثوب، فذلك مما يدل عليه مفهوم الآية، لا منطوقها؛ لأن لازم الزينة إزالة الخبيث، والزينة تتخذ، وخبيث الرائحة يرفع ويزال، وذلك عكس الاتخاذ. وكذلك استعمال الطيب، فدليله خاص متواتر.

ويستحب لبس ساتر الثياب وجميله في الصلاة وفي المساجد، وقد فضل النبي ﷺ من ألوان الثياب البياض؛ كما في "المسند"، و"السنن"؛ من حديث ابن عباس مرفوعا؛ (البسوا من ثيابكم البياض؛ فإنها من خير ثيابكم).

* ستر العورة للصلاة: وفي الآية: دليل على وجوب ستر العورة للصلاة، فإذا وجب التستر عند موضع العبادة، فإن سترها للعبادة من باب أولى، وسبب نزول الآية دال على ذلك، وبهذه الآية استدل بعض السلف كمجاهد؛ قال: "الزينة ما وارى عورتك ولو عباءة".

وعورة المرأة تختلف عن عورة الرجل في الصلاة، والستر في الصلاة يختلف عن الستر خارجها عند بعض الفقهاء: فأما عورة الرجل، فكما تقدم في قصة آدم أن عورته بين السرة إلى الركبة على الصحيح؛ وهو قول جماهير العلماء، وقول الأئمة الأربعة في المشهور.

* عورة الرجل في الصلاة: واختلفوا في عورته في الصلاة: هل هي عين عورته خارجها، أو أن عورة الرجل في الصلاة ليست عورة له في خارج الصلاة؟ على قولين:

ذهب جمهور العلماء - وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد -: إلى أن عورة الرجل في الصلاة هي نفس عورته خارج الصلاة وهي ما بين السرة إلى الركبة.

=

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢).

{قُلْ} إِنْكَارًا عَلَيْهِمْ {مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} مِنْ اللِّبَاس

=

وذهب مالك إلى أن عورة الرجل خارج الصلاة ليست عورته في الصلاة؛ فيرى أصحاب مالك: أن كشف ما بين السرة إلى الركبة محرم خارج الصلاة، وينجر الحكم في الصلاة تبعا وليس استقلالا للصلاة إن كان هناك من يراه، فلا يعلق الحكم بالصلاة بخصوصها، وجماعة من أصحاب مالك يجعلون كشف السوءتين محرما في الصلاة ولو كان وحده، ويجعلون كشفهما مبطلا لها.

وعلى ظاهر قول المالكية لا تبطل صلاة من بدت فخذه، وجاء عن مالك - وقال به بعض أصحابه -: أن عليه الإعادة ما دام في الوقت، ومنهم من يستحبها.

وجمهور العلماء: يرون عورته خارج الصلاة هي عورته داخل الصلاة ولو كان مصليا وحده، فمن صلى وبدت له فخذه لنفسه هو، وجب عليه الإعادة، بخلاف المالكية، فيرون أن ستر العورة واجب، لا شرط لصحة الصلاة.

* عورة المرأة في الصلاة: وأما عورة المرأة في الصلاة؛ فما سوى الوجه والكفين؛ وهذا بالاتفاق، وإنما يختلف العلماء في بدو القدمين في الصلاة، وجمهور العلماء على وجوب تغطية قدميها في الصلاة؛ خلافا لأبي حنيفة وبعض أهل الرأي؛ يقولون بأن كشف القدمين لا يبطل الصلاة، ولا تأثم له.

وما ظهر من عورة الرجل والمرأة في الصلاة وستر ولم يطل كشفه، فلا تبطل له الصلاة على الصحيح من أقوال الفقهاء، ولأن في إبطالها بما يبدو من العورة لحظة - مشقة) ويغتفر من العورة اليسير؛ كخرق يسير في ثوب يبدي شعر المرأة أو ساعدها، أو فخذ الرجل؛ وبه قال أحمد.

{وَالطَّيِّبَات} الْمُسْتَلَذَّات {مِنْ الرِّزْق قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا} بِالِاسْتِحْقَاقِ وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِيهَا غَيْرهمْ {خَالِصَة} خَاصَّة بِهِمْ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْب حَال {يَوْم الْقِيَامَة كَذَلِكَ نُفَصِّل الْآيَات} نُبَيِّنهَا مِثْل ذَلِكَ التَّفْصِيل {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} يَتَدَبَّرُونَ فَإِنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِهَا[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} [الأعراف: ٣٢].

يقول تعالى منكرًا على من تعنت، وحرم ما أحل اللّه من الطيبات (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ) من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، أي: مَن هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم اللّه بها على العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسَّعه اللّه؟ وهذا التوسيع من اللّه لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين.

قال الشنقيطي: أَمَرَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ سُؤَالَ إِنْكَارٍ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، كَاللِّبَاسِ فِي الطَّوَافِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ كَالْأَنْعَامِ، وَالْحَرْثِ الَّتِي حَرَّمَهَا الْكُفَّارُ، وَكَاللَّحْمِ وَالْوَدَكِ الَّذِي حَرَّمَهُ بَعْضُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْحَجِّ.

وَصَرَّحَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ: أَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا، كَقَوْلِهِ (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ)، وَقَوْلِهِ (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)، وَقَوْلِهِ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ)، وَطَلَبُهُمْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ طَلَبُ إِعْجَازٍ أَنْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لَهُمْ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا، وَنَهَى نَبِيَّهُ ﷺ إِنْ شَهِدَ لَهُمْ =

=

شُهُودُ زُورٍ أَنْ يَشْهَدَ مَعَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يتعرون عند طوافهم بالبيت، ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من طيبات الرزق: من حرم، أيها القوم، عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها".

قال ابن كثير: " يقول تعالى ردًا على من حَرَّم شيئًا من المآكل أو المشارب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: {قُلْ} يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: {مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ}".

قوله تعالى: {وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف: ٣٢]، أي: " ومَن الذي حرَّم عليكم التمتع بالحلال الطيب من رزق الله تعالى؟".

وفي قوله تعالى: {وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف: ٣٢]، قولان:

أحدهما: أنهم كانوا يحرمون في الإحرام أكل اللحم والسمن واللبن، قاله ابن زيد، والسدي.

والثاني: أنها البَحِيْرَةُ والسائبة التي حرموها على أنفسهم، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة.

قوله تعالى: {قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الأعراف: ٣٢]، أي: " قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إنَّ ما أحله الله من الملابس والطيبات من المطاعم والمشارب حق للذين آمنوا في الحياة الدنيا يشاركهم فيها غيرهم، خالصة لهم يوم القيامة".

قال الزمخشري: أي: " غير خالصة لهم، لأن المشركين شركاؤهم فيها خالصة

=

=

لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد".

قال ابن كثير: " أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حسًا في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يَشْرَكهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرّمة على الكافرين".

قال الحسن: " هي للمؤمنين خالصة في الآخرة لا يشاركهم فيها الكفار، فأما في الدنيا فقد شاركوهم".

قال ابن عباس: " يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين منها شيء".

قال عكرمة: " الزينة تخلص يوم القيامة لمن آمن اليوم في الدنيا".

عن الضحاك، في قوله: " {قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة}، قال: اليهود والنصارى يشاركونهم في هذه الدنيا، وهي للذين آمنوا خالصة يوم القيامة".

قال قتادة: " من عجل الإيمان في الدنيا خلصت له كرامة الله يوم القيامة، ومن ترك الإيمان في الدنيا نزع الله منه كرامة الآخرة ثم لقي الله لا عذر له".

وقرئ: «خالصة»، بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٢]، أي: " مثل ذلك التفصيل يفصِّل الله الآيات لقوم يعلمون ما يبيِّن لهم، ويفقهون ما يميز لهم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: كما بينت لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة، والحلال من المطاعم والمشارب والحرام منها، وميزت بين ذلك لكم، أيها الناس، كذلك أبين جميع أدلتي وحججي، وأعلام حلالي وحرامي وأحكامي، لقوم يعلمون ما يبين لهم، ويفقهون ما يميز لهم".

عن قتادة: "قوله: {كذلك نفصل الآيات}، نبين الآيات".

=

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣).

{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِش} الْكَبَائِر كَالزِّنَا {مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} أَيْ جَهْرهَا وَسِرّهَا {وَالْإِثْم} الْمَعْصِيَة {وَالْبَغْي} عَلَى النَّاس {بِغَيْرِ الْحَقّ} وَهُوَ الظُّلْم {وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاَللهِ مَا لَمْ يُنَزِّل بِهِ} بِإِشْرَاكِهِ {سُلْطَانًا} حُجَّة {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُونَ} مِنْ تَحْرِيم مَا لَمْ يُحَرِّم وَغَيْره[1].

=

قال سعيد بن جبير: " كذلك يعني: هكذا".

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأعراف: ٣٣]، أي: " قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إنما حَرَّم الله القبائح من الأعمال، ما كان منها ظاهرًا، وما كان خفيًّا".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من ثيابهم للطواف بالبيت، ويحرمون أكل طيبات ما أحل الله لهم من رزقه: أيها القوم، إن الله لم يحرم ما تحرمونه، بل أحل ذلك لعباده المؤمنين وطيبه لهم، وإنما حرم ربي القبائح من الأشياء وهي {الفواحش}، {ما ظهر منها}، فكان علانية، {وما بطن}، منها فكان سرا في خفاء".

وفي قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأعراف: ٣٣]، وجوه:

أحدها: أن ذلك عام في جميع الفواحش سرها وعلانيتها، قاله قتادة، واختاره الطبري.

الثاني: أن "الفواحش": الزنى خاصة، {مَا ظَهَرَ مِنْهَا}: ذوات الحوانيت، {وَمَا بَطَنَ}: ذوات الاستسرار، قاله ابن عباس، والحسن، والضحاك، والسدي.

=

=

الثالث: أن "الفواحش": الزنى خاصة، {مَا ظَهَرَ}، جمعٌ بين الأختين، وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده، {وما بطن}، الزنى. قاله مجاهد.

وروي عن علي بن حسين: قال: " {وَمَا بَطَنَ}: نكاح امرأة الأب".

الرابع: {مَا ظَهَرَ مِنْهَا}: نكاح الأمهات والبنات. وما بطن: الزنا. وهو مروي عن ابن عباس -أيضا-. وروي عن سعيد بن جبير، نحو ذلك في تفسيره: {مَا ظَهَرَ مِنْهَا}.

الخامس: أن {مَا ظَهَرَ مِنْهَا}: الخمر، {وَمَا بَطَنَ}: الزنى، وهو مروي الضحاك- أيضا.

قال ابن عطية: قوله تعالى (والإثم) أيضًا: لفظه عام لجميع الأفعال والأقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم، هذا قول الجمهور، وقال بعض الناس: هي الخمر واحتج على ذلك بقوله الشاعر:

شربت الإثم حتى طار عقلي...

قال ابن عطية: وهذا قول مردود لأن هذه السورة مكية ولم تعن الشريعة لتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد، لأن جماعة من الصحابة اصطحبوها يوم أحد وماتوا شهداء، وهي في أجوافهم، وأيضًا فبيت الشعر يقال إنه مصنوع مختلق، وإن صح فهو على حذف مضاف.

السادس: أن {مَا ظَهَرَ مِنْهَا}: الظلم، يعني: ظلم الناس، {وَمَا بَطَنَ} من الفواحش: الزنا والسرقة. وهذا قول عكرمة.

السابع: أن {مَا ظَهَرَ مِنْهَا}: العري، وكانوا يطوفون بالبيت عراة، {وَمَا بَطَنَ}، الزنى. وهذا قول مجاهد، والزهري.

الثامن: أن {مَا ظَهَرَ مِنْهَا}: أفعال الجوارح، {وَمَا بَطَنَ}، منها اعتقاد القلوب. وهذا قول سهل التستري، وذكره الماوردي.

=

=

والـراجح-والله أعلـم- هـو القـول الأول، فإنـه عـام في جميـع الفـواحش سـرها وعلانيته، فقوله: {مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَـنَ} :يشمل السر والعلـن، ويشمل مـا فعـل بالجوارح والنيات والمقاصد، وانطوت عليه القلوب.

قوله تعالى: {وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: ٣٣]، أي: " وحَرَّم المعاصي كلها، والاعتداء على الناس".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: إنما حرم ربي الفواحش مع الإثـم والبغـي على الناس".

قال الشوكاني: " {والبغي بغير الحق}، أي: الظلم المجاوز للحد، وأفرده بالـذكر بعد دخوله فيمـا قبله لكونـه ذنبـا عظيمـا كقولـه: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} [النحل: ٩٠]".

وفي قوله تعالى: {وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: ٣٣]، وجوه:

أحدها: أن {الإثم}: الخيانة في الأمور، {والبغي}: التعدي في النفوس.

الثاني: أن {الإثم}: الخمر، قاله الحسن، {والبغي}: السكر، قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضَلَّ عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

وسمي الخمر بالإثم، والسكر بالبغي لحدوثه عنهما.

الثالـث: أن {الإثـم}: المعـصية، {والبغـي}: الاسـتطالة علـى النـاس. وهـذا قـول مجاهد، والسدي، واختيار الطبري.

قال ابن كثير: " وحاصل ما فُسّر به «الإثم» أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، و «البغي» هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا".

قوله تعـالى: {وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [الأعـراف: ٣٣]، أي: " وحرَّم أن تعبدوا مع الله تعالى غيره مما لم يُنَزِّل به دليلا وبرهانًا".

قال ابن كثير: " أي: تجعلوا له شريكا في عبادته.

=

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤).

{وَلِكُلِّ أُمَّة أَجَل} مُدَّة {فَإِذَا جَاءَ أَجَلهمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ} عَنْهُ {سَاعَة وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} عَلَيْهِ(١).

=

قال الشوكاني: " أي: وأن تجعلوا الله شريكا لم ينزل عليكم به حجة. والمراد التهكم بالمشركين، لأن الله لا ينزل برهانا بأن يكون غيره شريكا له".

قال الزجاج: " ومَعْنى: {لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}، أَي: لم ينزل به حجةً".

قوله تعالى: {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]، أي: " وحرَّم أن تنسبوا إلى الله تعالى ما لم يشرعه افتراءً وكذبًا".

قال ابن كثير: " أي: وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك، مما لا علم لكم به".

قال البغوي: أي: " في تحريم الحرث والأنعام [والألبان والثياب]، في قول مقاتل. وقال غيره: هو عام في تحريم القول في الدين من غير يقين".

قال الشوكاني: "هذا مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التي لم يأذن بها".

القسم الثالث: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله؛ وهذا حرام أيضا.

فصار القول على الله حراما في حالين:

إحداهما: أن يقول على الله ما لا يعلم أن الله قاله، أم لم يقله.

والثانية: أن يقول على الله ما يعلم أن الله قال خلافه.

(١) قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} [الأعراف: ٣٤]، أي: " لكل أمة كذبت رسلها مدة مضروبة لهلاكها".

والأجل، هو الوقت الموقت المضروب لانقضاء المُهْلَة.

قال ابن عاشور: والمراد بالأمّة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك أو في

=

=

تكذيب الرّسل، كما يدلّ عليه السّياق من قوله تعالى (وأن تشركوا بالله) إلخ وليس المراد بالأمّة، الجماعةَ التي يجمعها نسب أو لغة إذ لا يتصوّر انقراضها عن بكرة أبيها.

قال الطبري: " يقول: ولكل جماعة اجتمعت على تكذيب رسل الله، ورد نصائحهم، والشرك بالله، مع متابعة ربهم حججه عليهم وقت لحلول العقوبات بساحتهم، ونزول المثلات بهم على شركهم".

قال الزمخشري: هذا" وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم".

قال أبو حيان: "هذا وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم، أي: أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا خالفوا أمر ربهم فأنتم أيتها الأمة كذلك".

قال ابن كثير: {أُمَّةٍ}: أي: " قرن وجيل".

قال القرطبي: "} أَجَلٌ}، أي: وقت مؤقت".

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: ٣٤]، أي: " فإذا جاء الوقت الذي وقَّته الله لإهلاكهم لا يتأخرون عنه لحظة، ولا يتقدمون عليه".

قال الطبري: " يقول: فإذا جاء الوقت الذي وقته الله لهلاكهم، وحلول العقاب بهم لا يتأخرون بالبقاء في الدنيا، ولا يمتعون بالحياة فيها عن وقت هلاكهم وحين حلول أجل فنائهم، ساعة من ساعات الزمان، ولا يتقدمون بذلك أيضا عن الوقت الذي جعله الله لهم وقتا للهلاك".

قال ابن كثير: {أَجَلُهُمْ} " أي: ميقاتهم المقدر لهم".

قال الزجاج: " المعنى: ولا يستقدمون ساعة، ولا أقل من ساعة، ولكن ذكِرَتِ

=

=

الساعة، لأنها أقل أسماءِ الأوقات".

قال الزمخشري: " وقال {ساعة}، لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس. يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة، يريد أقصر وقت وأقربه".

قال القرطبي: {أَجَلُهُمْ} " أي: الوقت المعلوم عند الله ﷻ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا أقل من ساعة، إلا أن الساعة خصت بالذكر لأنها أقل أسماء الأوقات، وهي ظرف زمان. ولا يستقدمون فدل بهذا على أن المقتول إنما يقتل بأجله. وأجل الموت هو وقت الموت، كما أن أجل الدين هو وقت حلوله. وكل شي وقت به شي فهو أجل له. وأجل الإنسان هو الوقت الذي يعلم الله أنه يموت الحي فيه لا محالة وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه، لأمن حيث إنه ليس مقدورا تأخيره. وقال كثير من المعتزلة إلا من شذ منهم: إن المقتول مات بغير أجله الذي ضرب له، وإنه لو لم يقتل لحيي. وهذا غلط، لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له، بل من أجل ما فعله الله من إزهاق نفسه عند الضرب له. فإن قيل: فإن مات بأجله فلم تقتلون ضاربه وتقتصون منه؟. قيل له: نقتله لتعديه وتصرفه فيما ليس له أن يتصرف فيه، لا لموته وخروج الروح إذ ليس ذلك من فعله. ولو ترك الناس والتعدي من غير قصاص لأدى ذلك إلى الفساد ودمار العباد. وهذا واضح".

عن سعيد بن أبي عروبة قال: "كان الحسن يقول: ما أحمق هؤلاء القوم! يقولون: اللهم أطل عمره، والله يقول: {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}".

وفي هذه الآية قولان:

القول الأول: أن المعنى أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسولها إلى وقت معين، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين

=

=

لعذاب الاستئصال، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة. وهو قول ابن عباس، والحسن، ومقاتل.

والقول الثاني: أن المراد بهذا الأجل العمر، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه، والقول الأول: أولى، لأنه تعالى قال (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) ولم يقل: ولكل أحد أجل.

قال ابن عطية: قوله تعالى (ولكل أمة أجل) يتضمن الوعيد والتهديد، والمعنى ولكل أمة أي فرقة وجماعة، وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس، أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيتها الأمة كذلك قاله الطبري وغيره.

قال ابن عاشور: وذِكْرُ عموم الأمم في هذا الوعيد، مع أنّ المقصود هم المشركون من العرب الذين لم يؤمنوا، إنّما هو مبالغة في الإنذار والوعيد بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم على طريقة الاستشهاد بشواهد التّاريخ في قياس الحاضر على الماضي فيكون الوعيد خبراً معضودًا بالدّليل والحجّة، كما قال تعالى في آيات كثيرة منها (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أي: ما أنتم إلاّ أمة من الأمم المكذّبين ولكلّ أمّة أجل فأنتم لكم أجل سيحين حينه.

وذِكر الأجل هنا، دون أن يقول لكلّ أمّة عذاب أو استئصال، إيقاظًا لعقولهم من أن يغرّهم الإمهال فيحسبوا أنّ الله غيرُ مؤاخذهم على تكذيبهم، كما قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وطمأنةً للرسول - عليه السلام - بأنّ تأخير العذاب عنهم إنّما هو جري على عادة الله تعالى في إمهال الظّالمين على حدّ قوله (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذّبوا جاءهم نصرنا) وقوله (لا يغرنَّك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل).

=

يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥).

{يَا بَنِي آدَم إِمَّا} فِيهِ إدْغَام نُون إنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الْمَزِيدَة {يَأْتِيَنكُمْ رُسُل مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى} الشِّرْك {وَأَصْلَحَ} عَمَله {فَلَا خَوْف عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} فِي الْآخِرَة[1].

=

(فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) المراد أنه لا يتأخر عن ذلك الأجل المعين لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة إلا أنه تعالى ذكر الساعة لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات.

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة، وإنما المراد بها الوقت الذي هو في غاية القلة.

(١) قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} [الأعراف: ٣٥].

يا بني آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم، يتلون عليكم آياتي التي أنزلتها عليهم لهدايتكم، فآمنوا بهم وعزروهم وانصروهم، فإن من آمن بهم واتقى ما نهاه عنه ربه، وأصلح نفسه وعمله، فأولئك لا خوف عليهم يوم القيامة، ولا هم يحزنون لمفارقتهم الدنيا

- قال الرازي: وإنما قال (مّنكُمْ) لأن كون الرسول منهم أقطع لعذرهم وأبين للحجة عليهم من جهات:

أحدها: أن معرفتهم بأحواله وبطهارته تكون متقدمة.

وثانيها: أن معرفتهم بما يليق بقدرته تكون متقدمة فلا جرم لا يقع في المعجزات التي تظهر عليه شك وشبهة في أنها حصلت بقدرة الله تعالى لا بقدرته فلهذا السبب

=

=

قال تعالى (وَلَوْ جعلناه مَلَكًا لجعلناه رَجُلًا).

وثالثها: ما يحصل من الألفة وسكون القلب إلى أبناء الجنس، بخلاف ما لا يكون من الجنس، فإنه لا يحصل معه الألفة.

وقال ابن عاشور: قوله (منكم) أي من بني آدم، وهذا تنبيه لبَني آدم بأنّهم لا يترقّبون أن تجيئهم رسل الله من الملائكة، لأنّ المرسَل يكون من جنس من أرسل إليهم، وفي هذا تعريض بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة الرّسل لأنّهم من جنسهم، مثل قوم نوح، إذ قالوا (ما نراك إلا بشرًا مثلنا) ومثل المشركين من أهل مكّة إذ كذّبوا رسالة محمّد ﷺ بأنّه بَشر قال تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أَبَعثَ الله بشرًا رسولًا قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولًا).

قوله تعالى: {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ} [الأعراف: ٣٥]، أي: " فمن اتقى منكم ربه بفعل الطاعات وترك المحرمات وأصلح عمله".

قال الطبري: "يقول: فمن آمن منكم بما أتاه به رسلي مما قص عليه من آياتي وصدق، واتقى الله فخافه بالعمل بما أمره به والانتهاء عما نهاه عنه على لسان رسوله، وأصلح أعماله التي كان لها مفسدا قبل ذلك من معاصي الله بالتحوب منها".

فأما «المتقون»: "فهم الذين اتقوا الله في أمره ونهيه وحدوده، فقاموا بها على ما كلفهم القيام بها خشية منهم له، ووجلا منهم من عقابه".

و «التقوى»: هي القيام بطاعة الله على علم وبصيرة؛ وما أحسن ما قاله بعضهم: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله على نور من الله تخشى عقاب الله.

روي "عن ابن عباس: {المتقين}، أي: الذين يحذرون من الله عقوبته وترك ما

=

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا} تَكَبَّرُوا {عَنْهَا} فَلَمْ يؤمنوا بها {أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[1]}.

=

يعرفون من الهوى، ويرجون رحمته، بتصديق ما جاء منه".

عن سعيد بن جبير، في قول الله: "{وأصلح}، يعني: العمل".

قوله تعالى: {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأعراف: ٣٥]، أي: " فلا خوف عليهم يوم القيامة من عقاب الله تعالى، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا".

قال الطبري: "يقول: فلا خوف عليهم يوم القيامة من عقاب الله إذا وردوا عليه = (ولا هم يحزنون)، على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها، وشهواتهم التي تجنبوها، اتباعا منهم لنهي الله عنها، إذا عاينوا من كرامة الله ما عاينوا هنالك".

عن سعيد بن جبير: " {فلا خوف عليهم}، يعني: في الآخرة"، " {ولا هم يحزنون}، يعني: لا يحزنون للموت".

(فائدة): الفرق بين نفي الخوف ونفي والحزن، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظرًا، أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتقى وأصلح، وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا} [الأعراف: ٣٦]، أي: "
=

=

والكفار الذين كذَّبوا بالدلائل على توحيد الله، واستعلَوا عن اتباعها".

والآيات جمع آية، والآية تطلق في القرآن على معنيين:

المعنى الأول: الآية الكونية القدرية. (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها).

وهي ما نصبه الله (جل وعلا) ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة، كالشمس والسماء والأرض ونحوها، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي: لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون، وهو المعبود وحده.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: المعنى الثاني: الآية الشرعية الدينية، كآيات هذا القرآن العظيم. (لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله).

ومنه قوله تعالى (رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ) وقوله تعالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ).

وسميت آيات، جمع آية، لأنها علامة على صدق من جاء بها.

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: وأما من كذب بإيتاء رسلي التي أرسلتها إليه، وجحد توحيدي، وكفر بما جاء به رسلي، واستكبر عن تصديق حججي وأدلتي".

قال ابن عباس: " هم الكفار الذين خلقهم الله للنار وخلق النار لهم، فزالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الأعراف: ٣٦]، أي: "

=

=

أولئك أصحاب النار ماكثين فيها".

قال الطبري: " يقول: هم في نار جهنم ماكثون، لا يخرجون منها أبدا".

قال أبو مالك: " فهم أصحاب النار يعذبون فيها".

قال ابن عطية: "والصحبة الاقتران بالشيء في حالة ما، في زمن ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهو كمال الصحبة، وهكذا هي صحبة أهل النار لها، وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، أقلها الاقتران في الإسلام والزمن، وأكثرها الخلطة والملازمة".

قوله تعالى: {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الأعراف: ٣٦]، أي: " لا يخرجون منها أبدًا".

قال الطبري: " يقول: لا يخرجون منها أبدا".

قال ابن عباس: " أي: خالدا أبدا لا انقطاع له".

قال سعيد بن جبير: " يعني: لا يموتون".

قال ابن عثيمين: "أي ماكثون؛ والمراد بذلك المكث، الدائم الأبدي؛ ودليل ذلك ثلاث آيات في كتاب الله؛ آية في النساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجن؛ أما آية النساء فقوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا} [النساء: ١٦٨، ١٦٩]؛ وأما آية الأحزاب فقوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا * خالدين فيها أبدا} [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]؛ وأما آية الجن فقوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} [الجن: ٢٣]".

وقد ذكر الله تأبيده لأهل النار في ثلاث آيات من القرآن الكريم.

في سورة النساء: قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا).

وفي سورة الأحزاب: قال تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا).

=

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧).

{فَمَنْ} أَيْ لَا أَحَد {أَظْلَم مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا} بِنِسْبَةِ الشَّرِيك وَالْوَلَد إِلَيْهِ {أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} الْقُرْآن {أُولَئِكَ يَنَالهُمْ} يُصِيبهُمْ {نَصِيبهمْ} حَظّهمْ {مِنْ الْكِتَاب} مِمَّا كُتِبَ لَهُمْ فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ مِنْ الرِّزْق وَالْأَجَل وَغَيْر ذَلِكَ {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلنَا} أَيْ الْمَلَائِكَة {يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا} لَهُمْ تَبْكِيتًا {أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله قَالُوا ضَلُّوا} غَابُوا {عَنَّا} فَلَمْ نَرَهُمْ {وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسهمْ} عند الموت {أنهم كانوا كافرين}.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨).

{قَالَ} تَعَالَى لَهُمْ يَوْم الْقِيَامَة {ادْخُلُوا فِي} جُمْلَة {أُمَم قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلكُمْ مِنْ الْجِنّ وَالْإِنْس فِي النَّار} مُتَعَلِّق بِادْخُلُوا {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّة} النَّار {لَعَنَتْ أُخْتهَا} الَّتِي قَبْلهَا لِضَلَالِهَا بِهَا {حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا} تَلَاحَقُوا {فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ} وَهُمْ الْأَتْبَاع {لِأُولَاهُمْ} أَيْ لِأَجِلَّائِهِمْ وَهُمْ الْمَتْبُوعُونَ {رَبّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عذابا ضعفا} مضاعفا {من النار قَالَ} تَعَالَى {لِكُلٍّ} مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ

=

وفي سورة الجن: قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا).

{ضِعْف} عَذَاب مضاعف {وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء مَا لِكُلٍّ فريق.

وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩).

{وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْل} لِأَنَّكُمْ لَمْ تَكْفُرُوا بِسَبَبِنَا فَنَحْنُ وأنتم سواء قال تعالى لهم {فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} [الأعراف: ٣٧]، أي: " لا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق على الله تعالى الكذب، أو كذَّب بآياته المنزلة، والاستفهام للإنكار".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فمن أخطأ فعلا وأجهل قولا وأبعد ذهابا عن الحق والصواب ممن اختلق على الله زورا من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنا بها، أو كذب بأدلته وأعلامه الدالة على وحدانيته ونبوة أنبيائه، فجحد حقيقتها ودافع صحتها".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ} [الأعراف: ٣٧].

قال الطبري: " يقول: من فعل ذلك، فافترى على الله الكذب وكذب بآياته [أولئك] يصل إليهم حظهم مما كتب الله لهم في اللوح المحفوظ".

واختلف في قوله تعالى: {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ} [الأعراف: ٣٧]، على وجوه:

أحدها: هو عذاب الله الذي أعده لمن أشرك، قاله الحسن، والسدي، وأبو صالح.

الثاني: ما سبق لهم من الشقاء والسعادة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد، وعطية.

الثالث: نصيب من كتابهم الذي كتبنا لهم أو عليهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا من خير أو شر، قاله الضحاك، وقتادة، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد أيضا.

=

=

الرابع: نصيبهم مما كتب لهم من العمر والرزق والعمل، قاله الربيع بن أنس، وابن زيد، والقرظي.

الخامس: نصيبهم مما وعدوا في الكتاب من خير أو شر، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضا.

السادس: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب الذي كتبه الله على من افترى عليه. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس أيضا.

قال الطبري: **"** وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، مما كتب لهم من خير وشر في الدنيا، ورزق وعمل وأجل. وذلك أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله: {حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله}، فأبان بإتباعه ذلك قوله: {أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب}، أن الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كان مقضيا عليهم في الدنيا أن ينالهم، لأنه قد أخبر أن ذلك ينالهم إلى وقت مجيئهم رسله لتقبض أرواحهم. ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب، أو مما قد أعد لهم في الآخرة، لم يكن محدودا بأنه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم، لأن رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة، وأن عذابهم في الآخرة لا آخر له ولا انقضاء، فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه. فبين بذلك أن معناه ما اخترنا من القول فيه".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} [الأعراف: ٣٧]، أي: " حتى إذا جاءهم ملك الموت وأعوانه يقبضون أرواحهم".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} [الأعراف: ٣٧]، وجهان:

احدهما: أن المعنى: حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت يتوفونهم سألوهم عند المعاينة.

فيعرفون عند موتهم أنهم كانوا كافرين.

=

والثـاني: معنـاه: حتـى إذا جـاءتهم رسـلنا ملائكـة العـذاب يتوفـونهم، فيكـون {يتوفونهم} في هذا الموضع على ضربين:
أحدهما: يتوفونهم عذابا، وهذا كما تقول: قد قتلت فلانا بالعذاب وإن لـم يمـت، ودليل هذا القول قوله ﷻ: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ} [إبراهيم: ١٧].
وجائز -وهو أضعف الوجهين- أنهم يتوفون عدتهم.
قوله تعالى: {قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الأعراف: ٣٧]، أي: " قـالوا لهـم: أيـن الـذين كنـتم تعبـدونهم مـن دون الله مـن الـشركاء والأوليـاء والأوثـان ليخلِّصوكم مما أنتم فيه؟".
قال ابن أبي زمنين: " يعني: شركاؤكم".
قال الواحدي: " سؤال توبيخ وتبكيت وتقريع".
قال السمعاني: " يعني: الرسل يقولون للكفار: أين الذين كنتم تدعون مـن دون الله من الأصنام؟".
قال الطبري: " يقول: قالت الرسل: أيـن الـذين كنـتم تـدعونهم أوليـاء مـن دون الله وتعبدونهم، لا يدفعون عنكم ما قد جاءكم من أمر الله الذي هو خالقكم وخالقهم، ومـا قـد نـزل بـساحتكم مـن عظـيم الـبلاء؟ وهـلا يغيثـونكم مـن كـرب مـا أنـتم فيـه فينقذونكم منه؟".
قوله تعالى: {قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا} [الأعراف: ٣٧].
لفظ الضلال في القرآن يطلق على ثلاثة إطلاقات:
الأول: إطلاق الـضلال علـى الـضلال عـن طريـق الهـدى إلـى طريـق الزيـغ، وعـن طريق الجنة إلى طريق النار.
كمـا قـال تعـالى (وَمَـنْ يُـضْلِلْ فَأُولَئِـكَ هُـمُ الْخَاسِـرُونَ).ومنـه قولـه تعـالى (غَيْـرِ

=

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ).

ومنه قوله تعالى (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)، وهذا أغلب استعمال الضلال.

والثاني: هو إطلاق الضلال على الغَيْبَة والاضمحلال.

ومنه قوله تعالى (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي: غاب واضمحل ولم يبق له أثر.

ومنه قوله تعالى (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فمعنى (ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) أي: اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها.

والثالث: إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء، فكل ما لم يهتد إلى علم شيء تقول العرب: ضل.

ومنه قول أولاد يعقوب (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي: ذهاب عن علم الحقيقة حيث يفضّل يوسف علينا.

وقوله (قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ) أي: ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء، لأنك تظن يوسف حيًا، ولا يريدون الضلال، لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبيًا من الأنبياء. (الشنقيطي).

ومنه قوله تعالى (لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) أي: لا يذهب عنه علم شيء ولا ينسى شيئًا.

قال الزجاج: " أي بطلوا وذهبوا".

قال الطبري: " فأجابهم الأشقياء فقالوا: ضل عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون الله. يعني بقوله: {ضلوا}، جاروا وأخذوا غير طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا".

=

=

قوله تعالى: {وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} [الأعراف: ٣٧]، أي: " واعترفوا على أنفسهم حينئذ أنهم كانوا في الدنيا جاحدين مكذبين وحدانية الله تعالى".

قال الطبري: " يقول الله جل ثناؤه: وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بالله، جاحدين وحدانيته".

قال البغوي: " اعترفوا عند معاينة الموت، {أنهم كانوا كافرين}".

قوله تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ} [الأعراف: ٣٨]، أي: " قال الله تعالى -لهؤلاء المشركين المفترين-: ادخلوا النار في جملة جماعات من أمثالكم في الكفر، قد سلفت من قبلكم من الجن والإنس".

وفي هذا دليل على أن الجني الكافر يدخل النار وهذا بالإجماع:

كما قال تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ).

وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ).

وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ).

قال الطبري: " هذا خبر من الله جل ثناؤه عن قيله لهؤلاء المفترين عليه، المكذبين آياته يوم القيامة. يقول تعالى ذكره: قال لهم حين وردوا عليه يوم القيامة، ادخلوا، أيها المفترون على ربكم، المكذبون رسله، في جماعات من ضربائكم قد سلفت من قبلكم {من الجن والإنس في النار}، ومعنى ذلك: ادخلوا في أمم هي في النار، قد خلت من قبلكم من الجن والإنس وإنما يعني بـ"الأمم"، الأحزاب وأهل الملل الكافرة".

قوله تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [الأعراف: ٣٨].

=

=

أي: كلما دخلت طائفة النار لعنت التي قبلها لضلالها بها.

قال الآلوسي: يلعن الاتباع القادة يقولون: أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى.

والمراد ان أهل النار يلعن بعضهم بعضًا كقوله تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضًا).

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (كلما دخلت أُمة لعنت أُختها) وهذه أُخُوَّةُ الدِّين والملَّة، لا أُخُوَّةُ النسب.

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: كلما دخلت النار جماعة من أهل ملة لعنت أختها، يقول: شتمت الجماعة الأخرى من أهل ملتها، تبريا منها".

قال السدي: " يقول: كلما دخل أهل ملة لعنوا أصحابهم على ذلك الدين، يلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والصابئون الصابئين، والمجوس المجوس، تلعن الآخرة الأولى".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا} [الأعراف: ٣٨]، أي: " حتى إذا تلاحق في النار الأولون من أهل الملل الكافرة والآخرون منهم جميعًا".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: حتى إذا تداركت الأمم في النار جميعا، يعني اجتمعت فيها، يقول: اجتمع فيها الأولون من أهل الملل الكافرة والآخرون منهم".

قوله تعالى: {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا} [الأعراف: ٣٨]، أي: " قال الآخرون المتبعون في الدنيا لقادتهم: ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن الحق".

قال الطبري: " وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن محاورة الأحزاب من أهل الملل الكافرة في النار يوم القيامة. يقول الله تعالى ذكره: فإذا اجتمع أهل الملل الكافرة في النار فادارکوا، قالت أخرى أهل كل ملة دخلت النار الذين كانوا في الدنيا بعد

=

=

أولى منهم تقدمتها وكانت لها سلفا وإماما في الضلالة والكفر لأولاها الذين كانوا قبلهم في الدنيا: ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك، ودعونا إلى عبادة غيرك، وزينوا لنا طاعة الشيطان".

عن السدي: {قالت أخراهم}، الذين كانوا في آخر الزمان، {لأولاهم}، الذين شرعوا لهم ذلك الدين {ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار}".

قوله تعالى: {فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ} [الأعراف: ٣٨]، أي: " فآتهم عذابًا مضاعفا من النار".

قال الطبري: أي: " فآتهم اليوم من عذابك الضعف على عذابنا".

قوله تعالى: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ} [الأعراف: ٣٨]، أي: " قال الله تعالى: لكل ضعف، أي: لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف من النار".

قال الطبري: أي: " لكلكم، أولكم وآخركم، وتابعوكم ومتبعوكم {ضعف}، يقول: مكرر عليه العذاب، و «ضعف الشيء»، مثله مرة".

عن السدي قال الله: "{لكل ضعف}، للأولى، وللآخرة ضعف".

عن مجاهد في قول الله: "{عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف}، مضعف".

وعن عن مرة، عن عبد الله: "{فآتهم عذابا ضعفا من النار}، قال: حيات وأفاعي".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٨]، أي: "ولكن لا تدركون أيها الأتباع ما لكل فريق منكم من العذاب والآلام".

قال الصابوني: " أي: لا تعلمون هوله ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب".

قال الطبري: " يقول: ولكنكم، يا معشر أهل النار، لا تعلمون ما قدر ما أعد الله لكم من العذاب، فلذلك تسأل الضعف منه الأمة الكافرة الأخرى لأختها الأولى".

قوله تعالى: {وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} [الأعراف:

=

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠).

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا} تَكَبَّرُوا {عَنْهَا} فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا {لَا تُفَتَّح

=

٣٩]، أي: " وقال المتبوعون من الرؤساء وغيرهم لأتباعهم: نحن وأنتم متساوون في الغيِّ والضلال، وفي فِعْلِ أسباب العذاب فلا فَضْلَ لكم علينا".

قال القرطبي: " أي: قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فليس تستحقون تخفيفا من العذاب".

قال النسفي: " أي: فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وأنا متساوون في استحقاق الضعف".

قال ابن مجلز: " يقول: فما فضلكم علينا وقد تبين لكم ما صنع بنا وحذرتم".

عن مجاهد قوله: "{فما كان لكم علينا من فضل}، تخفيف العذاب".

عن السدي: قوله: "{وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل}، وقد ضللتم كما ضللنا".

قوله تعالى: {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٣٩]، أي: " قال الله تعالى لهم جميعًا: فذوقوا العذاب، أي: عذاب جهنم؛ بسبب ما كسبتم من المعاصي".

قال مقاتل: " يعني: تقولون من الشرك والتكذيب".

قال النسفي: أي: " بكسبكم وكفركم وهو من قول القادة للسفلة ولا وقف على فَضَّلَ أو من قول الله لهم جيمعا والوقف على فضل".

قال الصابوني: " أي: فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم، قالوه لهم على سبيل التشفي لأنهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب".

لَهُمْ أَبْوَاب السَّمَاء} إذَا عُرِجَ بِأَرْوَاحِهِمْ إلَيْهَا بَعْد الْمَوْت فَيُهْبَط بِهَا إلَى سِجِّين بِخِلَافِ الْمُؤْمِن فَتُفَتَّح لَهُ وَيُصْعَد بِرُوحِهِ إلَى السَّمَاء السَّابِعَة كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيث {وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّة حَتَّى يَلِج} يَدْخُل {الْجَمَل فِي سَمِّ الْخِيَاط} ثُقْب الْإِبْرَة وَهُوَ غَيْر مُمْكِن فَكَذَا دُخُولهمْ {وَكَذَلِكَ} الجزاء {نجزي المجرمين} بالكفر.

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)

{لَهُمْ مِنْ جَهَنَّم مِهَاد} فِرَاش {وَمِنْ فَوْقهمْ غَوَاشٍ} أَغْطِيَة مِنْ النَّار جَمْع غَاشِيَة وَتَنْوِينه عوض من الياء المحذوفة {وكذلك نجزي الظالمين[١]}.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا} [الأعراف: ٤٠]، أي: " إن الكفار الذين لم يصدِّقوا بحججنا وآياتنا الدالة على وحدانيتنا، ولم يعملوا بشرعنا تكبرًا واستعلاءً".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: إن الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا فلم يصدقوا بها، ولم يتبعوا رسلنا، وتكبروا عن التصديق بها وأنفوا من اتباعها والانقياد لها تكبرا".

قوله تعالى: {لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ} [الأعراف: ٤٠]، أي: "لا تُفتَّح لأعمالهم في الحياة ولا لأرواحهم عند الممات أبواب السماء".

قال الطبري:: " {لاتفتح لهم}: لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم، {أبواب السماء}، ولا يصعد لهم في حياتهم إلى الله قول ولا عمل، لأن أعمالهم خبيثة، وإنما يرفع الكلم الطيب والعمل الصالح، كما قال جل ثناؤه: {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [سورة فاطر: ١٠]".

وفي قوله تعالى: {لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ} [الأعراف: ٤٠]، وجوه:

أحدها: أي لا تفتح لأرواحهم، لأنها تفتح لروح الكافر وتفتح لروح المؤمن، قاله ابن عباس، والسدي.

=

=

قال السدي: " إن الكافر إذا أخذ روحه، ضربته ملائكة الأرض حتى يرتفع إلى السماء، فإذا بلغ السماء الدنيا ضربته ملائكة السماء فهبط، فضربته ملائكة الأرض فارتفع، فإذا بلغ السماء الدنيا ضربته ملائكة السماء الدنيا فهبط إلى أسفل الأرضين. وإذا كان مؤمنا نفخ روحه، وفتحت له أبواب السماء، فلا يمر بملك إلا حياه وسلم عليه، حتى ينتهي إلى الله، فيعطيه حاجته، ثم يقول الله: ردوا روح عبدي فيه إلى الأرض، فإني قضيت من التراب خلقه، وإلى التراب يعود، ومنه يخرج".

والثاني: لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم، قاله مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وهو مروي عن ابن عباس أيضا.

وقال الحسن: " لا تفتح لدعائهم".

والثالث: لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم ولا لأعمالهم. قاله ابن جريج.

والرابع: لا تفتح لهم أبواب السماء لدخول الجنة، لأن الجنة في السماء، وهذا قول بعض المتاخرين.

والخامس: لا تفتح لهم أبواب السماء لنزول الرحمة عليهم، قاله ابن بحر.

والسادس: وقيل: لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون، قال تعالى: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ} [القمر: ١١]. ذكره الزمخشري.

والصواب -والله أعلم- أن المعنى: لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم، ولا يصعد لهم في حياتهم إلى الله قول ولا عمل، وذلك لعموم خبر الله جل ثناؤه أن أبواب السماء لا تفتح لهم. ولم يخصص الخبر بأنه يفتح لهم في شيء، فذلك على ما عمه خبر الله تعالى بأنها لا تفتح لهم في شيء، مع تأييد الخبر عن رسول الله ﷺ ما قلنا في ذلك، إذ روي عن البراء: «أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون

=

=

على ملإ من الملائكة إلا قالوا: "ما هذا الروح الخبيث"؟ فيقولون: "فلان"، بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له فلا يفتح له. ثم قرأ رسول الله: {لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط}».

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: "اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان"، قال: فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: "من هذا"؟ فيقولون: "فلان". فيقال: مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان"، فيقال لها حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله. وإذا كان الرجل السوء قال: "اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج"، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: "من هذا"؟ فيقولون: "فلان". فيقولون: "لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم تفتح لك أبواب السماء"، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر».

وقرئ: «لا تفتّح»، بالتاء وتشديد التاء الثانية، بمعنى: لا يفتح لهم باب بعد باب، وشيء بعد شيء.

قوله تعالى: {وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف: ٤٠]، أي: "، ولا يمكن أن يدخل هؤلاء الكفار الجنة إلا إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة".

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه: ولا يدخل هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا

=

=

عنها، الجنة التي أعدها الله لأوليائه المؤمنين أبدا، كما لا يلج الجمل في سم الخياط أبدا، وذلك ثقب الإبرة".

قال الصابوني: " وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته مبالغة في التصوير".

وكل ثقب في عين أو أنف أو غير ذلك، فإن العرب تسميه: "سما" وتجمعه: "سموما"، و"السمام"، في جمع "السم" القاتل، أشهر وأفصح من"السموم". وهو في جمع"السم" الذي هو بمعنى الثقب أفصح، وكلاهما في العرب مستفي، ومن "السم" الذي بمعنى: "الثقب"، قول الفرزدق:

فنفست عن سميه حتى تنفسا وقلت له: لا تخش شيئا ورائيا

يعني بسميه، ثقبي أنفه.

وأما «الخياط» فإنه «المخيط»، وهي الإبرة.

وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «حتى يلج الجمل الأصفر».

والثانية: «الجُمَّل» -بضم الجيم وتشديد الميم- وهو: القلس الغليظ، وهذه قراءة سعيد بن جبير، وعكرمة، وإحدى قراءتي ابن عباس، وكان ابن عباس يتأول أنه «حبل السفينة».

عن ابن عباس في قوله: " {حتى يلج الجمل في سم الخياط}، قال: هو قلس السفينة".

عن مجاهد في قوله: " {حتى يلج الجمل في سم الخياط}، قال: حبل السفينة في سم الخياط".

وروي أن عكرمة كان يقرأ: "«الجمل» مثقلة، ويقول: هو الحبل الذي يصعد به إلى النخل".

قال الطبري: " وكان بعض أهل العربية ينكر التشديد في «الميم» ويقول: إنما أراد

=

=

الراوي «الجمل» بالتخفيف، فلم يفهم ذلك منه فشدده".
ثم أخرج الطبري عن الكسائي أنه قال: "الذي رواه عن ابن عباس كان أعجميا".
ومعنى الكلام أنهم لا يدخلون الجنة أبدًا كما لا يدخل الجمل في سم الخياط أبدًا، وضرب المثل بهذا أبلغ في إياسهم من إرسال الكلام وإطلاقه في النفي، والعرب تضرب هذا للمبالغة، قال الشاعر:

إذا شَابَ الغُرابُ أَتَيْتُ أهْلي وصارَ القارُ كاللَّبنِ الحليبِ

قال الزمخشري: {الجمل} " معناها القلس الغليظ، لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة. وعن ابن عباس رضى الله عنه: إن الله أحسن تشبيها من أن يشبه بالجمل، يعنى أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة، والبعير لا يناسبه، إلا أن قراءة العامة أوقع لأن سم الابرة مثل في ضيق المسلك. يقال: أضيق من خرت الابرة. وقالوا للدليل الماهر: خريت، للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر، قال:
جسم الجمال وأحلام العصافير
«إن الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام»، فقيل: لا يدخلون الجنة، حتى يكون ما لا يكون أبدا من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع، في ثقب الإبرة، والجمل: مثل في عظم الجرم".
قال الماوردي: ومعنى الكلام: أنهم لا يدخلون الجنة أبدًا كما لا يدخل الجمل في سم الخياط أبدًا، وضرب المثل بهذا أبلغ في إياسهم من إرسال الكلام وإطلاقه في النفي، والعرب تضرب هذا للمبالغة، قال الشاعر:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وعاد القار كاللبن الحليب.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط) الجمل: هو الحيوان المعروف.

=

فإن قال قائل: كيف خص الجمل دون سائر الدواب، وفيها ما هو أعظم منه؟ فعنه جوابان.

أحدهما: أن ضرب المثل بالجمل يحصّل المقصود؛ والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة، كما لا يدخل الجمل في ثقَب الإبرة، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه، جاز، والناس يقولون: فلان لا يساوي درهمًا، وهذا لا يغني عنك فتيلًا، وإن كنا نجد أقل من الدرهم والفتيل.

والثاني: أن الجمل أكبر شأنًا عند العرب من سائر الدواب، فإنهم يقدِّمونه في القوَّة على غيره، لأنه يوقَر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب، ولهذا عجَّبهم من خلق الإبل، فقال (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) فآثر الله ذكره على غيره لهذا المعنى.

وقال الشوكاني: وخص الجمل بالذكر، لكونه يضرب به المثل في كبر الذات، وخص سمّ الخياط، وهو ثقب الإبرة بالذكر، لكونه غاية في الضيق.

قال بعض العلماء:... على أن في إيثار الجمل، وهو مما ليس من شأنه الولوج في سم الإبرة مبالغة في استبعاد دخولهم الجنة.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف: ٤٠]، أي: " ومثل ذلك الجزاء نجزي الذين كثر إجرامهم، واشتدَّ طغيانهم".

قال الطبري: " يقول: وكذلك نثيب الذين أجرموا في الدنيا ما استحقوا به من الله العذاب الأليم في الآخرة".

قال الزمخشري: أي: " ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي المجرمين ليؤذن أن الاجرام هو السبب الموصل إلى العقاب، وأن كل من أجرم عوقب".

قوله تعالى: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ} [الأعراف: ٤١]، أي: " هؤلاء الكفار مخلدون في النار، لهم مِن جهنم فراش مِن تحتهم".

=

قال الطبري: "} مِهَادٌ}: وهو ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع، كالفراش الذي يفرش، والبساط الذي يبسط".

عن محمد بن كعب: "{لهم من جهنم مهاد}، قال: الفراش".

قال الضحاك: " «المهاد»، الفرش".

قال السدي: " «المهاد»: كهيئة الفراش".

قوله تعالى: {وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [الأعراف: ٤١]، أي: " ومن فوقهم أغطية تغشاهم".

عن محمد بن كعب: "{ومن فوقهم غواش}، قال: اللحف".

قال الضحاك: " «الغواشي»، اللحف".

قال السدي: " «الغواشي»، تتغشاهم من فوقهم".

قال الماوردي: والمراد بذلك أن النار من فوقهم ومن تحتهم، فعبر عما تحتهم بالمهاد، وعما فوقهم بالغواش.

كقوله تعالى (لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلك يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ يا عبادِ فاتقون).

قال ابن عاشور: والمِهاد بكسر الميم ما يُمْهَد أي يفرش، و"غواش" جمع غاشية وهي مَا يغشى الإنسانَ، أي يغطّيه كاللّحاف، شبّه ما هو تحتهم من النّار بالمِهاد، وما هو فوقهم منها بالغواشي، وذلك كناية عن انتفاء الرّاحة لهم في جهنّم، فإنّ المرء يحتاج إلى المهاد والغاشية عند اضطجاعه للرّاحة، فإذا كان مهادهم وغاشيتهم النّار.

وفي قوله تعالى: {وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} [الأعراف: ٤١]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها اللحف. قاله الضحاك، ومحمد بن كعب.

والثاني: اللباس. ذكره الماوردي.

=

=

والثالث: الظلل، قاله الحسن.

قال الماوردي: " المراد بذلك أن النار من فوقهم ومن تحتهم، فعبر عما تحتهم بالمهاد، وعما فوقهم بالغواش".

قال الطبري: " معنى الكلام: لهم من جهنم مهاد من تحتهم فرش، ومن فوقهم منها لحف، وإنهم بين ذلك".

وقرئ: «غواش»، بالرفع.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤١]، أي: " وبمثل هذا العقاب الشديد يعاقب الله تعالى الظالمين الذين تجاوزوا حدوده فكفروا به وعصَوْه".

قال الطبري: " يقول: وكذلك نثيب ونكافئ من ظلم نفسه، فأكسبها من غضب الله ما لا قبل لها به بكفره بربه، وتكذيبه أنبياءه".

قال الزمخشري: " لأن كل مجرم ظالم لنفسه".

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) الذين عبدوا غير الله، فإن عبادة غير الله من أعظم الظلم، لأنها وضع للعبادة لمن لا يستحقها.

فالشرك أعظم الظلم، لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والمشرك ظالم، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر، ولأجل هذا البيان فإن القرآن يكثر الله فيه إطلاق الظلم على الشرك، كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم)، وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال: بشرك، ثم تلا قول لقمان (إن الشرك لظلم عظيم)، وقال تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين) أي: من المشركين.

=

=

(منبهة): قال الله تعالى: (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين (٤٠)) [الأعراف: ٤٠].

وفي الحديث: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان أبو ذر - رضي الله عنه - يحدث أن رسول ﷺ قال:...، فذكر حديث الإسراء بطوله، ثم ذكر قول النبي ﷺ: "فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد ﷺ. فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا؛ فإذا رجل قاعد، على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة؛ إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحبا بالنبي الصالح، والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه؛ فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى...". أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

وقد جاء في السنة ما يؤكد معنى الآية، فعن البراء بن عازب - رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ قال: "إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه؛ فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق في جسده؛ فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها؛ فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في

=

=

الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) [الحج: ٣١]".

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث:

لم يتجاوز العلماء في هذه المسألة مسلك الجمع بين الآية والحديث، وقد اختلفوا في الجمع على مذهبين:

الأول: أن آدم - عليه السلام - كان ينظر إلى نسم بنيه عن يمينه وشماله، ونسم بنيه مستقرة في مستقرها، فنسم المؤمنين في الجنة، في عليين، ونسم الكافرين في سجين، في الأرض السفلى، وليس معنى الحديث أنها عند آدم في السماء الدنيا. وهذا مذهب: القاضي عياض، وابن رجب، وابن القيم، والحافظ ابن حجر، والعيني، والمناوي، والآلوسي.

واستدلوا له:

١ - بأن النبي ﷺ رأى الجنة والنار في صلاة الكسوف، وهو في الأرض، وليست الجنة في الأرض.

٢ - ورآهما ليلة الإسراء في السماء، وليست النار في السماء.

٣ - وبأن حديث الإسراء قد روي بلفظ آخر، وفيه ما يؤيد هذا القول، ويزيل الإشكال عن الحديث؛ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ قال:... فذكر حديث الإسراء بطوله، وفيه: "ثم صعد به إلى السماء؛ فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء،

=

=
فدخل فإذا بشيخ جالس تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خلق البشر، عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب تخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك، وإذا نظر إلى الباب الذي عن يساره بكى وحزن، فقال: يا جبريل، من هذا الشيخ؟ وما هذان البابان؟ قال: هذا أبوك آدم، وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، إذا رأى من يدخله من ذريته ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذي عن شماله باب جهنم من يدخله من ذريته بكى وحزن". ولمنه حديث ضعيف.

المذهب الثاني: أن الأرواح التي رآها النبي ﷺ عن يمين آدم وشماله إنما هي أرواح بنيه التي لم تخلق أجسادهم بعد.

قال ابن القيم في كتابه "الروح"، ص (٣٧٦): "تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها، هذه المسألة للناس فيها قولان معروفان، حكاهما شيخ الإسلام وغيره، وممن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزى، وأبو محمد ابن حزم، وحكاه ابن حزم إجماعا". اهـ ثم ذكر أدلة الفريقين، ورجح تأخر خلق الأرواح عن الأجساد.

و الذي يظهر صوابه ـ والله تعالى أعلم ـ هو القول الأول، وأن معنى الحديث: أن آدم – عليه السلام – كان ينظر إلى نسم بنيه وهم في منازلهم من الجنة أو النار، وهذا القول لا يلزم منه أن تكون النار في السماء، إذ من الممكن رؤيتها وهي في الأرض، كما رأى النبي ﷺ نهر النيل والفرات ليلة أسري به، وهو في السماء، وقد ذكر أصحاب هذا القول رؤيته ﷺ للنار وهو في السماء، ورؤيته للجنة وهو في الأرض، وهذا كله يدل على أن رؤية الشيء في مكان ما لا يستلزم أن يكون ذلك المكان ظرفا للمرئي، ومن ذلك رؤية آدم – عليه السلام – لنسم بنيه وهو في السماء لا يلزم منه أن تكون السماء ظرفا لما رآه، والله تعالى أعلم.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢).

{والذين آمنوا وعملوا الصالحات} مبتدأ وقوله {لَا نُكَلِّف نَفْسًا إلَّا وُسْعهَا} طَاقَتهَا مِنْ الْعَمَل اعْتِرَاض بَيْنه وَبَيْن خَبَره وَهُوَ {أُولَئِكَ أصحاب الجنة هم فيها خالدون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الأعراف: ٤٢]، أي: " والذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة".

عن ابن عباس: "الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر".

روي عاصم بن عمر، عن زيد بن أسلم: " {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

قوله تعالى: {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [الأعراف: ٤٢]، أي: " لا يكلف الله نفسًا من الأعمال إلا ما تطيق".

قال الطبري: " يقول: لا نكلف نفسا من الأعمال إلا ما يسعها فلا تحرج فيه".

قال ابن عباس: " هم المؤمنون، وسع الله عليهم أمر دينهم فقال: ما جعل عليكم في الدين من حرج".

(وَالَّذِينَ آمَنُوا) بقلوبهم.

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أي: وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات.

- والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُطف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله =

=

إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.

- والعمل الصالح لا يكون صالحًا إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصًا لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعًا للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

ودائمًا يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحًا.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...).

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً....).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا).

- قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.

(لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) أي: لا نكلف نفسًا بعد الإيمان من العمل إلا بقدر طاقتها.

- قال ابن عاشور: وجملة (لا نكلف نفسًا إلا وسعها) معترضة بين المسند إليه والمسند على طريقة الإدماج.

وفائدة هذا الإدماج الارتفاق بالمؤمنين، لأنّه لمّا بشّرهم بالجنّة على فعل الصّالحات، أطْمن قلوبهم بأن لا يُطلبوا من الأعمال الصّالحة بما يخرج عن الطّاقة، حتّى إذا لم يبلغوا إليه أيسوا من الجنّة، بل إنّما يُطلبون منها بما في وسعهم،

=

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣).

{ونزعنا ما في صدورهم من غل} حقد كَانَ بَيْنهمْ فِي الدُّنْيَا {تَجْرِي مِنْ تَحْتهمْ} تَحْت قُصُورهمْ {الْأَنْهَار وَقَالُوا} عِنْد الِاسْتِقْرَار فِي مَنَازِلهمْ {الْحَمْد

=

فإنّ ذلك يرضي ربّهم.

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) أي: أهلها الخالدون فيها.

والجنة في لغة العرب: البستان، لأن أشجاره الملتفة تجن الداخل فيه، وجاء إطلاق الجنة على البستان في القرآن في قوله (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) أي البستان، وفي قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ).

وأما في الاصطلاح: فهي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وهذا من أعظم تمام النعيم، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الآبدين.

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غمًا.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} الْعَمَل الَّذِي هَذَا جَزَاؤُهُ {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ} حَذَفَ جَوَاب لَوْلَا لِدَلَالَةِ مَا قَبْله عَلَيْهِ {لَقَدْ جَاءَتْ رُسُل رَبّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ} مُخَفَّفَة أَيْ أَنَّهُ أَوْ مفسرة في المواضع الخمسة {تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون}(١).

---

(١) قوله تعالى: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ) هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة، أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغلّ على بعضهم بعضًا، حتى تصفو قلوبهم ويودّ بعضهم بعضًا، فإن الغلّ لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا، لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر.

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا) رواه البخاري.

والغلّ: الحقد الكامن في الصدور.

وهذا من أعظم اللذات: حيث يكون الإنسان خالدًا مخلدًا، وحيث يكون هو ورفقاؤه في ذلك النعيم ليس بين اثنين منهم شحناء ولا عداوة ولا حقد ولا حسد.

- والحكمة من ذلك:

قيل: حتى يكونوا إخوانًا متحابين، وأخلاء متصافين.

وقيل: أن المراد منه أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى أن صاحب الدرجة النازلة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة.

=

=

وقيل: قال ابن عطية: هذا إخبار من الله ﷻ أنه ينقي قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد، وذلك أن صاحب الغل متعذب به ولا عذاب في الجنة.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وأذهبنا من صدور هؤلاء الذين وصف صفتهم، وأخبر أنهم أصحاب الجنة، ما فيها من حقد وغمر وعداوة كان من بعضهم في الدنيا على بعض، فجعلهم في الجنة إذا أدخلهموها على سرر متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضا على شيء خص الله به بعضهم وفضله من كرامته عليه".

وفي قوله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} [الأعراف: ٤٣]، أقوال:

أحدها: الأهواء والبدع، قاله سهل بن عبد الله.

الثاني: التباغض والتحاسد.

الثالث: الحقد.

الرابع: العداوة. قاله الضحاك.

الخامس: نزع من نفوسهم أن يتمنوا ما لغيرهم.

السادس: ما كان في الدنيا في قلوبهم من غش بعضهم لبعض. قاله مقاتل.

وفي نزعه وجهان:

أحدهما: أن الله نزع ذلك من صدورهم بلطفه.

والثاني: أن ما هداهم إليه من الإيمان هو الذي نزعه من صدورهم.

وفي هذا "الغل"، قولان:

أحدهما: أنه غل الجاهلية، قاله الحسن.

والثاني: أنهم لا يتعادون ولا يتحاقدون بعد الإيمان.

وقد روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: "إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}".

وعن علي أيضا، قال: "فينا والله أهل بدر نزلت: {ونزعنا ما في صدورهم من غل

=

=

إخوانا على سرر متقابلين} [سورة الحجر: ٤٧]".

قال السدي: " إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم"نضرة النعيم"، فلم يشعثوا ولم يتسخوابعدها أبدا".

وقال مقاتل: "... وذلك أن أهل الجنة، إذا هم بشجرة ينبع من ساقها عينان فيميلون إلى أحدهما فيشربون منها فيخرج الله ما كان في أجوافهم من غل أو قذار فيطهر الله أجوافهم {وسقاهم ربهم شرابا طهورا}، ثم يميلون إلى العين الأخرى فيغتسلون فيها فيطيب الله أجسادهم من كل درن وجرت عليهم النظرة فلا تشعث رءوسهم، ولا تغبر وجوههم، ولا تشحب أجسادهم".

عن الحسن، قال: "بلغني أن النبي ﷺ قال: يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلامتهم في الدنيا، فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل".

عن أبي نضرة، قال: " يحبس أهل الجنة دون الجنة حتى يقضى لبعضهم من بعض، حتى يدخلوا الجنة حين يدخلونها ولا يطلب أحد منهم أحدا بقلامة ظفر ظلمها إياه. ويحبس أهل النار دون النار حتى يقضى لبعضهم من بعض، فيدخلون النار حين يدخلونها ولا يطلب أحد منهم أحدا بقلامة ظفر ظلمها إياه".

(تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ) أي: "، ومن كمال نعيمهم أن الأنهار تجري في الجنة من تحت غرفهم ومنازلهم".

قال ابن القيم: وهذا يدل على أمور:

أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالثة: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.

=

=

وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى).

قال ابن القيم: فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا.

فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته، وهذا من آيات الرب سبحانه وتعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو.

قال الطبري: أي: " تجري من تحتهم أنهار الجنة".

عن أبي مالك قوله: "{تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) أي لهذا الجزاء العظيم، وهو الخلود في الجنة، ونزع الغلّ من صدورهم.

قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [الأعراف: ٤٣]، أي: " وقال أهل الجنة حينما دخلوها: الحمد لله الذي وفَّقنا للعمل الصالح الذي أكسبنا ما نحن فيه من النعيم".

قال الطبري: " يقول: الحمد لله الذي وفقنا للعمل الذي أكسبنا هذا الذي نحن فيه

=

=

من كرامة الله وفضله، وصرف عذابه عنا".

قال ابن عباس: " «الحمد لله»: هو الشكر لله الاستحذاء له والإقرار له بنعمه وابتدائه، وغير ذلك".

قال كعب: " «الحمد لله»: ثناء على الله".

قال الضحاك: " «الحمد لله»: رداء الرحمن".

وفي قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [الأعراف: ٤٣]، ثلاثة وجوه:

أحدهما: هدانا لنزع من صدورنا.

والثاني: هدانا لثبوت الإيمان في قلوبنا حتى نزع الغل من صدورنا.

والثالث: قال جويبر: هدانا لمجاوزة الصراط ودخول الجنة.

قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ} [الأعراف: ٤٣]، أي: " وما كنا لنوفَّق إلى سلوك الطريق المستقيم لولا أَنْ هدانا الله سبحانه لسلوك هذا الطريق، ووفَّقنا للثبات عليه".

قال الطبري: **"**يقول: وما كنا لنرشد لذلك، لولا أن أرشدنا الله له ووفقنا بمنه وطوله".

عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: "كل أهل النار يرى منزله من الجنة، فيقولون: "لو هدانا الله"، فتكون عليهم حسرة. وكل أهل الجنة يرى منزله من النار، فيقولون: "لولا أن هدانا الله"! فهذا شكرهم".

(لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) اللام لام القسم، قالوا هذا لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجزاء العظيم، اغتباطًا بما صاروا فيه بسبب ما تقدّم منهم من تصديق الرسل وظهور صدق ما أخبروهم به في الدنيا من أن جزاء الإيمان والعمل الصالح هو هذا الذي صاروا فيه.

=

=

(وَنُودُوا) تهنئة لهم، وإكرامًا، وتحية، واحترامًا. قال الزجاج: إنما قال «تلكم» لأنهم وعدوا بها في الدنيا، فكأنه قيل لهم: هذه تلكم التي وُعدتم بها. وجائز أن يكون هذا قيل لهم حين عاينوها قبل دخولهم إليها.

قال الطبري: " معناه: ونادى منادٍ هؤلاء الذين وصف الله صفتهم، وأخبر عما أعدّ لهم من كرامته: أنْ يا هؤلاء، هذه تلكم الجنة التي كانت رسلي في الدنيا تخبركم عنها، أورَثكموها الله عن الذين كذبوا رسله، لتصديقكم إياهم وطاعتكم ربكم".

قال البيضاوي: أي: " أعطيتموها بسبب أعمالكم".

قال سفيان الثوري: "معناه: الحمد لله الذي هدانا لعمَلٍ هذا ثوابُه".

قال الزجاج: " وإنما قال: {تلكم}، لأنهم وُعدوا بها في الدنيا، فكأنه قيل: هذه تلكم التي وعدتم بها. وجائز أن يكون عاينوها فقيل لهم من قبل دخولها إشارة إلى ما يرَوْنَه: تلكم الجنة، كما تقول لما تراه: ذلك الرجل أخوك".

قال السدي: " ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله في الجنة والنار منزل، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ودخلوا منازلهم، رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها، فقيل لهم: «هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله»، ثم يقال: «يا أهل الجنة، رثوهم بما كنتم تعملون»، فتقسم بين أهل الجنة منازلهم".

(أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا) وفي معنى «أورثتموها» أربعة أقوال:

أحدها: ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنّة ومنزل في النار، فأما الكافر فانه يرث المؤمنَ منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» فذلك قوله: أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. وقال بعضهم: لما سمي الكفار أمواتًا بقوله: أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ. وسمّى المؤمنين أحياء بقوله: لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا. أورث الأحياء الموتى.

والثاني: أنهم أورثوها عن الأعمال، لأنها جُعلت جزاءً لأعمالهم، وثوابًا عليها، إذ

=

=

هي عواقبها، حكاه أبو سليمان الدمشقي.

والثالث: أن دخول الجنة برحمة الله، واقتسامَ الدرجات بالأعمال. فلما كان يفسَّر نيلها لا عن عوض، سميت ميراثًا. والميراث: ما أخذته عن غير عوض.

والرابع: أن معنى الميراث ها هنا: أن أمرهم يؤول إليها كما يؤول الميراث إلى الوارث.

(بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أي: بسبب أعمالكم

فإن قيل: ما الجمع بين هذه الآية وأمثالها، وبين قوله ﷺ (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله)؟

قيل: أن مجرد دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله، كما في الحديث، وأما اقتسام منازل الجنة ودرجاتها فإن ذلك يتفاوت بتفاوت الأعمال. وهذا مذهب ابن بطال، والقرطبي في تفسيره.

وقيل: إن دخول الجنة برحمة الله، ومن رحمة الله وفق العبد للعمل ويسره له حتى به الجنة، فهذا العمل من رحمة الله.

- قال النووي:... وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى (اُدْخُلُوا الْجَنَّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (وَتِلْك الْجَنَّة الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَنَحْوهمَا مِنْ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى أَنَّ الْأَعْمَال يُدْخَل بِهَا الْجَنَّة، فَلَا يُعَارِض هَذِهِ الْأَحَادِيث، بَلْ مَعْنَى الْآيَات: أَنَّ دُخُول الْجَنَّة بِسَبَبِ الْأَعْمَال، ثُمَّ التَّوْفِيق لِلْأَعْمَالِ وَالْهِدَايَة لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا، وَقَبُولهَا بِرَحْمَةِ الله تَعَالَى وَفَضْله، فَيَصِحّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُل بِمُجَرَّدِ الْعَمَل. وَهُوَ مُرَاد الْأَحَادِيث، وَيَصِحّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا، وَهِيَ مِنْ الرَّحْمَة. وَالله أَعْلَم.

- وقال ابن رجب:... وفيه دليلٌ على أنَّ الأعمالَ سببٌ لدخول الجنَّة، كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

وأما قولُه ﷺ (لَنْ يدخُلَ أحدٌ منكُمُ الجنَّة بِعمَلِه) فالمراد - والله أعلم - أنَّ العملَ

=

=

بنفسه لا يستحقُّ به أحدٌ الجنَّة لولا أنَّ الله جعله - بفضله ورحمته - سببًا لذلك، والعملُ نفسُه من رحمة الله وفضله على عبده، فالجنَّةُ وأسبابُها كلٌّ من فضل الله ورحمته.

(منبهة): قال ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة (٤٢٨): فرحمته ليست في مقابلة أعمالهم، ولا هي ثمنًا لها، فإنها خير منها، كما قال في الحديث نفسه: (ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم) أي فجمع بين الأمرين في الحديث أنه لو عذبهم لعذبهم باستحقاقهم ولم يكن ظالمًا لهم، وأنه لو رحمهم لكان ذلك مجرد فضله وكرمه لا بأعمالهم، إذ رحمته خير من أعمالهم، فصلوات الله وسلامه على من خرج هذا الكلام أولًا من شفتيه، فإنه أعرف الخلق بالله وبحقه وأعلمهم به وبعدله وفضله وحكمته وما يستحقه على عباده، وطاعات العبد كلها لا تكون مقابلة لنعم الله عليهم ولا مساوية لها، بل ولا للقليل منها، فكيف يستحقون بها على الله النجاة؟. وطاعة المطيع لا نسبة لها إلى نعمة من نعم الله عليه فتبقى سائر النعم تتقاضاه شكرًا، والعبد لا يقوم بمقدوره الذي يجب لله عليه، فجميع عباده تحت عفوه ورحمته وفضله، فما نجا منهم أحد إلا بعفوه ومغفرته، ولا فاز بالجنة إلا بفضله ورحمته، وإذا كانت هذه حال العباد فلو عذبهم لعذبهم وهو غير ظالم لهم لا لكونه قادرًا عليهم وهم ملكه، بل لاستحقاقهم، ولو رحمهم لكان ذلك بفضله لا بأعمالهم اهـ

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٦/ ١/ ١٩٥، ١٩٨ - ٢٠٠): قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم: "لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة [ولا ينجيه من النار]، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا -وأشار بيده هكذا على رأسه:- إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة، [مرتين أو ثلاثا فسددوا وقاربوا وأبشروا واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا واعلموا أن أحب

=

=

العمل إلى الله أدومه وإن قل)".

اعلم أن هذا الحديث قد يشكل على بعض الناس، ويتوهم أنه مخالف لقوله تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} ونحوها من الآيات والأحاديث الدالة على أن دخول الجنة بالعمل، وقد أجيب بأجوبة أقربها إلى الصواب: أن الباء في قوله في الحديث: "بعمله" (١) هي باء الثمنية، والباء في الآية باء السببية، أي أن العمل الصالح سبب لابد منه لدخول الجنة، ولكنه ليس ثمنًا لدخول الجنة، وما فيها من النعيم المقيم والدرجات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في بعض فتاويه: "ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون سببا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب، فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيًا في حصول النبات، بل لابد من ريح مربية بإذن الله، ولابد من صرف الانتفاء عنه، فلابد من تمام الشروط وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء الله وقدره. وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم ممن أنزل ولم يولد له، بل لابد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيه في الرحم وسائر ما سيتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع.

وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (فذكر الحديث)، وقد قال تعالى: {ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون}. فهذه باء السبب، أي بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- باء المقابلة، كما يقال: اشتريت هذا بهذا.

أي ليس العمل عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لابد من عفو الله وفضله ورحمته، فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف

=

=

الدرجات. وفي هذا الموضع ضل طائفتان من الناس:
١ - فريق آمنوا بالقدر، وظنوا أن ذلك كاف في حصول المقصود فأعرضوا عن الأسباب الشرعية والأعمال الصالحة. وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله ورسله ودينه.
٢ - وفريق أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم، وكما يطلبه المماليك. وهؤلاء جهال ضلال: فإن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجةً إليه، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلًا به، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم. وهو سبحانه كما قال: "يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني". فالملك إذا أمر مملوكيه بأمر أمرهم لحاجته إليهم، وهم فعلوه بقوتهم التي لم يخلقها لهم فيطالبون بجزاء ذلك، والله تعالى غني عن العالمين، فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساءوا فلها. لهم ما كسبوا، وعليهم ما اكتسبوا، {من عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد}". انتهى كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ منقولا من " مجموعة الفتاوى" (٨/ ٧٠ - ٧١) ومثله في "مفتاح دار السعادة " لتلميذه المحقق العلامة ابن قيم الجوزية (ص ٩ - ١٠) و"تجريد التوحيد المفيد" (ص ٣٦ - ٤٣) للمقريزي. ا. هـ
وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (ص ٣٢٥): تعذيب الله سبحانه وتعالى للطائع هو جائز من حيث الوقوع يمكن، لكنه ممتنعٌ شرعًا وممتنع عقلًا من وجهٍ آخر، ممتنعٌ شرعًا لأن الله تعالى أخبر أنه لا يظلم أحدًا وتعذيب الطائع ظلم قال الله تعالى: {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما} (طه ١١٢)، إذن مستحيل شرعًا، وهو مستحيل عقلًا بالنسبة لله عَزَّ وَجَلَّ لأن الله منزهٌ عن الظلم لذاته، فإن قال قائل: إنه جاء في الحديث: (إن الله لو عذَّب أهل سماواته
=

=

وأرضه لعذَّبهم وهو غير ظالمٍ لهم) ٨٦٦، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: (لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله قالوا: ولا أنت؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) قلنا: لا إشكال.

فأما الأول: فمعناه أن الله لو عذَّب أهل سماواته وأرضه لعذَّبهم وهم مستحقون للعذاب وهو غير ظالم ومتى يستحقون؟ إذا خالفوا في ترك الطاعة أو فعل المعصية،

وأما الثاني: فالباء في قوله (بعمله) للمعاوضة يعني لو رجعنا للتعويض ما دخل أحدٌ الجنة، لأن الإنسان لو حوسب على أدنى نعمةٍ من الله لهلك لكن برحمة الله تعالى. وانظر أيضا منهاج السنة (١/ ١٣٤ - ١٤١)، (٣/ ٢٠) وما بعدها.

(تنبيه): القنطرة غير الصراط.

في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري (٦٥٣٥) قال: قال رسول الله ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضه من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة بمنزله كان في الدنيا).

وفي روايه عند البخاري (إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار).

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٩٩): واختلف في القنطرة المذكورة فقيل: هي من تتمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة وقيل أنهما صراطان وبهذا الثاني جزم القرطبي اهـ

وقا الحافظ في الفتح أيضا (٥/ ٩٦) الأول فقال: الذي يظهر أنها طرف الصراط مما يلي الجنة، ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة اهـ.

=

=

قلت: ذكر القرطبي أن الصراط صراطان في كتابه التذكرة (ص٣٣٨) فقال: اعلم رحمك الله أن في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب، أو من يلتقطه عنق النار فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه، وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه. اهـ.

وذكر العيني نحو ذلك في عمدة القاري (١٩/ ٧٥). فقال عند ذكر القنطرة: قيل هذا يشعر بأن في القيامة جسرين، هذا والذي على متن جهنم المشهور بالصراط. واجيب بأنه لا محذور فيه، ولئن ثبت بالدليل أنه واحد فتأويله أن هذه القنطرة من تتمة الأول اهـ

وقال العلامة العثيمين في شرح الواسطية (ص٥٢٠): "القنطرة" هي الجسر، لكنها جسر صغير، والجسر في الأصل ممر على الماء من نهر ونحوه.

واختلف العلماء في هذه القنطرة؛ هل هي طرف الجسر الذي على متن جهنم أو هي جسر مستقل؟ والصواب في هذا أن نقول: الله أعلم، وليس يعنينا شأنها، لكن الذي يعنينا أن الناس يوقفون عليها.

قوله " فيقتص لبعضهم من بعض ": وهذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة؛ لأن هذا قصاص أخص؛ لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص.

فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار؛ لأجل تنقية ما في القلوب، حتى يدخلوا الجنة

=

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤).

=

وليس في قلوبهم غل، كما قال الله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧].

هكذا رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذا هذبوا مما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقوا منها، فإنه يؤذن لهم في دخول الجنة؛ فإذا أذن لهم في الدخول؛ فلا يجدون الباب مفتوحا، ولكن النبي ﷺ يشفع إلى الله في أن يفتح لهم باب الجنة؛ كما سيأتي في أقسام الشفاعة إن شاء الله ا. هـ

والذي يقتضي الدليل رجحانه أن القنطرة جسر بين الجنة والنار لا علاقة له بالصراط كما هو ظاهر حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وظاهره يدل أيضًا على أن المؤمنين خلصوا أي فرغوا وانتهوا من المرور على الصراط كما قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٩٩): قوله: (إذا خلص المؤمنون من النار) أي نجوا من السقوط فيها بعد ما جازوا على الصراط اهـ

وكما قال القرطبي في التذكرة ص٣٣٨): معنى يخلص المؤمنون من النار أن يخلصوا من الصراط المضروب على النار ا. هـ

ويشهد لذلك حديث ابن مسعود الطويل والذي يصف فيه النبي ﷺ مرور الناس على الصراط حتى قال فيه: (حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه تخر يد، وتعلق يد وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد) فهذا الحديث صريح في أن معنى خلصوا هو انتهاء الناس من المرور على الصراط، وبذلك نعلم أن القنطرة ليست تتمة للصراط، والعلم عند الله تعالى.

{وَنَادَى أَصْحَاب الْجَنَّة أَصْحَاب النَّار} تَقْرِيرًا أَوْ تَبْكِيتًا {أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبّنَا} من الثواب {حقا فهل وجدتم ما وعد} كم {رَبّكُمْ} مِنْ الْعَذَاب {حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّن} نَادَى مُنَادٍ {بَيْنهمْ} بَيْن الْفَرِيقَيْنِ أَسْمَعهُمْ {أن لعنة الله على الظالمين}.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥).

{الَّذِينَ يَصُدُّونَ} النَّاس {عَنْ سَبِيل الله} دِينه {ويبغونها} أي يطلبون السبيل {عوجا} معوجة {وهم بالآخرة كافرون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا} [الأعراف: ٤٤]، أي: " ونادى أصحاب الجنة -بعد دخولهم فيها- أهلَ النار قائلين لهم: إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله حقًا من إثابة أهل طاعته، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم على ألسنة رسله حقًا من عقاب أهل معصيته؟".

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم، وذلك على وجه التقريع والتوبيخ (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا) (أن) هاهنا مفسِّرة للقول المحذوف، و"قد" للتحقيق، أي: قالوا لهم (قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ).

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ونادى أهل الجنة أهل النار بعد دخولهموها: يا أهل النار، قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا في الدنيا على ألسن رسله، من الثواب على الإيمان به وبهم، وعلى طاعته، فهل وجدتم ما وعدنا ربكم على ألسنتهم على الكفر به وعلى معاصيه من العقاب؟".

قال البيضاوي: " إنما قالوه تبجحًا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيرًا لهم، وإنما لم يقل (ما وعدكم) كما قال {مَّا وَعَدَنا}، لأن ما ساءهم من الموعود لم =

=

يكن بأسره مخصوصًا وعده بهم، كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة".

قال الشوكاني: مناداة أصحاب الجنة لأصحاب النار لم تكن لقصد الإخبار لهم بما نادوهم به، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم.

قال السمرقندي: قوله تعالى (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا) أي: ما وعدنا يعني: في الدنيا من الثواب وجدناه صدقًا (فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ) من العذاب على الكفر والمعاصي (حَقًّا) أي صدقًا (قَالُوا نَعَمْ) فاعترفوا على أنفسهم في وقت لا ينفعهم الاعتراف.

- قال السعدي: فتبين للخلق كلهم، بيانًا لا شك فيه، صدق وعد اللّه، ومن أصدق من اللّه قيلًا، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعد اللّه واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب.

قال ابن عطية: وهذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب.

قال أبو حيان: عبر بالماضي عن المستقبل لتحقّق وقوعه.

كما أخبر تعالى في سورة "الصافات" عن الذي كان له قرين من الكفار (فَاطَّلَعَ فَرَأَيهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ. قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ. أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ. إِلا مَوْتَتَنَا الأولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)، أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال.

وكذا تقرعهم الملائكة يقولون لهم (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ. أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

وكذلك قرع رسولُ الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر، فنادى: يا أبا جهل بن هشام، ويا

=

=

عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة -وسمى رءوسهم-: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا، وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومًا قد جَيفوا؟ فقال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا.

* هل هذا النداء يقع من كل أهل الجنة لكل أهل النار أو من البعض للبعض؟

والجواب: أن قوله (وَنَادَى أصحاب الجنة أصحاب النار) يفيد العموم، والجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد، وكل فريق من أهل الجنة ينادي من كان يعرفه من الكفار في الدنيا.

(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ) أي: أعلم معلم ونادى مُنَاد.

قوله تعالى: {قَالُوا نَعَمْ} [الأعراف: ٤٤]، أي: " فأجابهم أهل النار قائلين: نعم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا".

قال الطبري: " فأجابهم أهل النار: بأن نعم، قد وجدنا ما وعد ربنا حقا".

قال السدي: " وجد أهل الجنة ما وعدوا من الثواب، وأهل النار ما وعدوا من عذاب".

وقرئ: «نعم» بكسر العين.

قوله تعالى: {فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤٤]، أي: " فأذَّن مؤذن بين أهل الجنة وأهل النار: أنْ لعنة الله على الظالمين الذين تجاوزوا حدود الله، وكفروا بالله ورسله".

قال الطبري: " يقول: فنادى مناد، وأعلم معلم بينهم {أن لعنة الله على الظالمين}، يقول: غضب الله وسخطه وعقوبته على من كفر به".

قال ابن عباس: " وذلك أن الله وعد أهل النار كل خزي وعذاب علمه الناس أو لم يعلموه، وذكر قوله: {وآخر من شكله أزواج}، قال: فـ {نادى أصحاب الجنة

=

=

أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ قالوا: نعم. يقول: من الخزي والهوان والعذاب. قال أهل الجنة: فإنا قد وعدنا ربنا حقا من النعيم والكرامة. فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين".

عن ميمون بن مهران قال: "إن الرجل ليصلي ويلعن نفسه في قراءته، فيقول: {أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِين} [هود: ١٨]، وإنه لظالم".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} [الأعراف: ٤٥]، أي: " هؤلاء الكافرون هم الذين كانوا يُعْرِضون عن طريق الله المستقيم، ويمنعون الناس من سلوكه، ويطلبون أن تكون السبيل معوجة حتى لا يتبينها أحد".

عن أبي مالك قوله: "{ويبغونها عوجا}، قال: يرجون بمكة غير الإسلام دينا".

قال السدي: " بغوا محمدا ﷺ عوجا".

عن السدي: "{عوجا}، قال: هلاكا".

قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: إن المؤذن بين أهل الجنة والنار يقول: أن لعنة الله على الظالمين، الذين كفروا بالله وصدوا عن سبيله، {ويبغونها عوجا}، يقول: حاولوا سبيل الله وهو دينه، أن يغيروه ويبدلوه عما جعله الله له من استقامته".

والعرب تقول للميل في الدين والطريق: "عوج" بكسر"العين"، وفي ميل الرجل على الشيء والعطف عليه: "عاج إليه يعوج عياجا وعوجا وعوجا"، بالكسر من"العين" والفتح، كما قال الشاعر:

قفا نسأل منازل آل ليلى ... على عوج إليها وانثناء

قوله تعالى: {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ} [الأعراف: ٤٥]، أي: "، وهم بالآخرة -وما فيها- جاحدون".

قال الطبري: " يقول: وهم لقيام الساعة والبعث في الآخرة والثواب والعقاب فيها جاحدون".

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦).

{وَبَيْنهمَا} أَيْ أَصْحَاب الْجَنَّة وَالنَّار {حِجَاب} حَاجِز قِيلَ هُوَ سُور الْأَعْرَاف {وَعَلَى الْأَعْرَاف} وَهُوَ سُور الْجَنَّة {رِجَال} اسْتَوَتْ حَسَنَاتهمْ وَسَيِّئَاتهمْ كَمَا فِي الْحَدِيث {يُعْرَفُونَ كُلًّا} مِنْ أَهْل الْجَنَّة وَالنَّار {بِسِيمَاهُمْ} بِعَلَامَتِهِمْ وَهِيَ بَيَاض الْوُجُوه لِلْمُؤْمِنِينَ وَسَوَادهَا لِلْكَافِرِينَ لِرُؤْيَتِهِمْ لَهُمْ إذْ مَوْضِعهمْ عَالٍ {ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم} قال تعالى {لَمْ يَدْخُلُوهَا} أَيْ أَصْحَاب الْأَعْرَاف الْجَنَّة {وَهُمْ يَطْمَعُونَ} فِي دُخُولهَا قَالَ الْحَسَن لَمْ يُطْمِعهُمْ إلَّا لِكَرَامَةٍ يُرِيدهَا بِهِمْ وَرَوَى الْحَاكِم عَنْ حُذَيْفَة قَالَ بَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَبّك فَقَالَ قُومُوا اُدْخُلُوا الْجَنَّة فَقَدْ غفرت لكم.

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧).

{وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارهمْ} أَيْ أَصْحَاب الْأَعْرَاف {تِلْقَاء} جِهَة {أَصْحَاب النَّار قَالُوا رَبّنَا لَا تَجْعَلنَا} في النار {مع القوم الظالمين}.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨).

{وَنَادَى أَصْحَاب الْأَعْرَاف رِجَالًا} مِنْ أَصْحَاب النَّار {يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ} مِنْ النَّار {جَمْعكُمْ} الْمَال أَوْ كَثْرَتكُمْ {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} أَيْ وَاسْتِكْبَاركُمْ عَنْ الْإِيمَان وَيَقُولُونَ لَهُمْ مُشِيرِينَ إلَى ضُعَفَاء الْمُسْلِمِينَ.

أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا

أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) .

{أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالهُمْ الله بِرَحْمَةٍ} قَدْ قِيلَ لَهُمْ {أُدْخُلُوا الْجَنَّة لَا خَوْف عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} وَقُرِئَ أُدْخِلُوا بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَدَخَلُوا فَجُمْلَة النَّفْي حَال أَيْ مَقُولًا لهم ذلك[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} [الأعراف: ٤٦]، أي: " وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حاجز عظيم يقال له الأعراف".

قال الطبري: أي: " وبين الجنة والنار حجاب، يقول: حاجز، وهو: السور الذي ذكره الله تعالى فقال: {فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب}، [سورة الحديد: ١٣]. وهو"الأعراف" التي يقول الله فيها: {وعلى الأعراف رجال}".

قال مجاهد: " {لأعراف}، حجاب بين الجنة والنار".

عن السدي: "{وبينهما حجاب}، وهو «السور»، وهو «الأعراف»".

قوله تعالى: {وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ} [الأعراف: ٤٦]، أي: " وعلى الأعراف رجال يعرفون أهل الجنة وأهل النار بعلاماتهم".

و «الأعراف»: " جمع، واحدها «عرف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب فهو «عرف»، وإنما قيل لعرف الديك «عرف»، لارتفاعه على ما سواه من جسده، ومنه قول الشماخ بن ضرار:

وظلت بأعراف تغالى، كأنها ... رماح نحاها وجهة الريح راكز

يعني بقوله: "بأعراف"، بنشوز من الأرض، ومنه قول الآخر:

كل كناز لحمه نياف ... كالعلم الموفي على الأعراف"

قال ابن عباس: " {الأعراف}، هو الشيء المشرف".

وعن ابن عباس أيضا: " {الأعراف}، سور كعرف الديك".

=

=

وروي عن ابن عباس كذلك: " إن الأعراف تل بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار".

قال مجاهد: " {الأعراف}، حجاب بين الجنة والنار، سور له باب".

وقد اختلف العلماء في تعيين أصحاب الأعراف، وفي السبب الذي صاروا به موقوفين على الأعراف، كما أخبر الله عنهم؛ اختلف العلماء في ذلك إلى آراء مختلفة وأقوال متباينة، وفيما يلي: نذكر ما قيل في تعيينهم ثم الترجيح: فمما قيل في تعيينهم:

١ - أنهم مساكين أهل الجنة، وينسب هذا القول إلى ابن مسعود وكعب الأحبار وابن عباس.

وأخرج الطبري عن ابن عباس أنه قال: (الأعراف سور بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا لله - هكذا بالأصل - أن يعافيهم؛ انطلق بهم إلى نهر يقال له: الحياة، حافتاه قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك؛ فألقوا فيه، حتى تصلح ألوانهم ويبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم، أتى بهم الرحمن، فقال: تمنوا ما شئتم، قال: فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعين مرة، فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، يسمون مساكين الجنة).

وهو رأى عبد الله بن الحارث -أيضا- كما أخرج الطبري عن مجاهد عن عبد الله بن الحارث قال: (أصحاب الأعراف ينتهى بهم إلى نهر يقال له: الحياة، حافتاه قصب من ذهب، قال سفيان: أراه قال: مكلل باللؤلؤ، قال: فيغتسلون فيزدادون، فكلما اغتسلوا ازدادت بياضًا، فيقال لهم: تمنوا ما شئتم، فيتمنون ما شاءوا، فيقال لهم: لكم ماتمنيتم وسبعون ضعفًا، قال: فهم مساكين أهل الجنة).

٢ - أنهم قوم صالحون، فقهاء، علماء، وينسب هذا القول إلى مجاهد؛ وهذه

=

=

صفة مدح لهم، غير أنه جاء في التفسير المنسوب إلى ابن عباس أن هؤلاء كانوا شاكين في الرزق؛ وهذه صفة ذم، وقد وصف ابن كثير هذا القول بأن فيه غرابة.

٣ - أنهم الشهداء، ذكره المهدوي، وعزاه الشوكاني إلى القشيري وشرحبيل بن سعد.

٤ - هم فضلاء المؤمنين والشهداء، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس، ذكره أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيري، وعزاه الشوكاني إلى مجاهد.

٥ - هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم، ويعزى هذا القول إلى شرحبيل بن سعد أيضًا.

وأخرج الطبري حديثين في هذا: الأول منهما قال فيه: حدثني المثنى، وساق السند إلى يحيى بن شبل، أو رجلًا من بني النضير أخبره عن رجل من بني هلال، أن أباه أخبره، أنه سأل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: (هم قوم غزوا في سبيل الله عصاة لآبائهم، فقتلوا فاعتقهم الله من النار بقتلهم في سبيله، وحبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم، فهم آخر من يدخل الجنة).

وأما الحديث الثاني، فقد أخرجه عن يحيى بن شبل، مولى بني هاشم، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: (قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة)، وهذا الحديث قد ضعفه بعض العلماء.

ويروى عن أبي سعيد أنه قال: سئل النبي ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: (هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم، فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار، ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم على سور بين الجنة والنار، حتى تذبل لحومهم وشحومهم، حتى يفرغ الله من حساب الخلائق، فإذا فرغ من حساب

=

=

خلقه فلم يبق غيرهم، تغمدهم منه برحمة فأدخلهم الجنة برحمته).

وقد ذكر الرازي، أن القول الذي يجعل الأعراف، عبارة عن الرجال الذين يعرفون أهل الجنة وأهل النار، يعود أيضًا إلى قول من يجعل الأعراف، عبارة عن الأمكنة العالية، على السور المضروب بين الجنة وبين النار، لأن هؤلاء الأقوام لابد لهم من مكان عال يشرفون منه على أهل الجنة وأهل النار.

٦ – هم: العباس، وحمزة، وعلي بن أبي طالب، وجعفر ذو الجناحين، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضهم بسواد الوجوه، ذكره الثعلبي عن ابن عباس.

وبعد هذا القول لا يخفى؛ لأن هذا التخصيص لا معنى له، ولعله من أقوال الشيعة: بل قد ذكر محمد رشيد رضا أنه من أقوالهم، وهو كذلك لم يوجد في كتب التفسير المعتمدة عن السلف؛ قال: (وهذا القول: ذكر الآلوسي أن الضحاك رواه عن ابن عباس: ولم نره في شيء من كتب التفسير المأثورة، والظاهر أنه نقله عن تفاسير الشيعة، وفيه أن أصحاب الأعراف يعرفون كلًا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم؛ أي فيميزون بينهم أو يشهدون عليهم، وأي فائدة في تمييز هؤلاء السادة – على الصراط – لمن كان يبغضهم من الأمويين، ومن يبغضون عليًا خاصة، من المنافقين والنواصب؟ وأين الأعراف من الصراط؟ هذا بعيد عن نظم الكلام وسياقه جدًا).

٧ – هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم في كل أمة، ذكره الزهراوي، واختاره النحاس. قال العلامة محمد رشيد رضا: (فكما ثبت أن كل رسول يشهد على أمته أن أمة محمد ﷺ شهداء على جملة من الأمم بعده؛ ثبت أيضًا أن في الأمم شهداء غير الأنبياء عليهم السلام، قال الله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا [النساء: ٤١].

وقال في خطاب هذه الأمة: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ

=

=

وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: ١٤٣]، وقال في صفة يوم القيامة: وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [الزُّمر: ٦٩]. وهؤلاء الشهداء هم حجة الله على الناس في كل زمان بفضائلهم واستقامتهم على الحق والتزامهم للخير وأعمال البر).

٨ – هم قوم أنبياء، قاله الزجاج. (أي يجعلهم الله تعالى على أعالي ذلك السور، تمييزًا لهم على الناس، ولأنهم شهداؤه على الأمم، ورجح هذا القول الرازي). وقال محمد رشيد رضا عن هذا القول: وقد أورد الرازي في تفسيره –بعد ذكر هذا القول– أن هذا الوجه لا يتفق مع معنى الآية: لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ، أي لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء والملائكة والشهداء. لكنه قال في الإجابة عن هذا: (أجاب الذاهبون إلى هذه الوجه بأن قالوا: لا يبعد أن يقال: إنه تعالى بين من صفات أصحاب الأعراف أن دخولهم الجنة يتأخر؛ والسبب فيه أنه تعالى ميزهم عن أهل الجنة وأهل النار، وأجلسهم على تلك الشرفات العالية والأمكنة المرتفعة، ليشاهدوا أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار، فيلحقهم السرور العظيم بمشاهدة تلك الأحوال، ثم استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فحينئذ ينقلهم الله تعالى إلى أمكنتهم العالية في الجنة، فثبت أن كونهم غير داخلين في الجنة، لا يمنع من كمال شرفهم وعلو درجتهم.

وأما الطمع المذكور في الآية، فهو على ما ذكر هؤلاء، يكون معناه: اليقين، لا الطمع الذي لا يثق صاحبه بحصول المراد، وعلى هذا قوله تعالى عن إبراهيم: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [الشعراء: ٨٢] فهذا الطمع طمع يقين.

٩ – هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا فوقفوا،

=

=

وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غم، فيقع في مقابلة صغائرهم. حكاه ابن عطية القاضي أبو محمد في تفسيره.

١٠ - ذكره ابن وهب عن ابن عباس، قال: أصحاب الأعراف الذين ذكر الله في القرآن، أصحاب الذنوب العظام من أهل القبلة، وذكره ابن المبارك؛ قال: أخبرنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: أصحاب الأعراف رجال كانت لهم ذنوب عظام، وكان جسيم أمرهم لله، فأقيموا ذلك المقام، إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم بسواد الوجوه، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، وإذا نظروا إلى أهل الجنة عرفوهم ببياض وجوههم.

وفي رواية سعيد بن جبير عن عبد الله بن مسعود: (وكانوا آخر أهل الجنة دخولًا الجنة).

١١ - أنهم أولاد الزنا، ذكره أبو نصر القشيري عن ابن عباس.

١٢ - أنهم ملائكة موكلون بهذا السور، يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار. قاله أبو مجلز لاحق بن حميد، فقيل له: لا يقال للملائكة رجال، فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم كما وضع على الجن في قوله تعالى: وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ [الجنّ: ٦].

وذكر الطبري روايات عن أبي مجلز في تقوية هذا القول الذي يتزعمه، ويجادل في أن أهل الأعراف هم رجال من الملائكة.

وهناك روايات كثيرة عن أبي مجلز لا حاجة إلى التطويل بذكرها، فهي لا تخلو - سواء أصحت نسبتها إليه أم لم تصح - عن كونها قولًا من الأقوال يحتاج لصحة إثباته إلى نص عن رسول الله ﷺ. على أن ابن كثير قد ذكر بعد إيراد الرواية عنه صحة نسبة هذا القول إلى أبي مجلز، ولكن حكم عليها بالغرابة، وعدم الانسياق

=

=

مع الظاهر من وصف الملائكة، فقال: (وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد – أحد التابعين – وهو غريب من قوله، وخلاف الظهر من السياق).

وقال محمد رشيد رضا في سبب حكم ابن كثير على قول أبي مجلز بالغرابة: (وإنما عده غريبًا عنه لمخالفته لقول الجمهور، ولتسميته الملائكة رجالًا وهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة).

١٣ – أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم (فجعلوا هناك إلى أن يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته إياهم) ويعزى هذا القول إلى ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، والشعبي، والضحاك، وسعيد بن جبير، فمما يعزى إلى حذيفة بالسند، ما أخرجه الطبري عن الشعبي أنه قال: أرسل إلي عبد الحميد بن عبد الرحمن، وعنده أبو الزناد، وعبد الله بن ذكوان مولى قريش، وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكرًا ليس كما ذكر.

فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة، فقالا: هات، فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبينهم كذلك اطلع إليهم ربك تبارك وتعالى فقال: اذهبوا وادخلوا الجنة؛ فإني قد غفرت لكم. وفي رواية أخرى للشعبي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلفت بهم حسناتهم عن النار، قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم.

وعن عامر عن حذيفة قال: أصحاب الأعراف قوم كانت لهم ذنوب وحسنات، فقصرت ذنوبهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فهم كذلك حتى يقضي الله بين خلقه فينفذ فيهم أمره، وفيه روايات أخرى عن حذيفة وهي بمعنى

=

=

ما سبق.

ومما يعزى إلى ابن مسعود، ما أخرجه الطبري عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود، قال: (يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله: وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم [الأعراف: ٨ - ٩] ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: فمن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا إلى أصحاب النار، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فيتعوذون بالله من منازلهم.

قال فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نورًا، وكل أمة نورًا، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [التحريم: ٨]، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم، فهنالك يقول الله: لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ، فكان الطمع دخولًا، قال: فقال ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشرًا، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلب وحداته أعشاره). وينسب هذا الرأي أيضًا إلى ابن عباس، فإنه كان يقول: إن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهذا ما ينص عليه الطبري بسنده إلى ابن عباس أنه قال: (أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تزد حسناتهم على سيئاتهم، ولا سيئاتهم على حسناتهم)، ويذكر قتادة عن ابن عباس أنه كان يقول:

=

=

(الأعراف بين الجنة والنار، حبس عليه أقوام بأعمالهم)، وكان يقول: (قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تزد حسناتهم على سيئاتهم، ولا سيئاتهم على حسناتهم).

١٤ - هم مؤمنو الجن.

١٥ - هم قوم كانت عليهم ديون.

ويذكر السيوطي حديثًا يعزوه إلى البيهقي في رفع القول الأول إلى النبي ﷺ؛ فإن السيوطي بعد أن ذكر تلك الأقوال السابقة أورد الحديث الآتي:

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم فقال: على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد، فسألناه: وما الأعراف؟ قال: حائط الجنة تجري فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار) وفي هذا القول - أي بأنهم مؤمنو الجن - يقول محمد رشيد رضا: وروي ابن عساكر فيه حديثًا مرفوعًا عن أنس بن مالك من طريق الوليد بن موسى الدمشقي، وهو منكر الحديث في أعدل الأقوال، ورماه بعضهم بالوضع.

قال فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نورًا، وكل أمة نورًا، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [التحريم: ٨]، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم، فهنالك يقول الله: لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ، فكان الطمع دخولًا، قال: فقال ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشرًا، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلب وحداته أعشاره). وينسب هذا الرأي أيضًا إلى ابن عباس، فإنه كان يقول: إن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهذا ما ينص عليه الطبري بسنده إلى ابن عباس أنه قال:

=

=

(أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تزد حسناتهم على سيئاتهم، ولا سيئاتهم على حسناتهم)، ويذكر قتادة عن ابن عباس أنه كان يقول: (الأعراف بين الجنة والنار، حبس عليه أقوام بأعمالهم)، وكان يقول: (قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تزد حسناتهم على سيئاتهم، ولا سيئاتهم على حسناتهم).

١٤ - هم مؤمنو الجن.

١٥ - هم قوم كانت عليهم ديون.

ويذكر السيوطي حديثًا يعزوه إلى البيهقي في رفع القول الأول إلى النبي ﷺ؛ فإن السيوطي بعد أن ذكر تلك الأقوال السابقة أورد الحديث الآتي:

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم فقال: على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد، فسألناه: وما الأعراف؟ قال: حائط الجنة تجري فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار) وفي هذا القول - أي بأنهم مؤمنو الجن - يقول محمد رشيد رضا: وروي ابن عساكر فيه حديثًا مرفوعًا عن أنس بن مالك من طريق الوليد بن موسى الدمشقي، وهو منكر الحديث في أعدل الأقوال، ورماه بعضهم بالوضع.

وقد قال ابن جرير في الترجيح بين تلك الأقوال، وفي الرد على أبي مجلز: (والصواب من القول في أصحاب الأعراف أن يقال - كما قال الله جل ثناؤه فيهم: - هم رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًا [الأعراف: ٤٦] من أهل الجنة وأهل النار بِسِيمَاهُمْ [الأعراف: ٤٦] ولا خبر عن رسول الله ﷺ يصح سنده، ولا أنه متفق على تأويلها، وإجماع من الأمة على أنهم ملائكة.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان لا يدرك قياسا، وكان المتعارف بين أهل لسان العرب أن الرجال اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم، ودون سائر الخلق غيرهم؛ كان

=

=

بينا أن ما قاله أبو مجلز من أنهم ملائكة: قول لا معنى له، وأن الصحيح من القول في ذلك، ما قاله سائر أهل التأويل غيره، هذا مع أن من قال بخلافه من أصحاب الرسول ﷺ، ومع ما روي عن رسول الله ﷺ في ذلك من الأخبار، وإن كان في أسانيدها ما فيها).

ولعل هذا هو الذي يتعين القول به من بين تلك الأقوال، وإن كان القول بأنهم من استوت حسناتهم وسيئاتهم هو ما ذهب إليه كثير من العلماء؛ إلا أن تلك الروايات لم تصف من الشوائب؛ بل هي كما قال الحافظ ابن كثير: (الله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة، وقصاراها أن تكون موقوفة). غير أن الجمهور تمسك بها.

وعن رأيهم هذا يقول محمد رشيد رضا:

ورجح الجمهور بكثرة الروايات أنهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم.

وقال - مستنبطا من دعاء أهل الأعراف: (رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [الأعراف: ٤٧]: (والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم، وكانوا موقوفين مجهولا مصيرهم). ومما تقدم يظهر لنا مدى تفاوت أقوال العلماء في تعينهم لأهل الأعراف. على أن في بعض هذه الأقوال تناقضا ظاهرا، والمثال على ذلك: أن بعضهم قال: إن أهل الأعراف هم من الأنبياء، وكانوا على الأعراف لعلو منزلتهم وعظيم مكانتهم. وعلى نقيض هذا القول من قال: أن أهل الأعراف هم أولاد الزنا أو مساكين أهل الجنة، وهذان القولان بينهما من البعد ما لا يخفى.

قال الماوردي: " ومعنى قوله: {يَعْرِفُونَ كُلًا بِسِيمَاهُمْ}، يعني: يعرفون أهل النار وأهل الجنة بعلامتهم التي يتميزون بها، وعلامتهم في وجوههم وأعينهم".

قال الحسن البصري: "علامة أهل النار سواد الوجوه وزرقة العيون، وعلامة أهل الجنة بياض الوجوه وحسن العيون".

=

=

قال الماوردي: "فإن قيل في أصحاب «الأعراف»: إنهم فضلاء المؤمنين كان ذلك زيادة في ثوابهم ومبالغة في كرامتهم لأنهم يرون منازلهم في الجنة فيستمتعون بها، ويرون عذاب النار فيفرحون بالخلاص منها.

وإن قيل: إنهم المفضلون وأصحاب الصغائر من المؤمنين كان ذلك لنقص ثوابهم عن استحقاق الدخول للجنة.

وإن قيل: إنهم الملائكة، احتمل أمرهم ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يؤمروا بذلك حمدًا لأهل الجنة وذمًا لأهل النار وزيادة في الثواب والعقاب.

والثاني: أن يكونوا حفظة الأعمال في الدنيا الشاهدين بها عند الله في الآخرة أمروا بذلك، ما أدوه من الشهادة تبشيرًا لأهل الجنة وتوبيخًا لأهل النار.

والثالث: أن يكونوا خزنه الجنة والنار، فإن من الملائكة من أفرد لخزنة الجنة، ومنهم من أفرد لخزنة النار، ويكون هؤلاء قد جمع لهم بين الأمرين، والله أعلم بغيب ذلك.

وحكى ابن الأنباري أن قوله: {وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ}، معناه: على معرفة أهل الجنة والنار رجال، وأن قوله: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوفٌ عَلَيكُم} الآية، من قول أصحاب الأعراف، وهو مخالف لقول جميع المفسرين".

قوله تعالى: {وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الأعراف: ٤٦]، أي: " ونادى رجال الأعراف أهل الجنة بالتحية قائلين لهم: سلام عليكم".

قال البغوي: " أي: إذا رأوا أهل الجنة قالوا سلام عليكم".

قوله تعالى: {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [الأعراف: ٤٦]، أي: " وأهل الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد، وهم يرجون دخولها".

قال البغوي: " يعني: أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة، {وهم يطمعون} في

=

=

دخولها".

قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريد بهم".

قال الحسن: "الذي جعل الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون". وفي لفظ: " والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم".

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (ونادَوا) يعني: أصحاب الأعراف (أصحاب الجنة أن سلام عليكم) وفي قوله (لم يدخلوها وهم يطمعون) قولان.

أحدهما: أنه إخبار من الله تعالى لنا أن أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها، قاله الجمهور.

والثاني: أنه إخبار من الله تعالى لأهل الأعراف إذا رأوا زمرة يُذهَب بها إلى الجنة أن هؤلاء لم يدخلوها وهم يطمعون في دخولها، هذا قول السدي.

قوله تعالى: {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ} [الأعراف: ٤٧]، أي: " وإذا حُوِّلَتْ أبصار رجال الأعراف جهة أهل النار".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف تلقاء أصحاب النار، يعني: حيالهم ووجاههم، فنظروا إلى تشويه الله لهم".

قال السمعاني: " يعني: إذا اطلعوا على أهل النار، وما هم فيه".

قال السعدي: "قوله تعالى (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ) ورأوا منظرا شنيعا، وهَوْلا فظيعا (قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فأهل الجنة [إذا رآهم أهل الأعراف] يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم".

قال أبو حيان: "في قوله (صرفت) دليل أنّ أكثر أحوالهم النظر إلى تلقاء أصحاب الجنة، وأن نظرهم إلى أصحاب النار هو بكونهم صرفت أبصارهم تلقاءهم،

=

=

فليس الصّرف من قبلهم، بل هم محمولون عليه مفعول بهم ذلك، لأنّ ذلك المطلع مخوف من سماعه فضلًا عن رؤيته فضلًا عن التلبيس به، والمعنى أنهم إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما هم عليه من العذاب استغاثوا بربّهم من أن يجعلهم معهم".

قوله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤٧]، أي: " النار قالوا: ربنا لا تُصيِّرنا مع القوم الظالمين بشركهم وكفرهم".

قال الطبري: {الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، أي: " الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها من سخطك ما أورثهم من عذابك ما هم فيه".

قال السمعاني: " استعاذوا بالله من النار".

قال القرطبي: " سألوا الله ألا يجعلهم معهم، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم. فهذا على سبيل التذلل، كما يقول أهل الجنة: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا} [التحريم: ٨]، ويقولون: الحمد لله. على سبيل الشكر لله ﷻ. ولهم في ذلك لذة".

قال ابن عباس: " إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم، قالوا: {ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين".

قال السدي: " وإذا مروا بهم - يعني بأصحاب الأعراف- بزمرة يذهب بها إلى النار، قالوا: {ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين}".

قال عكرمة: " تحرد وجوههم للنار، فإذا رأوا أهل الجنة ذهب ذلك عنهم".

قال ابن زيد: " فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مزرقة، {قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين} "

قوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ} [الأعراف: ٤٨]، أي: " ونادى أهل الأعراف رجالا من قادة الكفار الذين في النار، يعرفونهم بعلامات خاصة تميزهم".

=

=

قال الطبري: يعني: "من أهل الأرض {يعرفونهم بسيماهم}، سيما أهل النار".
قال ابن عباس: " نادوا رجالا في النار يعرفونهم بسيماهم".
قال الماتريدي: " قال عامة أهل التأويل: يعرفون بسواد الوجوه وزرقة العيون، ولكن أمكن أن يعرفوا بالأعلام التي كانت لهم في الدنيا سوى سواد الوجوه؛ لأنهم يخاطبونهم بقوله: {قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون}، فلو لم يعرفوهم بآثار كانت لهم في الدنيا، لم يكونوا يعاتبونهم بجمع الأموال والاستكبار في الدنيا، ولا يقال للفقراء ذلك، إنما يقال للأغنياء؛ لأنهم هم الذين يجمعون الأموال وهم المستكبرون على الخلق؛ كقوله: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: ٣٥]، ويشبه أن يخاطب الكل، وفيهم من قد جمع واستكبر، وذلك جائز، هذا على تأويل من يجعل أصحاب الأعراف الذين استوت حسناتهم بسيئاتهم".
قوله تعالى: {قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ} [الأعراف: ٤٨].
أي: ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم في الأرض بغير الحق. فقد صرتم في الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهين.
قال السمعاني: " يعني: ما نفعكم اجتماعكم وتظاهركم في الدنيا".
قال الطبري: يعني: " ما كنتم تجمعون من الأموال والعدد في الدنيا".
قال الثعلبي: أي: " في الدنيا من المال والأولاد".
عن ابن عباس: " {قالوا ما أغنى عنكم جمعكم}، تكثركم".
قال الشوكاني: قوله تعالى (ما أغنى عنكم جمعكم) الذي كنتم تجمعون للصد عن سبيل الله، والاستفهام للتقريع والتوبيخ.
قوله تعالى: {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأعراف: ٤٨]، أي: " وما نفعكم استعلاؤكم عن الإيمان بالله وقَبول الحق".

=

=

قال مقاتل: " يعني: وما أغنى عنكم ما كنتم تستكبرون عن الإيمان".

قال ابن ابي زمنين: أي: " عن عبادة الله".

قال الطبري: " يقول: وتكبركم الذي كنتم تتكبرون فيها".

قال الزمخشري: " واستكباركم عن الحق وعلى الناس".

قال ابن زيد: " على أهل طاعة الله".

عن ابن عباس: "} وما كنتم تستكبرون{، وتكبركم".

قال قتادة: " نزع الله جمعهم وصار كبرهم في النار".

قال السدي: " فمر بهم - يعني بأصحاب الأعراف-ناس من الجبارين عرفوهم بسيماهم. قال: يقول: قال أصحاب الأعراف: {ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون}".

وقال ابن مجلز: " نادت الملائكة رجالا في النار يعرفونهم بسيماهم {ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون. أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة}، قال: هذا حين دخل أهل الجنة الجنة {ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون}".

وقرئ: «تستكثرون»، من الكثرة.

قوله تعالى: {أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ} [الأعراف: ٤٩]، أي: " أهؤلاء الضعفاء والفقراء من أهل الجنة الذين أقسمتم في الدنيا أن الله لا يشملهم يوم القيامة برحمة".

قال ابن عباس: " يعني: أصحاب الأعراف".

قال السدي: " هؤلاء الضعفاء الذين أقسمتم".

قال الزجاج: " يعني: أهل الجنة، كأنه قيل لهم: يا أهل النار أهؤلاء الذين حلفتم لا ينالهم الله برحمة".

=

=

قال الطبري: " قال الله لأهل التكبر عن الإقرار بوحدانية الله، والإذعان لطاعته وطاعة رسله، الجامعين في الدنيا الأموال مكاثرة ورياء: أيها الجبابرة كانوا في الدنيا، أهؤلاء الضعفاء الذين كنتم في الدنيا أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟".

قال الشوكاني: قوله تعالى (أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ) هذا من كلام أصحاب الأعراف، أي قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذين صاروا إلى الجنة هذه المقالة، وقد كان الكفار يقسمون في الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم، وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم.

قال مقاتل: " فأقسم أهل النار أن أهل الأعراف سيدخلون النار معهم قالت الملائكة الذين حبسوا أصحاب الأعراف على الصراط، {أهؤلاء}، يعني: أصحاب الأعراف {الذين أقسمتم} يا أهل النار أنهم {لا ينالهم الله برحمة}".

قوله تعالى: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ} [الأعراف: ٤٩]، أي: " ادخلوا الجنة يا أصحاب الأعراف فقد غُفِرَ لكم".

اختلف العلماء في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يكون خطابًا من الله لأهل الأعراف.

والثاني: أن يكون خطابًا من الله لأهل الجنة.

والثالث: أن يكون خطابًا من أهل الأعراف لأهل الجنة، ذكرهما الزجاج.

فعلى هذا الوجه الأخير، يكون معنى قول أهل الأعراف لأهل الجنة (ادخلوا الجنة) اعلوا إلى القصور المشرفة، وارتفعوا إلى المنازل المنيفة، لأنهم قد رأوهم في الجنة. (زاد المسير).

قال الطبري: " قال [الله تعالى]: قد غفرت لهم ورحمتهم بفضلي ورحمتي، ادخلوا يا أصحاب الأعراف الجنة".

قال مقاتل: "ثم قالت الملائكة: يا أصحاب الأعراف {ادخلوا الجنة...".

=

=

عن ابن أبي خالد قال: "سألت عكرمة عن قوله: {أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة}، قال عكرمة: دخلوا الجنة".

قال الربيع: " فكانوا آخر أهل الجنة دخولا فيما سمعنا عن أصحاب النبي ﷺ".

قوله تعالى: {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الأعراف: ٤٩]، أي: " لا خوف عليكم من عذاب الله، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من حظوظ الدنيا".

قال الطبري: أي: " لا خوف عليكم بعدها من عقوبة تعاقبون بها على ما سلف منكم في الدنيا من الآثام والإجرام، ولا أنتم تحزنون على شيء فاتكم في دنياكم.. وقال أبو مجلز: بل هذا القول خبر من الله عن قيل الملائكة لأهل النار، بعد ما دخلوا النار، تعييرا منهم لهم على ما كانوا يقولون في الدنيا للمؤمنين الذين أدخلهم الله يوم القيامة جنته. وأما قوله: {ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون}، فخبر من الله عن أمره أهل الجنة بدخولها".

قال مقاتل: " {لا خوف عليكم} من العذاب، {ولا أنتم تحزنون} من الموت".

قال الزجاج: **"** فجائز أن يكون {ادخلوا الجنة}، خطابا من أصحاب الأعراف لأهل الجنة، لأن كل ما يقوله أصحاب الأعراف فعن الله تعالى. وجائز أن يكون خطابا من الله ﷻ لأهل الجنة".

قال الماوردي: " وحكى ابن الأنباري أن قوله: {وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ}، معناه: على معرفة أهل الجنة والنار رجال، وأن قوله: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوفٌ عَلَيكُم}، الآية من قول أصحاب الأعراف، وهو مخالف لقول جميع المفسرين".

قال أبو عبد الله الحليمي: " وأما قول الله ﷻ: {ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم}، قالوا: {ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون} فإنما هو أنهم يقولون لقوم من أهل النار هذا فيقول لهم أهل النار في جواب ذلك وأنتم فما أغنى عنكم إيمانا، والله لا يأليكم من الله رحمه فيكذب الله تعالى يمين أهل

=

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠).

{وَنَادَى أَصْحَاب النَّار أَصْحَاب الْجَنَّة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنْ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ الله} مِنْ الطَّعَام {قَالُوا إنَّ الله حَرَّمَهُمَا} مَنَعَهُمَا {على الكافرين}.

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١).

{الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينهمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاة الدُّنْيَا فَالْيَوْم نَنْسَاهُمْ} نَتْرُكهُمْ فِي النَّار {كَمَا نَسُوا لِقَاء يَوْمهمْ هَذَا} بِتَرْكِهِمْ الْعَمَل لَهُ {وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} أَيْ وَكَمَا جَحَدُوا[1].

=

النار ويقول لهؤلاء: أقسمتم عليهم أي ومن أين أجزتم لأنفسكم أن تحكموا على الله، ثم يقول لأصحاب الأعراف: {ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون}".

ونقل الثعلبي عن الكلبي: "إنهم ينادون وهم على السور يا وليد بن المغيرة ويا أبا جهل بن هشام ويا فلان. ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الضعفاء والفقراء والمساكين ممن كانوا يستهزؤن بهم مثل سلمان وصهيب وو خباب وأتباعهم فينادون أهؤلاء الذين أقسمتم حلفتم وأنتم في الدنيا لا ينالهم الله برحمة يعني الجنة ثم يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون".

(١) قوله تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ} [الأعراف: ٥٠]، أي: " واستغاث أهل النار بأهل الجنة طالبين منهم أن يُفيضوا عليهم من الماء، أو مما رزقهم الله من الطعام".

=

=

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

قال ابن زيد: " يستطعمونهم ويستسقونهم".

عن السدي: "} أو مما رزقكم الله}، قال: من الطعام".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: {ونادى أصحاب النار}، بعد ما دخلوها، {أصحاب الجنة}، بعد ما سكنوها، {أن}، يا أهل الجنة {أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله}، أي: أطعمونا مما رزقكم الله من الطعام، وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن استغاثة أهل النار بأهل الجنة، عند نزول عظيم البلاء بهم من شدة العطش والجوع، عقوبة من الله لهم على ما سلف منهم في الدنيا من ترك طاعة الله، وأداء ما كان فرض عليهم فيها في أموالهم من حقوق المساكين من الزكاة والصدقة".

قال الزجاج: " فأعلم الله ﷻ: أن ابن آدم غير مستغن عن الطعام والشراب وإن كان معذبا".

قال الرازي: قوله تعالى (أَفِيضُوا) كالدلالة على أن أهل الجنة أعلى مكانًا من أهل النار.

فإن قيل: أسألوا مع الرجاء والجواز، أو مع اليأس؟

قلنا: ما حكيناه عن ابن عباس يدل على أنهم طلبوا الماء مع جواز الحصول.

وقال القاضي: بل مع اليأس، لأنهم قد عرفوا دوام عقابهم وأنه لا يفتر عنهم، ولكن الآيس من الشيء قد يطلبه كما يقال في المثل: الغريق يتعلق بالزبد، وإن علم أنه لا يغيثه.

(أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله) قيل إنه الثمار، وقيل إنه الطعام، وهذا الكلام يدل على حصول العطش الشديد، والجوع الشديد لهم.

=

=

- قال ابن عطية: والأشنع على الكافرين في هذه المقالة أن يكون بعضهم يرى بعضًا فإنه أخزى وأنكى للنفس، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تعالى.

- قال ابن عاشور: فالفيض في الآية إذا حمل على حقيقته كان أصحاب النّار طالبين من أصحاب الجنّة أن يصبّوا عليهم ماء ليشربوا منه، وعلى هذا المعنى حمله المفسّرون.

- قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال.

وقد سئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء، ألم تَرَوْا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة "أن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ"؟.

وروى أبو داود " أن سعدًا أتى النبيّ ﷺ فقال: أيّ الصدقة أعجب إليك؟ قال: "الماء".

وفي رواية: فحفر بئرًا فقال "هذه لأمّ سعد".

وعن أنس قال: قال سعد: يا رسول الله، إن أمّ سعد كانت تحب الصدقة، أفينفعها أن أتصدّق عنها؟ قال: "نعم وعليك بالماء" " وفي رواية أن النبي ﷺ أمر سعد بن عُبادة أن يسقي عنها الماء.

فدلّ على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى وقد قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء.

وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلًا مؤمنًا موحدًا وأحياه.

وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّى. فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ

=

خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا فَقَالَ «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ».

وعكس هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "عُذّبت امرأة في هِرّة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض "

وعند البخاري من حديث أسماء (... فَإِذَا امْرَأَةٌ - حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ - تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ قُلْتُ مَا شَأْنُ هَذِهِ قَالُوا حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا لاَ أَطْعَمَتْهَا، وَلاَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ).

وفي حديث عائشة عن النبيّ ﷺ: "ومن سَقَى مسلمًا شَربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة ومن سقى مسلمًا شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها " خرّجه ابن ماجه في السُّنَن.

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [الأعراف: ٥٠]، أي: " فأجابوهم بأن الله تعالى قد حَرَّم الشراب والطعام على الذين جحدوا توحيده، وكذَّبوا رسله".

قال الطبري: " فأجابهم أهل الجنة، إن الله حرم الماء والطعام على الذين جحدوا توحيده، وكذبوا في الدنيا رسله".

قال الزجاج: " فأعلمهم أهل الجنة: أن الله حرمها على الكافرين، يعنون أن الله حرم طعام أهل الجنة وشرابهم على أهل النار، لأنهم إنما يشربون الحميم الذي يصهر به ما في بطونهم".

قال ابن عباس: " ينادي الرجل أخاه أو أباه، فيقول: قد احترقت، أفض علي من

=

الماء!، فيقال لهم: أجيبوهم! فيقولون: {إن الله حرمهما على الكافرين} ".

قال سعيد بن جبير: " ينادي الرجل أخاه: يا أخي، قد احترقت فأغثني! فيقول: {إن الله حرمهما على الكافرين} ".

قال ابن زيد في قوله: " {قالوا إن الله حرمهما على الكافرين}، قال: طعام أهل الجنة وشرابها".

قوله تعالى: {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا} [الأعراف: ٥١]، أي: " الذين حَرَمهم الله تعالى من نعيم الآخرة هم الذين جعلوا الدين الذي أمرهم الله باتباعه باطلا ولهوًا، بالإعراض والاستهزاء لمن يدعوهم إلى الإسلام".

قال الخازن: "وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه".

قال القاسمي: "واللهو: كل ما صد عن الحق، واللعب: كل أمر باطل، أي: ليس دينهم في الحقيقة إلا ذلك، إذ هو دأبهم وديدنهم".

قال الطبري: " وهذا خبر من الله عن قِيل أهل الجنة للكافرين. يقول تعالى ذكره: فأجاب أهلُ الجنة أهلَ النار: {إن الله حرمهما على الكافرين} الذين كفروا بالله ورسله، الذين اتخذوا دينهم الذي أمرهم الله به لهوًا ولعبا، يقول: سخرية ولعبًا".

قال ابن عباس: " وذلك أنهم كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان سخِروا ممن دعاهم إليه وهزؤوا به، اغترارًا بالله".

عن ابن عباس، قال {الذين اتخذوا دينهم لهوا}، يقول: لعبا".

عن قتادة: قوله: "{اتخذوا دينهم لهوا ولعبا}، قال: أكلا وشربا".

عن مجاهد قال: "كل لعب لهو".

قوله تعالى: {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الأعراف: ٥١]، أي: " وخدعتهم الحياة الدنيا وشغلوا بزخارفها عن العمل للآخرة".

قال الطبري: " يقول: وخدعهم عاجلُ ما هم فيه من العيش والخفض والدَّعة،

=

=

عن الأخذ بنصيبهم من الآخرة، حتى أتتهم المنية".

وفي قوله تعالى: {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الأعراف: ٥١]، وجوه:

أحدها: وغرتهم زينة الحياة الدنيا.

والثاني: وغرتهم الرياسة في الدنيا.

والثالث: وغرتهم حياتهم في الدنيا حين أمهلوا.

الرابع: غرهم ما كانوا يفترون. قاله الربيع.

قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا} [الأعراف: ٥١]، أي: " فيوم القيامة ينساهم الله تعالى ويتركهم في العذاب الموجع، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا".

قال الطبري: " أي: ففي هذا اليوم -وذلك يوم القيامة- نتركهم في العذاب المبين جياعًا عطاشًا بغير طعام ولا شراب، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا، ورفضوا الاستعداد له بإتعاب أبدانهم في طاعة الله".

عن مجاهد: "{فاليوم ننساهم}، قال: نسوا في العذاب".

وقال مجاهد: " ننساهم نؤخرهم في النار".

عن السدي: "{فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا}، نتركهم من الرحمة".

عن السدي قوله: "{فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا}، قال: كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا". وروي عن مجاهد نحو ذلك.

قال ابن عباس: " نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا". وفي رواية: " نتركهم في النار كما تركوا لقاء يومهم هذا".

وقال ابن عباس أيضا: " يقول: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشرّ".

عن الضحاك: "{فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا}، قال: كما تركتم أمري".

=

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢).

{وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ} أَيْ أَهْل مَكَّة {بِكِتَابٍ} قُرْآن {فَصَّلْنَاهُ} بَيَّنَّاهُ بِالْأَخْبَارِ وَالْوَعْد وَالْوَعِيد {عَلَى عِلْم} حَال أَيْ عَالِمِينَ بِمَا فَصَّلَ فِيهِ {هُدًى} حَال مِنْ الْهَاء {وَرَحْمَة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} بِهِ[1].

=

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [الأعراف: ٥١]، أي: " ولكونهم بأدلة الله وبراهينه ينكرون مع علمهم بأنها حق".

قال الطبري: أي: " وكما كانوا بآياتنا يجحدون.. وهي حججه التي احتج بها عليهم، من الأنبياء والرسل والكتب وغير ذلك، {يجحدون}، يكذبون ولا يصدقون بشيء من ذلك".

قال الحسن: " يعني بقوله: {يجحدون}، قال: جحدوا بعد المعرفة".

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ} [الأعراف: ٥٢].

أي: ولقد جئنا الكفار بقرآن أنزلناه عليك - أيها الرسول - بيّناه مشتملًا على علم عظيم، هاديًا من الضلالة إلى الرشد، ورحمة لقوم يؤمنون بالله ويعملون بشرعه.

- والمعنى: ولقد جئنا لهؤلاء الناس على لسانك يا محمد بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، فصلنا آياته تفصيلًا حكيمًا، وبينا فيه ما هم في حاجة إليه من أمور الدنيا والآخرة بيانًا شافيًا يؤدي إلى سعادتهم متى اتبعوه واهتدوا بهديه». (التفسير الوسيط).

والضمير لأولئك الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، وقيل هو لهم وللمؤمنين، والمراد بالكتاب: القرآن الكريم.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: أقسم، يا محمد، لقد جئنا هؤلاء الكفرة {بكتاب}، يعني: القرآن الذي أنزله إليه".

قال السمعاني: " أي: أتيناهم بالقرآن".

=

=

- **قال ابن كثير**: يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين، كما قال تعالى (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ).

- قال السمرقندي: قوله تعالى (على عِلْمٍ) أي: بعلم منا (هُدًى) يعني: بيانًا من الضلالة، ويقال: جعلناه هاديًا. (وَرَحْمَةً) أي: نعمة ونجاة من العذاب (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يعني: لمن آمن وصدق به، يعني: أكرمناهم بهذا الكتاب فلم يؤمنوا ولم يصدقوا، وإنما أضافه إلى المؤمنين لأنهم هم الذين يهتدون به ويستوجبون به الرحمة.

- قال الشوكاني: والمراد بالكتاب الجنس، إن كان الضمير للكفار جميعًا، وإن كان للمعاصرين للنبي ﷺ، فالمراد بالكتاب: القرآن، والتفصيل التبيين.

- قال الماوردي: قوله تعالى (فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ) فيه وجهان:

أحدهما: بيَّنَّا ما فيه من الحلال والحرام على علم بالمصلحة.

والثاني: ميزنا به الهدى من الضلالة على علم بالثواب والعقاب.

قال الطبري: أي: " مفصَّلا مبيَّنًا فيه الحق من الباطل، على علم منا بحقِّ ما فُصِّل فيه، من الباطل الذي مَيَّز فيه بينه وبين الحق".

- قال ابن الجوزي: قوله تعالى (فصَّلناه) أي: بينَّاه بإيضاح الحق من الباطل.

وقيل: فصَّلناه فصولًا: مرة بتعريف الحلال، ومرة بتعريف الحرام، ومرة بالوعد، ومرة بالوعيد، ومرة بحديث الأمم.

وفي قوله: (على علم) قولان.

أحدهما: على علم منا بما فصَّلناه.

والثاني: على علم منا بما يصلحكم مما أنزلناه فيه.... (زاد المسير).

- قال السعدي: قوله تعالى (عَلَى عِلْمٍ) من اللّه بأحوال العباد في كل زمان ومكان،

=

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣).

{هَلْ يَنْظُرُونَ} مَا يَنْتَظِرُونَ {إِلَّا تَأْوِيله} عَاقِبَة مَا فِيهِ {يَوْم يَأْتِي تَأْوِيله} هُوَ

=

وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكمًا غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

- والمراد بهذه الجملة الكريمة بيان أن ما في هذا القرآن من أحكام وتفصيل وهداية، لم يحصل عبثًا، وإنما حصل مع العلم التام بكل ما اشتمل عليه من فوائد متكاثرة، ومنافع متزايدة.

(هُدًى وَرَحْمَةً) أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغيّ والرشد، ويحصل أيضًا لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

(لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) بالله ويعملون بشرعه.

قال الطبري: " يقول: بيناه ليُهْدَى ويُرْحَم به قومٌ يصدقون به، وبما فيه من أمر الله ونهيه، وأخباره، ووعده ووعيده، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى".

قال الشعبي: " هدى من الضلالة".

قال السدي: " أما هدى فنور".

عن سعيد بن جبير: قوله: "{هدى}، قال: تبيان".

عن قتادة قوله: "{ورحمة} قال: القرآن". وروي عن أبي العالية مثل ذلك.

عن ابن إسحاق: " {هدى ورحمة لقوم يؤمنون}، أي: مغفرة لما ركبوا".

قال القرطبي: قوله تعالى (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) خص المؤمنون لأنهم المنتفعون به.

يَوْم الْقِيَامَة {يَقُول الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْل} تَرَكُوا الْإِيمَان بِهِ {قَدْ جَاءَتْ رُسُل رَبّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاء فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ} هَلْ {نُرَدّ} إلَى الدُّنْيَا {فَنَعْمَل غَيْر الَّذِي كُنَّا نَعْمَل} نُوَحِّد الله وَنَتْرُك الشِّرْك فَيُقَال لهم لا قال تعالى {قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسهمْ} إذْ صَارُوا إلَى الْهَلَاك {وَضَلَّ} ذَهَبَ {عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} مِنْ دعوى الشريك[1].

(١) قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ} [الأعراف: ٥٣].

النظر هنا بمعنى الانتظار والتوقع لا بمعنى الرؤية. فالمراد بـ (ينظرون): ينتظرون ويتوقعون، وتأويل الشيء: مرجعه ومصيره الذي يئول إليه ذلك الشيء والاستفهام بمعنى النفي.

والمعنى: إن هؤلاء المشركين ليس أمامهم شيء ينتظرونه بعد أن أصروا على شركهم إلا ما يئول إليه أمر هذا الكتاب وما تتجلى عنه عاقبته، من تبين صدقه، وظهور صحة ما أخبر به من الوعد والوعيد والبعث والحساب، وانتصار المؤمنين به واندحار المعرضين عنه.

والتأويل يطلق في القرآن على إطلاقين:

الأول: بمعنى التفسير.

الثاني: عاقبة الشيء وما يؤول إليه.

كهذه الآية (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ....).

وقوله تعالى (ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا).

قال الطبري: يقول: " هل ينتظر هؤلاء المشركون الذين يكذبون بآيات الله ويجحدون لقاءه إلا ما يؤول إليه أمرهم، من ورودهم على عذاب الله، وصِلِيِّهم جحيمه، وأشباه هذا مما أوعدهم الله به".

عن قتادة قوله: " {هل ينظرون إلا تأويله}، أي: ثوابه".

=

=

قال ابن عطية: قوله تعالى (ينظرون) معناه ينتظرون، و (التأويل) في هذا الموضع بمعنى المآل والعاقبة.

فإن قيل: كيف ينتظرون ذلك مع كفرهم به؟

فالجواب: أنهم قبل وقوع ما هو محقق الوقوع، صاروا كالمنتظرين له، لأن كل آت قريب، فهم على شرف ملاقاة ما وعدوا به، وسينزل بهم لا محالة.

قال السدي: " أما {تأويله} ، فعواقبه، مثل وقعة بدر، والقيامة، وما وعد فيها من موعد".

عن ابن زيد في قوله: "يوم يأتي تأويله"، قال: يوم يأتي حقيقته، وقرأ قول الله تعالى: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} [سورة يوسف: ١٠٠]. قال: هذا تحقيقها. وقرأ قول الله: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ} [سورة آل عمران: ٧]، قال: ما يعلم حقيقته ومتى يأتي، إلا الله تعالى".

قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} [الأعراف: ٥٣]، أي: " يوم يأتي ما يؤول إليه الأمر من الحساب والثواب والعقاب يوم القيامة، لأنه يوم الجزاء، وما تؤول إليه أمورهم".

قال الطبري: معناه: " يوم يجيء ما يؤول إليه أمرهم من عقاب الله".

قال ابن عباس: " يوم القيامة".

قال قتادة: "أي: ثوابه". وفي رواية أخرى: " عاقبته"، وفي رواية ثالثة: " جزاؤه".

قوله تعالى: {يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ} [الأعراف: ٥٣]، أي: " يقول الكفار الذين تركوا القرآن، وكفروا به في الحياة الدنيا".

والنسيان في القرآن يطلق على معنيين:

المعنى الأولى: بمعنى الترك: ومنه قوله تعالى (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) نسوا الله: أي: تركوه فلم يقوموا بحقه، فنسيهم: تركهم سبحانه فلم يجبهم، ومنه قوله تعالى (وَلا

=

=

تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ) أي تركوه (فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) أي: جعلهم ينسونها ويغفلون عنها ويتركونها إذا لم يعطوا الله حقه، ومنه قوله تعالى (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ) أي: نترككم في النار.

المعنى الثاني: الذهول عن الشيء المعلوم، ومنه قوله تعالى (أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ) المراد بالنسيان: الذهول عن شيء معلوم، فالله تعالى أحصاه، لكن هؤلاء نسوه، وهذا المعنى لا يوصف به الله تعالى.

قال الطبري: "أي: يقول الذين ضيَّعوا وتركوا ما أمروا به من العمل المنجيهم مما آل إليه أمرهم يومئذ من العذاب، من قبل ذلك في الدنيا".

قال السدي: " أما {الذين نسوه}، فتركوه".

وعن مجاهد: " {يقول الذين نسوه}، قال: أعرضوا عنه".

وفي قوله تعالى: {يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ} [الأعراف: ٥٣]، وجهان:

أحدهما: معنى نسوه أعرضوا عنه فصار كالمنسي، قاله أبو مجلز، وهو معنى قول مجاهد.

والثاني: تركوا العمل به، قاله الزجاج، وهو معنى قول السدي.

قوله تعالى: {قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٥٣]، أي: " قد تبيَّن لنا الآن أنَّ رسل ربنا قد جاؤوا بالحق".

قال الطبري: " أقسم المساكين حين عاينوا البلاءَ وحلّ بهم العقاب: أنّ رسل الله التي أتتهم بالنِّذارة وبلغتهم عن الله الرسالة، قد كانت نصحت لهم وصَدَقتهم عن الله، وذلك حين لا ينفعهم التصديق. ولا ينجيهم من سَخَط الله وأليم عقابه كثرة القال والقيل".

قال السدي: " فلما رأوا ما وعدهم أنبياؤهم، استيقنوا فقالوا: {قد جاءت رسل ربنا بالحق}".

=

وفي قوله تعالى: {قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٥٣]، وجهان:

أحدهما: أنبياء الله في الدنيا بكتبه المنذرة.

والثاني: الملائكة عند المعاينة بما بشروهم به من الثواب العقاب.

قوله تعالى: {فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا} [الأعراف: ٥٣]، أي: " فهل لنا من أصدقاء وشفعاء، فيشفعوا لنا عند ربنا".

قال الطبري: " وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم، أنهم يقولون عند حلول سَخَط الله بهم، وورودهم أليمَ عذابه، ومعاينتهم تأويل ما كانت رسلُ الله تعِدهم: هل لنا من أصدقاءَ وأولياء اليوم فيشفعوا لنا عند ربنا، فتنجينا شفاعتهم عنده مما قد حلّ بنا من سوء فعالنا في الدنيا".

قوله تعالى: {أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} [الأعراف: ٥٣]، أي: " أو نعاد إلى الدنيا مرة أخرى فنعمل فيها بما يرضي الله عنا؟".

قال الطبري: يقول: " أو نردّ إلى الدنيا مرة أخرى، فنعمل فيها بما يرضيه ويُعْتِبُه من أنفسنا؟ قال هذا القولَ المساكينُ هنالك، لأنهم كانوا عهدوا في الدنيا أنفسهم لها شفعاء تشفع لهم في حاجاتهم، فيذكروا ذلك في وقت لا خُلة فيه لهم ولا شفاعة".

قوله تعالى: {قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} [الأعراف: ٥٣]، أي: " قد خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها".

قال السدي: " يقول: شروها بخسران".

قال الطبري: " يقول: غَبَنوا أنفسهم حظوظها، ببيعهم ما لا خطر له من نعيم الآخرة الدائم، بالخسيس من عَرَض الدنيا الزائل".

قوله تعالى: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأعراف: ٥٣]، أي: " وذهب عنهم ما كانوا يعبدونه من دون الله، ويفترونه في الدنيا مما يَعِدُهم به الشيطان".

قال يحيى بن سلام: " أوثانهم التي كانوا يعبدونها".
قال الزجاج: " أي: لم ينتفعوا بكل ما عَبَدُوه مِنْ دونِ اللهِ، بل ضرَّهم أعظم الضَّرَرِ".
قال الطبري: " يقول: وأسلمهم لعذاب الله، وحار عنهم أولياؤهم، الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، ويزعمون كذبًا وافتراء أنهم أربابهم من دون الله".
عن ابن عباس في قوله: "{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، قال: ما كانوا يكذبون في الدنيا".
عن قتادة: " {مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} ،أي: يشركون".
قال الشنقيطي: قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ).
بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن الكفار، إذا عاينوا الحقيقة يوم القيامة يقرون بأن الرسل جاءت بالحق، ويتمنون أحد أمرين: أن يشفع لهم شفعاء فينقذوهم، أو يردوا إلى الدنيا ليصدقوا الرسل، ويعملوا بما يرضي الله، ولم يبين هنا هل يشفع لهم أحد؟ وهل يردون؟ وماذا يفعلون لو ردوا؟ وهل اعترافهم ذلك بصدق الرسل ينفعهم؟
ولكنه تعالى بين ذلك كله في مواضع أخر، فبين: أنهم لا يشفع لهم أحد:
بقوله (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ) الآية، وقوله (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين).
وبين أنهم لا يردون في مواضع متعددة:
كقوله (وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ).
فقوله (ولكن حَقَّ القول مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ) دليل على أن النار وجبت لهم، فلا

=

يردون، ولا يعذرون.

وقوله (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النذير).

فصرح بأنه قطع عذرهم في الدنيا. بالإمهال مدة يتذكرون فيها. وإنذار الرسل، وهو دليل على عدم ردهم إلى الدنيا مرة أخرى، وأشار إلى ذلك بقوله (أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ) جوابًا لقولهم (أَخِّرْنَآ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل).

وقوله (ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا) بعد قوله تعالى عنهم (فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)، وقوله (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذل يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ) الآية، بعد قوله (وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُا العذاب يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ)، وقوله هنا (قَدْ خسروا أَنْفُسَهُمْ) الآية بعد قوله (فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ).

فكل ذلك يدل على عدم الرد إلى الدنيا، وعلى وجوب العذاب، وأنه لا محيص لهم عنه.

وبين في موضع آخر أنهم لو ردوا لعادوا إلى الكفر والطغيان.

وهو قوله (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) الآية.

وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنه تعالى يعلم المعدوم الممكن الذي سبق في علمه أنه لا يوجد كيف يكون لو وجد، فهو تعلى أنهم لا يردون إلى الدنيا مرة أخرى ويعلم هذا الرد الذي لا يكون لو وقع كيف يكون كما صرح به في قوله (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)، ويعلم أن المتخلفين من المنافقين عن غزوة تبوك لا يحضرونها لأنه هو الذي ثبطهم عنها لحكمة كما بينه بقوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالًا ولأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفتنة) الآية،

=

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤).

{إِنَّ رَبّكُمْ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض فِي سِتَّة أَيَّام} مِنْ أَيَّام الدُّنْيَا أَيْ فِي قَدْرهَا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَمْس وَلَوْ شَاءَ خَلَقَهُنَّ فِي لَمْحَة وَالْعُدُول عَنْهُ لِتَعْلِيم خَلْقه التَّثَبُّت {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش} هُوَ فِي اللُّغَة سَرِير الْمُلْك اسْتِوَاء يَلِيق بِهِ {يُغْشِي اللَّيْل النَّهَار} مُخَفَّفًا وَمُشَدَّدًا أَيْ يُغَطِّي كُلًّا مِنْهُمَا بِالْآخَرِ {يَطْلُبهُ} يَطْلُب كُلّ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ طَلَبًا {حَثِيثًا} سَرِيعًا {وَالشَّمْس وَالْقَمَر وَالنُّجُوم} بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى السَّمَاوَات وَالرَّفْع مُبْتَدَأ خَبَره {مُسَخَّرَات} مُذَلَّلَات {بِأَمْرِهِ} بِقُدْرَتِهِ {أَلَا لَهُ الْخَلْق} جَمِيعًا {وَالْأَمْر} كُلّه {تَبَارَكَ} تَعَاظَمَ {الله رَبّ} مالك {العالمين}[1].

=

ونظير ذلك قوله تعالى (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

وبين في مواضع أخر أن اعترافهم هذا بقولهم (لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ونودوا) لا ينفعهم.

كقوله تعالى (فاعترفوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السعير)، وقوله (بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين)، ونحو ذلك من الآيات.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [الأعراف: ٥٤]، أي: " إن ربكم -أيها الناس- هو الله الذي أوجد السموات والأرض من العدم في ستة أيام على وجه الإحكام والإتقان".

قال ابن كثير: يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في

=

=

ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.

قال ابن عطية: وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء.

قال القرطبي: قوله تعالى (فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.

وقال ابن كثير: والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة -وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- وقد اختلف في مقدار هذه الأيام:

فقيل: كأيامنا هذه، لأن الله أطلقها، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه.

وقيل: كل يوم مقدار خمسين ألف سنة.

وقيل: المراد باليوم لحظة. والراجح الأول.

فإن قيل: أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

فمن المقرر عند أهل الإيمان الراسخ والتوحيد الكامل أن المولى جل وعلا قادر على كل شيء، وقدرته سبحانه ليس لها حدود، فله سبحانه مطلق القدرة وكمال الإرادة، ومنتهى الأمر والقضاء، وإذا أراد شيئًا كان كما أراد وفي الوقت الذي يريد، وبالكيفية التي أرادها سبحانه وتعالى.

وقد تواترت النصوص القطعية من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ على تقرير هذا الأمر وبيانه بيانًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض.

=

=

قال تعالى (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون).

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (يبين بذلك تعالى كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدر أمرًا وأراد كونه فإنما يقول له كن _ أي: مرة واحدة _ فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (... قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (هو الذي يحي ويميت فإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر).

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره هذه الآية (٤/ ٢٦١): (وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال: (وما أمرنا إلا واحدة) أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى توكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما يقول له كن قولة فيكون) أ. هـ.

وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين:

الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها.

الحكمة الثانية: أن الله علم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه.

- هذه الأيام أربعة منها للأرض، ويومان للماء، كما فصل ذلك في سورة فصلت: (قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ).

=

=

- قال الإمام القرطبي: وذكر هذه المدة - أي ستة أيام - ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد:
أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.
ولتظهر قدرته للملائكة شيئًا بعد شيء....
وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلًا، وبيّن بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلًا...).
- وقال ابن الجوزي: فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:
أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمرًا تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.
والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خُلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.
والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).
والرابع: أنه علّم عباده التثبت، فإذا تثبت مَنْ لا يَزِلُّ، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.
والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق.) ا. هـ.
وقال القاضي أبو السعود (... وفي خلق الأشياء مدرجًا مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور) ا. هـ.
- فإن قيل: ما الجواب: عن حديث أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ «خَلَقَ اللهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ

=

=

يَوْمَ الْخَمِيسِ وَخَلَقَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ) رواه مسلم.

فإنه يقتضي أن الأيام سبعة.

فالجواب: أن المحققين من العلماء على تضعيفه.

لمخالفته ظاهر القرآن الكريم، الذي يصرح بأن خلق السماوات والأرض وما فيهما تم في ستة أيام: يومان للسماء، وأربعة أيام للأرض وما فيها، كما قال تعالى (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ).

وممن ضعفه: علي بن المديني، والبخاري، ويحيى بن معين، وعبد الرحمن بن مهدي، والبيهقي، وابن تيمية، وابن القيم.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ" وقال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب، وهو أصح. (التاريخ الكبير).

وقال ابن تيمية: وكذلك روى مسلم: (خلق الله التربة يوم السبت)، ونازعه فيه من هو أعلم منه، كيحيى بن معين، والبخاري، وغيرهما، فبينوا أن هذا غلط، ليس هذا من كلام النبي ﷺ، والحجة مع هؤلاء، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن آخر ما خلقه هو آدم، وكان خلقه يوم الجمعة، وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أنه خلق ذلك في الأيام السبعة، وقد رُوي إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد.

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) أي: علا وارتفع على العرش، وأما كيفية ذلك فالله أعلم

=

=

بكيفيته.

والعرش: ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، وهو من أعظم المخلوقات.

وقد ذكر الله استوائه على العرش في سبع مواضع من القرآن.

وقد فسر أهل التعطيل الاستواء بمعنى الاستيلاء، واستدلوا بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو درهم راق

لكن هذا البيت لا يعرف قائله.

قال الأشعري: " وليس استواؤه على العرش استيلاء كما قال أهل القدر؛ لأنه ﷻ لم يزل مستوليًا على كل شيء".

كما رد عليهم الدارمي وأبطل تأويلهم لذلك بقوله: "فهل من مكان لم يستول عليه ولم يعله حتى خص العرش بالذكر من بين الأمكنة والاستواء... ثم قال: هذا محال من الحجج وباطل من الكلام لا تشكون أنتم - إن شاء الله - في بطوله واستحالته، غير أنكم تغالطون به الناس".

وقد رَدَّ ابن الأعرابي -وهو من أئمة اللغة- على مَنْ فَسَّر الاستواء بـ «الاستيلاء» هنا، بقوله: ".. لا يقال: استولى على الشيء، إلا أن يكون له مضادّ، فإذا غلب أحدُهما، قيل: استولى..".

والله تعالى لا منازع له في مُلْكه. ورَدَّه كذلك الخليل بن أحمد. ذكَرَ ذلك الكرمي.

قال السمعاني: " أوّل المعتزلة الاستواء بالاستيلاء... وأما أهل السنة فيتبرءون من هذا التأويل، ويقولون: إن الاستواء على العرش صفة لله - تعالى - بلا كيف، والإيمان به واجب، كذلك يحكى عن مالك بن أنس، وغيره من السلف، أنهم قالوا في هذه الآية: الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

ومنهج السلف الصالح إزاء صفة الاستواء، وغيرها من صفات الباري تعالى: أن تمر كما جاءت، من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل؛ فيثبتون له

=

=

الأسماء والصفات، وينفون عنه مشابهة المخلوقات، إثباتًا منزهًا عن التشبيه، منزهًا عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو مُعطّل، ومَنْ شبهه باستواء المخلوق على المخلوق، فهو مُمَثِّل. وقد قال الإمام مالك بن أنس، لَمَّا سُئل عن كيفية الاستواء، فقال: (الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، وقد وَرَدَ مثلُ ذلك عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وربيعة الرأي.

قال الإمام الشوكاني: " مذهب السلف الصالح أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه".

قال ابن كثير: " وأما قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و} لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري -: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر". وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى".

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا

=

=

ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ). قوله (وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره لا واسطة بينهما. (تفسير ابن كثير).

قال الشنقيطي: ومعنَى (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) العربُ تقولُ: أَغْشَاهُ الشيءُ يغشيه. إذا جعلَه غشاءً له وساترًا ومغطيًا له. معناه: يجعلُ الليلَ مُغْشِيًا للنهارِ، أي: مُغَطِّيًا ضوءَ النهارِ بظلامِه، يذهبُ بضوءِ النهارِ ويغطي ضوءَه بظلامِ الليلِ.

وهذا من غرائبِ صنعِه وعجائبِ آياتِه. وفي الآيةِ محذوفٌ دَلَّ المقامُ عليه، أي: وَيُغْشِي النهارُ الليلَ أيضًا، فيأتِي ضوءُ النهارِ وَيغْشَى ظلامَ الليلِ فَيُذْهِبُهُ ويحل محلَّه، كما قال: (وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) فالإتيانُ بالليلِ بدلَ النهارِ والإتيانُ بالنهارِ بدلَ الليلِ من أعظمِ آياتِ اللهِ - جل وعلا - الدالة على أنه المعبودُ وحدَه، وأنه الربُّ وحدَه، ومع كونِ الليلِ والنهارِ آيتين فَهُمَا أيضًا نعمتانِ عظيمتانِ من أعظمِ نِعَمِ اللهِ على خَلْقِهِ، فهما جامعانِ بينَ كونِهما آيتين وكونهما نعمتين، وَبيَّنَ أنهما آيتانِ بقولِه (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَار) وَبَيَّنَ أنهما نعمتانِ وآيتانِ في مواضعَ كثيرةٍ من أصرحِها سورةُ القصصِ حيث قال فيها: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) ثم بَيَّنَ أنهما نعمتانِ بعدَ بيانِ أنهما آيتانِ قال: (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) يعنِي النهار.

=

=

فجعل الليلَ مُظْلِمًا مُنَاسِبًا للسكونِ والهدوءِ وعدمِ الحركةِ ليستريحَ الناسُ من كَدِّ الأعمالِ والتعبِ في النهارِ، ثم يجعلُ النهارَ مُضِيئًا مُنِيرًا مُنَاسِبًا لِبَثِّ الناسِ في حوائجِهم واكتسابِ معايشهم في نورٍ ساطعٍ من غيرِ فتيلةٍ ولاَ زيتٍ ولاَ حاجةٍ إلى مؤنة.

- قال الآلوسي: وقوله تعالى (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) أي: يغطيه به، يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار، فيغطيه ويلبسه، حتى يذهب بنوره، ويصير الجو مظلمًا، بعد ما كان مضيئًا.

- وقال ابن عاشور: والإغشاء والتّغشية: جعل الشّيء غاشيًا، والغَشْي والغشيان حقيقته التّغطيّة والغمّ.

فمعنى (يغشى الليل النهار) أنّ الله يجعل أحدهما غاشيًا الآخر، والغشي مستعار للإخفاء.

- قال الشنقيطي: قوله تعالى (يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) الحثيثُ: أصلُ الحثِّ لغةِ العربِ: الإسراعُ والاستعجالُ. أي: يطلبُه طَلَبًا حَثِيثًا مسرعًا غايةَ الإسراعِ فلاَ يُمْهِلُهُ دقيقةً، عندما ينتهي وقتُ النهارِ فإذا الليلُ يطلبُه طلبًا مسرعًا فيحلُّ محلَّه في أسرعِ ما يكونُ، وليس بينَهما واسطةٌ بحيث تكونُ ليست من النهارِ ولاَ من الليلِ

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) قرأ هذا الحرفَ عامةُ القراءِ ما عدا ابنَ عامرٍ (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) بنصبِ الأسماءِ الأربعةِ؛ فقولُه (الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) معطوفاتٌ على قولِه (السَّمَاوَاتِ) (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ) وخلقَ الشمسَ والقمرَ، وخلقَ النجومَ في حالِ كونِ المذكوراتِ مسخراتٍ بِأَمْرِهِ.

والتسخيرُ: التذليلُ. فقد سَخَّرَ الشمسَ لمنافعِ هذا الْخَلْقِ؛ ولأنها آيةٌ عُظْمَى كما قال (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) يُطْلِعُهَا في كُلِّ يومٍ، ويسيرها بحسابٍ معلومٍ طرقها

=

=

وسيرها بتسخيرِ رَبِّ العالمينَ دائبة. وكذلك سَخَّرَ القمرَ على سَيْرِهِ المعتادِ، وحسابِه المعروفِ، نعرفُ بهما عددَ السنين والشهورِ والحسابَ، وكذلك سَخَّرَ النجومَ ليهتديَ بها خَلْقُهُ، وليزينَ بها السماءَ، ويطردَ بها الشياطينَ. فهذه المخلوقاتُ العظامُ العلويةُ سَخَّرَهَا خالقُ السماواتِ والأرضِ للاعتبارِ بها، ولمنافعِ خَلْقِهِ منها.

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) ا (ألا) حرفُ استفتاحٍ وتنبيهٍ. (له) أي: لِلَّهِ (جل وعلا) وحدَه {الْخَلْقُ} لأنه خالقُ كُلِّ شيءٍ.

وأصلُ الخلقِ في لغةِ العربِ التقديرُ، فَكُلُّ شيءٍ قَدَّرْتَهُ فقد خَلَقْتَهُ.

كما قال (الْخَالِقُ الْبَارِئُ) يعني: يَخْلُقُهَا وَيُقَدِّرُهَا ثم يبرؤها وَيَفْرِيهَا وينجزها.

(والْأَمْرُ) لأَنَّ اللهَ خالقُ كُلِّ شيءٍ، وله الأمرُ، هو الذي وحدَه له الأمرُ، يأمر بما شاءَ بأوامرِه الكونيةِ وأوامرِه الشرعيةِ، فلاَ أَمْرَ كونيًّا قدريًّا إلا له، ولا أمر شرعيًّا دينيًّا إلا له.

- (والْأَمْرُ) استدل أهل السنة بهذه الآية على أن القرآن غير مخلوق قال تعالى: (ألا له الخلق والأمر).

فجعل الخلق غير الأمر، والقرآن من الأمر، لقوله: (وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا).

وقال: (وذلك أمر الله نزله إليكم).

(تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) معناه: تَعَاظَمَ وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ - جل وعلا- وأصلُ تَبَارَكَ: (تفاعل) إذا كَثُرَتْ بركاتُه وخيراتُه. وَاللهُ - جل وعلا - هو المتعالِي المتنزهُ عن كُلِّ شيءٍ، المتقدسُ الأعظمُ، الذي يُفِيضُ الخيرَ على خَلْقِهِ.

(رَبُّ الْعَالَمِينَ) الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

=

=

- العالمين: اختلف ما المراد بالعالمين على أقوال:
قيل: كل موجود سوى الله، وهذا قول قتادة ورجحه القرطبي وابن كثير.
وقيل: أهل كل زمان عالم لقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين) أي من الناس.
وقيل: الجن والإنس، لقوله تعالى (ليكون للعالمين نذيرًا).
وقيل: العالَم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين.
والصحيح الأول، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود، ودليله قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السموات والأرض وما بينهما).
- العالمين: جمع عالَم:
قيل: مأخوذ من العَلامة، لأنهم عَلَمٌ على خالقهم وصانعهم، وهذا هو الصحيح فإن هذا الخلق في كل فرد منه، وفي جزء منه، آية تدل على وحدانية الله وعلى عظمته وعلى انفراده بالملك.
قال الشاعر:

فواعجبًا كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يجحد الجاحدُ

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدل على أنه واحدُ

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).
وسئل بعض الأعراب عن وجود الله فقال: إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج ألا يدل على وجود اللطيف الخبير.
جسمك وروحك فيه من الآيات ما يبهر العقول.
وقيل: مأخوذ من العِلم، لأن هذا الخلق لا يصدر إلا عن علم ومعرفة بأحوالهم.

=

=

- العالمين: تطلق أحيانًا ويراد به الإنس والجن:
كما قال تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا).
وأحيانًا تطلق على البشر:
كقوله تعالى (أتأتون الذكران من العالمين).
(تتمة): ذكر المذاهب في تعريف العرش.
أولا: مذهب السلف: قال الطبري (٢٤/ ٣٧، ٤٩) - عند تفسير قوله تعالى: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} -: يعني بالعرش: السرير. ثم ذكر بسنده عن السدي في تفسير هذه الآية قوله: "محدقين حول العرش، قال العرش: السرير". وقال الطبري في موضع آخر: {ذُو الْعَرْش} يقول: ذو السرير المحيط بما دونه".
وقال البيهقي في "الأسماء والصفات" (ص٤٩٧): "وأقاويل أهل التفسير على أن العرش: هو السرير، وأنه جسم مجسم خلقه الله، وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتا، وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة،. وفي الآيات والأحاديث والآثار دلالة واضحة على ما ذهبوا إليه".
وقال- أيضا- في "الاعتقاد" (ص١١٢): "العرش: هو السرير المشهور فيها بين العقلاء".
وقال ابن كثير في "البداية والنهاية" (١/ ١٢): "هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات".
وقال الذهبي في "العلو" (ص٥٧): - بعد أن ذكر سرر أهل الجنة-: "فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته، وقوائمه وماهيته وحملته، والكروبيين الحافين من حوله وحسنه ورونقه وقيمته: فقد ورد أنه من ياقوته حمراء" ا. هـ

=

=

قلت: وهذا الذي ذكره الطبري والبيهقي وابن كثير والذهبي في تعريف العرش، هو الذي جاءت به الآيات والأحاديث والآثار، وهو ما ذهب إليه سلف الأمة وأئمتها في عرش الله، فهم يعتقدون أن عرش الرحمن هو:

سرير: قال ابن قتيبة في "الاختلاف في اللفظ": (ص٢٤): "وطلبوا للعرش معنى غير السرير، والعلماء في اللغة لا يعرفون للعرش معنى إلا السرير، وما عرش من السقوف وأشباهها قال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله وهو للمجد أهل * ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سبق الناس * وسوى فوق السماء سريرا

شرجعا لا يناله بصر العين * ترى دونه الملائك صورا".

وقال ابن كثير في "البداية والنهاية": (١/ ١١، ١٢).: "العرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى: {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} وليس هو فلكا، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو سرير ذو قوائم...

وأنه ذو قوائم: قال شارح "الطحاوية" (ص٣١٠، ٣١١): "قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ: (فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور).

وأنه مخلوق: قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٥٥): "قوله: {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} ٥ إشارة إلى أن العرش مربوب، وكل مربوب مخلوق...، وفي إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف محدث مخلوق" ا. هـ.

وقد جاء ذكر خلق العرش في حديث أبي رزين العقيلي قال: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه، قال: "كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم

=

=

خلق عرشه على الماء".

وأن الله سبحانه قد أمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه:

تال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}، وقال تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}.

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام".

وهو أعلى المخلوقات وأعظمها، وسقفها، وهو كالقبة على العالم، وما تحته بالنسبة إليه كحلقة في فلاة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ١٥١): "وأما العرش فإنه مقبب، لما روي في "السنن" لأبي داود عن جبير بن مطعم قال (أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وجاع العيال،- وذكر الحديث- إلى أن قال رسول الله ﷺ: "إن الله على عرشه، وإن عرشه على سمواته وأرضه، كهكذا" وقال بأصابعه مثل القبة...).

وفي علوه قوله ﷺ: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعالاها، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة).

فقد تبين بهذه الأحاديث أنه أعلى المخلوقات وسقفها، وأنه مقبب... "ا. هـ من مجموع الفتاوى.

وفي حديث أبي ذر المشهور قال (قلت يا رسول الله، أي ما أنزل عليك أعظم، قال: "آية الكرسي"- ثم قال: "يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة).

فهذا القول للسلف في عرش الله هو ما جاءت به الآيات والأحاديث الصحيحة،

=

=

وقد كان سلف الأمة وأئمتها- دائما- يصرحون بذلك في كتبهم عند الحديث عن هذه المسألة، وقد وافقهم- في هذا القول في عرش الله- الكلابية، والكرامية، ومتقدمو الأشاعرة، وبعض الجهمية، والمعتزلة.

ثانيا: أقوال المخالفين:

القول الأول: ما زعمه طائفة من الجهمية، والمعتزلة، والماتريدية، وعامة متأخري الأشاعرة، من أن معنى العرش في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} هو الملك.

قال الدارمي في كتابه "الرد على الجهمية" (ص١٢): "باب: الإيمان بالعرش، وهو أحد ما أنكرته المعطلة، فادعت هذه العصابة أنهم يؤمنون بالعرش ويقرون به، فقلت لبعضهم: ما إيمانكم به إلا كإيمان {الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بافْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ}، وكالذين: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَياطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}، أتقرون أن لله عرشا معلوما موصوفا فوق السماء السابعة تحمله الملائكة، والله فوقه كما وصف نفسه، بائن من خلقه، فأبى أن يقر به كذلك، وتردد في الجواب، وخلط ولم يصرح. قال أبو سعيد: فقال لي زعيم منهم كبير: لا، ولكن لما خلق الله الخلق يعني السموات والأرض وما فيهن، سمى ذلك كله عرشا له، واستوى على جميع ذلك كله" ا. هـ

وقال ابن تيمية في "نقض تأسيس الجهمية" (١/ ٥٧٦) - في سياق كلامه على حمله العرش-: "ثم إن قوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}، وقوله: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ} يوجب أن لله عرشا يحمل، ويوجب أن ذلك العرش ليس هو الملك كما تقوله طائفة من الجهمية" ا. هـاعلم أن العرش خلق عظيم جدًا كما دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ولذلك أضافه تعالى إلى نفسه في قوله: [ذو العرش] وفيه آيات أخر تجدها في "الشرح " [أي:

=

=

شرح الطحاوية].وهو لغةً سرير الملك، ومن أوصافه في القرآن: {ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية} (الحاقة: ١٧) وأنه على الماء، وفي السنة أن أحد حملة العرش ما بين شحمة إذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وأن له قوائم وأنه سقف جنة الفردوس. جاء ذلك في أحاديث صحيحة مذكورة في "الشرح". وذلك كله مما يبطل تأويل العرش بأنه عبارة عن الملك وسعة السلطان ا. هـ

وما ذهب إليه هؤلاء المخالفون من تفسير معنى العرش الوارد في الآيات بمعنى الملك، إنما هو تاويل باطل، وصرف للفظ عن معناه إلى معنى آخر لا يحتمله.

والمتامل لهذا القول يرى ما فيه من التلبيس والمخالفة، فقد سبق أن ذكرنا في المبحث اللغوي لكلمة عرش، أن لهذه الكلمة عدة معاني في اللغة العربية، ومن المعلوم أن معرفة المعنى المراد من تلك المعاني لهذه الكلمة أو غيرها، إنما يتحدد بحسب السياق، وبحسب ما أضيفت إليه، وليس في سياق الآيات ما يثبت صحة ما ذهبوا إليه، كما أن ما استدل به هؤلاء المخالفون من الأبيات الشعرية ليس إلا دليلا على أن الملك هو من المعاني اللغوية لكلمة عرش، وهذا أمر لا خلاف عليه، وهذا الاستدلال يماثل ما لو استدللنا على أن من معاني كلمة العرش السقف بقوله: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}، فليس في هذه الأبيات -التي فيها أن العرش من معانيه الملك- أي إشارة، لا من قريب ولا من بعيد على أن الملك هو المعنى المراد في الآيات الواردة في العرش، بل إن المتأمل للآيات والأحاديث الواردة في هذه المسألة، يرى أنها تدل دلالة واضحة وصريحة على أن المراد بالعرش هو ذلك المخلوق العظيم الذي خلقه الله تعالى فوق العالم كله، ثم استوى عليه بعد أن خلق السموات والأرض، وكذلك ترد على هؤلاء المخالفين زعمهم الباطل الذي هو في الحقيقة تحريف لكلام الله.

فيا ترى ماذا يصنع ذلك المخالف الذي يزعم أن العرش إنما هو كناية عن الملك

=

=

والسلطان بقوله تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ} هل يزعم أن الملك كان على الماء، وكذلك ماذا يصنع بقوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ}، أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية، وبقوله ﷺ: "فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش"، أيقول: آخذ بقائمة من قوائم الملك، وكذا قوله ﷺ: "اهتز عرش الرحمن"، أيقول: اهتز ملكه وسلطانه، فخلاصة القول:

إن هذا التأويل إنما هو تأويل باطل، ترده الآيات، والأحاديث، ولا يمكن أن يقول به من له أدنى ذوق أو فهم، بل هو في الحقيقة تحريف لكلام الله تعالى.

القول الثاني: زعم طائفة من أهل الكلام أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، وهو محدود الجهات، وربما سموه الفلك الأطلس، أو الفلك التاسع، أو الأثير، أو الفلك الأعلى.

وفي ذلك يقول ابن سينا في رسالتة، "إثبات النبوات وتاويل رموزهم وأمثالهم": "ومن السهل عليك أن تفهم كيف أن العرش بنص القرآن يحمله ثمانية، فهذه الثمانية هي: الثمانية أفلاك التي تحت هذا الفلك المحيط".

وإن المتامل لكلام أصحاب هذا المذهب كابن سينا وأمثاله يرى مدى تأثرهم بالفلاسفة وكلامهم، حتى أنهم وصلوا إلى درجة اعتقادهم أنه لا موجود إلا ما علموه هم والفلاسفة، ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا أخبار الأنبياء بالملائكة، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار، صاروا حائرين ومتأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه وعلى ما تعلموه، وإن كان هذا التأويل لا دليل لهم عليه سوى ظنهم الفاسد بأنه لا موجود إلا ما عرفوه هم والفلاسفة، فقالوا العرش: هو الفلك التاسع، والكرسي: هو الفلك الثامن، فنفوا ما ليس لهم به علم"، فانطبق عليهم قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَما ياتِهِمْ تاوِيلُهُ}.

=

=

وقد ثبت أنه ليس لهؤلاء دليل يتمسكون به لا من الشرع ولا من العقل، وأن الذي دفعهم إلى هذا القول هو أنهم نظروا في عالم الهيئة وعلوم الفلسفة فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع وهو: الأطلس محيط بها، ومستدير كاستدارتها، وهو الذي يحركها الحركة الشوقية، وأن لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء- صلوات الله وسلام عليهم- ذكر عرش الله، وذكر كرسيه، وذكر السموات السبع، فقالوا- بطريق الظن-: إن العرش: هو الفلك التاسع لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء، إما مطلقا، وإما أنه ليس وراءه مخلوق".

وهم معترفون بانه لم يقم لديهم دليل عقلي على صحة قولهم هذا، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك، ولكن دلتهم الحركات المختلفة والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه، وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون ثبوته ولا انتفاءه.

مثال ذلك: أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بان السفلي يكسف العلوي من غير عكس، فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أن الأفلاك مختلفة حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك، كفلك الدوير وغيره، فأما ما كان موجودا فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته، فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم... وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة، كان الجزم بان ما أخبرت به الرسل من أن العرش: هو الفلك التاسع- رجما بالغيب وقولا بلا علم".

ومع عدم وجود الدليل العقلي عند هؤلاء على صحة زعمهم، فكذلك الأدلة الشرعية ترد زعمهم هذا وتبطله. وقد ذكر شيح الإسلام ابن تيمية في معرض رده

=

=

على هؤلاء المتكلمين في رسالته "العرشية" أن الآيات والأحاديث قد دلت على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات، وأن الله قد اختصه وميزه بأمور كثيرة، منها أن له حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، وأن الله قد أخبر بوجوده قبل خلق السموات والأرض، وقبل وجود الأفلاك، وأن الله سبحانه تمدح نفسه بانه ذو العرش، ووصف العرش بأنه مجيد وعظيم وكريم، فكل هذه الميز والخصائص تبطل قول المنازع، لأنه يقول بان نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه، ذلك، لأنه لو كان العرش من جنس الأفلاك لكان إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه، وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر".

كما أن مما يدل على فساد قولهم ما ثبت في الشرع من أن للعرش قوائم، وأنه يهتز، ومعلوم أن الأفلاك مستديرة، وليس لها قوائم، كما أنها متحركة دائما بحركة متشابهة لا تتغير، كما ثبت- أيضا- أن العرش أثقل الأوزان، وهم يقولون إن الفلك لا ثقيل ولا خفيف.

فعلم مما تقدم انتفاء الدليل العقلي عند هؤلاء، كما علم مخالفتهم للأدلة الشرعية وإبطالها لأقوالهم، ويضاف إلى هذا- أيضا- مخالفتهم للغة العرب، فالعرب لا تفهم من كلمة العرش هذا المعنى، ولا هو مستعمل في لغتها والقرآن إنما نزل بما يفهمون، وبعد هذا كله لا تبقى أدنى شبهة في فساد هذا القول وبطلانه. والله أعلم.

(منبهة): قول المصنف ({بِأَمْرِهِ} أي: بِقُدْرَتِهِ)، هو تأويل للأمر بالقدرة، والغرض منه نفي أن كلام الله بحرف وصوت، وهو جريا منه رَحِمَهُ اللَّهُ على مذهب الأشاعرة، فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالى كلام حقيقي مسموع يتكلم سبحانه بصوت وحرف، والأشاعرة لا يثبتون ذلك، لأن حقيقة مذهبهم أن القرآن مخلوق فهم يزعمون أن كلام الله معنى قائم بالنفس ليس بحرف ولا صوت معنى قائم بنفس الرب عَزَّ وَجَلَّ والله تعالى لا يُسْمَع منه الكلام بل الكلام معنى قائم بنفسه لا يسمع،

=

=

وأما الموجود في المصاحف فهذا عبارة عن كلام الله عبر به جبريل أو عبر به محمد، بعضهم يقول: إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ وبعضهم يقول: فهمه من الرب؛ لأن الله اضطره ففهم المعنى القائم بنفسه؛ فإذن حقيقة مذهب الأشاعرة أن نصفه مخلوق، وهو الحروف والكلمات ونصفه غير مخلوق، وهو المعنى القائم بنفسه، وهذا يوافق نصف مذهب المعتزلة، المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق لفظه ومعناه اللفظ والمعنى مخلوق، والأشاعرة يقولون: معناه غير مخلوق، ولفظه مخلوق، ويسمى ما في المصحف كلام الله مجازًا، ولهذا إذا قلت لبعض الأشاعرة: هل المصحف فيه كلام الله قد يقر عند التسامح، لكن عند المناظرة وبيان حقيقة المذهب يقولون: لا ليس في المصحف كلام الله لكن نسميه كلام الله مجازًا؛ لأنه تأدى به كلام الله؛ ولأنه دليل على كلام الله؛ أما كلام الله فهو معنى قائم بنفسه، لذا اعترف الغزالي في كتاب أركان الأيمان وهو أشعري أن حقيقة مذهب الأشاعرة في القرآن أنه مخلوق، وقال الآمدي وهو من حذاق الأشاعرة المعروفين: إني نظرت في هذا القول وهو أن كلام الله قديم، وأن القرآن قديم، وأنه حين أوحي إلى محمد ﷺ إنما أوحي بالعبارة وبما ألقي في نفس جبريل، فأشكل علي أن القرآن فيه آيات كثيرة فيها التعبير عنه بلفظ الماضي {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} [المجادلة:١]، وهل كان ثم مجادلة؟ وهل كان ثم زوج؟ وهل كان ثم صوت حتى يسمع الله؟ قال {قد سمع الله} فإذا كان الله - ﷻ - قال هذا القول في الأزل ولا زوجة ولا مجادلة ولا قول، فما الذي سمع؟ فيلزم منه أن قوله {قد سمع} وكل أفعال الماضي في القرآن أنها غير مطابقة للواقع، وهذا هو الكذب ا.هـ

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى ذكره: إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم كل ذلك بأمره أمرهن فأطعن أمره،

=

=

فلله الخلق كله والأمر الذي لا يخالف ولا يرد أمره دون ما سواه من الأشياء كلها ودون ما عبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تضر ولا تنفع ولا تأمر ا.هـ

وقال الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٦٦٠): قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

المقصود من الآية هنا: التفرقة بين الخلق والأمر، فإن الخلق هو أثر الأمر، الكائن به الخلق، فإن الله – تعالى – إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون، فالقول وصفه – تعالى – والخلق الذي هو المخلوق مفعوله المكون المخلوق الموجد بالقول، ولهذا قال تعالى: {أَلاَ لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ} فعطف الأمر على الخلق؛ لأنه غيره، وهو – تعالى – مختص بذلك وحده، فلا أحد يشاركه فيهما، وكلاهما عام شامل، فلا يخرج عن خلقه تعالى مخلوق، ومن ذلك أفعال العباد.

وأمره – تعالى – يتناول الأمر القدري، والأمر الديني الشرعي.

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – (يخبر – تعالى – بأنه خلق هذا العالم: سماواته، وأرضه، وما بين ذلك، في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن.

والستة أيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم.

قوله: {يُغشِي الَّليلَ النَهَارَ يَطلبُهُ حَثِيثًا} أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، أي: سريعًا، لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا فالليل بأثر النهار، والنهار يطرد الليل دائمًا، حتى يأذن الله بانقضاء هذا العالم، وهناك يبدأ اختلال توازنه، بطلوع الشمس من مغربها.

{وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٍ بِأَمرِهِ} أي: أنها مخلوقة لله، مقهورة

=

=

مسخرة، لا تخالف أمر خالقها، الذي سخرها لكم، فاعبدوه، فإنه هو المستحق للعبادة دون سواه، وهو الذي له الخلق والأمر وحده.

{تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ} قال ابن الأنباري: (تبارك) فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: تقدس، أي: تطهر، والقدس عند العرب: الطهر، والماء المقدس: هو ماء المطر، والقدوس: الذي طهر من الأولاد، والشركاء، والصاحبة.

والثاني: تفاعل من البركة، أي: البركة تكتسب، وتنال بذكر اسمه تعالى.

وقال الأزهري: (أخبرني المنذري، عن أبي العباس، أنه سئل عن تفسير {تَبَارَكَ اللهُ} فقال: ارتفع، والمتبارك المرتفع.

وقال الزجاج: تبارك: تفاعل من البركة، كذلك يقول أهل اللغة.

وقال: تبارك: تعالى وتعاظم. وقال ابن الأنباري: تبارك الله، أي: يتبرك باسمه في كل أمر. ومعنى تبارك: تقدس، أي: تطهر، والمقدس: المطهر.

وقال الليث: تبارك: تمجيد وتعظيم).

وهذه الأقوال متقاربة، وكلها حق، يدل عليه هذا اللفظ، فهو - تعالى - عال على خلقه، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وهو القدوس المتنزه عن كل عيب أو نقص يلحق خلقه، أو لا يليق بعظمته، وكبريائه، وهو الذي يبارك على ما يشاء من خلقه، فيجعله مباركًا، وبذكر اسمه يكثر الخير، وتحل البركة، وهو أهل المجد والتعظيم.

قوله: (قال ابن عيينة: بين الله الخلق من الأمر، لقوله: {أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ}.

قال الحافظ: (روى هذا الاثر ابن أبي حاتم، موصولًا، في الرد على الجهمية.

ولفظه: قال: كنا عند سفيان بن عيينة، فقال: {أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ} فالخلق: هو المخلوقات، والأمر: هو الكلام.

=

=

وفي رواية من طريق حماد بن نعيم: (سمعت سفيان بن عيينة، وسئل عن القرآن: أمخلوق هو؟ فقال: يقول الله - تعالى - {أَلاَ لَهُ الخَلَقُ وَالأَمرُ} ألا ترى كيف فرق بين الخلق، والأمر فالأمر: كلامه، فلو كان كلامه مخلوقًا لم يفرق).

وقال البخاري -: (والقرآن كلام الله غير مخلوق؛ لقول الله - تعالى -: {إِنَ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيّام ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ يُغشِي الَّليلَ النَهَارَ يَطلبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتُ بِأَمرِهِ}، فبين أن الخلائق، والطلب الحثيث، والمسخرات بأمره، ثم شرح فقال: {أَلاَ لَهُ الخَلَقُ وَالأَمرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ}، قال ابن عيينة: قد بيَّن الله الخلق من الأمر، بقوله: {أَلاَ لَهُ الخَلَقُ وَالأَمرُ}، فالخلق بأمره، كقوله: {لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ}، كقوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

وكقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ}، ولم يقل بخلقه).

والأدلة كثيرة، في التفرقة بين الخلق والأمر، والمخلوقات وجدت بالأمر، كما أشار إلى ذلك الإمام البخاري، بما استدل به من قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}، فبين أن تكوين الأشياء وإيجادها، بقوله: {كُن}، وأنه يوجد عقب قوله: {كُن}.

وكذلك قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ}، فالسماء والأرض، مخلوقات بأمره، الذي هو قوله لها: (كوني)، كما قال تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين}،

وكل شيء غير الله، مخلوق، بقوله - تعالى - ومن ذلك أفعال العباد، فمن أخرج أفعال العباد من خلق الله، فقد ضل وأشرك في ربوبية الله - تعالى -.

قال عبد العزيز الكناني: (قال الله - تعالى -: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيءٍ إِذَا أَرَدناهُ أَن نَقُولَ

=

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥).

{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا} حَال تَذَلُّلًا {وَخُفْيَة} سِرًّا {إِنَّهُ لَا يُحِبّ الْمُعْتَدِينَ} فِي الدُّعَاء بِالتَّشَدُّقِ ورفع الصوت[1].

= لَهُ كُن فَيَكُونُ}، وقال سبحانه: {قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}، فدل - ﷻ - بهذه الأخبار، وأشباهٍ لها في القرآن كثيرة، على أن كلامه، ليس كالأشياء، وأنه غير الأشياء، وأنه خارج عن الأشياء، وأنه يكوِّن الأشياء، ثم أنزل - ﷻ - خبرًا مفردًا، ذكر فيه خلق الأشياء كلها، فلم يدع منها شيئًا، إلا ذكره، وأدخله في خلقه، وأخرج كلامه وأمره من جملة الخلق، وفصله منها؛ ليدل على أن كلامه غير الأشياء المخلوقة، وخارج عنها، فقال: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَمَاوَات وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَام} الآية.

فجمع في قوله: {أَلاَ لَهُ الخَلَقُ وَالأَمرُ} جميع ما خلق، فلم يدع شيئًا، ثم قال: {وَالأَمرُ}، يعني: والأمر، الذي كان به الخلق خلقًا، فرقًا بين خلقه، وأمره، فجعل الخلق خلقًا، والأمر أمرًا، وجعل هذا غير هذا).

(١) قوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأعراف: ٥٥]، أي: " ادعوا -أيها المؤمنون- ربكم متذللين له خفية وسرًّا بخشوع وخضوع".

فهذا أمر من الله تعالى أن نقوم بدعائه وسؤاله، وقد أمر الله بسؤاله فقال (واسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ)، وفي الترمذي عن أبي هريرة. قال: قال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه).

وقد استحق الغضب لأمرين:

الأول: لأنه ترك محبوبًا لله، فإن الله يحب أن يسأل، ذكر ذلك المناوي.

والثاني: لأن ترْك الدعاء دليل على الاستغناء عن الله، ذكر ذلك المباركفوي.

وفي النهي عن سؤال المخلوق أحاديث كثيرة أيضًا، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من =

=

أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئًا منهم: أبو بكر، وأبو ذر، وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحدًا أن يناوله.

- واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلًا وشرعًا وذلك من وجوه متعددة:

منها: أن السؤال فيه بذل لماء الوجه وذلة للسائل، وذلك لا يصلح إلا لله وحده، وهذا هو حقيقة العبادة التي يختص بها الإله الحق.

كان الإمام أحمد يقول في دعائه: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك.

ولهذا كان عقوبة من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم كما ثبت في الصحيحين، لأنه أذهب عز وجهه وصيانته وماءه في الدنيا، فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهاءه الحسي، فيصير عظمًا بغير لحم، ويذهب جماله وبهاؤه المعنوي، فلا يبقى له عند الله وجاهة.

ومنها: أن في سؤال الله عبودية عظيمة، لأنها إظهار للافتقار إليه، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج، وفي سؤال المخلوق ظلم، لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها، فكيف يقدر على ذلك لغيره.

قال بعض السلف: إني لأستحي من الله أن أسأله الدنيا وهو يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها؟ يعني المخلوق.

ومنها: أن الله يحب أن يُسأل، ويغضب على من لا يسأل، فإنه سبحانه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه ويدعوه ويفتقروا إليه، ويحب الملحين في الدعاء، والمخلوق غالبًا يكره أن يُسأل لفقره وعجزه.

قال أبو العتاهية:

الله يغضب إن تركتَ سؤاله وبُنَيّ آدم حين يسأل يغضب

=

=

فاجعل سؤالك للإله فإنما   في فضل نعمة ربنا نتقلب

قال ابن تيمية: سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد:

الأولى: مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي نوع من الشرك.

والثانية: مفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق.

والثالثة: فيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ادعوا، أيها الناس، ربّكم وحده، فأخلصوا له الدعاء، دون ما تدعون من دونه من الآلهة والأصنام {تضرعًا}، يقول: تذلُّلا واستكانة لطاعته {وخفية}، يقول بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومراءاةً، وقلوبكم غير موقنة بوحدانيته وربوبيته، فعلَ أهل النفاق والخداع لله ولرسوله".

وفي قوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأعراف: ٥٥]، أقوال:

أحدها: في الرغبة والرهبة، قاله ابن عباس.

والثاني: التضرع: التذلل والخضوع، والخفية: إخلاص القلب.

والثالث: التضرع: يعني: مستكينين، وخفية: في خفض وسكون، وذلك كقوله: {وَلَا تُخَافِتْ بِهَا} [الإسراء: ١١٠]، يعني: تسر بها. وهذا قول سعيد بن جبير، ومقاتل.

والرابع: أن التضرع بالبدن، والخفية إخلاص القلب. أفاده الماوردي.

والخامس: انه عني بذلك القراءة. وهذا قول زيد بن اسلم.

قال الحسن: " إنْ كانَ الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعرُ جارُه. وإن كان الرجل لقد فَقُه الفقهَ الكثير، وما يشعرُ به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر، وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السرّ فيكون علانية أبدًا! ولقد كان المسلمون

=

=

يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: "ادعوا ربكم تضرعًا وخفية"، وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا فرضِي فعله فقال: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا} [سورة مريم: ٣]".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [الأعراف: ٥٥]، أي: " إن الله تعالى لا يحب المتجاوزين حدود شرعه.".

قال الطبري: " معناه: إن ربكم لا يحب من اعتدى فتجاوز حدَّه الذي حدَّه لعباده في دعائه ومسألته ربَّه، ورفعه صوته فوق الحد الذي حدَّ لهم في دعائهم إياه، ومسألتهم، وفي غير ذلك من الأمور".

عن ابن عباس: " {إنه لا يحب المعتدين}، في الدعاء ولا في غيره".

وفي الاعتداء في الدعاء ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يسأل ما لا يستحقه من منازل الأنبياء، قاله أبو مجلز.

والثاني: أنه يدعو باللعنة والهلاك على من لا يستحق، سعيد بن جبير، ومقاتل.

قال سعيد بن جبير: " لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشر اللهم اخزه والعنه ونحو ذلك. فإن ذلك عدوان".

والثالث: أن يرفع صوته بالدعاء. وهذا قول زيد بن أسلم، وابن جريج، واختاره الشاطبي.

قال ابن جريج: "إن من الدعاء اعتداءً، يُكره رفعُ الصوتِ والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويُؤمر بالتضرُّع والاستكانة".

وروى أبو عثمان النهدي عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع النبي -ﷺ- في غزاة فأشرفوا واد، فجعل الناس يكبرون ويهللون ويرفعون أصواتهم، فقال النبي -ﷺ-: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنفُسكُم إِنَّكُم لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا إِنَّكُم تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ»".

=

=

روى أبو داود في سنته عن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت رسول الله ﷺ (يقول إنه سيكون في هذه الآمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء).

- أنواع الاعتداء في الدعاء:

الاعتداء بالدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب، أو يسأله أن يطلعه على غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولدًا من غير زوجة ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء، فكل سؤال يناقض حكمه الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به، فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله.

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضًا في الدعاء.

فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مرادًا بها فهو من جملة المراد، والله لا يحب المعتدين في كل شيء دعاء كان أو غيره، كما قال (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين).

ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع بل دعاء مدل كالمستغني بما عنده المدل على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد.

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالى مرض له، وهو الدعاء تضرعا وخفية.

=

الثاني: مكروه له مبغوض مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه وندب إليه وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير وهو أنه لا يحب فاعله.
وفي قوله (إنه لا يحب المعتدين) عقب قوله (ادعو ربكم تضرعا وخفية) دليل على أن من لم يدعه تضرعًا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم، فقسمت الآية الناس إلى قسمين داع لله تضرعا وخفية ومعتد بترك ذلك.
مسألة: في هذه الآية: مشروعية إخفاء العبادة وسؤال العبد لربه؛ ففي ذلك نزع لعلائق الرياء من القلب، وغاية الاتكال على الله، واليقين بسماعه وإجابته، وعبادة السر تطهر عبادة العلانية من علائق الخلق، ولا يتحقق الإخلاص في قلب أحد إلا وله نصيب من عبادة السر بينه وبين ربه لا يعلم بها أحد، ولا يبتلى أحد بالرياء إلا لأن نصيبه من عبادة السر قليل أو معدوم؛ فعن الزبير بن العوام؛ قال: "من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح، فليفعل".
* تفاضل إسرار العبادة وإعلانها: وتختلف العبادات في فضل إسرارها وإعلانها، والأصل: أن إسرار العبادة أفضل من إعلانها، ويستثنى من الأسرار عبادات دل الدليل على إعلانها، وما يستحب إعلانه له علامات:
الأولى: العبادات الواجبة: الأصل فيها استحباب الإعلان؛ كالصلوات المفروضة والزكاة - بخلاف الصدقة - وصوم رمضان والحج والأذان، وكلما كانت العبادة أشد في الوجوب والفرضية، فإعلانها آكد مما هو دونها؛ لأن الفرائض شرائع تحتاج إلى إعلان، وبإعلانها يقوم الدين، ويعرف بلد الإسلام من بلد الكفر، ويتمايز الناس ويشهد بعضهم لبعض بالخير والعدالة.
وقد شرع الله للصلوات الخمس الأذان، وبه يقوم الناس إلى الصلاة ويشهدونها ويرى بعضهم بعضا، ومثله الزكاة: يظهرون حصادهم، ويسألون عن الفقير، ويجمعها السلطان إن شاء منهم، وكذلك صوم رمضان؛ يتراءى الناس الهلال

=

ويتباشرون به ويدعو بعضهم بعضا إلى الطعام فطرا وسحورا، وكذلك الحج: مشهود، ويحسر الرجال عن رؤوسهم تذللا لله وليرى بعضهم بعضا مجتمعين؛ والنساء يحسرن وجوههن بينهن، ولا يستحب أن يستتر الواحد منهم عن الناس.

الثانية: الجماعة؛ فكل عبادة شرع الله لها الاجتماع، فإعلانها أفضل من إسرارها ولو كانت في ذاتها غير واجبة؛ كصلاة الاستسقاء ومجالس الذكر والتعليم وصلاة العيدين على قول، وجهاد الطلب، ولم تشرع العبادة جماعة إلا وإشهارها مقصود، فإذا اجتمع مشروعية الجماعة مع وجوبها، كان ذلك آكد في إعلانها.

الثالثة: من يقتدى به؛ فالأفضل له إعلان عمله ما لم يخف على نفسه، وقد قال النبي ﷺ: "من دل على خير، فله مثل أجر فاعله"، وقال ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها).

ولما كان النبي ﷺ قدوة للناس كافة، كان عمله كله تشرع فيه العلانية، ولم يثبت عن النبي ﷺ أنه كان يستتر عن أعين الناس بعبادته، فلو استتر، لم يتعلم الناس دينهم؛ لأنه مبلغ عن الله، ولكن كان النبي ﷺ يطلب الخلوة بربه لتشريع ذلك لأمته.

والناس يختلفون في الاقتداء بهم، وأثرهم على الناس؛ فمنهم: من يؤثر في أهل بيته، ومنهم: من أثره في حيه أو بلده، ومنهم: من هو قدوة لدى أكثر المسلمين كالأئمة؛ فيستحب أن يعلنوا بعض العبادات التي الأصل فيها السر، ويجعلوا لهم من عادتهم لربهم في الخفاء ما تزكو به علانيتهم، ومن لا يقتدى به، فلا مصلحة من علانية عبادته إلا ما يذكر له الناس؛ فبهذا القدر يشرع.

ومقصد التعليم وعظم أثره أعظم من مقصد الإسرار؛ لأن تعليم الحق والخير هو الغاية من إرسال الرسل؛ ولهذا كان بعض السلف يتكلف الجهر بما دل الدليل على الإسرار به؛ لأجل التعليم؛ كما جهر عمر بدعاء الاستفتاح للصلاة لأجل

=

=

تعليم الناس، وكان ابن عمر وأبو هريرة يجهران بالاستعاذة، وكان ذلك منهم في القليل لا في الكثير؛ بما يؤدي مقصد التعليم، ولا يضيع شريعة الإسرار.

الرابعة: ما سماه الشارع شعيرة؛ كالهدي والقلائد والتلبية، ومقتضى كونه شعيرة أن إشهاره سنة، والتعبد بإسراره بدعة، ويلحق في ذلك ما شابهه في عمل النبي ﷺ أو أصحابه؛ كالجهر بالتكبير في أيام العشر وأيام التشريق؛ فقد كان عمر يكبر بمنى فترتج منى تكبيرا، وكان ابن عمر وأبو هريرة يكبران في السوق في عشر ذي الحجة.

والأصل في نوافل الطاعات والقربات: السر، وهو أفضل من العلانية؛ كما تواترت الأدلة به، سواء كان قراءة قرآن أو صدقة أو ذكرا لله، قال تعالى: {إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير} [البقرة: ٢٧١]، وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة)، قال الترمذي: "ومعنى هذا الحديث: أن الذي يسر بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بقراءة القرآن؛ لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية".

ولا يلزم من عمل العلانية أن يجهر صاحبه بفعله أمام الناس، بل قد يقوى العبد على فعل العبادة سرا ويؤزه الشيطان على ذكرها للناس علانية، فتكون في حقيقتها كأنما فعلها علانية؛ قال سفيان الثوري: "إن العبد ليعمل العمل في السر، فلا يزال به الشيطان حتى يتحدث به، فينتقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية".

* الاعتداء في الدعاء، وصوره: وقول الله تعالى: {إنه لا يحب المعتدين}؛ يعني: في العبادة، وخاصة الدعاء، والمراد بالاعتداء هو الخروج عن مقصود الله من شريعة الدعاء، ويختلف مقدار خروج الناس عن تلك الشريعة، وصور الاعتداء في

=

=

دعاء الله كثيرة:

منها: أن يدعو الله بحرام؛ كمن يدعو بتيسير الكفر والربى والزنى، وقطع الأرحام، فذلك أعظم الاعتداء؛ لأن الله شرع الدعاء عبادة وتذللا له ليطاع؛ فكيف يدعى بما شرع ليعصى؟ !

ومنها: دعاء الله وسؤاله بغير ما سمى به نفسه، وهذا يخالف الأدب مع الله، وهو من الكذب في الخطاب.

ومنها: أن يدعو على نفسه وولده بموت أو فساد حال؛ فهذا مما جاء النهي فيه، وهو تعد في مقصد الدعاء المشروع، فشرع الدعاء عبادة للخالق ومنفعة للمخلوق، وسؤال العبد الضر يخالف شريعة الله في الدعاء.

ومنها: أن يدعو على من ظلمه بأعظم من مظلمته؛ لأن الله ينتصر ويقتص للمظلوم، ومقتضى عدله: ألا يظلم أحدا ولو كان ظالما، وسؤال الله عقاب الظالم بما هو أعظم من ظلمه: سؤال لله أن يظلم عبده - تعالى الله - كمن يغتصب من ماله شيء حقير كعود أراك أو قلم أو درهم، فيدعو على المغتصب بهلاك نفسه وولده وأهله؛ فهذا اعتداء؛ لأن الدعاء على الظالم يكون بقدر المظلمة.

ومنها: أن يدعو بتحقيق المحال؛ كأن يدعو أحد بأن يجعله الله نبيا أو ملكا، فذلك منهي عنه يعارض أصل القصد من الخلق والشرع.

ومنها: الدعاء بما لا يحتاج إليه من فضول القول، الذي يغني عنه مجمله، وكذلك فإن الأدب مع الله سؤال الحاجات بإجمال؛ لعلمه سبحانه بما يصلح العباد؛ فعن ابن لسعد أنه قال: سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها، وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، وكذا وكذا، فقال: يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيكون قوم يعتدون في الدعاء؛ فإياك أن تكون منهم؛ إنك إن أعطيت الجنة، أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أعذت من

=

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦).

{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْض} بِالشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي {بَعْد إصْلَاحهَا} بِبَعْثِ الرُّسُل {وَادْعُوهُ خَوْفًا} مِنْ عِقَابه {وَطَمَعًا} فِي رَحْمَته {إنَّ رَحْمَة الله قَرِيب مِنْ الْمُحْسِنِينَ} الْمُطِيعِينَ وَتَذْكِير قَرِيب الْمُخْبَر بِهِ عن رحمته لِإِضَافَتِهَا إلَى الله[1].

=

النار، أعذت منها وما فيها من الشر).

ومن ذلك: ما صح أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بني سل الله الجنة، وتعوذ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء).

ومنها: الجهر بالدعاء بما يؤذي غيره؛ فإن دعاء الخفاء من علامات اليقين بقرب الله وسماع نجواه، فالله يعلم ويسمع، وله الكمال في ذلك، لا يزيد علمه وسماعه برفع صوت الداعي، ولا ينقص بخفض صوته.

وكلما خرج الداعي عن المشروع فبمقدار خروجه يكون معتديا مخاطبا بقوله {إنه لا يحب المعتدين}.

(١) قوله تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٥٦]، أي: " ولا تُفْسدوا في الأرض بأيِّ نوع من أنواع الفساد، بعد إصلاح الله إياها ببعثة الرسل -عليهم السلام- وعُمْرانها بطاعة الله".

قال مقاتل: " يقول: لا تعملوا في الأرض بالمعاصي بعد الطاعة".

قال الطبري: يقول: " لا تشركوا بالله في الأرض ولا تعصوه فيها، وذلك هو الفساد فيها، {بعد إصلاحها}، يقول: بعد إصلاح الله إياها لأهل طاعته، بابتعاثه فيهم

=

=

الرسل دعاة إلى الحق، وإيضاحه حججه لهم".
عن أبي صالح: " {بعد إصلاحها}، قال: بعد ما أصلحتها الأنبياء وأصحابهم".
وفي قوله تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٥٦]، أربعة أقوال:

أحدها: لا تفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان.
قال مقاتل: " وذلك أن الله إذا بعث نبيا إلى الناس فأطاعوه صلحت الأرض وصلح أهلها وأن المعاصي فساد المعيشة وهلاك أهلها".

والثاني: لا تفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل.

والثالث: لا تفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة، قاله الكلبي.

والرابع: لا تفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه، قاله الحسن.
قال سنيد: " قيل لأبي بكر بن عياش: ما قوله في كتابه؟ {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها}، فقال أبو بكر: إن الله بعث محمدا ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد ﷺ فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد فهو من المفسدين في الأرض".

* ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه.

قال السعدي: فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة.
قال الآلوسي: قوله تعالى (بَعْدَ إصلاحها) أي إصلاح الله تعالى لها وخلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلفين وبعث فيها الأنبياء بما شرعه من

=

=

الأحكام.

قال ابن عاشور: والبعدية في قوله (بعد إصلاحها) بعديةٌ حقيقيةٌ، لأنّ الأرض خلقت من أوّل أمرها على صلاح قال الله تعالى (وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها) على نظام صالح بما تحتوي عليه

قال صاحب المنار: وقال- سبحانه-: وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها لأن الإفساد بعد الإصلاح أشد قبحا من الإفساد على الإفساد، فإن وجود الإصلاح أكبر حجة على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجرى على سننه. فكيف إذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه؟ ولذا خص بالذكر وإلا فالإفساد مذموم ومنهى عنه في كل حال.

قال ابن عطية: قوله تعالى (ولا تفسدوا في الأرض) ألفاظ عامة تتضمن كل إفساد قلَّ أو كثر بعد إصلاح، قل أو كثر، والقصد بالنهي هو على العموم وتخصيص شيء دون شيء في هذا تحكم إلا أن يقال على وجهة المثال.

قال الرازي: قوله تعالى (وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأرض بَعْدَ إصلاحها) معناه ولا تفسدوا شيئًا في الأرض، فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل، وإفساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب بسبب الإقدام على الزنا واللواطة وسبب القذف، وإفساد العقول بسبب شرب المسكرات، وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة: النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول.

- وقال ابن تيمية: وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ﷺ. وَكُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالِمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ وَالدَّعْوَةُ إلَى غَيْرِ اللهِ. وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا حَقَّ التَّدَبُّرِ وَجَدَ هَذَا الْأَمْرَ كَذَلِكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ عُمُومًا

=

=

وَخُصُوصًا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاَللهِ.

قوله تعالى: {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} [الأعراف: ٥٦].

أي: وادعوه خائفين من عقابه إياكم على مخالفتكم لأوامره، طامعين في رحمته وإحسانه وفي إجابته لدعائكم تفضلًا منه وكرمًا.

قال مقاتل: " وادعوه خوفا من عذابه وطمعا في رحمته".

قال الطبري: "يقول: وأخلصوا له الدعاء والعمل، ولا تشركوا في عملكم له شيئًا غيره من الآلهة والأصنام وغير ذلك، وليكن ما يكون منكم في ذلك خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه. وإنّ مَن كان دعاؤه إياه على غير ذلك، فهو بالآخرة من المكذبين، لأنّ من لم يخف عقابَ الله ولم يرجُ ثوابه، لم يبال ما ركب من أمر يسخَطه الله ولا يرضاه".

وعن الضحاك: " {خوفا وطمعا}، قال: الخوف الصواعق"، "الطمع الغيث".

قال السعدي: أي: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، طمعًا في قبولها، وخوفًا من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاهٍ.

وحاصل ما ذكر اللّه من آداب الدعاء: الإخلاص فيه للّه وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفا طامعا لا غافلا ولا آمنا ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

- وَذِكْرِ الطَّمَعِ الَّذِي هُوَ الرَّجَاءُ فِي آيَةِ الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ فَإِنَّ الدَّاعِيَ مَا لَمْ يَطْمَعْ فِي سُؤَالِهِ وَمَطْلُوبِهِ لَمْ تَتَحَرَّكْ نَفْسُهُ لِطَلَبِهِ؛ إذْ طَلَبُ مَا لَا طَمَعَ لَهُ فِيهِ مُمْتَنِعٌ.

قال تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا

=

=
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

والمراد بالدعاء هنا دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

- ينبغي على المسلم أن يكون راجيًا خائفًا.

وقد امتدح الله الأنبياء والعباد الصالحين بالرغبة والرهبة.

- قال ابن القيم: القلب في سيره إلى الله - ﷻ - بمنزلة الطَّائر؛ فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلِم الرَّأس والجناحان، فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قطع الرأس، مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر.

- وقال ابن القيم أيضا: من تأمل الصحابة وجدهم في غاية الجد في العمل مع غاية الخوف.

- قال ابن تيمية: وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة لأنها إحسان من الله ﷻ أرحم الراحمين وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعد ببعد وقرب بقرب فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته. والله سبحانه يحب المحسنين ويبغض من ليس من المحسنين ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيء منه والإحسان هاهنا هو فعل المأمور به سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله تعالى والإقبال إليه والتوكل عليه وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا ومهابة وحياء ومحبة وخشية.

فهذا هو مقام " الإحسان " كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عليه السلام عن
=

الإحسان؛ فقال: أن تعبد الله كأنك تراه) " فإذا كان هذا هو الإحسان فرحمته قريب من صاحبه؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه.

قوله تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦]، أي: " إن رحمة الله قريب من المطيعين الذين يمتثلون أوامره ويتركون زواجره".

قال مقاتل: " يعني بالرحمة المطر، يقول: الرحمة لهم".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: إن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا، قريب منهم، وذلك هو رحمته، لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعدّ لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم".

قال جعفر: "سمعت مطر الوراق يقول: تنجزوا موعود الله بطاعة الله فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين".

وإن قيل: فلم أسقط الهاء من «قريب»، و «الرحمة» مؤنثة؟ فعن ذلك جوابان:

أحدهما: أن الرحمة من الله إنعام منه فَذُكِّرَ على المعنى، وهو أن إنعام الله قريب من المحسنين، قاله الأخفش.

والثاني: أن المراد به مكان الرحمة، قاله الفراء، كما قال عروة بن حزام:

عَشِيَّةَ لا عَفْرَاءُ مِنْكَ قَرِيبَةٌ فَتَدْنُو ولا عَفْرَاءُ مِنْكَ بَعِيدُ

فأراد بالبعد مكانها فأسقط «الهاء»، وأرادها هي بالقريبة فأثبت «الهاء».

قال السعدي: والإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق: فسرها النبي ﷺ بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧).

{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِل الرِّيَاح بُشْرًا بَيْن يَدَيْ رَحْمَته} أَيْ مُتَفَرِّقَة قُدَّام الْمَطَر وَفِي قِرَاءَة بِسُكُونِ الشِّين تَخْفِيفًا وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَفَتْح النُّون مَصْدَرًا وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَضَمّ الْمُوَحَّدَة بَدَل النُّون أَيْ مُبَشِّرًا وَمُفْرَد الْأُولَى نُشُور كَرَسُولٍ وَالْأَخِيرَة بَشِير {حَتَّى إذَا أَقَلَّتْ} حَمَلَتْ الرِّيَاح {سَحَابًا ثِقَالًا} بِالْمَطَرِ {سُقْنَاهُ} أَيْ السَّحَاب وَفِيهِ الْتِفَات عَنْ الْغَيْبَة {لِبَلَدٍ مَيِّت} لَا نَبَات بِهِ أَيْ لِإِحْيَائِهَا {فَأَنْزَلْنَا بِهِ} بِالْبَلَدِ {الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ} بِالْمَاءِ {مِنْ كُلّ الثَّمَرَات كَذَلِكَ} الْإِخْرَاج {نُخْرِج الْمَوْتَى} مِنْ قُبُورهمْ بِالْإِحْيَاءِ {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} فَتُؤْمِنُونَ [(١)].

=

بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده.

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [الأعراف: ٥٧]، أي: " والله تعالى هو الذي يرسل الرياح الطيبة اللينة مبشرات بالغيث الذي تثيره بإذن الله، فيستبشر الخلق برحمة الله".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، هو الذي يرسل الرياح نشرًا بين يدي رحمته".

=

=

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبِّر المسخِّر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر -نبه تعالى على أنه الرزّاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نشْرًا) أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ (بُشْرًا) كقوله (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ).

قال مقاتل: " يقول: الرياح نشرا للسحاب".

قال الزجاج: " قوله: {بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}، أي: بين يدي المطر الذي هو رحمة".

قال السدي: " إن الله يرسل الرياح فتأتي بالسحاب من بين الخافقين طرف السماء والأرض من حيث يلتقيان، فيخرجه من ثم، ثم ينشره فيبسطه في السماء كيف يشاء، ثم يفتح أبواب السماء ليسيل الماء على السحاب، ثم يمطر السحاب بعد ذلك".

عن ابن عباس في قوله: "{وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته}، قال: فيستبشر بها الناس".

عن السدي قوله: " {بين يدي رحمته}، وأما {رحمته}، فهو المطر".

عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: "كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شيء في القرآن من الريح فهو عذاب".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا} [الأعراف: ٥٧]، أي: " حتى إذا حملت الرياح سحابًا مثقلًا بالماء".

قال ابن كثير: " أي: حملت الرياح سحابًا ثقالا، أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله:

وأسلمتُ وجْهِي لمنْ أسْلَمَتْ لَهُ المُزْنُ تَحْمل عَذْبا زُلالا

وأسلَمْتُ وَجْهي لمن أسلَمَتْ له الأرض تحملُ صَخرًا ثقالا"

=

=

قال الشنقيطي: بين في هذه الآية الكريمة أنه يحمل السحاب على الريح، ثم يسوقه إلى حيث يشاء من بقاع الأرض، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله (والله الذي أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ) الآية. وقوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ) إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: {سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ} [الأعراف: ٥٧]، أي: " ساقه الله بها لإحياء بلد، قد أجدبت أرضه، ويَبِست أشجاره وزرعه".

قال القرطبي: " {لبلد ميت}، أي: ليس فيه نبات".

قال ابن كثير: " أي: إلى أرض ميتة، مجدبة لا نبات فيها، كما قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} [يس: ٣٣]".

قال أبو هريرة: " ما نزل مطر إلا بميزان".

قال عكرمة: " ينزل الله الماء من السماء السابعة فتقع القطرة منه على السحابة مثل البعير".

قوله تعالى: {فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [الأعراف: ٥٧]، أي: " فأنزل الله به المطر، فأخرج به الكلأ والأشجار والزروع، فعادت أشجاره محملة بأنواع الثمرات".

عن خالد بن يزيد قال: كنا عند عبد الملك بن مروان فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء، ومنه مما يسقيه الغيم من البحر فيعذبه الرعد والبرق، وأما ما كان من البحر فلا يكون له نبات، وأما النبات فمما كان من السماء".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٥٧]، أي: " كما نحيي هذا البلد الميت بالمطر نخرج الموتى من قبورهم أحياءً بعد فنائهم؛ لتتعظوا، فتستدلوا على توحيد الله وقدرته على البعث".

=

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨).

{وَالْبَلَد الطَّيِّب} الْعَذْب التُّرَاب {يَخْرُج نَبَاته} حَسَنًا {بِإِذْنِ رَبّه} هَذَا مَثَل

=

قال ابن كثير: " أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رَمِيمًا يوم القيامة، ينزل الله، سبحانه وتعالى، ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوما، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض.

وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلا للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها".

عن مجاهد، قوله: "{كذلك نخرج الموتى}، نمطر السماء حتى تشقق عنهم الأرض".

عن السدي قوله: "{كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون}، وكذلك تخرجون، وكذلك النشور كما يخرج الزرع بالماء".

وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلا للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها.

قال تعالى (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

وقال سبحانه (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وقال تعالى (نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ).

لِلْمُؤْمِنِ يَسْمَع الْمَوْعِظَة فَيَنْتَفِع بِهَا {وَالَّذِي خَبُثَ} تُرَابه {لَا يَخْرُج} نَبَاته {إلَّا نَكِدًا} عَسِرًا بِمَشَقَّةٍ وَهَذَا مَثَل لِلْكَافِرِ {كَذَلِكَ} كَمَا بَيَّنَّا مَا ذُكِرَ {نُصَرِّف} نُبَيِّن {الْآيَات لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} الله فَيُؤْمِنُونَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} [الأعراف: ٥٨]، أي: " والأرض النقية إذا نزل عليها المطر تُخْرِج نباتًا -بإذن الله ومشيئته- طيبًا ميسرًا، وهذا مثل للمؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها".

قال ابن كثير: " أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنا، كما قال: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} [آل عمران: ٣٧]".

قال الماوردي: " يعني: يخرج نباته حسنًا جيدًا".

قال المراغي: " المعنى- إن الأرض منها الطيبة الكريمة التربة التي يخرج نباتها بسهولة وينمى بسرعة ويكون كثير الغلّة طيب الثمرة".

قال مجاهد: " الطيب ينفعه المطر فينبت".

قال ابن عباس: " فهذا مثل ضربه الله للمؤمن. يقول: هو طيب، وعمله طيب، كما البلد الطيب ثمره طيب".

قوله تعالى: {وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} [الأعراف: ٥٨]، أي: " والأرض إذا كانت خبيثة التربة لا تُخرج النبات إلا عسرًا رديئا لا نفع فيه، وهذا مثلٌ للكافر الذي لا ينتفع بالموعظة".

قال المراغي: " ومنها الخبيثة التربة كالحرّة- الحجرية- والسّبخة التي لا يخرج نباتها على قلته وخبثه إلا بعسر وصعوبة".

وأصلُ النَّكِدِ في لغةِ العربِ: العسيرُ، لا يخرجُ إلا في حالِ كونِه نَكِدًا، أي: عسيرَ الخروجِ، مسلوبَ الفائدةِ، لاَ يُنْتَفَعُ به في أَكْلِ الناسِ، ولاَ أَكْلِ الأنعامِ؛ إِذْ لاَ فائدةَ فيه، فكذلك قلبُ الكافرِ لاَ يُثْمِرُ إلاَّ نكدًا عسيرًا، ثمرةً لاَ فائدةَ فيها، كالأرضِ

=

السبخةِ إذا كَثُرَتْ عليها الأمطارُ لاَ يُثْمِرُ شيئًا فيه فائدةٌ.

قال الطبري: {إِلَّا نَكِدًا}، " يقول: إلا عَسِرًا في شدة".

قال مجاهد: " السباخُ، لا ينفعه المطر، لا يخرج نباته إلا نكدًا".

قال ابن عباس: "ثم ضرب مثلَ الكافر كالبلدة السَّبِخة المالحة التي يخرج منها النز فالكافر هو الخبيث، وعمله خبيث".

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} [الأعراف: ٥٨]، وجهان:

أحدهما: أن النكد القليل الذي لا ينتفع به، قاله السدي.

قال السدي: " هي السبخة لا يخرج نباتها إلا نكدا، و"النكد"، الشيء القليل الذي لا ينفع".

والثاني: أنه العسر بشدته المانع من خيره، ذكره الطبري، ومنه قول الشاعر:

وَأَعْطِ مَا أَعَطْيتَهُ طَيِّبًا ... لاَ خَيْرَ فِي الْمَنْكُودِ وَالنَّاكِد

وقال الشاعر:

لا تُنْجِزُ الوعْدَ، إِنْ وَعَدْتَ، وإن ... أَعْطَيْتَ أَعْطَيْتَ تَافِهًا نَكِدَا

يعني بـ"التافه"، القليل، وبـ"النكد" العسر.

قال مجاهد: " هذا مثل ضربه الله لآدم وذريته كلهم، إنما خلقوا من نفس واحدة، فمنهم من آمن بالله وكتابه، فطابَ. ومنهم من كفر بالله وكتابه، فخَبُث".

قال السمعاني: " وهذا مثل ضربه الله - تعالى - للمؤمنين وللكافرين؛ فإن المؤمن يخرج ما يخرج من نفسه من الإيمان والخيرات سهلا سمحا، والكافر يخرج ما يخرج من الخيرات نزرا قليل".

عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس،

=

=

فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت فذلك مثل من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلم وَعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا. ولم يَقْبَل هُدَى الله الذي أُرْسِلْتُ به".

وقرأ بعض الكوفيين: «نَكْدًا» بسكون الكاف.

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [الأعراف: ٥٨]، أي: " مثل ذلك التنويع البديع في البيان نُنوِّع الحجج والبراهين لإثبات الحق لأناس يشكرون نعم الله، ويطيعونه".

قال الطبري: " يقول: كذلك: نبين آية بعد آية، وندلي بحجة بعد حجة، ونضرب مثلا بعد مثل، لقوم يشكرون الله على إنعامه عليهم بالهداية، وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة، باتباعهم ما أمرهم باتباعه، وتجنبهم ما أمرهم بتجنبه من سبل الضلالة".

عن زهرة بن معبد القرشي، أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي، يقول: "الصلاة شكر والصيام شكر، وكل خير تفعله لله شكر، وأفضل الشكر الحمد".

قال ابن عاشور: قوله تعالى (والذي خبث) حملهُ جميع المفسّرين على أنّه وصف للبلد، أي البلد الذي خبث وهو مقابل البلد الطّيب، وفسّروه بالأرض التي لا تنبت إلاّ نباتًا لا ينفع، ولا يسرع إنباتها، مثل السّباخ، وحملوا ضمير يَخْرج على أنّه عائد للنّبات، وجعلوا تقدير الكلام: والذي خبث لا (يخرج) نباتُه إلاّ نَكِدًا.

- قال القرطبي: قيل: معناه التشبيه، شبَّه تعالى السريعَ الفهم بالبلد الطيب، والبَلِيدَ بالذي خَبُثَ؛ عن النحاس.

وقيل: هذا مثل للقلوب؛ فقلب يقبل الوعظ والذِّكْرى، وقلب فاسق يَنْبُو عن ذلك؛ قاله الحسن أيضًا.

وقال قتادة: مَثَلُ للمؤمن يعمل محتسِبًا متطوّعًا، والمنافق غير محتسب؛ قال

=

=

رسـول الله ﷺ: "والـذِي نفسي بيـده لـو يعلـم أحـدهم أنـه يجـد عظمًـا سـمينًا أو مِرْمَاتَيْن حسَنَتَين لشهد العِشاء".

– قال ابن الجوزي: قال المفسرون: هـذا مثـل ضـربه الله تعـالى للمـؤمن والكـافر؛ فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله انتفع به وبان أثره عليه، فشُبِّه بالبلـد الطيـب الـذي يُمرع ويُخصب ويحسن أثر المطر عليه؛ وعكسه الكافر.

– قال في الوسيط: والمعنى: أن الأرض الكريمـة التربـة يخـرج نباتها وافيًا حسنًا غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، والذي خبث مـن الأرض كالسبخة منهـا لا يخـرج نباته إلا قليلا عديم الفائدة.

– القلبُ الطيبُ إذا نَزَلَتْ عليه أمطارُ القـرآنِ: زواجرُه ونواهيـه ومواعظُـه وحلالُـه وحرامُه أثمرَ ذلك القرآنُ في ذلك القلبِ ثمراتٍ أحسنَ من ثمـراتِ الأرضِ الطيبـةِ إذا نزلَ عليها المطرُ، فأثمرَ الإيمـانَ بـاللهِ، والتطهـرَ مـن أدنـاسِ المعاصِـي والكفـرِ، وامتثالَ أَمْرِ اللهِ واجتنابَ نواهيه.

وكلُّ خصلةٍ حسنةٍ يُثْمِرُهَا مطرُ القرآنِ في قلبِ المـؤمنِ؛ كالخشيةِ مـن اللهِ، والتوبـةِ عندَ الزلاتِ، والإنابةِ إليه، والسخاءِ، والشجاعةِ والرضا بقضاءِ اللهِ، والإيثارِ وعدمِ الشُّحِّ، إلى غيرِ ذلك من خصالِ الإسلام الكريمةِ الجميلةِ.

– عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِـنَ الْهُـدَى وَالْعِلْـمِ كَمَثَـلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَـانَ مِنْهَـا نَقِيَّـةٌ قَبِلَـتِ الْمَـاءَ، فَأَنْبَتَـتِ الْكَـلأَ وَالْعُـشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَـاءَ، فَنَفَـعَ اللهُ بِهَـا النَّـاسَ، فَشَرِبُوا وَسَـقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً، وَلاَ تُنْبِتُ كَلًا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَـهُ مَـا بَعَثَنِي اللهُ بِـهِ، فَعَلِـمَ وَعَلَّـمَ، وَمَثَـلُ مَـنْ لَـمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)

وقال القرطبي في شرح هذا الحديث:

=

=

- وقال بعض العلماء: جعل الرسول ﷺ الناس في تقبلهم للعمل ثلاث درجات:
الدرجة الأولى: من تقبل ما جاء به الرسول ﷺ وعلمه وعمل بما فيه، وعلم الناس، فهؤلاء هم أفضل الناس لأنهم انتفعوا في أنفسهم ونفعوا غيرهم.
الدرجة الثانية: من تقبل ما جاء به الرسول ﷺ وحمله إلى الناس فانتفعوا به، لكنه لم يتفقه فيه، وقل اجتهاده في العمل به.
الدرجة الثالثة: من لم يستفد مما جاء به الرسول ﷺ ولم يعمل به أو ينقله إلى الناس، وهؤلاء مذمومون على لسان الرسول ﷺ.
- في هذا الحديث دليل على أن من فقه في دين الله، وعلم من سنة رسول الله ما يعلم فإنه خير الأقسام، لأنه علم وفقه لينتفع وينفع الناس، ويليه من علم ولكن لم يفقه، يعني روى الحديث وحمله لكن لم يفقه منه شيئًا، وإنما هو رواية فقط، وهذا يأتي في المرتبة الثانية في الفضل بالنسبة لأهل الإيمان.
والقسم الثالث: لا خير له، رجل أصابه من العلم والهدى الذي جاء به النبي - عليه السلام -، ولكنه لم يرفع به رأسًا ولم ينتفع به، ولم يعلمه الناس، فكان - والعياذ بالله - كمثل الأرض السبخة التي ابتلعت الماء ولم تنبت شيئًا للناس، ولم يبق الماء على سطحها حتى ينتفع الناس به.
(كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) أي: ننوع البراهين والحجج والآيات لإثبات الحق لقوم يشكرون نعم الله فلا يكفرونها ويطيعون ربهم.
- قال في الوسيط: أصل التصريف: تبديل حال بحال ومنه تصريف الرياح. والآيات: الدلائل الدالة على قدرة الله.
أي: مثل ذلك التصريف البديع والتنويع الحكيم نصرف الآيات الدالة على علمنا وحكمتنا ورحمتنا بالإتيان بها على أنواع جلية واضحة لقوم يشكرون نعمنا، باستعمالها فيما خلقت له، فيستحقون مزيدنا منها وإثابتنا عليها.

=

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩).

{لَقَدْ} جَوَاب قَسَم مَحْذُوف {أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمه فَقَالَ يَا قَوْم اُعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْره} بِالْجَرِّ صِفَة لِإِلَهٍ وَالرَّفْع بَدَل مِنْ مَحِلّه {إِنِّي أَخَاف عَلَيْكُمْ}

=

- الشكر يكون من الله لعبده ومن العبد لربه.

فشكر العبد لربه كقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ). وقوله تعالى (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ).

وتعريفه كما سبق وهو أن يستعمل نعمه في طاعة الله.

وشكر الله لعبده كقوله تعالى (وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) وقوله تعالى (إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)

ومعنى شكر الله لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، وإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئًا ردّه عليه أضعافًا مضاعفة.

لما عقر سليمان الخيل غضبًا له إذ شغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرة أخرى، أعاضه عنها متن الريح.

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملّكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

إنْ عَبَّدْتُمْ غَيْره {عَذَاب يَوْم عَظِيم} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠).

{قَالَ الْمَلَأ} الْأَشْرَاف {مِنْ قَوْمه إنَّا لَنَرَاك فِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن.

قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١)

{قَالَ يَا قَوْم لَيْسَ بِي ضَلَالَة} هِيَ أَعَمّ مِنْ الضَّلَال فَنَفْيهَا أَبْلَغ مِنْ نَفْيه {ولكني رسول من رب العالمين}.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢).

{أُبَلِّغكُمْ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {رِسَالَات رَبِّي وَأَنْصَح} أُرِيد الخير {لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون}.

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣).

{أَ} كَذَّبْتُمْ {وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْر} مَوْعِظَة {مِنْ رَبّكُمْ عَلَى} لِسَان {رَجُل مِنْكُمْ لِيُنْذِركُمْ} الْعَذَاب إنْ لَمْ تُؤْمِنُوا {وَلِتَتَّقُوا} الله {وَلَعَلَّكُمْ ترحمون} بها.

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤).

{فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ} مِنْ الْغَرَق {فِي الْفُلْك} السَّفِينَة {وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} بِالطُّوفَانِ {إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ} عَنْ الْحَقّ[1].

---

(١) قوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [الأعراف: ٥٩]، أي: " ولقد بعثنا نوحًا إلى قومه".

قال الطبري: "أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية: أنه أرسل نوحًا إلى =

=

قومه، منذرَهم بأسَه، ومخوِّفَهم سَخَطه، على عبادتهم غيره".

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك وما يتصل به، وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأولَ، فابتدأ بذكر نوح، عليه السلام، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم.

- بدأ تعالى بقصص الأنبياء في السورة تسلية للنبي ﷺ وبيان أن الشدة التي لاقاها من قومه قد لاقاها إخوانه من الأنبياء قبله كما قال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل) وفيها أيضًا تهديدًا للمشركين.

- وبدأ بنوح لأنه أول رسول أرسل إلى أهل الأرض حينما انتشر الشرك بينهم، ويسمى نوح (آدم الأصغر) لأن البشرية كلها بعده من ذريته كما قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ).

ونوح هو أحد أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم في موضعين في كتابه:

الموضع الأول: في سورة الأحزاب.

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا).

الموضع الثاني: في سورة الشورى.

قال تعالى (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ).

ونوح أول الرسل، لقوله (فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض).

ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ).

=

=

- **قال ابن كثير**: وقد كان بين آدم إلى زمن نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام. قاله ابن عباس.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين (ودًا وسواعًا ويَغُوث وَيَعُوق ونسرًا) فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى -وله الحمد والمنة -رسوله نوحًا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

قال ابن عطية: " وهذه نذارة من نوح لقومه دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة ودا وسواعا ويغوث ويعوق وغيرها مما لم يشتهر... قالت فرقة من المفسرين: سمي نوحا لأنه كان ينوح على نفسه. وهذا ضعيف، قال سيبويه: نوح ولوط وهود أسماء أعجمية إلا أنها حقيقة فلذلك صرفت".

عن أبي صالح قال: " أرسل: بعث".

عن أنس، أن النبي ﷺ قال: "أول نبي أرسل نوح ﷺ".

وعن قتادة: "أن نوحا بعث من الجزيرة".

عن يزيد الرقاشي قال: "إنما سمي نوح، لطول ما ناح على نفسه".

قال محمد بن إسحاق: "كان من حديث نوح وحديث قومه فيما قص الله على لسان نبيه ﷺ، وما يذكر أهل الكتاب من أهل التوراة، وما حفظ من الأحاديث عن عبد الله بن عباس، وعن عبيد بن عمير أن الله بعث نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله، وقد فشت في الأرض المعاصي، وكثرت فيها الجبابرة، وعتوا على الله عتوا كبيرا، وكان نوح فيما يذكر أهل العلم حليما

=

=

صبورا لم يلق نبي من قومه من البلايا أكثر مما لقي إلا نبي قتل".

قال ابن كثير: " لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك وما يتصل به، وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأولَ، فابتدأ بذكر نوح، عليه السلام، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم، عليه السلام، وهو: نوح بن لامك بن متوشلح بن خَنُوخ - وهو إدريس النبي عليه السلام - فيما، يزعمون، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم، عليه السلام.. وقد كان بين آدم إلى زمن نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا على تلك الصور. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين "ودًا وسواعًا ويَغُوث وَيَعُوق ونسرًا". فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له".

قوله تعالى: {فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩]، أي: " فقال: يا قوم اعبدوا الله وحده، واخضعوا له بالطاعة، ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جل وعلا فأخلصوا له العبادة".

أي: اخضعوا وذلوا لله سبحانه وتعالى، وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجردًا عن محبة الله يُبغض

=

=

الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها، فإن المُحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أمورًا لا تنبغي، والله ﷻ لا يليق به شيء من ذلك (قاله الشنقيطي).

- فالعبادة تطلق على معنيين: أحدهما: التعبد: يعني التذلل لله، كما سبق، وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية.

- وفي هذه الآية وجوب عبادة الله ﷻ، وأنها دعوة الرسل جميعًا، وأول ما يبدا به.

قال الطبري: "فقال لمن كفر منهم: يا قوم، اعبدوا الله الذي له العبادة، وذِلُّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجب عليكم العبادةَ غيرُه".

قال ابن عباس: " {اعْبُدُوا}، أي: وحدوا".

قوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: ٥٩]، أي: " فإن لم تفعلوا وبقيتم على عبادة أوثانكم، فإنني أخاف أن يحلَّ عليكم عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم، وهو يوم القيامة".

قال الطبري: أي: " فإني أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك عذابَ يوم يعظم فيه بلاؤكم بمجيئه إياكم بسخط ربِّكم".

قال ابن كثير: " أي: من عذاب يوم القيامة إنْ لقيتم الله وأنتم مشركون به".

قال ابن عباس: " {عذاب}، يقول: نكال".

فإن قيل: كيف يعبر بالخوف عليهم مع أنهم واقع عليهم العذاب لا محالة؟

والجواب: أن محل الخوف هو خشية الاستمرار في الكفر والضلال فيقع ويحل عليهم العذاب الذي هو جزاء كفرهم.

قوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ} [الأعراف: ٦٠].

=

=

أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء من قومه.

قيل سُمُّوا (ملًا) لأنهم يملؤون صدورَ المجالسِ بقامتِهم الوافيةِ، أو يملؤونَ صدورَ الناظرِ لأُبَّهَتِهِمْ وَجَمَالِهِمْ، أو أنهم يَتَمَالَؤُونَ على العقدِ والحلِّ فيتفقونَ عليه.

قال ابن كثير: " أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم".

قال أبو مالك: " {الملأ}، يعني: الأشراف من قومه".

قال الزمخشري: " {الملأ}: الأشراف والسادة. وقيل: الرجال ليس معهم نساء".

قال ابن عطية: " {الملأ}: الجماعة الشريفة".

قال الطبري: " {الملأ}، الجماعة من الرجال، لا امرأة فيهم".

قوله تعالى: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأعراف: ٦٠]، أي: " إنا لنراك يا نوح في ذهابٍ عن طريق الحق والصواب واضح جلي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا".

قال الشنقيطي: أي: " نعتقدك يا نوح في ذهاب عن طريق الحق بين واضح حيث جئتنا لتصرفنا عما كان يعبد آباؤنا، فهذا التوحيد الذي جئتنا به وإفراد الله بالعبادة نراك في ضلال وذهاب عن الحق مبين واضح".

قال الزمخشري: " في ذهاب عن طريق الصواب والحق. ومعنى الرؤية: رؤية القلب".

قال ابن كثير: " أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} [المطففين: ٣٢]،} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} [الأحقاف: ١١] إلى غير ذلك من الآيات".

=

=

قال ابن عطية: " قولهم لنراك يحتمل أن يجعل من رؤية البصر، ويحتمل من رؤية القلب وهو الأظهر وفي ضلال أي في إتلاف وجهالة بما تسلك".

قال الطبري: " يعنون في أمر زائل عن الحق، مبين زوالهُ عن قصد الحقّ لمن تأمله".

قال أبو حيان: " ولم يجبه من قومه إلا أشرافهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغمار عقولهم بالدنيا وطلب الرئاسة والعلو فيهما".

وفي تسميتهم بـ «الملأ» وجوه:

أحدها: أنهم مليئون بما يراد منهم.

والثاني: لأنهم تملأ النفوس والأعين هيبتهم.

والثالث: لأنهم يملأون صدور المجالس.

والرابع: لأنهم إذا تمالؤوا على أمر تمّ.

ذكر أن النبي ﷺ لما رجعوا من بدر سمع رجلا من الأنصار يقول: "وهل لقينا إلا عجائز كالحرز المعقلة فنحرناهم، فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى رأيته كأنه تفقأ فيه حب الرمان، ثم قال: «يا ابن أخي لا تقل ذلك، أولئك الملأ الأكبر من قريش، أما لو رأيتهم في مجالسهم بمكة لهبتهم»...".

وقرأ ابن عامر: «الملو» بالواو، قال ابن عطية: " قال ابن عباس «الملؤ» بواو وكذلك هي في مصاحف الشام"، قال أبو حيان: " وليس مشهورا عن ابن عامر بل قراءته كقراءة باقي السبعة بهمزة".

* وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ)، (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) إلى غير ذلك من الآيات.

- بعض الاتهامات التي وجهت لنوح من قبل قومه:

=

=

أولًا: اتهموه بالجنون.

قال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ).

ثانيًا: اتهموه بكثرة الجدال.

قال تعالى عنهم (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

ثالثًا: اتهموه بالضلال.

قال تعالى (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين).

رابعًا: توعدوه بالرجم.

قال تعالى عنهم (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ).

خامسًا: التهكم والسخرية.

قال تعالى (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ} [الأعراف: ٦١]، أي: " قال نوح: يا قوم لست ضالا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه".

قال ابن كثير: " أي: ما أنا ضال".

قال البيضاوي: يقول: [ليس بي] " أي شيء من الضلال، بالغ في النفي كما بالغوا في الإثبات وعرض لهم به".

قال الطبري: " قال نوح لقومه مجيبًا لهم: يا قوم، لم آمركم بما أمرتكم به من إخلاص التوحيد لله، وإفراده بالطاعة دون الأنداد والآلهة، زوالا مني عن محجة الحقّ، وضلالا لسبيل الصواب، وما بي ما تظنون من الضلال".

قال الماتريدي: " أي: لست أنا بضال؛ لأنه إذا نفى الضلال عنه، نفى أن يكون

=

=

ضالا، وهو حرف رفق ولين، وعلى ذلك أمر الأنبياء والرسل أن يعاملوا قومهم؛ لأن ذلك أنجع في القلوب، وإلى القبول أقرب".

قال القرطبي: " الضلال والضلالة: العدول عن طريق الحق، والذهاب عنه".

قال القشيري: " قوله: {لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ}: نسبوا نوحا- عليه السلام- إلى الضلالة، فتولّى إجابتهم بنفسه فقال {يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ}، ونبينا- صلى الله عليه وسلم- نسب إليه فتولّى الحق- سبحانه- الردّ عنه فقال: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} [النجم: ٢]، فشتّان بين من دافع عن نفسه، وبين من دافع عنه ونفى عنه ربّه".

قال الزمخشري: " فإن قلت: لم قال ليس بي ضلالة ولم يقل ضلال كما قالوا؟ قلت: الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بى شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر، فقلت: مالى تمرة".

قوله تعالى: {وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٦١]، أي: " ولكني رسول من رب العالمين ربي وربكم ورب جميع الخلق".

قال ابن كثير: " أي: ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه".

قال الطبري: أي: " ولكنّي رسول إليكم من رب العالمين بما أمرتكم به: من إفراده بالطاعة، والإقرار له بالوحدانية، والبراءة من الأنداد والآلهة".

قال الزمخشري: " فإن قلت: كيف وقع قوله ولكني رسول استدراكا للانتفاء عن الضلالة؟ قلت: كونه رسولا من الله مبلغا رسالاته ناصحا، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصح لذلك أن يكون استدراكا للانتفاء عن الضلالة".

أخرج ابن ابي حاتم عن عبيد بن عمير الليثي: " أنه كان يحدث أنه بلغه أنهم كانوا يبطشون به يعني نوحا فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت فيهم في الأرض الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر الجيل بعد

=

=

الجيل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي كان قبله حتى كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا، هكذا مجنونا لا يقبلون منه شيئا حتى شكا ذلك من أمرهم نوح عليه الصلاة والسلام إلى الله ﷻ وقال: كما قص الله علينا في كتابه".

قوله تعالى: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي} [الأعراف: ٦٢]، أي: " أُبلِّغكم ما أُرسلت به من ربي".

قال مقاتل: أي: " في نزول العذاب بكم في الدنيا".

قال الطبري: " وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه الذين كفروا بالله وكذبوه: {ولكني رسول من رب العالمين}، أرسلني إليكم، فأنا أبلغكم رسالات ربي".

وقرئ: «أبلغكم»، بالتخفيف.

قوله تعالى: {وَأَنْصَحُ لَكُمْ} [الأعراف: ٦٢]، أي: " وأنصح لكم محذرًا لكم من عذاب الله ومبشرًا بثوابه".

قال مقاتل: أي: " وأحذركم من عذابه في الدنيا".

قال الطبري: أي: " وأنصح لكم في تحذيري إياكم عقابَ الله على كفركم به، وتكذيبكم إياي، وردّكم نصيحتي".

قال القرطبي: " النصح: إخلاص النية من شوائب الفساد في المعاملة، بخلاف الغش. يقال: نصحته ونصحت له نصيحة ونصاحة ونصحا. وهو باللام أفصح".

قال ابن عاشور: والنّصح والنّصيحة كلمة جامعة، يعبّر بها عن حسن النّيّة وإرادة الخير من قولٍ أو عملٍ، وفي الحديث: "الدّين النّصيحة " وأن تُناصحوا من ولاّه الله أمركم.

ويكثر إطلاق النّصح على القول الذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفع عنه

=

=

الضّر.

قال محمد بن إسحاق: " كان من حديث نوح وحديث قومه مما يذكر أهل العلم أنه كان حليما صبورا لم يلق نبي من قومه من البلايا أكثر مما لقي إلا نبي قتل وكان يدعوهم كما قال الله: ليلا ونهارا، سرا وجهارا بالنصيحة لهم، فلم يزدهم ذلك منه إلا فرارا، حتى إنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه، ويجعل أصابعه في أذنيه لئلا يسمع شيئا من قوله".

قوله تعالى: {وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٦٢]، أي: " وأعلم من شريعته ما لا تعلمون".

قال الحسن: "يقول: أَعْلَمُ من الله أنّه مهلككم ومعذبكم؛ إن لم تؤمنوا".

قال مقاتل: أي: " في نزول العذاب بكم ما لا تعلمون أنتم، وذلك أن قوم نوح لم يسمعوا بقوم قط عذبوا وقد سمعت الأمم بعدهم بنزول العذاب على قوم نوح".

قال الطبري: أي: " من أن عقابه لا يردُّ عن القوم المجرمين".

قال المراغي: " أي: وأنا في هذا التبليغ وذلك النصح على علم من الله أوحاه إلى لا تعلمون منه شيئا، كما أنى أعلم من الله وشئونه ما لا تعلمون فى نظام هذا العالم وما ينتهى إليه، كما أعلم ما بعده من أمر الآخرة والحساب والجزاء- فإذا نصحت لكم وأنذرتكم عاقبة شرككم من إنزال العذاب بكم فى الدنيا إذا جحدتم وعاندتم، فإنما أنصح لكم عن علم يقينى لا تعلمونه".

قال ابن كثير: " وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغا فصيحا ناصحا بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا: «أيها الناس، إنكم مسئولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتُها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم

=

=

اشهد»".

قال الرازي: قوله تعالى (وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) وفيه وجوه:

الأول: واعلم أنكم إن عصيتم أمره عاقبكم بالطوفان.

الثاني: واعلم أنه يعاقبكم في الآخرة عقابًا شديدًا خارجًا عما تتصوره عقولكم.

قوله تعالى: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ} [الأعراف: ٦٣]، أي: " وهل أثار عجبكم أن أنزل الله تعالى إليكم ما يذكركم بما فيه الخير لكم، على لسان رجل منكم، تعرفون نسبه وصدقه، فإن هذا ليس بعجَب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم، لإنذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به".

عن السُّدِّيّ: "{أوعجبتُمْ أن جاءكُم ذكرٌ من ربكم}، يقول: بيانٌ مِن ربِّكم".

قال ابن كثير: " أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس يعجَب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفا وإحسانا إليكم".

قال الطبري: " وهذا أيضًا خبر من الله عز ذكره عن قِيل نوح لقومه أنه قال لهم، إذ ردُّوا عليه النصيحة في الله، وأنكروا أن يكون الله بعثه نبيًّا، وقالوا له: {مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [سورة هود: ٢٧]، {أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم}، يقول: أوعجبتم أن جاءكم تذكير من الله وعِظة، يذكركم بما أنزل ربكم مع رجل منكم".

قوله تعالى: {لِيُنْذِرَكُمْ} [الأعراف: ٦٣]، أي: " ليخوِّفكم بأس الله تعالى وعقابه".

قال ابن كثير: أي: "لإنذركم".

قال الطبري: " يقول: لينذركم بأس الله ويخوِّفكم عقابه على كفركم به".

=

=

قوله تعالى: {وَلِتَتَّقُوا} [الأعراف: ٦٣]، أي: " ولتتقوا سخطه بالإيمان به".

قال ابن كثير: أي: " ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به".

قال الطبري: " يقول: وكي تتقوا عقابَ الله وبأسه، بتوحيده وإخلاص الإيمان به، والعمل بطاعته".

قوله تعالى: {وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٦٣]، أي: " ورجاء أن تظفروا برحمته وجزيل ثوابه؟".

قال الطبري: " يقول: وليرحمكم ربكم إن اتقيتم الله، وخفتموه وحَذِرتم بأسه".

قال عطاء بن دينار: " لكي ترحمون فلا تعذبون".

قال الشنقيطي: أَنْكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ، وَقَوْمِ هُودٍ عَجَبَهُمْ مِنْ إِرْسَالِ رَجُلٍ ؛ وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ أَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ عَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ. قَالَ فِي عَجَبِ قَوْمِ نَبِيِّنَا ﷺ مِنْ ذَلِكَ (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ)، وَقَالَ (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ).

وَقَالَ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ).

وقال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ).

قال تعالى (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ).

وَصَرَّحَ بِأَنَّ هَذَا الْعَجَبَ مِنْ إِرْسَالِ بَشَرٍ مَانِعٍ لِلنَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ ب:

فقال تعالى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا).

=

=
وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْهُمْ (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا).
وَقَوْلُهُ (فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا).
وشُبْهَتُهُمْ هَذِهِ الْبَاطِلَةُ رَدَّهَا اللهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:
كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا).
وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا) أَيْ: لَا مَلَائِكَةً.
وَقَوْلِهِ (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ).

* (فائدة): وجْهَ الْجَمْعِ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)، وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا).

- قال الشنقيطي:.... أَنَّ الْمَانِعَ الْمَذْكُورَ فِي سُورَةِ «الْإِسْرَاءِ» مَانِعٌ عَادِيٌّ يَجُوزُ تَخَلُّفُهُ؛ لِأَنَّ اسْتِغْرَابَهُمْ بَعْثَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ مَانِعٌ عَادِيٌّ يَجُوزُ تَخَلُّفُهُ لِإِمْكَانِ أَنْ يَسْتَغْرِبَ الْكَافِرُ بَعْثَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ ثُمَّ يُؤْمِنَ بِهِ مَعَ ذَلِكَ الِاسْتِغْرَابِ، فَالْحَصْرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا)، حَصْرٌ فِي الْمَانِعِ الْعَادِيِّ، وَأَمَّا الْحَصْرُ فِي قَوْلِهِ هُنَا (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا)، فَهُوَ حَصْرٌ فِي الْمَانِعِ الْحَقِيقِيِّ؛ لِأَنَّ إِرَادَتَهُ جَلَّ وَعَلَا عَدَمُ إِيمَانِهِمْ، وَحُكْمُهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَقَضَاءُهُ بِهِ مَانِعٌ حَقِيقِيٌّ مِنْ وُقُوعِ غَيْرِهِ.

قوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ} [الأعراف: ٦٤].

أي استمروا على تكذيبه وأصروا بعد أن قال لهم ما قال ودعاهم إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، مع طول مدة إقامته فيهم ولم يؤمن معه منهم إلا قليل وقد مكث نوح
=

=

في قومه كثيرًا كما قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ).

ولقد اجتهد اجتهادًا عظيمًا في دعوتهم، فقد بالغ في دعوتهم من غير تعب.

قال تعالى عنه (قال رب إني دعوت قومي ليلًا ونهارًا).

ونوع في دعوتهم، فمرة بالسر ومرة بالجهر كما قال تعالى عنه (ثم إني دعوتهم جهارًا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارًا).

ومرة بالترغيب كما قال تعالى عنه (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا. يرسل السماء عليكم مدرارًا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا).

ومرة بالترهيب كما قال تعالى عنه (ما لكم لا ترجون لله وقارًا. وقد خلقكم أطوارًا. ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقًا. وجعل القمر فيهن نورًا وجعل الشمس سراجًا. والله أنبتكم من الأرض نباتًا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجًا).

ومرة بأنه ناصح لهم مخلص قال تعالى عنه أنه قال لهم [أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون].

قال ابن كثير: " أي: فتمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فكذب نوحًا قومه إذ أخبرهم أنه لله رسولٌ إليهم، يأمرهم بخلع الأنداد، والإقرار بوحدانية الله، والعمل بطاعته، وخالفوا أمر ربهم، ولجُّوا في طغيانهم يعمهون".

قوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ} [الأعراف: ٦٤]، أي: " فأنجيناه ومَن آمن معه في السفينة".

قال الطبري: " فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به، وكانوا بنوح

=

=

عَلَيْهِ السَّلَامُ أنفسًا عشرة، عن ابن إسحاق: «نوح، وبنوه الثلاثة سامٌ وحام ويافث، وأزواجهم، وستة أناسيّ ممن كان آمن به». وكان حمل معه في الفلك من كل زوجين اثنين، كما قال تبارك وتعالى: {وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ} [سورة هود: ٤٠]".

قال ابن عباس: " كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم". وفي رواية اخرى بزيادة «وكان لسانه عربيا» في آخره.

وقال ابن عباس أيضا: " ول ما حمل نوح في السفينة من الدواب الذرة وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار، دخل، صدره فتعلق إبليس بذنبه فلا تستعل رجلاه، فجعل نوح يقول: ويحك ادخل ينهض فلا يستطيع، حتى قال نوح: ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك، قال، كلمة زلت على لسانه".

(فائدة): قال تعالى (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ).

قال بعضهم إن المراد بنهيه عن مخاطبته فيهم أن يخاطبه في إمهالهم، لأن ما قدره الله عليهم قد مضى ولا محالة، وهذا الوجه بعيد، لأن نوحًا قد ألح في دعائه لربه أن يهلكهم، فالصحيح أن المراد لا تخاطبني في تعجيل العذاب والإهلاك لقومك، فإنه قد كتب وحان.

قوله تعالى: {وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف: ٦٤]، أي: " وأغرقنا الكفار الذين كذبوا بحججنا الواضحة".

قال الطبري: " يقول: وأغرق الله الذين كذبوا بحججه، ولم يتبعوا رسله، ولم يقبلوا نصيحته إياهم في الله بالطوفان".

قال ابن زيد: " ما عذب قوم نوح حتى ما كان في الأرض سهل ولا جبل إلا وله عامر يعمره وحائز يحوزه".

=

=

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي زهير، قال: " بلغني أن قوم نوح عاشوا في ذلك الغرق أربعين يوما".

قال محمد بن إسحاق: " فلقد غرقت الأرض وما فيها وانتهى الماء إلى ما انتهى إليه، وما جاوز الماء ركبته، ودأب الماء حين أرسله خمسين ومائة كما يزعم أهل التوراة فكان بين أن أرسل الله الطوفان، وبين أن غاض الماء ستة أشهر وعشر ليال، ولما أراد الله أن يكف ذلك أرسل الله ريحا على وجه الماء فسكن الماء، واشتدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر فكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح عليه الصلاة والسلام كوة الفلك التي صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه، فلم يجد لرجلها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها، فمكث سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت إليه حين أمست وفي فمها ورقة زيتونة، فعلم نوح أن الماء قد قل، عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ} [الأعراف: ٦٤]، أي: " إنهم كانوا عُمْيَ القلوب عن رؤية الحق".

عن مجاهد في قول الله: " {عمين}، قال: عن الحق".

قال ابن زيد: " العَمَى، العامي عن الحق".

قال عطاء: " فعماة، عن الخير".

قال سفيان بن حسين: " أعموا، عن ذلك الشيء ليسوا عمي إنما هم عموا عنه".

قال الطبري: " يقول: عمين عن الحق".

=

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥).

{و} أَرْسَلْنَا {إِلَى عَادٍ} الْأُولَى {أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْم اُعْبُدُوا الله} وَحِّدُوهُ {مَا لَكُمْ مِنْ إلَه غَيْره أَفَلَا تَتَّقُونَ} تَخَافُونَهُ فتؤمنون.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦).

{قَالَ الْمَلَأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمه إنَّا لَنَرَاك فِي سَفَاهَة} جَهَالَة {وَإِنَّا لِنَظُنّك مِنْ الكاذبين} في رسالتك.

قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)

{قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين}.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨).

{أُبَلِّغكُمْ رِسَالَات رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِح أَمِين} مأمون على الرسالة.

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ

=

قال ابن كثير: " أي: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له. فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر: ٥١، ٥٢]، وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح -عليه االسلام- بالغرق ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين".

جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩).

{أو عجبتم أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْر مِنْ رَبّكُمْ عَلَى} لِسَان {رَجُل مِنْكُمْ لِيُنْذِركُمْ وَاذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء} فِي الْأَرْض {مِنْ بَعْد قَوْم نُوح وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْق بَسْطَة} قُوَّة وَطُولًا وَكَانَ طَوِيلهمْ مِائَة ذِرَاع وَقَصِيرهمْ سِتِّينَ {فَاذْكُرُوا آلَاء الله} نِعَمه {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} تفُوزُونَ.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠).

{قَالُوا أَجِئْتنَا لِنَعْبُد الله وَحْده وَنَذَرَ} نَتْرُك {مَا كَانَ يَعْبُد آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدنَا} بِهِ مِنْ الْعَذَاب {إنْ كُنْت مِنْ الصَّادِقِينَ} في قولك.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١)

{قَالَ قَدْ وَقَعَ} وَجَبَ {عَلَيْكُمْ مِنْ رَبّكُمْ رِجْس} عَذَاب {وَغَضَب أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا} أي سميتم بها {أنتم وآباؤكم} أَصْنَامًا تَعْبُدُونَهَا {مَا نَزَلَ الله بِهَا} أَيْ بِعِبَادَتِهَا {مِنْ سُلْطَان} حُجَّة وَبُرْهَان {فَانْتَظِرُوا} الْعَذَاب {إنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ} ذَلِكُمْ بِتكْذِيبِكُمْ لِي فَأَرْسَلْت عَلَيْهِمْ الرِّيح الْعَقِيم.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢).

{فَأَنْجَيْنَاهُ} أَيْ هُودًا {وَالَّذِينَ مَعَهُ} مِنْ الْمُؤْمِنِينَ {بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِر}

الْقَوْم {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} أَيْ اسْتَأْصَلْنَاهُمْ {وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ} عَطْف على كذبوا(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} [الأعراف: ٦٥]، أي: " وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا حين عبدوا الأوثان من دون الله".

قال ابن كثير: " يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا".

قال الطبري: " «عاد»، هؤلاء القوم الذين وصف الله صفتهم، وبعث إليهم هودًا يدعوهم إلى توحيد الله، واتّباع ما أتاهم به من عنده".

عن ابن إسحاق: "ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح".

وعن ابن إسحاق أيضا: " وكان من حديث عاد فيما بلغني والله أعلم: أنهم كانوا قوما عربا، فبعث الله إليهم هودا وهو من أوسطهم نسبا، وأفضلهم موضعا، فأمرهم أن يوحدوا الله ﷻ".

قال السدي: " إن عادا كانوا باليمن بالأحقاف والأحقاف هي الرمال، فأتاهم فوعظهم، وذكرهم بما قص الله في القرآن، فكذبوه وكفروا، وسألوه أن يأتيهم بالعذاب".

عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، قال: "سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيبًا أحمر تخالطه مَدَرَةٌ حمراء، ذا أَرَاك وسِدْر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت، هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! والله إنك لتنعته نعتَ رجل قد رآه! قال: لا ولكني قد حُدِّثت عنه. فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبرُ هود صلوات الله عليه".

وهذه الأممُ يَقُصُّ اللهُ خبرَها على هذه الأمةِ لتستفيدَ من ذلك فوائدَ عظيمةً (لَقَدْ =

=

كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ) فيخافُ المكذبونَ للرسلِ الجاحدونَ بآياتِ اللهِ أن ينزلَ بهم مِثْلُ ما نَزَلَ بأولئك من الْمَثُلاَتِ، ومن عذابِ اللهِ المستأصلِ المتصلِ بعذابِ النارِ، وكذلك يُعَلِّمُ الناسَ الآدابَ، وآدابُ الدعاةِ إلى اللهِ في لِينِهِمْ وَعَطْفِهِمْ، وَلِينِ كَلاَمِهِمْ، وكرمِ مخاطبتِهم، وعدمِ بذاءتِهم وكلامِهم بكلامِ الجاهلين؛ هذا نبيُّ اللهِ نوحٌ لَمَّا قالوا له (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) هو يعلمُ أنهم هم الضالونَ، وأنه هو المهتدِي، والذي يَعِيبُكَ ويلمزُك بعيبٍ أنتَ تعلمُ أنه فيه هو، وأنك أنتَ بَرِيٌّ منه هذا مما يستدِعي الغضبَ، والكلامَ الشديدَ، والردَّ العنيفَ، فَنَبِيُّ اللهِ نوحٌ لم يَقُلْ لهم شيئًا من ذلك، ولم يَرُدَّ عليهم رَدًّا عنيفًا، وإنما رَدَّ بأكرمِ العبارةِ، وألطفِ الردِّ، فقال (يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) فلم يَقُلْ: أنتم هم الكفرةُ الفجرةُ الضُّلاَّلُ، ولم يقذع فيهم بلسانِه، بل بالعباراتِ اللطيفةِ اللينةِ، وهذا تعليمٌ من اللهِ لخلقِه أن الداعيَ المتبعَ لآثارِ الرسلِ إذا قَابَلَهُ الجهلةُ ببذاءةِ اللسانِ وَعَابُوهُ وتكلموا له بالقبيحِ أنه لا يقابلهم إلا بالقولِ اللَّيِّنِ اللطيفِ، والحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، كما هي عادةُ الرسلِ في خطاباتِهم لأُمَمِهِمْ.

وعاد قبيلة عظيمة، وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العَمَد في البر، كما قال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ) وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

قال تعالى (وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ).

=

=

قال ابن كثير: هذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هودا عَلَيْهِ السَّلَامُ، دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبا؛ لأن الرسل [صلوات الله عليهم إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدّد خلقهم شُدِّد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق؛ ولهذا دعاهم هود، عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

- قوله تعالى (عَادٍ أَخَاهُمْ) أي: أخاهم في النسب لا في الدين خلافًا لمن زعم أن أصله ليس منهم.

- قال الرازي: اتفقوا على أن هودًا ما كان أخًا لهم في الدين.

- والسر في التعبير بالأخوة لهم: ليزداد التشنيع عليهم، لأنه منهم يعلمون صدقه وثقته وشرفه.

- قال الآلوسي: وحكمة كون النبي يبعث إلى القوم منهم أنهم أفهم لقوله من قول غيره وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله.

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٦٥]، أي: " فقال لهم: اعبدوا الله وحده، ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جل وعلا فأخلصوا له العبادة".

كل دعوات الرسل هي مضمون (لا إله إلا الله) التي قام عليها أمر السماوات والأرض، وخلقت من أجلها الجنة والنار، ولهذا كل رسول يبدأ قومه بالدعاء إليها (مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أي: ليس لكم معبود يستحق منكم العبادة غيره، لأنه الخالق الرازق المدبر.

قال محمد بن إسحاق: "وكان من حديث عاد فيما بلغني -والله أعلم- أنهم كانوا قوما عربا، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله صنم يقال له صداء وآخر يقال له صمود، وصنم يقال له الهباء «٢»، فبعث الله عَزَّ وَجَلَّ لهم هودا فأمرهم أن

=

=

يوحدوا الله، ولا يجعلوا معه إلها غيره، وأن يكفوا، عن ظلم الناس، ولم يأمرهم فيما يذكرون والله أعلم بغير ذلك".

قوله تعالى: {أَفَلَا تَتَّقُونَ} [الأعراف: ٦٥]، أي: " أفلا تتقون عذاب الله وسخطه عليكم؟".

أخرج الطبري عن ابن إسحاق، قال: " كانت منازل عاد وجماعتهم، حين بعث الله فيهم هودًا، الأحقاف. قال: و"الأحقاف"، الرملُ، فيما بين عُمان إلى حضرموت، فاليمن كله. وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض كلِّها، وقهروا أهلها بفضل قوّتهم التي آتاهم الله. وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله: صنم يقال له"صُداء"، وصنم يقال له"صَمُود"، وصنم يقال له"الهباء". فبعث الله إليهم هودًا، وهو من أوْسطهم نسبًا، وأفضلهم موضعًا، فأمرهم أن يوحِّدوا الله ولا يجعلوا معه إلهًا غيره، وأن يكفُّوا عن ظلم الناس. ولم يأمرهم فيما يذكر، والله أعلم، بغير ذلك. فأبوا عليه وكذبوه. وقالوا: "من أشدّ منا قوة!". واتبعه منهم ناسٌ، وهم يسيرٌ مكتتمون بإيمانهم. وكان ممن آمن به وصدّقه رجلٌ من عاد يقال له: "مرثد بن سعد بن عفير"، وكان يكتم إيمانه. فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا نبيَّهم، وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبَّروا وبنوا بكل رِيع آية عبَثًا بغير نفع، كلمهم هود فقال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [سورة الشعراء: ١٢٨ - ١٣١]، {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ}، أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا جنون أصابك به بعض آلهتنا هذه التي تعيب {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ}، إلى قوله: {صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة هود: ٥٣ - ٥٦]. فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر من

=

=

السَّماء ثلاث سنين، فيما يزعمون، حتى جهدهم ذلك. وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جَهْد، فطلبوا إلى الله الفرج منه، كانت طَلِبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة، مسلمهم ومشركهم، فيجتمع بمكة ناس كثيرٌ شتى مختلفةٌ أديانُهم، وكلهم معظّم لمكة، يعرف حُرْمتها ومكانَها من الله.

قال ابن إسحاق: وكان البيت في ذلك الزمان معروفًا مكانه، والحرم قائم فيما يذكرون، وأهل مكة يومئذ العماليق وإنما سموا"العماليق"، لأن أباهم: "عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح" وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة، فيما يزعمون رجلا يقال له معاوية بن بكر، وكان أبوه حيًّا في ذلك الزمان، ولكنه كان قد كبر، وكان ابنه يرأس قومه. وكان السؤدد والشرف من العماليق، فيما يزعمون، في أهل ذلك البيت. وكانت أم معاوية بن بكر، كلهدة ابنة الخيبري، رجلٍ من عادٍ، فلما قَحَطَ المطر عن عاد وجُهِدوا، قالوا: جهزوا منكم وفدًا إلى مكة فليستسقوا لكم، فإنكم قد هلكتم! فبعثوا قيل بن عنز ولقيم بن هزّال بن هزيل، وعتيل بن صُدّ بن عاد الأكبر. ومرثد بن سعد بن عفير، وكان مسلمًا يكتم إسلامه، وجُلْهُمَة بن الخيبري، خال معاوية بن بكر أخو أمه. ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صُدّ بن عاد الأكبر. فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه، حتى بلغ عدّة وفدهم سبعين رجلا. فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر مكة خارجًا من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وصِهْرَه.

فلما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر، أقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر، وتغنِّيهم الجرادَتان قينتان لمعاوية بن بكر. وكان مسيرهم شهرًا، ومقامهم شهرًا. فلما رأى معاوية بن بكر طُول مقامهم، وقد بعثهم قومُهم يتعوَّذون بهم من البلاء الذي أصابهم، شقَّ ذلك عليه، فقال: هلك أخوالي وأصهاري! وهؤلاء مقيمون عندي، وهم ضيفي نازلون عليّ! والله ما أدري كيف أصنع بهم؟ أستحي أن آمرهم

=

=

بالخروج إلى ما بعثوا له، فيظنوا أنه ضِيق مني بمقامهم عندي، وقد هلك مَنْ وراءهم من قومهم جَهْدًا وعَطَشا!! أو كما قال. فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قل شعرًا نُغنِّيهم به، لا يدرون مَنْ قاله، لعل ذلك أن يحرِّكهم! فقال معاوية بن بكر، حين أشارتا عليه بذلك:

أَلا يَا قَيْلَ، ويْحَكَ! قُمْ فَهَيْنِمْ ... لَعَلَّ اللهَ يُصْبِحُنَا غَمَامَا

فَيَسْقِي أَرْضَ عَادٍ، إنَّ عَادًا ... قَدَ امْسَوا لا يُبِينُونَ الكَلامَا

مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ، فَلَيْسَ نَرْجُو ... بِهِ الشَّيْخَ الكَبِيرَ وَلا الغُلامَا

وَقدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمُ بِخَيْرٍ ... فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمُ عَيَامَى

وَإِنَّ الْوَحْشَ تَأْتِيهِمْ جِهَارًا ... وَلا تَخْشَى لِعَادِيٍّ سِهَامَا

وَأَنْتُمْ هَا هُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ ... نَهَارَكُمُ وَلَيْلَكُمُ التَّمَامَا

فَقُبِّحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ ... وَلا لُقُّوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلامَا

فلما قال معاوية ذلك الشعر، غنتهم به الجرادتان. فلما سمع القوم ما غنَّتا به، قال بعضهم لبعض: يا قوم، إنما بعثكم قومُكم يتعوَّذون بكم من هذا البلاء الذي نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم! فادخلوا هذا الحرمَ واستسقوا لقومكم! فقال لهم مرثد بن سعد بن عفير: إنكم والله لا تُسْقَون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيَّكم، وأنبتم إليه، سُقِيتم! فأظهر إسلامه عند ذلك، فقال لهم جُلْهُمة بن الخيبريّ، خال معاوية بن بكر، حين سمع قوله، وعرف أنه قد اتبع دين هودٍ وآمن به:

أَبَا سَعْدٍ فَإِنَّكَ مِنْ قَبِيلٍ ... ذَوِي كَرَمٍ وَأُمُّكَ مِنْ ثَمُودِ

فَإِنَّا لَنْ نُطِيعَكَ مَا بقِينَا ... وَلَسْنَا فَاعِلِينَ لِمَا تُرِيدُ

أَتَأْمُرنَا لِنَتْرُكَ دِينَ رِفْدٍ ... وَرَمْلَ وَآلَ صُدَّ والعُبُودِ

=

=

وَنَتْرُكَ دِينَ آبَاءٍ كِرَامٍ ذَوِي رَأْيٍ وَنَتْبَعَ دِينَ هُودِ

ثم قالوا لمعاوية بن أبي بكر وأبيه بكرٍ: احبسَا عَنَّا مرثد بن سعد، فلا يقدمنَّ معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود، وترك دينَنَا! ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد. فلما ولَّوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بها، قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا له. فلما انتهى إليهم، قام يدعو الله بمكة، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعُون، يقول: "اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفدُ عاد"! وكان قيل بن عنز رأس وفد عاد. وقال وفد عاد: "اللهمّ أعطِ قَيْلا ما سألك، واجعل سؤلَنا مع سُؤله"! وكان قد تخلّف عن وفد عاد حين دعا، لقمانُ بن عاد، وكان سيِّد عادٍ. حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال: "اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي، فأعطني سؤلي"! وقال قيل بن عنز حين دعا: "يا إلهنا، إن كان هود صادقًا فاسقِنا، فإنّا قد هلكنا"! فأنشأ الله لهم سحائب ثلاثًا: بيضاء، وَحمراء، وسوداء. ثم ناداه منادٍ من السحاب: "يا قيل، اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب". فقال: "اخترت السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماءً"! فناداه منادٍ: "اخترت رَمَادًا، رِمْدِدًا، لا تُبقي مِن آل عاد أحدًا، لا والدًا تترك ولا ولدًا، إلا جعلته هَمِدًا، إلا بني اللُّوذِيّة المُهَدَّى" و"بنو اللوذية"، بنو لقيم بن هزّال بن هزيلة بن بكر، وكانوا سكانًا بمكة مع أخوالهم، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم، فهم عادٌ الآخِرة، ومن كان من نسلهم الذين بقُوا من عاد.

وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكرون، التي اختارها قَيْل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى خرجت عليهم من وادٍ يقال له: "المغيث". فلما رأوها استبشروا بها، وقالوا: {هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}، يقول الله: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف: ٢٤ - ٢٥]، أي: كلّ شيء أُمِرَتْ به. وكان أوّل من أبصر ما فيها وعرف أنها رِيح، فيما يذكرون،

=

امرأة من عاد يقال لها"مَهْدَد".، فلما تيقنت ما فيها صاحت، ثم صَعِقت. فلما أن أفاقت قالوا: ماذا رأيت يا مهدد؟ قالت: رأيتُ ريحًا فيها كشُهُب النار، أمامها رجالٌ يقودُونها! فسخَّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، كما قال الله و"الحسوم"، الدائمة فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك. فاعتزل هُود، فيما ذكر لي، ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه من الريح إلا ما تلين عليهِ الجلود، وتَلتذُّ الأنفس، وإنها لتمرُّ على عاد بالطَّعن بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة. وخرج وفد عاد من مكّة حتى مرُّوا بمعاوية بن بكر وأبيه، فنزلوا عليه. فبينما هم عنده، إذ أقبل رجل على ناقة له في ليلة مقمِرة مُسْيَ ثالثةٍ من مُصاب عادٍ، فأخبرهم الخبر، فقالوا له: أين فارقت هودًا وأصحابه؟ قال: فارقتهم بساحل البحر. فكأنهم شكُّوا فيما حدّثهم به، فقالت هزيلة بنت بكر: صدَق وربِّ الكعبة!".

قال أبو حيان: وفي قوله (أَفَلا تَتَّقُونَ) استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى، ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر في العالم مثلها قال لهم: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها فاكتفى هود بقوله لهم: أَفَلا تَتَّقُونَ. والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا، فقوله: أَفَلا تَتَّقُونَ إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة.

قوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ} [الأعراف: ٦٦]، أي: " قال الكبراء الذين كفروا من قوم هود".

قال أبو مالك: " {الملأ}، يعني: الأشراف من قومه".

قال ابن كثير: " {الملأ}: هم الجمهور والسادة والقادة منهم".

قوله تعالى: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ} [الأعراف: ٦٦]، أي: " إنا لنعلم أنك بدعوتك

=

إيانا إلى ترك عبادة آلهتنا وعبادة الله وحده ناقص العقل".

أي: في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ).

– كان رَدُّ الكفارِ مُتَشَابِهًا لِتَشَابُهِ قلوبِهم في الكفر، كما قال تعالى (تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) فقومُ نوحٍ قالوا له (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ) وقوم هود قالوا له (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ) والسفاهةُ: (فَعَالة) من السَّفَهِ، وأصلُ السفهِ في لغةِ العربِ هو: الخفةُ والطيشُ، فكلُّ شيءٍ خفيف طائش تُسَمِّيهِ العربُ سفهًا.

وهو في الاصطلاحِ المشهورِ: هي خفةُ العقلِ وطيشُ الْحِلْمِ، بحيث يكونُ السفيهُ لا يهتدي إلى مصالِحه، ولا يعرفُ مضارَّه من مصالِحه، لا يميزُ بينَ الضارِّ والنافعِ، ولا الحسنِ ولاَ القبيحِ لِخِفَّةِ عقلِه وطيشِه وعدمِ رجاحتِه، ولذا كان السفيهُ يجبُ التحجيرُ عليه، وجَعْلُ مالِه تحتَ يَدَيْ وَلِيٍّ يحفظُ له مالَه.

– وفي موضع آخر ذكر الله عنهم أنهم قالوا (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ).

– والسخرية والاستهزاء سنة ماضية من قِبل أعداء الإسلام لأهله، فقد سخر واستهزأ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْكُفَّارَ اسْتَهْزَءُوا بِرُسُلٍ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ وَأَنَّهُمْ حَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلَمْ يُفَصِّلْ هُنَا كَيْفِيَّةَ اسْتِهْزَائِهِمْ، وَلَا كَيْفِيَّةَ الْعَذَابِ الَّذِي أُهْلِكُوا بِهِ، وَلَكِنَّهُ فَصَّلَ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، فِي ذِكْرِ نُوحٍ

=

وَقَوْمِهِ، وَهُودٍ وَقَوْمِهِ، وَصَالِحٍ وَقَوْمِهِ، وَلُوطٍ وَقَوْمِهِ، وَشُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

فَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِنُوحٍ قَوْلُهُمْ لَهُ (بَعْدَ أَنْ كُنْتَ نَبِيًّا صِرْتَ نَجَّارًا).

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِهُودٍ مَا ذَكَرَهُ اللهُ عَنْهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ).

وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ أَيْضًا (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ الْآيَةَ).

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ..)، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِصَالِحٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا ذَكَرَ اللهُ عَنْهُمْ (يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

وَقَوْلُهُمْ (يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا..) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِلُوطٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللهُ عَنْهُمْ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ...) وَقَوْلُهُمْ لَهُ أَيْضًا (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِشُعَيْبٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللهُ عَنْهُمْ (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) وَذَكَرَ

=

=

مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وَنَحْوِهَا مِنَ الْآيَاتِ.

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ).

قال الطبري: "يعنون: في ضلالة عن الحق والصواب".

قال ابن كثير: " أي: في ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد} فقالوا} } أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥]".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [الأعراف: ٦٦]، أي: " وإنا لنعتقد أنك من الكاذبين على الله فيما تقول".

قال الطبري: أي: " في قيلك: إني رسول من رب العالمين".

قال الحسن: " كان تكذيبهم إياه على الظن لا على اليقين".

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ} [الأعراف: ٦٧]، أي: " قال هود: يا قوم ليس بي نقص في عقلي".

أي: ليست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه.

قال الرازي: قوله تعالى (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ) فهو لم يقابل سفاهتهم بالسفاهة بل قابلها بالحلم والإغضاء ولم يزد على قوله (لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ) وذلك يدل على أن ترك الانتقام أولى كما قال (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرامًا).

وقال ابن الجوزي: (قال يا قوم ليس بي سَفاهة) هذا موضع أدب للخلق في حسن المخاطبة، فانه دفع ما سبُّوه به من السفاهة بنفيه فقط.

قال ابن كثير: " أي: ليست كما تزعمون".

=

=

قال الطبري: أي: " [ليس فيّ ضلالة] عن الحق والصواب".

قوله تعالى: {وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٦٧]، أي: " ولكني رسول إليكم من رب الخلق أجمعين".

قال الطبري: أي: " أرسلني".

قال ابن كثير: أي: " بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه".

واختُلِف في "العالم"، على أقوال:

أحدها: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا قول أبي إسحاق الزجَّاج، وقتادة، ومجاهد، وابن عباس في رواية الضحاك عنه.

قال الثعلبي: "واحتجوا بقوله: {قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا} [الشعراء:٢٣ - ٢٤]".

الثاني: أنّه الإنس، والجنِّ، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن جريج، ومقاتل بن سليمان.

ودليلهم قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، ولم يكن نذيرا للبهائم.

كما ويقوي هذا القول، جمع الكلمة على (عالمون)، وهو جمع لايكون إلا مع العاقل! فيكون هذا دليلا على أن الحديث عن عوالم عاقلة.

الثالث: أن العالم: الدنيا وما فيها.

الرابع: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦٥]، أي: من الناس، وقال العجّاج:

فَخِنْدِفٌ هامَةُ هَذَا العَالَمِ ... مبارك للأنبياء خاتم

وقال جرير بن الخطفى:

=

=

تنصفه البرية وهو سام ويضحي العالمون له عيالا

الخامس: أن العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم: عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. وهذا قول الفراء وأبي عبيدة.

السادس: أن العالمين، أي: المخلوقين. قاله أبو عبيدة، وأنشد قول لبيد بن ربيعة:

ما إن رأيت ولا سمعـ ـتُ بمثلهم في العالمينا

السابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيّون، وابن قتيبة، وهو معنى قول ابن عباس كذلك: "كل ذي روح دبّ على وجه الأرض".

الثامن: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق.

قال الشنقيطي: " لم يبين هنا ما (العالمون)، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [الشعراء:٢٣ - ٢٤]".

والظاهر أن} العالَمين} : جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و (العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و (العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم. والله أعلم.

واختلفوا في اشتقاقه على وجهين:

أحدهما: أنه مشتق من العلم، وهذا تأويل مَنْ جعل العالم اسمًا لما يعقل.

والثاني: أنه مشتق من العلامة، لأنه دلالة على خالقه، وهذا تأويل مَنْ جعل العالم اسمًا لكُلِّ مخلوقٍ.

قال الخليل: "العلم والعلامة والمعلم: ما دل على الشيء، فالعالم دال على أن له خالقا ومدبرا"، وقد ذكر أن رجلا قال بين يدي الجنيد: الحمد لله، فقال له: أتمها

=

=

كما قال الله قل رب العالمين فقال الرجل: ومن العالمين حتى تذكر مع الحق؟ قال: قل يا أخي؟ فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر.

واختلفوا في مبلغ «العالمين» وكيفيتهم، على قولين:

أحدهما: أن الإنس عالم، والجن عالم، وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم، أو أربعة عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض، والأرض أربع زوايا في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته. قاله أبو العالية.

عن أبي العالية في قوله: " {رب العالمين}، قال: الجن عالم، والإنس عالم وسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة، وعلى الأرض في كل زاوية منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته تبارك وتعالى".

وهذه الأخبار ليست دقيقة، قال ابن كثير بعد أن أورد قول أبي العالية: "وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح". وهذا حق.

الثاني: أن «العالمين»: ألف أمة ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وهذا قول تبيع.

وقال كعب الأحبار: "لا يحصي عدد العالمين إلّا الله، قال الله: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المثر:٣١]".

قال أبو حيان: "ونقل عن المتقدمين أعداد مختلفة في العالمين وفي مقارها، الله أعلم بالصحيح".

قوله تعالى: {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي} [الأعراف: ٦٨]، أي: " أُبلِّغكم ما أرسلني به ربي إليكم".

قال الطبري: أي: "فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤدّيها إليكم كما أمرني أن أؤدِّيَها".

وهكذا الأنبياء إنما عليهم البلاغ والإنذار كما قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ أنه قال (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ

=

=

نَذِيرٌ مُبِينٌ). وقال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ). وقال تعالى (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ).

قال محمد بن إسحاق: " كان من حديث نوح وحديث قومه مما يذكر أهل العلم أنه كان حليما صبورا لم يلق نبي من قومه من البلايا أكثر مما لقي إلا نبي قتل وكان يدعوهم كما قال الله: ليلا ونهارا، سرا وجهارا بالنصيحة لهم، فلم يزدهم ذلك منه إلا فرارا، حتى إنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه، ويجعل أصابعه في أذنيه لئلا يسمع شيئا من قوله".

قال السدي: " فأتاهم يعني هودا فوعظهم وذكرهم بما قص الله في كتابه فكذبوه وكفروا، وسألوه أن يأتيهم بالعذاب فقال لهم: إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به".

قوله تعالى: {وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [الأعراف: ٦٨]، أي: " وأنا لكم - فيما دعوتكم إليه من توحيد الله والعمل بشريعته - ناصح، أمين على وحي الله تعالى".

والنصح: وهو عدم الغش والخداع، وكُلُّ خالصٍ لا شائبةَ فيه يُسَمِّيهِ العربُ (ناصحًا) والناصحُ: هو السالمُ من جميعِ الغشِّ والخديعةِ.

ومن النصح أن لا يأخذ على دعوته أجرًا، ولهذا قال تعالى عن هود في موضع آخر (يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ).

قال تَعَالَى عَنْ رُسُلِ الْقَرْيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي «يس» (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا الْآيَة).

- قال ابن عاشور: وأُتبع (ناصح) بـ (آمين) وهو الموصوف بالأمانة لردّ قولهم له (لنظنّك من الكاذبين) لأنّ الأمين هو الموصوف بالأمانة، والأمانة حالة في الإنسان تبعثه على حفظ ما يجب عليه من حقّ لغيره، وتمنعه من إضاعته، أو جعله لنفع نفسه، وضدّها الخيانة.

=

=

والأمانةُ من أعزّ أوصاف البشر، وهي من أخلاق المسلمين، وفي الحديث (لاَ إيمَانَ لِمَنْ لاَ أمان له) وفي الحديث (إنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرّجال ثم عَلِمُوا من القرآن ثمّ عَلِمُوا من السُّنَّة ثمّ قال يَنام الرجل النّومة فتقبض الأمانة من قلبه إلى أن قال فيقال: إنّ في بني فلان رَجُلًا أمينًا ويقال للرّجل ما أعْقَلَه وما أظرفه وما أجْلَده وما في قلبه مثقالُ حبّة من خَرْدَلٍ من إيمان) فذَكَر الإيمان في موضع الأمانة.

قال الطبري: "يقول: وأنا لكم في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله، ناصحٌ، فاقبلوا نصيحتي، فإني أمين على وحي الله، وعلى ما ائتمنني الله عليه من الرسالة، لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبدِّل، بل أبلغ ما أمرت كما أمرت".

قال ابن كثير: " وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة".

قال الضحاك: "{وأَنا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ}، أمينٌ على الرسالة".

قال الكلبي: " {وأَنا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ}، كنتُ فيكم قبل اليوم أمينًا".

قوله تعالى: {أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ} [الأعراف: ٦٩]، أي: " وهل أثار عجبكم أن أنزل الله تعالى إليكم ما يذكركم بما فيه الخير لكم، على لسان رجل منكم، تعرفون نسبه وصدقه، ليخوِّفكم بأس الله وعقابه؟ فلا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم".

قال الطبري: "يقول: أوعجبتم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة، على رجل منكم لينذركم بأس الله ويخوّفكم عقابه".

قال ابن كثير: " أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم".

=

=

قال أبو السعود: قوله تعالى (لِيُنذِرَكُمْ) أي: يحذرَكم عاقبةَ ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي.

قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ} [الأعراف: ٦٩]، أي: " واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم تخلفون في الأرض مَن قبلكم من بعد ما أهلك قوم نوح".

قال السدي: " يقول: ذهب بقوم نوح، واستخلفكم من بعدهم".

قال محمد بن إسحاق: " أي: ساكني الأرض بعد قوم نوح".

قال ابن كثير: " أي: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه".

قال الطبري: "يقول: فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا ما حلّ بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لمّا أهلكهم أبدلكم منهم فيها، فاتقوا الله أن يحلّ بكم نظير ما حل بهم من العقوبة، فيهلككم ويبدل منكم غيركم، سنَّته في قوم نوح قبلكم، على معصيتكم إياه وكفركم به".

قال القرطبي: "منّ عليهم بأن جعلهم سُكَّان الأرض بعد قوم نوح".

قال ابن الجوزي: "ذكَّرهم النعمة حيث أهلكَ من كان قبلهم، وأسكنهم مساكنهم".

قوله تعالى: {وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [الأعراف: ٦٩]، أي: " وزاد في أجسامكم قوة وضخامة".

قال الواحدي: أي: " فضيلةً في الطُّول".

قال ابن كثير: " أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى: في قصة طالوت: {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ}

=

=

[البقرة: ٢٤٧]".

قال الأخفش: " أي: انبساطا".

قال الطبري: " زاد في أجسامكم طولا وعِظَمًا على أجسام قوم نوح، وفي قواكم على قواهم، نعمة منه بذلك عليكم".

قال السمعاني: " أراد به: البسطة في الطول".

قال البغوي: " أي: طولا وقوة".

وفي قوله تعالى: {وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [الأعراف: ٦٩]، وجهان:

أحدهما: في القوة، قاله السدي، ابن زيد.

وقال ابن عباس: "شدة".

والثاني: بسط البدن وطول الجسد، وهذا مروي عن السدي أيضا.

قال الزجاج: " في التفسير أنه كان أقصرهم، طوله ستون ذراعا وأطولهم مائة ذراع".

قال الماوردي: "قيل: إنه كان أقصرهم طولًا اثني عشر ذراعًا".

وقرأ نافع: «بصطة».

والبسطُ: أصلُه الزيادةُ. والمعنَى: زَادَكُمْ في خلقِ أجسامِكم بسطةً، أي: زيادةً على خَلْقِ الناسِ في الطولِ وَعِظَمِ الأبدانِ وقوتِها وبدانتِها، قولُ بعضِ العلماءِ: إنهم - قَبَّحَهُمُ اللهُ - زعموا أنه لا يمكنُ أن نقهرَهم قوةً ولو قوةَ اللهِ، كما يأتي قولُ مَنْ قال بذلك في قولِه (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) مَنْ هو الذي يكونُ أشدَّ منا قوةً حتى يقهرنا؟ ثم إن اللهَ بَيَّنَ أن اللهَ الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوةً. وَلَمَّا أرسلَ عليهم الريحَ العقيمَ علموا أنهم ضعافٌ غايةَ الضعفِ إذا جاءتهم قوةُ رَبِّ العالمين التي يهلكهم بها ويسلطها عليهم، وهذا معنَى قولِه (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً).

=

=

- قال في الوسيط: أي زادكم في المخلوقات بسطة وسعة في الملك والحضارة، أو زادكم بسطة في قوة أبدانكم وضخامة أجسامكم، ومن حق هذا الاستخلاف وتلك القوة، أن تقابلا بالشكر لله رب العالمين.

وقد ذكر بعض المفسرين روايات تتعلق بضخامة أجسام قوم هود وقوتهم وهي روايات ضعيفة لا يعتد بها، ولذا أضربنا عنها، ويكفينا أن القرآن الكريم قد أشار إلى قوتهم وجبروتهم بدون تفصيل لذلك كما في قوله تعالى (وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) وكما في قوله (كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَة).

قوله تعالى: {فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ} [الأعراف: ٦٩].

أي: فاذكروا نعم الله من الصحة والعافية وقوة الأبدان، وما يسر لهم من الأرزاق والرفاهية في الدنيا، واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم وزيادتها لهم، ولن تكونوا كذلك إلا بعبادتكم له وحده- ﷻ-.

قال قتادة: " أي: نعم الله". وروي عن السدي، وابن زيد مثله.

قال الطبري: " فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقُوَاكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأنداد".

قال ابن كثير: " {آلاءَ اللهِ}، أي: نعمه ومنَنه عليكم".

و «آلاء الله»، معناه: نعم الله، واحدها: «إلى»، قال الشاعر:

أَبْيَضُ لاَ يَرْهَبُ الهزَالَ وَلاَ ... يَقْطَعُ رَحِمًا وَلاَ يَخُونُ إِلَى

قال ابن عطية: " وقيل واحد الآلاء «ألا»".

وفي "تهذيب اللغة": "و «الآلاء»: النعم واحدتها إِلْيُ، وأَلْيُ، وأبو، وأَلَى، وإِلَى".

وهي جمع مفرده: "إلى" بكسر الهمزة وسكون اللام، كحِمْل وأحمال، أو "أُلي": بضم الهمزة وسكون اللام كقفل وأقفال، أو "إلى": بكسر الهمزة وفتح اللام

=

كضلع وأضلاع وعنب وأعناب، أو "ألى": بفتحها كقَفَا وأقفاء.

ومن ما قال لهم أيضًا (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) قوله تعالى (فَاذْكُرُوا آلاء اللهِ) عمومًا، باللسان ثناء وحمدًا، وبالقلب اعترافًا وإقرارًا، وبالأركان بصرفها في طاعة الله.

أي: اذكروا باللسان وبالقلب والجوارح، نعمة الله عليكم حتى تقوموا بشكرها، فإن الغفلة عن ذكر النعم سبب لعدم الشكر.

وذكرهم بالنعم لأمرين:

الأول: أن كثرة النعم توجب عظم المعصية فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليه من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن.

والثاني: أن تذكير النعم الكثيرة يوجب الحياء عن إظهار المخالفة.

- قال ابن عاشور: وإنّما أمرهم بالذّكر (بضمّ الذّال) لأنّ النّفس تنسى النّعم فتكفر المنعم، فإذا تذكّرت النّعمة رأتْ حقًا عليها أن تشكر المُنعم.

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأعراف: ٦٩]، أي: "رجاء أن تفوزوا الفوز العظيم في الدنيا والآخرة".

قال الطبري: " يقول: كي تفلحوا فتدركوا الخلود والبقاء في النعم في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده".

قال ابن عطية: " {تفلحون}: معناه تدركون البغية والآمال".

قال الواحدي: أي: " كي تسعدوا وتبقوا في الجنَّة".

والفلاح في لغة العرب يطلق إطلاقين مشهورين:

الإطلاق الأول: أن العرب تقول (أفلح فلان) إذا فاز بمطلوبه الأكبر، فكل إنسان كان يحاول مطلوبًا أعظم ثم ظفر به وفاز بما كان يرجو فهذا قد أفلح.

=

الإطلاق الثاني: أن المراد بالفلاح: الدوام والبقاء السرمدي في النعيم، فكل من كان له دوام وبقاء في النعيم تقول العرب (نال الفلاح).

- قال ابن عاشور: ورتب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا لأنّ ذكر النّعم يؤدّي إلى تكرير شكر المنعم، فيحمِل المنعم عليه على مقابلة النّعم بالطّاعة.

قال السعدي: فوعظهم وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم اللّه كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم اللّه عليهم وإدرار الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا ولا استجابوا.

قوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [الأعراف: ٧٠]، أي: " أي أجئتنا يا هود تتوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي ورثنا عبادتها عن آبائنا؟".

لما نصحَ نَبِيُّ اللهِ هودٌ قومَه هذا النصحَ الكريمَ، وذكَّرهم بآلاءِ اللهِ وَنِعَمَهُ، وأشارَ لهم إلى أن اللهَ أَهْلَكَ مَنْ كان قبلَهم لَمَّا عَصَوْا وتمردوا، وكان قد خَوَّفَهُمْ قبلَ هذا وهددهم بأنهم إن لم يؤمنوا باللهِ أَهْلَكَهُمُ اللهُ وَعَذَّبَهُمْ، قالوا له هذا الجوابَ الخبيثَ الذي هو في غايةِ الخبثِ وبذاءةِ اللسانِ والعتوِّ والتمردِ على اللهِ (قَالُوا) أي: قال: قومُ هودٍ لهود (أَجِئْتَنَا) يا هودُ بهذه الدعوى التي جئتَ بها، وَالدِّينِ الذي تَزْعُمُ وتدعو إليه لِتَصْرِفَنَا عن آلهتِنا التي كنا نعبدها (لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ) نعبد إِلَهًا واحدًا لا نشرك به شيئًا آخَرَ من الآلهةِ (وَنَذَرَ) أي: ونتركَ (مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) من الآلهةِ.

قال أبو حيان: قوله تعالى (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده...) الظاهر أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا الله بالعبادة مع اعترافهم بالله حبًّا لما نشؤوا عليه وتآلفًا لما وجدوا آباءهم عليه ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم (لنعبد الله وحده) أي على قولك يا هود ودعواك قاله ابن عطية، وقال التأويل الأوّل أظهر

=

=

فيهم وفي عباد الأوثان ولا يجحد ربوبية الله من الكفرة إلا من ادّعاها لنفسه كفرعون ونمرود.

قال الطبري: يقول: " أجئتنا تتوعَّدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة خالصًا، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي كان آباؤنا يعبدونها، ونتبرَّأ منها؟".

قوله تعالى: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف: ٧٠]، أي: " فأتنا بالعذاب الذي تخوفنا به إن كنت من أهل الصدق فيما تقول".

قال البغوي: أي: " من العذاب".

قال الطبري: يقول: " فلسنا فاعِلي ذلك، ولا نحن متبعوك على ما تدعونا إليه، فأتنا بما تعدنا من العقابِ والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه مِنَ الأوثان إن كنت من أهل الصدق على ما تقول وتعِد".

قال قتادة: " الصدق في النية والصدق في العمل، والصدق في الليل والنهار، والصدق في السر والعلانية".

وقوله (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) كما قال الكفار من قريش (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

- ودائمًا الكفار يستعجلون العذاب استبعادًا منهم له.

كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ).

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ).

وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ).

وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).

وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ).

=

=

وقال تعالى عن قوم هود (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

- وهذا يدل على أنه كان يتوعدهم بالعذاب من الله. إذا استمروا على شركهم، ويدل- أيضًا- على تصميمهم على الكفر، واحتقارهم لأمر هود - عليه السلام - واستعجالهم إياه بالعقوبة على سبيل التحدي، لأنهم كانوا يتوهمون أن العقوبة لن تقع عليهم أبدًا.

قوله تعالى: {قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ} [الأعراف: ٧١].

أي: قال هود لقومه بعد أن لجوا في طغيانهم: قد حق ووجب عليكم من قبل ربكم عذاب وسخط بسبب إصراركم على الكفر والعناد.

الرجز هنا العذاب، والمعنى وقع عليكم عذاب وغضب من ربكم.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: قال هود لقومه: قد حَلَّ بكم عذَابٌ وغضبٌ من الله".

عن ابن عباس، قوله: "{قد وقع عليكم من ربكم رجس}، يقول: سَخَط".

قال ابن زيد: " جاءهم منهم عذاب وغضب، قال: سمي الرجس -هاهنا-: عذاب، وقال: الرجس كله، عذاب في القرآن".

قال ابن عطية: أعلمهم بأن القضاء قد نفذ وحل عليهم الرجس وهو السخط والعذاب.

قال ابن عاشور: والجمهور فسّروا الرّجس هنا بالعذاب.

وعبر عن العذاب المتوقع وقوعه بأنه قَدْ وَقَعَ مبالغة في تحقيق الوقوع، وأنه أمر لا مفر لهم منه.

وعطف الغضب على الرجس، للإشارة إلى ما سينزل بهم من عذاب هو انتقام لا يمكن دفعه، لأنه صادر من الله الذي غضب عليهم بسبب كفرهم، وبعد أن

=

=

أنذرهم هددهم بوقوع العذاب عليهم، ووبخهم على مجادلتهم إياه بدون علم.

قوله تعالى: {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ} [الأعراف: ٧١].

أي: أتجادلوني وتخاصموني في شأن أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات، لأنكم تسمونها آلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدوم ومحال وجوده إذ المستحق للعبادة إنما هو الله الذي خلق كل شيء، أما هذه الأصنام التي زعمتم أنها آلهة فهي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا.

فأنت ترى أن هودًا- عَلَيْهِ السَّلَامُ- قد حول آلهتهم إلى مجرد أسماء لا تبلغ أن تكون شيئًا وراء الاسم الذي يطلق عليها، وهذا أعمق في الإنكار عليهم، والاستهزاء بعقولهم.

قال الطبري: " يقول: أتخاصمونني في أسماء سمَّيتموها أصنامًا لا تضر ولا تنفع".

قال القرطبي: " وهذه الأسماء مثل العزى من العز والأعز واللات، وليس لها من العز والإلهية شيء".

قال الواحدي: " كانت لهم أصنام سمَّوها أسماءً مختلفةً فلمَّا دعاهم الرَّسول إلى التَّوحيد استنكروا عبادة الله وحده".

قال الزمخشري: أي: " في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات، لأنكم تسمونها آلهة. ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده... ومعنى {سميتموها}: سميتم بها من: سميته زيدا".

قال البغوي: {سَمَّيْتُمُوهَا}، أي: " وضعتموها".

قال ابن عطية: " فالجدل إنما وقع في التسميات لا في المسميات، لكنه ورد في القرآن ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم [يوسف: ٤٠] فهنا لا يريد إلا ذوات الأصنام، فالاسم إنما يراد به المسمى نفسه.

=

=

ومن رأى أن الجدل في هذه الآية إنما وقع في أنفس الأصنام وعبادتها تأول هذا التأويل، والاسم يرد في كلام العرب بمعنى التسمية وهذا بابه الذي استعمله به النحويون، وقد يراد به المسمى ويدل عليه ما قاربه من القول، من ذلك قوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: ١] وقوله: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ} [الرحمن: ٧٨] على أن هذا يتأول، ومنه قول لبيد:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُما وَمَنْ يَبْكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدِ اعْتَذَرْ"

قوله تعالى: {مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [الأعراف: ٧١].

أي: من عبادتها واستحقاقها للعبادة (مِن سُلْطَانٍ) أي: حجة واضحة، بل أنزل الله من الحجج القاطعة منع عبادتها وكفر عابدها.

- إن من يستحق العبادة هومن يخلق، من يبصر ويسمع وينفع ويضر.

قال تعالى (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

- ففيها أن المستحق للعبادة هو من يخلق، أما من هو عاجز عن الخلق فلا يستحق أن يكون معبودًا، وقد جرت العادة في القرآن الكريم في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق به هو الخلق والإبراز من العدم إلى الوجود، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود، ويوجدكم بعد أن كنتم عدمًا هو هذا ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم.

=

=

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ).

وقال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ).

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ).

- قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم، كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)، وقيل: ليذكرهم بذلك نعمته عليهم.

وقال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا).

فقوله (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا) أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضررًا.

قال بعض العلماء: لقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، وأقوم سبيل، واحتج عليه أبدع احتجاج، بحسن أدب وخلق جميل، لئلا يركب متن المكابرة والعناد.

فإذا كان المعبود لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عابده شيئًا فما الفائدة من عبادته؟؟ وهو أنقص وأعجز ممن عبده! وهذا من أقوى الأدلة على بطلان هذه العبادة.

قال مقاتل: " يعني: من كتاب لكم فيه حجة بأن معه شريكا".

قال الطبري: " يقول: ما جعل الله لكم في عبادتكم إياها من حجة تحتجُّون بها، ولا معذرة تعتذرون بها، لأن العبادة إنما هي لمن ضرَّ ونفع، وأثابَ على الطاعة وعاقب على المعصية، ورزق ومنَع. فأما الجماد من الحجارة والحديد

=

=

والنحاس، فإنه لا نفع فيه ولا ضرّ، إلا أن تتخذ منه آلةً، ولا حجة لعابد عبده من دون الله في عبادته إياه، لأن الله لم يأذن بذلك، فيعتذر من عبدَه بأنه يعبده اتباعًا منه أمرَ الله في عبادته إياه. ولا هو إذ كان الله لم يأذن في عبادته مما يرجى نفعه، أو يخاف ضرّه، في عاجل أو آجل، فيعبد رجَاء نفعه، أو دفع ضره".

عن ابن عباس، وأبي مالك، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنضر بن عربي: " كل سلطان في القرآن حجة".

قوله تعالى: {فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} [الأعراف: ٧١]، أي: " فانتظروا نزول العذاب عليكم فإني منتظر معكم نزول".

وفي هذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه.

قال مقاتل: " {فانتظروا} العذاب، {إني معكم من المنتظرين} بكم العذاب".

قال الطبري: " يقول: فانتظروا حكمَ الله فينا وفيكم، {إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} حكمَه وفصل قضائه فينا وفيكم".

قال ابن عطية: " وقوله {فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} الآية وعيد وتهديد".

قوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا} [الأعراف: ٧٢]، أي: " فوقع عذاب الله بإرسال الريح الشديدة عليهم، فأنجى الله هودًا والذين آمنوا معه برحمة عظيمة منه تعالى".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فأنجينا نوحًا والذين معه من أتباعه على الإيمان به والتصديق به وبما دعَا إليه، من توحيد الله، وهجر الآلهة والأوثان".

قال أبو الليث: " {برحمة منا}، يعني: بنعمة منا عليهم".

قال السعدي: " فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سببا ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته".

قوله تعالى: {وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف: ٧٢]، أي: " وأهلك

=

=

الكفار من قومه جميعا ودمَّرهم عن آخرهم".

قال الطبري: " يقول: وأهلكنا الذين كذَّبوا من قوم هود بحججنا جميعًا عن آخرهم، فلم نبق منهم أحدًا".

قال أبو الليث: " أي: قطع أصلهم واستأصلهم".

قال الثعلبي: " أي: استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم".

قال السمعاني: " أي: قطعنا أصلهم، واستأصلناهم بالعذاب".

قال البيضاوي: " «الدابر»، الأصل أو الكائين خلف الشئ، و «قطع دابرهم»: استضالهم وتدميرهم عن آخرهم".

قال السعدي: " أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحدا، وسلط الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت عليهم الحجج، فلم ينقادوا لها، وأمروا بالإيمان فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والخزي والفضيحة".

عن ابن زيد، في قوله: "{وقطعنا دابرَ الذين كذبوا بآياتنا}، قال: استأصلناهم".

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٧٢]، أي: " وما كانوا مؤمنين لجمعهم بين التكذيب بآيات الله وترك العمل الصالح".

قال الطبري: " يقول: لم يكونوا مصَدّقين بالله ولا برسوله هود".

قال أبو الليث: " يعني: أن الذين أهلكهم الله تعالى كلهم كانوا كافرين".

قال البيضاوي: " فائدة نفى الإيمان عنهم مع إثابت التكذيب بآيات الله الإشعار بأن الهلاك خص المكذبين".

قال ابن عاشور: قوله تعالى (فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا) قيل: إنّ الله تعالى أمر هودًا ومن معه بالهجرة إلى مكّة قبل أن يحلّ العذاب بعادٍ، وإنّه توفي هنالك

=

=

ودفن في الحِجْر ولا أحسب هذا ثابتًا لأنّ مكّة إنّما بناها إبراهيم وظاهر القرآن في سورة هود أنّ بين عاد وإبراهيم زمنًا طويلًا، والأظهر أنّها بالأمر بالهجرة إلى مكان بعيد عن العذاب، وروي عن عليّ أنّ قَبْر هود بحضر موت وهذا أقرب.

وقد ذكر الله، سبحانه، صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم.

فقال تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ).

وقال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ).

وقال تعالى (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ).

وقال تعالى (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ).

(رِيحًا صَرْصَرًا) أي: ريحًا شديدة البرودة، شديدة الصوت. وهي الريح العقيم التي لا نفع فيها كما قال تعالى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ).

(العقيم) التي لا تنتج خيرًا.

(كالرميم) أي: كالشيء البالي الفاني.

(سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) سبع ليال وثمانية أيام حسومًا: أي متتابعات بلا انقطاع مشؤومات نحسات.

(كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَة) أي: كأنهم جذوع وسيقان النخل التي قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض

=

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣).

{و} أَرْسَلْنَا {إِلَى ثَمُود} بِتَرْكِ الصَّرْف مُرَادًا بِهِ الْقَبِيلَة {أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْم اُعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إلَه غَيْره قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَة} مُعْجِزَة {مِنْ رَبّكُمْ} عَلَى صِدْقِي {هَذِهِ نَاقَة الله لَكُمْ آيَة} حَال عَامِلهَا مَعْنَى الْإِشَارَة وَكَانُوا سَأَلُوهُ أَنْ يُخْرِجهَا لَهُمْ مِنْ صَخْرَة عَيَّنُوهَا {فَذَرُوهَا تَأْكُل فِي أَرْض الله وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ} بِعَقْرٍ أَوْ ضرب {فيأخذكم عذاب أليم}.

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤).

{وَاذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء} فِي الْأَرْض {مِنْ بَعْد عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ} أَسْكَنَكُمْ {فِي الْأَرْض تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولهَا قُصُورًا} تَسْكُنُونَهَا فِي الصَّيْف {وَتَنْحِتُونَ الْجِبَال بُيُوتًا} تَسْكُنُونَهَا فِي الشِّتَاء وَنَصَبَهُ عَلَى الحال المقدرة {فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين}.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥).

{قَالَ الْمَلَأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمه} تَكَبَّرُوا عَنْ الْإِيمَان بِهِ {لِلَّذِينَ

=

- (خاوية) ميتة منقلعة من منابتها هامدة ساقطة على الأرض فهم أجساد بلا رؤوس.

أُسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ} أَيْ مِنْ قَوْمه بَدَل مِمَّا قَبْله بِإِعَادَةِ الْجَار {أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَل مِنْ ربه} إليكم {قالوا} نعم {إنا بما أرسل به مؤمنون}.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦).

{قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون}.

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧).

وَكَانَتْ النَّاقَة لَهَا يَوْم فِي الْمَاء وَلَهُمْ يَوْم فَمَلُّوا ذَلِكَ {فَعَقَرُوا النَّاقَة} عَقَرَهَا قَدَّار بِأَمْرِهِمْ بِأَنْ قَتَلَهَا بِالسَّيْفِ {وَعَتَوْا عَنْ أَمْر رَبّهمْ وَقَالُوا يَا صَالِح ائْتِنَا بِمَا تَعِدنَا} به من العذاب على قتلها {إن كنت من المرسلين}.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨).

{فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَة} الزَّلْزَلَة الشَّدِيدَة مِنْ الْأَرْض وَالصَّيْحَة مِنْ السَّمَاء {فَأَصْبَحُوا فِي دَارهمْ جَاثِمِينَ} بَارِكِينِ عَلَى الرُّكَب ميتين.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩).

{فتولى} أعرض صالح {عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين[1]}.

---

(١) قوله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا} [الأعراف: ٧٣] أي: نبيًا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد.

- وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى =

=

تبوك سنة تسع.

قال تعالى (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ).

قال الطبري: أي: " وإلى بني ثمود أخاهم صالحًا، و"ثمود"، هو ثمود بن غاثر بن إرم بن سام بن نوح، وهو أخو جَدِيس بن غاثر، وكانت مساكنهما الحِجْر، بين الحجاز والشأم، إلى وادي القُرَى وما حوله".

عن ابن عباس: "أن صالحا النبي ﷺ بعثه الله إلى قومه فآمنوا به، ثم إنه مات فرجعوا بعده، عن الإسلام، فأحيا الله صالحا وبعثه إليهم فأخبرهم أنه صالح فكذبوه وقالوا: قد مات صالح فأتنا بآية فأتاهم الله بالناقة فكفروا به وعقروها فأهلكهم الله".

قال السدي: " إن الله بعث صالحا إلى ثمود فدعاهم فكذبوا، فقال لهم ما ذكر الله في القرآن".

قال الرازي: قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثمودًا لقلة مائها من الثمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى، وقيل سميت ثمود لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام -.

عن ابْنَ عُمَرَ قَالَ (مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى الْحِجْرِ فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ». ثُمَّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ حَتَّى خَلَّفَهَا.

قوله تعالى: {قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٧٣]، أي: " فقال صالح لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده؛ ليس لكم من إله يستحق العبادة غيره جل وعلا، فأخلصوا له العبادة".

قال الطبري: " يقول: قال صالح لثمود: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، فما

=

=

لكم إله يجوزُ لكم أن تعبدوه غيره".

قال محمد بن إسحاق: " فلما أهلك الله عادا، وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها فاستخلفوا في الأرض فربلوا فيها وانتشروا، ثم عتوا على الله، فلما ظهر فسادهم، وعبدوا غير الله، بعث الله إليهم صالحا، وكانوا قوما عربا، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا رسولا. وكانت منازلهم الحجر إلى قزح وهو وادي القرى وبين ذلك ثمانية عشر ميلا فيما بين الحجاز والشام، فبعث الله إليهم غلاما شابا فدعاهم إلى الله حتى شمط وكبر لا يتبعه منهم أحد إلا قليل مستضعفون".

قال ابن عاشور: "يدلّ على أنّ ثمود كانوا مشركين، وقد صُرح بذلك في آيات سورة هود وغيرها، والظّاهر أنّهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد، لأنّ ثمود وعادًا أبناء نسب واحد، فيشبه أن تكون عقائدهم متماثلة".

قوله تعالى: {قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأعراف: ٧٣].

أي: خارق من خوارق العادات، التي لا تكون إلا آية سماوية لا يقدر الناس عليها.

قال ابن عاشور: "والبيّنة: الحجّة على صدق الدّعوى، فهي ترادف الآية".

قال الصابوني: أي: " معجزة ظاهرة جلية تدل على صحة نبوتي".

قال الطبري: " وقد جاءتكم حُجَّة وبرهان على صدق ما أقول، وحقيقة ما إليه أدعو، من إخلاص التوحيد لله، وإفراده بالعبادة دون ما سواه، وتصديقي على أني له رسول".

قوله تعالى: {هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً} [الأعراف: ٧٣]، أي: " هذه الناقة معجزتي إليكم".

قال الطبري: يقول" وبيِّنتي على ما أقول وحقيقة ما جئتكم به من عند ربي، وحجتي عليه، هذه الناقة التي أخرجها الله من هذه الهَضْبة، دليلا على نبوّتي

=

=

وصدق مقالتي، فقد علمتم أن ذلك من المعجزات التي لا يقدر على مثلها أحدٌ إلا الله، وإنما استشهد صالح، فيما بلغني، على صحة نبوّته عند قومه ثمود بالناقة، لأنهم سألُوه إياها آيةً ودلالة على حقيقةِ قوله".

قال ابن الأنباري: "وهي آية لهم ولغيرهم، ولكنهم اقترحوها، فخصوا بها، وإن كانت فيها عبرة لجميع الخلق، وكانت هذه الناقة آية من بين سائر النوق؛ لأنها خرجت من حجر صلدٍ بمخض واضطراب كاضطراب المرأة عند الولادة".

قال القرطبي: " أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد، فكان لها يوم تشرب فيه ماء الوادي كله، وتسقيهم مثله لبنا لم يشرب قط ألذ وأحلى منه. وكان بقدر حاجتهم على كرتهم، قال الله تعالى: {لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الشعراء: ١٥٥]. وأضيفت الناقة إلى الله ﷻ على جهة إضافة الخلق إلى الخالق. وفيه معنى التشريف والتخصيص".

وقال ابن عطية: "قال الجمهور: كانت الناقة مقترحة، وهذا أليق بما ورد في الآثار من أمرهم".

وقال ابن كثير: " أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صمَاء عَيّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر، يقال لها: الكَاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عُشَراء تَمْخَضُ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طُلْبتهم ليؤمنن به وليتبعنه؟ فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح، عليه السلام، إلى صلاته ودعا الله، ﷻ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جَوْفاء وَبْرَاء يتحرك جنينها بين جنبيها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو: "جُندَع بن عمرو" ومن كان معه على أمره وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم "ذُؤاب بن عمرو بن

=

=

لبيد" "والحباب" صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلهس، وكان ل"جندع بن عمرو" ابن عم يقال له: "شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس"، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يسلم أيضا فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود، يقال له مهوس بن عنمة بن الدميل، رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكانت عُصْبةٌ من آل عَمْرو | إلى دين النبيّ دَعَوا شِهَابا

عَزيزَ ثَمُودَ كُلَّهمُ جميعا | فَهَمّ بأن يُجِيبَ فلو أجابا

لأصبحَ صالحٌ فينا عَزيزًا | وما عَدَلوا بصاحبهم ذُؤابا

ولكنّ الغُوَاة من آل حُجْرٍ | تَوَلَّوْا بعد رُشْدهم ذئابا".

قال أبو الطفيل: " قالت ثمود لصالح ائتنا بآية إن كنت من الصادقين: قال: فقال لهم صالح، اخرجوا إلى هضبة من الأرض فخرجوا، فإذا تمخض كما تمخض الحامل، ثم إنها تفرجت فخرجت من وسطها الناقة فقال لهم صالح: {هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله}، إلى قوله: {عذاب أليم... لها شرب ولكم شرب يوم معلوم}".

عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة أنه حدث: " أنهم نظروا إلى الهضبة حين دعا الله صالح بما دعا به تمخض بالناقة تمخض النتوج بولدها فتحركت الهضبة، ثم انتفضت فانصدغت، عن ناقة كما وصفوا جوفاء وبراء، نتوجا ما بين جنبيها لا يعلمه إلا الله عظما".

قال الرازي: فإن قيل: ما الفائدة في تخصيص تلك الناقة بأنها ناقة الله؟

قلنا: فيه وجوه: قيل أضافها إلى الله تشريفًا وتخصيصًا كقوله: بيت الله، وقيل: لأنه خلقها بلا واسطة، وقيل: لأنها لا مالك لها غير الله، وقيل: لأنها حجة الله على

=

=

القوم.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (لكم آية) أي: علامة تدل على قدرة الله؛ وإنما قال (لكم) لأنهم هم الذين اقترحوها، وإن كانت آية لهم ولغيرهم.

وفي وجه كونها آية قولان.

أحدهما: أنها خرجت من صخرة ملساء، فتمخَّضت بها تمخُّضَ الحامل، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها.

والثاني: أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم، وتسقيهم اللبن مكانه.

قوله تعالى: {فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ} [الأعراف: ٧٣]، أي: " فاتركوها تأكل في أرض الله من المراعي، فلا عليكم من مئونتها شيء".

قال القرطبي: " أي: ليس عليكم رزقها ومئونتها".

وقال أبو حيان: قوله تعالى (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ الله) لما أضاف الناقة إلى الله أضاف محل رعيها إلى الله، إذ الأرض وما أنبت فيها ملكه تعالى لا ملككم ولا إنباتكم، وفي هذا الكلام إشارة إلى أن هذه الناقة نعمة من الله ينال خيرها من غير مشقّة تكلف علف ولا طعمة، وهو شأن الإبل كما جاء في الحديث قال فضالة الإبل، قال مالك: ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها.

قال السدي: " فسألوا يعني صالحا أن يأتيهم بآية فجاءهم بالناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم وقال: فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فأقروا بها جميعا فذلك قوله: فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فكانوا قد أقروا به على وجه النفاق".

قال محمد بن إسحاق: " فمكثت الناقة التي أخرج الله لهم معها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر، وتشرب الماء، فقال لهم صالح: هذه ناقة الله لكم آية فذروها

=

=

تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم".

- وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية.

قال تعالى عنهم أنهم قالوا (فأتنا بآية إن كنت من الصادقين).

وفي سورة الشعراء (فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

وقال تعالى (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا).

أي أن قوم ثمود طلبوا من صالح آية ناقة تخرج من صخرة عينوها، فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا.

- مبصرة: أي أن هذه الآية مبصرة: أي بينة تجعلهم يبصرون الحق واضحًا لا لبس فيه، دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها.

(فَظَلَمُوا بِهَا) أي كفروا بها وعقروها فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم.

كما قال تعالى (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

وقال تعالى (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ).

واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صمَاء عَيّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر،

قال ابن كثير: وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يومًا في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة، واشاروا إلى صخرة هناك، ناقة من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها، وأن تكون عشراء [أي مضى على حملها عشرة أشهر] طويلة من صفتها كذا وكذا، فقال لهم نبيهم صالح - عليه السلام -: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على

=

=

ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله ما قدر له ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا أو على الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلًا وقدرة باهرة ودليلًا قاطعًا وبرهانًا ساطعًا فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم.

قوله تعالى: {وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأعراف: ٧٣]، أي: " ولا تتعرضوا لها بأي أذى، فيصيبكم بسبب ذلك عذاب موجع".

وقال تعالى في سورة هود (فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ).

وقال تعالى في سورة الشعراء (وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

أي: لا تتعرضوا لها بأي نوع من أنواع الضرر، لا بالعقر ولا بالضرب، ولا بغيرهما، بل اتركوها ترعى وتستقي من فضل الله عليها وعليكم.

- قال الآلوسي: قوله تعالى (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء) نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى (وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم).

والتنكير للتعميم أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلًا كالطرد والعقر وغير ذلك. انتهى.

وسبب نهيهم: هو خوفه عليهم أن يكون سببًا في هلاكهم، ولعل الداعي له إلى نهيهم عن التعرض لها، هو معرفة نبي الله صالح أن القوم متمردون مصرون على كفرهم.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية، قال: " «الأليم»: الموجع في القرآن كله". قال ابن أبي حاتم: "وكذلك فسره ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك ابن مزاحم، وقتادة، وأبي مالك وأبي عمران الجوني، ومقاتل بن حيان".

=

=

قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ} [الأعراف: ٧٤]، أي: " واذكروا نعمة الله عليكم، إذ جعلكم تَخْلُفون في الأرض مَن قبلكم، من بعد قبيلة عاد".

قوله تعالى: {وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ} [الأعراف: ٧٤]، أي: " أي أسكنكم في أرض الحِجر".

قال الطبري: " يقول: وأنزلكم في الأرض، وجعل لكم فيها مساكن وأزواجًا".

قال السعدي: " أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون".

قال أبو عبيدة والزجاج: " {وَبَوَّأَكُم}، أي: أنزلكم، وزوّجكم".

قال الزجاج: " {وَبَوَّأَكُم}، أي: أنزلكم، قال الشاعر:

وبوّئت فى صميم معشرها فتمّ فى قومها مبوّؤها

أي: أنزلت من الكرم في صميم النسب".

قوله تعالى: {تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا} [الأعراف: ٧٤]، أي: " فتبنون في سهولها البيوت العظيمة".

قال السعدي: " أي: من الأراضي السهلة التي ليست بجبال، تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة".

قوله تعالى: {وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا} [الأعراف: ٧٤]، أي: " تنحتون الجبال لسكناكم".

قال مقاتل: " يعني: تبنون في الجبال من الحجارة بيوتا".

قال السدي: " كانوا ينقبون في الجبال البيوتَ".

قال الطبري: " ذكر أنهم كانوا ينقُبون الصخر مساكن".

قال الشوكاني: "قوله تعالى (وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتًا) أي: تتخذون في الجبال التي

=

=

هي صخور بيوتًا تسكنون فيها، وقد كانوا لقوّتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها، كهوفًا يسكنون فيها، لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم".

قال ابن عاشور: ومحلّ الامتنان هو أن جعل منازلهم قسمين: قسم صالح للبناء فيه، وقسم صالح لنحت البيوت، قيل: كانوا يسكنون في الصّيف القصور، وفي الشّتاء البيوتَ المنحوتة في الجبال.

قال السعدي: " كما هو مشاهد إلى الآن من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال".

قال الزجاج: " يروى أنهم لطول أعمارهم كانوا يحتاجون أن ينحتوا بيوتا في الجبال، لأن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم".

قال القرطبي: " اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم، فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم".

عن أبي صالح: " {وتنحتون الجبال بيوتا}، قال: حاذقين بنحتها".

قوله تعالى: {فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ} [الأعراف: ٧٤]، أي: " فاذكروا نِعَمَ الله عليكم".

قال مقاتل: " يعني: نعم الله في القصور والبيوت فتوحدوه".

قال الطبري: " يقول: فاذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم".

قوله تعالى: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الأعراف: ٧٤]، أي: " ولا تَسْعَوا في الأرض بالإفساد".

قال قتادة: " يقول: لا تسيروا في الأرض مفسدين".

قال أبو مالك: " يعني لا تمشوا بالمعاصي".

قال مقاتل: " يعني: ولا تسعوا فيها بالمعاصي".

قال السعدي: " أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن المعاصي تدع

=

=

الديار العامرة بلاقع، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم".

قوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ} [الأعراف: ٧٥]، أي: " قال السادة والكبراء من الذين استعلَوا -من قوم صالح- للمؤمنين الذين استضعفوهم، واستهانوا بهم".

قال الثعلبي: " يعني: الأشراف والقادة الذين تعظموا عن الإيمان بصالح عليه السلام {للذين استضعفوا}، يعني: الأتباع لمن آمن منهم".

قال مقاتل: " {لمن آمن منهم}، يعني: لمن صدق منهم بالتوحيد".

قال أبو مالك: " {الملأ}، يعني: الأشراف من قومه".

قوله تعالى: {أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ} [الأعراف: ٧٥]، أي: " أتعلمون حقيقة أن صالحًا قد أرسله الله إلينا؟".

قال السمعاني: " وهذا استفهام أريد به الجحد؛ لأنهم كانوا يجحدون إرساله".

قال الزمخشري: " قالوه على سبيل الطنز والسخرية".

قال ابن عطية: " قولهم: {أتعلمون}، استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف".

قال الآلوسي: والاستفهام في قوله جل شأنه (أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُّرْسَلٌ مّن رَّبّهِ) للاستهزاء لأنهم يعلمون أنهم عالمون بذلك، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر كما حكى سبحانه عنهم بقوله (قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) فإن الجواب الموافق لسؤالهم نعم، أو نعلم أنه مرسل منه تعالى.

ومن هنا قال غير واحد: إنه من الأسلوب الحكيم فكأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون.

- وقال ابن عاشور: ووَصْفُهم بالذين استكبروا هنا لتفظيع كبرهم وتعاظمهم على

=

=

عامة قومهم واستذلالهم إياهم.
وللتّنبيه على أنّ الذين آمنوا بما جاءهم به صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ هم ضعفاء قومه.
- وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: والاستفهام في (أتعلمون) للتشكيك والإنكار، أي: ما نظنّكم آمنتم بصالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عن علم بصدقه، ولكنّكم اتَّبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين، كما قال قوم نوح - عَلَيْهِ السَّلَامُ - (وما نَراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي) وفي ذلك شَوب من الاستهزاء.
قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٧٥]، أي: " قال الذين آمنوا: إنا مصدقون بما أرسله الله به، متَّبعون لشرعه".
قال الطبري: " يقول: مصدِّقون مقرّون أنه من عند الله، وأن الله أمر به، وعن أمر الله دعانا صالح إليه".
قال ابن عطية: " فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله فحملت الأنفة الإشراف على مناقضة المؤمنين في مقالتهم واستمروا على كفرهم".
قال محمد بن إسحاق: " فآمن به مخدع بن عمرو ومن كان معه على أزد من رهطه وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا ويصدقوا فنهاهم دؤاب بن عمرو بن لبيد، والحباب صاحب أوثانهم، ورباب بن ظمعن بن جلهس، وكان كاهنهم، وكانوا من أشراف ثمود، فردوا ثمود وأشرافها، عن الإسلام والدخول فيما دعاهم إليه صالح من الرحمة والنجاة، وكان لجندع ابن عم له يقال له شهاب بن خليفة بن مخلاة بن الوليد بن جواس، فأراد أن يسلم فنهاه أولئك الرهط، عن ذلك فأطاعهم، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها".
قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} [الأعراف: ٧٦]، أي: " قال الذين استعلَوْا".
قال الطبري: أي: " عن أمر الله وأمر رسوله صالح".
قوله تعالى: {إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [الأعراف: ٧٦].

=

=

أي: قال المستكبرون: نحن كافرون بما صدقتم به، من نبوة صالح، وإنما لم يقولوا (إنا بما أرسل به كافرون) إظهارا لمخالفتهم إياهم وردا لمقالتهم.

قال الرازي: وقال المستكبرون: بل نحن كافرون بما جاء به صالح، وهذه الآية من أعظم ما يحتج به في بيان أن الفقر خير من الغنى، وذلك لأن الاستكبار إنما يتولد من كثرة المال والجاه، والاستضعاف إنما يحصل من قلتهما، فبين تعالى أن كثرة المال والجاه حملهم على التمرد، والإباء، والإنكار، والكفر وقلة المال والجاه حملهم على الإيمان، والتصديق والانقياد، وذلك يدل على أن الفقر خير من الغنى.

قال الثعلبي: أي: " جاحدون".

قال أبو الليث: " أي: من رسالة صالح".

قال الطبري: **"** يقول: جاحدون منكرون، لا نصدِّق به ولا نقر".

قال الزمخشري: **"** فوضعوا {آمنتم به}، موضع «أرسل به» ردا لما جعله المؤمنون معلوما وأخذوه مسلما".

قال البيضاوي: قالوا ذلك" على وجه المقابلة".

قال أبو حيان: " فالذي آمنتم به هو من حيث المعنى بما أرسل به لكنه من حيث اللفظ أعم قصدوا الرد لما جعله المؤمنون معلوما وأخذوه مسلما".

قال أبو السعود: " وإنما لم يقولوا: «إنا بما أرسل به كافرون»، إظهارا لمخالفتهم إياهم وردا لمقالتهم".

قال صاحب "الانتصاف": ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، ولكن أبوا ذلك حذرا مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته، وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} [الشعراء: ٢٧]، فأثبت إرساله

=

=

تهكما، وليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين، والمكذبين، عن حاله، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة، احتياطا للكفر، وغلوا في الإصرار".

قوله تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ} [الأعراف: ٧٧]، أي: " فنحروا الناقة استخفافا منهم بوعيد صالح".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فعقرت ثمودُ الناقةَ التي جعلها الله لهم آية.. وهو من قولهم: "جبّار عاتٍ"، إذا كان عاليًا في تجبُّره".

عن قتادة: " أن ثمودا لما عقروا الناقة تغامزوا وقالوا عليكم الفصيل، فصعد الفصيل القارة جبلا حتى إذا كان يوما استقبل القبلة وقال: يا رب أمي، يا رب أمي يا رب أمي فأرسلت عليهم الصيحة عند ذلك".

قوله تعالى: {وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ} [الأعراف: ٧٧]، أي: " واستكبروا عن امتثال أمر ربهم".

قال الطبري: " يقول: تكبروا وتجبروا عن اتباع الله، واستعلوا عن الحق".

عن مجاهد: "{وعتوا}، علوا عن الحق، لا يبصرون". وفي رواية أخرى: " عتوا في الباطل وتركوا الحق".

عن ابن إسحاق: " {وعتوا عن أمر ربهم}، وأجمعوا في عقر الناقة رأيهم".

قوله تعالى: {وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: ٧٧]، أي: " وقالوا على سبيل الاستهزاء واستبعاد العذاب: يا صالح ائتنا بما تتوعَّدنا به من العذاب، إن كنت مِن رسل الله".

قال الطبري: " يقول: قالوا: جئنا، يا صالح، بما تعدنا من عذاب الله ونقمته، استعجالا منهم للعذاب إن كنت لله رسولا إلينا، فإن الله ينصر رسله على أعدائه، فعجَّل ذلك لهم كما استعجلوه".

=

=

عن قتادة: "أن صالحا قال لهم حين عقروا الناقة: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام قال لهم: إن آية هلاككم أن تصبح وجوهكم غدا مصفرة. ثم تصبح اليوم الثاني محمرة ثم تصبح اليوم الثالث مسودة. فأصبحت كذلك، فلما كان اليوم الثالث أيقنوا فتكفنوا وتحنطوا، ثم أخذتهم الصيحة فأهمدتهم".

قال ابن كثير: " فأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة، تشرب ماء بئرها يوما، وتدعه لهم يوما، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملئون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: {وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ} [القمر: ٢٨] وقال تعالى: {هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الشعراء: ١٥٥] وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فَجّ وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتضلَّع عن الماء، وكانت – على ما ذكر – خَلْقًا هائلا ومنظرًا رائعًا، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم واشتد تكذيبهم لصالح النبي، عليه السلام، عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها.

قال قتادة: «بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كلهم، أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضا».

قال ابن كثير: قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا} [الشمس: ١٤] وقال: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا} [الإسراء: ٥٩] وقال: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ} فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضا جميعهم بذلك".

عن عبد الله بن أبي الهذيل، قال: "لما عقرت الناقة صعد بكرها فوق الجبل فرغا فما سمعه شيء إلا همد".

قال ابن كثير: فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

=

=

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في قوله [ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب]، والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علمًا جازمًا، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

- فعقروا الناقة: كما قال تعالى (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

وقال تعالى في سورة الشعراء (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ).

الذي تولى قتلها منهم، هو قدار بن سالف.

قال تعالى (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)).

قال الشيخ السعدي:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) أي: بسبب طغيانها.

(إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا) أي: أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف لعقرها حين اتفقوا على ذلك.

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ) صالح عليه السلام محذرًا:

(نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا) أي احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها.

=

=

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِم) أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم فأصبحوا جاثمين على ركبهم لا تجد منهم داعيًا ولا مجيبًا.

- فإن قال قائل: لماذا قال (فعقروا الناقة) مع أن الذي تولى عقرها واحد؟

- قال القرطبي: إنما اضيف العقر إلى الكل، لأنه كان برضى الباقين.

- وقال ابن كثير: وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم.

- وقال الرازي: واعلم أنه أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة العظيمة: أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم.

- وقال ابن عاشور: ومقصدهم من نيّتهم إهلاك النّاقة أن يزيلوا آية صالح عليه السلام لئلا يزيد عدد المؤمنين به، لأنّ مشاهدة آية نبوءته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشِربها، ولأنّ في اعتدائهم عليها إيذانًا منهم بتحفزهم للإضرار بصالح عليه السلام وبمن آمن به بعدَ ذلك وليُرُوا صالحًا عليه السلام أنّهم مستخفّون بوعيده إذ قال لهم (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم).

- قالهم صالح لما عقروها ما أخبر تعالى عنه أنه قال (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ).

- لما سمعوا هذا التهديد قرروا قتل صالح.

قال تعالى (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠)).

=

=

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ) أي: وكان في مدينة صالح - وهي الحِجْر _ تسعة رجال من أبناء أشرافهم.
(يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ) أي: شأنهم الإفساد، وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة.
(قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ) أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا بالله.
(لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ) أي: لنقتلن صالحًا وأهله ليلًا.
(ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ) أي: ثم نقول لولي دمه ما حضرنا مكان هلاكه ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله.
(وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) أي: ونحلف لهم إنا لصادقون.
(وَمَكَرُوا مَكْرًا) أي: دبروا مكيدة لقتل صالح.
(وَمَكَرْنَا مَكْرًا) أي: جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم.
قال ابن كثير: وذلك أن الله أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم.
وقال ابن كثير أيضا: وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه - عياذًا بالله من ذلك - لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من اسفل منهم، ففاضت الأرواح وأزهقت النفوس في ساعة واحدة [فأصبحوا في دارهم جاثمين] أي صرعى لا أرواح فيهم.
قوله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [الأعراف: ٧٨]، أي: " فأخذت الذين كفروا

=

=

الزلزلةُ الشديدة التي خلعت قلوبهم".

قال الفراء والزجاج: هي الزلزلة الشديدة.

قال الشنقيطي: الرجفة هي الاضطراب الشديد، أي: رجفت بهم الأرض واضطربت اضطرابًا شديدًا.

ولا منافاة: فالظاهر أن الملك لما صاح بهم اضطربت الأرض من تحتهم فأهلكهم الله بهما جميعًا.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فأخذت الذين عقروا الناقةَ من ثمود {الرجفة}، وهي الصيحة".

وقد جاء في سورة «هود»: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ} [هود: ٦٧]، وفي سورة «فصلت»: {فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ} [فصلت: ١٧]، وفي سورة «الذاريات» {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} [الذاريات: ٤٤]، "والمراد بالجميع «الصاعقة»، فإن لنزولها صيحة شديدة القوة ترجف من هولها الأفئدة وتضطرب الأعصاب، وربما اضطربت الأرض وتصدع ما فيها من بنيان".

و «الرجفة»: من قول القائل: رجَف بفلان كذا يرجُفُ رجْفًا، وذلك إذا حرَّكه وزعزعه، كما قال الأخطل:

إِمَّا تَرَيْنِي حَنَانِي الشَّيْبُ مِنْ كِبَرٍ   كَالنَّسْرِ أَرْجُفُ، وَالإِنْسَانُ مَهْدُودُ

وإنما عنى بـ {الرجفة}، ها هنا: الصيحة التي زعزعتهم وحركتهم للهلاك، لأن ثمود هلكت بالصيحة، فيما ذكر أهل العلم.

قال مجاهد: "{الرجفة}، الصيحة". وروي عن السدي مثله.

قال الحسن: "{فأخذتهم الرجفة}: تحرَّكت بهم الأرض".

عن الحسن البصري -من طريق مَعْمَر، عمَّن سَمِعه- قال: لَمّا عقَرت ثمودُ الناقةَ ذهب فصيلُها حتى صَعِد تلًّا، فقال: يارَبِّ، أين أُمِّي؟ ثم رَغا رَغْوَةً، فنزَلتِ

=

=

الصيحةُ، فأخَذَتْهم".

عن قتادة -من طريق خليد-: "أنّ ثمود لَمّا عقروا الناقة تغامزوا، وقالوا: عليكم الفصيلَ. فصَعِد الفصيلُ القارَةَ -جبلًا-، حتى إذا كان يومًا استقبَل القبلة، وقال: يا ربِّ، أُمِّي، يا ربِّ، أُمِّي، يا ربِّ، أُمِّي. فأُرْسِلت عليهم الصيحة عند ذلك".

عن عبد الله بن أبي الهُذَيْل -من طريق أبي سنان- قال: "لَمّا عُقِرتِ الناقة صعِد بِكْرُها فوق جبل، فرَغا، فما سَمِعه شيءٌ إلا همَد".

قوله تعالى: {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: ٧٨]، أي: "، فأصبحوا في بلدهم هالكين، لاصقين بالأرض على رُكَبهم ووجوههم، لم يُفْلِت منهم أحد".

قال الطبري: " يقول: فأصبح الذين أهلك الله من ثمود في أرضهم التي هلكوا فيها وبلدتهم، سقوطًا صرعَى لا يتحركون، لأنهم لا أرواح فيهم، قد هلكوا".

عن أبي مالك قوله: "{في دارهم}، يعني: المعسكر كله".

عن ابن زيد، في قوله: "{فأصبحوا في دارهم جاثمين}، قال: ميتين".

والعرب تقول للبارك على الركبة: «جاثم»، ومنه قول جرير:

عَرَفْتُ المُنْتَأَى، وَعَرَفْتُ مِنْهَا مَطَايَا القِدْرِ كَالحِدَإِ الجُثُومِ

قال قتادة: "وذكر لنا أن صالحًا حين أخبرهم أن العذاب آتيهم، لبسوا الأنْطاع، والأكسية، وأطلُّوا، وقال لهم: آية ذلك أن تصفرَّ وجوهكم في اليوم الأول، وتحمرَّ في الثاني، وتسوَدَّ في اليوم الثالث".

قوله تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ} [الأعراف: ٧٩]، أي: " فأعرض صالح عليه السلام عن قومه -حين عقروا الناقة وحل بهم الهلاك-".

قال الزجاج: " أي: حين نزل بهم العذاب تولى عنهم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فأدبر صالح عنهم حين استعجلوه العذاب وعقروا ناقة الله، خارجًا عن أرضهم من بين أظهُرهم، لأن الله تعالى ذكره أوحَى

=

=

إليه: إنّي مهلكهم بعد ثالثة، وقيل: إنه لم تهلك أمة ونبيها بين أظهُرها، فأخبر الله جل ثناؤه عن خروج صالح من بين قومه الذين عتوا على ربهم حين أراد الله إحلال عقوبته بهم".

قوله تعالى: {وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي} [الأعراف: ٧٩]، أي: " وقال لهم: يا قوم لقد أبلغتكم ما أمرني ربي بإبلاغه من أمره ونهيه".

قال الطبري: يقول: "وأدّيت إليكم ما أمرني بأدائه إليكم ربّي من أمره ونهيه".

قال ابن كثير: هذا تقريع من صالح - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم، تقريعًا وتوبيخًا.

- قال ابن عاشور: "والتّولي الانصراف عن فراق وغضب".

قال السعدي: " أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم".

وفي قوله تعالى: (فتولى عنهم) فيه قولان:

الأول: أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا.

والدليل عليه أنه تعالى قال (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) والفاء تدل على التعقيب، فدل على أنه حصل هذا التولي بعد جثومهم.

- قال السمرقندي: ويقال: إنما قال ذلك بعد إهلاكهم، قال على وجه الحزن، إني قد أبلغتكم الرسالة.

وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: إن الله تعالى لم يهلك قومًا ما دام الرسول فيهم فإذا خرج من بين ظهرانيهم أتاهم ما أوعد لهم.

والثاني: أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ تولى عنهم قبل موتهم.

بدليل: أنه خاطب القوم (وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ)

=

=

وذلك يدل على كونهم أحياء من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه قال لهم (يا قوم) والأموات لا يوصفون بالقوم، لأن اشتقاق لفظ القوم من الاستقلال بالقيام، وذلك في حق الميت مفقود.

والثاني: أن هذه الكلمات خطاب مع أولئك وخطاب الميت لا يجوز.

والثالث: أنه قال (ولكن لا تحبون الناصحين) فيجب أن يكونوا بحيث يصح حصول المحبة فيهم.

- وقال القرطبي: قوله تعالى (فتولى عَنْهُمْ) أي عند اليأس منهم.

(وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ) يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم.

ويحتمل أنه قاله بعد موتهم.

كقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَتْلَى بَدْر (هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا" فقيل: أتكلم هؤلاء الجِيَف؟ فقال: "ما أنتم بأسمَع منهم ولكنهم لا يقدرون على الجواب).

والأوّل أظهر.

يدل عليه (وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ الناصحين) أي لم تقبلوا نُصْحِي.

قوله تعالى: {وَنَصَحْتُ لَكُمْ} [الأعراف: ٧٩]، أي: " وبَذَلْت لكم وسعي في الترغيب والترهيب والنصح".

قال الطبري: أي: " في أدائي رسالة الله إليكم، في تحذيركم بأسه بإقامتكم على كفركم به وعبادتكم الأوثان".

قال قتادة: " إن نبي الله صالحا أسمع قومه كما والله أسمع محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومه".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: ٧٩]، أي: " ولكنكم لا تحبون الناصحين، فرددتم قولهم، وأطعتم كل شيطان رجيم".

قال الطبري: يقول: " {ولكن لا تحبون الناصحين}، لكم في الله، الناهين لكم عن

=

=

اتباع أهوائكم، الصادِّين لكم عن شهوات أنفسكم".

قال ابن عطية: قوله تعالى (لا تحبون الناصحين) عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي، إذ كلام الناصح صعب مضاد لشهوة نفس الذي ينصح، ولذلك تقول العرب أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك.

وقال أبو حيان: قوله تعالى (لا تحبون الناصحين) أي: من نصح لك من رسول أو غيره أي: ديدنكم ذلك لغلبة شهواتكم على عقولكم.

وجاء لفظ (الناصحين) عامًّا أي: أيّ شخص نصح لكم لم تقبلوا في أي شيء نصح لكم وذلك مبالغة في ذمّهم.

قال السعدي: يقول" بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم".

قال ابن كثير: " أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا، وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فالله أعلم".

عن ابن عباس قال: «لما مر رسول الله ﷺ بوادي عُسْفان حين حَجّ قال: "يا أبا بكر، أيّ وادي هذا؟ " قال: هذا وادي عُسْفَان. قال: "لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بَكَرات حُمْر خُطُمها الليف، أُزُرُهم العبَاء، وأرديتهم النّمار، يلبون يحجون البيت العتيق"».

قال ابن كثير: «وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير، رَحِمَهُ اللَّهُ، وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة: أن امرأة منهم يقال لها: "عنيزة ابنة غنم بن مِجْلِز" وتكنى أم غَنَمْ كانت عجوزا كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذُؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: "صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا" ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل

=

=

الناقة، فدعت "صدوف" رجلا يقال له: "الحباب" وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: "مصدع بن مهرج بن المحيا"، فأجابها إلى ذلك - ودعت "عنيزة بنت غنم" قدار بن سالف بن جُنْدَع وكان رجلا أحمر أزرق قصيرًا، يزعمون أنه كان ولد زَنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه، وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له: "صهياد" ولكن ولد على فراش "سالف"، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئتَ على أن تعقر الناقة! فعند ذلك، انطلق "قدار بن سالف" "ومصدع بن مهرج"، فاستفزا غُواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} [النمل: ٤٨] وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها "قدار" في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها "مصدع" في أصل أخرى، فمرت على "مصدع" فرماها بسهم، فانتظم به عضَلَة ساقها وخرجت "أم غَنَمْ عنيزة"، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها، فسفرت عن وجهها لقدار وذمّرته فشدّ على الناقة بالسيف، فكسفَ عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رَغاة واحدة تحذر سَقْبَها، ثم طعن في لَبَّتها فنحرها، وانطلق سَقْبَها - وهو فصيلها - حتى أتى جبلا منيعًا، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا - فروى عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عمن سمع الحسن البصري أنه قال: يا رب أين أمي؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات. وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه، فالله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، بلغ الخبر صالحا، عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [هود: ٦٥]، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة

=

=

الرهط عزموا على قتل صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقالوا: إن كان صادقًا عَجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته!} قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا} الآية. [النمل: ٤٩ – ٥٢].

فلما عزموا على ذلك، وتواطؤوا عليه، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح، أرسل الله، سبحانه وتعالى، وله العزة ولرسوله، عليهم حجارة فرضَختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النَّظرة، ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحَنَّطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياذا بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب؟ وقد أشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورَجْفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة} فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ{، أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى – قالوا: إلا جارية كانت مقعدة – واسمها "كلبة بنة السّلْق"، ويقال لها: "الزريقة" – وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما رأت ما رأت من العذاب، أُطلِقَت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت، ماتت.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن اتبعه، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، إلا أن رجلا يقال له: "أبو رِغال"، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما في

=

=

الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحلّ، جاءه حجر من السماء فقتله.

وقد تقدم في أول القصة حديث "جابر بن عبد الله" في ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف" الذين كانوا يسكنون الطائف.

قال عبد الرزاق: قال مَعْمَر: أخبرني إسماعيل بن أمية؛ أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال: "أتدرون من هذا؟ " فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرمُ الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن". وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال: أبو ثقيف.

وقد روي متصلا من وجه آخر، كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بُجَير بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر فقال: "هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه. وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشم عنه أصبتموه معه فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن" »".

قال ابن كثير: "قوله تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)}، هذا تقريع من صالح، عليه السلام، لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العَمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثًا، ثم أمر براحلته فشُدّت بعد ثلاث من آخر

=

=

الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القليب، قليب بدر، فجعل يقول: «"يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان بن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا". فقال له عمر: يا رسول الله، ما تُكَلّم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: "والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون"».

وفي السيرة أنه، عليه السلام قال لهم: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم».

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه: {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ}، أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا؛ ولهذا قال: {وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}.

وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فالله أعلم".

قال السعدي: -معلقا على الأخبار التي وردت بعد عقر الناقة-: "واعلم أن كثيرا من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح وأنها تمخضت تمخض الحامل فخرجت الناقة وهم ينظرون وأن لها فصيلا حين عقروها رغى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه وأن صالحا عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى،

=

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)

{و} اُذْكُرْ {لُوطًا} وَيُبَدَّل مِنْهُ {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَة} أَيْ أَدْبَار الرِّجَال {مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنْ الْعَالَمِينَ} الْإِنْس والجن.

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١).

{أئنكم} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال الْأَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَفِي قِرَاءَة إِنَّكُمْ {لَتَأْتُونَ الرِّجَال شَهْوَة مِنْ دُون النِّسَاء بَلْ أَنْتُمْ قَوْم مُسْرِفُونَ} مُتَجَاوِزُونَ الْحَلَال إِلَى الْحَرَام.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ

=

لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحا قال لهم: {تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ} أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدا، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوقعت يوما فيوما، على وجه يعمهم ويشملهم احمرار وجوههم، واصفرارها واسودادها من العذاب.

هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟". فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه.

نعم لو صح شيء عن رسول الله ﷺ مما لا يناقض كتاب الله، فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [ص:٢٩٦] وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما".

(٨٢)

{وَمَا كَانَ جَوَاب قَوْمه إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ} أَيْ لُوطًا وَأَتْبَاعه {مِنْ قَرْيَتكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاس يَتَطَهَّرُونَ} مِنْ أَدْبَار الرِّجَال.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣).

{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْله إِلَّا امْرَأَته كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ} الْبَاقِينَ فِي الْعَذَاب.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤).

{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا} هُوَ حِجَارَة السِّجِّيل فَأَهْلَكَتْهُمْ {فانظر كيف كان عاقبة المجرمين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} [الأعراف: ٨٠]، أي: " واذكر -أيها الرسول- لوطًا عليه السلام حين قال لقومه".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا لوطًا حين قال لقومه من سَدُوم، وإليهم كان أرسل لوط".

قال القرطبي: "بعثه الله تعالى إلى أمة تسمى سدوم، وكان ابن أخي إبراهيم".

قال ابن كثير: " ولوط هو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل "سَدُوم" وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور. وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل "سَدُوم" عليهم لعائن الله".

قوله تعالى: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} [الأعراف: ٨٠]، أي: " أتفعلون الفعلة المنكرة =

=

التي بلغت نهاية القبح؟، وكانت فاحشتهم إتيان الذكران في أدبارهم".

قال الطبري: " كانت فاحشتهم التي كانوا يأتونها، التي عاقبهم الله عليها، إتيان الذكور".

قال ابن عطية: "والفاحشة هنا إتيان الرجال في الأدبار، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أمم قبلهم".

قال القرطبي: "ذكرها الله باسم الفاحشة ليبيِّن أنها زِنًى؛ كما قال تعالى (وَلاَ تَقْرَبُوا الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً)".

قوله تعالى: {مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٨٠]، أي: " ما فعلها مِن أحد قبلكم من المخلوقين".

قال الطبري: " يقول: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحد من العالمين".

قال السعدي: " فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضا".

قال عمرو بن دينار: " ما رُئي ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط".

قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: "لولا أن الله، ﷻ، قص علينا خبر لوط، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا".

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ} [الأعراف: ٨١]، أي: " إنكم لتأتون الذكور في أدبارهم، شهوة منكم لذلك، غير مبالين بقبحها، تاركين الذي أحلَّه الله لكم من نسائكم".

قال ابن عاشور: والشّهوة: الرّغبة في تحصيل شيء مرغوب.

قال أبو الليث: " أي: تجامعون الرجال من دون النساء، يعني: إن إتيان الرجال أشهى إليكم من إتيان النساء".

قال ابن كثير: " أي: عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال".

=

=

قال الثعلبي: " يعني: أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء".

قال القرطبي: " الاستفهام معناه التوبيخ، أي: تشتهونهم شهوة".

قال الطبري: " يخبر بذلك تعالى ذكره عن لوط أنه قال لقومه، توبيخًا منه لهم على فعلهم: إنكم، أيها القوم، لتأتون الرجال في أدبارهم، شهوة منكم لذلك، من دون الذي أباحه الله لكم وأحلَّه من النساء".

قال أبو حيان: " هذا بيان لقوله: {أتأتون الفاحشة}، و «أتى» هنا من قوله «أتى المرأة» غشيها، وهو استفهام على جهة التوبيخ والإنكار.. ولا ذم أعظم منه لأنه وصف لهم بالبهيمة وأنهم لا داعي لهم من جهة العقل كطلب النسل ونحوه".

قال أبو السعود: " قوله تعالى {شهوة} مفعول له أو مصدر في موقع الحال وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمة الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغي له أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لإقضاء الشهوة ويجوز أن يكون المراد الإنكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة كما ينبئ عنه قوله تعالى {من دون النساء}، أي: متجاوزين النساء اللاتي هن محل الاشتهاء كما ينبئ عنه قوله تعالى هن أطهر لكم".

وقرأ أبو عمرو: «آينكم»، بالمد بغير همز، وقرأ ابن كثير ونافع: «إنكم» بهمزة واحدة بغير مد. وقرأ الباقون بهمزتين بغير مد، ومعنى ذلك كله واحد وهو الاستفهام.

قوله تعالى: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} [الأعراف: ٨١]، أي: " بل أنتم قوم متجاوزون لحدود الله في الإسراف".

قال مقاتل: " يعني: الذنب العظيم".

قال أبو الليث: " أي: متعدون من الحلال إلى الحرام".

قال الثعلبي: يعني: "مشركون تبدلون الحلال إلى الحرام".

=

=

قال السمعاني: " أي: مجاوزون حد الأمر".

قال الطبري: " يقول: إنكم لقوم تأتون ما حرَّم الله عليكم، وتعصونه بفعلكم هذا".

قال ابن كثير: " وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء في غير محله؛ ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: {قَالَهَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [الحجر: ٧١] فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن،} قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} [هود: ٧٩]، أي: لقد علمت أنه لا أَرَبَ لنا في النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك.

وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنى بعضهن ببعض أيضًا".

قال الزمخشري: " أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعوا إلى اتباع الشهوات، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد. ونحوه: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [الشعراء: ١٦٦]".

قال أبو السعود: " إضراب عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بحالهم التي أفضتهم إلى ارتكاب أمثالها وهي اعتياد الإسراف في كل شيء أو عن الإنكار عليها إلى الذم على جميع معايبهم أو عن محذوف، أي: لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتم الإسراف".

و"الشهوة": وهي مصدر من قول القائل: شَهَيتُ هذا الشيء أشهاه شهوة، ومن ذلك قول الشاعر:

وأَشْعَثَ يَشْهَى النَّوْمَ قُلْتُ لَهُ: ارْتَحِلْ! إِذَا مَا النُّجُومُ أَعْرَضَتْ وَاسْبَطَرَّتِ

فَقَامَ يَجُرُّ البُرْدَ، لَوْ أَنَّ نَفْسَهُ يُقَالُ لَهُ: خُذْهَا بِكَفَّيْكَ! خَرَّتِ.

=

=

قال وهب بن منبه: "كان سدوم الذين فيهم لوط قوم سوء قد استغنوا، عن النساء بالرجال".

عن جامع بن شداد أبي صخرة، قال: "كانت اللوطية في قوم لوط في النساء قبل أن تكون في الرجال بأربعين سنة".

قال محمد بن إسحاق: "كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم، فعرض لهم إبليس في صورة شيخ، فقال: إن فعلتم بهم كذا نجوتم، فأبوا فلما ألح عليهم الناس قصدوهم فأصابوهم غلمانا صباحا، فأخذوهم وقهروهم على أنفسهم فأخبثوا واستحكم ذلك فيهم".

قال الحسن: "كانوا لا ينكحون إلا الغرباء".

وقال الكلبي: "إن أول من عمل عمل قوم لوط إبليس، لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان، أي: فتمثل لهم إبليس في صورة شاب، ثم دعا إلى دبره، فنكح في دبره، فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم وأمر الأرض أن تخسف بهم".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ} [الأعراف: ٨٢]، أي: " وما كان جواب قوم لوط حين أنكر عليهم فعلهم الشنيع إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطًا وأهله من بلادكم".

قال قتادة: "عابوهم واللهِ بغير عَيْب".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وما كان جواب قوم لُوط للوط، إذ وبَّخهم على فعلهم القبيح، وركوبهم ما حرم الله عليهم من العمل الخبيث، إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطًا وأهله".

قال الزمخشري: " يعنى: ما أجابوه بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط عليه السلام، من إنكار الفاحشة، وتعظيم أمرها، ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، ولكنهم جاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته، من الأمر بإخراجه ومن معه

=

=

من المؤمنين من قريتهم، ضجرا بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [الأعراف: ٨٢]، أي: " إنه ومن تبعه أناس يتنزهون عن إتيان أدبار الرجال والنساء".

قال الطبري: " يقول: إن لوطًا ومن تبعه أناس يتنزهون عما نفعله نحنُ من إتيان الرجال في الأدبار".

قال السمعاني: " معناه: يتنزهون عن أدبار الرجال".

قال قتادة: " عابوهم بغير عَيْب، وذمُّوهم بغير ذَمّ".

عن مجاهد: "{إنهم أناس يتطهرون}، قال: من أدبار الرجال وأدبار النساء".

وقال السدي: " يتحرَّجون".

قال ابن زيد: " من أعمالهم الخبيثة التي كانوا يعملون إتيانهم الرجال".

قال الزمخشري: " قولهم: {إنهم أناس يتطهرون}، سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخارا بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهد وأهله ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين".

قوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ} [الأعراف: ٨٣]، أي: " أنجيناه من العذاب الذي حلّ بقومه وأهله المؤمنين إلا امرأته فلم تنج".

قال صاحب المنار: " أي: فأنجيناه وأهل بيته الذين آمنوا معه، ولذلك استثنى منهم امرأته فإنها لم تؤمن به، بل خانته بولاية قومه الكافرين الفاسقين عليه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فلما أبى قوم لوط مع توبيخ لوط إياهم على ما يأتون من الفاحشة، وإبلاغه إياهم رسالة ربه بتحريم ذلك عليهم إلا التمادي في غيّهم، أنجينا لوطًا وأهله المؤمنين به، إلا امرأته، فإنها كانت للوط خائنة، وبالله كافرة".

=

=

قال ابن كثير: " يقول تعالى: فأنجينا لوطًا وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الذريات: ٣٥، ٣٦] إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتُعْلمهم بمن يَقْدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام، أن يُسْري بأهله أمر ألا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذابُ التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم".

قوله تعالى: {كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} [الأعراف: ٨٣]، أي: " فإنها كانت من الهالكين الباقين في عذاب الله".

قال مقاتل: " يعني: من الباقين في العذاب".

قال الزجاج: " أي: من الباقين في الموضع الذي عذبوا فيه".

قال أبو الليث: " يعني: من الباقين في الهلاك فيمن أهلكوا".

أخرج الطبري عن قتادة: "{إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} [الشعراء: ١٧١، الصافات: ١٣٥]، في عذاب الله".

واخرج ابن ابي حاتم عن قتادة: " {في الغابرين}، قال: في الباقين في عذاب الله".

قال صاحب المنار: " فكانت من جماعة الغابرين أي: الهالكين، أو الباقين الذين نزل بهم العذاب في الدنيا ويليه عذاب الآخرة".

قال الطبري: " يقول: من الباقين، وقيل: {من الغابرين}، ولم يقل: " الغابرات"، لأنه أريد أنها ممن بقي مع الرجال، فلما ضم ذكرها إلى ذكر الرجال قيل: "من الغابرين".

والفعل منه: "غبَرَ يَغْبُرُ غُبُورًا، وغَبْرًا"، وذلك إذا بقي، كما قال الأعشى:

=

=

عَضَّ بِمَا أَبْقَى المَوَاسِي لَهُ مِنْ أَمَةٍ فِي الزَّمَنِ الغَابِرِ

وكما قال الآخر:

وَأَبِي الَّذِي فَتَحَ البِلادَ بِسِيْفِهِ فَأَذَلَّها لِبَنِي أَبَانَ الغَابِرِ

يعني: الباقي".

وقال أبو عبيدة: " أي: كانت قد غبرت من كبرها فى الغابرين، فى الباقين حتى هرموا وهرمت، وهى قد أهلكت مع قومها فلم تغبر بعدهم فتبقى، ولكنها كانت قبل ذلك من الغابرين".

وقيل معناه: " من الغابرين في النجاة. حكاه الزجاج ، من قولهم: قد غبر عنا فلان زمانًا إذا غاب ، قال الشاعر:

أَفَبَعْدَنَا أو بَعْدَهُمْ يُرْجَى لِغَابِرِنَا الْفَلاَحُ

عن سعيد بن جبير، قال ابن عباس: " لما ولج رسل الله على لوط ظن أنهم ضيفان، قال: فأخرج بناته بالطريق وجعل ضيفانه بينه وبين بناته، قال: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ}، فقال: {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم} إلى قوله: {أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيد}، قال: فالتفت إليه جبريل، فقال: لا تخف {إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ}، قال: فلما دنوا طمس أعينهم فانطلقوا عميا يركب بعضهم بعضا، حتى خرجوا إلى الذين بالباب، فقالوا: جئناكم من عند أسحر الناس طمست أبصارنا، قال: فانطلقوا يركب بعضكم بعضا حتى دخلوا المدينة. فكان في جوف الليل، فرفعت حتى إنهم ليسمعون صوت الطير في جو السماء، ثم قلبت عليهم فمن أصابته الائتفاكة أهلكته، قال: ومن خرج منها اتبعه حجر حيث كان فقتله. قال: وخرج لوط منها ببناته وهن ثلاث، فلما بلغ مكانا من الشام ماتت الكبرى فدفنها، فخرج عندها عين يقال لها عين «الربة»، قال: سمعت ابن عباس يقول: «ربثا»،

=

=

قال: ثم انطلق حتى إذا بلغ مكانا آخر ماتت الصغرى، فدفنها، فخرج عندها عين يقال لها «الزغرية»، قال: سمعت ابن عباس يقول: «رغرثا»، قال: ولم يبق غير الوسطى".

قوله تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا} [الأعراف: ٨٤]، أي: " وعذَّب الله الكفار من قوم لوط بأن أنزل عليهم مطرًا من الحجارة".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وأمطرنا على قوم لوط الذين كذبوا لوطًا ولم يؤمنوا به، مطرًا من حجارة من سجّيل أهلكناهم به".

قال أبو الليث: " يعني: الحجارة، ويقال: أمطر بالعذاب ومطر بالرحمة. ويقال: أمطر ومطر بمعنى واحد".

قال ابن أبي زمنين: " يعني: الحجارة التي رمي بها من كان خارجا من المدينة في حوائجهم وأسفارهم".

قال السعدي: " أي: حجارة حارة شديدة، من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها".

قال صاحب المنار: " أي: أرسلنا عليهم مطرا عجيبا أمره، وهو الحجارة التي رجموا بها".

قال المراغي: الإمطار حقيقة فى المطر مجاز فيما يشبهه فى الكثرة من خير وشر مما يجئ من السماء أو من الأرض أي وأرسلنا عليهم مطرا عجيبا أمره وهو الحجارة التي رجموا بها، وجاء فى سورتى هود والحجر إنها حجارة من سجيل مسومة أي معلمة ببياض فى حمرة.

وقد يكون سبب إمطار الحجارة عليهم إرسال إعصار من الريح حمل تلك الحجارة وألقاها عليهم، أو أن تلك الحجارة من بعض النجوم المحطمة التي يسميها علماء الفلك الحجارة النيزكية وهى بقايا كوكب محطم تجذبه الأرض إليها إذا صار بالقرب منها، وهى تحترق غالبا من سرعة الجذب وشدته، وهى

=

=

الشهب التي ترى بالليل، فإذا سلم منها شئ من الاحتراق ووصل إلى الأرض ساخ فيها وكان لسقوطه صوت شديد، وقد وجد الناس بعض هذه الحجارة ووضعوها في دور الآثار".

قوله تعالى: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف: ٨٤]، أي: " فانظر – أيها الرسول– كيف صارت عاقبة الذين اجترؤوا على معاصي الله وكذبوا رسله".

قال أبو الليث: " أي: كيف كان آخر أمرهم".

قال السعدي: " الهلاك والخزي الدائم".

قال مقاتل: " يعني: قوم لوط كان عاقبتهم الخسف والحصب بالحجارة".

قال ابن كثير: **"** أي: انظر – يا محمد – كيف كان عاقبة من تجهرم على معاصي الله وكذّب رسله".

قال الطبري: **"** يقول جل ثناؤه: فانظر، يا محمد، إلى عاقبة هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله من قوم لوط، فاجترموا معاصيَ الله، وركبوا الفواحش، واستحلوا ما حرم الله من أدبار الرجال، كيف كانت؟ وإلى أي شيء صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك؟ فإن ذلك أو نظيرَه من العقوبة، عاقبةُ من كذَّبك واستكبر عن الإيمان بالله وتصديقك إن لم يتوبوا، من قومك".

قال وهب بن منبه: " فأدخل ميكائيل وهو صاحب العذاب جناحه حتى بلغ أسفل الأرض، ثم حمل قراهم فقلبها عليهم، ونزلت حجارة من السماء فتبعث من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا، فأهلكهم الله ﷻ ونجا لوط وأهله إلا امرأته".

* أرسل الله لوطًا عليه السلام إلى قومه وهم قرية سدوم ليأمرهم بعبادة الله وينهاهم عن الشرك، وينهاهم عن الفاحشة العظمى وهي اللواطة. ولوطٌ: هو لوطُ بنُ هارانَ ابنُ أَخِي إبراهيمَ.

أرسل إلى بلدُ سدوم والقرى التي حَوْلَهَا، وهي المعروفةُ بالمؤتفكاتِ؛ لأن

=

=

المؤتفكاتِ قُرَى قوم لوطٍ، والمؤتفكةُ بالإفرادِ يمكنُ أن يكونَ المرادُ بها جميعُ القُرَى؛ لأن مثلَ ذلك يُطْلَقُ عليه ما يُطْلَقُ على المؤنثةِ المفردةِ المجازيةِ التأنيثِ.
وقيل لقرى قومِه: (المؤتفكات) لأن جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفَكَهَا أي: قَلَبَهَا بهم فَاقْتَلَعَهَا من الأرضِ وَرَفَعَهَا إلى السماءِ جَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، كما قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) وجَعْلُ العالِي هو السافلَ هو معنَى القلبِ والأَفْكِ؛ لأن العربَ تقولُ: أَفَكَ الشيءَ يأفكه إذا قَلَبَهُ، ومنه سُمِّيَ أسوأُ الكذبِ (إِفْكًا) لأنه قلبٌ للحقيقةِ عن ظاهرِها الصحيحِ إلى شيءٍ آخَرَ بَاطِلٍ.
- ماذا قال لهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ؟
نهاهم عن الشرك، وعن فعل الفاحشة القبيحة (اللواط).
قال تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ).
وقال تعالى عنه أنه قال لهم (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ).
وقال تعالى في سورة النمل (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ).
وقال تعالى في سورة العنكبوت (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ...).
- والفاحشةَ في لغةِ العربِ أنها كُلُّ خصلةٍ متناهيةٍ في القبحِ تُسَمِّيهَا العربُ فاحشة، وكلُّ شيءٍ بالغ نهايتَه تُسَمِّيهِ العربُ فاحشًا.
وهذه الخصلةُ الخسيسةُ القبيحةُ هي فاحشةُ اللواطِ - قَبَّحَهَا اللهُ وقبحَ مرتكبَها.
ولذا أَنْكَرَهَا نبيُّ اللهِ لوطٌ عليهم، وَبَيَّنَ أنه مُبْغِضٌ لها غايةَ البغضِ في قولِه (إِنِّي

=

=

لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ) أَيْ: من الْمُبْغِضِينَ الكارهين أَشَدَّ البغضِ والكراهيةِ.

– فهي فاحشةٌ خسيسةٌ قبيحةٌ لم يَسْبِقْ إليها أحدٌ قَوْمَ لُوطٍ، كما قال هنا: (مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ).

– قوله تعالى في سورة النمل (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) اختلف في معنى (وأنتم تبصرون)

– قال الرازي: ففيه وجوه:

أحدها: أنهم كانوا لا يتحاشون من إظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لأجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر في توبيخه لهم ماله عظم ذلك الفعل.

وثانيها: أن المراد بصر القلب أي تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها وأن الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته.

وثالثها: تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم.

– وقال القرطبي: قوله تعالى (وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) أنها فاحشة، وذلك أعظم لذنوبكم.

وقيل: يأتي بعضكم بعضًا وأنتم تنظرون إليه.

وكانوا لا يستترون عتوًّا منهم وتمرّدًا.

قال في التسهيل: قوله تعالى (وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ).

قيل: معناه تبصرون بقلوبكم أنها معصية وقيل: تبصرون بأبصاركم لأنهم كانوا ينكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضهم من بعض، وقيل: تبصرون آثار الكافر قبلكم وما نزل بهم من العذاب

– قال ابن عاشور: وجملة (وأنتم تبصرون) حالٌ زيادة في التشنيع، أي تفعلون ذلك علَنًا يبصر بعضكم بعضًا، فإن التجاهر بالمعصية معصية لأنه يدل على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي.

=

=

(شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء) لأَنَّ النساءَ هُنَّ أزواجُكم اللاتِي خَلَقَهُنَّ اللهُ لكم، لِتَتَمَتَّعُوا بهن تَمَتُّعًا نزيهًا طاهرًا يكونُ عنه النسلُ وبقاءُ الجنسِ الآدميِّ، فَتَرَكْتُمْ هذا الأمرَ الطيبَ الكريمَ وهو إتيانُ النساءِ، وهي الأزواجُ التي خَلَقَهُنَّ اللهُ لكم، كما قال تعالى عنهم: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ).

(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) والإسرافُ مجاوزةُ الحدِّ؛ لأن اللهَ خَلَقَ لهم النساءَ وجعلَ فيهن الجمالَ، وركبَ فيهن الشهوةَ؛ لأن اللهَ إنما رَكَّبَ الشهوةَ في الرجالِ والنساءِ، الحكمةُ الكبرى في ذلك أن يقعَ التناسلُ ويبقى نوعُ الإنسانِ؛ لأن المرأةَ إذا كانت لا تَشْتَهِي الجماعَ لا يمكنُ أن تَقْبَلَهُ بحالٍ أبدًا، فلا يمكنُ أن يُرْغِمَهَا على قبولِ جماعِ الرجلِ لها إلا شهوتُها في ذلك الفعلِ، فلو كانت لا تشتهيه ألبتةَ لَمَا قَبِلَتْهُ أبدًا وَلَتَمَنَّعَتِ النساءُ عن ذلك الفعلِ فَانْقَطَعَ نسلُ بَنِي آدمَ، وكذلك الرجلُ إن كان لم يُرَكَّبْ فيه شهوةُ هذا الفعلِ لاَ يقبلُ ذلك الفعلَ أبدًا. فجعلَ اللهُ الشهوةَ في الرجالِ إلى النساءِ، وفي النساءِ إلى الرجالِ؛ لتجتمعَ الشهوةُ والشهوةُ فيقعُ بذلك التناسلُ، ويبقَى نوعُ الإنسانِ. فَمَنْ صَرَفَ الشهوةَ إلى غيرِ محلِّها وجعلَها في الذَّكَرِ أَسْرَفَ؛ لأنه جَاوَزَ الحدَّ وَوَضَعَ الأمرَ في غيرِ مَوْضِعِهِ؛ لأنه لو اقْتَصَرَ الرجالُ على الرجالِ وتركوا النساءَ لاَنْقَطَعَ النسلُ وانقطعَ بَنُو آدمَ وخرب الْعَالَمُ كُلُّهُ؛ ولذا قال: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ).

- بماذا وصف الله قوم لوط؟

وقد وصفهم الله بأوصاف عظيمه تدل على شدة تمردهم وطغيانهم، كالفسق، والظلم، والإسراف، والخبث. فقال تعالى كما هنا في سورة الأعراف (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ).

وقال تعالى (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ

=

=

الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ). وقال تعالى عن لوط (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ).

وقال تعالى (وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ).

- ماذا قالوا للوط لما نهاهم عن فعلهم القبيح؟

هددوه بالإخراج. قال تعالى في سورة الشعراء (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ).

وقال تعالى في سورة الأعراف (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ).

وقال تعالى في سورة العنكبوت (... فمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

(إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) قال قتادة، عابوهم بغير عيب.

وقال مجاهد (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) من أدبار الرجال وأدبار النساء. ورُوي مثله عن ابن عباس أيضًا.

- قال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء.

- قال الشوكاني: ووصفهم بالتطهر، يمكن أن يكون على حقيقته، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة، فلا يساكنونا في قريتنا، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء

- قريتكم: إغراء لإخراجه، لأن لوط جاءكم وليس من قريتكم.

- ماذا فعل قوم لوط لما سمعوا بمجيء ضيفان إليه؟

جاءوا مسرعين يظنونهم بشر ليفعلوا بهم الفاحشة - نعوذ بالله - وهم الملائكة جاءوا لإهلاكهم.

=

=

قال تعالى (وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ).

(وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا) وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا إبراهيم بالولد عليهم السلام.

قال ابن عباس رَضَِّالِلَّهُعَنْهُمَا: انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله.

(هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ) اختلف العلماء في معنى ذلك: قيل: بناته من صلبه.

وقيل: أشار بقوله (بَنَاتِي) إلى النساء جملة؛ إذ نبيّ القوم أب لهم؛ ويقوّي هذا أن في قراءة ابن مسعود: "النبي أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أنفسهم وَّأَزواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وهو أبٌ لهم".

قال الخازن: وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه: أن بنات لوط كانتا إثنتين وليستا بكافيتين للجماعة، وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار.

وقيل: إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه؛ روي هذا القول عن أبي عبيدة؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا.

وقال عِكرمة: لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا.

- هل آمن أحد مع لوط؟ نعم، آمن معه بناته فقط.

قال تعالى (فأنجينا لوطًا وأهله).

=

=

- **قال ابن كثير**: ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتُعْلمهم بمن يَقْدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم.

- ماذا طلب لوط من ربه؟ طلب أن ينجيه وأهله من هؤلاء الكفرة.

قال تعالى في سورة الشعراء (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ. فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ).

وقال تعالى (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ).

- كيف أهلك الله قوم لوط؟

رفع الله قراهم فجعل عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

كما قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ).

وقال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

وقال تعالى (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ).

- (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ) والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللهَ قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا خَرَقَهُ.

(مَّنضُودٍ) أي: مجعول بعضه فوق بعض.

(مسومة) أي: مجعولاً فيها علامة تميزها، قيل: على كل حجر اسم من يرمي به.

- بما وصف الله تعالى الحجارة التي رمى بها قوم لوط؟ وصفها بثلاثة صفات:

الصفة الأولى: كونها من سجيل.

الصفة الثانية: منضود.

=

=

الصفة الثالثة: مسومة.

قال تعالى (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ. مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

(من سجيل) قال الآلوسي: والسجيل الطين المتحجر لقوله تعالى في الآية الأخرى (حِجَارَةً مِّن طِينٍ) والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

والتحقيقُ: أن السجيلَ: أنه الطينُ؛ لأَنَّ اللهَ قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ) وخيرُ ما يُفَسِّرُ القرآنَ القرآنُ، إلا أنه طينٌ مشويٌّ بالنارِ، شديدُ الحرارةِ، لا يأتي على شيءٍ إلا خَرَقَهُ. (الشنقيطي).

(مَّنضُودٍ) أي: مجعول بعضه فوق بعض عند نزوله عليهم.

(مسومة) أي: مجعولًا فيها علامة تميزها، قيل: على كل حجر اسم من يرمي به.

- ما المراد بقوله (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)؟

اختلف العلماء على قولين:

القول الأول: أي وما هذه القرى المهلكة ببعيدة عن قومك (كفار قريش)، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون.

والثاني: الضمير يعود على الحجارة، أي: وما تلك الحجارة بشيء بعيد عن كل ظالم.

ورجحه ابن عطية.

- ماذا أمر الله بعد هلاك قوم لوط؟ أمر بالنظر والاعتبار.

قال تعالى (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ).

- قال الشنقيطي: العاقبةُ: هي ما يَؤُولُ إليه الأمرُ عقبَ الأمرِ الأولِ، وتؤولُ إليه الحقيقةُ في ثانِي حَالٍ.

والمجرمونَ جمعُ المجرمِ، والمجرمُ مرتكبُ الجريمةِ، والجريمةُ: الذنبُ الذي

=

=

يستحقُّ صاحبُه العذابَ والنكالَ، (فَانْظُرْ كَيْفَ) الحالُ التي يَؤُولُ إليها أمرُ المجرمينَ وعاقبتُهم، وهو الدمارُ والنكالُ، والعذابُ المستأصلُ المتصلُ بعذابِ الآخرةِ.

- ماذا أمرت الملائكة لوطًا عندما أرادوا إهلاك قومه؟ بالخروج هو وأهله ليلًا.

قال تعالى في سورة هود (قالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

وقال تعالى في سورة الحجر (فأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ).

- وقد جرت سنة الله أنه إذا أراد إهلاك قوم نبي عصوه أن يأمره بالخروج والانفصال عنهم، لينجيه ويستأصلهم.

(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) يذكر أن لوطًا عندما وعده الملائكة بهلاك قومه بقوله (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) استعجل نزول العذاب، فقال لهم: الآن، الآن، فقالوا له (أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ).

- وقد بين في آية اخرى أنه نزل بهم وقت الإشراق كما قال تعالى (فأخذتهم الصيحة مشرقين).

- هل كفر أحد من أهل لوط؟

نعم، زوجته، وهلكت مع قومها.

قال تعالى (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ).

قال تعالى (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ)

=

=

وقال تعالى (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

- (مِنَ الْغَابِرِينَ) أي: من الهالكين مع قومها، لأنها كانت ردءًا لهم على دينهم وعلى طريقتهم، في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله - عليه السلام - لا كرامة لها.

قال ابن كثير: إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتُعْلمهم بمن يَقْدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم.

(وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَك) يحتمل على قراءة النصب أن يكون مستثنى من قوله (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها، ويحتمل أن يكون من قوله (وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ) أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم.

قال ابن كثير: والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم.

(فائدة): اختلف العلماء في عقوبة اللواط على أقوال:

القول الأول: أنه عقوبته كالزاني (الرجم إن كان محصنًا والجلد لغير المحصن).

قال ابن القيم: وذهب الحسن، وعطاء، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والأوزاعي، والشافعي في ظاهر مذهبه، والإمام أحمد في الرواية الثانية عنه إلى أن عقوبته وعقوبة الزنا سواء.

أ-قالوا: لأن الله سماه فاحشة (أتأتون الفاحشة) كما سمى الزنا فاحشة في قوله (وَلا تَقْرَبُوا الزنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً) واشتراكهما في الاسم يدل على اشتراكهما في الحكم.

ب- ولأن كلًا منهما إيلاج محرم في فرج محرم، فيعطى حكمه.

القول الثاني: أن فيه التعزير.

وهذا مذهب أبي حنيفة. قالوا: لأنه معصية من المعاصي لم يُقدِّر الله ولا رسوله

=

=

فيه حدًا مقدرًا فكان فيه التعزير.

القول الثالث: أن عقوبته القتل مطلقًا (محصنًا أم غير محصن). وهو رواية عن الإمام أحمد.

قال ابن القيم: إنها أصح الروايتين، وهو مذهب مالك.

قال ابن القيم: فذهب أبو بكر الصديق وعلي وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وجابر بن زيد وعبد الله بن معمر والزهري وربيعة الرأي ومالك وإسحاق بن راهوية... إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنا، وعقوبته القتل بكل حال، محصنًا كان أو غير محصن.

لحديث الباب (مَنْ وَجَدتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَومِ لُوطٍ فَاقتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفْعُولَ به).

قال ابن القيم: إن الإمام أحمد احتجَّ بهذا الحديث.

وقد نقل ابن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم وغيرهم إجماع الصحابة على قتله.

قال ابن القيم: اتفق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، ولم يختلف فيه منهم رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فظن بعض الناس أن ذلك اختلاف منهم في قتله، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة رضي الله عنهم، وهي بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع.

والراجح أن عقوبته القتل مطلقًا.

- واختلف الصحابة في كيفية قتله:

فقيل: يحرق. وهذا قول أبي بكر وعلي وابن الزبير.

قال ابن القيم: حرق باللوطية أربعة من الخلفاء: أبو بكر الصديق، وعلي، وعبد الرحمن بن الزبير، وهشام بن عبد الملك.

وقيل: يرجم بالحجارة حتى الموت. وهو قول عمر، وعلي، وابن عباس.

=

=

وقيل: يرمى من أعلى بناء في البلد ثم يتبع بالحجارة. وهو مروي عن أبي بكر، وابن عباس.

والأظهر أن ذلك راجع إلى اجتهاد الإمام، حسب مصلحة الردع والزجر.

مسألة: حكم تسمية فاحشة قوم لوط بـ (اللوطية):

وتسمية الفاحشة باللوطية جائز لا كراهة فيه، وهي نسبة إلى قوم لوط، لا إلى لوط، فقوم لوط مركب تركيبا إضافيا، ولا يمكن تعريف الفاحشة إلا بالثاني؛ فأضيفت إليه - فإنها لو نسبت إلى الأول من المركب (قوم لوط)، لقيل في نسبتها: قومية، والفاعل قومي - كما ينسب إلى عبد قيس، فيقال: القيسي، ويقول ابن مالك:

وانسب لصدر جملة وصدر ما ... ركب مزجا ولثان تمما

إضافة مبدوءة بابن أو اب ... أو ما له التعريف بالثاني وجب

وقد وردت في بعض الأحاديث، وهي - وإن كانت لا تخلو من علل - الا أن مجموعها ورواية الرواة لها دليل على جواز إطلاق تلك اللفظة، ولو كانت تلك اللفظة منكرة؛ لأنكر أئمة العلل متون تلك الأحاديث؛ لورود لفظ يستقبحونه فيها، وإعلالهم لأسانيدها دون متونها دليل على عدم نكارة هذا الإطلاق.

وصح إطلاق اللفظة في كلام بعض الصحابة كابن عباس، وجاء عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهم، وجماعة من أجلة التابعين، واستفاضت على ألسنتهم؛ كابن المسيب وعطاء والحسن والزهري وأتباعهم ومن بعدهم من الأئمة الأربعة، ولم ينكرها أحد منهم.

وعليها يترجم كثير من الأئمة عند الكلام على فاحشة قوم لوط، فيعبرون عنها باللوطية أو حد اللوطي ونحو ذلك، كما ترجم على ذلك الترمذي والنسائي وغيرهما.

=

=

وإنما لم يسمها الله بذلك في كتابه؛ لأن الله حكى القصة حكاية عن تلك الحال، ولم يوصف هؤلاء القوم بقوم لوط إلا بعد هلاكهم لاعتبار الأمم بهم وقيام الحجة عليهم، فلم يكن حينها اسم نبي الله لوط علما عليهم يعرفون به، فلم يكونوا يقرون بنبوته، ولم يكن أكثر الناس ينسبونهم إلى لوط، فيقولون في حياتهم وحياة نبيهم: إنهم قوم لوط، وكان فعلهم يسمى فاحشة في كلام الله، وكلام نبيه لوط، لا في كلامهم، ثم بعد هلاكهم واعتبار الأمم بهم، لم يكن يسمون بعد ذلك إلا بقوم لوط، وفاحشتهم نسبة إلى اسمهم بعد شيوع تسمية الله والأمم لهم بقوم لوط.

وما جرى على ألسنة خير القرون واستفاض وشاع وذاع من غير نكير: لا ينبغي لأحد إنكاره: لأنه في حكم الإجماع، والتنزه عما أجمع خير القرون على جوازه وعدم إنكاره: لا يليق بمن عرف قدر خير القرون في العلم والديانة والورع وتعظيم الله وشعائره وتعظيم أنبيائه.

وقول الله تعالى: {وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين}، ذكر الله المطر والمراد به الحجارة؛ كما في قوله تعالى: {وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل} [الحجر: ٧٤]، وكانت الحجارة من طين؛ كما قال تعالى: {لنرسل عليهم حجارة من طين} [الذاريات: ٣٣].

وقد جعل الله عقوبة قوم لوط بجعل عاليها سافلها، وإمطار الحجارة عليها؛ كما قال تعالى: {فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود} [هود: ٨٢].

واختلف في عدد قوم لوط، وهل هم قرية أو قرى متقاربة؟ وليس في ذلك شيء مرفوع ثابت، وعن السلف عدد متباين جدا، والله أعلم بذلك.

* (تنبيه): استدل بظاهر عقوبة الله لقوم لوط في هذه الآية وغيرها من قال: إن

=

=

جزاء من عمل عمل قوم لوط الرجم، سواء كان بكرا أو ثيبا؛ لأن الله عاقبهم بقلب أرضهم ثم رجمهم.

وفي الاستدلال بهذه الآية على حد الرجم نظر؛ وذلك لأن الله عاقبهم لاستحلالهم لها، لا لمجرد الفعل؛ فقد كان منهم فعل الفاحشة وشيوعها زمنا قبل ذلك، ثم لما أعلنوها في نواديهم وشرعوها وعظموا ذلك وافتخروا به، أرسل الله إليهم رسولا، ثم عاقبهم لما عصوه.

ولا خلاف عند العلماء أن فاحشة قوم لوط أعظم من الزنى؛ ولذا لما ذكر الله فاحشتهم، قال: {لتأتون الفاحشة} [العنكبوت: ٢٨]، ولما ذكر الزنى، نكر الفاحشة؛ كما في قوله: {ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا} [الإسراء: ٣٢]، فالتنكير إشارة إلى أن الزنى فاحشة من جملة الفواحش، وعرف فاحشة قوم لوط؛ لبيان أنها شاملة لكل فحش، وقد سمى الله نكاح زوجه الأب فاحشة ومقتا وساء سبيلا، ولم يسم اللوطية مقتا؛ لأن آية نكاح زوجات الآباء في سياق العقود، وذلك يتضمن تشريعا واستحلالا، كما تقدم في سورة النساء عند قوله تعالى: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء} [النساء: ٢٢]، فهي مقت من جهتيها، سواء أكانت بعقد؛ فهو استحلال، أم كانت زنى؛ فهو إتيان ذات محرم.

* حكم من أتى امرأة أجنبية عنه في دبرها، فالأظهر: أنه لا يشابه حكم إتيان الذكران، وكلاهما كبيرة عظيمة، وفاحشة ممقوتة، ولكن الفواحش مراتب؛ وذلك أن أصل ميل الرجال للنساء فطرة، وأما ميل الرجال للرجال، فليس من الفطرة في شيء.

فإتيان الرجل امرأة أجنبية عنه من غير المكان المشروع فيه تعزير، وبعض العلماء جعله كحكم الزنى؛ وهذا ظاهر مذهب الأئمة الأربعة؛ وهو نص مالك في "المدونة"، والشافعي في "الأم"، وهو قول أبي يوسف ومحمد بن الحسن،

=

=

وللشافعي وأبي حنيفة قول بأنه تعزير لا يشبه حد الزنى.

الفهرس

